الدكتور حسين مؤنس

فَجْرُ الأَنْدَلُس

دراسة فى تاريخ الأندلُس من الفتحِ الإسْلامى
إلى قِيَامِ الدّولةِ الأُمويَّة (٧١١ - ٧٥٦م)

دار الرشاد

الناشـــــــر : **دار الرشـــاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٢٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٨٠٢٦ / ٢٠٠٥
الترقيـم الدولى : **977- 364 - 017 - 5**
جمع وطبع وغلاف : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٣٢٥١٠٤٣

الطبعـة الأولى : ١٩٥٩م
الطبعـة الثانية : ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م
الطبعـة الثالثة : ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م (الأولى للدار)
الطبعـة الرابعـة : ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م (الثانية للدار)
مـراجعة وفهـارس : **عادل أبو المعاطى**

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــــديم

بسْم الله الرَّحمن الرحِيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

وبعد ، فإن الحاجة ماسة إلى تاريخ عام للأندلس منذ الفتح الإسلامى إلى نهاية مملكة غرناطة ، مع دراسة لأحوال المسلمين الذين تخلفوا فيه بعد ذلك ، وما كان للأندلس الإسلامى المجيد من آثار باقية بعيدة المدى فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

وقد بدأت هذا الكتاب ، الذى أقدمه اليوم للقراء ،على نية أن أَسُدَّ به هذا الفراغ ؛ ولكنى لم أكد أمضى فى الدراسة حتى تبينت أن الإيجاز الذى تتطلبه التواريخ العامة يخفى معظم جوانب الجمال فى تاريخ هذا الفردوس الإسلامى المفقود ، إذ إنه كان قطراً فريداً فى بابه فى دولة الإسلام : أهله مزاج من عناصر أوروبية وأخرى شرقية ، وحضارته ثمرة تزاوج فكرى بين الشرق والغرب على نحو قَلَّ أن نجد له مثالاً فى بلد آخر من بلاد الإسلام ، وتاريخه لهذا عميق عريض ، تنفرد كل ناحية منه بخصائص ومميزات جديرة بالبحث والتأمل والإعجاب .

وهذه الخصائص لا تستبين إلا بالدرس المستأنى الصبور الذى يتعرض للمشاكل ويحاول حلها ، ويقف عند النواحى الغامضة ويجتهد فى أن يجليها ، ولا يستطرد عن العسير إلى اليسير ، ولا يقنع من التأريخ بالسرد والاسترسال . ولهذا فقد نزعت عن التأريخ العام إلى الدراسة المفصلة لعصر واحد من عصور تاريخ الأندلس ، هو عصر الولاة من قبيل الفتح العربى إلى قيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن بن معاوية الداخل .

وربما بدا للقارىء أننى ذهبت مع التفصيل إلى مداه ، حينما أنفقت قرابة السبعمائة

صفحة فى دراسة تاريخ خمس وأربعين سنة ، ولكنى أعتقد رغم ذلك أن هذه السنوات لا زالت فى حاجة إلى مزيد من التفصيل ، وكل فصل من فصول هذا الكتاب حقيق بأن يُوقف عليه كتاب كامل ، ولدينا المادة التاريخية لذلك .

وقد تبينا من تجاربنا فى دراسة تاريخنا الإسلامى أن السبب الأكبر فيما يشوبه من غموض ، وفيما يفضى بالكثير ممن تعرضوا للكتابة فيه إلى الزلل ، هو إهمال دراسة العصور الأولى ، وهى عصور قيام الدولة والمجتمع الإسلاميين وتكوُّن العناصر التى قامت عليها الدولة واستقرار الأسس التى استقام عليها المجتمع ، سواء أكانت هذه العناصر بشرية أم تنظيمية ، سياسية وإدارية أم فكرية تتصل بالإنتاج العقلى والفنى .

وإذا لم تظفر هذه العصور بحقها من العناية ، وإذا لم تُدرس على الأصول التى ينبغى أن تقوم عليها الدراسات ، لم يُؤْمَن الزلل فيما يكتب بعد ذلك من تواريخ العصور التى تليها ، وهـذا ظاهر فيما بين أيدينـا من كتب فى تاريـخ الإسـلام العـام أو تاريخ أقطاره : معظمها سرد واسترسال مع السهل الميسور من تسجيل الحوادث ، وسير مع تيار تاريخى لا يُعرف اتجاهه ولا مبتداه أو منتهاه .

ولهذا ، فقد رأيت فيما يتصل بتاريخ الأندلس أن أبدأ من حيث ينبغى أن يكون البدء ، وأن أنتفع بكل ما وصل إلىَّ من مادة تاريخية غزيرة ، وأن أتعرض للمشاكل وأحاول حلها على قدر ما تعين عليه المراجع والأصول . ويرى القارىء ذلك بصورة خاصة فيما كتبته عن عناصر السكان وأصول التنظيم الإدارى والمالى ، وقد اقتضانى ذلك أن أرجع بالأشياء إلى أصولها البعيدة الخافية فى ليل الزمان الطويل ، وربما تتبعتها فى تطورها عشرات السنين بعد العصر الذى يعنينى فى هذا الكتاب ؛ ولم يكن من ذلك مفر ، فإن ظواهر التاريخ لا تطفر من الأرض ، بل تنبع من أصول وتمضى فى خطوط تحددها الظروف والأحداث.وقد وصلت فيما تعرضت له من مشاكل إلى حلول أرجو أن تعين العاملين على تاريخ الأندلس خاصة والإسلام عامة فيما يتولون من دراسات .

وعلى أساس من النتائج التى انتهيت إليها فى هذا البحث ، أرجو أن أستطيع الوفاء بما وعدت به من كتابة تاريخ عام للأندلس الإسلامى المجيد .

ولابد أن أوجه الشكر فى هذا التقديم اليسير إلى الصديقين الأستاذين : مصطفى عبد المجيد صالح ، وحسن إيرانى ، فقد تفضل الأول بالإشراف على الطبع ، وشاء طموح الثانى - كناشر حريص على سمعة الكتاب العربى - أن يخرج الكتاب فى هذا الثوب الجميل . والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير الإسلام والعرب والمسلمين.

مدريد ، مارس ١٩٥٩

حسين مؤنس

الفَصل الأول

إسبَانيا قُبَيْل الفتح الإسْلامى

١ـ القــــوط الغربيون فى أواخـر أيامهم

فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يسيطروا على مصائر القسم الغربى من الدولة الرومانية ، ذلك أن الامبراطور تيودوسيوس كان قد وصل إلى عرش الامبراطورية معتمداً على تأييدهم وتأييد من انضم إليهم من طوائف المتبربرين من الآلان والهون وبقايا الوندال ، فجعل يهالئهم على أهل البلاد الأصليين من الرومان ، حتى إذا توفى تيودوسيوس سنة ٣٩٥ كان ألاريك قائد القوط الغربيين قد أصبح أقوى شخصية فى وسط أوروبا وغربها جميعاً .

وكان امبراطور الجزء الغربى من الدولة الرومانية « هونوريوس بن تيودوسيوس » قد عهد فى قيادة جيوشه إلى وندالى ماهر هو ستليخو ، وكان ألاريك يحسده وينازعه ويود لو حل محله ، وكان ستليخو يعرف أطماع ألاريك ومن معه من القوط الغربيين ويحاول أن يدفع عن الدولة شَـرَّه وشرهم ، ولكن هونوريوس تخلى عن قائده واتهمه بالخيانة وأعدمه فى سنة ٤٠٨ ، وبهذا أزال من وجه ألاريك القوة الوحيدة التى كانت قمينة أن تحول بينه وبين إيطاليا لو أراد غزوها ، ولم يكذِّب ألاريك أن جمع جنده وتحرك نحو الغرب ، وخاف هونوريوس شره فغادر روما وتحصن فى رافنا فى شمالى إيطاليا ، وأخذ ألاريك يهاجم روما المرة بعد المرة وأهلها يدفعونه عن أنفسهم بالمال مرة وبالجند مرة أخرى ، ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الهزيمة ، فاقتحم ألاريك ومن معه من القوط الغربيين المدينة الخالدة سنة ٤١٠ ، وأصبح غرب أوروبا جميعه تحت رحمته ، فأخذ يخرب شمالى إيطاليا تخريباً سيئاً ، ولم ينقذ إيطاليا من مساءاته إلا موته بعد ذلك بقليل(١) .

وخلفه فى قيادة القوط الغربيين ومن معهم من شراذم المتبربرين أطاوولف ، فجرى على منواله وأنزل بإيطاليا بلاء شديداً ، ثم اتجه بجموعه نحو غالة ، وعبر إلى إسبانيا وأخذ ينازع من استقر فيها من القوط الشرقيين ومن معهم من السويف والوندال ، واضطرت الدولة آخر الأمر إلى مهادنة أطاوولف وإقراره فى الجزء الجنوبى من غالة فى الإقليم المحيط بتولوز (طولوشة) سنة ٤١٦-٤١٨ م .

---

(١) FERDINAND LOT . La fin du monde Antique et le dèbut du moyen-âge . (Paris, 1927) pp. 233-242 .

وكانت جماعات القوط الشرقيين المستقرة فى إسبانيا فى ذلك الحين قليلة العدد ، وكان مقامها فى الزاوية الشمالية الشرقية جنوبى جبال البرت (التى تعرف خطأ بالبرانس) ، أما السويف والوندال فكانوا أكثر عدداً ، وكانوا قد استقروا فى الركن الشمالى الغربى فيما يعرف بجليقية وأشتورياس (أو أشتريس) ، وكانت الدولة قد سمحت لهم بالاستقرار فى هذه النواحى فى سنة ٤١١ ، واشترطت عليهم أن لا يغيروا على ما جاورهم من البلاد ، ولكنهم لم يراعوا هذا الشرط وروَّعوا بقية الجزيرة الأندلسية وجنوبى غالة بغاراتهم . وكان الوندال مسيطرين على شرق الجزيرة ووسطها ، ولم يكونوا أحسن حالاً من السويف والآلان ، فجعلوا هم الآخرون يغيرون على جنوبى غالة وحوض الرون ، وما زالت هذه الجموع المتبربرة تشتد فى أعمال التخريب حتى كادت تقضى على كل أثر للاستقرار والحضارة فى الجزيرة الإيبيرية كلها .

فلما أقرت الدولة أطاوولف وأصحابه القوط الغربيين جنوبى غالة سلطوهم على طوائف المتبربرين التى تسكن إسبانيا ، فأعلنوا عليها حرباً شعواء ، وارتد الآلان إلى مواقعهم الأولى وانحصروا على الساحل الشمالى المطل على خليج بسكاية ، وانحصر السويف فى الركن الشمالى الغربى الأقصى من شبه الجزيرة واستقروا هناك وانقطع شرهم .

وحاول الوندال المقاومة ، ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأزاحوهم نحو الجنوب ، فأقاموا قليلاً فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة المعروف بولاية بيطى (بيتيكا) الإغريقية القديمة ، وكانت لا تزال تحتفظ إلى ذلك الحين بآثار جليلة من الحضارة اليونانية المادية والفكرية ، وكان الوندال أجلافاً عتاة فلم يلبثوا أن قضوا على معظم ما وجدوا من آثار العمران والتحضر فى بيتيكا ، واضطر زعيمهم جَيْسَرك - أمام ضغط القوط الغربيين المتصل - إلى العبور إلى إفريقية سنة ٤٢٩ ، بعد أن خرب أمهات مدائن بيتيكا العامرة مثل هسباليس (سفيليا - إشبيلية) وكرتاجو نوفا (قرطاجنة) وجادِس (جوادِكس - قادش) ومُورجى (مرسية - مورثيا) وكُردُوبا (قرطبة - كوردفا) وغيرها ، وخلَّف هذا الإقليم العامر وراءه يباباً على عادة الوندال .

وقد بلغ من عمق الأثر الذى خلفه الوندال فى هذا الإقليم أن اختفى اسمه القديم «بيتيس » (الذى عرَّبه العرب إلى « بيطى ») وأصبح يسمى من ذلك الحين فاندالوسيا ، إقليم الوندال ، وعنه أخذ العرب لفظ « الأندلس » الذى أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة

كلها(١).

استقر القوط الغربيون فى شبه الجزيرة ، وأخذوا يمتدون فى نواحيها شيئاً فشيئاً ، وظهر فيهم بعد أطاوولف زعيم قادر هو « واليا » (Valia) استطاع أن يقرر سلطانهم فى نواحى الجزيرة كلها . ولم يكن جميع من تحت سلطانه من الجند قوطاً غربيين ، وإنما كانت فيهم أشتات من المتبربرين من كل جنس ، ولكنهم كانوا يدينون له جميعاً بالطاعة والولاء ، وكانت علاقته بالامبراطورية علاقة التابع أو الفَصَل ، فلما طمع إدواكر المتبربر فى حكومة الجزء الغربى من الدولة الرومانية ، وأقره الامبراطور البيزنطى زينون على حكومة إيطاليا فى الرابع من سبتمبر سنة ٤٧٦ ، كان معنى ذلك زوال الدولة الرومانية الغربية من الوجود وتحلل جميع أتباعها من المتبربرين من الولاء لها ، وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧) ، وهو يعد لذلك مؤسس دولة القوط الغربيين فى إسبانيا ، وسنكتفى بأن نسميهم القوط وحسب من الآن فصاعداً (٢).

٢ـ دولة القوط فى إسبانيا

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على شبه الجزيرة الإيبيرية كله ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمال جبال البرت ، وكان الرومان يعتبرون جنوبى غالة وشمالى إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربها إقليماً واحداً ، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم الواسع إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففتح إقليم لُشْدَانية (لوزيتانيا - البرتغال)وقرر فيه سلطانه ، ومد حدود مملكته إلى الجنوب وأدخل فيها إقليم بيطى (الذى يُعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ، وتابع جهوده فى شمال جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا ، وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبى ، وحكم شعبين كبيرين هما الغاليون الرومان (Gallo - romani) شمالى البرت والإسبان الرومان (Hispano - romani) جنوبيها . وكانا شعبين متحضرين يشتغل معظمها

(١) LÈVI - PROVENCAL . L'Espagne musulmane au Xe . siècle, pp. 18-39. THOMAS, W. ARNOLD . The Preaching of Islam (London, 1935) pp. 130-144.

(٢) GEORGE YVER . Euric, roi des Wisigoths (466 - 485) des Etudes d'Histoire du Moyen-âge dédiées à Gabriel Monod (Paris, 1896) pp . II-46

بالزراعة ، ويزيدان فى العدد على القوط مرات عديدة ، وكان معظم أهلها مسيحيين كاثوليك ، يسيطر على نفوسهم قساوسة خاضعون لسلطان روما وأسقفها الكبير(١).

وكان القوط مسيحيين آريين ، أى أنهم كانوا لا يعتقدون فى ألوهية المسيح ، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون للعذراء مكاناً ممتازاً فى العقيدة ، وكان لهم أسلوب خاص فى العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين وإيبيريين أن نفروا من حكمهم ، واجتهد القساوسة فى تقوية شعور النفور هذا ، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أى سلطان روحى على الناس . واشتد هذا النفور مع الأيام بسبب ما كان القوط يُنزلونه بالقساوسة من اضطهاد ، وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعاً ، فلما نهض كلوفيس زعيم الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن إقليم طولوشة (تولوز) الذى ظلوا يحكمونه مدى طويلاً ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً فى فوييه (Vouillé) شمالى بواتييه سنة ٥٠٧ وأجلاهم عن جل ما كان بيدهم من أراضى غالة ، فلم يبق لهم إلا إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة(٢).

بهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبيريا ، وأخذت علاقة شبه الجزيرة مع بقية العالم الأوروبى الواقع إلى الشمال تفتر ، ولما كان القوط قد وحدوا شبه الجزيرة كله تحت سلطانهم فقد أخذت « إسبانيا » تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى فى التاريخ . وذلك أمر له خطره ، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها وبعض : هى بيتيكا فى الجنوب وهسبانيا تَرَاكُونِنْسِسْ (إسبانيا الطركونية) وتشمل الوسط والشرق والشمال الغربى . ولوزيتانيا وهى غرب الجزيرة وناربونِنْسِسْ (ولاية نربونة) من حدود برشلونة إلى

(١) MANUEL TORRES . Historia politica del Reino de Tolosa en Historia de Espana de Menendez Pidál (Tomo III . Madrid 1940) pp . 70 Sqq .
BALLESTEROS , RAFAEL . Histoire d'Espagne des origines à nos jours (Paris ,1938) pp.35 -36.

(٢) GUERRA (A. FERNÀNDEZ) . Caida Y Ruina del Imperio Visigótico - espanol . Madrid , 1883 .
MANUEL TORRES . Las Invasiones Y Los Reinos germânicos de Espana en Historia de Espana editada de RAMON MENÉNDEZ PIDAL . Tomo III .pp.81-84

جبال الألب ، وكانت عاصمتها على أيامهم تراجونا (طَرَكُونة) جنوبى بركينو (برسينونا - برشلونة)(١) .

أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة كله بلداً واحداً ، واتخذوا عاصمة لهم بلداً متوسطاً يقع فى وسط شبه الجزيرة وهو « طليطلة » .

ولطليطلة موقع جغرافى سياسى هام تمتاز به عن طركونة عاصمة إسبانيا الرومانية وقرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية ، فهى على هضبة مرتفعة فى وسط شبه الجزيرة تقريباً ، يستطيع الحاكم منها مراقبة البلد كله والاتصال بأطرافه على سبيل أسهل مما يستطيعه الحاكم المقيم بقرطبة ، وهى تقع على صخرة عند منحنى من منحنيات نهر تاجه ، ولا يصل إليها العدو المهاجم إلا مجهداً بعد أن يعبر جبال قشتالة القاحلة فى الشمال وإقليمى الإسترامادورا والمنشا القاحلين الموحشين فى الجنوب ، ثم إن مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له ، لأنها موسطة البلاد وقلبها ، أما طركونة فبعيدة جداً عن الجنوب والغرب ، وقرطبة بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية ولوزيتانيا ، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يُوفقوا إلى حكم البلاد كلها تماماً ، وأن أشتريس وجليقية لم تخضعا لهم أبداً ، بل لم يدم سلطانهم على إقليم برشلونة ونواحى الغرب إلا خلال فترات قصيرة

---

(١) MANUEL TORRES op . cit. pp . 112 Sqq

LEGENDRE, MAURICE . Nouvelle Histoire d'Espagne (Paris,1938) pp . 66-67 .

قسم الرومان إسبانيا أول الأمر إلى قسمين يفصل بينهما خط غير محدد بالضبط يمتد من الدويره إلى قسطلة Gástulo (Cazlona) فى الأندلس . ثم قسمها أغسطس إلى ثلاث ولايات :

إسبانيا الشرقية	Tarraconensis
إسبانيا الجنوبية	Betica
إسبانيا الغربية	Lusitania

ثم أضاف كراكالا إلى هذه الولايات الثلاث ولاية جديدة تضم الشمال الغربى وتسمى (Gallaecia) ، أى إسبانيا الجليقية ، وعن هذا اللفظ أخذ العرب لفظ جليقية وسموا به الطرف الشمالى الغربى المسمى فى الإسبانية (Gal-licia) .

ولما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة الرومانية وقسمها إلى مديريات (Praefecturae) ، وقسم هذه إلى دوائر (Dio-cesis) ، وهذه بدورها إلى ولايات (provinciae) ، ضم إسبانيا إلى مديرية غاليا ، وجعلها دائرة تضم سبع ولايات :
Tarraconensis . Cartaginensis , Betica . Lusitania . Gallaecia , Balearica ,Tingtana .

أى : أنه أضاف إليها جزائر البليار وجزءاً من إفريقية هو مرطانية الطنجية ، وستظل مرطانية الطنجية مرتبطة بإسبانيا حتى الفتح الإسلامى .

Cf : BALLESTEROS, RAFAEL . Histoire d'Espagne , pp . 28 Sqq .

وانظر عن ذلك كله الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالتنظيم الإدارى والمالى .

جداً[١].

ولعل أظهر أثر لاستقرار القوط فى طليطلة هو تحوُّلهم إلى « إسبان » فى وقت قصير ، فى حين لم يصبح العرب إسباناً إلا بعد فترة طويلة ، لأن المقيم فى طليطلة تنقطع الصلات بينه وبين ما يلى البرت وما يلى الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إيبيريا ، أما المقيم فى قرطبة فتظل صلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشرق أوثق وأظهر من صلاته بجليقية وأشتريس ونواحى البرت ، وكان ذلك من أسباب الضعف الرئيسية فى دول المسلمين فى الأندلس[٢].

استطاع القوط من عاصمتهم طليطلة أن يفتحوا شبه الجزيرة كله ، ولكن سلطانهم لم يستقر فى البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد الإيبيريين من منازعات دينية وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهباً للحروب الأهلية وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال . وقد لقى نفر من ملوك القوط مصارعهم فى هذه الحروب ، وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى عرش إسبانيا فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها ، ولم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدخيل وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا بفضل معاونة حربية أمده بها جستنيان امبراطور بيزنطة فى سنة ٥٥٤ وانضم إليه أهل البلاد من الإيبيريين الرومان الكاثوليكيين ، واحتل المنطقة الواقعة بين الوادى الكبير وجُكَرْ (نهر شقر) ، وانفصل هذا الإقليم عن حكومة طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الآريين هو ليوفيجيلد (Liuvigild) (٥٦٨ - ٥٨٦) وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثوليكيين طول حياته ، وخلفه ابنه ريكاريدو (Recaredo) فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط فى هذه البلاد إلا إذا تخلى ملوكها عن الآرية ، ففعل ذلك وأعلنه فى مجمع طليطلة الدينى سنة ٥٨٧ : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة ، وبهذا أصبحت الكاثوليكية هى الديانة الرسمية فى إسبانيا من ذلك الحين . وهذا حادث خطير سيظل مؤثراً فى التاريخ الإسبانى كله ، فإن الكاثوليكية تأصلت فى أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوة ميل الإسبان للتشدد فى الإيمان والتعصب لكل ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً

(١) تناولنا هذه الناحية فى كتابنا : مقدمة جغرافية لتاريخ المسلمين فى الأندلس ، وهو يطبع الآن بمدريد .

(٢) LEGENDRE , MAURICE . Nouvelle Hist . d'Espagne , (Paris, 1938). pp . 66 -67

فى حياة الإسبان وفى مجرى تاريخهم كله(١).

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية فى البلاد ، وتوثُّق صلات إسبانيا بالبابوية ، وقد تفانى خلفاء ريكاريدو فى الولاء للبابوية تفانياً شجع البابوات على بسط نفوذهم الدينى - بل السياسى - فى البلاد ، وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه ، وأيده الشعب الرومانى الإيبيرى الذى لم يتخل عن الكاثوليكية بعد ذلك .

ومن هنا نفهم السر فى أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقلّ فى فترة من فترات التاريخ الإسبانى المسيحى عن نفوذ الملوك ، إن لم يزد عليه فى كثير من الأحيان . كان تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطى والإيبيرى الرومانى ، فقد ظلا متباعدين ما اختلفت عقيدتاهما الدينيتان ، فأما وقد اتفقا فى العقيدة فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنه لم يتم إلا على صورة مصغرة جداً ، لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم ، مما كان له أثر بعيد سيىء على مصير دولة القوط فى إسبانيا.

وكانت الملكية القوطية انتخابية ، أى أن نفراً من كبار أهل المملكة والأمراء كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم ، فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط ، ومن ثم لا غرابة فى أن يكون تاريخ القوط فى إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاغتيالات . ومهما حاول مؤرخو الإسبان - القدامى والمحدثون - أن يقللوا من شأن هذه الاضطرابات ، رغبة منهم فى الدفاع عن دولة القوط ، فإن الإنسان يستطيع أن يتتبع سلسلتها فى سهولة ويُسْر ، وأن يستبين أن العرب لو لم يتدخلوا فى سنة ٧١١ ، فى شئون الجزيرة ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب لبلغ القوط بإسبانيا مبلغاً من السوء لا يسهل تصوره(٢).

بيد أننا ينبغى أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفراً أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين خيرين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثل ششبرت

(١) MANUEL TORRES . Las invasiones y los reinos germônicos de Espana en Historia de Espana de RAMON MENÉNDEZ PIDAL Tomo III . (Madrid, 1940) PP. 109 Sqq .

(٢) BALLESTEROS, RAFAÉL . op . cit . p. 37 .

(Sisiberto ٦١٢ - ٦٢١) الذى أتم فتح شبه الجزيرة كله وشنداسفنتو (Chindaswinto ٦٤٩-٦٧٢) الذى ألغى التفرقة بين أجناس الشعب ، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الرومانى القديم الذى كان قد سنَّه الملك ألاريك الثانى والقانون القوطى الذى وضعه يوريك ، مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنَّبها مصاعب وخلافات شتى[١].

ولعل أكبر ملوك القوط هـؤلاء وامبا (Wamba ٦٧٢ - ٦٨٠) ، فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقى للقوط من الممتلكات شمالى جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نيمه (نيم) ، وأخمد ثورة أخرى دبرها باوْلُس أمير سبتمانية للانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً فأحبه الناس والتفوا حوله ، وبلغ من تعلُّق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من المعجزات والخوارق ، ومن هذه الخوارق واحدة نسجلها لأن المؤرخين المغربيين يسجلون مثلها لعبد المؤمن بن

---

(١) BALLESTEROS, RAFAÉL . op . cit . p. 37-39 .

وقد أخذت الصور العربية لهذه الأسماء القوطية مما وجدته فى المراجع العربية ، ولم تتحدث المراجع العربية عن ملوك القوط كثيراً ، ولم تذكر منهم إلا واحداً أو اثنين ، ولكنها ذكرت أشخاصاً لهم أسماء هؤلاء الملوك خلال فترة الفتح ، فأخذتُ عنها هذه الصور . وهذه المراجع العربية هى الأخبار المجموعة ، ونفح الطيب (انظر فهارس الأعلام فيها) ، ومرجعان عربيان : الأول مجهول المؤلف ، لم نعثر إلا على فقرات منه مترجمة إلى اللاتينية والإسبانية ، والثانى عثرنا على ترجمتين إسبانية وبرتغالية لجزء منه :

أ - فتح الأندلس : لمؤلف مجهول ، وقد نشره JOAQUIN DE GONZALEZ مع ترجمة إسبانية له تحت عنوان Relación de la conquista de Espana y de sus emires وقد استعمله سافدرا فى دراسته عن فتح الأندلس .

ب - La Crónica del Moro Rasis ، وهو تاريخ الأندلس المشهور للرازى ، وقد ضاعت النسخة العربية لهذا الكتاب ، ولم نجد إلا فقرتين صغيرتين منه باللغة الإسبانية ، الفقرة الأولى تتناول جغرافية الأندلس ، وقد نشرها وعلق عليها وأثبت صحتها بشكوال دى جايانجوس ، راجع :

PASCUAL DE GAYANGOS . Memoria sobre la Autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis ; Memorias de la Real Academia de la Historia , tomo VIII, 1850

وأما القطعة التاريخية منها فلاتينيـة ، ولم تنشر إلا سنة ١٨٩٢ ، إذ ترجمها سافدرا إلى الإسبانية وألحقها بدراسته عن فتح المسلمين للأندلس . انظر :

D. EDUARDO SAAVEDRA . Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana(Madrid,1892) ص ١٤٥ وما يليها ، وقد كان جايانجوس قد تعرض لها وأثبت قيمتها التاريخية فى تعليقاته على ترجمته لكتاب TICKNOR المسمى : تاريخ الأدب الإسبانى (جـ١ص ٥١٩) . وراجع كذلك تعليق سافدرا على الرازى وما بقى من كتابه فى كتاب سافدرا الآنف الذكر ، ص ٨ وما يليها . وقد عثر الأستاذ LUIS F . LINDLEY CINTRA البرتغالى على نص صحيح لترجمة القسم الجغرافى من تاريخ الرازى إلى البرتغالية ونشره ، وترجمه ليفى بروفنسال إلى الفرنسية :

CF:LÉVI-PROVENÇAL . La description de L'Espagne de Ahmad al - Razi Al-ANDALUS, 1953. fasc.I pp.51-108 .

على مؤسس الدولة الموحدية بعد ذلك بنحو ستة قرون ، وملخصها أن واما وقف بين يدى الأسقف فى الكنيسة لكى يلبس التاج ، فبينما هو فى هذا الموقف الرهيب إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه تطير فيه نحلة من ذهب(١).

وقد انتهى حكم وامْبا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حامديه ودس له من سقاه جرعة مخدرة لم يلبث بعد أن شربها أن غاب فى سبات عميق ، وحسبه الناس قد مات ، وهيئوه ليواروه التراب ، فبينما هم فى ذلك إذ عاد إلى رشده ، وبدلاً من أن ينهض لتأديب من ائتمروا به على هذا النحو الغريب ، ترك العرش للطامعين فيه ، وترهب وقضى بقية حياته فى الدير .

وعندما اعتلى غيطشة (Witiza)(٢) العرش فى نوفمبر سنة ٧٠٠ كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات المتوالية التى كان كبار القوط يدبرونها ، ولسنا نستطيع أن نتعرف حقيقة أمر هذا الملك الذى سيلعب أبناؤه دوراً عظيماً فى التمهيد للفتح الإسلامى ، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه فى الحكم ، مما حدا ببعض المؤرخين من أمثال ردريجو خيمنيث والأب ماريانا إلى جَعْله مسئولاً عن الفوضى التى أعقبت أيامه ويسَّرت للعرب القضاء على دولة القوط ، فى حين تصدى دوزى وفرناندث جرَّا Guerra وتايلهان للدفاع عنه وتبرئته مما نسبته إليه بعض النصوص(٣).

والظاهر أن هؤلاء الأخيرين على حق ، لأن معظم النصوص الإسبانية تثنى عليه ، وتؤكد أن أعداءه ومنافسيه هم المسئولون عما أصاب البلاد فى أواخر عصره من فوضى واضطراب ، وأنه حاول جهده أن يصلح الأمور فعفا عمن كان والده أخيكا(٤) قد أساء

(١) ذكر الرازى الملك « وامبا » فى صورة محرفة جداً هى Benete ، وإذا تصورنا أن هذا اللفظ يكتب بالعربية بنيه أو فنبه عرفنا كيف حدث هذا التصحيف . وقد امتدحه الرازى وقال إنه كان ملكاً حسناً جداً وعادلاً جداً ولم تسعد إسبانيا قبله أو بعده بملك مثله ، لأنه لم يسىء إلى أحد ، ولم تعرف إسبانيا أقوى منه ولا أكثر همة .
راجع : . SAAVEDRA. op. cit. apendice, p. 146

(٢) هذه الصورة العربية لاسم وِتِزا محرفة هى الأخرى تحريفاً ظاهراً ، وقد رسمه الرازى هكذا :Acosta أكوستا . وقد أتى التحريف من أن وِتِزا تنطق بالإسبانية القديمة فِتِسَّة أو فِطِسَّة أو فِيطِشة . وهذه الصور تعطينا قُسْطَه وهى Acosta التى أوردها الرازى وغيطشة التى أوردها مؤرخو العرب . وقد امتدحه الرازى كذلك وذكر أنه حاول أن يزيل مساوىء أبيه ، وأعطانا تفاصيل طيبة عن كفاحه مع كبار مملكته وشقائه بهم .
راجع : SAAVEDRA. op. cit . apendice p.147

(٣) SAAVEDRA op. cit. p. 25

(٤) رسم الرازى هذا الاسم Abarca أباركا ، ومرد هذا التحريف إلى خطأ فى الإملاء ، لأن نسخة الرازى التى بين يدينا أمليت على رجل لا يعرف العربية ولا يحسن الكتابة بها (راجع ملاحظات جايانجوس وسافدرا التى سبقت =

إليهم ، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط ، فكرهه هؤلاء وعوّلوا على القضاء عليه وعلى حكمه ، فأخذوا يثورون عليه فى نواحى المملكة ، واستمر يحاربهم ويحبط كل مناوراتهم ، فلما علت به السن عجز عن أن ينهض لكل واثب به مدبر عليه ، وتآمر عليه أهله ، واستطاعت زوجه أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبى وقَلِه (أخيلا Achila) وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش (Rechesin-do)[١].

وكان هذا الإعلان حافزاً للطامعين فى العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد فى التدبير على غيطشة ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته ليخلو لهم العرش يفعلون به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يألُ جهداً من جانبه فى القضاء على كل محاولة يقومون بها ، لأن النصوص تحدثنا أنه عاقب تيودفريدو دوق قرطبة بسَمْل عينيه ، ونفى ثائراً آخر اسمه بلايُه من البلاط[٢].

ويبدو كذلك أنه أساء الظن فى اليهود ، فاضطهدهم وأوقع بهم فى أواخر أيامه ، ولم يكن ذلك الاضطهاد بالجديد عليهم فى أيام القوط ، لأن الواقع - كما سنرى - أنهم لاقوا منهم عسفاً بالغاً متصلاً ، وأن الفتح العربى لو لم يكن قد أدركهم وأبقى على من أبقى عليه ظلم القوط منهم لما بقى لهم فى شبه الجزيرة الإيبيرية أثر . اتهمهم غيطشة بالتدبير عليه وبالتآمر مع من تسميهم النصوص الإسبانية « أهل ما وراء البحر Los transmarinos » ، وهو تعبير غير واضح ، لا يُفهم إن كان المراد به أنهم راسلوا بربر إفريقية أو يهودها أو العرب ، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة ، لأننا لا نملك دليلاً واحداً على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقية قبل الفتح الإسلامى ، وأما يهود إفريقية فكانوا وقتئذ فى محنة ، لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاهنة فى جبال الأوراس كانت إذ ذاك على أشدها ، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط[٣].

= الإشارة إليها) فكتب إبِقَه بدلاً من إجِقَه ، وعندما ترجمها الإسبان إلى الإسبانية عدلوا أبقة إلى أبرقة وهو اسم إسبانى معروف ، وعلى هذا الرسم وردت فى هذه النسخة الإسبانية من الرازى . راجع :.SAAVEDRA . op. cit apendice.p. 146.

(١) هذا الرسم عن ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ص٤ ؛ وهو يثنى عليه . أما الرازى فيحمل عليه حملة عنيفة.SAAVEDRA. op. cit. apendice p. 146 أما أخيلا فيكتبه الرازى أبرقة ، وقد سبق تعليل ذلك .

(٢) SAAVEDRA. op. cit. p. 29. وانظر المراجع المعطاة .

(٣) هذه المسألة غير واضحة الوضوح الكافى لأن النصوص القديمة لا تتحدث عنها بما فيه الكفاية ، فيقول لوقا التودى LUCAS DE TUY وهو من كتاب القرن الثانى عشر : iudalis immunitatum previlegia dedit (جـ١ فقرة ٣ من تاريخ العالم) ويقول : ردريجو خيمينيث RODRIGO XIMÉNEZ : =

ولسنا -على أى حال -بحاجة إلى البحث عن سبب لهذا الاضطهاد ، لأن الإسبان كانوا طوال تاريخهم من أقسى الناس على مخالفيهم فى الدين، وعلى اليهود خاصة . وكل ما يهمنا هنا هو أن هؤلاء اشتد بهم الأمر خلال السنوات الأخيرة للفترة القوطية ، حتى باتوا يرجون الخلاص عن أى سبيل . ويبدو أن غيطشة رجع عن سياسته تلك فى أخريات أيامه ، فأحب أن يرفع السخط عن اليهود ، وتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عنهم ، فلم يكد رجال الكنيسة يسمعون بذلك حتى سخطوا عليه ، وأخذوا يغرون الناس به ، حتى اشتد عليه سخط الناس ، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإيبيريين فى الوثوب به أو معاونة أول ثائر عليه(١).

فى هذا الظرف العصيب ، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال الدين والملك المسن والكبراء الطامعين ، مات غيطشة ميتة طبيعية فى أواخر سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩. وكانت هذه الأحزاب كلها تنتظر فرصة موته لينقض بعضها على بعض ، وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدهم ميلاً إلى الخلاف : ذلك أن غيطشة ترك من بعده زوجاً أرملة طامعة فى العرش ، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أبّه (Oppa) وكان أسقفاً لإشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيلا (رُمُله عند المقرى وابن القوطية وصحته وَقِله) وألمند (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس . أرطبان) ، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر سيلعب فيما يلى من الحوادث دوراً هاماً هو سيسبرتو (ششبرت ، سبرى ، سبسرة فى النصوص العربية) وتزعم أنه كان أخاً لغيطشة أو ابناً له ، ويذهب سافدرا إلى أنه لم يكن من العائلة ، وإنما من المتصلين بها وحسب(٢).

= revocavit iudaeos et maiori immunitatis quam ecclesias previlegiis honoravit (I, III, cap, XVII).

ولا يُشْتَمُّ من أى من هاتين الروايتين ما يفهم منه اتهام لليهود بالخيانة أو التعاون مع يهود إفريقية . وقد وردت عبارة التعاون مع « القوم الذين يسكنون فيما وراء البحر » فى نص الخطاب الذى ألقاه أخيلا فى المجمع الكنيسى السابع عشر ، وهى عبارة لا تكفى . ولا نعرف المراجع التى استمد منها DOM VISSETTE معلوماته التى يوردها عن هذا الموضوع فى كتابه Histoire de Languedoc جـ١،ص ٧٥٠ - ٧٥١ ، وعلى أى الأحوال فالثابت أن أخيلا اضطهد اليهود .

(١) SAAVEDRA. op. cit. p. 30 .

(٢) SAAVEDRA. op. cit. pp. 30-33 وتقول الأخبار المجموعة إن أبناء غيطشة كانوا اثنين فقط .
ششبرت (Siseberto) وأبّه (Oppa) : ص ٨ .
ونص الرازى مضطرب هنا اضطراباً شديداً جداً بحيث لم نستطع الاعتماد عليه .
ويكتب ابن القوطية رُمُلَه بدلاً من أخيلا ، وقد جعله بعضهم رومولوس ، وذهب سافدرا إلى أنه تحريف من وَقِلَه الذى هو أخيلا .

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبى مثل أخيلا ، وتخوف كثير منهم من مطامع الوصى رخشندش واستبداده ، فامتنع من أقام منهم فى طليطلة عن الطاعة ، واستقل بالأطراف والنواحى منهم من كان مقيماً فى النواحى والأطراف ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين ، وتعذر على الملكة وابنها المقام فى طليطلة ففرا منها . واستمرت هذه الفوضى نحو العام ونصف العام ، واستطاع الوصى أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار ، وتحبب إلى عامة أهل البلاد الرومان الإيبيريين من أهل المزارع والمدن ، واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب ، فاجتمع منهم نفر وائتلفوا ، واعتبروا أنفسهم « مجلس شيوخ وكبراء » له الحق فى أن يقرر شئون دولة القوط كما يرى ، ثم اختاروا واحداً منهم اسمه رودريكو – أو رودريك أو رودريجو (لذريق) – وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة ، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحدِّ السيف .

وتُجمع النصوص كلها على أن هذه الجماعة التى بايعت لذريق كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم ، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا إنقاذ دولة القوط وتقويم ما وَهَى من بنيانها ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن رخشندش أراد أن يستعين بالإيبيريين الرومان ليثبت أمر أخيلا ، استطعنا أن نستنتج من غير حرج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط ، بل كان فيها لون من ثورة أهل البلاد على القوط ورغبتهم فى التخلص من كبرائهم ونبلائهم .

ولعل هذا الاستنتاج يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخى الإسبان – قدامى ومحدثين – نفيه وإنكاره ، وهو أن دولة القوط لم تكن فى نظر أهل البلاد دولة قومية ، بل ظلت فى نظر غالبيتهم دولة أجانب لقى الناس فى ظلهم كثيراً من الأذى ، وحاولوا الخلاص منهم مراراً متكررة (١).

---

(١) MANUEL TORRES . Op. cit. p. 135. ويشير سيمونيت إلى ذلك إشارة غير واضحة وغير دقيقة ، فهو يقرر وجود حالة الثورة ورغبة الإيبيريين الرومان فى الخلاص من القوط ، ولكنه – على عهده من الدفاع عن القوط لأنهم كاثوليكيون – يلقى التبعة كلها على الشعب وعدم تقديره لفضل ملوكه عليه . وهو يقرر بالطبع خيانة اليهود دون أن يحقق مراجع التهمة . انظر :

FRANCISCO JAVIER SIMONET . Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid, 1897-1903) pp.4 Sqq.

والمراجع المعطاة . وراجع كذلك ص ١٠ وما يليها من نفس المرجع .

٢ـ لذريق

والخلاف شديد حول أصل لذريق هذا ، فمن قائل : إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلم ، ومن قائل : إنه ينحدر من أصلاب ملكية ، وأن جده الملك شنِداسفنتو ، ومن قائل : إنه ابن تيود فريدو دوق قرطبة الذى كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسَمْل عينيه . ومهما يكن من أمر فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة تُجمع على أنه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا ، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك فى قرطبة عاصمة ولايته(١).

ولم يَسِر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تريث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رخشندش ورجاله فى موقعة حاسمة ، وكان قد أعلن نفسه ملكاً فى «ربيع سنة ٧١٠ ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة جوادا ليتى (وادى بكه) بعام ، وكان ذلك فى السنة الخامسة من حكم الوليد فى دمشق » ، كما يقول « النص اللاتينى المجهول المؤلف » ، ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بطليوس ، دون أن يذكر لنا السبب فى الذهاب إلى ذلك البلد البعيد .

والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير فيه جِلَّة قواد القوط ونبلائهم ، وهزم رَخشَندش فى واقعة حاسمة قُتِل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه . وأما أبناء غيطشة فلم يجدوا مفراً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففروا إلى إفريقية وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش، والقانون القوطى يقضى بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش(٢).

ويبدو أن لذريق ظل يخشى طيلة حكمه القصير عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ومحاولتهم استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثم حرص على أن ينفر الناس منهم بالمبالغة فى تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعانه على ذلك القساوسة ، لأن غيطشة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على اليهود ، ومن ثم لا غرابة فى أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً هذا الملك وأولاده . وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء ، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء انضمام أولاد غيطشة للعرب ومعاونتهم فى فتح البلاد .

(١) FERNANDEZ GUERRA . Caida ... pp. 81. Sqq.

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 34 sqq

وقد تصدى نفر من المؤرخين الإسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، وذهبوا فى الدفاع عنهم إلى حد إنكار دورهم المعروف الثابت الذى قاموا به أثناء الفتح العربى ، ولسنا نستطيع تفسير هذه النزعة عند المحدثين إلا بما يُعرف عن الإسبان من مبالغة فى التسامى بوطنهم وأهله ، وعداء بعضهم للفتح الإسلامى وكل ما يتصل به ، ورغبتهم فى تنقية صفحات تاريخهم من كل ما يُشْتَمُّ منه رائحة التعاون مع المسلمين(١).

يبد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأولاده ، والإصرار على تبرئة لذريق من كل عيب وتصويره فى صورة بطل وطنى جاهد العرب عن بلاده ، وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولاً هو أقرب ما يكون إلى الصواب ، فإن الظاهر الذى لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا فى واقع الأمر جلة الشعب الإيبيرى الرومانى واليهود ، أى معظم أهل البلاد التى اقتحمها القوط عليهم(٢).

---

(١) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. ويستثنى من ذلك بعض المؤرخين الإسبان المحدثين مثل : BALLESTE-ROS. Histoire d'Espagne. p. 45. وهو يورد هذه الحوادث فى إيجاز شديد جدًّا .

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. p. 37. وكلامه فى هذه النقطة غامض غير واضح ، لأنه لا يستند إلى مراجع واضحة مفصلة ، وأهم مراجعه فرناندث جِرًّا فى كتابه Gaida Y Ruina ص ٨٢ وما بعدها ، وهو مرجع حديث .

ويناهض هذا الرأى سيمونيت فى تاريخ المستعربين ، ص ١٢ وما يليها . وسيمونيت إسبانى كاثوليكى متعصب جداً لوطنه ودينه ، وذلك هو عيب كتاباته الكثيرة .

والصورة التى يعطينا إياها عن الحال أيام لذريق جديرة بأن نعرضها ، لأنها لا تخلو من نفع ، فهو يقول : إن الشعب الإسبانى وجد نفسه تحت حكم غيطشة وخلال السنوات الأخيرة من حكمه على الخصوص ، منقسماً إلى حزبين كبيرين : حزب مناصر للملكية غيطشة القائمة ، ومن ثم فهو مؤيد من اليهود منصرف عن مصالح البلاد المعنوية والدينية، وحزب ثان مناهض لذلك مهتم بمصالح البلاد حريص عليها ، وكان هذا الحزب يميل إلى طرد اليهود من البلاد جملة ومناصرة الكاثوليكية مناصرة تامة . فأما الحزب الأول فكان حزب الأرستقراطية القوطية ، ولم يكن أفراده كاثوليكاً ولا آريين ، وإنما كانوا متشككين ملاحدة (كذا !) ومن كبار هذا الحزب أوباس (أبّة) أخو الملك وأسقف إشبيلية ، والنبلاء ششبرت ورخشندش (وربما كانا أخوين للملك نفسه) . وأما رجال الحزب الثانى فكانوا طائفة من كبار القوط المؤمنين يؤيدهم معظم أهل البلاد من الإسبان الرومان ، وأهل الصلاح والدين من سكان الجزيرة كلها وفى مقدمتهم تيود فريدو دوق قرطبة ، وخلفه فى زعامة الحزب ردريجو (لذريق) وكان معه بلايو (بلايُه) الذى قدر له أن يعيد دولة القوط بعد ذلك SIMONET . Historia de los Mozarabes , pp. 11-13

وليس لدينا دليل واحد على صحة ما يذكره من أن بلايو هذا هو نفس بلايو الذى سيفر أمام العرب ويتحصن فى جليقية ويعيد إنشاء دولة القوط .

SAAVEDRA. Op. cit. p.29

ومصداق ذلك أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له حتى مضى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطشة بكل شر ، ويصورونه للناس فى صورة جبار ظالم أراد بالناس وبالكنيسة كل أذى ، وأن لذريق لم ينهض إلا لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل من كان يلوذ بهم ، وقد أجاب رجال الدين طلبه ، فحفلت قرارات مجامعهم الدينية فى عصر لذريق بأسوأ الاتهامات لغيطشة وبنيه واليهود .

ومصداق ذلك أيضاً أن لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير يحارب الثائرين عليه فى كل ناحية ، وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس فى الشمال ، وطوائف من الثائرين فى الشرق والجنوب ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق من كان هؤلاء الثائرون عليه فى الجنوب ، وإن كان من المعقول جداً أن نزعم أنهم كانوا أنصار أولاد غيطشة ، وسنرى فى أثناء الفتح العربى ما يؤيدنا فى هذا الظن(١).

وربما كان من دلائل سوء الحال فى عهد لذريق أنه كان فى حاجة مستمرة مُلِحَّة للمال ، ولو كان قد حكم البلاد حكماً عادلاً منتظماً لما احتاج إلى إرهاق نفسه وإرهاق الناس ، لأن إسبانيا بلد غنى لا يحتاج إلا إلى الإدارة المنظمة حتى يفيض بالخير على أهله وحاكميه ، ولو كانت البلاد هادئة فى عصره لما اضطر إلى هذا الإرهاق ، ولكن البلاد كانت مضطربة فى عصره لا يكاد يطيعه من نواحيها إلا إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال هى التى دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية التى كان ملوك القوط قبله قد كدسوها فى كنيستى سان بدرو وسان بابلو، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة فى حجرتين مغلقتين فى الكنيستين ، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال حدَّثته نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر للانتفاع بها . وقد حذره القسس من أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يُصْغِ ، ومضى ففتح مستودع الذخائر ، ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر ، ويبدو كذلك أنه لم يجرؤ على أخذ شىء لأن رهبة المكان منعته من أن ينفذ ما أراد ، وتحدث الناس فى ذلك وتناقلوه حتى أصبح أسطورة فى أفواه الناس ، ورواها العرب على صورة لا تخلو من طرافة(٢).

---

(١) SAAVEDRA Op. cit. p. 47.
SIMONET. Op.cit. pp. 42. Sqq

(٢) SAAVEDRA . Op. cit. pp. 40-43. وقد أورد معظم مؤرخى المسلمين هذه الأسطورة ، انظر نفح الطيب (طبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد) جـ١ ص ٢٣١ وما بعدها .

وقد استطاع لذريق أن يقضى على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم بعد أن استمر يوالى غزوهم أشهراً متتابعة ، فلما ضاقت عليهم البلاد فكروا فى ناحية يستنصرون بها على هذا الطاغية الذى غصبهم عرش أبيهم وشردهم فى غير جناية ، وكان العرب قد فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق ، وانضم إليهم من البربر نفر كبير وأخذوا يتطلعون جميعاً إلى بلاد جديدة يفتحونها ويمدون رواق الإسلام إليها ، وتسامع أولاد غيطشة بهم فبعثوا الرسل إليهم يدعونهم إلى القدوم(١).

* * *

٤ ـ نظرة فى أحوال إسبانيا تحت حكم القوط(٢)

لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسبانى فى العصر الرومانى ظلت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسيطرة على الناس ، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء فى حال هى وسط بين الحرية والرق ، وظلت بقية أهل البلاد رقيقَ أرض أو عبيداً يشقون فى سبيل الأقلية الغنية المسيطرة .

وقد ائتلف الأغنياء مع القوط لكى يحتفظوا بأملاكهم ، واستقر نفر كبير من هؤلاء فى المزارع واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغلبيتهم تقيم فى المدن فى معسكرات تعيش من إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً ، ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة فى صناعة أو زراعة ، فظلوا غرباء عن البلاد فى الغالب ، ولم يخلفوا فيها من الآثار ما يمكن مقارنته بما خلفه الفرنجة فى فرنسا مثلاً(٣).

ولم تنعم البلاد فى حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأن العصر كله كان عصر اضطراب وفوضى فى أوروبا كلها ، لا فى إسبانيا وحدها ، وانهارت فى نواحى غرب أوروبا قواعد المجتمع الرومانى الثابت القديم الذى كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين فى الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدون عنها مالاً ، وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بواسطة

(١) SIMONET. Op.cit. pp. 12- 13
SAAVEDRA Op. cit. p. 43
(٢) درسنا هذه الناحية بتفصيل أوْفى فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالإدارة وشئون المال .
(٣) DOZY . Musulmans d'Espagne. I, pp. 253 Sqq.

الفلاحين الأحرار أو العبيد ، فلما طال الزمن واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض عاماً بعد عاماً نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكية .

فلما أقبل المتبربرون واستولوا على أراضى الدولة آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرض حق هؤلاء الزراع الأحرار فى أراضيهم للضياع ، وغصب المتبربرون من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها وأجبروه على زراعتها كأنه عبد أو قِنّ ، ولجأ بعضهم إلى مالك غنى مجاور تنازلوا له عن أرضهم فى سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين . وشاعت هذه الطريقة وعَمَّتْ ، ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة هى طبقة البوتشللارى (buccellarii) أى طبقة المحميين ، وكان القانون يعتبرهم أحراراً، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم جعلتهم فى الواقع فى مراتب التابعين والعبيد .

أقام القوط فى إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيدها الأشراف ومُلَّاك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء (optiates أوproceres) ، واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الرومانى القديم : ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم (provinciae) ومدن (civitates) ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت(comes) ، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين (tiumfadi أوcentenarii) يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية فى النواحى المالية والقضائية والحربية ، وكان هؤلاء الموظفون طبقات تختلف بحسب العمل الذى يقوم به كل منهم(١).

وكان الملك يحكم مستبداً ، أى منفرداً برأيه ، يقضى فى شئون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء يساعده فى كل شيء ، ولكن الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظل من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون فى الأحكام بما يريدون ، وكان المفروض أن يُنتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكن العادة جرت بأن يعتلى العرش أقواهم بحد السيف(٢) .

٥ ـ مجلس طليطلة

ولكن الدولة القوطية حوت فى نظامها عنصراً طيباً كان له أثر حسن فى سير الأمور فى دولة القوط ، ذلك هو « مجلس طُليطلة » الذى كان يجتمع

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES . Instituciones Economicas, Sociales y Politicoadministrativas de la Peninsula Hispanica durante Los siglos V-VII en Historia de Espana,III (Madrid,1940) P. 205 Sqq . BALLESTEROS . Histoire d'Espagne , p.39

(٢) BALLESTEROS. Op. cit. p. 39-40

بين الحين والحين للنظر فى أمور الدولة الكبرى ، وكان أصل هذا المجلس دينياً ، كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليكيين ، يعقدونه للنظر فى أمور كنيستهم ورعاياها ، فلما اعتنق الملوك الكاثوليكية فى عصر ريكاريدو أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك لعقده ويحضره كبار رجاله ، وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينياً ، يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية ، ويصدر القوانين والأحكام فى شتى القضايا ، ثم اتسع سلطانه وتناول القضاء ، وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضم مجلس النبلاء إلى المجلس الدينى وأصبحا مجلساً أعلى للدولة .

وقد كان الملوك أول الساعين فى توحيد المجلسين ، لأنهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوة ومهابة بالتصديق عليها من هذه الهيئة التى تضم كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة(١).

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سن أعضاؤها مع الزمن قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويسوى بينهم جميعاً: قوطاً وإيبيريين ، وهو المسمى (Fuero Juzgo)(٢) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب فى تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقر والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيىء المطلق بشئون الرعية.

٦ ـ المجتمع الإسبانى أيام القوط

والخلاف شديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسبانى خلال هذا العصر القوطى ، فمعظم الإسبان شديدو العصبية لهذا العصر يذهبون إلى أن الناس فيه كانوا يستمتعون برخاء ظاهر فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وأن الزراع والصناع كانوا فى رفاهية لا يكاد الحكام يعسفونهم فى شىء، وأن موارد البلاد كانت فى ازدياد ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكى يؤكدوا للقارىء أن النهضة التى حدثت فى ظلال الإسلام بعد

---

(١) BALLESTEROS. Op. cit. p. 40

(٢) عن اللاتينية Forum Judicum (القانون القوطى) أى مجموع القوانين القوطية ، وقد تكوّن فى مدى قرن ، وقد بدأه يوريك ، ثم أضاف إليه خلفه ألاريك الثانى مجموعة من القوانين الرومانية تسمى Breviarum وهو مختصر للقوانين التى كانت تطبق على الرومان ، ويعزى إلى شنداسفنتو الفضل فى مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منهما يطبق على الناس أجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعية عظيمة ، ولو طبقت على الناس لكانت سيرة القوط فى إسبانيا سيرة أخرى .

MAURICE LEGENDRE, Nouvelle Histoire d'Espagne .pp. 73. Sqq .

ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنها كانت البلاد سائرة فى طريقها على أى حال . ومن هؤلاء المؤرخين من يبالغ لكى يظهر للفرنسيين ومؤرخيهم أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأو الدولة الفرنجية فى عهد الكارولنجيين لو لم يفتح العرب بلادها ويحولوا بينها وبين إدراك هذه الغاية(١) .

أما حقيقة الحال فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، نعم إن الحال لم يبلغ من السوء هذا المبلغ المحزن الذى يصوره دوزى فى كتابه ، ولكنه كان سيئاً على أى حال، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقى فى عصور المسلمين . وذلك هو الرأى الذى يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم ، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يمارى فيها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطى الإسبانى قبيل الفتح العربى(٢) .

طبيعى ألا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الرومانى القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعى مقبول قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا فى أرضها ، ويستعيروا نظمها ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الرومانى المضمحل ، وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً .

وينبغى أن نقول أيضاً : إن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف المتبربرين الأخرى التى استقرت فى شبه الجزيرة حتى الوندال أنفسهم ، لأن الوندال كانوا لا يبهظون البلاد التى ينزلون فيها بتكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصى كل شىء وتتشبه بالرومان : كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساوىء هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعمَّ ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير والقِن الفقير إلى الغنى صاحب الضياع ، ولم يتدخل الوندال أو السويف فى مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفيهم ، كما رأينا، فعم بلاؤهم الناس أجمعين(٣) .

وقد ذهب الراهب الراوية باولوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس ، ولكن أوروزيوس كاتب كنسى ، ورجال الكنيسة لا يهتمون إلا بما يمس

(١) نفس المصدر السابق والصفحات عينها .

(٢) DOZY. Musulmans d'Espagne, I, pp. 258-259.

(٣) DOZY. Op. cit , I ,p. 258.

مصالحهم ، ولم تكن لهم عناية بشئون الناس وصغارهم خاصة كالزراع وأهل المدن . ومن هذا القبيل ما يؤكده راوية آخر من رواة هذا العصر هو سلفيان المرسيلى (Salvianus Marsallanus) من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية فى عهد القوط على ظلم الرومان ، ولكن الغالب أن كلامه هنا مُنْصَب على حكم القوط الشرقيين ، لأنه عاش فى كنفهم ، وكان القوط الشرقيون فى واقع الأمر خيراً من القوط الغربيين بكثير .

وينبغى أن نقرر هنا أن الرهبان كانوا راضين عن القوط بعد تحوُّل هؤلاء إلى الكاثوليكية ، وكانوا ساخطين على الناس لأنهم لم يكونوا يراعون أشراط الدين ، بل بقى معظمهم غير مسيحيين . وتلك حقيقة لا ينبغى أن نهملها من الحساب ، إذ الواقع أن الإسبان لم يكونوا جميعاً مسيحيين فى حكومة القوط ، بل ظل الكثير منهم وثنيين ، وقد وجدهم المسلمون كذلك ، وكان هذا مما يسر عليهم أمر كسبهم إلى الإسلام ، هذا على الرغم مما بذله نفر من قساوسة الكنيسة الكاثوليكية فى تحويل الناس إليها .

فقد قضى القس ماسونا (Masona) القوطى حياته كلها يبشر بالمسيحية فى نواحى الغرب وإقليم ماردة على الخصوص ، وهو الذى أوصل المسيحية إلى السويف وإلى نواحى جليقية ، والراهب لياندرو (Leandro) وكان مبشراً كاتباً مؤرخاً ، وإليهما يرجع الفضل فى ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من تأصل فى بعض النواحى ، حتى لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون[1].

لم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، إذا استثنينا ماسونا ، فقد كان حَبْراً إنسانياً حقاً ، بل لم يحاول واحد منهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، حتى إيزودور الإشبيلى نفسه على الرغم من علمه الواسع ونزعته الإنسانية ، لم ينكر الرق صراحة ، وإن كان قد قرر أن الناس كلهم متساوون أو يكادون أن يكونوا متساوين ، هذا فى حين أننا نجد راهباً آخر هو إيزودور الثيبابيدى (الصعيدى) يدهش من أن نصرانياً فى مصر يقتنى عبداً ، وهذا فى ذاته شعور جميل جدير بالذكر ولكنه لم يقترن بأى جهد إيجابى من شأنه أن ينفع هؤلاء العبيد ، وكان عددهم كبيراً جداً ، كان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة جافية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كل إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وباتوا

(١) MAURICE LEGENDRE . Op. cit. p. 73.

يترقبون فرصة الخلاص[١].

ولم يكن أوساط الناس ممن يسمون كوريالِس (Curiales) من أهل المدن والصناع وأحرار الزراع أحسن حالاً ، لأن ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شيء يعود بالخير على عامة الناس ، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يجعلهم فى مأمن من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أى لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوىء الاضطهاد الدينى بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حينما كانوا آريين ، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذى رأيناه فى أيام لذريق مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من هذا الحكم البغيض ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكى يبرروا عسفهم بهم ، والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد لأننا رأينا أنه من غير المعقول أن يحاول يهود إسبانيا الاتصال بيهود إفريقية فى ذلك الحين .

وحينما تقادم العهد بالقوط فى البلاد ، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة مالت بهم نفوسهم إلى الدعة ، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار فى الجيش . ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلائهم هى التى حفزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد فى الجيش ، لأن أعداد محاربى القوط القليلة توزعت بين الملوك والثائرين ، وكانت كثرة العبيد فى الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ساخطين على الدولة ينتظرون الفرصة للتخلى عنها وتركها لمصيرها[٢].

٧ ـ الحالة الثقافية

ولابد من إشارة قصيرة إلى حال الثقافة بألوانها فى البلاد قبل الفتح الإسلامى ، فهذه هى الناحية الوحيدة التى سيجد المسلمون فيها أساساً طيباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفن ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله وزاد عليه اليونان والرومان ، ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى الأمام ، ولعل فى هذا بعض ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكرى السريع الذى حققه المسلمون فى إسبانيا ، على قلة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة فى العالمين الإسلامى والمسيحى .

(١) DOZY. Musulmans d'Espagne, I. 265 .

(٢) DOZY. Musulmans d'Espagne, I. pp. 269

تأصلت المسيحية فى إسبانيا بأسرع مما تأصلت فى غالة مثلاً ، ولم يكد القرن السادس يهل حتى كانت البلاد تفيض بالديور يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتذاكرون، والكنائس يقوم بأمرها قسس معنيون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف ، وقد أشرنا إلى القس القوطى ماسونا (توفى سنة ٥٧١م) ونزعاته الإنسانية واجتهاده فى تهذيب المتبربرين ونشر مبادىء الأخلاق المسيحية فيهم . ومن هذا الطراز القديس ليانديرو المتوفى ٦٠٣م ، فقد كان دارساً مجتهداً ، وقد ترك لنا آثاراً فكرية طيبة : ومن آثاره رسالة مسيحية صوفية قريبة الشبه بكتابات القديس أوغسطين فيها زهد فى الدنيا وترغيب فى الكمال ، ومادتها مقتبسة من الإنجيل ولكنها طيبة جداً إذا عرفنا أنها كتبت فى القرن السادس ، وأنه كتبها وهو منفرد بنفسه فى نواحى ماردة ، وكانت إذ ذاك قفراً لا يسكنه إلا القليل[١].

وأكبر شخصيات هذا العصر مكاناً وأبقاها أثراً فى مستقبل البلاد الثقافى هو القديس إيزودور الإشبيلى (ISIDORO DE SEVILLA) ولم يكن قوطياً وإنما من الإيبيريين الرومان ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع فى كتبه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلاً مسيحياً ، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة ، وكتاباته تسلكه مع كتابات القديس أوغسطين فى سلك واحد ، وأعظم كتبه وأبقاها كتاب أصول الكلمات (Originum sive Etymologiarum) .

وربما وجدنا فيما يورده من أصول الكلمات أشياء أسطورية دينية لا يقبلها العقل ، ولكن الكتاب موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وهو يعالج فى الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة : النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، ثم يخص الطب بالجزء الرابع ، ويختص بالقانون والتاريخ الجزء الخامس ، ويجعل الجزء السادس للإنجيل وغيره من الكتب الدينية ، وهكذا يختص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء ، حتى الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازين والمكاييل والألعاب ، مما يجعل كتابه موسوعة غنية بكل غريب طريف ، تدل على أن جميع ألوان المعارف الإنسانية التى كانت معروفة فى ذلك الحين كانت موجودة متدارسة فى إسبانيا، وأن العرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً طيباً [٢].

(١) M. LEGENDRE. Nouvelle Hist. d'Espagne,p. 77.

(٢) أراد إيزودور أن ينشىء موسوعة تضم معارف عصره كلها وجعلها فى ٢٠ جزءاً ، الستة الأولى منها مقدمة =

ونستطيع أن نذكر إلى جانب القديس إيزودور عدداً عظيماً من القساوسة والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى ، منهم باولوس أوروزيوس قس لوزيتانية ، ولم يكن إسبانى الأصل وإنما كان صقلياً ، وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونه ، أخذ عنه العلم وتشبع بآرائه وهو لهذا يكتب على غراره : يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله، وقد حاول تقليد سنت أوغسطين فى كتابه « مدينة الله» (Civitate Dei) ، ونلاحظ هذا التشابه فى التاريخ العالمى الذى كتبه تحت اسم (Historiarum Libri vii contra paganos) الذى يفسر فيه التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ، ويصور العناية الإلهية توجه أعمال البشر والرسل يقودون الناس إلى أحسن مصير(١).

أما ما عدا الآداب من الفنون ، فإن القوط لم يخلفوا إلا ثروة معمارية فقيرة جداً ، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دبانيوس التى بنيت فى عصر رخشندش وجزء من كنيسة سان بدرو دِتارّاسا وبعض عمد باقية فى كنيسة سان بابلو دل كامبو فى برشلونة ، وينسب بعض مؤرخى الفنون العقد المخمس إلى القوط(٢).

وخلاصة القول أن إسبانيا القوطية لم تكن شراً كلها كما يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلها كما يزعم الإسبان ، وإنما كانت جوانبها الاجتماعية ضعيفة جداً ، بل تعد امتداداً للعصر الرومانى المضمحل . وذلك معقول ، لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدية لا تملك من الأسس الاجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كإسبانيا ومجتمع منشعب مختلف كمجتمعها الذى ضم أخلاطاً من كل صنف ، وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسى الرومانى فلم يوفقوا ، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه ، ولم يُصِب الناس من وراء ذلك إلا شر بالغ .

وأما الناحية الفكرية فكانت خيراً خالصاً ، لأن الذين قاموا بها كانوا هم الإسبان

= والباقية تتناول أصناف العلوم والفنون المعروفة فى عصره وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، منها كتاب عظماء الرجال (Liber de viris illustribus) والمدونة (Chronicon) وتاريخ ملوك القوط (Historia de Regibus Gothorum) وتاريخ ملوك الوندال والسويف (Historia de regibus Vandalorum et Suevorum)

انظر :

JUSTO PÉREZ DE URBEL. Las letras en la epoca visigoda en Historia de Espana, tomo III. Espana Visigoda (Madrid, 1940), pp. 401 Sqq .

(١) نفس المصدر ص ٧٢ .

(٢) BALLESTEROS. Op. cit . p. 41.

الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها ، فلا عجب أن ظهر فى هذا القطر النائى رجال من طراز إيزودور الإشبيلى وباولوس أوروزيوس ولياندرو ، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر فى عهود الرومان .

لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها فى هذه الناحية ، كما ستسبق إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامى فى نواح شتى من نواحى التفكير الإسلامى . ولعل مرد هذا إلى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه ، وليس من وحى المصادفة أن يتواتر السبق والنبوغ فى أهله من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولعل إيزودور الإشبيلى قد أحس فضل الوطن الإسبانى على ما وصل إليه من ذكاء وعلم واقتدار فعبَّر عن شكره لبلده فى أسطر تفيض رقة وحناناً ، يقول فيها مناجياً إسبانيا :

« أى إسبانيا ! إنما أنت أجمل الأرضين التى تمتد من أقصى الغرب حتى الهند ... إنك لأرض مباركة سعيدة بأمرائك ! إنك أم لشعوب عديدة ، وأنت ملكة الولايات أجمعين ... منك يقبس الغرب والشرق النور . وعلى أرضك يزدهر خصب الشعب القوطى المجيد.. »[1].

* * *

---

(١) MAURICE LEGENDRE . Op. cit. p. 78

الفَصل الثانى

فــتـح المغـــرب

٨ـ فتح المغرب

لم يدخل الشمال الإفريقى فى حوزة الإسلام بحرب واحدة ، بل بسلسلة من الحروب استمرت حوالى سبعين سنة متوالية ، بدأت ببعث استطلاعى قام به عقبة بن نافع فى ذى القعدة سنة ٢١هـ (سبتمبر ٦٤٢) وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموفقة التى أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠هـ (سنة ٧٠٨م) ، وقد لقى فيها العرب من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله فى فتح إقليم آخر ، حتى شمال الهند نفسه(١).

بيد أننا لو قارنا هذا الجهد الذى بذله العرب بسعة البلاد التى تم فتحها ووعورة أراضيها واختلاف أجناسها ، لتبينا أن العرب فتحوا هذه الأقطار المترامية بأيسر مما فتحها الرومان ، وأنهم وُفِّقوا إلى إخضاعها توفيقاً لا يكاد يقارن به توفيق الرومان فى العصر القديم أو توفيق الفرنسيين فى العصر الحديث ، وأن خسائر العرب كانت أقل بكثير جداً من خسائر هؤلاء وأولئك ، هذا فى حين كانت النتيجة التى وصل إليها العرب رائعة على غير مثال .

وقد علق جوتييه على ذلك بقوله : « لا زالت النتائج التى وصل إليها العرب (فى فتحهم الشمال الإفريقى) تدهشنا إلى الآن . لقد عُرِّب المغرب إلى حد كبير ، وتحول إلى الإسلام تحولاً تاماً عميقاً ، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب ، ما فى ذلك شك ، ولم توفق إلى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية (كذا) أخرى قامت على وجه الأرض ، ولنكرر القول أن هذا الفتح أحدث ، خلال القرن السابع ، ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق إغلاقاً محكماً من كل ناحية ، الذى كان يفصل الشرق عن الغرب . ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو المجهول بثوراتنا - الفرنسية أو الروسية مثلاً - لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جداً ، فإذا دفعنا تطلعنا إلى فهم الأسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى وإلى الإحاطة بتفاصيلها استبنَّا أن الفتح العربى كان طويلاً جداً وعنيفاً جداً ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة

(١) أوجزت فى الصفحات التالية فتح إفريقية اعتماداً على بحثى فى هذا الموضوع « فتح العرب للمغرب » - القاهرة ١٩٤٧ ، والبحث الذى نشره ليفى بروفنسال « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد - مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، وتعليقنا على كلام بروفنسال ونص عبيد الله .

عنيدة» (١).

هذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الفتح العربى للمغرب وعن ضخامة العمل الذى قام العرب به ومدوا خلاله رواق الإسلام بضعة آلاف من الكيلومترات ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسى . والثابت تماماً أن العرب لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينما أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءاً جزءاً : كل إقليم يؤدى بهم إلى الذى يليه حتى وصلوا إلى النهاية ، أما ما نجده عند بعض المؤرخين والجغرافيين من تصور صحيح للمغرب وأهله فقد كُتِب بعد تمام الفتح وإسلام المغرب بقرون(٢).

مر فتح العرب للمغرب فى ستة أدوار(٣) :

(١) E.F. GAUTIER Le passé de L'Afrique du Nord. pp. 247 - 248.

وبقية عبارة جوتييه فى هذا الصدد لا تقل عن هذه الفقرة أهمية ولا عمقاً ، فهو يقول مثلاً بعد استعراض سريع لخطوات الفتح العربى: « كان الفتح الفرنسى للجزائر طويلاً مؤلماً ، وكانت قيادته سيئة ، وليس لنا الحق فى أن نفخر به كثيراً . ولكن لنقارنه بالفتح العربى ، ولنفرض أنه بين سنتى ١٨٣٠و١٩٠٠ طُرد الفرنسيون من البلاد طرداً تاماً ثلاث مرات ، وأنهم لم يحتفظوا فى أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها – مدينة الجزائر تقابل عندنا القيروان عند العرب – ، إذا استطعنا تصور ذلك أخذنا فكرة عما حدث أثناء الفتح العربى ....» .

ثم يورد بعد ذلك نصوصاً لمؤرخى العرب وجغرافييهم تصور صعوبة هذه البلاد وعتو أهلها ، وقد أوردت معظم هذه النصوص فى صلب البحث (نفس المصدر ص ٢٤٩ وما يليها) .

(٢) مثل هذه القالة نسبها ابن عبد الحكم إلى عمرو بن العاص رواية عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن أبى تميم الجيشانى ، قال : إن عمرو بن العاص بعث يستأذن عمر بن الخطاب فى فتح إفريقية ، فكتب إليه عمر : «لا .... إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لايغزوها أحد ما بقيت ... » .

ومثل قول ابن عذارى : « فكتب حسان (بن النعمان) إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولايقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم ،وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم.... ».

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٣ .

ابن عذارى : البيان ، جـ١ ص ٢١ .

(٣) اعتمدت فى كتابة هذا الموجز لفتح العرب للمغرب على بحثى الخاص بهذا الموضوع (القاهرة ١٩٤٧) . وإليك أهم المراجع والصفحات التى اعتمدت عليها :

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (حققه شارل س . تورى سنة ١٩٢٢) ابتداء من ص ١٧٠ .

والبلاذرى : فتوح البلدان من ص ٢٢٤ .

والبكرى : وصف إفريقية ص ١ ، ٢ وفى مواضع متفرقة أخرى ، لأنه يذكر ما يعرفه عن فتح المسلمين لكل بلد عند ما يذكره .

ورياض النفوس للمالكى (القاهرة ١٩٥١) جـ١ ، من ص ١ وما بعدها .

وابن الأثير : جـ ٣ ، ابتداء من ص ١٠ .

وابن خلدون جـ ٦ ، من ص ١٤٤ .

والنويرى : نهاية الأرب ، (مخطوط بدار الكتب) من ص ٦٣ .

وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ١ من ص ٧٦ .

والدباغ : معالم الإيمان ، جـ١ من ص ٤٠ .

وكل من هذه المراجع لا يخصص للفتح إلا بضع صفحات ، وسأكتفى بهذه الإشارة عن ذكر المراجع بعد كل فقرة.

(ا) الدور الأول : من أوائل الفتح فى ذى القعدة سنة ٢١هـ (سبتمبر ٦٤٢) إلى نهاية ولاية معاوية بن حديج فى أوائل سنة ٤٨ هـ (سنة ٦٦٨ م) :

وفى خلالها غزا عمرو بن العاص برقة ، وكسب قبيلة لواتة الكبيرة إلى جانب المسلمين ، بل أدخل بعض أهلها فى الإسلام ، فكان هذا أول كسب للإسلام فيما يلى حدود مصر غرباً ، واستفاد عمرو فى أثناء ذلك بجهود عقبة بن نافع الفهرى ، وكان إذ ذاك قائداً صغيراً فى جيشه ، فبعثه إلى زويلة وفزان ووَدّان . وقد أقام عقبة فى هذه النواحى الصحراوية المنعزلة نحو عشرين سنة يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلاً جميلاً للمسلم الصحيح المتفانى فى دينه ، واستطاع أن يكسب إلى صفه قلوب الكثيرين من أهلها ومعظمهم من نفوسة ولواتة ونفزاوة (أى من البُتّر ، أى البربر الظواعن) ، فأما من أسلم منهم فسينضم إلى المسلمين منذ الساعة وسيكون له أثره فى نجاح فتوحهم وتقدمها ، وأما من لم يسلم فقد أصبح صديقاً للمسلمين يواليهم بالعَوْن ويؤيدهم على الروم والبرانس (البربر المستقرين المتحضرين بالحضارة اللاتينية) .

وفى خلال هذا الدور وُفِّق المسلمون إلى الانتصار الحاسم العظيم على الروم عند سبيطلة فى أوائل سنة ٢٨هـ (٦٤٨م) . وقد كانت لهذا الانتصار العظيم نتيجة واحدة: هو أنه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها إلى ما كان عليه فى البلاد قبل الفتح الإسلامى ، وسيحاول البيزنطيون العودة إلى البلاد والاتحاد مع البربر ومغالبة العرب ، ولكن كل محاولاتهم لن تزيد عن أن تكون محاولات قليلة الخطر عديمة النتائج . ولو أن عبد الله بن أبى سرح أقام فى البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سبيطلة نتائج بعيدة حاسمة ، ولكنه عجَّل بالعودة لأسباب غير ظاهرة ، مكتفياً بمال عظيم جمعه من أهل البلاد ، فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد ، لأن انسحابه عفى على معظم النتائج التى كان المسلمون قد وصلوا إليها فى البلاد .

(ب) الدور الثانى: ويمتد من سنة ٤٩هـ (٦٦٩-٦٧٠م) إلى ٦٢ هـ (٦٨١م) ويشمل ولاية عقبة بن نافع الأولى وولاية أبى المهاجر دينار :

لم يقم المسلمون بشىء حاسم فى إفريقية بين سنتى ٢٨و ٤٥ هجرية ، ذلك أن فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث أوقفت نشاط التوسع الإسلامى فى كل وجه ، نعم إن عثمان لم يُقتل إلا سنة ٣٥هـ (٦٥٤م) ولكن السنوات الأخيرة من حكمه كانت سنوات اضطراب

وشغب عليه ، وكان والى مصر وقائد الفتوح فى إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد المغضوب عليهم من الناس فى ذلك الحين ، فكان طبيعياً أن ينصرف فكره عن إفريقية ومواصلة الفتوح فيها منذ عودته من غزواته التى ذكرناها فى سنة ٢٨هـ (٦٤٧م) .

فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية عاد عمرو بن العاص إلى مصر سنة ٣٨ هـ (٦٤٨م) واتجه ذهنه من أول الأمر إلى معاودة الغزو فى إفريقية ، لأنها كانت ، فى حسابه ، باباً مفتوحاً للكسب والمغانم . ولا نزاع فى أن معاوية لم يكن راضياً عن هذه الحرية التى أباحها عمرو لنفسه ، لأن حملة عبد الله بن سعد وما عادت به من المغنم الوفير فتحت عينه على أهميتها ، وجعلته يفكر فى فصلها عن مصر وإفرادها بوالٍ خاص . فلما توفى عمرو سنة ٤٤هـ (٦٦٥م) سنحت له الفرصة ليحدث هذا التغيير الهام الذى يعين لنا تطوراً خطيراً فى علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ، فمن ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأساً ، وكان أول وال إسلامى عُيِّن على إفريقية معاوية بن حديج أحد كبار أنصار معاوية .

عجل معاوية بن حديج بالسير إلى مصر فى سنة ٤٥هـ (٦٦٦م) فلم يكد يصل برقة حتى بلغه أن البيزنطيين عادوا فأرسلوا جيشاً إلى البلاد ، وأن قائد هذا الجيش قد طالب أهل إفريقية بأن يؤدوا له من المال بقدر ما أدوا للعرب ، فثار به الأهلون ، فعاد إلى بلاده ليعود بجيش قوى وفى نيته إرغام الأهلين على أن يؤدوا له ما طلب ، فوصل إلى قرطاجنة قبيل الوقت الذى عبر فيه معاوية بن حديج حدودها ومعه عشرة آلاف من العرب فيهم نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الملك بن مروان وعدة من أشراف قريش، ونفر كبير من جند مصر .

ولم يكد الجيش يحط رحاله فى إقليم قمُّونية جنوبى قرطاجنة حتى تسامع بنزول الروم ، فتقدم نحوهم وعسكر فى مكان يسمى القَرْن ، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير ليستطلع أحوال جيش الروم ، فلم يكد هذا الأخير يشعر باقتراب العرب حتى تراجع إلى سوسة ، وأدركه عبد الله بن الزبير فيها وناوشه مناوشة خفيفة، أقلع بعدها إلى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة . وأرسل معاوية سرية أخرى إلى جلولاء (Couloulis الرومية) استولت عليها وغنمت غنيمة متواضعة ، ثم سار بنفسه إلى بنزرت فاستولى عليها . ولا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن معاوية بن حديج بعث سرية إلى صقلية . ولسنا

نستطيع اعتبار أعمال معاوية بن حديج فتوحاً ، وإنما كانت سرايا قليلة الأهمية لم تترك فى البلاد أثراً يُذكر .

(جـ) الدور الثالث : ولاية عقبة الأولى واختطاط القيروان (٤٩-٥٥هـ / ٦٦٩-٦٧٥م) :

٩ـ اختطاط القيروان وأما نشاط الفتح الصحيح فيعود من جديد بتولى عقبة بن نافع قيادة الفتوح فى المغرب سنة ٤٩هـ (٦٦٩-٦٧٠م) وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها ، وكان فى نفسه رجلاً شديد الإيمان تميل نفسه نحو نشر الدين لا إلى مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب . ويبدو أنه كان قد وضع فى نفسه خطة طويلة للفتح ، ولهذا لم تكد ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين ، اختطها فى إقليم قَمُّونية جنوبى قرطاجنة ، ويغلب أنه لم يُرِد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكراً ، فقد قال : « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » .

وقد قضى عقبة فى إنشائها نحو أربع سنوات (٤٩-٥٢هـ/ ٦٦٩-٦٧٥م) فلم تكد المدينة تقوم حتى بدأت «ولاية إفريقية» الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات وتنظم منه شئون البلاد ، وهذا فى ذاته تطور له معناه .

واشتغل عقبة أثناء بناء المدينة فى إرسال السرايا فى كل وجه ، فكانت نتيجة ذلك أن القبائل البربرية المقيمة فى سهل تونس وفى الهضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عقبة القوية ، فأخذوا يقتربون من المسلمين وأسلم منهم نفر عظيم ، وبهذا نشأت فى سهل تونس جماعة إسلامية بربرية . وكانت تلك خطوة حاسمة فى تحويل المغرب إلى الإسلام ، وزادها أهمية أن الكثيرين من هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينتظمون فى جيوش المسلمين ويسيرون معهم لإتمام فتح البلاد .

فلما أتم عقبة تأسيس « نقطة الارتكاز» وفيما هو يشرع يتخذ الأهبة للخروج للغزو الواسع النطاق ، إذا معاوية بن أبى سفيان يفاجئه بالعزل سنة ٥٥هـ (٦٧٤م) نتيجة لسعايات والى مصر مسلمة بن مخلد ، الذى كان يغار من عقبة ويحسده .

وأقام مسلمة على إفريقية أحد مواليه دينار أبا المهاجر سنة ٥٥هـ (٦٧٤م) وكان مسلماً حسناً وجندياً نشيطاً ، وكان أول قائد مسلم يُقدَّر له أن يخرج من سهل تونس ليتوغَّل هضاب المغرب الأوسط ويهاجم القبائل البربرية فى مواطنها الحصينة . وكانت أول كتلة بربرية قوية اصطدم بها هى كتلة أَوْرَبة أقوى قبائل البرانس فى ذلك الحين ، وكانت النصرانية قد انتشرت بين أفرادها ، وكان رئيسها كَسِيلة بن لَـمزَم الأوربى ، وكان رئيساً ذكياً قادراً ، وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع أوربة فى جبال الأوراس وأن يجتذب كسيلة إلى الإسلام ، فأسلم وتبعه نفر كبير من قومه فى غزوة طويلة وصل فيها إلى تلمسان ، ثم هاجم قرطاجنة هجوماً قوياً سنة ٥٩هـ ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة شريك الواقعة جنوبى إقليم قرطاجنة ، فاحتلها المسلمون وضيَّقوا الخناق على عاصمة إفريقية البيزنطية .

(د) الدور الرابع : حملة عقبة الكبرى (٦٢-٦٤هـ/ ٦٨٢-٦٨٤م) :

وانتهت ولاية أبى المهاجر سنة ٦٠هـ ، إذ عزله يزيد بن معاوية وردَّ عقبة إليها بعد أن طال غيابه عنها وطالت شكواه من حرمانه منها ، ثم عجل بالخروج فى غزوته الكبرى التى وصل فيها إلى المحيط ، ومن الغريب أن هذا الرجل القادر لم يحسن استغلال هذه الفرصة العظيمة التى أتيحت له ، فقد كان الروم فى حالة من الضعف لا تأذن لهم بمقاومة المسلمين، وكانت أَوْرَبة كلها إلى جانب العرب يقودها رئيسها كَسيلة . بدأ عقبة فأساء معاملة كسيلة ونفَّره وقومَه من المسلمين ، ثم مضى فى مغامرة طويلة المدى قليلة الأثر السياسى ، تذهب المراجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند « إيغيران يطوف » ، ثم عاد ليلقى مصرعه عند تَهودة على يد البربر ونفر من أحلافهم من الروم سنة ٦٤هـ (٦٨٣-٦٨٤م) ، وقد استشهد مع عقبة فى هذه الوقعة نفر كبير من رؤساء المسلمين فيهم أبو المهاجر دينار نفسه ، فإذا تم ذلك لكسيلة فقد سار بمن معه من البربر فاحتل القيروان ، وتراجع مَنْ بقى من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوى[1].

بهذا خرجت إفريقية من أيدى المسلمين ، وتراجعوا إلى برقة التى كان عمرو بن العاص قد فتحها منذ نحو أربعين سنة ، وكان على خليفة عقبة أن يبدأ العمل من جديد . ولكن الواقع أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للمسلمين فى البلاد ، إذ إن إفريقية كانت

(١) انظر : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) وليفى بروفنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ص ١٩٣ وما يليها .

تضم إذ ذاك جماعات إسلامية قوية فى القيروان وحولها وفى بعض نواحى الأوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ولكنها ظلت تترقب فرصة عودة المسلمين ، ويبدو أن نزاعاً وقع بينه وبينهم ، لأن المراجع تصور لنا إفريقية خلال الفترة التى انقضت بين انسحاب المسلمين وعودتهم فى حالة مضطربة .

(هـ) الدور الخامس : ولاية زهير بن قيس والقضاء على مقاومة البرانس (٦٩-٧١هـ/ ٦٨٨-٦٨٩م) :

عاد المسلمون إلى إفريقية بعد هذه الهزيمة بأربع سنوات - أى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٩م - يقودهم زهير بن قيس البلوى الذى ظل هذه السنوات ينتظر المدد فى برقة ، وقد أبدى زهير مقدرة عظيمة خلال السنوات الثلاث التى قاد فيها جيوش المسلمين فى إفريقية : بدأ بحملة عنيفة على الروم قضت على كل أمل لهم فى معاودة الوقوف فى وجه المسلمين أو التحالف مع البربر ، ثم أسرع إلى كسيلة الذى كان متحصناً فى مَمْس، فهزمه وقتله فى معركة حامية «كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم » . وبهذا قضى هذا القائد الماهر خلال هذه الفترة القصيرة على عنصرين من أشد عناصر المقاومة ، وهما الروم والبربر البرانس أى المستقرين فى السهل الساحلى المتأثرين بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى القبائل المتبدية (البُترية) لكى يمكن القول بأن المسلمين قد قضوا على كل عناصر المقاومة الجدية فى المغرب .

قاد جيوش الإسلام المظفرة فى هذا الدور الخطير من أدوار الفتح رجل لا يقل قدرة ولا أهمية عن عقبة بن نافع أو زهير بن قيس ، وهو حسان بن النعمان . وكان زهير قد استشهد عند برقة ، تربص له الروم على طريق العودة بعد هزيمتهم وهزيمة أحلافهم ، وكأن قتلهم زهيراً قد أنعش فى نفوسهم الآمال فى عودة إفريقية إليهم ، وأرسل الامبراطور ليونتيوس مدداً صغيراً إلى قرطاجنة قويت به نفوس من بها من الروم ، فكان على حسان خليفة زهير أن يبدأ العمل من جديد كما بدأه زهير .

(و) الدور السادس : القضاء على مقاومة البُتر وإتمام فتح المغرب (٧٦-٨٥هـ/ ٦٩٥-٧٠٥م) :

فطن عبد الملك بن مروان إلى أن إفريقية لن تُفتح فتحاً كاملاً ثابتاً إلا إذا سار إليها جيش

كبير حسن الإعداد ، وواتته الظروف على إرسال هذا الجيش ، إذ كانت ثورة ابن الزبير قد قضى عليها ، ولهذا وضع تحت تصرف حسان جيشاً كبيراً حسن العدة يبلغ عدد جنوده أربعين ألفاً . وسار حسان إلى إفريقية بعد أن رسم لنفسه خطة واضحة : كان يعرف أن القادة قبله كانوا ينفقون معظم وقتهم وجهودهم فى أعمال حربية ثانوية تفرق قواهم وتحول بينهم وبين أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على مقاومة البربر أو الروم .

جعل حسان الروم وجهته الأولى ، وكان يعرف أن ما بقى لهم من القوة فى قرطاجنة شىء صغير لا يستطيع مواجهة العرب ، ولكنه كان يستطيع مضايقتهم وشل حركتهم وإحباط مساعيهم فعَوَّل على مهاجمتهم فى قرطاجنة والقضاء عليهم القضاء الأخير ؛ وقد ألح فى حربه لقرطاجنة ومن فيها وثابر على ذلك حتى استبان لمن فيها من الروم أن لا نجاة إلا بالهرب وترك البلاد جملة ، « فركبوا مراكبهم ، وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب ».

وبهذا قضى حسان على عُش المقاومة هذا بعد أن ظل شجى فى حلق المسلمين نحو ثلاثين سنة ، ولو قد أرادوا القضاء عليه سنة ٢٧هـ لفعلوا ، ولكن الأمر كان يحتاج إلى رجل فى قدرة حسان وبُعْد نظره ، ثم مضى حسان يهاجم الروم فيما عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية ، وأبدى فى ذلك نشاطاً مشكوراً .

ثم عاد ليتوجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر وهو البربر البُتر ، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقَّبها العرب بالكاهنة ، ويغلب أن اسمها كان « داهية بنت ماتية بن تيغان » ملكة جبل أوراس ، وكانت على جانب عظيم من المهارة والقدرة ، فجمعت حول رايتها نفراً غفيراً من البربر الرحل « فيهم بنو يفرن ، ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر» وكانت هى تنتسب إلى قبيلة جرواة ، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه القبيلة كانت يهودية ، وهذا أمر لا يستبعد وإن كان يفتقر إلى ما يثبته .

ولم تكن الكاهنة ثائرة على العرب من أول الأمر كما يفهم من النصوص ، وإنما كانت مطمئنة بمقامها فى جبل أوراس ترقب الحوادث ، فلما رأت حسان يقضى على الروم ويتقدم نحو بلادها سارعت فجمعت من استطاعت جمعه من رجالها ، وانتظرت فى « باغاية » على مدخل الجبال ، فلما اقترب حسان منها تراجعت حتى ثبتت عند نهر نينى على مقربة من موضع قسنطينة الحالية . وثبتت الكاهنة ومن معها للعرب ثباتاً عظيماً ، بل شدت عليهم

حتى هزمتهم بعد أن قتلت منهم عدداً كبيراً ، وتقهقروا أمامها فتتبعتهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة ، وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعد ما تكبدوه من جهد وتضحية ، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه البلاد ، فأمرت رجالها فخربوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران .

أضر هذا العمل بالكاهنة وقضيتها ضرراً بالغاً ،لأنه غيَّر عليها نفوس الناس ، وجعلهم يرون أن العرب خير من هذه الرئيسة على كل حال ، فهم لا يخربون ما يدخلونه من البلاد هذا التخريب الذريع . وانتهز الروم الفرصة فعادوا فى سفن ودخلوا قرطاجنة ، وطردوا من كان بها من المسلمين . وأقام حسان فى برقة خمس سنين حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد ، فتحرك إلى إفريقية من جديد سنة ٨١هـ (٧٠١م) .

لم يكد حسان يطل على سهل تونس حتى تسارع نفر عظيم من البربر والأفارقة فانضم إليه ، فعظم جمعه وسار للقاء الكاهنة ، ويبدو أنها أحست ضعف أمرها وقرب نهاية شأنها ، فأخذت تتراجع متوغلة فى جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمنا حسان ، فأمَّنهما وولَّى كلاً منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة ، ثم لقيت العرب عند « بئر الكاهنة » وانهزمت . وهكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالى البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه ، ثم سار حسان نحو قرطاجنة وطرد الحامية التى كانت قد استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا .

* * *

١٠ـ اختطاط تونس

ولم يطمئن حسان من ناحية الروم ، ورأى أن سقوط قرطاجنة فى يديه لا يمنع الروم من العودة إلى أى مكان آخر من الساحل ، فعَوَّل على إنشاء ميناء إسلامى جديد على مقربة من قرطاجنة ، ليشرف منه على البحر ويحول بين الروم وبين الاقتراب ، وبهذا نشأت « تونس » . ولم تزد فى عهد حسان عن محرس صغير به بعض المساجد والمبانى ، ولكن إنشاءها سيتم على يد عبيد الله بن الحبحاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فتصبح ثغر إفريقية الكبير ، ويتكون فيها أسطول عظيم يغزو المسلمون به صقلية وجنوبى إيطاليا بل جنوبى فرنسا ، ويمهدون به السبيل للسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .

* * *

١١ـ تنظيم ولاية إفريقية

لم يكد الفتح يتم حتى عجل حسان بتنظيم أمور الولاية الجديدة ، « فَدَوَّن الدواوين وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » ، وقسم البلاد خططاً : لكل قبيلة خطة ، وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عدداً من الجنود يحاربون معهم . ويبدو أن البربر أقبلوا على الإسلام فى حماس ، فعمرت بهم جيوش المسلمين فى المغرب من ذلك الحين ، وكان حسان بعيد النظر فسوى بين العرب والبربر فى قَسم الفىء ، ثم أقام العمال على نواحى الإدارة من خراج وزكاة وجند ، وأرسل الخليفة قاضياً للقيروان أسوة بغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه .

ونستطيع القول أن حسان صاحب الفضل الأول فى ذلك كله ، فقد دخل البلاد سنة ٨١هـ فوجدها مضطربة ثائرة ، ووجد أمر الإسلام فيها مشفياً على الزوال ، وغادرها سنة ٨٦هـ (٧٠٦م) ولاية إسلامية هادئة منظمة ، بل تركها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالاً عظيماً ، ويكفى أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامى فى إفريقية كان من البربر حتى تتضح لنا هذه الناحية .

ولو امتدت ولاية حسان لَجَنى المغرب على يديه كثيراً من الخير ، لأنه كان كما رأينا رجلاً مخلصاً نشيطاً بعيد النظر ، ويبدو أن صفاته تلك أوقعته فى خلاف مع عبد العزيز بن مروان عامل مصر للوليد بن عبد الملك ، وكان عبد العزيز يرى نفسه صنو الخليفة ويطلق يده فى الأمور كما يشاء دون نظر صادق لصالح الرعية ، وكانت نفسه معلقة منذ زمن بإفريقية ، فلم يزل يضايق حسان ويلاحيه حتى أخافه وجعل استمراره فى العمل غير ميسور ، فاعتزل هذا الرجل القدير العمل فى أوائل سنة ٨٦هـ(٧٠٦م) والمغرب فى أشد الحاجة إليه .

١٢ـ موسى بن نصير يتولى أمور المغرب[1]

وسارع عبد العزيز فأقام على إفريقية وليَّه وأقرب رجاله إليه موسى بن نصير ، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية وأذكاهم ، وإن كنا لا نستطيع مقارنته بحسان بن النعمان من حيث النزاهة والإخلاص والعناية بصالح

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الجزء على المراجع السابق ذكرها ، ولم أجد حرجاً فى الاعتماد على التفاصيل الهامة التى وردت فى كتاب « الإمامة والسياسة » لأبى حنيفة الدينورى (طبعة القاهرة ، جـ٢ ص ٩٦ وما يليها).

وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله فى ذلك الكتاب مستقى من مراجع صحيحة ، فالتشابه بينه وبين ابن عذارى ظاهر جداً يصل إلى الحرفية فى بعض الأحيان ، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن دوزى شك فى صحة الكتاب كله . =

الدولة والرعية : فبينها كان حسان ينظر إلى صالح الأهلين ويسعى فى تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير ، كان موسى يحسب أن المسألة حروب وغنائم وكفى. فكان همه منذ تولى منصرفاً إلى القيام بغزوات يعود منها بالمغنم الوفير والسبى الكثير ولا يهتم بعد ذلك بها كانت تثيره هذه الضربات من الحفيظة وسوء الظن فى نفوس أهل البلاد .

وسنلاحظ فيها نتناول من شئون المغرب فى سياق هذا البحث أن شيئاً كثيراً من سوء الظن بالعرب قد انغرس فى قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير ومن بعده حتى أصبح من العسير اقتلاعه ، وأن سوء الظن هذا ظل يستشرى مع الزمن حتى فصل بين العرب والبربر جملة ، وانتهى كما سنرى بانفصال المغرب عن مركز الخلافة ، وانحراف الكثيرين من أهله إلى مذاهب ثورية انقلابية تسمى صفرية تارة وخارجية تارة أخرى ، وما هى فى الواقع إلا خوف وكراهية تأصَّلا فى نفوس البربر بسبب إسراف موسى ومن جاء بعده من ولاة بنى أمية فى غزو البربر .

ويبدو أن إسراف موسى فى غزو القبائل البربرية دون سبب أو مبرر ظاهر هو شعوره بأن عبد الملك بن مروان يسىء الظن به ويتوقع أن ينهب أموال الولاية الجديدة كما نهب أموال البصرة . وكان عبد العزيز يشد أزره ، ويود لو أثبت أنه خير من حسان بن النعمان وغيره من رجال عبد الملك ، فمضى يذرع البلاد من شرقها إلى غربها ويرمى نواحيها وقبائلها بأبنائه عبد الله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله من أمثال عياش بن أخيَل وموسى ابن عياض بن عقبة والمغيرة بن أبى بُردة وزُرعة بن أبى مدرك . ولم يكن أهل المغرب بحاجة إلى هذه الغزوات حتى يطيعوا ويقبلوا على الإسلام ، فقد كان معظم القبائل قد ركن إلى الهدوء فى ظل الفاتحين الجدد ، وأقبل الكثيرون من البربر ينضمون للمسلمين ويشتركون معهم فى حروبهم عن طواعية ورضى .

ولم يكن موسى ليتوخى النواحى المضطربة أو القبائل الثائرة ليغازيها ، بل كان يتوخى المطمئنين فينزل بهم على غِرَّة ، والظاهر أن عيوناً له كانت تجوس النواحى ويُنهون إليه أخبار

= وقد ناقش رأى دوزى وأثبت أصالة ما ورد فى كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود على مكى فى مقال نشره فى المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد . وقد ذهب فى هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب أبى حنيفة الدينورى مأخوذ من كتاب ضاع لمعارك النصيرى .

القبائل ومن يمكن أخذه على غرة منها . فنحن نقرأ فى أخباره : «أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : إن صنهاجة بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المطوعة ومن قبائل البربر وخلف عياشاً على أثقال المسلمين ... فسار موسى حتى غشى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف رأس (كذا) ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلاً إلى القيروان ، وهذا كله فى سنة ثمانين (كذا)».

ولسنا نفهم سبباً آخر لمثل هذه الغزوة غير الطمع فى المغانم ، بل حدث أن غزا كتامة واشتد فى أذاها ، فسارع رجالها يؤكدون له طاعتهم وحسن ولائهم ، فأصر على أن يسىء الظن بهم ، ومضى يواتر الغزو عليهم وأصر على قتل رهائنهم ، حتى انكشفت له براءتهم على نحو لا يقبل الشك ، فانصرف عنهم بمغنم وافر .

لهذا ، نحن لا نسمى أعمال موسى بن نصير فى المغرب فتوحاً ، لأن الفتح تم على يد حسان ، وكان موسى قديراً على الاستيثاق منْ طاعة من بقى خارج الطاعة من القبائل ، أو من بَعُد مكانه منها كأهل السوس الأدنى ، بوسائل أخرى غير هذا الغزو العنيف . بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً ، بل هى أحدثت فى الغرب رجة كبرى أفاقت بسببها القبائل وتنبهت إلى هذا العصر الجديد الذى بدأ فى حياة بلدهم ، وملك الروع معظمهم فتسارعوا إلى المسلمين يدخلون فى الطاعة ويعتنقون الإسلام ، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والغُنْم ، فأقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آلافاً ، ولا يكاد الواحد منهم يسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه .

ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبدية ، وجمعتها مع العرب صفات البداوة والفطرة والنشاط وحب القتال ، فازدادت جيوش المسلمين فى إفريقية زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً فى أية ناحية أخرى من نواحى الدولة الإسلامية إذ ذاك ، وكان لا بد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالاً للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها ، فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش ، مضى يفتح ويسترسل فى الغزو حتى أدرك من ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين .

توجه موسى بضرباته فى كل ناحية ، وبدأ بتوجيه حملة نحو سجوما ، ويبدو أن طوائف البربر التى اشتركت فى حرب عقبة بن نافع سنة ٨٧هـ (٧٠٢م) وقتله عند تهودة كانت تسكن على مقربة من هذه المدينة البربرية ، وقد قاد هذه الحملة عياض وعثمان وأبو عبدة من أبناء عقبة بن نافع ، فانتقموا لمقتل أبيهم من أهل البلد ومن حوله انتقاماً شديداً ، ثم أعقب ذلك بسلسلة من الحملات على هوارة وزناتة وكتامة ، وقضى على ما عسى أن يكون قد اختلج فى نفوسها من تفكير فى الثورة والاستخفاف بالحكام كما كان الحال أيام البيزنطيين .

ولما كان موسى يهتم اهتماماً عظيماً بمسألة الأسرى والمغانم ، فقد كان أهل البلاد يسارعون بالإسلام افتداء لأنفسهم من الأسر، وبهذا جعلت أعداد عظيمة من أهل هذه القبائل تسلم وتقبل على القيروان طلباً للاشتراك فى الفتوح والغزوات . ومن هنا لا غرابة فى أن نسمع أن موسى أرسل بعد ذلك بقليل جيشاً عظيماً عدته ١٧٠٠٠ من العرب و ٩٢٠٠٠ من البربر لفتح السوس الأقصى ، وأن هذا الجيش وصل إلى نهر درعة وعاد بطاعة أهله .

وكانت تلك هى أول مرة فى التاريخ يصل فيها فاتح أجنبى إلى هذه النواحى الداخلية النائية من بلاد إفريقية ، ومن هناك اتجه بهذا الجمع نحو طنجة فافتتحها وترك عندها حامية عظيمة يقودها مولاه طارق بن زياد ، وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام فيما يجاور طنجة من بربر غمارة وبرغواطة . وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق ، وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا فى العدوة الأخرى .

ويبدو أن ميدان إفريقية ضاق بنشاط موسى وقواده وجنوده ، لأن ابن عذارى يحدثنا ـ رواية عن ابن القطان ـ عن حملة إلى صقلية ، غزا المسلمون فيها سرقوسة وعادوا موقرين بالغنائم .

وعاد موسى إلى القيروان مخلفاً طارق بن زياد ومن معه بموضعهم هذا ، وعلم طارق أن ميناء سبتة على مقربة منه ، فبدأ يتحرك نحوها وهناك وجد شخصية غريبة غامضة يتحدث عنها المؤرخون كثيراً ، ولا تزيدها كثرة الحديث إلا إمعاناً فى الغموض ، تلك هى شخصية يليان .

* * *

الفَصل الثالِث

فتح الأندلُس

١٣ـ مقدمات الفتح

أقام طارق ومن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربى عند طنجة وما حولها ، وأخذت أعدادهم تزداد مع الزمن ، وبدأت أنظار طارق تتطلع إلى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التى كانت تحت يده . وقد كان موسى بن نصير يشغل قواه قبل ذلك فى مغازاة القبائل البربرية واجتياح أرضها والغُنْم منها ، ولكن طارقاً لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك ، لأنه بربرى الأصل من جهة ، ولأنه كان عميق الإيمان لا يرضى أن يضع السيف فى قوم لم يعرض عليهم الإسلام بالحسنى .

ويبدو أن من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الأندلس وما هى عليه من ضعف وما تضمه من عيون الثروة ، ولا نزاع كذلك فى أن أنظاره بدأت تتجه نحو حصن سبتة الذى عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : فى المرة الأولى كان يقودهم عقبة بن نافع ، وفى المرة الثانية موسى بن نصير ، وظل هذا الحصن كالصخرة البارزة تقوم فى وجه العرب فى منتصف الطريق(١).

١٤ـ يليـان

هنا تجمع الروايات العربية كلها على قيام شخصية غريبة بأمور سبتة فى ذلك الحين : تلك هى شخصية يُليان . واختلفت المراجع حول يُليان هذا اختلافاً عظيماً ، فبعضها يزعم أنه قوطى ، وبعضها يزعم أنه رومى ، وبعضها الأخير يزعم أنه بربرى من غمارة ، ولكنها جميعاً تتفق على أنه كان صاحب سبتة وما حواليها ، وأن سلطانه كان عظيماً على من كان يجاوره من البربر ـ من غمارة وبرغواطة على الخصوص ـ وأن صلات من الود والولاء كانت تربطه بلذريق ملك الأندلس(٢).

(١) راجع عن هاتين المحاولتين : ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٤ ص ٤٢ .
والنويرى : نهاية الأرب ورقة ٧٠ ب .
وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ١٨٥ .
والأخبار المجموعة ، ص ٤ .
وابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) يتحفظ ابن عبد الحكم فى تحديد علاقة يليان بلذريق فيقول إنه « كان يؤدى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس » ولا يقول شيئاً عن أصله أو جنسه . وكذلك الأخبار المجموعة تكتفى من صفته بأنه « علج » وأنه كان يحكم =

وقد حقق دوزى وكوديرا وسافدرا شخصية يُلْيَان . فأثبت دوزى وجوده فعلاً بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب (١) ، وأكمل سافدرا عمل دوزى وزادنا علماً بشخصية يُليان وأصله والدور الذى قام به هو وأولاده (٢).

ونستطيع أن نقرر ـ اعتماداً على أبحاث دوزى وسافدرا ـ أن الإقليم الذى كان يحكمه يليـــان ، وهو مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) كان فى ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية ، وأن يليان كان يقوم حاكماً عاماً (Exarcus) لهذه الناحية من قِبَل الامبراطور البيزنطى ، وأنه بدأ ولايته فى سن صغيرة ، وأقام فى هذه الناحية زماناً طويلاً ، ولما كانت مرطانية الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة ، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية فى ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة ، فقد تحرر يليان من سلطان الدولة وأصبح كالحاكم المستقل فى هذه الناحية ، وإذ انقطعت عنه الإمدادات من الدولة فقد بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب وُدَّها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على الناس وحسبوه بربرياً .

عرف العرب يليان أول مرة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة ٨٩هـ

= « مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدينة مدينة يقال لها سبتة ، وكان عليها وعلى من حولها من المداين علج يسمى يليان » ، مما يفهم منه أن يليان كان عاملاً من عمال لذريق . ويصفه ابن خلدون بأنه رومى ، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطى . ولقبه ابن الأثير بالبطريق ، أى أنه يقرر أنه كان رومياً .

ابن عبد الحكم : فتوح ، جـ ١ ص ٢٠٤ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ٨٩ .
أخبار مجموعة ، ص ٤ .
ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ص ٢١١ .

(١) انظر : DOZY . Recherches (3 éd.) I pp. 57 Sqq .
وراجع عنده عبارة إيزودور الباجى التى تذكر يليان ووظيفته ذكراً محرفاً يصعب منها استكشاف حقيقة أمره.

(٢) SAAVEDRA. Estudio, pp. 48 Sqq. وقد ذهب سافدرا إلى أنه فارسى الأصل وأنه من الأزارقة ، وقد استنتج ذلك من أن يليان خلف ولداً اسمه بَسلْكَايـش أسلم بعد الفتح العربى وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أسماء الفـرس الأزارقـة ، بل ذهب إلى أنـه من كونيَـسابور كبرى مدائـن أديابين (Adiabene) ، وتقع كونيـسابور بين تكريت وأربلاس ، وإليك سلالة يليان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية :
يليان ← بلكايش ← عبدالله ← الحكم ← سليمان ← أيوب (توفى سنة ٣٢٦) ← سليمان (توفى سنة ٣٧٩) ← أحمد (توفى سنة ٣٨٨) .
وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بصدق الإسلام وسعة العلم .
ويلاحظ القارىء أن آراء سافدرا فيما يتصل بأصل يليان فيها تكلف كثير .

(٧٠٩م) على وجه التحقيق ، أما ما يذهب إليه ابن الأثير من أن عقبة لقى يليان سنة ٦٣هـ (٦٨٣ م) وأنه نزل على حكم عقبة فأمر مشكوك فيه ولا تؤيده أية رواية أخرى . وكان ملك إسبانيا فى ذلك الحين غيطشة ، وكان الود معقوداً بينه وبين يليان ، ولهذا حرص هذا الأخير على صرف عقبة عن إسبانيا وتوجيهه نحو البربر ، فلما انصرف موسى إلى القيروان وخلف طارقاً على طنجة وما جاورها ، أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم ، وعمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة واتصلت بينهما الأسباب . ولسنا نعلم شيئاً عن الأساس الذى قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه هو أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتفى بمودة صاحبها ، وكان طارق ـ كما سنرى ـ رجلاً سياسياً بعيد النظر ، فلعله صادق يليان ليستعين به على إخضاع مَنْ تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون (١) .

وفى هذه الأثناء كان لذريق قد قام بثورته وعزل غيطشة وقتله وتولى مكانه ، ولما كان يليان حليفاً لغيطشة فقد حاول أن ينزل الأندلس أثناء القتال بين الجانبين معيناً لحليفه ، ولكن أنصار لذريق ردوه إلى بلاده منهزماً فعاد يليان إلى بلده سبتة وتحصن فيه ولبث يرقب الحوادث .

فلما قتل غيطشة وتفرق أتباعه فر بنوه نجاة بأنفسهم ، والخلاف شديد بين المؤرخين حول الوجهة التى اتخذوها بعد تفرق دولتهم ، فيذهب نفر إلى أنهم عبروا إلى إفريقية وأقبلوا يستعينون بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم (٢) ، ولكن المراجع العربية – فيما عدا ابن

---

(١) راجع بحثى دوزى وسافدرا السابق الإشارة إليهما ، ونص الأخبار المجموعة يؤيد ما يذهبان إليه .

ويُفهم من قول ابن عبد الحكم : « فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا » أن طارقاً تفطن إلى مقدار الخير الذى يستطيع أن يجنيه من صداقة رجل قادر مثل يليان فاجتهد فى كسب وده ، ولا يعقل أن يكون طارق قد لاطف يليان ليتقى شره ، بل ليفيد منه فيما هو أهم من سبتة ، وربما جاز لنا أن نستتج من ذلك أن أنظار طارق كانت متجهة نحو الأندلس ، وأنه اجتهد فى كسب ود يليان ليفيد منه فى تحقيق أمنيته هذه .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) ينفرد المؤرخ سباستيان بالقول بأن أولاد غيطشة عبروا إلى أفريقية وذهبوا يستعدون العرب على الأندلس ويزينون لهم فتحها ، وهذا نص روايته :

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat,callide cogitantes. Missos ad African mittunt. Saracenos in auxilium petunt . eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

ولو أيد مؤرخو العرب هذا الرأى لقبلناه ، ولكن سباستيان ينفرد به ولا يذكر ما يؤيده.

SEBASTIAN.c. 3.

DOZY. Recherches (3ed.) I PP.68-69.

القوطية ـ لا تذكر شيئاً من ذلك ، بل تذهب إلى أنهم كانوا صغاراً حينما وقع لأبيهم ما وقع ، وأنهم تفرقوا فى البلاد حيناً ثم صالحوا لذريق واستقروا فى أمانه وقد انطوت قلوبهم على كراهية الغاصب ، وأن العرب لم يكادوا ينزلون الأندلس ويسيرون لحرب لذريق حتى سارع أولاد غيطشة وأتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب أثناء الموقعة ، وأن فعلتهم هذه كانت قاصمة الظهر لجيش القوط .

ويغلب أن فى هذه الرواية بعض المبالغة ، لأن تصرف العرب مع أولاد غيطشة بعد تمام الفتح لا يدل على أن العرب كانوا مدينين لهم بفضل كبير كهذا ، وكل ما حدث هو أن أبناء غيطشة هؤلاء تقدموا إلى المسلمين بعد انتصارهم يطالبون بشىء من ضِياع أبيهم ، فأعطاهم المسلمون جزءاً كبيراً منها كسباً لودهم . وقد أحسن المسلمون بذلك إحساناً عظيماً ، لأن أبناء غيطشة أصبحوا من ذلك الحين من أخلص الأنصار لهم ، بل لم يلبث بعضهم أن أسلم وحسن إسلامه .

وعلى هذا تستطيع أن نقرر من غير حرج أن أولاد غيطشة لم يحرضوا العرب على غزو البلاد ، بل انتظروا حتى تم انتصارهم فانضموا إليهم وجعلوا أنفسهم أدلة للمسلمين على عورات الأندلس ، والغالب أنهم حسبوا أنهم مستطيعون الاستعانة بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم ، لأنهم كانوا يظنون أن العرب إذا أقبلوا إلى الأندلس لم يلبثوا أن ينصرفوا عنها لأنهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة . ولكن العرب خيَّبوا ظنونهم وهبطوا البلاد بقوة كبيرة ، ولم يكد العرب يلقون القوط حتى قضوا على قوتهم القضاء المبرم ، وظهر أنهم ماضون فى فتح البلاد بنية إدخالها فى حوزة الدولة الإسلامية ، فلما استبان أبناء غيطشة ذلك تقدموا إلى العرب يطلبون الأمان مع من تقدم ، وأكرمهم العرب وردوا عليهم شيئاً من أملاك أبيهم .

فإذا لم يكن أبناء غيطشة هم الذين استدعوا العرب إلى الأندلس ، فما الذى حدا بهؤلاء إلى العبور ومحاولة فتحها فى وقت لم تكن أقدامهم فيه قد ثبتت فى المغرب الأقصى ؟ ما الذى شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخروج فى هذه المغامرة الكبرى التى كان من الممكن أن تجر على المسلمين شراً كبيراً ؟ ما الذى شجعهم على الخروج إلى شبه الجزيرة الإيبيرية الواسع فى قوة قليلة لا تزيد على السبعة آلاف ، وهم يعرفون أن المغرب – وهو أضعف من إسبانيا بكثير – لم يتم فتحه إلا ببضعة جيوش يبلغ أقلها أضعاف هذه الآلاف السبعة التى سار بها طارق ؟

١٥ـ فتح الأندلس

هنا تذهب أغلبية المؤرخين إلى أن العرب لم يفكروا فى فتح الأندلس فتحاً كاملاً والاستقرار فيه من أول الأمر وأنهم ما كانوا يطلبون إلا بعض الغنيمة ثم يعودون إلى إفريقية ، وأن غزوتهم للبلاد أخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق هذا الانتصار الحاسم الذى لم يكن منتظراً عند وادى لكة ، ويعتمد هذا النفر من المؤرخين على ما ورد فى المراجع العربية من أن موسى غضب على طارق وعاقبه على الاسترسال فى الفتح خلافاً لما كان قد أمره به ، وقد روى ذلك ابن عذارى عن ابن القطان(١).

وربما بدا هذا الرأى صحيحاً لأول وهلة ، لأن خروج طارق إلى الأندلس بهذا العدد القليل لا يدل على أنه كان ينوى غزو البلد وفتحها فتحاً كاملاً ، وإنما هو مجرد الاستطلاع . ولكننا لو ذكرنا الأسلوب الذى جرى عليه العرب فى فتح مصر والمغرب مثلاً للاحظنا أن التقديم للفتوح بقوة صغيرة تعقبها الإمدادات كان أسلوب العرب فى الفتح : يرسلون عدداً صغيراً ويكونون على الأهبة لإتباعه بالإمدادات إذا لزم الأمر ؛ وقد حدث هذا فى الأندلس بالفعل ، إذ أسرع موسى لِعَوْن طارق بخمسة آلاف من الجند . وأما غضب موسى على طارق فسببه أن موسى خشى أن يكون طارق قد تهور وغامر بالمسلمين أكثر مما ينبغى ، وربما يكون قد حسده على ما نال من التوفيق وما أدرك من المغانم ، وكان موسى على ما نعرف غير مجرد من الحسد أو الشره إلى المغانم .

لم يكن فتح الأندلس إذن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها ، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم الذى ذكرناه فى فتح البلاد ، ومن أدلة ذلك ما ورد فى « الأخبار المجموعة » من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس « فكتب إليه أن خُضْها بالسرايا حتى تختبر [ها] ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال» ، فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر، فكتب إليه : « وإن كان ! فاختبره بالسرايا » مما يدل على أن موسى كان قد قرر الفتح وعرف

(١) ابن عذارى : البيان ، (طبعة كولان وبروفنسال ، لايدن ١٩٥١) جـ٢ص١٣ . وتُجمع الروايات العربية كلها على أن موسى خاطب طارقاً بما يُفهم منه أنه كان قد أمره بمجرد غزو البلاد والغنم منها ثم العودة ، وقد استعان المستشرقون - والإسبان منهم خاصة - بهذه العبارات ليحكموا على الغزو العربى بأنه كان مجرد مغامرة .
راجع مثلاً :
DOZY.Recherches(3éd .)I.Etudes sur la conquète de l'Espagne par les Arabes pp.XV Sqq.
IBIDEM . Musulmans d'Espagne.I

من شأن الأندلس ما شجعه على المضى فيه ، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ، ولو كان أراد مجرد الغزو للغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ، ثم إن قول الخليفة له :« اختبره بالسرايا » يُفهم منه أنه يوافق على الغزو وإنما يأمر موسى أن يستوثق لجند المسلمين قبل أن يبدأ العمل(١).

ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سارا فى بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدَّر كل شىء قبل الشروع فى العمل : سار طارق قدماً من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنيمة لعاد بعد أن وقعت فى يده مدينة أو مدينتان وامتلأت يداه وأيدى أصحابه من الغنيمة .

وتُجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذى دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عوراتها وهوَّن عليه أمرها(٢) . وتجعل المراجع لذلك قصة ملخصها أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ فيه أسوة بغيرها من بنات سروات القوط فى ذلك الزمان، وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتبت إلى أبيها بخبرها ، فأحفظه ذلك على لذريق ، ودفعه إلى التفكير فى الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وُفِّق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب فى الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها(٣).

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥-٧
وابن عذارى : البيان ، جـ ٢ص ٦ .

(٢) انظر مثلاً : ابن عذارى ، جـ٢ص ٦ . وليس فى هذه الرواية أية إشارة إلى قصة ابنة يليان .

(٣) لا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مواضع هذه القصة فى مراجعنا العربية ، لأنها متواردة فيها جميعاً من غير استثناء .
أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة ١١١٠ ، إذ ورد ذكرها لأول مرة فى مرجع إسبانى لاتينى هو « تاريخ راهب سيلوس » ذكرها مجملة على صورة قريبة الشبه بما تذكره الروايات العربية .
وليس إلى الشك سبيل فى أن العرب لم يخترعوا هذه القصة اختراعاً ، ولكننا لا نستطيع مع الأسف الوقوف على أصلها . وقد ذهب سافدرا إلى أنه من الممكن أن يكون يليان قد أرسل نفراً من أهله إلى طليطلة ليأمنوا فيها حينما بدأ العرب حصار سبتة وتهديدها ، وأن ذلك قد يكون أصل القصة ، وأيد رأيه هذا بأن ابن خلدون وسان بدرو بسكوال يذهبان إلى أن الذى اعتدى على ابنة يليان كان غيطشة لا لذريق، لأن غيطشة كان صديقه كما قدمنا أما لذريق فلم يكن ، ومن غير المعقول أن يكون يليان قد أرسل ابنته لتتأدب فى قصر ملك بينه وبينه عداوة . وقد ذهب الأستاذ سافدرا إلى أننا حتى لو قبلنا هذه القصة فإننا لا نستطيع أن نجعلها سبب عبور العرب إلى الأندلس ، لأن مثل هذا الاعتداء لم يكن ينظر إليه إذ ذاك بالاشمئزاز الذى ننظر به إلى مثله الآن .
ولم يذكر مؤرخ عربى واحد لابنة يليان اسماً ، وتذكرها المراجع اللاتينية بين سنتى ١١١٠و ١٣٠٠ من غير اسم كذلك حتى اخترع لها PEDRO DEL CORRAL اسماً حوالى سنة ١٣٠٠ . ولسنا نعرف من أين أتى بدرو بهذا الاسم ، وإن كان المظنون أنه ابتكره جرياً على عادته فى اختراع أسماء لمن لا يجد له اسماً من شخوصه التاريخية ، =

ولسنا نريد أن نقف طويلاً عند هذه القصة ، فقد تكون صحيحة وقد تكون من اختراع القصاص ، ولسنا نحتاج إليها لكى نعلل دخول العرب الأندلس تعليلاً معقولاً ، فقد كان ذلك الدخول هو الأمر الوحيد المنتظر فى الظروف التى سادت المغرب خلال السنوات التى سبقت الفتح . فقد رأينا طارقاً يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربى والبربرى يتطلع معظمهم إلى الفتح والجهاد ، وكان يليان إلى جوارهم يوجس خيفة منهم ، فقد كان المسلمون قد حاولوا فتح معقله سبتة ، وكان موسى بن نصير قد رجع عنه بعد أن ألفى «عنده عُدَّة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم ، فرجع عنهم إلى طنجة ، وجعل

= وهذا الاسم هو « لا كافا » (La Cava) . وكافا اسم مدينة إيطالية على مقربة من سالرنو فى مملكة نابلى ، ولما كان ألفونسو الخامس ملك إسبانيا قد غزا نابلى وزار بعض جنوده مدينة كافا ، فقد عاد الجند يحملون هذا الاسم وتسمى به نفر من الإسبانيات فى ذلك العهد .

بيد أن عالماً إسبانياً هو MIGUEL DE AL LUNA خرج على الناس فى سنة ١٥٨٩ بتفسير عربى لهذا اللفظ ، فذهب إلى أنه مأخوذ عن اللفظ العربى «قحبة» ، وذكر أن قصاص الأندلسيين كانوا يسمون ابنة يليان به فى العصور الإسلامية، ولزمها الاسم بعد ذلك ، واحتج لذلك بأن لوقا التودى ذكر الفتاة بهذا الاسم فى « تاريخ الدنيا » (Croni-con Mundi) . وحقيقةً يوجد الاسم فى بعض النسخ ، ولكنه لا يوجد فى النسخ المقطوع بصحتها ، مما يؤيد القول بأن النساخين أضافوا هذا الاسم من عندهم فيما بعد .

أما قصاص الإسبان وواضعو الأغانى الشعبية فقد سموا هذه الفتاة فلورنده Florinda ولزمتها هذه التسمية فى كتب الأقاصيص والأشعار جميعاً ، وذهب البعض إلى أن هذا الاسم صحيح وأنه مخفف من الاسم القوطى فلوريسندا (Floresinda) .

ومهما يكن من الأمر فقصة ابنة يليان قليلة الأثر فى التاريخ وإن كانت عظيمة الأثر فى الفن والأدب ، وهى بهذا أحسن حظاً من صاحبتيها « ابنة المقوقس » و « ابنة جرجير » والاثنتان من اختراع قصاص العرب ، ولا يبعد أن تكون قصة ابنة يليان من اختراع قصاص العرب كذلك .

Cronicón Silense . N. 15 .

SAAVEDRA .Estudio ..., pp 58-59 .

SAAVEDRA FARJADO . Corona Gótica. cap. XXIX .

PEDRO DEL CORRAL . Cronica del Rey Don Rodrigo .

MIGUEL DE AL LUNA . Historia Verdadera del rey Rodrigo

ويُظَن أن هذا الكتاب الأخير مترجم عن كتاب عربى يسمى مؤلفه أبا القاسم طريف بن طارق (ABULCA-CIM TARIF ABEN TARIQUE) ممن شهدوا الفتح (كذا) لأن هوامش النسخة الإسبانية تحمل عبارات وألفاظاً عربية، ولكن البحث التاريخى يشكك فى أن أبا القاسم هذا ممن شهدوا الفتح أو حتى من القدماء ، لأن بعض ألفاظه مثل « مخزن » حديث لم يستعمله أهل المغرب إلا فى زمن متأخر . وقد اعتمد على هذا الكتاب الأخير شاعران كبيران هما:

LOPE DE VEGA فى Posterer Godo de Espana

WASHINGTON IRVING . Legends of the Conquest Spain .

وقد نسب بدرو دل كورال هذه الأسطورة إلى أحمد بن محمد الرازى المؤرخ .

وانظر عن لفظ فلورندا :

LEMBKE . Geschichte von Spanien .I.256 .

يجتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم»[١] ، مما يفهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان هادئاً مطمئناً فى بلاده ، ومن الطبيعى أن يلجأ يليان فى مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه ، وكان طارق كما رأينا قد صافاه بعد ذلك وصادقه[٢]. وكان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئاً كثيراً ، ولابد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى خيراته ومغانمه . ومن الطبيعى فى مثل هذا الظرف أن تولد فكرة فتح الأندلس .

ويذهب سافدرا إلى أن يليان ذهب للقاء موسى تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره . ولسنا نعرف كيف ذكر سافدرا ذلك فى صيغة التأكيد ، مع أن المراجع جميعاً تختلف حوله اختلافاً شديداً ، ولا يتضح وجه الحق فى هذه المسألة إلا إذا درسنا من جديد العبارات القليلة التى بين أيدينا عن الأحوال فى طليطلة خلال الأشهر التى سبقت هذه الأحداث التى نرويها[٣].

يشير إيزودور الباجى فى حوادث سنة ٧١٠ إلى « حادث محزن (suprafata clades) وقع بطليطلة ، واضطر كثيراً من نبلاء القوط إلى الهجرة من إسبانيا فتشردوا فى كل ناحية»[٤]. ولم يذكر لنا إيزودور ما هو هذا الحادث المحزن ، وذهب دوزى إلى أن إيزودور

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٤-٥ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم فى هذا : « وكان يليان يؤدى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس . وكان لذريق يسكن طليطلة ، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا ... »

انظر : فتوح ... ص ٢٠٥ .

(٣) . SAAVEDRA. Op. cit. pp. 54 -55 وسياق رواية سافدرا قصصى فى هذا الجزء من تاريخه القيم ، فهو يذكر كيف أن يليان كان رجلاً ماهراً أريباً ، اجتمع فيه عقل البيزنطى وشجاعة الإيرانى وثبات الإفريقى ، وأنه رأى أن يبعث إلى طارق وفداً يرأسه رجل من كبراء أتباعه يسمى أخيلا بسطوا لطارق مظلمتهم وصوروا له سوء حالهم بعد الذى أصابهم من لذريق وغدره ، وأن نفس طارق تأثرت بهذا الكلام فبعث الرسل إلى موسى فى القيروان ، وأن هذا قدر خطورة المسألة ، فأرسل الرسل إلى دمشق ليبسطوا المسألة للخليفة على وجهها ويقنعوه بضرورة الإذن لموسى فى فتح الأندلس ، وأنهم عادوا من دمشق بالإذن المطلوب ، فسارع موسى فى تنفيذه ، وأحب أن يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب إليهم أن يسلموه رهائن من لدنهم يكونون عنده .

وهذا كله كلام يحتاج إلى إثبات ، أما أخيلا هذا فقد ورد ذكره فى ابن عذارى ، ويذهب سافدرا إلى أن شخصاً يسمى بهذا الاسم قد وجد فى هذا الظرف فعلاً ، وأنه كان حاكم طنجة أو كونتها ، وقد ذكره رودريجو خيمينث ونسب إليه نفس الدور الذى تنسبه الروايات الإسلامية إلى يليان نفسه .

RODRIGO XIMÉNEZ DE RADA (ARZOBISPO DE TOLEDO) . Historia de rebus hispaniae, i, iii, cap. 18,20 .

(٤) هذا نص عبارة إيزودور :

Huius temporibus Witiza decrepito iam patre pariter regnat ; qui in aera DCCXXXIX suprafa- = tae cladis non ferentes exitium, per Hispaniam e palatio vagitant, quâ de causâ propriâ

يشير بذلك إلى قتل لذريق لغيطشة معتمداً فى ذلك على عبارة صريحة لابن عذارى تذكر أن لذريق ثار بغيطشة وقتله ، وعلل عدم ذكر إيزودور لذلك بأن نصه الذى بين أيدينا مضطرب ، سقطت - أو حذفت - منه عبارات ، وغيرت مواضع عبارات أخرى . ويؤيد رأيه هذا بأن إيزودور يقول فى موضع آخر : إن لذريق فجأ المملكة المضطربة وحاول أن يستبد بمجلس الشيوخ(١) .

ومن هنا يكون من الجائز أن نقول إن هذا الحادث المحزن الذى يشير إليه إيزودور إنما هو قتل لذريق لغيطشة ، لأن هذا الحادث روع أنصار غيطشة وفرَّقهم فى البلاد بين قتيل وهارب يطلب النجدة حيث استطاع ، بل ذهب دوزى إلى أن « نبلاء القوط » الذين أشار إليهم إيزودور إنما هم أبناء غيطشة وإخوته ، وأن إيزودور لم يذكره صراحة لأنه كان أمراً مشكوكاً فيه أيام الفتح ، وأنه لم يتضح على وجه الصحة والتحقيق إلا فيما بعد(٢).

ويقول سباستيان السلمنقى : « فلما انهزم غيطشة ، أقام القوط لذريق ملكاً ، فملأ الحسد - فى الحقيقة - أولاد غيطشة من أن يغصبهم لذريق مملكة أبيهم ، فدبروا أمرهم بمهارة ، وأرسلوا رسلاً إلى إفريقية يرجون العرب المساعدة ، وقدموا لهم سفناً عبروا عليها إلى إسبانيا »(٣) . وهذه عبارة تكمل رواية إيزودور وتفسر غامضها تفسيراً معقولاً ، فلو جمعنا الروايتين معاً لجاز لنا أن نقرر أن الذى حدث هو أن لذريق بعد أن قتل غيطشة تتبع آله وأنصاره بالأذى ففروا يطلبون النجاة ، وكان أبناء غيطشة فى مقدمة الفارين ، وسواء أكان هؤلاء الأبناء قد عبروا إلى إفريقية بأنفسهم ليطلبوا عون العرب أم اختفوا فى بعض نواحى جنوبى إسبانيا وأرسلوا من لدنهم رسلاً يبسطون للعرب أحوال إسبانيا ويدعونهم لغزوها ويهونون عليهم أمر هذا الغزو ، فإن الحقيقة التى تخلص لنا من هذا كله هى أن أولاد غيطشة وأقرباءه اتصلوا بالمسلمين فى إفريقية ودعوهم إلى غزو البلاد ، ووضعوا أنفسهم - بطبيعة الأمر - تحت تصرفهم لتسهيل هذا الغزو وتهوينه .

= morte decesso iam patre, florentissime suprafatos per annos Regnum retemptat, atque omnis Hispania, gaudio nimio freta, alacritur laetatur.

(١) نص عبارة إيزودور :

Rudericus tumultuose regnum hortante senatu invadit

(٢) DOZY. Recherches. (30 éd.) I . PP. 65 Sqq .

(٣) Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidiá ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes. Missos ad Africam mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

وفى الفقرة الأخيرة مخالفة لما تتفق عليه الرواية الإسلامية من أن السفن التى عبر عليها المسلمون كانت ليليان .

وتؤيدنا المراجع العربية فى هذا الرأى ، فهى تذهب إلى أن آل غيطشة مالأوا العرب من أول الأمر ، وأنهم دبروا الغدر بلذريق واتفقوا على أن يتخونوه يوم المعركة الفاصلة مع العرب(١) - وهو ما حدث فعلاً - وبهذا أدركوا ثأرهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب ، وإن كانوا لم يعيدوا الأمر إلى بيت غيطشة ، إلا أنهم « أمضوا لأبناء غيطشة ضِيَاع أبيهم » وكانت شيئاً كثيراً ، وأقاموا نفراً آخر من آل بيت غيطشة فى وظائف كبرى كما سنرى .

فإذا كان آل غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى غزو البلاد فما هو الدور الذى قام به يليان ؟ يبدو أنه كان رسول آل غيطشة لدى المسلمين ، لأنه ـ كما رأينا ـ كان من أنصار غيطشة وأصحابه ، وقد ساءته ولاية لذريق وتخوف أن يصيبه منها شر ، وكان من صالحه أن يعمل على إزالة ملكه والتخلص منه . وكان المسلمون جيرانه ، وليس إلى الشك سبيل فى أنه فكر فى أن توجيه نظرهم نحو الأندلس(٢) يصرفهم عنه ويؤمنه من ناحية جندهم الكثير الذى كان يتجمع عند طارق بن زياد فى طنجة ، ولا يستبعد أن يكون أخيلا ـ حاكم طنجة الذى سبقت الإشارة إليه ـ كان من مؤيدى يُليان فى هذا التفكير ، ولا يستبعد أن يكون هو الذى تفاهم معهم ، لأنه كان قد أسلم بلده للمسلمين ودخل فى ذمتهم ، وكانوا يعتبرونه تابعاً من أتباعهم .

* * *

(١) يجمع المؤرخون المسلمون على ذلك ، انظر على الخصوص :
ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص ٣ .
الأخبار المجموعة ، ص ٨ .
فتح الأندلس : ص ٦ ـ ٧ .

(٢) يُفهم من هذا أن ابن عذارى وصاحب الأخبار المجموعة أصرح من غيرهما فى هذا الصدد ، فهما يذهبان إلى أن يليان سعى إلى المسلمين بنفسه وحرص على تحريضهم على غزو الأندلس ، بل يذهب الأخير إلى أن يليان « عقد لنفسه ولأصحابه عهداً رضيه واطمأن إليه ، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها » . وهذه رواية يفهم منها - على إيجازها - ثلاثة أمور :
١ - أن قصة ابنة يليان لم تكن السبب المباشر لدعوة يليان المسلمين لغزو الأندلس .
٢ - أن يليان سعى لصحبة العرب حتى عقد معهم عهداً اطمأن إليه .
٣ ـ فإذا تم له ذلك دعاهم لفتح الأندلس .
الأخبار المجموعة ، ص ٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤ ـ ٩ . هذا والتفاصيل التى يوردها ابن عذارى عن يليان كثيرة ذات قيمة ، وقد درسها دوزى فى الفصل الذى عقده ليليان فى بحثه عن مراجع العرب للأندلس ، انظر « الأبحاث » ، جـ ١ .

١٦ـ بدء الفتح

وتذكر الروايات العربية أن يُليان لم يكتف بمخاطبة طارق فى الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى فى القيروان ، لإقناعه بسهولة فتح إسبانيا والتحدث إليه فى الخير الذى يعود عليه ، إذا سارع وعبر إلى الأندلس واغتنم فرصة غياب لذريق مع خيرة جنده فى حملة حربية نحو بنبلونة أقصى شمالى شبه الجزيرة . ويبدو أن خروج لذريق فى هذه الحملة هو الذى دعا يليان إلى الذهاب إلى موسى على عجل وإظهاره على الفرصة السانحة ، وربما جاز أن نستنتج من تعجيل يُليان بالذهاب إلى موسى أن فكرة الاستنجاد بالمسلمين كانت قد اختمرت فى ذهنه وعوَّل على إنفاذها رغبة منه فى التخلص من لذريق خصمه وخصم صديقه غيطِشة . ويذهب سافدرا إلى أن يُليان ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطِشة وأنصاره ، وليس لدينا دليل على صحة هذا الفرض إلا عبارة سباستيان السلمنقى التى ذكرناها ، وهى عبارة لا تجد ما يؤيدها إلا فى كلام ابن القوطية[(١)].

رحب موسى بيليان وما عرضه عليه ، لأنه كان بطبعه ميالاً للفتوح والغزوات ، وكان من الطبيعى أن يتشكك فى صحة المعلومات التى أدلى بها يُليان إليه ، فطلب إليه أن يقوم بسرية فى جنوبى الأندلس ، وإنما أراد موسى بذلك أن يتأكد من أن يُليان عدو للذريق لا يخشى الإغارة على بلاده ، ويرى بعينيه رد الفعل الذى يحدثه مثل ذلك العمل[(٢)]، وقد قام يليان فعلاً بغارة سريعة عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبى ، فتشجع موسى وقرر العمل .

ولم يكن موسى ليستطيع الشروع فى عمل خطير كهذا دون أن يستأذن فيه الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، فكتب إليه يستأذنه ، فتردد عبد الملك وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه فى أرض مجهولة ، فكتب إلى موسى يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير[(٣)] فانتدب واحداً من كبار أتباعه هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويغلب أنه عربى ، ويبدو أنه كان رجلاً قادراً حازماً ، لأنه سيقوم فيما بعد بدور خطير فى تاريخ المغرب[(٤)].

---

(١) انظر : ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣ .
فتح الأندلس ، ص ٤

(٢) ويقول ابن عبد الحكم : « ... فقال طارق (ليليان) : لا أطمئن إليك حتى تبعث إلىَّ برهينة ، فبعث إليه بابنتيه - ولم يكن له ولد غيرهما - فأقرهما طارق بتلمسين ، واستوثق منهما ، ثم خرج طارق إلى يليان ، وهو بسبتة على المجاز... » - فتوح ص ٢٠٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ص٥ .
فتح الأندلس ، ص ٥

(٤) يذهب بعض المراجع إلى أن طريفاً كان من أهل اليمن ، وتختلف بعد ذلك ، فيزعم بعضها أنه كان من النخع ، =

١٧- أبو زرعة طريف يقود بعثاً استطلاعياً

عبر طريف إلى الأندلس فى قوة صغيرة من أربعمائة راجل ومائة فارس ، وقد قدم لهم يليان أربعاً من السفن عبروا بها ، ونزل المسلمون فى جزيرة صغيرة تسمى بالوماس (Palomas) على مقربة من الموضع الذى ستقوم فيه بلدة ستحمل اسم طريف (جزيرة طريف Tarifa) من ذلك الحين، وخَفَّت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعونهم ، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الإيبيرية ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٩١ (يوليو سنة ٧١٠م) .

ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغانم كثيرة وسبياً عديداً ، وعاد طريف بمن معه وبعث إلى موسى فى القيروان بنصيبه من الغنيمة والسبى ، فتشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقى(١).

١٨- حملة طارق بن زياد

ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلاً من خيرة جنده ، هو طارق بن زياد . ولسنا نعلم شيئاً موثوقاً فيه عن طارق قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين فى فتح الأندلس(٢).

ولكن الغالب أنـه بربرى من نفزة ، ويبدو أن أبـاه زياداً قد أسلم أيـام عقبة وحَسُنَ إسلامه ، وخلفه ابنه هذا فدخل فى خدمة ولاة المسلمين . ويبدو أنه كان صغير السن حينما

= ويذهب البعض الآخر إلى أنه من مَعَافِر ، ولم نعد نسمع عن طريف هذا بعد هذه السرية الموفقة التى قام بها مستطلعاً أحوال الأندلس للمسلمين ، ولكنه يظهر مرة أخرى على مسرح الحوادث فى المغرب ، ويلعب دوراً خطيراً فى الثورة التى قام بها ميسرة البربرى البرغواطى فى المغرب الأقصى ، والتى كانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين . ويقول ابن عذارى (٢/ ٥) : إنه بربرى .

(١) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 64.

(٢) يسميه ابن خلدون : طارق بن زياد الليثى . (انظر المقرى ، جـ١ ص ١٤٣) وتذهب بعض المراجع إلى أن طارقاً ربما كان فارسى الأصل ، اعتماداً على ما يقوله الرازى : « فدعا (موسى) مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسياً همذانياً ، وقيل إنه ليس بمولى موسى ، وإنما هو رجل من صَدِف وقيل مولى لهم ، وقد كان عَقِبُه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً . وقيل : إنه بربرى من نفزة ...» - نقله المقرى : النفح ، جـ١ ص ١٥٩ .

انظر : ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ص٦ .

الأخبار المجموعة ، ص٦ .

والترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة قام بها إميليو لافونْتِ إى ألكانترا ص ٥ ، وهو يترجم هذه العبارة : Un persa de Hamadan.

Cf: LÉVI-PROVENÇAL. Histoire de l'Espagne Musulmane , (I Séd.)I, 14.

عهد إليه موسى بهذه المهمة الكبرى ، لأننا لم نسمع به قبل ذلك فى أى فتح من فتوح موسى على كثرتها وتواترها ، ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك . والغالب أنه كان من المقربين المخلصين لموسى لأنه تخطى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند فى أيامه مثل : زُرْعة بن أبى مُدرك ، وعياش بن أخيَل ، وطريف بن ملوك ، والمغيرة بن أبى بردة ، وغيرهم كثيرون ، وعهد إليه فى قيادة أخطر عمل حربى قام به إلى الساعة . ويبدو أن موسى كان عظيم الثقة فى أمانته ، لأنه وكل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تَعِد به من المغانم ، فأحب موسى أن يعهد فيها إلى رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء .

ومن غريب الأمر أن الجيش الذى أرسله موسى كان بربرياً صرفاً أو يكاد ، وهذه هى أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد فى عمل حربى خطير كهذا إلى قائد غير عربى وجند غير عرب فى الغالب ، ولكن موسى مع ذلك احترز للأمر فأرسل مع طارق عدداً من كبار الجند من العرب وموالى الأمويين ، مثل عبد الملك بن أبى عامر المعافرى ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة اللخمى وهو عربى صرف . وكان فى الجيش عدد من كبار محاربى البربر ممن سنسمع عنهم كثيراً فيما يلى ، مثل مونوسة البربرى ، ويبدو أن موسى تعمد أن يختارهم من خيرة جنده ؛ لأننا سنراهم يقومون بما عهد إليهم فيه فى دقة وقدرة تبعثان على الإعجاب .

وكان الاتفاق قد تم بين موسى ويليان على أن يكون هذا الأخير وأصحابه أدلاء للمسلمين ومعينين لهم فى أعمال الحملة ، وتعهد يليان كذلك بأن ينقل المسلمين إلى الأندلس على سفن من عنده ، وكانت سفن يليان التى تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بُدٌّ من نقل المسلمين عبر المضيق على دفعات ، وأن يقيم من يعبر منهم ساكناً فى خفية عن أهل الشاطىء حتى يتم جواز الجيش كله .

تم عبور المسلمين فى ربيع سنة ٧١١م ، وتذهب المراجع الإسلامية إلى أن العبور كان فى رجب من سنة ٩٢هـ ، ولكننا لا نعرف الشهر الذى عبروا فيه على وجه التحقيق(١) ، وتجمع

(١) تُجمع المراجع العربية كلها - بما فيها الطبرى - على أن عبور المسلمين كان فى ربيع الثانى سنة ٩٢هـ (٧١١م) ، ولو أخذنا بما يقوله الرازى (فى ابن عذارى) من أن طارقاً نفسه وصل الأندلس فى آخر فوج من أفواج العبور فى الخامس من رجب سنة ٩٢هـ لكان فى إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدءوا العبور فى آخر ربيع الثانى (ابن عذارى : البيان ، جـ٢، ص٧) . =

المسلمون عند الجبل الذى سيعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق ، واجتهد طارق فى أن يُحصِّن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتمى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً [١] ، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى بعث عبد الملك بن أبى عامر فى فرقة مختارة من الجند سارت بحذاء الساحل شمالاً بغرب فاستولت على قرطاية Carteya- Torre de Cartagena ، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء فى مقابل جبل طارق ، وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله فى يد المسلمين ، وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر . وأمن المسلمون أن يعبر أحد إلى مركزهم الأول عند جبل طارق فيهدد مراكزهم وطريق مواصلاتهم مع إفريقية [٢] .

ولم يكد المسلمون يطمئنون فى مركزهم هذا حتى هاجمتهم جماعة من أنصار لذريق يقودها قائد يسميه ابن عذارى « بنج » [٣] وتسميه المراجع الإسبانية بَنْشُو وبَنْشُيُو ، فقضوا عليها من غير كبير مشقة ، ولم ينج من جندها إلا واحد يسميه الرازى بِـلْـيَـاسِنْ (Willie-sindo-Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق فى أقصى الشمال عند بنبلونة وأنبأه بخبر نزول العرب البلاد ، فسارع لذريق نحو الجنوب واحتل قرطبة وأخذ يستعد للسير نحو الجنوب للقاء العرب [٤] .

= ويقول ابن حيان فى « المقتبس » (جـ١ ص١٥٥) أن العبور كان لسبع خلون من ربيع الأول سنة ٩٢.
ويؤيد مؤرخى العرب فى ذلك الملك ألفونسو الكاستو (الطاهر) فى تاريخه ، فيجعل العبور سنة ٦٤٩ بحسابه ، وهى تعادل سنة ٧١١ بالحساب الجريجورى (Espana Sagrada, XXXVII, 312) .
ويجعله إيزودور الباجى فى السنة السادسة من خلافة الوليد ، وهى سنة ٩٢ هـ .

(١) يميل المؤرخون المحدثون إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التى عبر عليها فأحرقها لكى يقطع كل أمل لجنوده فى العودة إلى إفريقية وليدفعهم إلى الاستبسال فى القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا الإدريسى وهو من رجال القرن الثانى عشر الميلادى (كتب جغرافيته سنة ١١٥٤) ولهذا نشك فى صحة هذا الخبر ؛ ثم إن طارقاً لم يكن يستطيع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان .

(٢) SAAVEDRA, Estudio ... p. 65 .

(٣) كتب ابن عذارى هذا الاسم « بنج » من غير شكل ، ونقله الأسقف ردريجو « يـنـِـجُ » (Eneco) ، وجعله سافدرا « بَـنْـجُ » (Bancho) ، وورد فى تاريخ إسبانيا العام Cronica general de Espana فى صورة إنْيِـجُـو (Inego) وفى الترجمة الإسبانية للرازى شَـنْـجُ (Sancho) . وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين تدمير ، أما بلياسن فلم يرد ذكره إلا عند الرازى وعنه أخذه سافدرا وجعله Wiliesindo .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ص ١٠ .
Cf.: Cronica del Moro Rasis, apud . SAAVEDRA Op. cit. p. 149.
وفهرس الأسماء فى تاريخ إسبانيا العام .

(٤) كان لذريق قد توجه إلى الشمال فى أوائل ربيع ٧١١ لصد هجوم قام به نفر من الفرنجة على بعض نواحى نبره =

ويبدو أن نية طارق كانت السير مباشرة إلى قرطبة عاصمة إقليم بيطى (بيتِس) ، لأنه سار بحذاء الساحل حتى أدرك جزيرة طريف ، ومن ثم اتجه إلى الشمال فى سهل قليل الارتفاع ، ومر بين جبلى سيليا دل بابا وسييرا دل رِتين واقترب من بحيرة الخندق (لاخاندا) الواسعة التى تحصر بينها وبين سييرا دل رتين سهلاً متسعاً بعض الاتساع حصيناً ، لأن البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى ، واستمر حتى أدرك نهر البرباط الذى يخترق بحيرة لاخاندا ، وكانت بهذا الموضع فى هذه الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ويسميها العرب بِكّه ، ولهذا سموا هذا النهر وادى بكه ، وحرَّفه بعضهم إلى لكّه أو وادى لِكّه ، وقد أساء الراوية الإسبانى رودريجو دِرادا نقل هذا اللفظ فنقله لِيتّه ووادى ليته ، ومن هنا نشأت هذه التسمية الخاطئة التى سيقع فيها كل المؤرخين الإسبان بعده ، فسموا هذا الموضع الذى دارت عنده المعركة الحاسمة بين العرب والإسبان جواداليتِ (Guadalete) [(١)] .

= (نفار) ، وقد ذهب سافدرا إلى أن هجوم هؤلاء الفرنجة إنما كان بتحريض من يليان وحزب غيطشة ، وقد أرادوا بذلك إشغال لذريق فى ناحية نائية تيسيراً للأمر على العرب ، وقد اعتمد سافدرا فى ذلك على عبارة للوقا دى توى ، يقول فيها :

" Julianus callide incitavit Francos ut expugnarent Hispaniam citeriorem ... "

Cf.: LUCAS DE TUY. Cronicòn Mundi, L. III. p. 70.

SAAVEDRA. Op. cit. p. 65 .

وقال المقرى : إن الذى أنبأ لذريق نبأ العرب هو تدمير ، وكان يليان قد استخلفه على الأندلس ، وليس لدينا ما يثبت ذلك .

انظر : النفح ، جـ ١ ص ١٤٩ .

(١) هذا هو رأى سافدرا فى أصل هذا اللفظ وصوره المختلفة التى ورد بها فى النصوص ، وقد ذكر جايانجوس فى تعليقاته على ترجمة نفح الطيب أن هذا النهر كان يسمى عند القدماء Chrysos ، وأورد كذلك صيغاً أخرى لاسم هذا النهير هى :

وادى لِد ، وادى لِكه : عند ابن الخطيب .

عند كوند Vadilac, Vadileke , Wadalak Gaudalede عند لذريق الطليطلى (Rodericus Toletanus)

Leke فى الصورة الإسبانية للرازى .

ثم أتبع ذلك برأى طريف ، وهو أنه وجد عند فلوريث فى الجزء التاسع من Espana Sagrada ص ٥٣ تفسيراً للفظ جْوَادالِيت ملخصه أن العرب سموا نهير كريسوس بهذا الاسم ومعناه « وادى السرور » بسبب ما أصابوا من السرور والراحة عنده ، ثم استنتج من ذلك أن العرب لا بد قد سموا هذا النهر وادى اللذة أو وادى لذة ، فكان هذا هو أصل هذه الصور كلها .

Cf: GAYANGOS . The Hist. of the Moh .Dyn . in Spain, I.p.524.

SAAVEDRA. Op. cit . p. 68-69.

وقد قرأ بروفنسال الاسم وادى لَكُه وقال : إن هذا اللفظ تحريف للفظ Lago-Lacus أى : البحيرة ، والمقصود هنا بحيرة الخندق (Lajanda) . وهذا التفسير هو أقرب التفاسير إلى الصحة .

وهنا عرف طارق عن سبيل عيونه أن لذريق سائر إليه فى جنده ، وأنه وصل إلى قرطبة واستقر بها قليلاً ، ثم تقدم جنوبيها وضرب معسكره عند شذونة (Medinasidonia) واستعد للموقعة فى سهل البرباط على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية . وتقدر المراجع جيشه بمائة ألف ، وربما كان فى هذا التقدير مبالغة ، ولكن الذى لا شك فيه أن عدة جيشه كانت تزيد على عدة جيش المسلمين أضعافاً كثيرة ، وأن عدد الفرسان فيه كان عظيماً .

ورأى طارق أن العدد الذى معه لا يكاد يكفى للقاء جيش ضخم كجيش لذريق ، فبعث يطلب المدد من موسى ، فعجل موسى بإرسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن ملوك وفيهم عدد عظيم من العرب ، فأدركوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة ، وقويت بهم نفسه ونفوس من معه . والغالب أن جزءاً عظيماً من هذا المدد كان من الفرسان ، لأن المراجع تحدثنا أن قوة طارق الأولى كانت كلها من الرَّجَّالة ، فى حين أننا سنرى للمسلمين قوة يسيرة من الخيل فى المعركة الحاسمة(١).

ويبدو أن سير المسلمين الموفق فى البلاد إلى هذه اللحظة قد أنعش الآمال فى أنفس أعداء لذريق ، فانضم منهم إلى المسلمين نفر عظيم أعانوهم بالقوة والرأى(٢)، وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه فبدأت نفوسهم تحدثهم بتخوُّنه وتركه لمصيره إذا اشتبك مع المسلمين فى القتال ، ويقال إن ششبرت وأبّه أخوى غيطشة كانا على رأس هذا الفريق الذى عول على الخيانة ، وأنهما انتظرا اللحظة المواتية ليتخليا عن لذريق ، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطِشة(٣).

(١) يذهب سافدرا - اعتماداً على المراجع النصرانية - أن عدَّة جيش طارق بلغت قبل المعركة ٢٥ ألفاً بسبب من انضم إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق ومن أهل البلاد . فإذا كانت عدة من مع طارق من المسلمين اثنى عشر ألفاً ، فإن عدة من انضم إليهم من النصارى كانت ثلاثة عشر ألفاً ، أى : أكثر من الجيش نفسه ، وهذا أمر مستبعد ، بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد انضموا إلى الجيش الإسلامى .

CF.: Cronicón Silense, no. 16
RODRIGO XIMÉNEZ Arzobispo de Toledo (i.iii,c.20)

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ص١١ .
الرازى فى المقرى : نفح الطيب ،جـ١ ص١٦٢ .
ويُفهم من رواية المقرى أن الذى دبر الخيانة لم يكن أبناء غيطشة وأخويه فقط ، وإنما نفراً كبيراً من القوط كانوا غضاباً على لذريق .
(٣) انظر : ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣ .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢، ص٨ .
الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أن نفراً من جنده يدبر الخيانة ، فأحب - قبل أن يلقى المسلمين - أن يتعرف ما لديهم من القوة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضُّوا عليها انقضاضاً فولَّت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال العرب وما هم عليه من الحمية والتشوق للقتال ، فكاد يسقط فى يديه[1].

١٩- معركة وادى البرباط ، ١٩ يوليو سنة ٧١١

وبدأ اللقاء بين الجانبين يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢هـ[2] (التاسع عشر من يوليو سنة ٧١١) على وادى برباط على مقربة من شذونة ، واستمرت المعركة طول ذلك اليوم وحمى وطيسها فى اليوم التالى ، وأظهر البربر الذين أتى بهم يليان قدرة عظيمة على القتال ، فقد كان انتقاهم من خيار غمارة وأحسن تدريبهم على الأسلوب البيزنطى . وكان طارق قد قدم نفراً من السودان بين يدى جيشه ، ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطى الأولى[3].

وأظهر فرسان القوط قدرة عظيمة فى أوائل المعركة ، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان ، وكان قواد الفرسان من أعداء لذريق الغاضبين عليه ، ويبدو أن يليان ورجاله كانوا نشيطين طوال المعركة ، يخذِّلون الناس عن لذريق ويصرفونهم عنه ، مؤكدين لهم أن العرب لم يقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظفر بالغنيمة ، وأنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم الأندلس بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين جنود لذريق - وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه -فلم يلبث فرسانه - وهم خيرة جنده - أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره[4]. وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى فى جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ من بقى منه بالفرار وأسياف المسلمين فى أقفيتهم .

---

(١) الرازى : برواية المقرى - نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٣ .

(٢) الرازى : برواية المقرى - نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٣ .

(٣) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا ، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً فى الفتح ، وسيكون لهم دور حاسم فيما وقع بين العرب بعد ذلك من الحروب فى الأندلس ، وسننبه إلى ذلك فى حينه .

CF.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 71.

(٤) تُجمع المراجع العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والعرب . وقد ناقش سافدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذى قام بترتيب المؤامرة كانا أخوى غيطشة وهما أبه ، وششبرت ، وكان أحدهما على خيل لذريق فى هذه المعركة . وقد تعجب سافدرا من أن لذريق يعهد فى أمر هام كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المراجع العربية تذكر أن لذريق سعى فى الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة - وقد ترعرعوا وركبوا الخيل - يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢-٣.

وقد قُتِل من القوط فى ذلك اليوم عدد عظيم ، ولم يعثر للذريق على أثر ، وتذهب المراجع العربية إلى أنه أراد أن يعبر البرباط على عجل فغرق فيه ، ولم يعثر المسلمون إلا على خُفِّه[١]. ولكنه لم يمت فى هذه المعركة كما سنرى ، وسيقوم بدور خطير فيما بعد . وقتل فيها أيضاً ششبرت ، وكان ممن تخلى عن لذريق طمعاً فى الغنيمة والسلامة! وأصاب المسلمون من هذه الواقعة غنائم لا تكاد تحصى ، ولعل أكثر ما يهمنا منها هى الخيل ، فقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة حتى لم يبق منهم راجل . وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف ، وبقى منهم تسعة آلاف زادهم النصر حماسة ، فأسرع بهم طارق نحو قرطبة تتقدمهم هذه الشرذمة الباسلة من السود التى أبلت فى هذه المعركة بلاء طيباً[٢].

ولم يكد خبر هذا الانتصار يصل إفريقية « حتى أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشْر ، فلحقوا بطارق » ففاض سيل البربر على الأندلس ، وأخذوا يستقرون فى النواحى المفتوحة . وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعب معه تقديره بعد هذه الواقعة ، وأسلم الآراء هو أن نقول إن جيش المسلمين تضخم تضخماً عظيماً ، ورأى طارق أنه لن يستطيع السير بهذا الجحفل اللجب دفعة واحدة ، فمال إلى تفريقهم فى بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحى .

وأعقب هذا الانتصار اضطراب فى شئون الأندلس كلها ، « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال » كما يقول الرازى[٣]. وحسب حزب غيطشة أن الفرصة قد سنحت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم[٤] ، وفعلاً بذل وَقِله (أخيلا) جهداً لكى يستصدر من مجلس طليطلة قراراً باعتباره

(١) لا يقطع ابن عذارى بموت لذريق ، ويكتفى بقوله : « ولم يُعرف للذريق موضع ، ولا وُجِدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل . والله أعلم » .

ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص ١٠ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٧ .

الرازى ، برواية المقرى - نفح الطيب ، جـ١ ص١٦٣ . وهو يقول : إن طارقاً قسم الغنائم على ٩٠٠٠ من المسلمين ، أى : أن هؤلاء هم الذين سلموا وقتل الباقون .

(٣) رواه المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٣ .

(٤) يقول ردريجو الطليطلى :

... et rex Rudericus,cum esset magnanimus , antequam fugeret, permitteret se occidi,et eo mortuo,posset eis regnum perditum provenire ...

RODERICUS TOLETANUS. De Rebus Hispaniae, Lib. III cap.20 Cf: SAAVEDRA. Op.cit p. 76.

=

ملكاً ، ولكن الأمر لم يستقر له لأن الشائعات كانت تملأ الجو بأن لذريق لم يقتل ، وعمل هؤلاء الغيطشيون من جهة أخرى على تشجيع طارق على الاستمرار فى الفتح حتى يتم لهم الانتصار المحقق ، وأما يليان فقد ثبت بقواته فى ناحية الجزيرة الخضراء[١].

ولو عمل طارق بأمر موسى لكان من الواجب أن يعود إلى إفريقية بعد هذا النصر كما عاد عبد الله بن أبى سرح إلى مصر بعد نصر سبيطلة ، ولكن طارقاً كان أبعد نظراً من عبد الله بن أبى سرح ، ووجد أن الأبواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركها والعودة إلى إفريقية ، فمضى مسرعاً نحو استجة ليعبر شنيل من مخاضتها فى طريقه إلى قرطبة ، ويبدو أن عدداً عظيماً من بقايا جيش لذريق كان قد تحصن فيها لأن طارقاً لقى فيها مقاومة عنيفة ، واحتاج إلى عون يليان الذى خف إليه مسرعاً . ويبدو أنه استبان كثرة مَنْ مع طارق وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً فى حملة واحدة ، فنصحه بأن يفرق جنده فى بعوث جانبية ، فقال له : «قد فتحت الأندلس ، فخذ من أصحابى أدلاء ففرِّق معهم جيوشك وسِرْ معهم إلى مدينة طليطلة » . ففرَّق جيوشه من استجة[٢].

ولم يلبث حاكم البلد أن أسلمه صلحاً ودخل فى طاعة المسلمين[٣]، وانفتح أمامهم طريق قرطبة وطليطلة . ولو قائد غير طارق لاتجه نحو قرطبة وأنفق وقتاً طويلاً فى الاستيلاء عليها ، ولكنه كان قد علم ببعض ما كان يدور إذ ذاك فى طليطلة ، وعرف أن الظروف لا تسمح بإنفاق الوقت فى الحصول على مدائن جنوبى الجزيرة كقرطبة وغرناطة ومالقة ، فعجل بإرسال مغيث الرومى فى قوة كبيرة إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته ، ثم مضى بمعظم جيشه مسرعاً نحو طليطلة ليصل إليها قبل أن يُحكِم أنصار لذريق الدفاع عنها ، وقبل أن يدبر أنصار غيطشة أمراً لا يكون فى صالح المسلمين .

= وللرازى إشارة هامة تؤيد هذا الرأى .قال إن يليان قال لطارق : « قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى مهرة ، ففرق جيوشك معهم فى جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم » مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئاً فى عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقاً بالإسراع إلى طليطلة رأساً ليتدارك الأمر .

انظر : المقرى - نفح الطيب ،جـ١ ،ص١٦٤ .

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص١٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص ١٠ .

SAAVEDRA. Op.cit. p.77 .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٨ .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طارقاً أرسل فى هذا الوقت حملة فتحت جنوب شرقى الأندلس وكبار مدائنه مثل مالقة وغرناطة وأوريولة ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لن يفتحوا هذه النواحى إلا فى ولاية عبد العزيز بن موسى ، ولا يستبعد أن يكون قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحى وغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح . وكان الجند عنده قد كثروا ففرَّق أعداداً منهم مع جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق ، وربما كان يليان صاحب هذه الفكرة(١).

وكان جيش المسلمين يزداد عدة فى الطريق بمن كان ينضم إليه من الغاضبين على لذريق وعهده ، وانضم إليه كذلك عدد من اليهود الذين استقبلوا أخبار انتصار المسلمين على القوط استقبال الظمآن للماء(٢)، فقد كان حالهم معهم كما رأينا سيئاً جداً ، ولا نزاع فى أن طارقاً أفاد فائدة كبيرة من هذه الجماعات من الإيبيريين واليهود التى انضمت إليه ، فقد وجد فيهم الأدلاء الذين يقودونه فى هذه الأباطح الفسيحة التى لم يكن المسلمون يعرفون عنها شيئاً ، وهكذا أُسعد المسلمون بأكثر مما كانوا ينتظرون ، وسار هذا القائد المجدود طارق يقود هذه الجماعات من العرب والبربر والموالى والسود والإيبيريين واليهود قاصداً طليطلة عاصمة القوط .

٢٠ـ احتلال طليطلة عبر طارق الوادى الكبير عند مَنْجبار (Manjibar) وسار فى الطريق القديم الذى كان يعرف فى عهود الرومان باسم طريق هانيبال(٣) ، ودخل طليطلة من غير مقاومة تُذكر ، واستولى على الكنوز الزاخرة التى وجدها فى قصور القوط وفى كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون فى شىء مما وقع للمسلمين فى فتوحهم كلها مثلما أسهبوا فى صفة المذبح المحلَّى بالجوهر الذى اغتنمه المسلمون فى هذه الكنيسة الجامعة ، فقد سموه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص ، ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢، ص ١٠ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ،ص١٦٤.

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. p. 79.

(٣) يذكر المقرى أن طارقاً سار إلى طليطلة فى الطريق المار بجَيّان ، وهذا يأذن لنا فى القول بأنه اتبع طريق هانيبال الرومانى ، لأنه كان طريقاً معموراً إذ ذاك ، وفيه تمر الآن سكة حديد الأندلس .
المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٧ .
Cf: SAAVEDRA. Op. cit. 79 .

القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه فى يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى[(١)].

وقد وجد المسلمون المدينة شبه خالية لأن أهلها انتثروا عنها طالبين الهرب حينما علموا بمقدمهم ، حتى أسقف البلد سِنْدرِدْ وكبار قساوسة المجمع الطليطلى فضَّلوا ترك البلد ينعى من بناه وتوجهوا إلى روما . ولم يشتغل طارق بالغنائم والذخائر وإنما مضى قُدماً حتى أدرك وادى الحجارة ، واستمر صاعداً حتى أدرك بليدة تسميها المراجع العربية « المائدة » على مقربة من قلعة هنارس[(٢)] ، وكان الصيف قد انقضى وأقبل أكتوبر ومعه برد الخريف ، ففضل طارق وأصحابه العودة لكى يقضوا الشتاء فى طليطلة ، وكانت الغنائم قد أثقلت العسكر إلى حد عظيم .

ويستبعد أن يكون طارق قد سار إلى أمايا (Amaya) واشترقة (Astorga) فى ذلك

(١) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة فى « مدينة المائدة » ، وهذه المدينة هى فى الغالب قلعة هنارس(Acala de Henares) . وهى بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) ، وهى ليست كذلك بمائدة أصلاً ، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة « مائدة» بهذه الفخامة ، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة فى طليطلة ، إذ لم تكن فى قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : « وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة إلى سليمان النبى عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت فى أيام المناسك ، ويصفونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ فى هذه السبيل» ... وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة .

ولسنا نعلم كيف وجده المسلمون فى قلعة هنارس ، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسته ، ولم يستطيعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع ، وذلك فرض يؤيده أن المؤرخين لا يحدثوننا بغنيمة كبيرة من قصور ملوك القوط فى طليطلة ، مما يفهم منه أن رجال القصور قد حملوا معهم أحسن طرفها حينما أخلوها لاقتراب المسلمين .

ووصف هذه المائدة لا يمكننا على أى حال من تصور هيئتها تصوراً صحيحاً ، إذ أن ابن عبد الحكم وصاحب الأخبار المجموعة وابن عذارى والمقرى وصاحب فتح الأندلس يتفقون فى وصفها اتفاقاً حرفياً ، فهى عندهم « كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها » ، والغالب أنهم يريدون أنها كانت محلاة بالزبرجد الأخضر . أما عن حجمها فإن صاحب الأخبار المجموعة يوقعنا فى حيرة شديدة ، لأنه يقول تارة : « ولها ثلثمائة رجل وخمسة وسبعون رجلاً » ! ويقول تارة أخرى : « ... وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه » .

انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٧ ، ١٩ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٤ .

ابن حيان برواية المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٢ .

وفتح الأندلس : ، ص ٩ .

(٢) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 79-80.

الحين كما يزعم بعض المؤرخين[١]،لأن الشتاء كان قد اقترب ، وكان الإجهاد قد نال من المسلمين وثقلوا بالغنائم ، والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير .

٢١- فتح قرطبة

وأما مغيث الرومى ومن معه من الرجال - ولم يكن عددهم ليزيد على سبعمائة فارس - فقد أخذوا يقتربون من قرطبة حتى أدركوا الضفة اليسرى من الوادى الكبير مقابل قرطبة ، وكانت القنطرة التى تصل الشاطئين مهدمة فى ذلك الحين ، فاضطر المسلمون إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة المناسبة للعبور . ولبثوا حيناً مترصدين مختبئين فى غابة بين قريتى شقندة (Secunda) وطرسيل[٢] على الضفة اليسرى للوادى الكبير ، وأخذوا من مخبئهم هذا يستطلعون أخبار البلد قبل أن يعبروا النهر إليه ويهاجموه .

وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة وللذريق خاصة لأن القوط كانوا مختصين أنفسهم بالجزء الغربى من البلد ، وتركوا جزءه الشرقى للأهلين ، كما كان الرومان قبلهم يفعلون[٣] ، وأقاموا سوراً بينهم وبين الأهلين حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبوذون ، وكان البلد حصيناً يدور عليه سور من الحجر الضخم ، ولكن الظاهر أنه كان متداعياً فى بعض أجزائه لأن العرب سينفذون من ثغرات فيه .

وكان من حسن حظ العرب أن الجزء الذى كان يقابل القنطرة هو الجزء الذى كان الأهلون من الإيبيريين الرومان يسكنونه ، وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية) التى ستصبح جامع قرطبة الكبير فيما بعد ، ولم يصعب على المسلمين الاتصال بنفر من الأهلين واستطلاع أخبار البلد منهم ، وبمعونة هؤلاء استطاعوا عبور الوادى الكبير فى ليلة غزيرة المطر من ليالى أغسطس[٤] ، عبروا فى مواجهة باب القنطرة أو باب الصورة ، نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور ، وظل قائماً أيام المسلمين، وجعل مغيث وأصحابه يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها .

---

(١) انظر : ابن حيان عند المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ،ص ١٦٧ .

(٢) يسمى هذا الموضع اليوم El Campo de la Verdad . أما عن طرسيل فانظر تعليق سافدرا فى كتابه المذكور آنفاً ، ص٨١ ، هامش ٢ .

(٣) SAAVEDRA. Op. cit. p. 82 .

(٤) يقول الرازى : « وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذى نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً ... » .

المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٤ .

ولم يكن من العسير على المسلمين أن ينفذوا إلى داخل البلدة من هذه الناحية ، إما من ثغرة دلهم عليها واحد من أهل البلد أو بتسلق السور . ولم يكد نفر من المسلمين يجتمع داخل البلد حتى اندفعوا إلى الباب ففتحوه ليدخل بقية إخوانهم[١] ، وحدثت في البلد هيعة أفاقت على أثرها حامية البلد من القوط ولم يكن عددها يزيد على ٤٠٠ فارس ، وكانت مقيمة مع الحاكم في الجزء الغربي الذي سيعرف أيام المسلمين بالمدينة أو القصبة (يسمى اليوم لافيليا = المدينة) ، وكان الحاكم مقيماً وحده في قصر منيف من الضاحية التي ستُعرف أيام المسلمين بربض الوراقين ، فأسرع إلى حاميته ، ولم يمهله العرب أن فاجأوه ، ففر بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة القديس أثيسكلو (San Acisclo)[٢] وتحصن فيها ، وأقام المسلمون حولها محاصرين إياها .

واستمر الحصار قرابة الثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين ، وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفطن إليه المسلمون ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كانوا مع المسلمين[٣] . وقد صبر هؤلاء المحصورون صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن جهدوا جهداً عظيماً ، ويذهب الرازي إلى أن مغيثاً أوقد النيران في الكنيسة حتى ماتوا حرقاً . ونحن نستبعد ذلك ، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زماناً طويلاً وليس فيها للنار أثر[٤] . وأراد قائد المحصورين الهرب ، فخرج يشتد على جواده ، فتبعه مغيث وحده ، وخرج الرجل من البلد وأفضى إلى ضاحية قُطِلبرة وكاد ينجو ، لولا أن عثر به جواده ، فجلس على ترسه مستأسراً حتى أدركه مغيث وأسره ، وكان هو القائد الوحيد الذي أخذ أسيراً من كبار قواد القوط ، وقد سلمه مغيث لطارق ، واحتفظ به هذا ليذهب به إلى الخليفة ونازعه فيه موسى بن نصير فيما بعد ، فلما اشتد النزاع بينهما عليه أخرج مغيث سيفه وقتله .

---

(١) الرازي برواية المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) يسمي صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة شنت أجلح ، وقد ورد في تقويم قرطبة لعريب الذي نشره دوزي أن هذه الكنيسة هي سان أثيسكلو بالعجمية .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ وهامش ١ من ص ٢٥ من الترجمة الإسبانية .

وانظر كذلك : سافدرا ، المصدر المشار إليه ، ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٣) راجع أخبار ما وقع لهذا الأسود على يد الإسبان والقوط ، فقد وقع في يدهم وحسبوه مصبوغاً فحاولوا إزالة لونه بالغسل والحك حتى أعنتوه ! ثم تركوه يمضي غير مقدرين أنه عين عليهم ، فلما مضى إلى المسلمين أظهرهم على مجرى الماء . ولسنا نعرف إن كنا نقبل هذه القصة أو لا نقبلها ، لأننا لا نكاد نصدق أن الإسبان لم يكونوا قد رأوا أسود حتى الساعة .

الرازي - في المقري : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٦٥ .

(٤) الرازي ، نفس المصدر والصفحة .

أما بقية الحامية فقد قُتِلت عن آخرها عند باب الكنيسة التى اعتصمت فيها ، فسميت هذه الكنيسة من ذلك الحين كنيسة الأسرى . واحتل مغيث قصر الحاكم القوطى[١] ، الذى سيصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء ، بعد أن يعدل وتضاف إليه أجزاء كثيرة . وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة فظلت أكبر كنائسهم فى عاصمة الأندلس الإسلامية طالما بقيت المدينة فى حوزة الإسلام ، ثم عمد إلى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة ، « استنامة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم » ، كما يقول الرازى[٢].

وقد لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يفتحون فى الأندلس بلداً إلا جعلوا بعض حرسه وحاميته من يهوده ، ولا يعلل هذا إلا بأن اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين وأعانوهم من أول الفتح فى كل مرحلة من مراحله . وهذا أمر طبيعى ، لأن اليهود كانوا يقاسون على يد القوط بلاء شديداً ، فلم يكادوا يرون المسلمين مقبلين حتى انضموا إليهم وآزروهم ، فجزاهم المسلمون بذلك . وللرازى فى هذا عبارة تستحق التسجيل لا لأهميتها للفتح وحده ، بل للتاريخ الأندلسى عامة : « وصار ذلك لهم سنة متبعة فى كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح»[٣].

وهنا ، وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره فى العودة إلى الحكم ، تقدم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسحب طارق وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ، فيعود آل غيطشة إلى ما كانوا فيه من الملك والسلطان ، فلما خيب طارق رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام سقط فى أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إياه. ووجد طارق أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم ، وهى كثيرة فأمضاها لهم . ويبدو أنهم استقلوها وطمعوا فى المزيد ولم يستطع طارق إجابتهم إلى ما سألوا ، فاستأذنوه فى المسير إلى موسى بن نصير فى إفريقية وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ففعل .

(١) فى هذا يقول صاحب الأخبار المجموعة : « ودخل مغيث بلاط قرطبة فاختطه » .
والبلاط هو القصر ، عن palatum اللاتينية كما هو معروف .
انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ .
(٢) الرازى ، فى المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٦٥.
(٣) الرازى ، عند المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٦٦.

فلما بلغوا موسى أقر طارقاً على ما فعل ، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين ، ويبدو أنهم ألحوا على موسى فى الزيادة ، لأنه - على قول الرازى - أحالهم على الخليفة نفسه(١) فأقر عهد موسى وطارق . وليس لدينا ما يؤيد ذهابهم إلى دمشق ، ونحن أميل إلى القول بأن موسى بعث إلى الوليد بالمسألة كلها ، فلم يفعل أكثر من أن أقر عهد أميريه ، وعاد الأمراء آخر الأمر إلى الأندلس قانعين بما أصابوا ، ولم يكن شيئاً قليلاً ، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة - هى بعض ما كان لأبيهم الملك غيطشة - فأصاب كل منهم ألفاً : أخذ ألمند ألف ضيعة فى الغرب واستقر فى إشبيلية ، وأخذ أرطباس ألفاً فى وسط الأندلس واستقر فى قرطبة ، وأصاب أخيلا (وقله) ألفاً فى شرق الأندلس وفضَّل الإقامة فى طليطلة فى ظلال المسلمين ، وبهذا كان الفتح الإسلامى خيراً عظيماً عليهم وعلى بيتهم المهضوم .

٢٢ـ عبور موسى إلى الأندلس

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير لم يكد يسمع بأخبار ما وفق إليه مولاه طارق من الفتح حتى أكل قلبه الحسد ، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه وليفتح بنفسه فتوحاً أعظم من فتوحه . وعلى الرغم من أن موسى لم يكن بعيداً عن الغرور والحسد والطمع ، فإننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذى دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارقاً كان بطبعه رجلاً متواضعاً قنوعاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاه وأميره ، وكان يوقفه على الأخبار أولاً بأول ، فقد كان المسلمون قد استوثقوا لأنفسهم من ميناءى جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وكانت السفن رائحة غادية .

ولا يعقل أن يكون موسى قد ظل جاهلاً بما يفعله طارق حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها ، وقد رأينا طارقاً يبعث أبناء غيطشة إلى موسى يستشيره فى أمرهم ، وإنما المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغى ، وأن خطوط مواصلاتهم فى شبه الجزيرة الواسعة فى خطر ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بد من فتحها وإلا تعرض المسلمون للخطر إذا شاء القوط فى أوريولة أو إشبيلية مثلاً السير إلى استجة أو شذونة وفصل الجيش الإسلامى فى الشمال عن الحامية الصغيرة التى كانت فى قرطبة ، وقطع الجيش والحامية معاً عن موانى الاتصال بإفريقية .

(١) الرازى ، برواية المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ولو قرأ الإنسان روايات هؤلاء المؤرخين فى شىء من الروية لاستبان أن بعض عباراتها يدل على تناقضهم ، فيذهب ابن حيان مثلاً إلى أن موسى « تنكب الجبل الذى حله طارق ، ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك فى طريق طارق ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان: نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وندلُّك على مداين هى أعظم خطراً وأوسع غُنْماً من مداينه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى . فَمُلِىء سروراً ».

وهذه عبارة إن دلت على شىء فعلى بُعْد نظر موسى من ناحية ، وعلى شرهه إلى الغنائم من ناحية أخرى ، ولكنها لا تدل على الحسد بحال . فأما بُعْد النظر فلأنه وقد أقبل مع هذا الجيش الكبير من المسلمين ، لم يكن من الحكمة فى شىء السير به فى بلاد ومدائن قد فتحت فعلاً ، إنما الحكمة فى استخدامه فى فتح بلاد لم تفتح بعد . وأما الشره إلى المغانم فظاهر ، لأن موسى قد سره أن يسير به الأدلاء إلى مدن أغنى من مدن طارق وأكثر منها مالاً ، وليس للحسد فى مثل هذا الموضع مكان ، لأن طارقاً ، مهما كان الحال ، مولاه وتابعه ، وباسمه يفتح ولحسابه يغنم(١).

لم يذهب موسى للقاء طارق وتأديبه ، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التى خلفها طارق دون فتح ، فلما تم له ذلك سار إليه ولقيه فى طلبيرة على مقربة من طليطلة. وقد أطنب بعض المؤرخين فى وصف ما وقع بين الرجلين عند هذا اللقاء ، فيذكر ابن عبد الحكم أن موسى شد وثاق طارق « وحبسه وهَمَّ بقتله » لولا تدخل مغيث الرومى. وكان طارق قد كتب إليه من محبسه يرجوه أن يسرع بخبر ما وقع له إلى الخليفة الوليد ، فذهب مغيث إلى موسى وحذره أن يسىء إلى طارق ، ثم ذهب مغيث ـ كما سنرى ـ إلى دمشق وأبلغ الوليد الأمر ، فكتب هذا يهدد موسى ويدعوه للمثول بين يديه ، فخاف موسى وأطلق طارقاً ، ثم لم يلبث أن عاد ليؤدى عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعل (٢).

ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة فى المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها فى المشرق فمرجعه على أغلب الظن إلى مغيث الرومى ، فقد كان محنقاً على موسى مولعاً بالكيد

(١) ابن حيان عند المقرى ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٠ .

له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهز فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبالغ فى مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل فى الفتح كما يرى من رواية ابن عبد الحكم الآنفة الذكر، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم فى هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أحرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى « وضع السوط على رأس طارق وونبه » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعاً أن يقول : إن موسى ضرب طارقاً بالسوط بدلاً من قوله : « وضع السوط على رأسه » فقط .

ثم إن الرجلين لم يلبثا أن تعاونا ، فترك موسى طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما فى اتجاه ، متعاونين متساعدين ، ولو كان ما ذكره ابن عبد الحكم صحيحاً ، لما حدث ما سنراه من اشتراك الرجلين الكامل فى العمل . وهذا واضح من قول ابن حيان : «قالوا : ثم إن موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه، وسار موسى خلفه فى جيوشه »(1) .

وعندنا أن ابن حيان أصح من ابن عبد الحكم فى هذا الموضع ، وهو لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى لطارق أو سجنه ، وكل ما يذكره هو أن موسى وبَّخ طارقاً على مخالفته أمره ، ثم لم يلبث الود أن عاد بينهما ، وظل طارق أوثق رجال موسى وصاحب مقدمته ، ولو كان موسى « مغيظاً » على طارق إلى هذا الحد الذى يزعمه ابن عبد الحكم ، فكيف لم يستدعه إليه إلا بعد أن أتم فتح ماردة ، مع أنه – أى موسى – أقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف طلب إليه أن يخرج للقائه فى طلبيرة فقط، وقد كان مستطيعاً استدعاءه إلى أبعد من ذلك ؟

الواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس ، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طلبيرة لم يكن لمجرد اللقاء بل لغرض آخر حربى سنعرفه . وقد أتم الرجلان الفتح معاً على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً ، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقاً وقف يشكو موسى بين يدى الخليفة . ولو كانت بينهما هذه الخصومة لسمعنا لها صدى – ولو خافتاً – فى المشرق بعد أن عادا معاً .

(1) ابن حيان عند المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٢ .

وللمقرى رواية تؤيدنا فى هذا المذهب ، إذ يقول : « ... ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر إلى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبحه هنياً مرياً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط...»(١) .

كل ذلك يحملنا على الظن بأن الرواية التى تصور القائدين المسلمين العظيمين متعادين إنما مرجعها إلى مغيث الرومى ، وللمقرى عبارة تؤيدنا فى هذا أيضاً ، فهو يقول من غير سند ظاهر : « ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه ، سأل مغيثاً أن يسلم إليه العلج صاحب قرطبة الذى كان فى أسره . فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سواى ، وكان يدل بولائه من الوليد ، وهجم عليه موسى فانتزعه منه فقيل له : إن سرت به حياً ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ففعل . فاضطغنها عليه مغيث ، وصار إلباً مع طارق الساعى عليه » . مما يفهم منه أن الخلاف كان واقعاً بين موسى ومغيث، وأن مغيثاً كان يضطغن على موسى ويتربص به الدوائر ، وأنه كان يُدِلّ بولائه من الخليفة ، يظن أن هذا يجعله فى موضع ممتاز .

ولما كان موسى بطبعه رجلاً فخوراً مزهواً بنفسه وبمكانه من عبد العزيز بن مروان ومن يزيد بن المهلب ، فإنه من الطبيعى ألا يرضى عن مغيث وأن تقع الجفوة بينهما . ولم يحدثنا المؤرخون بما قال مغيث للخليفة فى زيارته الأولى ، ولكنهم يقولون إنه حينما عاد مع طارق وموسى بعد الفراغ من الفتح « سبق إليه – أى إلى سليمان بن عبد الملك – طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة ، وقالا له إنه قد غل جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله، فلما وافى سليمان وجده ضغيناً عليه ....»(٢).

ومما يؤيدنا فى ذلك الرأى أيضـاً أن مغيثاً هذا – الذى يزعم أنه ذهب منتصفاً لطارق – لم يكد يسمع أن الخليفة يريد تعيين طارق عاملاً على الأندلس بعد موسى حتى مضى يخوفه

(١) نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٥١ .
واقرأ عبارة ابن حيان ، نفس المصدر ، جـ١، ص ١٧٠ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٧ .

منه ويصده عن إنفاذ هذا الغرض ، لأنه كان يطمع لنفسه فى ذلك فى الغالب . ويبدو كذلك أن الخليفة استبان كذب حديثه فلم يعطه الولاية التى رجا فعاد إلى الأندلس كما خرج منها ، بل ترك سليمان بن عبد الملك الأندلس فى يد عبد العزيز بن موسى[١].

ولا شك فى أن يليان كان على اتصال دائم بموسى ، وأنه تلقاه فى الأندلس وسار معه كما سار مع طارق ، ولا نزاع كذلك فى أن يليان هو صاحب الفضل فيما يبدو من تكامل فتوح طارق وموسى ، فإن الإنسان إذا نظر إلى فتوح هذا وفتوح ذاك حسب أنها دبرت جميعاً بإحكام من أول الأمر . والحقيقة أن يليان وأصحابه تولوا إرشاد موسى إلى خير الطرق التى يستطيع بها إكمال ما بدأ به مولاه ، وبهذا تكامل العملان وتم بهما إخضاع شبه الجزيرة الإيبيرية على أحسن وجه.

ويبدو كذلك أن موسى إنما عبر إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق، ولا ينبئنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب « الإمامة والسياسة »[٢]،ولكننا نقبلها لأنها تفسر لنا السبب فى عبور موسى فى ذلك الوقت بالذات . ولو كان موسى قد عبر مع عدد قليل من الجند لقلنا إنه عبر من تلقاء نفسه لكى يرى نتيجة ما وصل إليه قائده طارق ، ولكنه عبر فى جيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير ، وتخير الأجناد الذين صاحبوه تخير المقبل على عمل خطير .

والواقع أن الظروف كلها كانت تحتم إسراعه وتجعلنا أميل إلى قبول رواية ابن قتيبة فى استغاثة طارق بموسى ، فقد كان المسلمون قد ساروا فى البلاد شوطاً بعيداً دون أن يستوثقوا من سلامة خطوط مواصلاتهم بالجزيرة الخضراء وإفريقية ، ولم يكن بيدهم من المعاقل الكبيرة إلا قرطبة ، وكانت طوائف من القوط مفرَّقة فى البلاد تستطيع أن تنقضَّ على جماعات العرب القليلة المفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق إلى طليطلة وما يليها .

(١) انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ١٩ .
ابن عذارى ص ١٨ .
وهو يروى قصة موسى أول الأمر برواية يتفق فيها مع غيره من الأندلسيين ثم يقول : وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة .. الخ ، مما يدل على أنه يشك فى هذه الرواية .

(٢) « قال : وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث ! » .
ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ٢، ص ١١٨ .

وكان يليان يقيم معظم الوقت بالجزيرة الخضراء يُؤَمِّن ظهور المسلمين ، وكان قد فرَّق كثيراً من جنوده مع المسلمين فى كل ناحية ، وأحس فى مقامه هذا أن القوط يتجمعون ويدبرون شيئاً ، وشعر بحاجته وحاجة المسلمين إلى عون جديد وإلا ساءت العاقبة(١). ويبدو أنه أفضى إلى طارق بشىء من هذا ، لأن الرازى يذكر أن طارقاً رجاه أن يكتب إلى موسى ليعجل العبور(٢). ويؤيدنا فى ذلك الظن ما يذكره الرازى من أن طارقاً أقام - بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة - فى طليطلة لا يكاد يصنع شيئاً(٣) ولو قد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شىء لفعل ، ولكن من معه من الجند كانوا قد أجهدوا إجهاداً عظيماً ، وكانت المقاومة فى نواحى البلاد قد بدأت ترفع رأسها ، ففضل المقام حيث هو ، وكتب إلى موسى يستغيث به .

وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خَفَّ يليان للقائه خفوف المنتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور فى الأمر(٤). فلو لم تكن الأحوال مضطربة مخوفة لما كانت هناك حاجة إلى المجلس والمشاورة ، ولسار موسى إلى طليطلة قدماً ليلقى طارقاً وليحاسبه على ما فعل ، كما تذهب المراجع . ويدلنا خط سير موسى واتجاهه إلى إشبيلية على أن يليان قد نبهه إلى خطورة ترك هذا المعقل الخطر فى أظهر المسلمين دون فتح .

عبر موسى إلى الأندلس فى رمضان سنة ٩٣هـ - يونيو ٧١٢م ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده ، جُلُّهم من العرب وفيهم عدد عظيم من القيسية واليمنية ومعهم أتباعهم ومواليهم، وكان فيهم كذلك عدد طيب من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى فى فرقة واحدة عليها محمد بن أوس(٥). وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم

---

(١) SAAVEDRA. Op. cit. p. 92 .

(٢) يقول الرازى فى النسخة الإسبانية التى بين أيدينا :

" et embió luego à rogar à Don Juliano que le diese pasaje ..."

CF : GAYANGOS . La Crónica del Moro Rasis , n . 7 .

(٣) يقول الرازى :

" ... oyó decir que folgaba en Toledo et que non se trabajaba à otra cosa ..."

Cf : GAYANGOS . Op. cit. n. 8.

(٤) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢١٣ من ترجمة دوزى .

(٥) انظر : الضبى : بغية الملتمس ص ٥١ .

المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٦-١٧٧ .

وقد تحدث الرازى عن هؤلاء التابعين فى شىء من الإفاضة ، وذكر أنه دخلها صحابى واحد هو المنيذر الإفريقى ، سمى الإفريقى لأنه سكن إفريقية . =

الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجرى العرب إلى الأندلس يُعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمى الأندلس زمناً طويلاً ، وسيكون لهم أثر عظيم حاسم فى سير الأمور .

ولم تصل هذه الآلاف الكثيرة إلى الأندلس دفعة واحدة ، بل كان موسى قد قسمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وكان لكل جماعة راية . فلما عبر انتظرهم فى مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجداً ، وأخذت الرايات تفد عليه فى ذلك الموضع ، فعرف الموضع والمسجد بمسجد الرايات ، وظلا عامرين قروناً طويلة .

نزل موسى فى الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سمى مرسى موسى ، ثم عجل بالسير إلى شذونة (Medina Sidonia) ومنها سار إلى قرمونة ورعواق (Alcalá Guadaira)[1] فاستولى عليها ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة واستجة وقرطبة فى يد المسلمين ، وأصبح فى إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشبيلية كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك .

= أما التابعون فهم : موسى بن نصير ، وعلى بن رباح التميمى ، وحيوة بن رجاء التميمى . وقيل : إن رابعهم هو حنش بن عبد الله الصنعانى (صنعاء الشام) .

وقد قفل هؤلاء من الأندلس بقفول موسى ، إلا أن أهل سرقسطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقفل إلى المشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به . ويضيف إليهم بعضهم خامساً هو : عبد الرحمن الحُبُلى واسمه عبد الله بن يزيد ، وسادساً : هو حيان بن أبى جبلة مولى بنى عبد الدار ، وكان فى ديوان مصر فبعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، ويلى ذلك تفصيل طيب عن هؤلاء التابعين.

الرازى عند المقرى جـ١ ، ص ١٧٦ .

وانظر عن هذا الموضوع أيضاً أقوال ابن بشكوال وابن سعيد وابن حبيب والحجارى فى : المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٨٢-١٨٣ .

(١) ورد اسم هذه المدينة فى المراجع العربية بصيغ مختلفة : رعوان زعواق ورعواق ، وقد أثبت لافونت ألكانترا أن الرسم الصحيح لهذه التسمية العربية هو رعواق ، وأنها هى قلعة جوادايرا (Alcalá de Guadaira) ، انظر : LAFUENTE ALCANTARA . Ajbar Machmua , indice geografico,p. 256 ولم يرد ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية إلا فى نفح الطيب رواية عن ابن حيان وفى الأخبار المجموعة ، وقد كادت تستعصى على موسى لولا أنه لجأ إلى حيلة نصحه بها من معه من الأدلاء من أنصار يليان ، إذ تسربوا إلى داخل البلد فى هيئة المستأمنين ، ثم غافلوا أهل البلد وفتحوا أبوابه للمسلمين .

انظر : ابن حيان عند المقرى ، جـ١ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٦ .

٢٣- فتح إشبيلية سقطت إشبيلية فى يد المسلمين بعد بضعة أشهر من الحصار والقتال ، ويبدو أن أهل البلد ومن فيها من اليهود سارعوا بفتح الأبواب حينما طال القتال واشتد ، وأما الحامية القوطية فانسحبت إلى لَبْلة على مصب وادى آنة ومنها إلى أكشونبة (Sta. Maria de Faro = Ossonoba) ثم إلى باجة ، وهناك راحت تنتظر الحوادث . وترك موسى فى البلدة حامية قليلة معظمها من البربر واليهود ، ثم سار قاصداً ماردة متتبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدتين ، واستولى فى الطريق على بلد يسمى لَقنَت[١] سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك « موالى موسى »[٢] .

٢٤- فتح ماردة فلما أدرك موسى ماردة وجدها أحصن وأقوى مما ظنها ، فقد كان أنصار لذريق والهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فأقام موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالى ، ولم يسلم البلد إلا فى الثلاثين من يونيو ٧١٣م (١ شوال سنة ٩٤هـ) بعد قتال طويل هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى فى مقاطع الصخر أمام مخارج البلد . وقد هلك أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شىء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (Argama-sa)[٣] . ولم يسلم أهل البلد إلا بعد أن عاهدهم موسى على « أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها » ، وهى شروط سيكون لها أثر فى تحديد العلاقة بين المسلمين والأهالى فيها بعد[٤] .

(١) قال ابن القوطية : « ثم قصد من إشبيلية إلى لقنت إلى الموضع المعروف بفج موسى فى أول لقنت إلى ماردة » - افتتاح الأندلس ، ص ٩ .
ولا يعقل أن تكون لقنت هذه هى لقنت المعروفة فى جنوب الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة . وقد قرأها سافدرا لَقَنْتُ أو لاكانتوس وقرر أنها عين كانتوس (Fuente de Cantos) .
CF : SAAVEDRA. Op. cit. p. 94 et note 2

(٢) فتح الأندلس : ص ١١ ، وانظر تعليق JOAQUIN DE GONALEZ بخصوص هذه العبارة ، ص ٩٣ من الترجمة .

(٣) أورد ابن حيان هذا اللفظ بنصه محرفاً فكتبه « الاشة ماشة » .
ابن حيان ، عند المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٠ .

(٤) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق فى الأخبار المجموعة ونفح الطيب للمقرى ، وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل هامة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن الهام ، ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التى كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد ، وذكرا أن هذا الموضع يسمى إلى وقتهما « برج الشهداء » لهذا السبب ، وهى ملاحظة هامة . ويذكران كذلك حيلة موسى مع أهل ماردة وتلوينه شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم ، وهى قصة مستبعدة الحدوث .
=

يذهب سافدرا إلى أن فتح المسلمين لإسبانيا دخل فى دور جديد أثناء فتح موسى لماردة «لأن حراسة الحصون لم يعد يعهد فيها إلى اليهود ، ولم يعد أهل البلاد يفتحونها من الداخل للمسلمين ، ولم يعد المسلمون يبغتون البلاد ويأخذونها من حكامها فجأة ، وتلك كلها دلائل على أن لوناً من القطيعة قد وقع بين الأهالى والمشارقة . أما سبب هذا التغير ، فهو أن موسى ـ فى مسيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة ـ رأى بعينه سوء حال الشعب (الإسبانى) ورأى كذلك أن الملك لم يكن قادراً على جمع جيش محترم ، وأن مجلس الشيوخ لم يكن ليستطيع الاجتماع للتشاور فى الأمر ، وأن أنصار غيطشة لم يكن يؤيدهم إلا نفر لا يملكون عدة للحرب أو قدرة على إدارة الحكومة . هنا بدأت فكرة « ضم » الأندلس تدور فى رأسه، بدأ يفكر فى تملك ما فتحه»(١) .

أى : أن المسلمين قد قاموا بما قاموا به فى الأندلس حتى الساعة وهم يشعرون أنهم يقومون بغارة يعودون إلى بلادهم بعدها ، حتى إذا استبان موسى ذلك كله فى مسيره من الجزيرة إلى ماردة تغير رأيه ، وأخذ يعمل على الفتح الثابت الدائم ، أى على ضم الأندلس إلى دولة الخلافة ، وأن هذا التفكير غيَّر نفوس أهل البلاد ـ الذين كانوا يؤازرون المسلمين إلى هذه الساعة على اعتبار أنهم مغيرون يطلبون المغانم لا غير ، أو حلفاء يريدون القضاء على دولة الطاغية لذريق ورد الأمر لأهله ـ فلم يعودوا يؤازرونهم ، ولم يعودوا يفتحون لهم أبواب المدن ويدلونهم على ثغرات أسوارها وينقضُّون معهم على حكام القوط ، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أى فاتح معتد يريد ببلادهم سوءاً .

وليس فى سياق الحوادث ما يؤيد سافدرا فى هذا الزعم ، لأن الواقع الذى لا شك فيه هو أن المسلمين نزلوا الأندلس من أول الأمر على نية الفتح الثابت الدائم ، وأن طارقاً كان يسير فى البلاد ليدخلها فى حوزة الإسلام ، لا ليغنم منها ثم يعود ، ولا ليعين فريقاً من أهلها على فريق . ولا يستبعد أن يكون نفر من الإسبان وأنصار غيطشة ممن ساعدوا المسلمين من أول الأمر قد انتبهوا ـ بعد فوات الوقت كما رأينا ـ إلى أن المسلمين يفتحون البلاد لضمِّها إلى دولة الخلافة ، لا لاقتسام غنائم الفتح معهم ، فأخذوا يأسفون بعد فوات الفرصة على ما كان منهم ، لأن إيزودور الباجى يقول فى هذه المناسبة :

= انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .
ابن حيان ، فى نفح الطيب للمقرى ، جـ ١ ص ١٧١ .

(١) SAAVEDRA. Op. cit. p. 96.

... pace fraudifica male diverberans (n.36,v.864) ... pacem nonnullae civitates ... iam coactae proclamitant , atque suadendo et irridendo astu quodam fallit(١).

ويؤيد سافدرا رأيه هذا بما حدث بعد فتح ماردة من أن « عجم أهل إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبلة ومدينة يقال لها باجة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قتل فيها ثمانون رجلاً ، فقدم فَلُّهُم على موسى بن نصير بماردة ، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية فافتتحها ورجع»(٢) . حقيقة أن هذا هو أول انقلاب من أهل البلاد على المسلمين ، ولكن من أين استدل سافدرا على أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من الإسبان ولم يكونوا من فلول القوط المنهزمة التى كانت تتجمع فى نواحى الغرب ، وأن هؤلاء إنما جرؤوا على الانقضاض على من بإشبيلية من المسلمين حينما استبانت لهم قلة عددهم وابتعاد إخوانهم المسلمين عنهم؟

نظن أن هذا الفرض الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن عبارة ابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة تدل على أن الذين غدروا بالمسلمين لم يكونوا من أهل إشبيلية أو لبلة أو باجة، فلو أن هذا هو الذى حدث لذكر المؤرخان أن أهل لبلة وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك فى ثورتها وهم أنفسهم خاضعون ، ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخمد الثورة ، وتركهم على حالهم وأقام معهم فيها ، ولو كان لهم ضلع فى الحادث لرأينا لذلك أثراً فى معاملته لهم، ولا يستقيم الأمر إلا إذا فرضنا أن الذين فعلوا ذلك هم نفر من القوط ، من حاميات البلاد التى فرت منها عند اقتراب المسلمين وعادت إليها بعد ذهاب الجيش الإسلامى عنها ، تحاول استعادتها أو الانتقام من المسلمين .

فلما فرغ عبد العزيز من أمر الثائرين فى إشبيلية سار إلى لبلة وباجة(٣) ، وربما إلى أكشونبة ، ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع بها من القوط ، ثم ترك فى هذه البلاد جميعاً

---

(١) ISODORO PACENSE .Cronicón, 36 apud LAFUENTE ALCANTARA, Ajbar Machmua, apendice pp. 147-148.

وقد أيد سافدرا رأيه هذا بفقرتين : الأولى من « مدونة البلدة » (Cronicôn Albeldense) يقول فيها : « ثم ثارت بين القوط والعرب بصورة مستمرة حروب استمرت سبع سنوات » (نفس المصدر ص ١٦٣) والثانية عن تاريخ راهب سيلوس (Cronicòn Silense) فقرة ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ص ١٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ١٧ .

حاميات إسلاميه لتؤمنها من أى تدبير يقوم به القوط . ويدلنا نص من المقرى على أن حامية باجة كانت قوية ، وأن قائدها كان قائداً عربياً معروفاً ، هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجد بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التى سيكون لها شأن(١) .

وأقام موسى شهراً فى ماردة يرتب أمورها ويريح جنده بعد هذا العناء الذى تكلفوه فى فتح هذا البلد ، ومن الواضح أنه أحس أن عناصر المقاومة فى هذه الناحية كانت أقوى ما لقى المسلمون فى بلاد الأندلس إلى الآن ، وأنه عرف أن فلول القوط - وأنصار لذريق خاصة - كانوا يتجمعون فى هذه النواحى الجبلية الوعرة ظناً منهم أن المسلمين لن يصلوا إليها ، واستعداداً للهرب إلى نواحى قشتالة واسترامادورة إذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحى من غرب الأندلس ، لأن سير الفتح الإسلامى سيبطؤ وسيصطدم بعقبات فى هذه الناحية بعد أن كان يسير سيراً ذلولاً دون عقبة ظاهرة .

وقد رأينا القوط فى إشبيلية ولبلة وباجة كيف « تجالَب فَلُّهم » من هذه النواحى كما يقول ابن عذارى ، ولاحظنا أن فتح ماردة كلف موسى من أمره عسراً ، وأنه لم يفتحها إلا بحيلة، وأن المسلمين خسروا فيها خسائر لم يخسروها فى قرطبة أو إشبيلية أو حتى طليطلة ، وعلة ذلك أن فلول القوط كانت تتجمع فى هذه النواحى الوعرة من كل جانب.

فإذا صح ذلك ، كان مسير طارق للقاء موسى بعد فراغ هذا الأخير من فتح ماردة أمراً معقولاً ، لأن الإنسان يتساءل : ما الذى أخر طارقاً عن الخروج للقاء موسى حتى هذه اللحظة ، مع أن موسى كان فى أشد الحاجة إلى العون أثناء حصار ماردة وكفاحه أهلها ؟

ولا يُفسَّر هذا إلا بأن موسى رأى أن مقام طارق بطليطلة يؤمنه من عمل يقوم به قوطُها، فلما فرغ من أمر ماردة وأراد السير نحو طليطلة أحس أن الطريق طويل محفوف بالمخاوف ، لأن فلول القوط كانت « تتجالب » وتتجمع فى هذه النواحى . فلما وجدت موسى يأخذ فى الطريق رأت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته فى معركة خطيرة الشأن كما سنرى . وهذا هو السبب الذى حفز طارقاً إلى المسير للقائه . ولا يعلل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاه طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلا بأن موسى نفسه لم يطلب إليه المجىء إلا فى هذه اللحظة ، حينما أحس ببعض ما كان يدبر حوله فى هذه النواحى الفسيحة المجهولة للمسلمين .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، جـ٢، ص ١١ .

والواقع أن حركة كبيرة كانت تدور حول جيوش المسلمين الغازية بين وادى آنة ونهر التاجة فى ذلك الحين ، فقد كان لذريق قد تراجع بمن بقى له من فلوله وتحصن بهم فى شعاب الهضبة ، مما يلى وادى آنة إلى الشمال فى جبال سْيرّا دِفرانثيا على أبواب قشتالة الجديدة واسترامادورا فى السهل الفسيح الذى يحيط بسلمنقة ، ولبثوا هناك يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء فى ظهره ، بل كان لابد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه فى منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً وانتظر مولاه فى وادى الأرّوكامبو (Arrocampo) فى مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار(١).

وأما موسى فقد سار فى طريق رومانى قديم يصل ماردة وسلمنقة بحذاء نهير سيحمل من ذلك الحين اسمه ، وهو فالموثا (Valmuza) أى نهر موسى(٢). وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت فى المسلمين لتوسطهم هذا الطريق الطويل وبُعْدهم عن أى مركز يستطيعون طلب المعونة منه ، وانقضوا على جيش موسى فى ناحية يسميها بعض مؤرخى

---

(١) يقول بهذا الرأى سافدرا وتؤيده فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخى المسلمين ، وهو فى الواقع أقرب الآراء إلى الصحة فى صدد نهاية لذريق . فإن المسلمين لم يقتلوه فى واقعة وادى لكه ، وتكتفى المراجع بالقول بأنه اختفى أو غرق . وسيرى القارىء فى سياق الحديث أن هذا الرأى يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة .

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 98 sqq .

(٢) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو يعيننا على تحديد المكان الذى التقى فيه بطارق على وجه التقريب ، والمراجع العربية مختلفة حول هذه النقطة أشد الاختلاف ، فابن عذارى مثلاً يقول : « اتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة ، وذكر الطبرى أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازى أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه ، فلقيه بمقربة من طلبيرة ...» وإشارة الرازى تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذا البلد الأخير . وقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن اللقاء وقع فى ناحية يرسمها « بابد» من غير نقط ، ويمكن قراءتها تايد أو تايتر اعتماداً على عبارة أوردها ردريجو أسقف رادا فى تاريخه: iuxta rivum qui Teitar dicitur .

ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى Almaraz - وهو لفظ عربى الأصل يرجح أن أصله « المعرض » ، وهو مكان على مقربة من طلبيرة على نهر التيتار - فإننا نستطيع القول بأن اللقاء بين القائدين المسلمين الكبيرين وقع هناك .

ابن عذارى : البيان جـ٢ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

RODERICUS TOLITANUS . De rebus Hispaniae, I, III, cap. XXIV

CF : SAAVEDRA. Op. cit. p. 98 .

المسلمين « السواقى » وهى (Segoyuela de los Cornejos) على مقربة من تمامِس (Tamames)[١] ، فانقض عليهم المسلمون وثبتوا لهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، وقتل لذريق نفسه ، قتله مـروان بن موسى بن نصير ، فشهدت هذه البقعـة مصرع آخر ملوك القوط ، وقد حمل أتباعه رفاته بعد ذلك ودفنوها فى فيزيو ، وظل قبره هناك معروفاً حتى زمان ألفونسو الكبير ، فقد ورد فى حوليات هذا الملك أنه رأى قبر لذريق وقرأ عليه لوحة تقول : هنا يرقد لذريق ملك القوط .

(Hic requiescit Rudericus rex gothorum)

ومن الغريب أن هذه الواقعة التى أهملها المؤرخون إهمالاً شبه تام كانت الأساس الذى دارت حوله الملاحم الإسبانية التى نشأت فيها بعد حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن بلاده .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط فى هذه الواقعة الحاسمة الأخيرة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم فى طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر[٢] ويذهب المؤرخ الإسبانى مودستو لافونتى إلى أن أفراد حزب غيطشة كانوا يؤملون - بعد مقتل لذريق - أن يقيمهم المسلمون ملوكاً على البلاد ، ولكن موسى خيَّب ظنونهم حينما

---

(١) لم يذكر هذه الوقعة من المؤرخين المسلمين إلا الرازى (فى الترجمة الإسبانية) وفتح الأندلس المجهول المؤلف ، وقد ذكر هذا المرجع الأخير أن الموضع الذى وقع فيه اللقاء الأخير يسمى « السوانى » فى نسخـة و « السـواقى » فى نسخة أخرى ، وأما الرازى فيسمى هذه الوقعة La batalla de Saguyue ، وهو لفظ قريب جداً من لفظ السـواقى . أما مقتل لذريق على يد مروان بن موسى فلم يذكره إلا ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة . انظر :

Fragmentos inéditos de la crónica llamada del MORO RASIS, apud SAAVEDRA. Op. cit. apendice 145 sqq.

فتح الأندلس ص ٨ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص ٧٦ .

ولا شـك فى أن تسمية الرازى لهذا الموضـع بـ Saguyue كانت الأصـل الذى أخذ عنـه المؤرخون الإسبـان وقصاصهم اسم هذا الموضع ، فقد كتبه « فرناندو جنذالذ » فى قصيدتـه الطويلـة عن لذريق Sangonera ، وكتبـه «ردريجو كارو » سانجوبيلا .

CF.: FERNANDO GONZALEZ, El Ultima Rey Godo, Copla 79.
RODRIGO CARO, Antiguedades y principado de Sevilla, f.,122 v.
SAAVEDRA, Op. cit. pp. 100 sq .

(٢) فتح الأندلس ، ص ١٢ .

أعلن بعد دخوله مباشرة أن البلاد كلها لخليفة المسلمين فى دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بُداً من الرضوخ للأمر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من أملاك أبيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة[١]. فاستقر أخيلا (وَقِلة) فى طليطلة وعاش آمناً فى ظلال المسلمين ، وخلفه ابنه ألْبَرُو (ألفارو) ثم حفيده حفص الذى أصبح فيها بعد قاضياً للنصارى . وأما أرطباس فقد استقر فى قرطبة مكرماً معززاً وأصبح له بين المسلمين مكان مرعى ، واحتفظ بلقب « قومس » وورثه عنه ابنه أبو سعيد . وأما ألْمُنْدُ فقد اختار المقام فى إشبيلية وأنجب ابنة هى سارة ، عاشت كريمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وابنين هاجر أحدهما إلى الشمال وبقى أحدهما فى بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع وليصبح أسقف المستعربين جميعاً فيها بعد . وكافأ موسى أبه (Oppas) أخا غيطشة -الذى طالما ساعد المسلمين وأعانهم - بتعيينه أسقفاً لطليطلة ، والظاهر أن جمهور النصارى لم يرض عن هذا التعيين لأن إسبانياً آخر هو « أوربانو » لم يلبث أن خلفه فى هذا المنصب الكبير سنة ٧١٩م[٢].

٢٥- أول عملة إسلامية فى الأندلس

ولم يكد موسى يستقر فى طليطلة حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولسنا نعلل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية - التى كانت فى ذلك الحين من حق الخليفة وحده - إلا بأن الخليفة كان قد خوله هذا الحق فى إفريقية فأباحه لنفسه فى الأندلس، لأنها كانت معتبرة فى نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية ، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة فى إسبانيا بالعملة الإفريقية التى ضربها موسى قبل ذلك سنة ٩٠هـ . وقد رسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية ، ففى ناحية منها كتب « محمد رسول الله » يحيط به النص التالى باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini, non Deus nisi Deus . Solus Sapiens. non Deo similis Alius

وفى الناحية الثانية نجمة ذات ثمان أذرع كتب حولها باللاتينية :

(١) MODESTO LAFUENTE. Historia general de Espana, II, 479 .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤-٥ .

DOZY . Recherches , I, p. 79

EL cronicon Silense, n. 20

SAAVEDRA. Op. cit. pp. 104 - 105 .

Solidus Feritus in Spania

ويلي ذلك تاريخ سَكِّها وهو سنة ٩٧هـ[١].

وضرب موسي كذلك عملة برونزية صغيرة لاتينية الكتابة .

ثم بعث موسى برسولين إلى الخليفة الوليد يُنْهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعى على بن رباح ، وكان رجلاً صالحاً فى نحو الثمانين من عمره ، ومغيث الرومى فاتح قرطبة . ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشىء فى نفسه ، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلاً بيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً فى تنقص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد[٢].

٢٦ـ السير نحو الشمال

فلما اطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد أخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة ، ويذهب المؤرخون إلى أن نيته انعقدت إذ ذاك على التصعيد واختراق جبال البرت وغالة وأوروبا كلها ليصل إلى القسطنطينية من الغرب[٣] . وليس لدينا دليل واحد نستطيع أن نؤيد به هذه الأقوال، ونستبعد أن يكون موسى قد فكر فى أمر خيالى عسير التحقيق كهذا. وكل الذى نعرفه أن موسى جمع أجناده حينما انقضى الشتاء وسار بهم فى اتجاه الشمال الشرقى ليفتح حوض الإبرو وما فيه من

(١) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 106-107 .
LEVI-PROVENÇAL. Hist. De L'Esp. Mus. pp. 20-21.

والمراجع المذكورة هناك .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

ويسهب ابن عبد الحكم - على غير عادته - فى تفصيل ما فعل موسى بطارق ، وما فعله مغيث من عون طارق والإسراع إلى الخليفة لإنقاذه . ولسنا نفهم سبباً لهذا الإسهاب إلا أن تكون أخبار كهذه قد شاعت وتداولها الناس فى المشرق ، ولما كان مغيث هو الوحيد الذى أتيح له الحديث إلى الخليفة ، فلا يستبعد أن يكون صاحب هذه الشائعات . ورواية المقرى تؤيدنا فى هذا .

(٣) يذكر المقرى أن موسى حينما أدرك هذا الموضع القاصى من شمال الأندلس وأشرف جنده على البحر الأخضر (المحيط الأطلسى) وجبال البرت ، فكر فى اختراقها والاستمرار فى الفتوح ، وأنه « كان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلد إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً » . ولسنا نستطيع تحقيق قالة كهذه ، وكل ما نستطيع استنتاجه منها هو أن الوليد لو لم يكن قد استدعاه وألح فى استدعائه لأتم فتح جليقية - كما يذكر المقرى - أو لاخترق جبال البرت وأفضى إلى غالة . أما ما يزعمه المقرى من وصوله إلى نهر الرون (ردونه - من Rodanus) فأمر غير صحيح ، وسنرى فيما بعد أن المؤرخين وضعوا كثيراً من أعمال الفاتحين المسلمين ممن أتى بعد موسى فى حملته تلك ونسبوها إليه .

المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٤-١٧٥ .

مدائن . وكان معه طارق وجماعة من كبار جنده ، وتقدم الجيش محمد بن إلياس المغيلى أحد قادة البربر مع طائفة قليلة استولت على وادى الحجارة دون كبير جهد(١) .

ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقى ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة ، فنراهم فى غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالاً سلمياً فيُؤَمِّن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط أو أملاك الكنيسة ، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا ، وقد بلغ من إسرافه فى هذا الوجه أن العرب أنفسهم - وعلى رأسهم الخليفة - أنكروا عليه هذا المسلك ، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل .

ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر . فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يُؤَمِّنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم واستقروا ودخل المسلمون البلد بعد قتال لا يُذكَر(٢) . ولم يكد المسلمون يستقرون فى البلد حتى قام التابعى حنش بن عبد الله السبأى الصنعانى بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قُدِّر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله فى هذه النواحى(٣) .

ثم أعقب موسى ذلك باحتلال سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة ، وأحب أن يتابع سيره نحو البرت ، ولكن جنده روعوا لما شاهدوه من قفر هذه النواحى وقلة عمرانها ، ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة البسكية فوقعت من العرب موقعاً غريباً . وظنوا أنهم لا يتكلمون (٤) . واستوحش الجند من هذه الناحية وأبدوا رغبتهم فى العودة ، وانضم إليهم

(١) شهاب الدين الفاسى برواية المقرى : نفح الطيب ترجمة جايانجوس ، جـ١ ، ص ٥٣٣ .

(٢) ISODOR PACENSE. Cronicon, n. 36. versos 871-873.

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١١ .
الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٦٣ .
المقرى : نفح الطيب جـ٢ ، ص٤ .

(٤) « ... وفتح بلاد البشكنس وأوغل فى بلادهم حتى أتى قوماً كالبهائم ، وغزا بلاد الإفرنج ...» .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص ١٨ .

التابعى حنش الصنعانى ، وأخذ موسى يحاول إقناعهم بضرورة الاستمرار[١] .

وفى ذلك الحين وصل مغيث الرومى عائداً من دمشق ومعه أمر لموسى وطارق بأن يشخصا إلى دمشق ، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة : وعرف أن مغيثاً مولى عبد الملك ابن مروان لا بد أن يكون قد تقوّل عليه شيئاً ، ولكن ذلك لم يصرفه عن المضى فى إتمام هذه الغزوة التى صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، وأحب أن يسترضى مغيثاً حتى يدعه يمضى فى إكمال فتح البلاد ، فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التى سيفتحها فى هذه المهلة ، ومنحه القصر الذى كان يسكنه حاكم قرطبة فى الجزء الشرقى منها ، فقبل مغيث وظل هذا القصر يُعرف فيما بعد ببلاط مغيث[٢] . فإذا اطمأن موسى إلى ذلك فقد تابع سيره فى قشتالة القديمة (Castilla la vieja) ليتم فتحها وليُؤَمِّن طليطلة من غدر أى عدو للمسلمين يكون فيها[٣] . واستقر رأيه على أن يقسم جيش المسلمين قسمين : قسماً يسير به هو ، وقسماً يسير به طارق .

عهد موسى إلى طارق فى السير نحو جبال كَنْتَبْرِيَة ، فبدأ طارق بمهاجمة البشكنس غربى الإبرو فلم يجد صاحب الناحيـة « فُرْتُون » (Fortunius) بُداً من الدخول فى طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ، ومنه تسلسل « بنو قسى» أصحاب الثغر الأعلى الذين سنلقاهم كثيراً على طول تاريخ المسلمين فى الأندلس[٤] ثم تابع طارق سيره ، واستولى على أمايا واشترقة وليون[٥].

٢٧- أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين فى إسبانيا

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية للإبرو فى إقليم قشتالة ، فأطاعه معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقى بعض المقاومة عند قرية تسميها المراجع بارو - أو بازو - فى مقاطعة فاليادوليد (بلد الوليد) الحالية[٦] ، ولم يلبث أن تغلب عليها وسار متابعاً فتوحه . وبدلاً من أن

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص ١٣٧ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٤ .
(٣) SAAVEDRA. Op. cit. pp. 113-114.
(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٣ .
(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ . وقد جعل هذا المرجع فتح هذه الحصون الثلاثة فى سنة ٧١١ ، وهو خطأ واضح ، وقد بيناه فى حينه .
(٦) كتبها المقرى بارو وبازو ، وقد ظن بعضهم أن المراد بذلك فيزيو (Viseu) ولكن نظرة على الخريطة تدل على أنه من العسير أن يصل موسى إلى فيزيو من هذه الناحية فى هذا الوقت القصير . وقد حقق موقعها سافدرا وقرر أن المراد بها فليباروز (Villabaruz) وبهذا تكون صحة الاسم الذى أورده المقرى باروز .
نفح الطيب ، جـ١، ص ١٧٤ .
SAAVEDRA. Op. cit. p. 117 .

يعرج على اشترقة ليلتقى فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tar-na) وسار متابعاً مجرى نهير النالون (Nalón) ثم حط رحاله عند قلعة يسميها المقرى لُكْ (Lucus Asturum الرومانية و Maria de Lugo اليوم) غير بعيد من أبِيْط (Oviedo)، وما زال بها حتى سوَّاها بالتراب وفرَّ من كان بها إلى مكان قاصٍ من الشاطىء يسمى الصخرة (Picos de Europa) . ثم سار بنفسه حتى بلغ خيخون (Gijón) وأقر فيها حامية ، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد فى هذه النواحى البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاى (Pena de pelayo)[(١)] .

فإذا أدركت خيل موسى البحر من الشمال أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ولم يعد هناك معنى للاسترسال فى السير ، وكان موسى يترك فى كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرق جنده وطال السير بمن بقى معه منهم ، ونال منهم الجهد فمالت نفوسهم إلى العودة ، فاكتفى موسى بوصوله إلى خيخون ، وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا فى نواحى أشتريس وجليقية . وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً[(٢)].

والواقع أن من بقى من القوط إذ ذاك كان قليلاً ، ولو لم يشتغل العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بين أنفسهم لاستطاعوا الالتفات إلى هذه البقية الباقية من الأرض والناس ، ولكنهم شغلوا بأمور أنفسهم كما سنرى ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن فى هذه النواحى القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتنتهز فى المسلمين كل فرصة تسنح ، وكانت معظم الحاميات التى خلفها المسلمون من البربر ، وكان أكبرها حامية استقرت فى خيخون على الغالب يقودها زعيم بربرى سيكون له شأن ، هو « مونوسة » .

---

(١) هكذا وصل المسلمون إلى أقصى نقطة من أشتريس أدركوها فى أيام موسى فى دفعة الفتح الأول ، وإليك عبارة المقرى بهذا الصدد نوردها لأهميتها : « ... ومشى معه (أى مع مغيث) حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بازو وحصن لُكْ ، فأقام هنالك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز ... » .

المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ص ١٧٤-١٧٥ :

SAAVEDRA. Op. cit. p. 117 .

(٢) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٦٧١-٦٧٢ .

فإذا انتهى موسى فى فتوحـه إلى هذا الحد القصى فقد كان لابـد أن يعود ، لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط . بل إلى دمشق رأساً . فقد كان مغيث رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل ، حتى لتذهب الروايات إلى أنه بعث إليه رسولاً آخر اسمه أبو نصر لقيه فى « لُكْ » فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثاً وصل وموسى فى سرقسطة فى أوائل الربيع ، ولما تنقض على وصوله ثلاثة أشهر ، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل ، وربما كان « أبو نصر » هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس[1].

أخذ موسى فى طريق العودة فى أواخر سنة ٩٥هـ (منتصف صيف ٧١٤م) وكان مغيث قد خف للقائه ، فالتقيا بنواحى ليون ، وهناك أدركهما طارق عائداً من اشتُرقة، وساروا جميعاً فاخترقوا فج موسى (Valmuza) فى طريقهم إلى طليطلة . ولم يُقِم موسى فى طليطلة شيئاً وإنما مضى مجداً حتى دخل قرطبة ولقى فيها نفراً من كبار جنده ، ثم مضى إلى إشبيلية حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث وكبار الجند فى ذى الحجة سنة ٩٥هـ ، وكان معهم يليان . وتذهب المراجـع إلى أنـه اصطحب معـه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وهذا أمر لا يصدق ، نظراً لما يحتاجه مثل هذا العدد العظيم من العدة حتى يمكن نقله هذه المسافة الطويلة من الأندلس إلى دمشق ، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء رافق موسى فى رحلته ، وأما الباقى فقد ترك فى المزارع يزرعها . ونكاد نتفق مع ابن قتيبة الذى يذكر أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط ، ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم فى موكبه ليدل على عظم الفتح الذى قام به ، وكان موسى ميالاً إلى مثل هذه المظاهر[2].

٢٨- عودة موسى وطارق إلى المشرق

بارح موسى الأندلس فى ذى القعدة سنة ٩٥هـ (سبتمبر ٧١٤) ووصل مصر فى السابع من ديسمبر ، وبلغ دمشق فى السادس عشر من يناير سنة ٧١٥م أى قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، وكان سليمان بن عبد الملك قد أحس باقتراب منية أخيه فكتب إلى موسى يأمره بأن يتريث حتى يصل بعد

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٣ .

المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٩٣ .

الرازى : (فى الجزء الإسبانى الذى نشره جايانجوس) رقم ١٤ .

فتح الأندلس ، ص ١٩ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥٨ .

موت عبد الملك ، فتؤول الذخائر التى كان يحملها معه إلى سليمان . ولكن موسى لم يشأ أن يتريث ، ووجد الحجى فى أن يسير سيره العادى ، فإن وصل والوليد حى كانت الغنائم له ، وإلا فهى لمن يخلفه بالحق والعدل .

وكان ركب موسى فى عودتـه ركبَ قائد مظفر أوسع الله عليه فى الخير والمغانـم ، فكان لا يلقى أحداً إلا أعطاه شيئاً ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق من أى مال كان يعطى ، ولكن الذى نعلمه أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يبلغ هذا المبلغ من السخاء وكثرة الهبات(١).

وصل موسى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، فأذهل الناس بما أتى به من الخيرات والمغانم ، بل يُجمع المؤرخون على أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يعد بغنائم تشبه - بعد فتح فـارس(٢)- غنائم موسى ، ولكن الظاهر أن قلب الوليـد كان متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه ، فلم يحسن لقاءه ، ثم لم يلبث أن لقى ربه ، وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى لما كان منه معه ، ولهذا كان طبيعياً أن لا ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ، نعم إن مغيثاً الرومى لم يدخر وسعاً فى تشويه سمعة الفاتح العظيم ، وصحيح أن قالاته لقيت قبولاً من آذان أولـى الأمر فى عاصمة الخلافة ، ولكن الإنسان يستبعـد ما يقـال من أن سليمان كان يقيم موسى فى الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد ، أو أنه ألزمه أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها ما لا يفتدى به نفسه ، حتى لقد كان يستجدى الدرهم والدرهمين « فيفرح بذلك ليدفعه إلى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب »(٣) ، لأن سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك ولديه واليين على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان بن عبد الملك وصاحب الأمر فى دولته .

وكل ما نستطيع قبوله هو أن سليمان أهمل موسى وتركه فى زوايا النسيان ، وما نظن أن رجلاً كهذا كان يمكن عقابه بأقسى من ذلك ، فقد فتح الفتوح ومصَّر الأمصار وكان حقيقاً

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ٢ ، ص١٥٨ وما بعدها.
(٢) المقرى : جـ١ ، ص٧٧ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٨٠ .

بأن يعود إلى ما فتح لينظمه أو ليزيد فيه . ولا نزاع فى أن موسى كان على نية مواصلة الفتح إذا عاد ، فحُرِم مسلمو الأندلس من هذه القوة الدافعة التى وصلت إلى شاطىء خليج بسكاية فى عام وبعض عام ، وأصاب بقايا القوط الفرصة التى كانوا فى أشد الحاجة إليها ليستريحوا بعد طول جهد ، وليستعدوا للصراع الطويل مع المسلمين من جديد(١) .

خرج موسى من الميدان وعاش بقية حياته فى ظلال النسيان لا نكاد نسمع من أخباره شيئاً ، ولا تحدثنا المراجع بشىء عنه بعد ذلك حتى موته بعد ذلك بقليل سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين وهو فى طريقه إلى الحج فى رفقة سليمان(٢) ، وإذا عرفنا أن سنه كانت قد جاوزت الثمانين عند وفاته لتبينا أن الرجل كان قد قارب الثمانين حين عاد من الأندلس ، فلا يستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سِنَّهُ العالية فاستحسن أن يخليه من العمل وأن يبقى ابنيه مكانه فى إفريقية والأندلس ، فبقى الفاتح العظيم فى صحبة الخليفة حتى مات فى ركابه كما رأينا .

ومهما يكن الجزاء الذى لقيه موسى على يد سليمان فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذى كان يستحقه ، فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه فى الصف الأول من رجال الإسلام الأُوَل ، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر فى غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، لأن فتح الأندلس كان أمراً لابد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم فى الشمال الإفريقى ، ولو لم يُفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامى مهدداً بجموع النصرانية . هذا إلى ما كان لهذا الفتح الأندلسى فى ذاته من القيمة والأثر مما يغنى عن كل حديث .

قال المقرى : « ... فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه . وإن فعل سليمان به وبولده ، وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذى تركه نائباً عنه بالأندلس ـ وقد جىء به من أقصى المغرب ـ بين يديه ، من وصماته التى تعد عليه طول الدهر ، لا جرم أن لم يمتعه اللّه بعده بملكه أو بشبابه »(٣) .

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) وتختلف الروايات حول ذلك الموضوع ، فيذهب الحجارى وابن بشكوال أن موسى توفى بوادى القرى فى أسوأ حال .

انظر المقرى : نفح الطيب جـ١ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٨١ .

وتصمت الرواية الإسلامية كذلك عن طارق صمتاً كاملاً ، ولسنا نفهم لهذا سبباً إلا ما يقال من أن مغيثاً وشى به هو الآخر وخوَّف الخليفة منه ، وكان هذا يريد أن يوليه الأندلس بعد موسى . والحق أن مغيثاً الرومى أساء إلى قائديه إساءة كبرى ، وربما كان دافعه إلى ما افتراه على طارق هو طمعه فى ولاية الأندلس ، ولكنه على كل حال لم يفز من ذلك بشىء ؛ لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش فى «بلاطه» وأملاكه ، ولكى ينجب بنين سيكون لأحفادهم شأن عظيم فى تاريخ الأندلس الإسلامى (١) .

وإذا كنا لا نأسف كثيراً على حرمان موسى من ثمرات فتوحه ، لأنه فى الواقع قد استمتع من هذه الثمرات بما فوق الكفاية ، فإن المؤرخ لا يسعه إلا أن ينظر بعين الأسف إلى هذه الحجب الكثيفة التى أسدلت على بقية حياة طارق ، هذا المسلم الإفريقى المجيد الذى لا تسجل الرواية الإسلامية عنه إلا خيراً . ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود ، فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطئتها قدماه ، وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفاً بسيطاً إلى اللغات الأوروبية جميعاً ، وتريد المقادير كذلك أن تكون هذه البقعة بالذات من المواضع التى سيشغل ذكرها الناس على مر العصور ، لأسباب وعلى صورة لم تكن تدخل فى حساب طارق ، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق أو جبر التار ، ويدفعهم هذا الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره.

٢٩ـ استكمال الفتح لم توقف عودة موسى وطارق نشاط المسلمين فى الأندلس ، فقد بقى فيه نفر من الأجناد استمروا يواصلون العمل لإكمال ما بدأوا به ، فتذكر الأخبار المجموعة أن سنة ٩٥ هـ شهدت فتح كثير من بلاد الأندلس على يد المسلمين دون أن تذكر هذه البلاد ، ويذكر ابن الفرضى أن نعمان بن عبد اللّه الحضرى عاد إلى الأندلس بعد مرافقته موسى إلى دمشق ، واشترك فى الجهاد ومات فى سبيل اللّه ، واستمر التابعيان على بن رباح وحنش الصنعانى فى سيرهما بجند المسلمين نحو الشمال حتى فتح اللّه عليهما بنبلونة فى أواخر سنة ٩٥هـ (٧١٤م) . ويذكر ابن خلدون أن المسلمين افتتحوا برشلونة بعد ذلك بقليل ، دون أن يستطيع التأكد من صحة أخبار هذه الفتوحات (٢) .

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٥ .
جايانجوس : ترجمة نفح الطيب جـ٢ ، ص ٣٩٩ .
(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، جـ٢ ص٢٩ و جـ١ ص ١٠٩ ، ٢٥٦ .
المقرى : نفح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، جـ٢ ص ٢٦٠ .

وكان ينبغى أن نقف بقصة الفتح عند هذا الحد ، لأن ولاية عبد العزيز بن موسى تبدأ عصر الولاة الذى سنتناوله فى الفصل التالى ، ولكن بقيت من الأندلس نواح واسعة فى الشرق لا بد من استقصاء أخبار فتحها أو دخولها فى طاعة المسلمين حتى نستطيع القول بأننا قد فرغنا من أخبار فتح المسلمين للأندلس تماماً .

كان عبد العزيز بن موسى فاتحاً نشيطاً ، فقد كانت له يد طولى فى فتوح إفريقية ، وقد رأيناه ملازماً أباه مشاركاً إياه فى كل عمل قام به فى الأندلس ، ثم رأيناه بعد ذلك يقود جيشاً سار إلى إشبيلية ليخمد ثورتها التى قام بها أهلها على المسلمين فى سنة ٧١٣م ، وأقام عبد العزيز بعد ذلك فى هذه الناحية مواصلاً الفتوح فى نواحى الغرب ، ففتح يابرة وشنترين وقلمرية خلال سنة ٧١٤ فى الغالب .

ولم يكد عبد العزيز يستقر فى ولاية الأندلس حتى نشط لإخضاع جنوب شرقى شبه الجزيرة الذى لم يصل إليه أحد من المسلمين حتى ذلك الحين ، وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكومته فى إشبيلية ، فظل هذا البلد عاصمة للأندلس الإسلامى طوال حكمه [١].

٢٠. تدمــير

بدأ عبد العزيز بفتح مالقة [٢] التى أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون كبير عناء ، ثم قصد غرناطة ، ويقال : إن حاميتها كانت من اليهود ففتحوا للمسلمين أبوابها دون مقاومة [٣] ، ثم اتجه عبد العزيز إلى إقليم مرسية حيث كان يحكم قائد قوطى يسمى تدمير (Teodomiro) ويذهب سافدرا إلى أنه ابن (Ergobado) [٤] أحد

(١) ذكر المقرى فى نفح الطيب سبب استقرار عبد العزيز فى إشبيلية واتخاذها عاصمة له ، وهو رغبته فى أن يظل على اتصال مستمر بإفريقية ، وكانت إشبيلية ميناء كبيراً يسع السفن الكبيرة ، ولم يكن جبل طارق كذلك .

(٢) يذهب المقرى أن مالقة فتحت أيام موسى ، وأنه أرسل ابنه عبد الأعلى فى بعث حاصرها وكادت تستعصى عليه لولا أن حاكمها وقع فى يد المسلمين نتيجة لعدم حرصه فلم تلبث المدينة أن سلمت . وهذه تفاصيل طريفة ، غير أننا نستبعد أن تكون مالقة قد فتحت فى أيام موسى وعلى يد ابنه هذا ، لأننا نعرف أن هذه الحملة قادها عبد العزيز بن موسى بنفسه عقب رحيل أبيه .

المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ،ص١٧٤ .

(٣) أحمد الرازى : روى ذلك ابن الخطيب . انظر :

CASIRI. Bibliotheca, II p. 105 .

(٤) قال الضبى فى بغية الملتمس : إن اسم تدمير كان تدمير بن غبدوش ، ويؤيد أحمد بن أنس العذرى ذلك فى « نظم المرجان » ، ويقول سافدرا بأنه لابد أن يقرأ غوبادوش أو جوبادوش Gobados ، وأن هذا الاسم هو Ergobados وكان من أسماء القوط المشهورة المتداولة .

الضبى : بغية الملتمس ص ٢٦٩ و ٣٣٧ و ٤٠٠ .

SAAVEDRA. Op. cit. p. 87 .

كبار قواد غيطشة ، وإلى أن تدمير هذا كان رجلاً نصرانياً حسن العقيدة وأنه كان مثقفاً استطاع بفضله وعلمه أن يكسب احترام المسلمين بل احترام الخليفة نفسه حينما سار إليه فيما بعد ليشكو إليه غبناً أصابه من عامل الأندلس [١] .

ويذهب الرازى إلى أن تدمير دخل فى طاعة المسلمين من أول الأمر ، دون أن يسلم ، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح استجة [٢] ، ولكن الغالب أن الرازى أخطأ فى ذلك ؛ لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح أوريولة (Orihuela) التى كانت إذ ذاك عاصمة إقليم مرسية وكان فيها مقام تدمير ، والغالب عندنا كذلك أن تدمير لم يفعل شيئاً لمقاومة المسلمين ، مثله فى ذلك مثل غيره من أنصار غيطشة ، وبقى مكانه يرقب الحوادث حتى سار إليه المسلمون بقيادة عبد العزيز فى أول ولايته سنة ٩٥هـ على ما روينا[٣] ..

فلما اقترب عبد العزيز وجنوده من بلاده تخوف وفكر فى أن يحتمى منهم ، وتذهب المراجع النصرانية إلى أنه استطاع رد جيوش المسلمين مهزومة مرتين[٤] ، أما المراجع العربية فتكتفى بقصة ـ موضوعة فى الغالب ـ تدل على ذكاء تدمير وفطنته ، فتذكر أنه احتال على المسلمين ليحصل منهم على شروط حسنة ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال فى وجه الجيش حتى عقد على نفسه ، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمِّن ، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده ، فصارت تدمير صلحاً كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أمواله فى يديه ، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحداً عنده مدفع ، فندم المسلمون ومضوا على ما أعطوه...»[٥] .

ولسنا نستطيع أن نقبل هذه القصة على علاتها ، ولسنا نستطيع كذلك أن نقر المراجع

(١) إيزودور الباجى ، رقم ٣٨ .
(٢) الرازى ، طبعة جايانجوس ، ص ٤ .
(٣) وانظر أيضاً : SAAVEDRA. Op. cit. pp. 88-89.
(٤) SAAVEDRA. Op. cit. p.127 .
(٥) الأخبار المجموعة ، ص ١٣ .
ابن عذارى : البيان ، ص ١٣ .

اللاتينية على ما تذهب إليه من هزيمة تدمير للمسلمين مرتين متواليتين[١]، وليس من المعقول كذلك أن تدمير سلم دون مقاومة أصلاً ، لأنه لو كان فعل ذلك لما حرص المسلمون على إعطائه شروطاً خاصة . وكل ما نستطيع قوله هو أن تدمير كان صديقاً للمسلمين من أول الأمر ، لأنه كان من أنصار غيطشة الكارهين للذريق وأمره[٢]، وربما حسب أن المسلمين تاركوه وشأنه ، وربما يكون قد تفاهم مع موسى أو طارق على شيء من ذلك ، فلما وجد عبد العزيز يسير إليه ويقترب من بلاده أبدى من المقاومة ما أشعر المسلمين أن بلاده لن تُفتح من غير عناء ، وكان المسلمون مجهدين بعد هذه الحروب المتصلة ، وكانوا يودون لو فرغوا من هذا الكفاح المتصل حتى تتاح لهم الفرصة لتنظيم شؤون البلاد ، فانتهز الفرصة وأقبل يفاوض المسلمين فى شروط التسليم ، واستطاع أن يحصل على ما ضمن له بقاء شيء من السلطان فى بلاده ، وإن كانت الشروط نفسها لا تختلف فى كثير عن معاهدات الصلح الكثيرة التى عقدها المسلمون فى ذلك العصر .

وقد احتفظت لنا المراجع بنص هذا الصلح على خلاف ما فعلت بالكثير من أمثاله: أورد الضبى نصه العربى وأورد الرازى صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيرى إلى اللاتينية ، وأثبته فى فهرسه المعروف للمخطوطات العربية فى الإسكوريال، وهذه هى الوثيقة نقلاً عن الضبى :

« نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غبدوش :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحداً من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تَعَبَّد (كذا ، وصحتها تقيد) وما نَصَح ، وأن الذى اشتُرط عليه أنه صالح على سبع مدائن : أوريولة وبَلَنْتِلَة ولقنت ومُولَة وبقَسَرة وأنَّهْ ولورقة[٣] ، وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ، ولا يكتم خبراً علمه ، وأنه عليه

(١) انظر مثلاً : إيزودور الباجى ، فقرة ٣٨ أسطر ٩٧٠ - ٩٧٣ .

(٢) يُفهم هذا من قول بعض المؤرخين إن طارقاً بعث تدمير فى جيش ففتح استِجّه .

(٣) هذه المدن السبع التى عاهد عليها تدمير هى :

وعلى أصحابه دينار كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا، وأربعة أقساط خل ، وقسط عسل ، وقسط زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كُتِب فى رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى ، وحبيب بن عبيدة الفهرى، وعبد الله بن ميسرة الفهمى ، وأبو قائم الهُذَلى»[١].

لو أخذنا بظاهر نص هذه الوثيقة لقلنا إن عبد العزيز اعترف لتدمير بالاستقلال فى نواحيه ، وأن موقف هذا الأخير من المسلمين كان موقف المعاهد الذى يدفع الجزية ، فلم يكن للمسلمين حق دخول بلاده ولا التدخل فى شؤون إدارتها . ولم تكن المنطقة التى عاهد عليها الرجل بالصغيرة ولا القليلة الأهمية ، لأن المدائن السبع التى عاهد عليها ترسم صلیباً يضم فى محيطه كل جنوب شرقى شبه الجزيرة ، فكيف يتفق أن يسلم المسلمون فى هذا الجزء الهام من البلاد دون حرب ، ولمجرد أن تدمير ضمن لهم الجزية وعاهدهم على الصدق والنصح معهم ، مع أنهم كانوا مستطيعين أن يأخذوا الإقليم كله كما أخذوا بقية شبه الجزيرة؟

لا نستطيع أن نفهم ذلك الصلح إلا على تفسير واحد ، وهو أن الأمان انصب على المدائن السبع وحدها دون الإقليم ، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك بل كانت حصوناً ، فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها على أن يؤدى عن أهلها الجزية[٢]. ودليلنا على ذلك أن

= أوريولة وهى Orihuela

بلنتلة ، وقد وردت فى الرازى Valencia وهو خطأ ، وأوردها الغزيرى Valentola ، وقد أثبت سافدرا أن قرية قديمة بهذا الاسم كانت توجد على مقربة من بليدة Alcantarilla الحالية على خمسة كيلومترات من مرسية ، وأن النهير الذى بهذه البليدة الأخيرة كان يسمى فى القديم وادى فالنتيلية وقد تحول مع الزمن إلى Guadalentin .

لقنت ، وهى Alicante

مولة ، وهى Mula

بقسرة ، وهى Begastro بليدة على مقربة من Cehegin

أنه ، وهى Anaya على مقربة من دير San Ginés القديم المتهدم فى إقليم مرسية .

لورقة ، هى Lorca

راجع الملاحظات القيمة التى أوردها سافدرا ، ص ١٢٨ - ١٢٩ والهوامش .

(١) انظر : الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٥٩.

الرازى : الترجمة الإسبانية ، فقرة ١٢ .

(٢) اختلف سافدرا وبروفنسال حول المراد بعبارة : « وأن لذى اشتُرِط عليه أنه صالح على سبع مدائن ... » الواردة فى ذلك العهد ، فترجمها سافدرا :

=

العرب سيتوغلون فى جنوب شرقى الجزيرة وسيستقرون فى بعضها دون حرج ، ثم إن العهد لم ينص على أن هذه الشروط تسرى على أولاد تدمير من بعده ، أى أنها كانت له وحده طول حياته ، فكأن عبد العزيز أقر هذا الرجل المصادق للمسلمين على بعض بلاده التى كان يملكها تأكيداً لوده وتسكيناً لخواطر من كان يعيش فيها من النصارى .

ولا محل إذن لما يزعمه بعض مؤرخى الإسبان من أن تدمير تصدى للعرب وأوقفهم خارج حدود إقليمه كله ، وأنه أقام هناك كالأمير المحالف محالفة الند للند . ولم يخسر المسلمون بهذا شيئاً ، لأن جنوب شرقى الأندلس لم يظل خارجاً عن سلطانهم بل دخل فى طاعتهم أسوة بغيره من نواحى شبه الجزيرة ، ولأن تدمير كان فى « ذمة » المسلمين شأنه فى ذلك شأن غيره من النصارى الذين دخلوا فى طاعة المسلمين إذ ذاك . وكان موقفه منهم موقف مالك إقطاعى من صاحب البلاد كلها : له سلطان شبه مطلق على النواحى التى يشملها إقطاعه ، ويظل فى هذا الإقطاع ما ظل على الطاعة والصدق وما أدى الواجبات الإقطاعية من مال ومساعدة وقت الحرب وغير ذلك(١).

بقيت ملاحظة صغيرة عن تاريخ هذه المعاهدة الوارد فى نصها ، فقد جعل بعض المؤرخين ذلك فى سنة ٩١هـ وذهبوا إلى أنها تمت فى عهد طارق بن زياد ، وجعلها بعضهم سنة ٩٢هـ . وهذان فرضان غير معقولين ، فإن الوثيقة صريحة بأنها عقدت على يد عبد العزيز ، وأنه عقدها بصفته عامل الأندلس ، ولو كان عقدها فى حكومة أبيه لأشير إلى ذلك

=

"... Y queda libre en las siete ciudades de .. "

أى : أن المسلمين تعهدوا له بأن يتركوه حراً فى هذه المدائن السبع .

وأما بروفنسال فقد ترجمها هكذا :

"La paix lui est accordée moyennant la remise des sepu villes suivantes ...'

والترجمتان فيما نرى غير دقيقتين : فإن المراد من أن الرجل صالح على هذه المدائن السبع هو أنه سلم بأنها دخلت فى طاعة المسلمين دون حرب ، ولكنهم لم يحتلوها بل اكتفوا بالعهد الذى أخذوه على صاحبها ، وبما تعهد به من سداد ما على أهلها من الجزية ، فهم لم يتركوه حراً كما يقول سافدرا ولم يتسلموا البلاد منه كما يقول بروفنسال ، وإنما اعترف الرجل بأن البلاد للمسلمين وأقام كالنائب عنهم فيها يحكمها باسمهم .

Cf.: SAAVEDRA. Op. cit. p. 129 .

LEVI-PROVENCAL. Histoire de L'Espagne Musulmane, I, p. 28.

وترجمة سافدرا لهذه الوثيقة مليئة بالأخطاء ، وفيها زيادات .

(١) هذا واضح من قول إيزودور الباجى :

Theudimer, qui in Hispaniae partibus non modicas Arabum intulerat neces et diu exagitatis pacem cum eis Foederat habendam . Cf.: no.38.

وقد ورد النص فى الضمائم التى ألحقها لافوينتى ألكانترا بترجمته للأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .

فى صلبها .فإذا صح ذلك كان من الميسور أن نشك فى التاريخ الذى توررده الوثيقة فى نصها . فهى تذكر رجباً سنة ٩٤هـ ، ورجب هذا يقع فى أبريل سنة ٧١٣م، فلو ذكرنا أن عبد العزيز فتح فى هذه الغزوة - وقبل وصوله إلى بلاد تدمير - حصنين كبيرين هما غرناطة ومالقة ، ولا بد كذلك أن شيئاً من الوقت قد ضاع فى المحادثات مع تدمير حتى تم الاتفاق معه ، إذا حسبنا لذلك كله ثلاثة أشهر كان من الضرورى أن يكون عبد العزيز قد خرج بهذه الغزوة فى يناير أو أوائل فبراير على أكثر تقدير ، وهذا وقت لم تجر العادة بالخروج للغزو فيه فى تلك العصور .

وأسلم الآراء فى هذا الموضوع هو أن نضع تسليم تدمير - وهو آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس - فى أوائل سنة ٩٦هـ (٧١٤م) لأن موسى لم يبرح البلاد إلا فى ذى قعدة سنة ٩٥هـ .

* * *

هكذا تم فتح الأندلس بعد حرب عنيفة وجهد متصل داما أربع سنوات إلا أشهراً : بدأ الفتح فى رجب سنة ٩٢هـ وانتهى فى أوائل سنة ٩٦ هجرية ، وقد فتح المسلمون خلال تلك السنوات القلائل هذه الجزيرة الضخمة من أقصى الجنوب إلى جبال البرت وشاطىء البحر فى الشمال ، ومن مالقة وطركونة فى الشرق إلى قلمرية وأشبونة فى الغرب ، واستولوا فيها على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتالة ونواحى الجوف (استرامادوره) القاحلة ، ولم يغادروا بلداً عظيماً أو حصناً هاماً إلا رفعوا عليه راية الإسلام وأدخلوه فى حوزة الدولة الإسلامية الكبرى . ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح فى هذه المدة القصيرة لما صدَّقه أحد ، لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه ، وقد وفق العرب إلى ذلك فى نظام وسياسة ينبغى أن نسجلهما لمن قاموا به .

ومهما بلغ المؤرخ من الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاءه حقه ، ولو فكر الإنسان فى الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سراً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحى امتيازه . فطارق هذا رجل مغربى بربرى لم يكن ليصبح - بغير الإسلام - إلا قائداً خاملاً لجماعة من البربر منسيين فى ركن من أركان الأطلسى ، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محنكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات فى قدرة وكياسة جديرتين

بالإعجاب ، فلو لم يكن للإسلام من أثر إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل نكفاه ، فكيف وقد بث الإسلام هذه الروح فى كل مكان أظلته رايته ، وكيف وقد فعل هذا فى أقصر وقت وحققه على أتم وجه !

الحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة فى ذاته ، إذ لا يصدق المرء وهو يتتبع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به بهذا النظام وبهذا النظر البعيد إنما كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات ، الحق أن الإسلام قد خطا بمعتنقيه خلال القرن الأول بضعة قرون للأمام ، وهذا تاريخ الرومان فى إفريقية : لم يُوفَّقوا إلى تحضيرها على نحو يقارب ما فعله الإسلام - ولو من بعيد - بعد بضعة قرون ، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك فى نحو نصف قرن ؟

ولو ذكر الإنسان أن موسى أكمل عمل طارق ، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين ، لاستبان أن العرب ساروا فى فتح هذه البلاد على خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها : فقد قُضِى على المقاومة واحتُلَّت العاصمة فى أول وثبة ، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم احتل المسلمون إقليم سرقسطة وتتبعوا فلول المقاومة فى معاقلها فى الشمال والشمال الغربى ثم فتحوا أقصى الغرب ، وختم العمل بفتح الجنوب الشرقى . ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكرين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وُفِّق إلى خير من ذلك ، وتلك ناحية ينبغى أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وهو يدرس هذا الفتح ، لأنها فى الواقع تدل على نبوغ حربى عند هؤلاء المسلمين الأولين .

* * *

الفصل الرابع

عَصـــرُ الوُلاة

٢١ ـ لم تتكلف الخلافة جهداً خاصاً فى سبيل فتح الأندلس

فتح المسلمون خلال القرن الهجرى الأول بلاد العرب كلها والعراق وفارس والشام وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر والشمال الإفريقى وشبه الجزيرة الإيبيرية ، ولكنهم لم يتكلفوا فى فتح قطر من هذه الأقطار مؤونة هى أيسر مما تكلفوه فى فتح هذا القطر الأخير . فقد سيرت الخلافة الجيوش نحو كل قطر من هذه الأقطار وألقت فى ميادينها بآلاف العرب وأمدتهم بالمؤن والأعطيات ، ولم يتم الفتح فى معظم هذه النواحى من غير معارك دامية هلك فيها آلاف العرب وانكسرت فيها جيوشهم مراراً عديدة ، ولقى فيها نفر من كبار القواد حتوفهم كما رأينا فى فتح المغرب . فأما الأندلس فقد احتمل البربر صدمته الأولى ، وهلك منهم فى واقعة وادى البرباط وحدها ثلاثة آلاف ، و أقبل العرب بعد ذلك مع موسى يسيرون فى البلاد الهوينى لا يكادون يلقون عندما يعترضهم من البلاد من المقاومة ما يتناسب مع أهمية هذه البلاد ، ولا تكاد ناحية تعجب قوماً منهم حتى يحطوا رحالهم فيها ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات أو إقامة حصون ، وما زالوا حتى انتشروا فى شبه الجزيرة كله ، واستقرت جماعات منهم فى نواحى الشمال على مقربة من خليج بسكاية ، وجماعات أخرى فى أقصى الشمال شرقاً وغرباً[١] ، بل طمحت بهم الآمال إلى ما وراء إسبانيا من بلاد غالة فانساحوا فى بطائحها يفتحون ويستقرون .

ولعلنا لاحظنا أن الخلافة لم تتكلف فى سبيل ذلك جهداً خاصاً : لم يجيش الأمويون جيشاً واحداً لفتح الأندلس ، ولم يُخرجوا من خزائنهم درهماً لإعداد حملاته ، إنما فتح الأندلسَ البربرُ وجندُ إفريقية وجندُ مصر[٢]، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

(٢) لم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بمدد ، ويذكر الرازى - عن الواقدى عن موسى بن رباح عن أبيه - أن موسى خرج « فى عشرة آلاف من إفريقية » ، ويقول صاحب فتح الأندلس أن موسى « دخل الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس » .
انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٥ .
فتح الأندلس ، ص ١٠ .

وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسى بين غيره من فتوح المسلمين : لقد وقع للخلافة كالغنيمة الباردة من غير جهد أو مئونة أصلاً .

٢٢ـ لم تغنم الخلافة منه شيئاً مادياً

بيد أننا ينبغى أن نقرر أن الخلافة نفسها لم تغنم شيئاً مادياً من هذا الفتح ، إنما غنمه الذين قاموا بفتحه وحدهم : ففى حين أننا نجد الخلافة تهتم - إذا ما تم فتح بلد - بإرسال عامل يقوم بشؤون الإدارة ، وعامل آخر يشرف على الجبايات وتنظيم الأموال والسهر على حقوق الدولة المركزية ، وترسل قاضياً ينظم القضاء ويقيم العدل باسم الخلفاء ، وبينما نرى سيل الأموال ينثال على خزائن الخلفاء فى دمشق من كل ناحية فتحها المسلمون : من فارس إلى حدود النوبة وسواحل المحيط الأطلسى ، وبينما يحرص المؤرخون أشد الحرص على أن يذكروا لنا مقادير الجبايات ونظمها فى كل ناحية ، إذا بنا نجد الخلافة لا تكاد تولى هذا القطر العظيم ولو جانباً يسيراً من العناية التى يستحقها : فهى لم ترسل إليه من أول الأمر والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنين تحت تصرُّف عامل إفريقية يتصرف فى شؤونه كما يريد [1] وهى لم ترسل إليه عاملاً على المال يحصى نواحيه وأهله ويخمس النواحى ويقرر مقادير الخراج والجزية والجباية ، ويقرر ما ينبغى أن ينفق فى البلاد وما ينبغى أن يحمل إلى دار الخلافة ، وهى لم تُعْنَ كذلك بتنظيم القضاء فى الأندلس من أول الأمر ، بل جعلت ذلك من شؤون الولاة ، يعينون القضاة أو لا يعينونهم كما يشتهون[2]. وإنه لمن الغريب حقاً أن نلاحظ أن المراجع لا تذكر - ولو مرة واحدة - أن شيئاً من المال قد أرسل من الأندلس إلى المشرق[3] ، بل إننا لن نخرج من

---

(١) ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس حينما عاد إلى المشرق فى صفر سنة ٩٥هـ (أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م) وخلفه أيوب بن حبيب اللخمى ، وقد أقامه جند الأندلس على أنفسهم ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى وقد عيَّنه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك . وكان أول وال أقامته الخلافة هو السمح بن مالك الخولانى ، أقامه عمر بن عبد العزيز فى رمضان سنة ١٠٠ (مارس - أبريل سنة ٧١٩م) ولم تزد ولايته عن عامين وبضعة أشهر ، إذ خلفه عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فى ذى الحجة سنة ١٠٢ هـ .

(٢) لم يعين خلفاء بنى أمية على الأندلس إلا قاضياً واحداً هو يحيى بن زيد التجيبى ، عينه عمر بن عبد العزيز . أما غير يحيى من قضاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية فكان يعينهم ولاة الأندلس فى الغالب وولاة إفريقية فى النادر ، وكانوا يسمون قضاة الجند .

انظر الخشنى : قضاة ، ص ٢٧ .

النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٢- ٤٣ .

ومقدمة الترجمة الإسبانية لقضاة قرطبة للخشنى .

(٣) يذكر ابن قتيبة فى « الإمامة والسياسة » أن سليمان قرر على موسى ٤٠,٠٣٠,٠٠٠ دينار ذهبًا غرامة ، ولسنا نعلم إن كان هذا المبلغ هو ما استحق للخلافة من خراج الأندلس فى الفترة التى تولاها موسى ، أو هو خراج الأندلس =

بحثنا إلا بنتيجة واحدة ينبغى أن نقررها حتى يتكشف لنا ما ينقضها : وهى أن الأندلس لم يبعث إلى مركز الخلافة شيئاً من ماله أو من جبايته أصلاً .

وذلك فى ذاته وضع غريب ، ويزيد فى غرابته أن الأندلس كان بلداً غنياً عظيم الجباية ، وأن الخلفاء كانوا يعلمون مقدار غناه بسبب ما يحمله إليهم غزاته من غنائمه وطرفه ، ولست أشك فى أننا سنظل زماناً طويلاً لا نفهم السر الذى جعل الخلافة تمضى على هذا النحو من التهاون فى شؤون الأندلس ، ولسنا نستطيع أن نرد ذلك إلى بُعْده عن مركز الخلافة ، لأن الخلافة لم تحاول ولا مرة واحدة بسط سلطانها الموكد عليه ، ولم تطالب مرة - ولو فى شىء من اللين - بنصيبها من أمواله وجباياته التى تحق لها وفقاً للنظم المالية والإدارية التى كانت تطبق فى دقة فى كل ناحية من نواحى الدولة الإسلامية الواسعة إذ ذاك .

ولسنا نستطيع كذلك أن نرد هذه الظاهرة إلى أن جند الأندلس كانوا يستنفدون أمواله كلها ، أو أن خراجه كان ينفق على الفتوح فيما وراءه من البلاد ، لأن الواقع أن جانباً عظيماً من عرب الأندلس لم يكونوا جنداً نظامياً تابعاً لديوان الجند فى دمشق ، وأن عدد هؤلاء العرب لم يبلغ المبلغ الذى يستنفد أموال هذا القطر العظيم الغنى. وأما الحروب فيما وراء البرت فقد كان معظم القائمين بها من المتطوعة الذين لا تُفرض لهم أعطيات ، وكان ما يقع بين أيديهم من الغنائم من الوفرة بحيث لم يفكروا فى مطالبة الدولة بأعطيات(١).

كل ذلك يلقى ضوءاً كاشفاً على حقيقة وضع القطر الأندلسى خلال الفترة التى تقع بين تمام الفتح وبين قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل سنة ١٣٨ هجرية (سنة ٧٥٦م) ، فهو لم يكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو كالشمال الإفريقى مثلاً ، ولم يكن كذلك قطراً مستقلاً تمام الاستقلال ، وإنما كان له وضع خاص بين بين : كان يكوِّن جزءاً من الدولة الإسلامية مكملاً لإفريقية داخلاً فى طاعة

= وإفريقية معاً ، أو هو نصيب الخلافة فى مغانم موسى من الأموال . وهذه الإشارة - على اضطرابها وقلة جدواها - هى الوحيدة التى تتحدث عن مطالبة الخلفاء لأحد من ولاة الأندلس بمال .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة (طبعة القاهرة سنة ١٩٠٤) جـ٢ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن جند المسلمين الذين كانوا يخرجون للحملات فيما وراء جبال البرت بلغوا ثمانين أو مائة ألف فى مواقع مثل طولوشة وبلاط الشهداء ، وتلك تقديرات مبالغ فيها ، إذ الواقع أن جند المسلمين لم يزد فى هذه المناسبات عن ستين أو سبعين ألفاً أكثر من ثلاثة أرباعهم من البربر ، والربع - أى بين خمسة عشر وعشرين ألفاً - كانوا من العرب . هذا وقد كان العرب وحدهم هم أصحاب الحق فى فروض الديوان ، أما البربر فلم يكن يفرض لهم رزق ، وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب ثورة البربر على العرب .

الخلفاء ، يخطب لهم على منابره ، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً كما سنرى ، وسنحاول فيما يلى من هذا الفصل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً .

٣٢ـ هجـرة العرب إلى الأندلس

وظاهرة أخرى لا تقل غرابة ولا أهمية عن هذه : هى هجرة العرب إلى الأندلس وسكناهم نواحيه ، ولسنا نقصد بذلك جماعات العرب الفاتحة ، وإنما جماعات المهاجرين المسالمين الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد الفتح واستقروا فى نواحيه دون أن تحدثنا المراجع عنهم بشىء ينقع الغلة ، فقد رأينا أن عدد العرب الذين أقبلوا مع موسى لم يزد على ثمانية عشر ألفاً ، وسنلاحظ أن بضعة آلاف أخرى ستقبل خلال العشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً ، وسنرى أن موجة أخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف ستقبل مع بلج بن بشر ، فإذ أخرجنا من ذلك أعداد من لقى مصارعه فى فتح البلاد وما وراءها من نواحى غالة ، وأعداد من عاد إلى المشرق أو إلى إفريقية بعد الفتح ، لم نستطع أن نقدر من استقر فى الأندلس من العرب بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً .

ولكننا لا نكاد نمضى فى استقصاء أخبار الأندلس حتى نجده يموج بالعرب موجاً : نجد جماعات عربية ضخمة فى نواحى قرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة، غير جاليات أخرى صغيرة فى كل ناحية تقريباً ، وقد استعرض ابن غالب فى « فرحة الأنفس» بعض هذه الجماعات العربية استعراضاً سريعاً مقتضباً يُفهم منه أن عددهم كان يبلغ على الأقل أضعاف هذه الآلاف التى ذكرها المؤرخون[١].

فمن أين أتى هؤلاء العرب ؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد حتى لم يبق للبربر غير القليل منها ، وسهول الأندلس واسعة لا يملؤها إلا مئات الآلاف ، فكيف أقبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ؟

لسنا نستطيع تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن تياراً من مهاجرى العرب كان يتجه نحو الأندلس من أول الأمر ، ويؤيد ذلك قول الرازى بعد وصف معركة وادى لكة : «وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق ،

(١) راجع البيانات التى يقدمها المقرى نقلاً عن « فرحة الأنفس » لابن غالب : نفح الطيب (القاهرة سنة ١٩٤٩) جـ١ ، ص ٢٧١ وما يليها .

وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال»[١].

وهى عبارة هامة تدل على أن اندفاع الناس نحو الأندلس كان عظيماً لا يكاد يعدله اندفاعهم نحو أى بلد آخر مما فتح الله على المسلمين فى ذلك الحين .

ولم يفسر لنا الرازى عبارته تلك حتى نعرف نسبة العرب إلى البربر فى هذه الجماعات المهاجرة ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن نسبة العرب وإن كانت قليلة إلا أن عددهم كان كثيراً ، وأن جانباً عظيماً من هؤلاء استقر فى الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة فى كل ناحية ، وقد وضعت هذه الجماعات يدها على ما استطاعت من الأرض وأخذت تعمل على عمارته واستحيائه مستعينة بالزراع من الأهلين على نظام المزارعة الذى سنشرحه .

وكانت الأحوال السياسية فى المشرق سبباً من أسباب هجرة العرب إلى الأندلس : فقد هاجر الكثيرون جداً من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق وخراسان والشمال الإفريقى والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس بسبب ما تلا ذلك من أحداث[٢].

وأما البربر فكانت أعداد مهاجريهم تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وتذهب بعض التواريخ الحديثة إلى أن العرب استأثروا دونهم بخير النواحى ولم يتركوا لهم غير الهضاب

(١) الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

ويبدو أن هذه العبارة تنصب فى الغالب على البربر ، ولكن الذى لا شك فيه أن جماعات كثيرة من العرب اليمنية الكلبية ومن أهل المدينة كانت قد هاجرت بعد كربلاء والحرة إلى إفريقية والأندلس . راجع الإشارات عن ذلك عند :

اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ٣٢٧-٣٢٨ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ٣ ، ص ٢١ وما بعدها .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٩ وما يليها .

ابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ، ص ٥٧ .

المسعودى : مروج الذهب ، جـ٥ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن الأبار : الحلة ، ص ٤٧ - ٤٩ .

P.H. LAMMENS, Le Califat de Yazid Ier, VIII- IX, pp. 114 sqq.

WEIL, Geschichte der Chalifen. I. p. 326 sqq.

DOZY, Musulmans d'Espagne. I, pp. 119 sqq.

وهذه المسألة رغم ذلك لا تزال غامضة جداً لقلة وضوح المراجع .

(٢) انظر الهامش السابق .

القاحلة فى الشمال(١) ، وهذا غير صحيح على إطلاقه ، لأن البربر انتشروا واستقروا من أول الأمر فى كل ناحية ، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من زناتة ، لأن الزناتيين كانوا أول البربر إسلاماً وانضماماً للعرب ، وكان طارق بن زياد منهم(٢).

أخذت هذه الجماعات المسلمة - عربية وبربرية - تستقر فى نواحى البلاد خلال فترة الولاة كلها ، وسنرى أثر ذلك فى تطور الحوادث وفى تحول الأندلس إلى بلد إسلامى عربى الطابع فى أقل من قرن .

* * *

٢٤- ولاية عبد العزيز بن موسى

أصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير والياً على الأندلس منذ مبارحة أبيه موسى البلد فى صفر سنة ٩٥هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧١٣م) ، ولسنا نعلم إن كان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد بعث إليه كتاباً يثبته فى هذه الولاية ، وإن كنا نعلم فى شىء من الثقة أنه أقره فى ولايته سياسة منه أو رضىً عنه . وكان الأندلس فى ذلك الحين تابعاً لإفريقية ، وكانت ولاية إفريقية بيدى مروان وعبد الله ابنى موسى وأخوى عبد العزيز ، فليس إلى الشك سبيل فى أنهما أيّداه على هذه الولاية .

ولا تكاد المراجع تذكر لعبد العزيز عملاً خلا ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة ، ويبدو أن نفسه كانت طول الوقت مروعة يتنابها الخوف على مصير أبيه ومصير أسرته ، فمال إلى السكون والانتظار والترقب ، وبهذا وحده نعلل سكوته عن العمل وقد عرفناه إلى ذلك الحين رجلاً نشيطاً مقداماً .

(١) المسئول عن إذاعة هذه الفكرة دوزى ، وقد اعتمد على عبارة قصيرة جداً وموجزة لإيزودور الباجى (فقرة ٤٤) ولكننا سنرى أن الحوادث لا تؤيد هذا الرأى . صحيح أن العرب أساءوا معاملة البربر وآذوهم كثيراً ، ولكنهم لم يختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين ، لأن أرض الأندلس كانت من الوفرة بحيث كانت تكفى جميع العرب عن سعة ، ويبقى للبربر بعد ذلك من الأرض ما فيه الكفاية فى كل ناحية .

(٢) كان معظم البربر الذين أسلموا أول الأمر من زناتة . راجع :
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .
ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .
ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ .
وفتح العرب للمغرب لصاحب هذا الكتاب ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

٢٥. مقتل عبد العزيز بن موسى

ويبدو أن حاله مع الجند لم يكن على ما يرجى ، لا لأنهم كانوا ساخطين عليه بل لأن نفراً من بينهم كان شديد التطلع والطموح ، تذكر المراجع منهم حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى حفيد عقبة بن نافع - وقد كان شخصية قلقة لا تكف عن السعى والتدبير كما سنرى - وزياد بن عذرة البلوى ، وزياد بن نابغة التميمى ، وكانوا جميعاً من الظاهرين من جند موسى وكبار رجاله . وكان حبيب بن أبى عبيدة الفهرى أكبرهم وأظهرهم ، وكان موسى قد ألحقه بابنه وجعله « وزيراً له ومعيناً»[1] كما يقول ابن عذارى ، ويبدو أن الخلاف بين هؤلاء القادة وعبد العزيز كان مستمراً «لأشياء نقموها عليه[2]»، كما يقول الرازى .

فأما هذه الأشياء التى « نقموها عليه » فهى علاقته بزوجه النصرانية « أجيلونا » التى تسميها المراجع العربية أيلُه (= أيلونا) أو أم عاصم . وكانت أيلونا قبل ذلك زوجاً للذريق فيما تذهب المراجع ، « وكانت قد صالحت على نفسها فى وقت الفتح وباءت بالجزية ، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه»[3]، فتزوجها وأقام معها فى ناحية من كنيسة رُفِينَة فى إشبيلية ، وكانت قد حولت إلى مسجد . فكانت داره على هذا قريبة من موضع اجتماع المسلمين ومكان صلاتهم . ولو قد كان عبد العزيز ضعيفاً مترفاً كما يفهم من مراجعنا لاستطاع أن يسكن أحد قصور إشبيلية الحسان ، ولكنه كان فى واقع الأمر رجلاً جاداً حريصاً على أن يكون على مقربة من رجاله .

ويبدو أن أيلونا كانت على جانب عظيم من القوة والذكاء ، لأنها لم تلبث أن ملكت زمام زوجها فتابعها فى كثير مما أرادت . وتذهب المراجع إلى أنها عملت له تاجاً من الذهب والجوهر وحملته على أن يلبسه ، لأن « الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم » كما قالت ، وما زالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ، فبينما هو ذات يوم جالس معها والتاج على رأسه دخلت عليه امرأة كانت قد تزوجها زياد بن نابغة التميمى من بنات ملوكهم ، فعاينته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال لها : ليس فى ديننا استحلال لبسه ، فقالت : ودين المسيح إنه لعلى رأس ملككم وإمامكم ، فأعلم بذلك زيادٌ حبيبَ بن أبى عبيدة ، ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الجند ، فلم يكن لهم هَمٌّ إلا كشف ذلك ، حتى

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٢١.

رأوه عياناً ، فقالوا : قد تنصَّر ! ثم هجموا عليه فقتلوه»[١].

ولسنا نعلم كيف فسر الجند لبسه التاج بأنه قد تنصر ، هذا إذا كان قد لبسه أصلاً ، ولا كيف قال عبد العزيز إن لبس التاج ليس من الدين ، مع أن أشراط الدين ليس فيها ما يُفهم منه ذلك ، ثم إن الرجل يلبسه كشارة من شارات الملك ، بل لبسه فى خلواته مع أهل بيته . ولسنا نفهم كذلك كيف ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر وهم لم يكونوا يثورون على من يعب الخمر ويقترف المحرمات منهم ، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً فى هذه الأمور . ثم لماذا تكون زوجة زياد بن النابغة التميمى بالذات هى التى تكشف هذا الأمر ؟

إن سياق هذه القصة يدل على أنها ملفقة تلفيقاً ، وأنها وُضِعت لكى تستر الدوافع الحقيقية التى حفزت جند عبد العزيز على قتله .

وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذى أوعز بقتله فقول لا يجد ما يؤيده ، لأن الخليفة لم يكن عاجزاً عن عزله إن أراد ، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفاً عليه ، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقده على أبيه موسى .

ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه « مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد القريشى ، لا أدرى لمن من قريش (يريد محمد بن يزيد مولى قريش والى إفريقية) ، وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية . وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبى عبيدة وزياد ابن النابغة من قتل عبد العزيز ، بأن يتشدد فى ذلك ، وأن يقفلهما إليه ومن شركهما في قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فسرح عبيد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس الحرَّ ابن عبد الله الثقفى ، وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز »[٢]. مما يفهم منه صراحة أن الأمر دُبِّر بغير علم الخليفة ، وأن له أسباباً أخرى لا تفصح المراجع عنها . وتؤيدنا رواية الأخبار المجموعة تلك فيما ذهبنا إليه آنفاً من أن الأمر دبره حبيب بن أبى عبيدة ونفر ممن كان معه من الجند ، وسنرى أن حبيباً هذا سيظل طول حياته سبباً للمتاعب والقلاقل ، وأن مصيره لن يكون خيراً من مصير عبد العزيز .

وأقرب التفاسير إلى الصحة هو القول بأن المسألة كانت نتيجة لتدبيرمحكم بين محمد بن

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ - ٢٢ .

يزيد عامل إفريقية لسليمان وبين حبيب بن أبى عبيدة ، ونفر من الجند ، وأن هؤلاء قرروا قتله دون الرجوع إلى سليمان فى الأمر ، ومصداق ذلك ما يقوله صاحب فتح الأندلس: « ثم اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى الذى قُتل عبد العزيز بمشورته » مما يدل بوضوح على أن الأمر تم فى الأندلس بعد أن اشتَوَر فيه الجند .

وكان سليمان قد أوصى يزيد بأن « يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسبوا إليه حتى يقوموا بما بقى عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب ، فقبض على عبد الله والى القيروان فحبسه فى السجن ، ثم وصل البريد من قبَل سليمان يأمره بضرب عنقه ... وحكى الواقدى ، قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع الطاعة وخالف ، فأرسل إليه سليمان رسولاً ، فلم يرجع ، فكتب سليمان إلى حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سراً بقتله ، فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قرأ سورة الواقعة ، فقال له حبيب : « حقت عليك يا ابن الفاعلة !» وعلاه بالسيف فقتله »[1].

فمن المعقول جداً أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشىء من السخط على بنى أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله ، دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة ، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب بن أبى عبيدة عن معسكره ولاحتاط منه على الأقل ، فلم يكد خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه يغريهم به فغدروه على النحو الذى تصوره رواية الواقدى وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه .

وتجمع المراجع على الثناء على عبد العزيز ، فهو عند أكثرهم من خيار الولاة ، ويؤكد الرازى أنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مداين كثيرة ، إلا أن مدته لم تطل .. » وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من قصته مع أيلونا فهو أنه كان رجلاً تقياً لطيفاً حسن العشرة ، وأنه كان قادراً على تذوق الحياة .

٣٦ـ أيوب بن حبيب اللخمى

يقول صاحب « فتح الأندلس » أن جند الأندلس اجتمعوا بعد قتل عبد العزيز « على أيـوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى الذى قُتل عبد العزيز بمشورته » ، وهى عبارة هامة تكشف لنا عن بعض أسباب مقتل عبد العزيز ،

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٣ - ٢٤ .
وفتح الأندلس ، ص ٢٣ .

ولو أضفناها إلى رواية « الأخبار المجموعة » - التى ذكرناها آنفاً والتى تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبر مقتل عبد العزيز وبعث يطلب إلى والى إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه - تبينّا أن القول بأن سليمان هو الذى حرض على مقتل عبد العزيز غير صحيح ، وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب فى الأندلس . فقد كان كبار الجند - وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمى هذا وحبيب بن أبى عبيدة وزياد بن عذرة البلوى وزياد بن نابغة التميمى - ناقمين على عبد العزيز ، فقتلوه ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب . ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم ، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره .

٣٧- نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة

لم تزد ولاية أيوب عن ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر إلا نقله العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، ولا نزاع فى أن قرطبة كانت أوفق من إشبيلية لحكم الأندلس ، لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب فى الشرق والجنوب الشرقى والجنوب . ولو أنهم انتقلوا إلى طليطلة لكان أحسن ، لأنها فى وسط شبه الجزيرة تماماً ، وهى على أبواب الهضاب الشمالية والشمالية الغربية ، وصاحبها لا يجد صعوبة فى إخضاع هذه النواحى ، أما قرطبة فبعيدة عنها جداً ، ولا تستطيع الحملات الصادرة منها الوصول إلى نواحى قشتالة وأشتريس إلا بعد سير طويل مجهد . وقد ظلت إشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامى أربع سنوات إلا قليلاً ، ويبدو أن النية لم تتجه إلى الانتقال إلى قرطبة إلا فى أواخر أيام عبد العزيز . وكانت جماعات كبيرة من العرب قد استقرت فى إقليمها ، وظلت مقيمة فيه بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة ، وكان معظم هؤلاء العرب الذين استقروا فى إقليم إشبيلية وكبار مدنه مثل وادى آش وشريش وشَلْطِيش من هوازن وأسد وبكر بن وائل وإياد بن نزار ومراد وخولان ، وتكونت منهم مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بأهل البلاد ، وقامت لهم مع الزمن عصبية خطرة كان لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وكان قد سكن قرطبة وإقليمها عدد عظيم من العرب ، بل كان ما يحيط بها من الأرباض أحفل أقاليم الأندلس بالعرب من أول الأمر ، وكان هؤلاء العرب المستقرون هناك من أصول شتى لا يكاد السلام يستقر فيما بينهم ، فكان انتقال الحكومة إليها سبباً فى تورط العمال فيما عساه أن يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

وكنا قد أشرنا إلى أن موسى بن نصير كان قد وهب مغيثاً الرومى القصر الذى كان حاكم قرطبة القوطى يعيش فيه فى غرب المدينة ، فلما عاد موسى من فتوحه فى الشمال ومر بقرطبة ورأى القصر استكثره على مغيث ، ورأى أنه أوفق ما يكون لعامل البلاد ، فصرف مغيثاً عنه وعوضه عنه داراً أخرى على مقربة من باب القنطرة مقابل الثلمة التى دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة ، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، ويقال لها «الْيُسَانَة» كانت للملك الذى أسره وكان له فيها بلاط منيف ، فهى تسمى بالأندلس « بلاط مغيث » وقد أخلى مغيث هذه الدار لتصبح قصر عمال قرطبة وأمرائها ، ويبدو أن أيوب حينما دخل البلد لم يسكنه .

٢٨ـ عامل إفريقية يولى الحر بن عبد الرحمن الثقفى على الأندلس

وكانت ولاية الأندلس فى ذلك الحين إلى عامل إفريقية ، وكان عاملها كما ذكرنا محمد بن يزيد (ذو الحجة سنة ٩٧هـ/ أغسطس سنة ٧١٦م - رمضان سنة ١٠٠/ مارس سنة ٧١٩م) فلم يقر الجندَ على ما فعلوا من تولية أيوب بن حبيب وسارع فبعث الحرَّ بن عبد الرحمن الثقفى والياً فى ذى الحجة سنة ٩٧هـ/ ٧١٦م . ويبدو أن سليمان بن عبد الملك هو الذى حفزه على ذلك ، رغبة منه فى عقاب من شاركوا فى قتل عبد العزيز بن موسى ، ويبدو أن الحر كان قد توقع مقاومة من أيوب وأصحابه من المؤتمرين فاصطحب معه قوة صغيرة من أربعمائة عربى من وجوه عرب إفريقية ، ويبدو أنهم كانوا نخبة مختارة ، فلم يستطع جند الأندلس لهم مقاومة ، وأسلموا لهم الأمر . وأصبح الحر والياً على البلاد .

أقام الحر حاكماً للأندلس سنتين وثمانية أشهر ، ولا تذكر المراجع له شيئاً غير سكناه قصر قرطبة الكبير واختطاطه إياه مقاماً للعمال من ذلك الحين .

وتوفى سليمان بن عبد الملك فى العاشر من صفر سنة ٩٩هـ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م ، وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ الأندلس فى خلافته عهداً جديداً ، شأنه فى ذلك شأن إفريقية وبعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به من الإخلاص فى أمور المسلمين والعناية بشؤون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض لمسئوليات .

٣٩- ولاية السمح بن مالك الخولانى

وقع اختيار عمر على رجل من أفاضل عرب إفريقية ليلى شؤون الأندلس وهو السمح بن مالك الخولانى ، وكان قد ظهر قبل ذلك فى مناسبة لا تخلو من معنى ، يذكرها معظم رواتنا ، فيقولون إن عادة خلفاء بنى أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند فى الولاية بأن هذا المال هو المستصفى الحلال لبيت المال ، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها . فلما أقبلت أموال إفريقية فى أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول تخيرهم الوالى ، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح ابن مالك ، فحلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمح وإسماعيل ابن عبيد الله فأبيا أن يحلفا . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً إذ ذاك ، فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه . وهى رواية تدل على صحة ما كان يتهم به ولاة إفريقية للأمويين من سوء التصرف فى أموال البلاد ، وإرهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات ، والمبالغة فى مقادير ما يرسلونه إلى دمشق من الأموال والألطاف[١].

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز فى العاشر من صفر سنة ٩٩هـ/ ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م لم يقدم شيئاً على إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ، واشتغل بذلك عن أمور الأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر فى شؤون المغرب والأندلس إلا فى رمضان سنة ١٠٠هـ (أبريل - مايو سنة ٧١٩م)، فأقام إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية والسمح بن مالك على الأندلس .

٤٠- عمر بن عبد العزيز يفكر فى إخلاء الأندلس من العرب

تذهب المراجع إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر فى إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم ، إذ « خشى تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية[٢]، أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة[٣]. ولسنا نجد تفسيراً معقولاً لهذه النزعة من خليفة عُرِف بالحرص على نشر الإسلام وتوسيع رقعته لأن حال

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .
فتح الأندلس ، ص ٢٤-٢٥ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .
(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .
فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

المسلمين فى الأندلس كان فى إقبال إلى ذلك الحين ، ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر الذى سنراه فيما بعد ، ولم تكن فتن العصبية قد عصفت بهم وفرَّقتهم وأضعفتهم . وربما جاز تعليله بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً عن عظمة الأندلس واتساع مداها وما كسبه المسلمون من فتحها وما يعود على الدولة الإسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها فى أيديهم ، ولهذا تذكر المراجع أنه لما ولى السمح بن مالك طلب إليه « أن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها وبحرها » ، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقفال المسلمين منها إذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها ، فكتب إليه السمح «يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم ، وشرف معاقلهم»[1] ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه أولاه من عنايته ما هو أهل له .

٤١ـ ضبط المال وتنظيم البلاد

وكان أول ما اهتم به عمر بن عبد العزيز هو ضبط أمواله وتنظيم أمر خراجه ، وهو أمر لم يُعْنَ به واحد ممن سبقه من الخلفاء ، فانتدب مولى من ثقاته يسمى جابراً وبعثه فى هذه المهمة[2] . ولسنا نعلم الأساس الذى سار عليه جابر هذا فى أداء مهمته تلك ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة وباستخراج خمس العنوة لكى يضمه إلى أرض الدولة ، فلم يخرج فى الخمس إلا ربضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين وأقر القرى بيد غُنّامها . وهذه عبارة لا تفسر إلا بأن جابراً اعتبر قرطبة هى الناحية الوحيدة التى فتحت عنوة ، فأخذ خمسها للدولة ، وأما بقية الأندلس فاعتبره قد فُتِح صلحاً . ولما كنا نعلم أن معظم الأندلس قد فتح عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وإشبيلية وماردة على الأقل ، فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ربض من أرباض قرطبة ؟ ثم ما معنى قولهم إنه أقر القرى فى أيدى غنامها ؟ على أى أساس تركها فى أيديهم ؟ إن لفظ «غنامها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن الحكومة المركزية اعتبرت ما فتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فتركت كل ناحية بأيدى من فتحوها واستقروا فيها . إننا نفترض ذلك مجرد افتراض ، ولا يمكننا إيراده على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبتسرة غامضة ، ولا تعيننا بأية صورة على تبين النظام الذى وضعه المسلمون للأندلس .

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ -١٣ .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد تخير السمح بن مالك لفضله وأمره أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها .. »(١) فكيف لم يدون للبلاد ديواناً ؟ لقد رأينا حسان بن النعمان يسارع بذلك عقب تمام انتصاره على الكاهنة ، فيكف تنقضى إلى الآن أربع سنوات على تمام الفتح دون أن ينشأ للبلد ديوان ثابت يحصى كل شىء وينظم كل شىء ؟ الحق أن الأندلس ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعاً : لا نعرف إن كان قد أنشىء له ديوان ، ولا نعرف على أى أساس وزعت أرضه بين الفاتحين والدولة المركزية ، بل إننا لا نملك ولو فكرة يسيرة عابرة عن مقادير الجزية أو الخراج التى كانت تجبى منه ولو لسنة واحدة .

الأندلس هو البلد الإسلامى الوحيد الذى ظل تابعاً لمركز الخلافة نيفاً وأربعين سنة دون أن يذكر المؤرخون ولو مرة واحدة مقدار جزية جبيت منه أو خراج أرسل منه فى إحدى السنوات ، بل لم تسجل المراجع أن الأندلس أرسل إلى مركز الخلافة خراجاً ما ، أو جانباً من الجباية ، وهذا وضع غريب فى ذاته ، وسنرى فيما يلى أن عدم ذكر هذه الشؤون المالية ليس مرده إلى إغفال المؤرخين أو سهوهم ، بل لأن وضع الأندلس فى ذاته من أول الأمر كان غريباً لا يشبهه فى ذلك بلد إسلامى آخر .

ويبدو أن السمح كان ماضياً فى تنظيم البلد وإحصاء أمواله ، ولكن الظروف لم تمهله ، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يولَّ إلا بعد أن انقضى منها نحو العام ، وكان عليه إلى جانب هذا العمل الإدارى أن ينشط للغزوات فى أحيانها ، وكان عظيم الرغبة فى الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ ، فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإدارى الذى بدأه .

ولعل هذا يأذن لنا فى أن نفترض أن « البطحاء المعروفة بالربض » ، وهى التى خرجت فى الخمس ، لا تعنى إلا خمس إقليم قرطبة(٢)، لأنه - كما يقول ابن عذارى - لا يعقل أن يكون هذا الربض هو خمس الأندلس كله ، وأن الرجل كان على نية استقصاء الأمر فى

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٢، ص ٢٥ .
(٢) انظر : فتح الأندلس ، ص ٢٠٤ .
ابن عذارى : البيان جـ٢ ، ص ٢٥ .

الأندلس كلها لو لم تدركه منيته ، وأنه إذا كان قد ترك القرى فى أيدى أربابها فإنما فعل ذلك إلى أن يحين وقت ضبطها على أساس ثابت ، لأنه لا يعقل أن يكون قد تركها فى أيديهم هكذا طعمة لا يكادون يُحاسبون عنها .

لم يكد السمح يمضى فى تنظيم شؤون البلاد من الناحية المالية حتى اجتمع له مبلغ كبير من المال ، وكانت قنطرة قرطبة الرومانية التى كانت مقامة على الوادى الكبير للاتصال بنواحى جنوبى الأندلس قد تهدمت ، ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا فى السفن ، وكان العرب فى أمسِّ الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة ، فوجد السمح أن بناء هذه القنطرة هو أهم ما ينبغى أن ينفق فيه هذا المال المتجمع ، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى ذلك فأذن له ، فقام السمح « ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى بها ، وقد تصدعت هذه القنطرة فى أيام الإمام عبد الرحمن الداخل »[(١)] وسنرى للمسلمين عناية عظيمة بهذه القنطرة التى ستكون ذات أهمية كبرى فى تاريخ البلاد السياسى والفكرى ، لأنها كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً ، ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت متنزه أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

وفى ربيع سنة ١٠٢هـ (سنة ٧٢١م) خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء البرت فاستشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من العام نفسه ، وستحدث عن ذلك فى فصل خاص نجمل فيه أعمال المسلمين الحربية كلها فيما وراء البرت .

وفى أثناء السنوات القليلة التى ذكرناها كانت العلاقات بين البربر والعرب فى إفريقية والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثر حاسم فى مجرى الأمور فى البلدين خلال هذه الفترة وما تلاها ، وجدير بنا أن ندرس هذه الناحية بشىء من التفصيل .

* * *

---

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

الفَصل الخامِس

صراع العَرب وَالبربَر

٤٢ـ خلافات العصبية

انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولانى، وعاد الغرب الإسلامى إلى ما كان عليه أيام الخليفة سليمان ومن سبقه: عاد حكام إفريقية يستبدون بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون، وعاد هؤلاء يُصرِّفون أموره على الوجه الذى يحبونه. ولقد رأى الأندلس فى الفترة بين سنتى ١٠٢و١١٢ حكاماً لا نكاد نذكر لهم إلا اهتماماً ظاهراً بالحروب فيما وراء البرت، وانصرافاً ظاهراً إلى المنازعات العصبية العنيفة[١].

كانت ولاية إفريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بنى أمية، هما يزيد ابن أبى مسلم مولى الحجاج وكاتبه (١٠٢-١٠٣هـ/ ٧٢٠-٧٢١م) وبشر بن صفوان الكلبى (١٠٣-١٠٩هـ/ ٧٢١-٧٢٦م). وكانت خلافة المسلمين إلى اثنين من أشد الأمويين إغراقاً فى العصبية القبلية، هما يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/ ٧٢٠-٧٢٤م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م)، وفى عهدهما ظهر فى البيت الأموى الانقسام والتفرق اللذان انتهيا بإضعاف البيت كله وذهاب ريحه.

فقد كان يزيد بن عبد الملك مضرى الميول: أغضب يزيد بن المهلب وحاربه حتى قتله،

---

(١) هم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (من ذى الحجة سنة ١٠٢ إلى صفر سنة ١٠٣/ من يوليه إلى أغسطس ٧٢١) وعنبسة بن سُحَيم الكلبى (من صفر سنة ١٠٣ إلى شعبان سنة ١٠٧/ ٧٢١ـ٧٢٦)، وعذرة بن عبد الله الفهرى (من شعبان سنة ١٠٧ إلى شوال سنة ١٠٧/ من يناير إلى مارس ٧٢٦)، ويحيى بن سلامة العاملى (من شوال سنة ١٠٧ إلى ربيع الأول سنة ١١٠/ من مارس ٧٢٦ إلى يوليه ٧٢٨)، وحذيفة بن الأحوص القيسى (من ربيع الأول سنة ١١٠ إلى شعبان سنة ١١٠ / من يوليه إلى ديسمبر ٧٢٨)، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى (من شعبان سنة ١١٠ إلى المحرم سنة ١١١ / من نوفمبر ٧٢٨ إلى أبريل ٧٢٩)، والهيثم بن عبيد الكلبى (من المحرم سنة ١١١ إلى ذى القعدة سنة ١١١ / من أبريل ٧٢٩ إلى فبراير ٧٣٠).

انظر ابن عذارى: البيان، جـ٢، ص ٢٦-٢٧.

والبحث الذى كتبه لافونتى إى ألكانترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات عمال الأندلس.

LAFUENTE Y ALCANTARA: Cronologia de los gobernodores de Espana . Apendice III de Ajbar Machmua,pp. 220-242 .

وتعقب اليمنية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا إلى أعدائه ، وامتلأت نفوسهم بالثورة عليه ، وعادت إليهم أحقاد مرج راهط وتحركت فى قلوبهم ثاراتها[(١)]، وأقام على إفريقية يزيد بن أبى مسلم هذا . وكان من كبار القيسية ، فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان ، وقوى جانب القيسية فى بلاد الدولة الإسلامية كلها ، فلما أقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم ، ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمنية الكلبية من أمثال خالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد على الولايات ، فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضى عنه الخليفة وإن لم يفعل فعلها . ولهذا ترك بشر بن صفوان فى ولايته ، لأن ميوله كانت كلبية يمنية ، وحينما توفى بشر بن صفوان سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٦م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشيء عن الكلبية اليمنية ومالت نفسه إلى إضعاف أمرها ، ولهذا أخذ يولى بعض القيسية كبار المناصب ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ، ونصر بن سيار خراسان ، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمى إفريقية . وكانوا جميعاً من غلاة القيسية ، فأخذوا يضطهدون اليمنية الكلبية ، حتى ليذكر النويرى أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمى لم يكد يصل إلى إفريقية حتى « أخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم ، وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبى »[(٢)].

هكذا أخذت عواصف العصبية تعصف بالدولة فى القلب وفى الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه إلى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التى كانت قد هاجرت إلى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبية يمنية ، فإذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبية اليمنية وآذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، وإذا كان كلبياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب فى الولايات ، وتخضبت أراضى الدولة الإسلامية من خراسان إلى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلتهم هذه الخلافات فى كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ، ص ١٣٦ وما بعدها ، ابن الأثير الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٣ وما بعدها ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣-٢١٦ .
النويرى : نهاية الأرب ، طبعة جسبار ريميرو ، ص ٣٣ .
وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العصبية فى الفترة الأموية :
H. FOURNEL . Les Berbères, I. pp. 270-271 .

ولم يشقَ بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شقى بها المغرب والأندلس ، لا لأنها كانت فيهما أقسى وأعنف ، بل لأن المغرب والأندلس كانا إلى ذلك الحين بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لابد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة ، وإلا نهض لهم العدو - الذى لم يُقضَ عليه القضاء المبرم - واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم فى شغل عنه . وهذا هو الذى حدث بالفعل : شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط فى الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر فى إفريقية ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا فى أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمكنوا أقدامهم فى نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل متهزين الفرصة فى هؤلاء العرب الذين شغلتهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والوثنية معاً .

وليس إلى الشك سبيل فى أن هذه المنازعات العصبية وحدها هى السبب فى نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التى انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هى السبب فى ثورة بربر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أتت فى وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا قصارى جهدهم فى إتمام فتح البلدين ، فعاقتهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيهما جميعاً .

٤٢ - فترة سيادة الكلبيين اليمنيين فى المغرب والأندلس

كانت ولاية يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فى إفريقية كلبية يمنية صرفة ، وقد عُرِف الكلبيون اليمنيون بإسرافهم فى العصبية على الموالى فى كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى سياسة الحجاج وعسفه موالى فارس ، وكان يزيد بن أبى مسلم تلميذه وكاتبه[١]، فحسب أنه يستطيع أن يسير فى البربر بسيرة الحجـاج فى أهل العراق وفارس[٢]، وأخذ يعسف البربر ويشتد فى جمع أموالهم وسَبْى نسائهم . وكان شديد العناية بإلطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليبعث بهن إلى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسلى الصافى ويرسلها إلى دمشق ، فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلداً واحداً سليماً ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٢٧٢ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٢١ .

كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة[١].

٤٤ ـ مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم فى المغرب

وليس إلى الشك سبيل فى أن خلفاء بنى أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فى إفريقية ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التى كانا يلجآن إليها فى عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبى مسلم ، وقال إنه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمد بن أوس الأنصارى الذى أقامه أهل إفريقية على أنفسهم[٢].

وربما تبادر إلى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والألطاف ، فكان العمال يضطرون لهذا إلى الإسراف فى عسف الناس والاشتطاط معهم ، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسئولية فى هذا ، وذلك حيث يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسبيات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب منَّاهم بالكثير وتكلف لهم - أو كلفوه - أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة »[٣] وهى رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط ، وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف فى عسف الناس طلباً فى المزيد من رضى الخلفاء .

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة ، فأسرفوا فى الأمر إسرافاً نفَّر البربر ودفعهم إلى الثورة ، وشجعهم على المضى فى هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عداء .

٤٥ ـ توتر نفوس البتر - زناتة

وكان وضع العرب فى بلاد المغرب بُعيَد الفتح وضعاً فريداً فى ذاته ، فإن بربر المغرب - على ما نعرف - ينقسمون إلى بتر وبرانس ، أو إلى بدو وحضر . فأما البتر فقد تسارعوا إلى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم فى فتح البلاد ، ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواتة ونفوسة وهوارة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٢١ وما يليها .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٣٢-٣٣ .

وبرغُواطة(١)، لما استطاع العرب الوصول فى المغرب إلى هذه النتيجة الباهرة التى وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم فى البلاد توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يئسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين .

ولكن العرب لم يفطنوا إلى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف ، فتغيرت نفوس البتر - وزناتة منهم خاصة - وبدأوا يفكرون فى الثورة على العرب عامة . ثم إن البربر - والبتر منهم خاصة - حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم فى هذا السبيل آلاف ، في حين لم يفقد العرب إلا بضع مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتيين مثل أبى زرعة طريف بن ملُّوك وطارق بن زياد ، فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشرٍّ كبير ، ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظر الند للند ، فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير .

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر فى الأندلس أضعاف العرب عدداً ، وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك فى سخط هؤلاء. وكان البتر هم حرس الولاة المقربين إليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبى مسلم يميزونهم على البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبى مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد امتهانهم وإذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوى من بربر إفريقية ، وسيكون لذلك أثر كبير فى تطور الحوادث فيما بعد(٢).

---

(١) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل إلى المسلمين من أول الأمر فى :
البلاذرى : فتوح ، ص ٢٢٤.
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .
ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ .
وانظر لمؤلف هذا الكتاب : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٨٢ وما يليها .

(٢) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبى مسلم حين قدم البربر ليس فيهم إلا بترى ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبى مسلم الناس فقال : إنى إن أصبحت صالحاً وَشَمْتُ حرسى فى أيديهم كما تصنع الروم ، فأَشِم فى يد الرجل اليمنى اسمه وفى اليسرى : حرسى ، فيُعرفون بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، ودب بعضهم إلى بعض فى قتله » . فتوح ، ص ٢١٤ .

٤٦ـ الأفارقة وكان فى إفريقيـة - إلى جانب البربر والـروم - نفـر كبير من الأفارقـة ، أى من الأجـانب المستوطنين الذين طـال مكثهم فى البـلاد حتى أصبحـوا إفـريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع الساحل . وكانوا على علائق حسنة مع الروم متأثرين بحضارتهم ، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الإسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم ، ولكن العرب وضعوهم والروم فى منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفارقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزناتة ، وتفاهم الحيان على الثورة[١].

٤٧ـ دعاة الخارجية فى المغرب وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع العلويين والخوارج أرهبهم ونفَّرهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، فمضوا يلتمسون الأمان حيثما وجدوه ، وفر منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهله حانقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الخارجية - الصفرية والإباضية خاصة - قبولاً طيباً من البربر ، وهكذا تهيأت فى بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى إفريقية من هؤلاء الدعاة كانوا من الصفرية والإباضية ، ولسنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة فى المغرب من هذين الفريقين من الخوارج ، ولا السبب فى إقبال أهل المغرب عليهما خاصة . لأن مبادىء الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلاً إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين[٢] ، بل الإباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح والخيل ، والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالاً ، والبربر على ما

---

(١) يفهم من روايتين لأبى المحاسن والسلاوى أن زعامة برابر طنجة فى الثورة التى ستتحدث عنها كانت إلى ميسرة المطغرى وعبد الأعلى بن جريج الإفريقى ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب .

انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٢٨ .

السلاوى : الاستقصاء ، جـ١ ، ص ٤٩ .

(٢) الشهر ستانى : الملل والنحل ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٦١ - ٦٢ .

نعلم لا يميلون إلى الاعتدال فى العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطاً ، وربما كان الأحجى أن نشك فى نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والإباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أى الأحوال فى أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلاً واضحاً على صفرية القائمين بالحركة أو إباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة فى جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد . وهو قول البغض للأئمة ، فإن كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفعُ المصاحف وحلقُ الرؤوس ، اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن؟...»[(١)] .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن خلفاء بنى أمية لأنهم أجداد أموية الأندلس ، وليس إلى الشك سبيل فى أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بنى أمية بالظلم ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة.

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهاداً عظيماً فى إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب. ومن دلائل ذلك قول المالكى : « وكانوا - أى أهل إفريقية - يقولون : لا تخالف الأئمة بما تجنى العمال ، فقالوا - أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة - لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم!».

« فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا، ويقول : هذا أخلص لجهادكم !...، فقلنا : لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣١ - ٣٢ .

ثم رجعوا إلى إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماءهم ، فإذا هم الذين صنعوا ذلك»[١] مما يدل على أن أهل إفريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين ، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذى ينزل بهم إنما مصدره الخلفاء أنفسهم ، فأحب ميسرة - زعيم البربر - أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شىء ، فمضى فى وفد من أهل بلده إلى دمشق ليبسط ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

٤٨ ـ العصبية العربية فى الأندلس

وكان الأندلس تابعاً لإفريقية فى ذلك الحين ، فلا غرابة أن تظهر فيه أصداء ذلك كله ، ولا غرابة فى أن يكون لها جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التى ذكرناها .

أقام يزيدُ بن أبى مسلم وبشرُ بن صفوان الكلبيان اليمنيان على الأندلس عمالاً يمنيين كلبيين هم : عنبسة بن سحيم الكلبى (صفر ١٠٣ -شعبان ١٠٧) وعذرة بن عبد الله الفهرى (شعبان ١٠٧- شوال ١٠٧) ويحيى بن سلامة العاملى (إلى ربيع الأول سنة ١١٠) ، وقد حكم ثلاثتهم سبع سنوات (شوال ١٠٧ - ربيع الأول ١١٠) تعصبوا خلالها لليمنية الكلبية وأوغروا صدور القيسية .

وكانت قيسية الأندلس مُوغَرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمروانيين فى المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينيه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمنيين الكلبيين . فلم يكد هؤلاء الولاة الثلاثة يسيرون فى سياستهم اليمنية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً ، وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية[٢].

وكان هؤلاء الكلبيون كغيرهم من اليمنيين ذوى شره إلى الأموال وعسف فى جمعها ، وقد اشتد سحيم معهم شدة خاصة ، فألزم النصارى فى الأندلس بدفع جزية مضاعفة ،

(١) ليس لدينا ما يؤيد ذهاب ميسرة إلى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكايتهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا إلى الثورة .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ - ٢٥ .

DOZY, Musulmans d'Espagne, I. pp. 15, 599.

فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه(١).

(١) إيزيدور الباجى ، (فقرة رقم ٥٢) . واسمه الكامل ISIDORO PACENSE وهو مؤلف وهمى يقال إنه كان أسقفاً لمدينة Pax- Julia أو Pace وهى Beja الحالية من مدن البرتغال (باجه عند العرب) ينسب إليه تاريخ هام لإسبانيا اسمه :

Epitoma (epitome) Imperatorum uel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno Volumine Collecta .

وهو يشمل تاريخ إسبانيا من أواخر العصر القوطى ، من نهاية حكم سسبرت إلى نهاية حكم يوسف الفهرى آخر عمال الأندلس للأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية فى المشرق خلال هذه الفترة . ولم يستطع البحث التاريخى الاهتداء إلى حقيقة إيزودور هذا أو إلى نسبة هذا الكتاب إليه ، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطليطلى المجهول المؤلف El Anonimo Toledano » لأن مخطوطته وجدت فى طليطلة . والذى لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحداً من رجال الدين الإسبان ، ولكنه يمتاز عن هؤلاء باعتدال فى الرأى وبعد نسبى عن العصبية الدينية التى نجدها عند غيره من مؤرخى إسبانيا من رجال الدين . وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالمشرق وأعمال عمال بنى أمية فى إفريقية والأندلس . ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة ، أنه كتب كتباً أخرى هى :

1.- Epitome Regum Wisigothorum a tempori Recaredi principis .

2.-Epitome Temporum .

(مختصر تاريخ العصور) - وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التى جرت بين البربر وكلثوم بن عياض عامل هشام بن عبد الملك على إفريقية .

3.- Epitome .

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس .

4.- Liber verborum dierum Saeculi .

وهو يكمل فيه ذكر الأحداث التى فاته ذكرها فى كتبه السابقة . وكتابه الأول هو أهمها من غير شك ، وهو المشار إليه فى التواريخ الأندلسية ، وهو الذى نقصده نحن فى هذا البحث . وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ ايزيدور الإشبيلى SAN ISIDORO DE SEVILLA تجد نصه الكامل عند :

THEODOR MOMMSEN, Auctorum Antiquissimorum, tomus XI, Cronica Minora,(Saec. IV,V, VI, VIII) II, Ip. 334 - 360 Berolini, 1893 .

وفى :

FLOREZ, Espana Sagrada, pp. 283-307, Isidori Pacencis Episcopi chronicon .

ونشر أجزاء منه LAFUENTE Y ALCANTARA كملحق لترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ١٤٦ وما بعدها .

وانظر عنه :

RUDOLF SCHEVENKOW, Kritische Betrachtungen ueber die lateiniscugeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.

FRANCISCO JAVIER SIMONET, Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid 1867-1903) pp. 234, 599 .

CESAR DUBLER, Sobre la Cronica Arabigo - Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Ibérica (Al- Andalus, vol. XI fasc . 2 Madrid- Grenada, 1956) pp. 283- 349.

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السُّلمى(١) وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقى الكلبيون اليمنيون خلالها بلاء شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى، ومحمد بن عبد الله الأشجعى ، واستمرت حتى سنة ١١١ هـ، وقد اشتد الهيثم مع اليمنيين شدة أثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك – رغم قيسيته – وعزله وعاقبه عقاباً صارماً(٢).

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ فى الأندلس خصومة القيسية واليمنية الصريحة الخطرة ، التى سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام فى الأندلس خاصة والمغرب عامة .

بيد أننا ينبغى أن نذكر أن المسلمين كانوا معنيين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرتات ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولانى ، ووصلت جيوش المسلمين فى أيامهم إلى قريب من أفينيون ، وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبيد الكنانى يقيم فيها معظم وقته(٣).

ولسنا نجد ما نسجله فى عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بِلايُه زعيم فلول القوط فى نواحى أشتريس ، وهى ثورة خطيرة تعين بدء المقاومة الإسبانية ، وقد وقعت فى عصر عنبسة بن سُحَيْم(٤).

وفى صفر سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠م أقام عبيد الله بن عبد الرحمن السلمى عبدَ الرحمن بن عبد

(١) أثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن إلى إفريقية اضطراباً كبيراً ، لأن الكلبيين كانوا قد اطمأنوا إلى السيادة فى عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس كلبيين يمنيين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلبياً، فلم يكد يستقر فى الولاية حتى فأجاه هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة القيروان فجأة ، كأنما كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمنين عسفاً جاوز الحد المألوف.
انظر : ابن عذارى : البيان جـ١ ، ص ٣٦ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٥٧ – ٤٩ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٨ ، ١٣٠ .
(٢) إيزيدور : فقرة ٥٧ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٦٨ ، ٧٤ .
(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٩ . وانظر الفصل التالى .
إيزودور : فقرة ٥٦ و ٥٧ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٩–١٠ .
LÉVI- PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, I. p. 48 .

الله الغافقى أميراً على الأندلس ، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازى الأعداء فيما يلى البرتات ، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سُحيم ، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه فى نواحيها وفى الجهاد فيما يليها ، فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد ممن سبقوه ، فقد كان هؤلاء مشارقة يقبلون على البلاد وهم لايكادون يعرفون من أمرها شيئاً ، ولا يكادون يحملون إليها إلا عصبيتهم اليمنية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً . فأما عبد الرحمن فأندلسى لايكاد يلقى بالاً إلى هذه الجاهلية العصبية، ولا يكاد يلتفت إلا لإقرار الأمن فى البلاد وموالاة الفتح فيما يليها(١).

تُجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن ، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدهم إخلاصاً فى القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات ، والواقع أن المراجع لم تبالغ فى ذلك كثيراً ، فقد كان عبد الرحمن فى واقع الأمر منظماً قادراً وجندياً باسلاً ، وربما شاركه فى إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاة الأندلس مثل السمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سليماً من نزعة العصبية التى أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم . وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمنية ، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمى القيسى المتشدد إياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير فى قيسيته التى أفسدت عليه الأمور زماناً(٢)، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس ، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية.

(١) عن عبد الرحمن الغافقى ، انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
ابن حيان برواية المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٥٩ .
أخبار مجموعة ص ٢٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ .
ابن الأثير ، جـ٥ ، ص ٩٤ .
ISODORO PACENSE. Cronicon. cc. 56-63 .

(٢) وكان عبد الرحمن الغافقى فى خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن ، ومصداق ذلك رواية لابن عبد الحكم يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن فى إحدى غزواته فى بلاد الفرنجة : « وكان فيما أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : إن السماوات والأرض لو كانتا رتقاً ، لجعل الرحمن للمتقين منهما مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ... » .
ابن عبد الحكم : فتوح ،ص ٢٤٧ .

ولم يوفق عبد الرحمن فى غزوته الكبرى التى أراد أن يفتح فيها غالة رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتييه فى رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع فى أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعقل أن يُقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدداً عظيماً من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشُّقة ، فلما فاجأه العدو أَلْفَاه فى قلة فاستشهد وبعض من بقي معه .

كان لهذه الهزيمة وقع شديد فى نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت إليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك فى اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معاقل المسيحية الكبرى فى الشرق والغرب ، فساءه ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جاداً فى علاج هذا الموقف ، وفى تقوية جبهة الإسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمى الأندلس بعد إذ استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

بدأ هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية فى أواخر سنة ١١٤ هـ ،لأنه كان قيسياً مسرفاً فى عصبيته حتى لقد أثار اليمنية وكاد يوقع المغرب الإسلامى كله فى فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية ، ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

٤٩ ـ مصاعب الحكم فى المغرب بعد موسى بن نصير

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته فى إفريقية بدءاً حسناً ، وقد كان وُفِّق فى مصر توفيقاً طيباً كعامل لخراجها(١) ولكنه لم يستطع أن يدرك فى إفريقية ما أراد من الإصلاح وتهدئة النفوس ، ذلك أن المغرب الإسلامى كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لنتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبد الله وعبد الملك من بعده فى المغرب أضاعت

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٣٢ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٦١ .

على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفَّرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأثار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربى الجديد ليس خيراً فى كثير من الحكم البيزنطى المنقضى .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطردة لانفجرت ثورة البربر فى زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧-١٠١هـ / ٧١٥-٧٢٠م بسبب اعتدال محمد بن يزيد القرشى(1) وإسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ما ذكرناه(2) .

وقد بلغ من توفيق إسماعيل فى إقرار السلام فى البلاد أنه « لم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم »(3) كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتنا الجليل كثيراً فى ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الإسلام قد كسبا للدين عدداً عظيماً جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الإسلام فى إفريقية ما بالغنا ، لأن المغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله الإسلام(4) .

وكان من سوء الحظ أن خليفته فى ولاية المغرب لم يكن يقاربه فى شىء من ذلك ، بل كان رجلاً يمنياً جافياً شديد العصبية قليل الكياسة هو يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج ؛ ولاه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ / ٧٢٠ـ ٧٢١م على ما ذكرنا . ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصحبه عبدَ الله بن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عُزل عن المغرب وانتقل

---

(١) المقريزى : خطط (طبعة فييت) جـ٢ ، ص ٦١ - ٦٣ .

« : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستنفلد تحت عنوان :

WUESTENFELD, Abhandlung ueber die in Agypten eingewanderten arabische Stamme, Goettingen, 1847, pp. 39-40 .

وهى ترجمة لكتيب المقريزى « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

ابن خلدون (طبعة نوبل دى فرجير) ، ص ٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن ناجى : معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ١٥٤-١٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٢-٣٣ .

إلى المشرق فى سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م[١]، ولسنا ندرى السبب فى ذلك التصرف من يزيد ، وربما أراد منه أن يكون عبد الله - بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشئونها -عوناً ليزيد بن أبى مسلم فى شؤونه ، ولكنه أخطأ التقدير ، لأن عبد الله كان موغر الصدر من بنى أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بآ له وبه هو نفسه .

ثم إن أنصار بنى نصير لم يكادوا يعلمون بمجيء عبد الله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين ، يحسبون أيام عزهم قد عادت ، فساور الخوف نفس يزيد بن أبى مسلم من هذه المكانة التى كانت لبنى نصير ، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى فى نفوس أهل البلاد ، فأحب أن يُبغِّضه إلى نفوسهم ، وأن يضعه فى مركز حرج ، فطلب إليه أن يقوم بإعداد العطاء اللازم للجند خمس سنين من ماله ، ثم أمره أن يلزم داره[٢] ، وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بنى نصير من البربر ، فوضع يده عليهم ، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه وبطانته ، وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بنى نصير فى إفريقية .

ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان البلاء ، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم ، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين ، وأراد أن يسير فى البربر بسيرة مولاه الحجاج فى أهل العراق ، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البتر وزناتة ، أى من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون . ثم حفزه سوء الرأى إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه : قرر أن يَشِمَ حرسه البربر فى أيديهم ، فخطب الناس فقال : « إنى إن أصبحت صالحاً وشمت حرسى فى أيديهم كما تصنع الروم ، فأشم فى يد الرجل اليمنى اسمه وفى اليسرى « حرسى » فيُعرفوا بذلك من غيرهم »[٣] إسرافاً منه فى الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك . فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله ، وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً ، وبتحريضه قُتل يزيد بن أبى مسلم ، اغتاله حرسه فى سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠-٧٢١م .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ ولا يؤيد ابن عبد الحكم فى القول بهذا مؤرخ آخر ، ولكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا . ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ ؛ ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان يعتقد - مثل أخيه سليمان - أن بنى نصير اجتبوا أموالاً جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تتقاضاهم إياها .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ . وراجع تعليق فورنل على ذلك :

cf : FOURNEL , Les Berbères, I. p. 271, note 8 .

وأقام أهل إفريقية قاضيهم المغيرة بن أبى بردة القرشى والياً حتى يأتيهم رأى خليفتهم يزيد بن عبد الملك[١] ، فلما بلغ يزيد نبأ مقتل يزيد بن أبى مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلّف مكانه أخاه حنظلة[٢]، فدخل بشر إفريقية فى نفس العام الذى قُتِل فيه يزيد ، وكان أول ما فعله هو أن أخذ عبد الله بن موسى بن نصير فقتله[٣]، وتتبع أموال بنى نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب ، وعزل عن الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى وولى مكانه كلبياً يمنياً هو عنبسة بن سحيم[٤].

وظل بشر عاملاً على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفى فى شوال سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧-٧٢٨م واستطاع أن يهدىء أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة [٥] ؛ ولم يسرف أحد من عمال بنى أمية الكلبيين فى العصبية لقومه كما فعل بشر ، فقد اشتد فى ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً ، وغدوا يترقبون موته بنافد الصبر ، وكان هو نفسه يشعر بذلك ، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكى من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعانى سكرات الموت : « يا شماتة الأعداء ! فقال لها : قولى للأعداء لا يموت ! » حتى لا يستطيرهم الفرح .

وكأن بشراً خشى أن يقيم هشام على البلد رجلاً قيسياً بعده ، فترك عليها العباس بن باضعة الكلبى والياً ورجا أن يثبته هشام فى الولاية . ولكن هشام بن عبد الملك انتهز فرصة وفاته ليولى مكانه قيسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن ، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة ، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجْلاه حينما بلغه النبأ[٦] (١١٠هـ/ ٧٢٨-٧٢٩م) .

(١) ولم يستقر المغيرة فى الولاية إلا قليلاً ، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك فى قتل يزيد بن مسلم إذا وجده والياً مكانه ، فاعتزل ، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصارى ، وكان بتونس على غزو بحرها ، فأرسلوا إليه فولوه أمرهم ، ثم عزله يزيد ببشر بن صفوان .
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٥ .

(٢) F. WUSTENFELD. DIE Statthalter von Egyptenzur Zeit der Chalifen ; Goettingen 1875 .

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن عذارى : البيان ، جـ١، ص ٣٦ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٧ .

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

٥٠ ـ المغرب أثناء خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م)

ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة للبربر ممن سبقوه ، فقد أسرف فى مغازاة من بعُد من قبائلهم وسبى نسائهم حتى ليقال إنه عندما بارح إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢-٧٣٣م « كان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة ٧٠٠ جارية ، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية »(١) مما يدل على عسفه للناس وشدته معهم(٢) ، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية ، فآذى نفراً كبيراً منهم ، وكانوا من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم(٣).

بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال فى إفريقية لم يكن على ما يرام ، وأن ريح الثورة كانت تهب على البلاد ، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية ، ولهذا سأل هشاماً أن يعفيه من الإمارة لغير سبب ظاهر ، فأعفاه ، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من المغرب من المال شيئاً كثيراً ، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغاً .

٥١ ـ عبيد الله ابن الحبحاب

وأقام هشام عامله على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب الذى ذكرناه والياً على إفريقية والأندلس فى ربيع الآخر سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م، وبهذا أصبح هذا الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى جبال البرت ، وهى مساحة تزيد على نصف الدولة الإسلامية كلها . وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو خطأً فادحاً ، لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً فى قيسيته(٤) ، ثم إنه كان إلى ذلك بعيداً عن الكياسة وبُعْد النظر اللازمين لرجل تُوكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع يفعل به ما يريد .

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٧ .
(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .
الأخبار المجموعة ص ٣١-٣٢ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٩ .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك : ص ٤٨ - ٤٩ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .
المقريزى : خطط (طبعة فييت) ، جـ ٢ ، ص ٦١-٦٣ .

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره : جعل ابنه إسماعيل على السوس ، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازى السودان ، وجعل على طنجة رجلاً من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادى ، وجعل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى ، واحتفظ لنفسه بإفريقية لكى يكون فى مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً(١).

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل لمشاعرهم ، وجعل كذلك يتتبع من وجد من اليمنية لا يكاد يعفيهم من عذاب شديد ، وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جُرِيْج الإفريقى وكان أصله رومياً ، وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كوَّن لنفسه عصبية بربرية كبيرة فى نواحى طنجة(٢).

فإذا بلغ عسف القيسية ورئيسها فى الغرب الإسلامى كله عبيد الله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعماله على شىء من بُعْد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس فى المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر ، حسباناً منهم أنهم لن يستطيعوا قِبَلَهم شيئاً ، ويبدو أن قضاء ابن الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هوَّن فى نظره شأن غيرهم من الشعوب التى كانت خاضعة لحكمه .

وبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون القاسى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ، ومضى فى تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر خُمس البربر واعتبارهم رقيقاً(٣) ، ولم يكن عبيد الله ليستطيع أن يُنفِّر البربر ويسىء إليهم بأكثر من هذا ، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك فى جيوش المسلمين غازياً واندرج اسمه فى الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً ؟

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ،ص ٢١٧ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب ،جـ١ ، ص ٣٤ .

ولو اقتصرت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافى الخطر إذا بقى العرب جميعاً يداً واحدة - وهم لم يكونوا قليلين فى إفريقية والأندلس - ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً فى قيسيته لا يكاد يعفى اليمنيين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمنيين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً - عرباً وغيرعرب - موقف العدو، وغدا هـؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة لينقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية ، بل على العرب جملة .

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هى أعظم من هذه ، فنفوس أهل البلاد تغلى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم فى مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسنرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أيدى محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث ، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج وفقوا فى إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح ، وأن حكام العرب حـادوا عن الطـريق القويـم ، وأنهـم - أى البربـر - إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا فى ذلك إلا منفذين لتعاليم الإسـلام كما وردت فى القرآن ، وسنرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة ، وحينما يرفعون المصاحف على الأسنة كما كان خوارج المشرق يفعلون [(١)].

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة من الخوارج كانت عظيمة فى المغرب ، لأن الأمان عند قبائله وفى شعابه كان مضموناً لهم ، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب ، فكثر مجىء هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفاؤهم بين قبائل البربر ، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب .

ولما كان هؤلاء الدعاة لايستطيعون أن يقيموا فى إفريقية أو فى المغرب الأوسط لقرب هذه النواحى من مقام عامل بنى أمية فى القيروان ، فقد تخيروا لمقامهم ولدعواتهم نواحى المغرب الأقصى البعيدة : إقليم طنجة ونواحى السوس الأقصى بوجه خاص ، إذ كانت هذه النواحى موطن أكبر القبائل الزناتية ، وأكثرها استعداداً للثورة وهى برغواطة ومكناسة وانضمت إليها كذلك أعداد قليلة من مصمودة .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .

٥٢ـ ميسرة وبدء الثورة فى إقليم طنجة

وكان فى القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مَطغرة ، يسمى مَيْسرة ، وتتفق معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور ، وتذهب إلى أنه كان يبيع الماء فى مساجد القيروان(١) ، وليس ذلك بصحيح ، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مطغرة (٢) أو لعله كان ينتسب إلى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة ، ولأن ما سيلى من الأحداث يدل على أنه كان رجلاً ذا عصبية لها خطرها ، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية فى مساجد القيروان ، وأنه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة ، فوجدت مبادىء الخارجية الصفرية سبيلها إلى نفسه فاعتنقها ، ووقر فى نفسه أن ينشرها فى بلاده ، واتجه بصره إلى مواطن مطغرة فى إقليم طنجة ، فمضى إلى هذه الناحية واندسَّ بين جماعات قومه مطغرة ، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم ، فلم يلبث أن استمالهم إلى رأيه ، فرفعوا راية العصيان ، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة ، فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة وقومه(٣).

ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجى لا نكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالحاً(٤) . وانضمت القبائل الثائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة لإعلان الثورة والخروج على بنى أميــة ، وكان عامـل طنجـة لعبيـد الله بـن الحبحاب قيسيـاً شديـد العصبيـة لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادى ، فمضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً ، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً فى دعوته ، فأعانه جهل عمر بن عبد الله المرادى وسوء سياسته على كسب قلوب الناس .

ثم سنحت الفرصة لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبى عبيدة سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م (٥) فى حملة إلى صقلية ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .
البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٣٤ .
النويرى : نهاية ، جـ ١ ص ٣٤ .
(٢) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، جـ ١ ص ١٥٠ .
(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، جـ ١ ص ١٦٧ .
(٤) البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٣٥ .
(٥) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، جـ١ ص ١٥١ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ص ٣٨ .

وأصحبه خيرة جنده ، فعجل ميسرة وأصحابه ينتهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم ، وتسارعوا نحو طنجة وواليها عمر بن عبدالله المرادى ، واستولى ميسرة عليها وقتل المرادى ، وانضم إليه عبدالأعلى بن جريج الإفريقى ومن معه من الأفارقة وموالى بنى نصير ، فأقامه والياً على طنجة ، ثم سار إلى نواحى السوس واستولى عليها ، وقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد الأمويين ، وتحرج مركز عبيد الله بن الحبحاب فى إفريقية وساء مركز المسلمين فى الأندلس(١).

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقوَّد عليهم رجلاً من كبار عرب إفريقية هو خالد بن حبيب الفهرى ، وبعث إلى حبيب بن أبى عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكد يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزر خالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة ، فانهزموا وقُتِل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة إلى مركزه فى طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها وبويع عليها(٢). ويبدو أن النصر ذهب بصوابه ، فأساء السيرة فى جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد ابن حميد الزناتى ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر(٣)(١٢٢هـ/ ٧٣٩-٧٤٠م).

وتحرج مركز ابن الحبحاب فى إفريقية ، فبعث إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامل الأندلس يطلب إليه الإسراع لعونه بمن يستطيع من الجند ، فأسرع الرجل وحاول مهاجمة مواقع البربر فى طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجه(٤).

---

(١) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨- ٢١٩
ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٤-١٥
ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص ٣٩
ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ، ص ١٤٢
ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، جـ١ ، ص ١٣٧ و ١٥١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ص٣٤-٣٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .
هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين ، ويبدو فى هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جداً :
cf : HENRI FOURNEL, Les Berbères, I . pp. 288-289.

(٤) ISIDORI PACENCIS, Chronicon; Espana Sagrada, VIII. Cap. 61 in p. 302 .

٥٢ـ هزيمة الأشراف أوائل سنة ١٢٣هـ (٧٤٠/٧٤١م)

وجيَّش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل فى تكوينه وجعل فيه نفراً عظيماً من أشراف عرب إفريقية والظاهرين منهم ، ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتى ، فلم يكد هذا الجيش العربى - يقوده خالد بن حبيب الفهرى - يقارب طنجة ويلقى البربر ويشتد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهزم بعض أصحاب خالد بن حبيب وكره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه فى أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : «وقتل فى هذه الموقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم»(١) .

وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربى عظيم إلى إفريقية ليؤدب البربر ويقضى على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبحاب فى جمادى الأولى سنة ١٢٣/ ٧٤٠. وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى فى سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول إلى ذلك الرغبة فى الانتقام لمقتل ابنه إسماعيل(٢).

ويبدو أن ابن الحبحاب شك فى أن لعرب إفريقية يداً فى هذه الهزيمة ، فاتهمَّ نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت جماعة من هؤلاء العرب الإفريقيين تقيم فى تلمسان يرأسها موسى بن أبى خالد ، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا فى فتح إفريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة ، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رِجْله ويده »(٣) ثأراً لمقتل ابنه إسماعيل فأثار على نفسه بذلك العرب الإفريقيين أجمعين ، ودفعهم إلى الخروج عليه صراحـة ، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا - فى الغالب - هو ما حدا بهشام بن عبد الملك إلى الإسراع فى عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به(٤)، وتم ذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠م .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ص ٣٥ .

(٢) « وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب ؟ قيل : نعم ! فقال : والله لأغضبن لهم غضبة عربية » - نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٥ .

٥٤ـ كلثوم بن عياض القشيرى (١٢٣هـ/٧٤١م) استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد فى ذلك إلى رجل من زعماء القيسية توسم فيه القدرة وبُعْد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيرى ، ولم يكن هشام بأحسن حظاً فى هذا الاختيار منه يوم عهد فى إفريقية والأندلس إلى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديد الاعتداد بقيسيته ، وكان فى نفسه إلى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لا حيلة لهم فى الحرب ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على عبيدة بن عبد الرحمن وعلى عبيد الله بن الحبحاب ، فإنما يرجع ذلك إلى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه فى النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وإفريقية أن ينضموا إليه بكل ما يستطيعون من رجال وخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومرَّ بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وإفريقية. فاجتمع له جيش عظيم [1] جعل على مقدمته قائد خيله بلج بن بشر القشيرى[2] .

وكان فارساً شهماً إلا أنه كان أشد غروراً وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجالته ثعلبة ابن ثوابة الجذامى ، وكان من غلاة القيسية كذلك.

ويبدو أن كلثوماً عوَّل على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج فى القيادة إذا أصابه شيء ، فإذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوابة .

٥٥ـ العـــرب الإفريقيون كان جند إفريقية إذ ذاك مواقفين للبربر بناحية طنجة فى انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب طال بهم المقام والعمل فى إفريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطمئنون إلى أحد من القادمين من المشرق ، مثلهم فى ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأُوَل الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحى المغرب .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص٢١٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩-٢٢٢ ويقال إن بلجاً كان ابن أخيه : النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٥ وراجع تعليق فورنل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, Les Berbères : I,p. 292 .

ويقتصر ابن عذارى فى الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين فى هذا الجيش وهم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، جـ ١ ، ص٣٨) ، ثم يذكر فى الجزء الثانى أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألفاً (البيان، جـ ٢ ، ص ٣٠) ويؤيده فى ذلك ابن القوطية (افتتاح الأندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجعل عدة الجيش ٧٠,٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقرى فى نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٢) .

وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا فى النواحى بمن انضم إليهم أو صار فى ولائهم من البربر ، فاعتُبروا مواليهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الإفريقيين البلديين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرها . ولما كان هؤلاء العرب الأُوَل هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملاك نواحيها ، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك فى فتح إفريقية من العرب يمنيين فقد كثر جمع اليمنيين فى إفريقية ، كما كثروا فى الأندلس ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرتهم إلى عدو دخيل .

ومن هنا نفهم السر فى هذا النفور العنيف الذى أظهره عرب إفريقية البلديين عندما أخذ ولاة القيسيين يتعاقبون على إفريقية تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار فى البلاد. ولنضف إلى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحى إفريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالى والأتباع ، وأصبحت لها رياسة على جماعات العرب والبربر فى النواحى التى استقرت فيها ، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها ، وبيت معاوية بن حديج ، وبيت بنى نصير . وكان هذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان فى إفريقية خلال العصر الأموى ، بل صارت الأمور أخيراً إلى بيت عقبة بن نافع ممثلاً فى شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة(١) .

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة فى ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشئون الإقليم لحساب عامل إفريقية فى القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية فى طرابلس وسَبرَت وقابس والقيروان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الإفريقيين فى ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سبرت) ، وعبد الرحمن بن عقبة

---

(١) راجع تراجم : عقبة بن نافع ، ورويفع بن ثابت الأنصارى ، ومعاوية بن حديج ، وربيعة بن عباد الديلى ، وزياد بن الحارث الصدائى ، وأبى عبد الرحمن بن بسر بن أرطأة ، وأبى عبد الرحمن عبد الله بن زيد (الإفريقى) ومن بعده من التابعين فى:

المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ص ٤١ وما يليها .

الدباغ : معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ٩٩ وما يليها .

الغفارى ، ومسلمة بن سوادة القرشى (القيروان) ، وصفوان بن أبى مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغسانى (قابس) وحبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقيماً إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة مواقفاً لخالد بن حميد الزناتى زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة[١] .

ولم تكن العلائق بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن إفريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمئنون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التى كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا إلى ذلك عماد الحكام وولاتهم على النواحى ، فكرههم البربر لذلك وحمّلوهم تبعات مظالم هؤلاء الحكام ، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنيين منذ أيام موسى بن نصير وبنيه وجُدَد غالبيتهم من القيسية ، وكان الفريقان متعادين كما لاحظنا[٢].

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر فى إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب ، سواء أكانوا من رجال الدولة وجندها أو عرباً مستقرين مسالمين . ومن هنا فإننا لا نستطيع القول بأن هذه الثورة كانت فى صميمها ثورة بربر على عرب ، بل كانت فتنة عامة بين جماعات متنافرة ، ولم يكن معظم المشتركين فيها يميلون إلى بنى أمية ، ولهذا فقد كانت الحركة فى جملتها فتنة إفريقية عامة وثورة على بنى أمية.

٥٦- ثورة البربر على العرب فى طرابلس

وصل كلثوم بن عياض إفريقية ، ولم يشأ أن يريح بالقيروان ، بل أراح ببليدة سَبيبة على مقربة منها (شوال ١٢٣هـ/ أغسطس ٧٤١م) . ثم انصرف

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - ٢٢٢ .

(٢) تذكر المراجع فى أخبار ولاية عبيد الله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة ، ملخصها أن عبيد الله لم يكد يلى إفريقية حتى قدم عليه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان الحجاج - أبو عقبة - قد أعتق الحارث جد عبيد الله ، أى أن بنى الحارث - وهم بنو الحبحاب وغيرهم - كانوا موالى الحجاج السلولى وبنى سلول ، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه ، فأنكر أولاده ذلك ، وخشوا أن يحط من قدرهم فى نظر عرب إفريقية ، ولاموا أباهم فى ذلك. فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالى ، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبة وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً إياهم على عقوقهم نحو الحجاج وبنيه ، فخجل الأولاد من أنفسهم وهذا يدل على أن أولاد عبيد الله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة ، أى من أصحاب البلاد ، فكرهوا أن يسودهم هذا المشرقى المقبل ويحط من قدرهم ، وهم فى هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب ، انظر : الأخبار المجموعة ، ٢٦- ٢٧ .

بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفارى ومسلمة بن سوادة القرشى . فلم يكد يبتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزارى - وكان من الخارجية الصفرية - فجمع جموعه بناحية قابس ، وأرسل أخاً له فى نفر من البربر ، فحصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب فى سبرت ، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان بن مالك رأس عرب طرابلس ، فانهزم البربر إلى قابس ، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخفُّوا مع أميرهم مسلمة بن سوادة إلى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر ، والتقى الجمعان بأحواز قابس ، فانهزم العرب وعادوا مفلولين إلى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها(١).

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجاً : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصرهم البربر فى القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتى مواقفاً لمن بقى منهم على نهر سِبو ، وأخذ يُؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

٥٧ـ الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية

فى هذه الظروف العصيبة كان كلثوم بن عياض ومن معه يقتربون من طنجة ليلقوا البربر ، ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب إفريقية وكسب قلوبهم حتى يقف العرب جميعاً جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقى هؤلاء العرب بمعاملة نفَّرتهم منه وصرفتهم عن عونه ، وكان كما قلنا قيسياً جافياً شديد الاعتزاز بنفسه: أنف أن ينزل القيروان وأراح فى سَبيبة ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر حبيب بن أبى عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل عصبية ولا كبرياء من كلثوم ، فلم يكد يلقى عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشآمية قد عولت على المقام فى إفريقية واتخاذها داراً ، فحزَّ هذا فى نفس الأفارقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة فى البلاد(٢) . وزادهم نفوراً من بنى أميَّة والشاميين عموماً .

وبعث حبيب بن أبى عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلق عنده إنصافاً كافياً ، فامتلأت نفس أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب البلديين سخطاً على

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٤١ .

الشآمية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحى طنجة ولقى حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التى عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (أبو حبيب) يريد نصح كلثوم فرفض نصيحته وأهانه ، وبهذا انقسم المعسكر العربى قبل المعركة إلى فريقين ينطوى أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبى عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشآمية المقبلين وعلى رأسهم كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر فى مجرى الحوادث[١].

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التى يرسمها له هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومى مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنهما أعرف ببلاد إفريقية ،[٢] وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين الموليين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرجاً. ويبدو أن هشاماً أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذى كان معه كان عظيماً جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على بعض المؤرخين .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب البلديين كانوا يغلقون أبواب مدنهم إذا سمعوا بمقدم الشآمية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً فى زيادة نفورهم ، فجعل يقول إنه إنما أتى ليستقر بمن معه فى إفريقية كما ذكرنا ، ولم يكن ليستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر فى إفريقية إلى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير فى إقرار بضعة آلاف من القيسية الشامية معهم فى نواحيهم كافياً لإثارة نفوسهم وإذكاء نار العداوة فيها . هذا إلى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة فى العصبية ، فكانوا لا ينزلون بلداً إلا أثاروا أهله - عرباً أو غير عرب - هكذا فعلوا فى خراسان وفى شمال إفريقية وفى الأندلس .

---

(١) يقول ابن عبد الحكم فى وصف هذه الحالة النفسية التى سادت الجانبين : « وكان كلثوم حين خرج إلى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسى على مقدمته فى الخيل ، فلما قدم على حبيب رفضه وأهان منزلته ، ثم قدم كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له فطعن فى حبيب وشتمه وأهل بيته ... » - ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ - بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم إقرار السلام إلا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته ، وهو المسئول عن كثير مما نزل بالعرب فى إفريقية والأندلس من البلاء فى ذلك الحين .

ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣١ .

٥٨ـ هزيمة العرب عند بقدورة

على هذه الحال التقى الجيش العربى مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتى عند بليدة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقربة من تاهرت قرب مصب نهر مَلَوِيَّة[1] ، وقد رأى هرون القرنى ومغيث الرومى أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافا على العرب منها ، فنصحا كلثوماً بأن يضرب حول معكسره خندقاً ، ولكن الغرور ملأ نفس بلج ، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قوم ذوو جلد على الحرب وحيلة فى الميدان ، فصنعوا أكياساً من الجلد ملأوها بالحجارة ، وأخذوا يقذفونها على رؤوس الخيل ، فنفرت وروعت ، ولم يستطع الفرسان القتال عليها ، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا ، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ، وأعملوا فيهم السيوف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخاطب حبيب بن أبى عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقال حبيب : قد فات الأمر ! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجاً ، وقاتل حتى قُتِل ، وهكذا أبدى هذا العربى الفهرى من الشهامة والبسالة ما يملك النفس ، وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم .

وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقى معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر فى عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم ، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، ففروا – يتقدمهم بلج – فى اتجاه طنجة . وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر واشتدوا فى قتلهم حتى قُتِل هرون ومغيث وحبيب بن أبى عبيدة وكلثوم نفسه ، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربى الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد

---

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة ، فيذهب الرازى إلى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون: العبر ، جـ ١ ، ص ١٥٢) ، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى : البيان ، جـ١ ص ٤٧ ، وابن خلدون : العبر ، جـ ١ ص ١٣٧) ؛ أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الموقعة كانت عند بليدة تسمى نقدورة أو بقدورة (الأخبار ، ص ٣١) ، وجعلها ابن القوطية بفدورة (بالفاء) – انظر الافتتاح ، ص ١٥ ، ولم نجد بليدة بهذا الاسم فى هذه الناحية من إفريقية ، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء ، فقد ذكر ابن خلدون بليدة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها . وقد رجحنا رأى الرازى وابن خلدون راجع : العبر (طبعة دى سلين) ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ . وانظر أيضاً :

FOURNEL. Les Berbères. I. p. 294 n. I.

تلوى على شىء بعد السلامة(١) (١٢٤ هـ) .

انهزم بلج وأصحابه من الشآمية إلى الغرب « واتبعهم أبو يوسف الهوارى ، وكان طاغية من طواغيت البربر ، فأدركهم فقاتلهم ، فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه »(٢) واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ، وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يئسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عدم بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر والخوارج فى إفريقية عنفاً ، وقام من البربر فى كل ناحية زعيم يقود مواطنيه فى هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهوارى يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجاً ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم فى ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكّاشة بن أيوب الفزارى الصفرى الخارجى ، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى ، وأخذا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتما العدة سار عكاشة على طريق مجّانة واقترب من القيروان وعسكر عند « القَرن» وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبْنة ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرة المغيلى(٣) . وكان أبو قرة من كبار زعماء الخوارج . وكان قد نادى بنفسه إماماً . وكان بربرياً مستعرباً من قبيلة مغيلة .

٥٩ ـ جيوش الخلافة تتدخل

وكانت هزيمة « الأشراف » قد روعت هشاماً وملأت نفسه خوفاً من ناحية البربر ، كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدورة فكانت ضغثاً على ابالة، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذى تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة ، فعجل

(١) ابن عبد الحكم : افتتاح ، ص ٢٢٥ .
ISIDORI PACENCIS, Cronicon, cap. 68-69 .
الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٣٦ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٣١٩ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٧ .
وراجع : FOURNEL, Les Berbères, I. p. 299 n.2.

بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالإسراع إلى إفريقية ، فوصل حنظلة القيروان بجنوده فى ربيع الأول سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام - رغم مرضه - دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحدثنا المراجع أنه هو الذى رسم لحنظلة خطة العمل ، فنصحه بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة(١).

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتلهم قتلاً ذريعاً . ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده فى هذه الوقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى جمع البربر الثانى المعسكِر على مقربة من طُبْنة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهوارى وأبو قرة المغيلى .

يذكر النويرى أن عبد الواحد كان فى ثلاثمائة ألف(٢) ، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه ، لأنه لو كان فى هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذى كان معه ، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده فى الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة ، وأنه تناسى قيسيته فى هذه اللحظة الحاسمة ، وجمع العرب جميعاً ، أفارقة وغير أفارقة ، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب ومذهب السنّة والجماعة فى إفريقية «فأخرج ما فى الخزائن من السلاح ، ونادى فى الناس فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين، ولم يقدم إلا شاباً قوياً . فعبأ الناس طول ليلته ، والشمع حوله وبين يديه ، فعبأ فى تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وأصبح وقدم للقتال ، وكسرت العرب جفون سيوفها ، والتقوا ، ولزم الرجال الأرض ، وجثوا على الرُّكَب ، وكان ذلك بمكان يسمى « الأصنام » على وادى نهر شلف جنوب غربى مدينة الجزائر الحالية ، واشتد القتال وصبر العرب صبر الفناء»(٣) .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج١ ص ٣٧ .

(٣) وبعث حنظلة أبا الخطار والياً على الأندلس . وأمره أن يبعث إليه مدداً من جندها ، ويبدو أنه لم يوفق إلى شىء ، لأن حال العرب فى الأندلس لم يكن حسناً كما سنرى . عن معركتى القرن والأصنام انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢١ - ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ - ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص ٤١ - الأخبار المجموعة ، ص ٣٦ ، ٣٧ - النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٣٧ ؛ والنص الوارد هنا عن النويرى . هذا والأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة فى ذلك الحين ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مكانه ، وأقرب آرائهم إلى الصحة هو =

وكان عكاشة قد أُسِر فى القرن ، فأمر به حنظلة فقتل صبراً[١] ، وانتهت المعركة بانتصار العرب ، وقتل فيها عبد الواحد وانقصم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م.

ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر ، وخلفه الوليد بن يزيد ، فأقر حنظلة على ولاية إفريقية ، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة ، لأن حنظلة كان معتدلاً فى عصبيته ، فأخذ عرب البلاد يطمئنون إلى مصيرهم ، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية ، وكان انتصار حنظلة انتصاراً لمذهب السنة والجماعة ، فمن ذلك الحين رجحت كفة السنة على الخارجية ، ولهذا يعتبر أهل السنّة من المغاربة هذه المعركة معادلة لمعركة بدر الكبرى .

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ/ أبريل ٧٤٤م، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم ، وكان مقتله إيذاناً بانتصار أعدائهم اليمنيين وعودتهم إلى السلطان . ولهذا ريع القيسيون فى إفريقية عندما بلغهم النبأ ، وخافوا أن ينقلب عليهم اليمنيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره ، فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم ، وبقى حنظلة فى نفر قليل من القيسية[٢].

٦٠ـ ظهور أمر عبد الرحمن ابن حبيب

ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليمنيين عليهم ، لأن رأس هؤلاء العرب الأفارقة البلديين ، عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل .

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر فى الطائفة التى انهزمت إلى سبتة عقب هزيمة الأشراف، إذ كان أبوه حبيب بن أبى عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجاً ، فلما انهزم بلج ولجأ إلى سبتة ، تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى أميرها إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهرى – اليمنى مثله – وجعل يثيره على بلج وأصحابه ويخوفه منهم . فلما تسامع بموت الوليد وخروج

= ما يذهب إلى أن الأصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولاء . راجع : FOURNEL,Berbères, I. p. 300 n. 4.

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص ٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، جـ١ ، ص ٢٢٣ .

معظم القيسية إلى الشام عاد إلى إفريقية معجلاً ، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم فى مكان يعرف بسبخة سَجُوم فى أوائل سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م[١] ، وقرر أن ينتهز الفرصة ويخلص إفريقية من القيسية جملة ، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد ، وأمهلهم ثلاثة أيام . وشاء حنظلة أن يقاوم ، ولكنه رأى قلة من معه ، وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية فى الشرق ، فقرر ترك إفريقية والعودة إلى المشرق .

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً ، فقد بدا له من اختلاف عرب إفريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده فى المقام بهذه البلاد ، فقد حدث بعد انتصاره فى موقعتى القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفزاوة ، فخرج إليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه قُتِل فى المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نفراً من وجوه العرب إلى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه إلى الطاعة ، فاستمالهم هذا بالأموال فانقلبوا على صاحبهم الذى أرسلهم[٢] ، وضاقت الأمور بحنظلة ، واستبان أن أمر بنى أمية كله إلى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب ، فجمع أصحابه ومضى بهم إلى القيروان.

٦١ ـ عبد الرحمن ابن حبيب يحتل القيروان

واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميراً ، وصار الأمر فى المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة البلديين بعد نزاع طويل مع البربر حيناً والعرب المشارقة القيسية حيناً آخر ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ/ أبريل ٧٤٥م [٣].

٦٢ ـ ختام النزاع بين القيسية واليمنية فى إفريقية

كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على إفريقية ختاماً للنزاع بين القيسية واليمنية فى إفريقية ، لا لأن الفريقين انتهيا إلى التفاهم والسلام بعد هذه المنازعات الخطرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حيناً وبينهم

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٣٩ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٣ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٣-٣٥.
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٤١ - ٤٣ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ، ص ٤٣ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٥١ .

وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى بإضعاف العرب جميعاً فى المغرب ، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة . ثم إن زمان سيادة العنصر العربى فى الدولة الإسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها بعد ذلك بسنوات (١٣٢هـ/ ٧٤٩-٧٥٠م) ، فلم يعد لعرب إفريقية - قيسية ويمنية - أى رجاء فى أن تقف الدولة إلى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذاك على هذا النحو الذى جرى عليه خلفاء بنى أمية .

ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربى فى الواقع ، وإنما كان انتصاراً لهذه الطائفة الإفريقية من العرب التى كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها وهى طائفة العرب البلديين ، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصاراً لزناتة من بعض الوجوه ، ومصداق ذلك أن الأمر لم يَصْفُ لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك ، فقد بايع لمروان بن محمد ، فلما قتل بايع لأبى جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته ، واستقل بأمره ، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب ، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه إلياس بن حبيب سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥ - ٧٥٦م ، ولم يكن إلياس بأحسن حظاً من أخيه ، لأن الحرب استعرت بينه وبين ابن أخيه حبيب ، وقتل بعد ستة أشهر ، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن الذى لجأ إلى بربر ورفجومة وكانوا خوارج وسار رئيسهم عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد ودخل القيروان وقضى على بقية بنى حبيب . ولم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات ، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله فى المحرم سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م.

وسنحت الفرصة لورفجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين ، بعد أن دخل رجالها القيروان وسيطروا على إفريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفراً كثيراً ، ولم ينته أمرهم إلا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث فى أربعين ألفاً : « ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام » كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى الذى صارت إليه الأمور كلها فى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥-٧٦٦م بفضل من كان معه فى جيشه من الخرسانيين ، وبفضل من انضم إليه من البربر[١].

(١) انظر التفاصيل فى :
النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٤٠ - ٤٦ .

بيد أننا ينبغى أن نقرر أن ما ذكرناه من انتصار محمد بن الأشعث ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً للفتنة الإفريقية والثورة على الشاميين ، لأن حركات الخوارج الصفرية والإباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعارًا وقوة ، ولكى نفهم هذا حق الفهم نعود إلى تفصيل ما أجملنا من تاريخ عبد الرحمن بن حبيب وآله فى إفريقية .

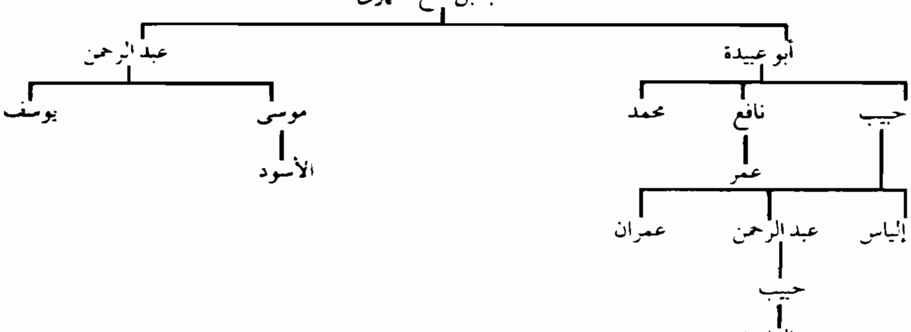
٦٢- البربر يستقلون بنواحيهم

ذلك أن الأمر لم يكد يستقر فى القيروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة ، وأنهم الآن فى حل من أن يستقلوا بما يسيطرون عليه من النواحى ، فقام فى كل ناحية زعيم بربرى وأعلن نفسه أميراً : قام عروة ابن الوليد الصدفى واستولى بجماعات من البربر على تونس ، وأعلن أبو العطاف الأزدى استقلاله بطبيناس ، واقتطع ثابت الصنهاجي وقومه باجه لأنفسهم وانضم إليه عبد الله بن سقرديد ، وقامت جماعات من إباضية هوارة يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عبس القيسى[1] ، وخاض عبد الرحمن ابن حبيب وأخوه إلياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات .

ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بنى حبيب أنفسهم ، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه إلياس ، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الإفريقيين حتى اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد ، وانتهى الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند إلياس وتمكن إلياس من قتل أخيه عبد الرحمن بن حبيب ، فهرب ابنه حبيب إلى ورفجومة إحدى بطون نفزة والاستعانة بها على إدراك ثأر عم أبيه عبد الرحمن بن حبيب[2]. فنصرته ورفجومة

(١) ابن عذارى : البيان جـ١ ، ص ٤٨ وما يليها .
ابن خلدون : العبر ، جـ١ ، ص ١٣٨ .
النويرى : نهاية الأرب ، ص٣٨ وما يليها .

(٢) إليك شجرة بيت عقبة بن نافع فى إفريقية .



وشيخها عاصم بن جميل ثم وضع الخلاف بين عاصم بن جميل وحبيب وانتهى الأمر بموت هذا الأخير ، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة إقليم إفريقية . فعجل شيخها عاصم بن جميل ، وكان خارجياً صفريًا بالمسير إلى القيروان ، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مكرّم ، فثبت لها ثباتاً كريماً بظاهر القيروان ، ثم انهزم وهلك هو ومن بقى معه.

ودخلت ورفجومة القيروان فى ذى الحجة سنة ١٣٥هـ/٧٥٣م ، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الإسلامى فى يد البربر الخوارج الزناتيين ، فكان هذا الحادث إيذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة ، وبدا بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلية عن هذا القطر الفسيح راضية أو كارهة فى القريب أو فى البعيد ، فقد اشتدت الخصومة السياسية بين أهل السنة والخوارج ولم يعد هناك سبيل لإصلاح النفوس ، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا فى نظر رعاياهم .

ولم يلعب بيت عربى فى هذا الدور من تاريخ المغرب الإسلامى دوراً يقرب من الدور الخطير الذى لعبه بيت عبد الرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربى الفهرى وتعصبه للعرب الإفريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاة جهودهم ، ولم يكن فى نفسه بالرجل الثابت ولا القدير ، وكان فيه ميل إلى الظلم ، فلم يلبث أن نفروا منه ، ونهض له أخوه إلياس فقتله واستبد بالأمر كما قلنا ، فكان شراً من عبد الرحمن وأعتى ، واختلط الأمر عليه ووثب به أبناء بيته ، فلم يلبث أمر بنى حبيب كلهم أن تفرق وضاع ، وضاع معه سلطان العرب البلديين على البلاد ، ولو لم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الأشعث ثم بالأغلب بن سالم بن عقال لما عاد السلام إليها .

ثم إن دخول ورفجومة القيروان واستبدادها بشئون إفريقية لم يكونا إلا مظهراً لقوة الخوارج الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هيأ لهم السيطرة على البلاد ، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على إفريقية وأهلها ، لأن كراهتهم للعرب بلغت مبلغاً جعلهم

= انظر :

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤

ابن خلدون : العبر ، جـ١ ، ص ١٠٩ وما يليها وص ١٣٠ وما يليها .

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٠ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٤٠ - ٤٣.

يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة الصفرية قد أتتهم ولما يتمكن الإسلام من نفوسهم بعد ، فأضلتهم وأخرجتهم عن الإسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة فى أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم فى المسجد ١٤٠هـ/ ٧٥٧-٧٥٨م[١] . فأثار عملهم هذا إخوانهم بربر نفوسة ، وكانوا إباضية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورفجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على إفريقية .

ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين على القيروان ، ولم يتخير عربياً ليقيمه فى الإمارة ، وإنما تخير رجلاً من أصل فارسى هو عبد الرحمن بن رستم ، وكان خارجياً إباضياً شديد العصبية لمبادىء الخارجية (١٤١هـ/ ٧٥٨-٧٥٩م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان وإعادة المغرب إلى طاعة المشرق إلا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسة على مقربة من تورغة إحدى قرى طرابلس (جمادى الأولى ١٤٤هـ/ يونيو ٧٦١م)[٢]، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن بن رستم إلى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت ، وكانت هناك إذ ذاك بقايا حصن رومانى فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الإباضية ، وأعلن نفسه إماماً ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله[٣].

وحذا حذوه بربرى خارجى آخر هو أبو قرة المغيلى شيخ قبيلة بنى يفرن وكان صفرياً ، فأعلن نفسه إماماً فى نواحى تلمسان . وهكذا استقلت كل جماعة من البربر فى ناحية ، ولم يبق للعرب إلا سلطان ضئيل بقى لبعض المضرية فى ظواهر القيروان ، وظِلٌّ من السيطرة بقى لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة فى نواحى طبنة وهدنة ، ولم يهدأ أمر البلاد إلا على يدى محمد بن الأشعث قائد العباسيين وبعد محمد بن الأشعث ولى أبو جعفر المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم بن عقال .

وعندما قُتِل هذا فى حربه مع الخوارج تولى أمر إفريقية أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى،

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٤٤.
(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٦١ .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٤٤-٤٦ .
(٣) البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٦١ وما يليها .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٤٤-٤٦ .

وبدأ بذلك حكم المهالبـة فى إفريقيـة . وقد استمر حكم المهالبـة إلى سنـة ١٨٠هـ ثم تولاها هرثمة بن أعين ثم تولى أمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال الذى أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشارقة تؤيدهم فرق من الجند الخُرَسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لتبعية إفريقية المطلقة على المغرب ، فإن دولة بنى الأغلب تعتبر بداية لعصور استقلال إفريقية عن الخلافة ، ووقفت حدود إفريقية الأغلبية السنية عند مجرى نهر شلف ، أما غربى هذا النهر فقد قامت فيه دولة الخوارج الإباضية الرستمية التى سادت المغرب الأوسط .

٦٤ـ دولة بنى مدرار فى سجلماسة وانتهزت جماعات من برابر مكناسة - إحدى بطون ضريسة - فرصة ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحيتهم وليقيموا لأنفسهم دولة . كانت هذه البطون من نفوسة تسكن على منابع نهر ملوية عند الموقع الذى ستقوم فيه بلدة سجلماسة فيما بعد ، وكانت هذه القبائل تسيطر على قريتى تازا وتسول ، وكانتا إذ ذاك من منازل الرعاة ، فأقبل عليها فى مراعيها رجل بربرى ممن حج إلى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة ، واسمه أبو القاسم سَمكو بن وسول بن مَسلان بن أبى ازول ، ويبدو أنه كان قد مال إلى ناحية الخارجية ، فدعا النفوسيين إلى مبدئه فانضموا إليه وتعصبوا له ، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة فى سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧- ٧٥٨م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الأسود ، ثم اتخذوا سجلماسة عاصمة لهم فاتسعت وتمدنت ، ومات عيسى فخلفه ابنه اليسع وخلف هذا ابنه مدرار ، وفى عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التى عرفت فى التاريخ بدولة بنى مدرار . وإنما فَصَّلْت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقى ضوءاً على التطور الباطنى الذى كان يجرى فى المغرب الإسلامى إذ ذاك ، وواضح جداً أن دعاة الصفرية والخارجية أصحاب فضل كبير فى نشر الإسلام فى نواحى المغرب الأقصى والسوس ، كما رأينا فى حالة هذا الداعية أبى القاسم سمكو ، وكما سيحدث فى حركات المرابطين والموحدين فيما بعد[١] .

---

(١) راجع عن هذه الأحداث :

ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص٦٠ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب ، ص٤٤ وما يليها .

ابن خلدون : العبر ، جـ١ ، ص١٣٩ وما يليها .

٦٥- رأى جوتييه فى ثورات البربر وقد حاول ا.ف. جوتييه جغرافىُّ المغرب ومفلسف تاريخه على مذهب الفرنسيين أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة فى تاريخ المغرب القديم وتكوينه الجنسى ، فانتهى إلى آراء لا بد من إيرادها فى ختام هذا البحث(١) . يرى جوتييه أن هذه الثورات هى أخطر حادث فى تاريخ المغرب الإسلامى قبل الحركة الفاطمية . فلنعرض آراءه فى تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف لنا فى الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التاريخ المغربى ، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كاشفاً(٢) .

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية فى المغرب إن هى فى الواقع إلا الدوناتية التى روعت أمن المغرب النصرانى من قبل . وتفصيل هذه الحركة الدوناتية فى إجمال هو أن «دونات» أسقف كازنوار إحدى بلاد المغرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilia-nus) بطريقاً لقرطاجنة ، لأن من انتخبوه كانوا قسساً مشكوكاً فى صلاح عقيدتهم ، فغضب عليه صقليان ، وثارت بينهما الخصومة ، وتعصب لكل منهما فريق ، وانقسم نصارى إفريقية شيعتين ، شيعة صقليان ، وشيعة الدوناتيين المنشقين أو الخارجين عليه .

والخارجية المغربية فى نظر جوتييه ، ليست فى الواقع إلا شيئاً شبيهاً بالخارجية الدوناتية النصرانية ، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين فى أمر من أمور العقيدة - كما تخالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلاً - وإنما يخالفونهم فى عدم الاعتراف بخلافة معاوية، ويقولون بأحقية على وأولاده فى الخلافة (كذا!) بالضبط كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه فى البطريقية ، والحركات الدينية الخطيرة -

---

(١) E.F. GAUTIER, Le Passé de l'Afrique du Nord.pp. 260 Sqq .

(٢) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول ، وقد انتهى من بحثه إلى نظرية خاصة فسر على أساسها تاريخ المغرب الإسلامى كله ، وقد أخذها عنه جميع مؤرخى المغرب الفرنسيين ، ولهذا رأيت أن أعرض لها فى شىء من الإسهاب . وإليك مراجعه التى استند إليها فى هذا البحث إتماماً للفائدة وتسهيلاً للمراجعة :

أبو زكريا : تاريخ أبى زكريا ، ترجمه وعلق عليه EMILE MASQUERAY (الجزائر ١٨٧٨) ، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة .

ابن خلدون : العبر ، (ترجمة دى سلين) جـ١ ، ص ٢١٦ و ٢١٨ ، جـ٢ ص ١٢٥ وما بعدها .

ابن عذارى : البيان ، جـ١ ، ص ٥١ وما يليها .

ابن الأثير : حوادث المغرب التى جمعها فانيان Fagnan وترجمها إلى الفرنسية فى كتاب Annales du Magreb et de l'Espagne ، ص ٦٣ .

سواء فى المغرب النصرانى أو فى المغرب الإسلامى - لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة ، بل عن تعصب وانتصار لأشخاص ، لأن أهل المغرب - كما يقول - لا يكادون يحفلون للعقائد فى ذاتها ، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص .

وإيمان البربر فى رأى جوتييه يمتاز إلى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها ، ويصرون على ذلك إصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً . وهذه كلها أمور نلاحظها فى الدوناتية كما نلمسها فى الخارجية : فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدَّق ، وكانوا يتحرون جماعات فى سهولة لا يكاد يتصورها العقل ، أملاً فى أن يغتنموا الشهادة ويرقوا إلى السماء ، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم فى بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق فى قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الهين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! وويل له إذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر الى حد اغتنام الشهادة بالانتحار ، وإنما هم كانوا يتهافتون على القتال فى سبيل العقيدة تهافت مَنْ لا يعنيه أمر حياته ، نجد هذا واضحاً عنيفاً عند غلاتهم كالصفريين ومعتدلاً بعض الشيء عند معتدليهم كالإباضيين . هذا مع العلم بأن تفانى هؤلاء الأخيرين فى العقيدة كان يذهب بهم إلى حد إلغاء شخص الإنسان إلغاء تامًا أمام الخالق .

٦٦ـ الدوناتية والخارجية

ثم يقول : ولقد أحسن ماسكراى حينما قال إن الخارجية هى الدوناتية نقلت من إطار مسيحى إلى إطار إسلامى ، ولا يهمنا الإطار ولا الحادث الذى أثار الحركة فى المسيحية أو فى الإسلام بقدر ما تهمنا الظاهرة ومغزاها الذى يتلخص فى الحقيقة التالية : وهى أننا نجد عند المغاربة أنفسهم أسلوباً واحداً عميقاً فى الإحساس بالله وقوته ، وأننا نجد هذا الإحساس ظاهراً فى صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزى عند هذا الجنس .

وهو - أى جوتييه - لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع - فهى فى نظره حادث عارض- والمهم عنده هى الغايات والنزعات المادية التى تستتر دائماً خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا إلى المعنى السياسى والاجتماعى للحركة الدوناتية ، وقد وُفِّقوا ، وليس بالعسير كذلك الوصول إلى النزعات السياسية والاجتماعية التى أدت إلى الثورة الخارجية .

ثم يقول : إن ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكانته ، وذلك حيث قال : إن الخارجية انتشرت على عجل فى البلاد وأصبحت سلاحاً فى يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التى يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتمسون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ويقول : ولم تكن الدوناتية فى الواقع إلا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطى ، إذ كانت فى الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبيعى أن الشعب الذى قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذى قام بالدوناتية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة وإنما كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفى خلفه - بطبيعة الحال - انفجاراً هائلاً لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة فى صورة الخلفاء المشارقة .

٦٧ـ أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة

ثم يمضى جوتييه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفى بتسميتهم بربراً وكفى ، بل يريد أن يعرف أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة ، ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا فى الغالب بربراً زناتيين ، فقد انفجرت الثورة أول الأمر فى طنجة خلف ظهور الجيوش الإسلامية الغازية فى أسبانيا ، ثم لم يلبث لهبها أن وصل إلى القيروان ، وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى « شلف » ، ووقعت المعركة الثانية التى هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر « سبو » ووقعت الثالثة التى انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢، وأما الرابعة فقد كانت إلى الشرق مما يلى ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربى عنيف يقوم به عبد الرحمن بن حبيب . أى أن الحوادث البارزة فى الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتى ٧٤٣- ٧٥٢) وفيها بين سنتى ٧٥٧- ٧٥٨ ينتقل مركز الحركة إلى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيثون فيها فساداً ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها .

ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد يقودهم محمد بن الأشعث ويحرز النصر فى

صرت من نواحى طرابلس ، ثم يسير إلى القيروان فيحتلها ، ولكنه لا يوفق إلى النصر عند تلمسان التى ينتقل إليها مركز الحركة بفضل أبى قرة اليفرنى (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان . ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة فى إقليم هدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمناً طويلاً محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقى حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) ، ثم يستمر الأمر بين أخذ وردٍّ بين العرب والخارجيين حتى ينتهى الأمر إلى يد بنى الأغلب فى سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هى طنجة ووادى سبو وإقليم تلمسان ووادى شلف وهدنة وجنوبى تونس وطرابلس ، أى أنها تقع جميعاً فى نطاق السهول والهضاب العالية ، أى فى مواطن زناتة ، لقد وقعت الثورة كلها فى أوطان زناتة على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتييه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذارى يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير إلى أن برغواطة هذه قد كفرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها فى إقليم الشاوية ديناً جديداً يخالف الإسلام) ، ومغيلة وهوارة وبنى يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلاً جداً من صنهاجة قد شاركوا فى هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغى أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتييه استطراداً بعيداً يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه لأنه يلقى ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر النفسية فى هذه الحركة البربرية الخطيرة ، ويهمنا من كلامه قوله إنها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعى ، فقد كانت زناتة قد أعانت المسلمين وانضمت إليهم من أول الأمر أملاً فى أن تنتصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد فى ظلالهم بعض ما فاتها فى عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العسف الذى رأيناه فجنحت نفوسهم إلى الثورة . ويهمنا كذلك قوله إن هذه الحركة طبيعة مركبة فى النفس البربرية : فهى طبيعة تفانٍ وتصوف واستخفاف بالحياة . ويهمنا كذلك إشارته إلى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق فى شئون البلد . ويهمنا أخيراً ربطه هذه الحركة بأمثالها فى عهود الروم وسيره بالحركة إلى مطالع العهد الأغلبى .

٦٨ـ الأحوال فى الأندلس

ونعود الآن إلى الأندلس . لم تكن الأحوال فى الأندلس إذ ذاك بأحسن مما كانت عليه فى المغرب . كانت هزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقى وخيرة رجاله فى رمضان سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م قد أوقعت البلد فى أزمة كبرى ، ذلك أن اليمنيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقى واشتغال عامل إفريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن نُفيلة بن عبد الله الفهرى فى أول شوال سنة ١١٤هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل إفريقية أقر عبد الملك فى ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقى(١).

٦٩ـ عبد الملك ابن قطن الفهرى

لا تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن أعمال عبد الملك فى ولايته الأولى ، ولكن ايزيدور الباجى يذكر أنه أساء السيرة وآذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من اليمنية عاثوا فى البلاد فساداً وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا إلى الأموال شرهاً اضطر معه عبد الملك إلى عسف الناس عسفاً أثار النفوس وأسخطها(٢) . فلما تولى عبيد الله بن الحبحاب أمر إفريقية بعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان رجلاً قيسياً صالحاً محباً للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها فى شوال سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م (٣).

ويذكر ايزيدور الباجى أن عبد الملك بن قطن الفهرى ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر إلى القبض على عبد الملك وإلقائه فى السجن، ثم نقل عدداً عظيماً من المدنيين إلى إفريقية لكى يهدأ البلد ، ويستريح من نزوعهم الدائم إلى السلطان والفوضى(٤).

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة فى الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد «بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها»(٥). واستطاع كذلك أن ينصرف إلى الفتوح فى صقلية وفيما وراء جبال البرت بقية أيام حكمه الذى طال سبع سنين(٦).

(١) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧ .

(٢) إيزيدور ، فقرة ٦٠ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧-٢٨ .

(٤) إيزيدور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا إلى الأندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لأنفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمنيين ويحتمون بهم .

(٥) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص ٢٩ .

(٦) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ .

فى ذلك الحين كانت ثورة البربر فى إفريقية على أشدها ، وكان عبيد الله بن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية فى إفريقية عن أبناء عمومتهم فى الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمنيون ومن معهم من المدنيين وفيهم بعض أبناء الأنصار يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة فى أوائل سنة ١٢٣هـ إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمنيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله ؛ وقد كان ، وعاد السلطان إلى ابن قطن ومن معه من اليمنيين والمدنيين(١) .

٧٠ـ انتقال الثورة من إفريقية إلى الأندلس والظاهر أن نفراً من دعاة الثورة البربرية الإفريقية خف إلى الأندلس ليثير بربرها على عربها ، ولم يكن البربر فى الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى العرب ، لأن هؤلاء الأخيرين استبدوا دونهم بالسلطان ، مع أن معظم فضل الفتح يعود إلى البربر . ويذهب نفر من المؤرخين كذلك إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الفيافى والجبال القاحلة فى الشمال والشمال الغربى(٢) .

وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه ، لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة فى أخصب نواحى الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرهم ، ثم إن العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس ، ثم إن الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دواماً فى منطقة البُرت وما وراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول الأندلس الواسعة فى الشرق والجنوب والوسط والغرب .

٧١ـ مقدمات ثورة بربر الأندلس ثم إن المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت قد استقرت فى أقصى الشمال عند لاردة واسترقة و« المداين التى خلف الدروب » كما يقول

(١) إيزيدور الباجى ، فقرات ٦١-٦٣ . ويذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البيان ، جـ٢ ، ص ٢٩) . ويذهب ابن عبد الحكم إلى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذى رد عبد الملك إلى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) . أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من اليمنية اجتمعوا على عقبة وخلعوه ، فهو يتفق مع إيزيدور فى ذلك ، وقد أخذنا بروايتهما .

(٢) DOZY, Hist des Musulmans d'Espagne I, p.161
Recherches; I, pp. 118-119.

صاحب الأخبار المجموعة(١)أى فى نواحى الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الإسبان النصارى فى الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب فى الأندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعاً مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسببه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر شعباً محكوماً لا ينبغى أن يُترك له أى نصيب فى الحكم أو فى إدارة الأمور .

ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم بأقل من العرب ديناً ولا كفاءة ولا فضلاً ، فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما كسب الإسلام فى الأندلس من نصر . ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه إلى سوء المعاملة والإهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لأتفه الأسباب ، فإذا جرؤوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقسى(٢).

ثم إن استبداد القيسية بالأمر كان حرياً أن يُنفِّر البربر ، إذ كان القيسيون قوماً ذوى عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم إلى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر فى إفريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر فى الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب إلى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم(٣). وهذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا إذا وصلوا إلى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفاً ، فى حين كانت عيوب الكلبية اليمنية الظاهرة جشعاً إلى المال وميلاً إلى الفوضى وعجزاً عن التنظيم وحسن الإدارة .

٧٢ - ثورة البربر فى الأندلس

طبيعى إذن أن يبادر بربر الأندلس إلى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء عمومتهم واشتباكهم مع العرب فى الحرب فى إفريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة - وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلاً - : « فقُضى أن بربر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذى كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر فى الجزيرة الأندلسية.

CESAR DUBLER. Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festchrift. z. zud Zurich 1943.

(٢) إيزيدور ، فقرة ٤٤ . DOZY, Recherches. I. p. 119

(٣) يُفهم هذا من قول ابن القوطية مثلاً : « وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ! » - ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧ .

الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أستُرقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فَلُّهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر »[(١)].

ويزيدنا صاحب فتح الأندلس وضوحاً فيقول : « وتطاولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقة والمداين التى خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب»[(٢)] ولا يزيدنا إيزيدور على ذلك كثيراً ، وإن كان يشير إلى أن العرب استبدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم إلى الثورة[(٣)].

ولكن دوزى يضيف من عنده كثيراً ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض، ولم يتركوا للبربر غير النواحى القاحلة فى الشمال ، ويمضى فى المبالغة – على عهده – فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومتهم فى العدوة الإفريقية بقبول عظيم، وأن دعاة خارجيين ذهبوا إلى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستئصالهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية فى إقليم جليقية امتدت إلى شمال الأندلس جميعه عدا إقليم سرقسطة ، ولسنا نعلم من أين استقى هذا كله ، وليس بين أيدينا إلا ما أوردناه من النصوص[(٤)].

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين فى نواحى جليقية واسترقة والنواحى القاصية من أشتريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيرة ، فأما إقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم . وأسرع من بقى من العرب فى هذه النواحى بالهروب إلى وسط الأندلس[(٥)] ، فإذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم فى ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطلة ، والثانى قرطبة ، والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .
(٢) فتح الأندلس ص ٣١ .
(٣) إيزيدور ، فقرة ٧٦ .
(٤) DOZY,Mus.d'Esp. I,p. 161.
(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا مخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزى إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم إماماً دون أن يذكر مرجعه فى هذا القول[١] . ولكننا وجدنا فى «فتح الأندلس» إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربرى يسمى «زقطرتق» كان يرأس جماعة البربر التى كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتى تجمعت فى شذونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا فى الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربرى الذى قاد بربر الأندلس فى الثورة كما قاد ميسرة بربر إفريقية[٢] .

تحرج مركز عرب الأندلس إذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلبية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر إلا إذا وصلتهم من المشرق إمدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر فى إفريقية كانت على أشدها ، ثم إنهم كلبيون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضرية .

٧٣ - بلج بن بشر ومن معه محاصرون فى سبتة

وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين فى سبتة منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك[٣] وكانوا لا يكفون عن الكتابة إلى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع إلى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه . فهم قيسية شامية متعصبون وهو ومن معه كلبيون يمنيون ، فتركهم لكى يهلكوا حيث هم[٤] .

وكان عبد الرحمن بن حبيب - كبير عرب إفريقية الذى تحدثنا عنه - قد نجا من معركة الأشراف - وانهزم مع بلج وأصحابه إلى سبتة ، ومن هناك عبر إلى عبد الملك بن قطن الفهرى مثله ، وجعل يحرضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك إصراراً على تركهم لمصيرهم[٥] . وبلغ من إسرافه فى ذلك أن عربياً أندلسياً من لخم يقال له عبد الرحمن

(١) يقول صاحب الأخبار المجموعة فى ص ٣٩ : «وكانت قد رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن هدين» ؛ ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول إن البربر اختارته رئيساً فقط لا إماماً ، والفرق بين الأمرين ظاهر ، إذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزى فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، برواية المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣١ ، وهذه هى قراءة ناشر الكتاب ، ولم أستطع تحقيقها .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٤) نفس المصدر والصفحة . وفتح الأندلس ، ص ٣١ .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠.

ابن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث إليهم مركبين وشحنهما بالشعير والإدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب [١] وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبتت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا [٢] ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مركز عبد الملك بن قطن وعرب الأندلس حرجاً مع الأيام ، ولم يجد لنفسه مخرجاً إلا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين فى سبتة فى العبور إلى الأندلس ، فأجابهم إلى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن يبارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، وينزلهم فى مكان يستطيعون منه العودة إلى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل إليهم عبد الملك سفناً عبروا بها إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك فى جزيرة أم حكيم فى مدخل الوادى الكبير [٣] .

٧٤- طالعة بلج

هكذا عبر بلج بن بشر القيسى ومن معه من القيسية الشامية إلى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشآمية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسيرتكبون من الأخطاء فيما بعد شيئاً جسيماً ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهى بهم الأمر بالاستقرار فى البلاد ، وسيكون لهم فى تطور الأندلس الإسلامى أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس فى حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، « فوجدوا بها جلوداً مدبوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا إلى قرطبة ، فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا » [٤] . وهكذا

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .
ابن خلدون عند المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ١١ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .
فتح الأندلس ، ص ٣١ .
(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

آوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تقاذفتهم البلاد والنُّوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى فى الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع فى أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم وإكرامهم على النحو الذى يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعاً فى أن تقوى بهم قلوبها ، ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلبية اليمنية من جديد .

٧٥- طالعة بلج تقضى على ثورة البربر فى الأندلس ولم يكد بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى نهضوا للعمل الذى أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغى عمله هو القضاء على الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالثائرين فى ناحية طنجة وسبتة ويقطع كل أمل لعرب الأندلس فى أى عون يأتيهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربرى كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاماً ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك إلى شذونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم إليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شذونة « فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم »[١] . ولا نزاع فى أن العرب كانوا مدفوعين فى هذه المعركة بالرغبة فى طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل فى إفريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم نهض بلج وعبد الملك ابن قطن ومن معهما للقاء الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيراً فى هزيمته والقضاء عليه .

فأما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الأخريين بسبب الأعداد العظيمة التى تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقة وماردة وقورية وطلبيرة قد انجفلت من بلادها وانضمت إليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهراً حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه وانحدر نحو الجنوب وحاول عبد الملك ابن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح ، فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشآمية جمع رجاله وسار مع الشآميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٢، ص ٣١ .

هـؤلاء بمسيره إليهم حلقوا رؤوسهم اقتـداء بميسرة ، « ولكى لا يخفى أمرهـم وليضربوا ولا يختلطوا »[1] ، مما يدل على شدة حماستهم ورغبتهم فى النصر .

٧٦- معركة وادى سليط دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادى سليط (Guazalete) وحمى أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطاً ، وأظهر الشآميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش فى الأندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم »[2] (أوائل ١٢٤هـ/ منتصف ٧٤١م).

ويُفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادى سليط تعقبوهم فى نواحى الجزيرة واشتدوا فى ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيراً .

* * *

٧٧- المجاعة وهجرة البربر إلى إفريقية شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ، وكانت جموع كثيرة من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا فى عواصم الأرياف والقرى التى غنموها واشتغلوا بالإشراف على المزارعين من أهل البلاد ، فكان إشرافهم هذا من العوامل التى أسرعت بعمار الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب .

فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ، وغادروا مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا فى الانتقام منهم ، خاف من بقى من البربر واضطربوا فى مساكنهم ، وبدأت الرغبة تساورهم فى ترك هذه البلاد ، التى كانوا يقيمون فيها على الخطر ، إلى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئناناً ، فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ، وهكذا

(١) الأخبار المجموعة ،ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، ووادى سليط نهير يصب فى التاجه من اليسار جنوبى طليطلة بقليل . وقد أشار الرازى فى قطعة باقية من الترجمة الإسبانية لتاريخه إلى هذه الموقعة بقوله :

" et esta batella fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican .

انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ فى نهاية عمود ٢ من طبعة جايانجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير يقل فى البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سوءاً.

ولم يتنبه العرب إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم ، فانتهى الأمر بعد سنوات قلائل إلى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل ، وانضاف شر هذا البلاء الجديد إلى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان ، فانعدمت الزروع وندرت المحاصيل ، ولاح شبح مجاعة خطرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادى سليط . فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كانت سنة مائة وثلاث وثلاثين (٧٤٨م) هزمهم (أى بلاى زعيم الإسبان) وأخرج (يريد أخرجهم أى العرب) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فَلُّهم إلى خلف الجبل إلى استورقة ، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين على استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وآصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلك السنون تسمى « سنى برباط » ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم»[1].

واشتدت المحنة وأصابت نواحى الأندلس كلها عدا إقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جداً ، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا - كما رأينا - إلى النواحى التى توقعوا أن يجدوا فيها خيراً ، وكان البربر أسوأ حالاً ، لأن الهزائم فَلَّتْ غَرْبهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى فى كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر فى الأندلس فأخذت جموع منهم تعود إلى إفريقية ليطمئنوا بين أهليهم وعشائرهم ، فهاجروا إلى إفريقية أرسالاً كثيرة .

٧٨- زحف نصارى الإسبان نحو الجنوب

لا نزاع فى أن عدد من هاجر من البربر كان عظيماً جداً ، لأن المؤرخين يحدثوننا أن نواحى شمال الأندلس وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين ، فإذا أضفنا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

إلى ذلك أعداد من هلك من السكان - عرباً وبربراً - بسبب المجاعة ، ومن انجفل منهم إلى الجنوب وإلى الغرب وإلى إقليم سرقسطة ، استطعنا أن نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الإسبان فى جليقية وأشتريس اتساعاً مفاجئاً بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتى ٧٥١و٧٥٣م (١٣٤-١٣٦هـ) .

ذلك أن الإقليم الواسع الواقع بين نهرى المنهو والدويرو خلا من سكانه المسلمين فى ذلك الحين ، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول ، فاسترجع النصارى افراغه وأبورتو وفزيو[١]، وبذلك سيطروا على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك فى حذر فاستولوا على أشترقة وليون وسمورة ولِدسما وسلمنقة وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية إلى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سلدانيا وسيمانقاس وشقوبية وأفيلة وأوكا وأوسما وميراندا على نهر ابره وسنيسيرو وأليسانكو على نهير ريوخه . وانحدرت حدود الأندلس الإسلامى إلى الخط الممتد من قلمرية على المنديجو إلى قورية وطلبيرة وطليطلة على التاجة إلى وادى الحجارة وتطيلة وبنبلونة فى الشمال الشرقى .

٧٩- العرب يخسرون ربع الجزيرة

وبهذا خسر المسلمون نحو ربع ما فتحوه من الأندلس بسبب هذه الخصومات القبلية من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام فى الأندلس[٢].

٨٠-الخصومة بين العرب والبربر

ولم تقف نتائج هذه الثورة المشئومة عند ذلك الحد ، بل إنها خلقت فى نفوس العرب والبربر من الكراهة للحكم الأموى فى دمشق ما سيظل قائماً قروناً متوالية لا تكاد الأيام تمحوه . كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبين ، فلما انهزم الخوارج فى إفريقية والأندلس ظل بقايا خوارج البربر طوال القرون التالية يحسون الخوف من دولة الخلافة والكراهة لرجالها ، وقد انتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون باندماج العرب والبربر وقيام الشعب العربى المغربى .

(١) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لفزيو Viseu هى بازو الواردة فى المقرى ولكن سافدرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرى : نفح الطيب ، جـ١،ص ١٧٤).

SAAVEDRA, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1882) p. 182 .

(٢) انظر : BALLESTEROS : Historia de Espana Y su influencia en La historia universal, II,pp.325 sqq.DOZY, Recherches, I, pp.116 sqq.

وأما فى الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر ، لأن عودة الهجرة البربرية إلى الأندلس بعد قيام الإمارة الأموية قوّى جانب البربر الخوارج من جديد وأعادهم إلى المقاومة ، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوئون العرب والأندلسيين مرة أخرى ، وسنرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التى دامت طوال إمارات محمد والمنذر وعبد الله، وسنرى أثر هذه الخصومة واضحاً بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية .

يقول الرازى تعقيباً على هذه الحوادث التى ذكرناها : « ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس ، وتوارثها الأبناء إلى يوم البعث ، فبالعرب غُزوا فى بلادهم وببأسهم سُبيت ذراريهم وغُنمت أموالهم حتى أدخلوا فى الإسلام واضطروا إليه قهراً . قال : فلما رجع العرب إلى بلادهم [فى] المشرق ، واستقر منهم الأقل [فى] الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه ، وكان البربر يومئذ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم ، لم تزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم »(١). وفى هذا الكلام مبالغة .

* * *

هكذا أسدل الستار على هذه الفتنة الإفريقية الكبرى بعد حروب طويلة ودماء غزيرة ، ولكن الأيام تكفلت بمحو آثار هذه العداوة ، وبعد أن قامت الدولة الأموية الأندلسية بقليل لن نجد فى الأندلس إلا أندلسيين ولكن أسوأ آثارها أنها قللت من قوة المسلمين فى مواصلة الفتوح فى غالة وهى فرنسا . فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون فى مغازاة ما لم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها ، بفضل جموع البربر المهاجرة .

أما الآن ، وقد عادت هذه الجموع البربرية إلى بلادها ، وبعد أن هلك منها فى الفتنة من هلك ، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين ، وانفسح أمام الإسبان النصارى مجال النمو وتجددت آمالهم فى غزو بلاد المسلمين وليس يخفى على أحد أن الأندلس الإسلامى إنما أُتِىَ من الشمال والغرب - حيث هاجر البربر - ولم يُؤْتَ من الشمال الشرقى حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة فى إقليم سرقسطة.

* * *

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس ، ص ٣٢ .

الفَصل السَّادس

القيسيَّة وَاليمنِيَّة

٨١ - مؤرخو الأندلس والعداء بين القيسية واليمنية

عندما نشر راينهارت بيتر - آن دوزى كتابه المشهور فى تاريخ الأندلس - المعروف بـ « تاريخ مسلمى إسبانيا » - أدار ثلثه الأول على الحروب القبلية التى وقعت بين عرب الأندلس خلال عصر الولاة ، وبالغ فى تصوير هذه الحروب حتى جعل العرب الذين استقروا فى شبه الجزيرة شراذم من أهل العصبيات لا هَمَّ لها إلا الاقتتال فيها بين بعضها وبعض، كأنهم كانوا منقسمين إلى شعبين متعاديين لا تربط أحدهما بالآخر رابطة ، هما شعب عدنان وشعب قحطان ، لا يبالى أحدهما بشىء فى سبيل القضاء على الآخر ، ومضى يصف فى إسهاب الوقائع والأيام التى دارت بين الفريقين فى نواحى الدولة الإسلامية عامة وفى الأندلس خاصة دون التفات إلى شىء آخر ، كأن تاريخ العصر الأموى لم يكن إلا تاريخ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب(١).

ومن هنا جاءت الصورة التى رسمها لعصر الولاة فى الأندلس صورة مشوهة لا تمثل الحقيقة التاريخية فى شىء . ولكن ذلك التشويه لا يخلو من دلالة لها قيمتها . فقد كان دوزى أول من كتب تاريخاً للأندلس على منهج علمى صحيح ، وكان أول مؤرخ محدث التمس هذا التاريخ فى مصادره الأولى واقتدر على قراءة هذه المصادر ، فوفق فيها فشل فيه مؤرخون لم يتأهلوا لهذا المطلب بأدواته اللازمة(٢) ، ووضع يده على الأصول التى ينبغى أن يؤخذ منها ذلك التاريخ ، ففتح بذلك الباب لمن جاء بعده .

---

(١) REINHARDT PETER- ANNE DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne (Leiden.1861).

وقد لقى الكتاب لأول ظهوره رواجاً عظيماً ، فأعيد طبعه وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . ثم أشرف إيفاريست ليفى - بروفنسال على طبعه طبعة جديدة معدلة منقحة ظهرت فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩٣٢ .

(٢) مثال ذلك : MASDEU. Historia Critica de Espana . (Madrid. 1805) .

وقد تحدث فى الجزء العشرين منه عن العرب فى الأندلس

JOSE ANTONIO CONDE . Historia de los Arabes en Espana. Madrid. 1820 .

وانظر نقد دوزى لهذين المؤلفين فى أبحاثه:

Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen- Age (3e.éd. Leiden. 1881) vol. I. pp. 30 sqq.

وانظر نقد رامون مننذ بيدال لمعظم ما كتب فى أوروبا فى تاريخ إسبانيا الإسلامية فى :

RAMON MENENDEZ PIDAL . La Espana del Cid (I era ed. Madrid, 1929) tomo I.pp. 3 sqq.

وقد نقض آراء دوزى مستشرقون لا يقلون عنه تبحراً ، مثل يوليوس فلهاوزن واجناتس جولدتسيهر ، فأما الأول فلم يقره على ما ذهب إليه من المبالغة فى تصوير ما كان بين العدنانية والقحطانية[١] ، وأما جولدتسيهر فتعمق الأمر وبحث موضوع العدنانية والقحطانية عامة ، وانتهى إلى أن البحاثة الغربيين أسرفوا وأكثروا فى ذلك الموضوع دون سند كافٍ من الأصول ، فإن العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام لم يقولوا إنهم ينقسمون إلى عرب شمال وعرب جنوب ، وإنما نشأ ذلك التقسيم البيّن للعرب إلى شعبين متعادين خلال العصر الأموى ونتيجة لسياسة بنى أمية فى الاستعانة بجماعة من العرب على جماعة ، وتقريب قوم دون قوم ، فإذا قرّب الخليفة الأموى قيسياً حظيت قبيلته وحاول أبناء عمومتها أن يفيدوا من ذلك ، وإذا قرب الخليفة شيخاً كلبياً (أى يمنياً) سخطت القيسية صاحبة الحظوة أولاً .

وأخذ كل فريق يتعصب لأصحابه ويحمل على منافسيه ، فظهر هذا العداء بين العدنانية (أو المعدية) والقحطانية . وهو عداء أخذ أسماء شتى ، فهو فى الشام خصومة الشام واليمن، وفى خراسان عداء مضر وأزد اليمن ، وفى الأندلس صراع قيس وكلب. وفى أثناء ذلك الصراع مضى كل فريق يعتز على صاحبه بأعمال أجداده فى الجاهلية ، ونسبوا لهؤلاء الأجداد من الوقائع ما لم يكن ، وهكذا رجع الناس بخصومة العدنانية والقحطانية إلى الوراء ، وتصوروا أن هذه الخصومة قديمة قدم الجاهلية ، وردد المؤرخون ذلك كأنه حقيقة واقعة[٢].

ويعنينا الآن أن نقول إن ما يحكيه مؤرخو الأندلس عن عداء قيس ويمن فى الأندلس مبالغ فيه ، أو على الأقل مبالغ فى تصويره بحيث يبدو وكأنه هو كل تاريخ الأندلس فى عصر الولاة . وهذا هو ما نخرج به من كتابَىْ الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس مثلاً ، وهما أكثر المراجع إسهاباً فى الكلام على عصر الولاة .

والحقيقة أنه كانت هناك بالفعل عداوة بين قيس ويمن فى الأندلس ، وأصولها ترجع إلى

---

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب
JULIUS WELLHAUSEN, Das Arabische Reich und Sein Sturtz .
بعنوان : تاريخ الدول العربية إلى نهاية العصر الأموى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) انظر : تعليقنا على هذا الموضوع على هامش الطبعة الجديدة التى قمنا بها لكتاب جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

ما كان بين هذين الحيين من صراع على السلطان فى قلب الدولة الأموية ، وكان أحدهما إذا انتصر فى مرحلة من مراحل النزاع اشتد على الآخر ، فهاجرت جماعات منه إلى الولايات ونفوس أفراده تفيض بالحقد واللدد ، وهناك تنضم إلى من تجده من أبناء عشيرتها ، فتتجمع كِسَرُ القبائل ، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية ، ويتجدد النزاع القبلى بصورة أعنف مما كان فى قلب الدولة ، حدث ذلك فى خراسان والمغرب والأندلس وغيرها من الولايات .

ولكن العصبية لم تكن وحدها سبب النزاع القبلى فى الأقاليم ، فقد كان هناك التنازع على المغانم والسلطان فى الولايات ، وكانت هناك مصالح جديدة تختلف من ولاية لولاية ، ومن هنا كانت بعض القبائل تتناسى عصبيتها فى سبيل كسب مادى وتنضم إلى قبيل غير قبيلها ، وكانت هناك قبائل محايدة ، لا هى من قيس ولا هى من مضر ، وكانت تنضم إلى هذا الفريق أو ذاك بحسب ما تمليه عليها مصالحها ، ومن ثم فقد كانت الأحزاب التى اصطرعت فى الأندلس خليطاً من هذين الحيين فى أغلب الأحيان ، ولكن كانت تغلب عليها صفة الأكثرية من جماعتها .

وقد رأينا فيما مر من الكلام طلائع الصراع بين القيسية واليمنية فى الأندلس ، وكيف بدأ الحيان يتنازعان على السلطان ، ثم شغلتهما عنه الثورة البربرية أو الفتنة المغربية .

فلما انتهت هذه الثورة خلا الجو لهما فعادا إلى النزاع ، وأسرفا فيه إسرافاً جاوز كل حد ، حتى ضعف أمر العرب والإسلام فى الأندلس ، وكاد أمرهما يتلاشى فيه جملة ، لو لم تتداركه العناية بعبد الرحمن الداخل .

* * *

٨٢ ـ القيسية تستبد بأمور الأندلس

خرج عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية مظفرين من المعركة العنيفة مع البربر ، كما خرج منها عبد الرحمن بن حبيب فى إفريقية ، ولكنه لم يطمئن على أمره ما دام بلج وأصحابه إلى جانبه ، وقد كان هؤلاء قيسية لا يقنعون بغير الصدارة والقيادة ، ثم إن هذا النصر لم يتأت إلا بسيوفهم، فأقام عبد الملك خائفاً منهم يترقب ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أسرع يطالب حلفاءه بمبارحة الأندلس وفاء بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم ، فتلكأ هؤلاء حيناً ، فما كانوا ليتركوا هذا البلد الذى أقبلت عليهم النعمة فيه إلا إذا أخرجتهم منه قوة .

ثم إن عبد الملك لم يكن خالص النية نحوهم ، إذ اعتذر عن إعادتهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، متعللاً بأنه لا يملك سفناً كافية لنقلهم وما جمعوا من خيرات وغنائم . وطلب بلج وأصحابه أن يبحروا من الجنوب الشرقى من ناحية تدمير (مرسية) حتى يستطيعوا العبور إلى ناحية أخرى من إفريقية يستطيعون الذهاب منها إلى القيروان ، ولكن عبد الملك أصر على أن يبحروا من الجزيرة الخضراء ، وتعلل بأنه لا يستطيع نقل سفنه من هذه الناحية خوفاً من انتهاز البربر الفرصة والعبور إلى الأندلس(١).

٨٢ - بلج بن بشر يلى أمور الأندلس

وليس إلى الشك سبيل فى أن عبد الملك لو وفَّى لهم بعهده لبحثوا عن تعلة أخرى للبقاء فى الأندلس ، فقد أصابوا فيه من الخير ما لم يكونوا يحلمون به ، فأما وقد بدأ هو بالعدوان - لسوء رأيه وقلة سياسته - فلم يعودوا يرون حرجاً فى مناصبته العداء ومهاجمته ، ووثبوا به فى أوائل ذى القعدة ١٢٣هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٧٤١م) وخلعوه وأخرجوه من القصر وأقاموا أميرهم بلجاً والياً على الأندلس . وأقام عبد الملك شبه سجين فى دار له بقرطبة تسمى دار ابن أيوب ، وأفلت ابناه قطن وأمية ، فلحق أولهما بأربونة حيث كان يقود جند المسلمين عبد الرحمن بن علقمة اللخمى وكان من أنصار عبد الملك بن قطن ، وجعلا ينظران معاً فيما عسى أن يصنعاه إزاء هؤلاء القيسيين الذين لم يطمئن لهم جنب حتى أنزلوا اليمنية عن الإمارة جملة . وأما أمية بن قطن فلحق بماردة حيث اجتمع عليه نفر من عرب الأندلس وبربرها وأخذوا يتحفزون للأخذ بثأرهم من بلج وأصحابه (٢).

أثار انتصار الشآمية هذا ثائرة أهل البلد جميعاً : عرباً وبربراً وإسباناً ، إذ اعتبرهم الجميع أجانب ينبغى إخراجهم على أية صورة. ولم يقف العرب منهم موقف عربى من عربى ، بل موقف صاحب البلد من غاز أجنبى ، ولهذا نجد قدماء عرب الأندلس - يمنية وقيسية - يثورون على هؤلاء الشآمية يداً واحدة ويحاولون إخراجهم . وتلك هى الفترة التى ظهر فيها

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ - ٤١ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣١ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٨٩ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٣ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٢ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٣ ، ١٧ .

التمييز بين ما يسمى بالبلديين والشآميين ، فأما البلديون فهم عرب طالعة موسى ومن أتى بعدهم من أرسال العرب ، وقد استقروا فى البلد ورسخت جذورهم فى نواحيها قرابة ثلاثين سنة ، وتوشجت بينهم وبين أهلها الأواصر ، وكان معظمهم يمنية ، واليمنية ذات ميل إلى التعمير والاستقرار والهدوء ، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها .

وأما الشآميون فهم هذه الجماعة التى أقبلت مع بلج ، ومعظمهم قيسية ، وقد نظر أهل البلاد إليهم على أنهم أجانب كما قلنا، واجتمعت كلمتهم على حربهم(١)، ولو لم يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة والمهارة الحربية لذهبت ريحهم أو لاندمجوا فى الآخرين . وكان من سوء حظ الأندلس أن يكونوا من خيرة العرب شجاعة وقدرة ، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلديين سجالاً .

ويبدو أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمى لم يجزم أمره على السير لحرب بلج وأصحابه إلا حينما بلغه نبأ مقتل عبد الملك بن قطن الفهرى ، فجاشت نفسه ونفس حليفه قطن بن عبد الملك ومن معهما من البلديين ومن التف حولهما من البربر وأهل البلد لطلب الثأر ، وساروا لحرب بلج ومن معه من القيسية . وأما مقتل عبد الملك فقد وقع بعد ولاية بلج بقليل : ذلك أن عامل عبد الملك على الجزيرة الخضراء أهمل فى أمر رهائن القيسية الشآمية الذين كانوا فى جزيرة أم حكيم ، ولم يرسل إليهم الماء بانتظام ، وكان الماء يُحمل إلى هذه الجزيرة إذ لم يكن فيها ماء . فلما تولى بلج أسرع فأرسل من يفك أسر هؤلاء الرهائن ، فوجدهم على أسوأ حال من الإجهاد والعطش ، ووجد أن أحدهم - وهو غسانى من أهل دمشق - قد مات عطشاً ، فنهض اليمنيون من أهل قرطبة يطالبون بلجاً برأس عبد الملك فداء لابن عشيرتهم الغسانى ، وتلكأ بلج إذ نفرت نفسه من قتل عبد الملك وهو شيخ قد عدا التسعين ، ثم إن مسئوليته عن موت الغسانى لم تثبت ، فشك اليمنيون فى نوايا بلج وظنوه لا يهتم لثأرهم أو يعطف على عبد الملك لأنه من مضر مثله .

وكادت الفتنة تقع بينهم وبينه ، فلما لم يجد من الأمر بُدّاً أباح لهم دمه ، فأخرجوه « وهو شيخ كأنه فرخ نعامة ، وهو ابن تسعين سنة أو أكثر ، حضر الحرة مع أهل المدينة ، ومنها فَلَّ إلى إفريقية ، فأخرجوه ، وهم ينادونه : « يا فالّ! فللتَ من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا (لـ) أكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة ، ثم بِعتَ جند أمير المؤمنين ! » . ثم قتلوه وصلبوا

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

رفاته وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب ، إمعاناً في الزراية والنكاية »[١].

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن علقمة اللخمى وقطن بن عبد الملك ومن معهما من العرب فى إقليم أربونة ، ثارت فى نفوسهم الحمية لطلب الثأر ، وساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الشآميين وحربهم ، وثارت العصبية مرة أخرى فى نواحى الأندلس كلها ، وتسارع اليمنيون للانضمام إلى عبد الرحمن بن علقمة ، وجمع بلج من استطاع جمعه من قيس ومن انضم إليهم من مواليهم من البربر ومن أهل البلد الإسبان . وطبيعى أن يكون جمع اليمنية أضخم لأن معظم البلديين انضموا إليهم ، فيقال إن عددهم بلغ أربعين ألفاً على قول ، ومائة ألف على قول آخر ، فى حين لم يزد من مع بلج عن اثنى عشر ألفاً . وعسكر بلج وأصحابه فى موضع يقال له أقوة بُرطورَة على بريدين من قرطبة [٢].

٨٤ ـ موقعة أقوة برطورة

ولم يلبث عبد الرحمن ومن معه أن أقبلوا بجموعهم ووقع اللقاء بينهم وبين خصومهم ، ولم يعرف عرب الأندلس وقعة بينهم وبين أنفسهم أعنف ولا أحمى ولا أبعد أثراً من هذه ، لقد تفانى الجانبان فى القتال وتساقط الآلاف منهم جرحى ، وحسب عبد الرحمن بن علقمة أنه يضع حداً لهذه المذبحة إذا قتل بلجاً ، وكان عبد الرحمن أعظم مقاتلى الأندلس وأرماهم بالنبل ، فسأل عن بلج فدلوه عليه، ففوق نحوه سهامه ومضى نحوه على عجل وضربه بالسيف ضربتين أصابتا منه مقتلاً . ويبدو أن هجومه زعزع الشآمية عن مواضعها حتى خشى رجالها الهزيمة ، فتصدى له واحد منهم هو الحصين بن الدجن العقيلى قائد خيل جند قنسرين وثبت له وجعل يبعده ومن معه عن الميدان حتى انفرد به وشغله عن المعركة الدائرة ، وانتهز البلجيون الفرصة فهجموا على بقية البلديين هجمة قصموا بها ظهورهم وألحقوا بهم مقتلة شديدة .

واستمر القتال أياماً ، ومات بلج بعد يومين متأثراً بجراحه ، فتولى قيادة الشاميين ثعلبة ابن سلامة العاملى ، ورجحت كفة البلديين حيناً وانهزموا إلى ماردة حيث أقبلت جموع البلديين ومن معهم من البربر تحاصرهم ، وخاف ثعلبة الهزيمة ، فكتب إلى خليفته بقرطبة

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٢ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٣٢ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .
الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
وانظر عن أقوة برطورة : المعجم الجغرافى الملحق بترجمة لافوينتى ألكانترا للأخبار المجموعة ص ٢٤٣ .

أن يخرج لمناجزة أهل البلد . وطال القتال ، وحضر عيد الأضحى ، فشغل به البلديون عن قتال الشآميين ، فانتهز هؤلاء غِرَّتهم ونهضوا فيهم نهضة أزالتهم عن مواضعهم وأنزلت بهم مذبحة وهزيمة عظمى ، وبهذا انتهى هذا الصراع العنيف بهزيمة ساحقة لليمنية والبلديين . وقد كانت الهزيمة ساحقة إلى درجة فَلَّت غربهم وأضعفتهم وأخرجتهم من ميدان السياسة ومن القيادة ، ومن ذلك الحين أخذ معظمهم يتفرقون فى نواحى البلاد ، ويشتغلون بالزراعة والتجارة وما إليهما من أمور المعاش وشئون النشاط السلمى . ومن هنا أهمية هذه الموقعة فى تاريخ البلاد الاجتماعى(١) . ولم يستطع من بقى منهم فى الميدان النهوض من جديد ، إلا حينما أقبل عبد الرحمن الداخل على ما سيأتى ذكره .

واقترب ثعلبة بن سلامة العاملى بمن معه من قرطبة يجر فى ركابه من وقع فى قبضته من كبار اليمنية وذراريهم أسرى ، ونزل عند المصارة(٢) من ظواهر قرطبة وعقد سوقاً لبيع هؤلاء الأسرى ، وقد أراد له لدد العداوة أن يبيعهم لمن ينقص لا لمن يزيد ! فجعل الناس ينقصون حتى بيع واحد من كبارهم بكلب وثانٍ بعود ، واستمرت هذه المهزلة المبكية أياماً(٣) .

٨٥ ـ مجىء أبى الخطار بن الحسام الكلبى

فبينما ثعلبة فى ذلك إذا ضجة تتعالى من بعيد ، وإذا موكب يقترب ، ونظر الجمع فإذا وال جديد للأندلس يقبل ومعه وثيقة التعيين من حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، وهو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ، بعثته العناية فى هذه اللحظة لينقذ أسرى البلديين من هذا البلاء المهين الذى كان ثعلبة ومن معه من الشآميين يصرون على إنزاله بهم . وكان أبو الخطار « رجلاً من خيار أهل الشام من أهل دمشق ، فرضى به الشآميون والبلديون ، وأطلق الأسرى والسبى ، فسمى ذلك العسكر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .
وانظر عن ثعلبة بن سلامة :
الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٦٠٦ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ١٣-١٤ .

(٢) تقع إلى شمالى قرطبة ، ويذكر لافوينتى ألكانترا فى قاموسه الجغرافى الذى ذيل به ترجمته للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت ، (المصارة - المعصرة Almazara بالإسبانية)
انظر الترجمة الإسبانية ، ص ٢٤ هامش.

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

«عسكر العافية» وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبى نسعة وعشرة من قواد الشام، وأمّن ابنى عبد الملك بن قطن، فاستقامت حال الناس بالأندلس، وأنزل أهل الشام بالكور»(١).

وبدأ أبو الخطار ولايته على الأندلس فى ذلك اليوم من رجب سنة ١٢٥هـ (مايو سنة ٧٤٣م). وصادف بدء ولايته ميلاً عاماً من مسلمى الأندلس إلى المهادنة والسكينة بعد ما كان من شرور العصبية، وكانت الحروب قد أنهكتهم وكادت تفنيهم حتى خشوا على أنفسهم غائلة نصارى الشمال، وكانوا قد بعثوا إلى حنظلة وفداً منهم يبسط له سوء حال الأندلس ويرجوه أن يغيثها برجل فاضل يكف القتال ويقر السلام بين الجماعات المتعادية، فتخير لهم أبا الخطار هذا وبعثه فى اللحظة المناسبة على ما رأينا. وقد بدأ أبو الخطار ولايته بدءاً حسناً فأمن أمية وقطن ابنى عبد الملك بن قطن ومن معهما من اليمنيين والبلديين المروَّعين بعد هزيمتهم، وأخرج من الأندلس نفراً من المسرفين فى عصبيتهم من الشآميين وأعادهم إلى إفريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة، وانتهى بعد تفكير إلى ضرورة إبعاد الشآمية القيسية عن قرطبة لكى يخلص من متاعبهم.

٨٦ـ إخراج الشآميين من قرطبة إلى الكور

اقترح عليهم أبو الخطار أن ينتقلوا إلى الأرياف فى الكور، على أن يجعل لهم ثلث ما يجبى من أهل الذمة فى النواحى التى يختارون الإقامة فيها. ولم تفصل لنا المراجع هذا الاتفاق بأكثر من ذلك، فلسنا نعلم إن كان استقرارهم فى هذه النواحى معناه قيامهم بجباية أموالها واحتجاز الثلث لأنفسهم وإرسال

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤٦.
الضبى: بغية الملتمس، ص ٢٦١ - ٢٦٣ رقم ٦٨٦.
وقد أمدنا ابن القوطية بملاحظات طيبة عن ولاية أبى الخطار، فقال: إن هشاماً حينما بلغه ما فيه عرب الأندلس من افتراق وحروب شاور ابن أخيه العباس بن الوليد (يذكر ابن القوطية خطأ أنه أخوه) فنصحه بأن يعدل عن عدائه لليمنية القحطانية لكى يجتذب قلوبهم، فاستمع لنصيحته وولى حنظلة بن صفوان الكلبى إفريقية وأمره بأن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس فمضى أبو الخطار فى نحو ثلاثين رجلاً من الشآميين (من عرب إفريقية، ويسميهم ابن القوطية الطالعة الثانية من الشآميين). وأراد أن يفاجىء عرب الأندلس، فسار متستراً وأخفى لواء الولاية الذى أعطاه إياه حنظلة فى عيبة كانت معه، فلما نزل بوادى شَوْش واقترب من المكان الذى كان الفريقان يتحاربان فيه بقبلى قرطبة، رفع اللواء وأعلن نفسه للفريقين، فتسارعا إليه كل يشكو من الآخر. فاشترط عليهم السمع والطاعة، فأجابوا. وذكر له اليمنيون أنهم لا يحتملون الشآميين ولا بد من إخراجهم عنهم، فطلب إليهم أن يمهلوه حتى يدخل قرطبة ويستريح، ثم يفصل فى أمرهم بالعدل، فأجابوا. وقد بدأ أمره بإخراج ثعلبة بن سلامة العاملى والوقاص بن عبد العزيز الكنانى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى من الأندلس إلى طنجة بإفريقية، ثم ثنى بتفريق الشآميين فى نواحى الأندلس على ما سيأتى بيانه.
انظر: افتتاح الأندلس، ص١٩ - ٢٠.

الثلثين إلى قرطبة ، أو أن عمال والى الأندلس كانوا يجبون الخراج على العادة ويعطون ثلثه لهؤلاء العرب الشآميين . فإن كان النظام الأول فمعناه أن أبا الخطار أقطعهم هذه النواحى مقابل أن يؤدوا ثلثى خراجها دون أن تتدخل الإدارة المحلية فى شئونهم أو شئون الإقليم ، وإن كان الثانى فمعناه أن هذا الثلث الذى كان يُعطى لهم كان معتبراً « عطاء » عن الخدمة العسكرية التى كانوا ملزمين بأدائها بصفتهم جنداً رسمياً مقيداً فى الديوان . ولكن الغالب أنهم استقروا فى هذه النواحى على النظام الأول ، أى « مقطعين » ، لأن شواهد الحوادث بعد ذلك تدل عليه صراحة ، ثم إنه كان – كما سنرى – النظام السائد المتبع فى الأندلس إلى ذلك الحين(١).

حرص أبو الخطار ، وهو يقوم بذلك ، على ألا يمس حقوق البلديين ، وكان هؤلاء قد توزعوا فيما بينهم بعض نواحى الأندلس الخصبة على مثل هذا النظام من المقاطعة : كان كثيرون منهم قد استقروا فى أقاليم سرقسطة وأربونة وباجة وإشبيلية ، فلم يشأ أبو الخطار أن ينْزِلَ هـؤلاء الشآميين إلى جـوارهم ، وقـد أشار عليه بذلك أرطباس بـن غيطشة شيـخ نصارى الذمة ، وكان مقيماً إذ ذاك فى قرطبة متمتعاً بمقام كريم بين العرب وأهل جنسه وعند الولاة ، ويبدو أنه كان مشيراً لهؤلاء ، يسألونه الرأى فيما يحزبهم من شئون البلاد ، وهو بها أعرف ، وقد أشار على أبى الخطار بذلك ، وكان رأياً حسناً ، قبله الشآميون ، فبادر أبو الخطار إلى إنفاذه(٢) .

أقر أبو الخطار كل جماعة من الشآمية آتية من جند بلد واحد فى ناحية ، وكان جند مصر

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

إيزيدور الباجى، الجزء المنشور ذيلاً للأخبار المجموعة ، الفقرات من ٦٤ إلى ٦٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٣٤ .

المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١١ – ١٤ .

ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٠٤ .

ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٨–١٩ .

DOZY. Musulmans d'Espagne. I. pp. 168 - 169

E. LEVI-PROVENCAL. Histoire de l'Espagne Musulmane, I. pp. 34 - 35 .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، جـ١، ص ١٠٩ البيان المغرب (طبعة كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٥١)جـ٢ ص ٣٣

DOZY. Recherches. I.pp. 79-80

SIMONET. Historia de los Mozàrabes de Espana . pp. III,197-198.

E. LEVI-PROVENCAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, p. 35. note I.

أكثرهم عدداً فأنزلهم فى ثلاث نواح هى : أوكشونبة وباجة وتدمير (مرسية) ، وأنزل جند حمص فى إشبيلية ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند الأردن فى ريُّه (ناحية مالقة) ، وجند دمشق فى البيرة ، وجند قنسرين فى إقليم جَيَّان ، وبهذا تفرق هذا الجند المشاغب فى نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم إلى حين ، وكان إنزالهم بعيداً عن مواقع البلديين الأول سبباً فى سكون هؤلاء واطمئنانهم لعدل أبى الخطار ، فأقاموا «على ما بأيديهم من أموالهم لم يتعرض لهم فى شىء منها » . فلما وجد الشآميون أنفسهم فى بلاد « تشبه بلادهم ، و [فى] توسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا »(١).

فاستقر الكثير منهم فى الأرض وأخذ يعمل فيها ، وشغلوا بذلك عن منازعات السياسة والعصبية ، ولم يلبثوا أن كثرت أموالهم ، وكان فى ذلك خير كثير للأندلس وأهله .

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة لصلحت الأحوال وانتهت هذه العصبية البغيضة التى مزقت عرب الأندلس إلى ذلك الحين شر ممزق ، ولكنه لم يلبث أن انحرف عن الجادة ومال إلى عصبيته الكلبية اليمنية ، وكان سبب ذلك مقتل صديق له عزيز عليه هو سعد بن جوَّاس ، فاتهم الشآمية القيسية بقتله ، وأخذ يتحيفهم ويُنزل بهم ما يستطيع من الأذى(٢) ، فاستعرت نيران عصبيتهم من جديد ، وبدا بوضوح أن الأندلس مشتعل مرة أخرى بنيران هذه العصبية على صورة أشد مما رأى فى سابق الأيام . وحدث أن مَعْدياً كنانياً من الشآمية اختلف مع كلبى فشكاه الكلبى إلى أبى الخطار ، فجار هذا فى حكمه على المعدى (العدنانى) ، فذهب إلى شيخ من كبار الشآمية يسمى الصميل بن حاتم بن شمر - ويلقب بذى جوشن - يشكو له ما أصابه ، فمضى هذا إلى أبى الخطار . وكان أبو الخطار يتخوف الصميل ، لأن أمر القيسية كان قد انتهى إليه وفاقهم بالنجدة والسخاء ، وتوجس منه أبو الخطار شراً .

٨٧ـ ظهور الصميل بن حاتم

فلما أقبل الصميل إلى أبى الخطار فى شأن العدنانى انتهز أبو الخطار الفرصة وأحب أن يشفى بعض لدد نفسه منه ، فلكزه وشتمه وأمر جنده أن يضربوه ، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه ، فخرج وقلبه يتلظى بنيران الثأر ، وعاد إلى داره بقبلى قرطبة فجمع كبار قومه وأخذ يشاورهم فى السبيل التى يستطيعون بها أن يغسلوا هذه

(١) فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٦٩ .

الإهانة ويدركوا ثأرهم من أبى الخطار واليمنية[١] .

وكان الصميل فى ذاته شخصية غريبة جداً ، تكاد تعتبر فى ذاتها نموذجاً لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الإسلام بخيرهم وشرهم ، وظلوا فيه على حالهم لم يكد الإيمان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئاً ، وقد وصفه دوزى وصفاً لطيفاً لا بأس من إيراده لدقته : « لم يكن الصميل رجلاً عادياً لا فى الخير ولا فى الشر ، وكانت نفسه بطبيعتها خيرة كريمة ولكنها كانت خاضعة لقوتين متكافئتين من الخير والشر ، متعالية جياشة عنيفة لا تنسى ثأرها . كانت نفسه مهيأة تهيئة قوية ، ولكنها كانت جاهلة نشيطة خاضعة للغريزة يقودها الحظ كيف شاء ، كانت خليطاً غريباً من الملكات المتعارضة أشد التعارض . كان يبدو نشطاً مثابراً إذا ما استثيرت عواطفه ، فإذا هدأت ثورة نفسه بدا كسولاً قليل الاكتراث . وكانت هاتان الخصلتان الأخيرتان أقرب إلى طبعه .

وكان كريماً واسع العطاء ، وكانت تلك صفة يقدرها أصحابها أكثر مما قدروا غيرها ، وقد بلغ من كرمه أن شاعره كان يحرص ألا يزوره إلا مرتين فى العام ، مرة فى كل عيد ، حتى لا يستنفد الصميل ماله ، إذ كان أقسم أن يهبه كل ما عنده مهما رآه . وكان لكل سيد عربى شاعره ، كما كان الحال عند سادة العشائر الاسكتلندية . ولم يكن الصميل مع ذلك رجلاً متعلماً ، إذ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب[٢] ، على الرغم من غرامه بالشعر ، وبالشعر الذى يدور حول مديحه بوجه خاص ، وعلى الرغم من أنه كان ينظم الأبيات منه بين الحين والحين، وكان أصحابه يرون أنه أتى بعد زمانه[٣]. بيد أنه كان خبيراً بالحياة لا يكاد يفوته من وجوهها شىء ، حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يقررون أنه نموذج كامل للأدب . وشخصية الصميل كانت استمراراً لهذا الطراز من أشراف العرب القدماء المسرفين فى حبهم للحياة ، والذين لم يكونوا مسلمين إلا بالاسم ، فقد كانت أخلاقه منحلة ، وكان

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .
فتح الأندلس ، ص ٣٧ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .
(٣) إشارة إلى قول أرطباس للصميل فى حديث له معه : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر علىَّ برَّ من بررت » ، أى : أن أدب الإسلام لم يؤثر فى نفسه ، وظل جاهلى الطبع والخلق والنزعات.

DOZY, Musulmans d'Espagne (2ème éd- Layde1932) , I p . 173-174 .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

لا يكاد يحفل لشىء من أشراط الدين : فكان يشرب الخمر على الرغم من نهى الدين عنها ، فكان يسرف فى الشراب حتى لينام كل ليلة سكران [١] .

فأما القرآن فقد كان لا يعرف منه شيئاً ، ولم يكن ليهتم بتعرف هذا الكتاب ، إذ إن مبادئه التى تدعو إلى المساواة كانت تمس كبرياءه . ولقد خطر يوماً بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فقال الصميل : «نداولها بين العرب » فقال له المؤدب : « بين الناس » ، فقال الصميل : « وهكذا نزلت الآية ؟» ، قال له : « نعم ! » قال الصميل :« والله إنى أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل !»[٢]. ولا نزاع فى أن الكثيرين جداً ممن شارك فى فتح الأندلس وساهم فى هذه الحروب القبلية بضلع عظيم كان من هذا الطراز ، وهذا ما يفسر إسرافهم فى حروبهم العصبية التى نحن بصددها .

٨٨ـ هزيمة أبى الخطار وولاية ثوابة ابن سلامة العاملى

فلما انتهى الصميل إلى داره فى عقدة الزيتون قبلى قرطبة ، جمع من لقى من الشآمية ومضى يستشيرهم فيما هو فاعل . وكان يحس قلة الشآمية القيسية أمام الكثرة اليمنية الكلبية التى كان أبو الخطار يرأسها ، فثاب له رأى فى التقرب إلى اللخميين والجذاميين من اليمنيين وعرض الرياسة عليهم مقابل معاونته فى حربه مع أبى الخطار ، وكان يوسف الفهرى شيخ اللخميين حانقاً على أبى الخطار متلهفاً على فرصة يشفى فيها لدد نفسه فاستصوب الشآمية رأيه . ولم تكن القيسية إذ ذاك على اتفاق تام، إذ كانت غطفان منحرفة فى استجة ، لأن شيخها أبا العطاء كان يحسد الصميل على رياسته للقيسية دونه ، لهذا بادر الصميل بالتوجه إلى استجة واسترضى أبا العطاء وكسبه إلى جانبه ، ثم مضى إلى مورور حيث كانت منازل جذام وشيخها ثوابة بن سلامة العاملى . وبهذا جمع الصميل بنشاطه وذكائه عصبة قوية من قيس ولخم وجذام وغطفان ، واجتمع رجال هذه القبائل فى شذونة وعولوا على السير إلى قرطبة وعزل أبى الخطار[٣].

وعجل أبو الخطار بالخروج للقاء الشآمية وهو لا يشك فى الظفر ، ولم يكن يدرى بما دبره

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧١ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .
(٣) DOZY, Musulmans d'Espagne, I. pp. 173 - 174 .
الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٣٥ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٧ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٥٧ .

الصميل من استمالة لخم وجذام وإضعاف جبهة اليمنية ، وكان اللقاء عند وادى لكه الذى شهد إلى اليوم من حروب المسلمين شيئاً كثيراً . وقد تقاعس معظم الكلبية عن قتال بنى عمومتهم جذام ولخم ، ثم تركوا أبا الخطار فى قلة وولوا مدبرين، فلبث بعض الوقت حتى اضطر إلى الفرار ، فإذا هو جـاد فى فراره يريد قرطبة وقع أسيراً فى يد أعدائـه ، فكبَّلوه بالحديد ، وتولى ثوابة بن سلامة العاملى أمر الأندلس بحسب ما تم بين الصميل رأس القيسية الشآمية وأبى العطاء رأس غطفان ، وثوابة هذا سيد لخم وجذام (رجب سنة ١٢٧هـ / أبريل سنة ٧٤٥م)[١].

لم تدم ولاية ثوابة إلا عاماً وبعض عام ، ولم يحدث فيها من جليل الأمور إلا محاولة أبى الخطار استعادة الولاية وجمعه نفراً من اليمنية وسيره إلى قرطبة ، وقد اندحر أبو الخطار وتبدد كل أمل له فى الولاية ، واختفى من صفحات التاريخ الأندلسى بحيلة ماهرة دبرها هذا الرجل الماهر الصميل بن حاتم : حينما عسكر الجيشان وجهاً لوجه وأخذا يستعدان للحرب ، انتهز الصميل فرصة هبوط الليل وبعث رجلاً من معد وقف بمعكسر اليمنية وناداهم مؤكداً لهم أنه إنما يقول ما يقول حقناً للدماء لا خوفاً من القتال ، وجعل يسفه أحلامهم فى السير لنصرة أبى الخطار وحرب بنى عمومتهم من لخم وجذام ، ويُذكِّرهم بأن القيسية لو كانت تريد قتل أبى الخطار لقتلته وقد كان بيدها بالأمس أسيراً ، وأنهم لا ينبغى أن يخشوا شيئاً من ثوابة لأنه جذامى وجذام يمنية ، ففعلت هذه الكلمات فعلها فى نفوس اليمنية الكلبية وانفض معكسرهم وعادوا إلى مواطنهم، وهكذا فسد أمر أبى الخطار وضاع أمره ، واستطاع الصميل أن يكسب الموقف بذكائه وقدرته[٢].

وصفا الأمر لثوابة حيناً ، ولكن ولايته لم تدم طويلاً كما ذكرنا ، فقد عاجله الموت بعد عام من انتصاره الأخير على أبى الخطار . ولم يكد يختفى من الميدان حتى هب ابنه عمر يطالب بأن يخلفه فى السيادة . ونهض لمنافسته يحيى بن حريث رأس جذام وأحد كبار العرب الذين كوَّنوا هذا الحلف .

٨٩ ـ الصميل ابن حاتم يمهد الطريق ليوسف الفهرى

وكان الصميل يستطيع أن ينادى بنفسه أميراً على الأندلس فى ذلك الحين ، لأنه كان بالفعل رأس العصبة القائمة بالأمر ومصرِّف شئون البلاد ، ولكنه كان أذكى من أن يُنفِّر أحلافه من اليمنية بمثل هذا العمل ، وكان لا يرضى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٥٨ .

كذلك أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين مخافة أن يستبد به وبجماعته ، فمضى يبحث عن شخص يرضاه اليمنيون ويأمن جانبه القيسيون ، ثم يكون إلى ذلك ضعيفاً سهل القياد حتى يملك زمامه .

وهداه البحث إلى يوسف الفهرى سيد الفهريين فى الأندلس ، وكان للفهريين مقام ممتاز عند العرب أجمعين إذ ذاك ، لأنهم ذؤابة قريش وكانت قريش فى هذه المنازعات كلها حياداً لا تسرف فى الميل إلى فريق دون فريق ، وقد عجل الصميل بتثبيت أمر يوسف حتى يفسد على يحيى بن حريث سيد جذام مطامعه فى الإمارة . وكان يحيى شديد الكراهية للشآمية ، وكان يقول : « لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها » [١] ، فكره الصميل - وهو شآمى قيسى - أن تصير الإمارة إليه فيصيب قومه منه شر ،. فلما تم أمر يوسف الفهرى سعى الصميل حتى أقام يحيى بن حريث عاملاً على ريه ترضية لنفسه ولقومه[٢] .

من ذلك اليوم أصبح أمر الأندلس فى واقع الأمر بيد الصميل بن حاتم ، فقد كان يوسف الفهرى رجلاً سهل القياد عالى السن ، فمضى الصميل يصرف الأمر كما يشاء، وكان كما لاحظنا رجلاً كيساً واسع الحيلة ، فلم يعسر عليه قياد بقية الزعماء . وقد استطاع هذا الرجل أن يكسب ود من تحالف مع القيسية الشآمية من معد ، فقوى أمره وأمر صاحبه الفهرى .

فإذا استقر الأمر للصميل على هذا النحو فقد بدأ يفكر فى التخلص من يحيى بن حريث جملة ، وكان يحيى كما عرفنا شديد الكراهية للشآمية ، وكان لا ينفك منازعاً للصميل مهدداً أمره . فبادر الصميل بعزله عن ولاية رِيُّه قبل أن تثبت قدمه ويشتد ساعده فيها ، فلم يكد العزل يبلغه حتى نفر وقومه للحرب . وسعى حتى وضع يده فى يد أبى الخطار سيد الكلبية اليمنية الذى كان يعيش فى قومه ببعض نواحى إشبيلية مهملاً ضعيفاً بعد هزيمته[٣] ،

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٠ .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) يذكر صاحب الأخبار المجموعة أن النزاع على الولاية كان شديداً بين يوسف الفهرى ويحيى بن حريث وعمرو بن ثوابة (يكتبه ثوابة بن عمرو خطأ) .
الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٣) كانت قضاعة قبل إجماع عرب الأندلس على يوسف الفهرى ، قد تعصبت لأبى الخطار وقام شيخها عبد الرحمن بن نعيم الكلبى فجمع مائتى رجل وأربعين فارساً وهاجم قرطبة واستنقذ أبا الخطار ومضى به إلى كلب وأقره فى ناحية إشبيلية .
الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ .

وهكذا اتفقت كلب كلها على محاربة الصميل ومن معه من قيس ، وشعر الصميل بالخطر وعرف أن يحيى فاعل به وبقومه الأفاعيل إذا قُدِّر له النصر ، ولهذا عجل فاستنفر المعدية القيسية كافة ، فتسارعوا إليه .

وكان من لطف المقادير أن الدعوة إلى الحرب لم تمس إلا عرب جنوب الأندلس وحدهم، فبقى أهل الشرق والشمال الشرقى والغربى فى مواطنهم لم تحرك الدعوة منهم ساكناً ، ولهذا سينحصر الصراع المقبل فى حدود ضيقة ، ولن يكون له من النتائج السيئة ما كان لما سبقه من الحروب التى أتينا عليها .

١٠ـ موقعة شقندة سنة ١٣٠هـ (٧٤٧م)

وكان القتال بين الجانبين هذه المرة فريداً فى بابه ، يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله[١]: «فلما رأت قضاعة ما يدعو إليه ابن حريث أحبوا جمع كلمة اليمن كلها ، فأجابوا ابن حريث وقدموه فأصفقت يمن الأندلس حِمْيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها . واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل . فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند ، وتجرع أهل البلد بتجرع أهل الشام ، ولحق خيار مضر بيوسف والصميل ، لا يعرض أحد لأحد: يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضاً حتى يلحق كل رجل بقومه (!) وهى أول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة .. فزحف ابن حريث وأبو الخطار إلى يوسف والصميل بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة (الوادى الكبير) بقبليها بقرية شَقُنْدة .

وعبر يوسف والصميل النهر إليهما بمن معهما ، فالتقوا حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح . وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا إلى البراز ، فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت (هكذا فى النص والأصح تقصفت) ، ثم تقابضوا بالأيدى والشعور (!) لم يكن فى الإسلام صبر مثله إلا ما يذكر من صِفِّين . ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وإنما كانوا خياراً من الفريقين وكانوا متقاربين ، إلا أن اليمن كانوا أكثر قليلاً . فلما أعيى بعضهم بعضاً تواقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسى والجعاب ، ويحثى (هكذا وصحتها يحثو) بعضهم التراب على بعض .. إذ قال

(١) وصف ابن القوطية هذه الوقعة وصفاً موجزاً .
انظر : الافتتاح ، ص ٢٠
وذكرها ابن عذارى ببعض التفصيل : البيان ، جـ٢ ، ص ٣٧

الصميل ليوسف : ما وفقنا إذ خلفنا جنداً نحن عنهم فى غفلة ! قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة ! فرد إليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب [...] فأخرجا منهم نحواً من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق ، فخرج الجزارون بسكاكينهم ، فجاءوا إلى قوم موتى ، وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوف ولا أمن ، وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً خياراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين.

وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التى بموضع بيع الخشب ، فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس علىَّ فَوت ، ولكن عندهم ابن السوداء ابن حريث ! فدل عليه ، فأخرج وقتلا جميعاً ، وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جُمِعت لى فى قدح لشربتها! فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء ! هل بقى فى قدحك شىء لم تشربه ؟»(١).

تلك كانت خاتمة أبى الخطار الذى أتى ليصلح الأمور فزادها سوءاً ، وأراد أن يستنقذ اليمنية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة من ساروا معه ، ودفع اليمنية إلى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها إلا فى ظلال عبد الرحمن الداخل وإمارة قرطبة ، وأصبحت الأندلس من تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهرى فى الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم فى واقع الأمر .

٩١ـ مأساة أسرى شقندة

وأحب الصميل أن يشفى أحقاد نفسه ، فسار بالأسرى مصفدين وقعد لهم على باب جامع قرطبة ، وكان من قبل كنيسة القديس بِجِنْتُ (فِينتو - فنسنت) ، وجعل يقضى فى أمرهم بالموت واحداً واحداً فى لذة ووحشية واستخفاف يثير النفس ، فلما ضرب أوساط سبعين منهم ثارت نفس حليفه أبى العطاء شيخ جذام ، فقام ينهاه ، ولكن الرجل رده وقال له فى نشوة الانتقام : «اقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك» ومضى فى هذه المذبحة البشعة حتى لم يطق أبو عطاء الصبر ، وخشى أن يكون الصميل القيسى يسرف هذا الإسراف فى التشفى من اليمنية رغبة منه فى القضاء عليها ، وتحركت فى أبى عطاء يمنيته ، فقام إلى الصميل يقول : « يا أعرابى ! والله إن تقتلنا إلا بعداوة صِفِّين ، لتكُفَّن أو لأدعون بدعوة شآمية » ، وبهذا التهديد وحده خاف الصميل وكفَّ عن هذا

---
(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٩ - ٦٠ .

العمل البشع (١) .

٩٢ـ المجاعة تجتاح الأندلس واستقامت الأمور ليوسف الفهرى والصميل بن حاتم بعد هذا النصر الحاسم على من كانوا يناوئونهما من اليمنيين ، وكان الصميل كما رأينا شخصية قوية بعيدة الطموح ، فى حين كان يوسف الفهرى رجلاً مسناً فى نفسه خمول ، فجعل الصميل يصرف الأمر من دونه . ويستبد به حتى سئم الرجل وفكر فى الخلاص من هذه الوصاية التى يفرضها عليه هذا القيسى القوى . فعرض عليه أن يقيمه حاكمًا على إقليم سرقسطة ، وقَبِل الصميل ذلك ، وكان إقليم سرقسطة موطن معظم اليمنيين ، فأراد يوسف أن يذلهم بهذا القيسى القح(٢) . وكانت البلاد تعانى إذ ذاك مجاعة حادة لم يسلم من شرها إلا إقليم سرقسطة بفضل مياهه وخيراته ، فكان ذلك مما مال بالصميل إلى إطاعة أمر يوسف .

وأما أسباب هذه المجاعة فترجع إلى هذه الحروب العنيفة التى وقعت بين العرب : شامية ويمنية ، وبين العرب والبربر . وقد رأينا أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان ، وإنما امتد شرها حتى شمل سكان البلاد جميعاً وأقاليمها كلها ، وقد رأينا أن العرب انجفلوا من المواضع التى كانوا قد استقروا فيها فى الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد ، وأقبل البربر فى أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون إلى الجنوب ، ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة ، وتتبعهم هؤلاء بالأذى فى كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد ، وأخذوا يهجرون الأندلس ويعودون إلى مواطنهم الأولى فى إفريقية جماعات(٣) .

هكذا فقدت النواحى أعداداً عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارتها ، فلا غرابة أن تقل المحاصيل وتتعرض البلاد لخطر المجاعة . ثم إن هذه الحروب المتوالية بين العرب حيناً وبين العرب والبربر حيناً آخر قد دارت رحاها فى الأقاليم الخصبة المزروعة فى الجنوب والجنوب الشرقى ، فخرب كثير من المزارع واضطرب أمر زراعها ، وزادت المحاصيل قلة تبعاً لذلك .

وانتهز النصارى الإسبان الفرصة وأخذوا ينحدرون إلى الجنوب واحتلوا المنطقة الواسعة

(١) نفس المصدر ، ص ٦١ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .
(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

الواقعة بين نهرى دويره وتاجه وأخذوا يغازون المسلمين ، فانضاف إلى الأندلس الإسلامى بلاء آخر جديد كانوا قد ظنوا أنهم استراحوا منه [١] ، واجتمعت العوامل كلها فزادت الأمر حدة ، واشتد الجوع وعظمت البلوى وانعدم الأمن حتى تقطعت الصلات بين النواحى ، وبلغ من الأمر أن صاحب الأخبار المجموعة يذكر أن يوسف الفهرى احتاج مرة إلى رسول يبعثه إلى الصميل فى سرقسطة فلم يجده ، إذ كان الرسل القادرون جميعاً قد هلكوا، وانقطعت المواصلات أو كادت بين قرطبة وسرقسطة[٢].

دامت هذه الحال خمس سنوات من سنة ١٣١ هـ إلى سنة ١٣٦ هـ/ ٧٤٩-٧٥٥م، وكانت هذه السنة الأخيرة هى أقساها وأشدها ، مما أدى إلى زيادة هجرة الناس إلى إفريقية .. «وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة ، يقال له وادى برباط ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم »[٣]. إلى هذا الحال انتهى بمسلمى الأندلس تناحرهم بسبب العصبية وبسبب الرغبة فى إذلال البربر والاستبداد بالأمر كله دونهم ، وسنتحدث عن ذلك بتفصيل أَوْفَى حينما نتحدث عن مبادىء حركة الإسبان النصارى .

وقد سلم من هذه المجاعة الشديدة إقليم سرقسطة على ما قلناه ، لأن عربه أقاموا فى مواضعهم لم يشتركوا فى هذه الحروب الدامية إلا بنصيب قليل ، ولأن من كان يساكنهم من البربر فى هذا الإقليم أقعدته كثرتهم عن أن يثب بهم ، فلم تمتد نيران الحروب بين العرب والبربر إلى إقليم سرقسطة ، وبقى الإقليم كله على حاله من الرخاء ووفرة الخير ، فلما وصله الصميل وجد قومه فى سعة ، ووجد جماعات العرب الذين مستهم المجاعة فى أقاليم أخرى يتوافدون إليه انتجاعاً للخير ، وفطن الصميل إلى أن يوسف إنما بعثه إلى هذه الناحية لكى يذل أهلها من اليمنيين ، ولكى تقع البغضاء بينه وبينهم ، فيشتغل بهم ويشتغلوا به ويخلص الأمر ليوسف ، فعوَّل على كسب قلوب أعدائه ، ففتح خزائنه ومضى يعطى بكلتا يديه متناسياً عصبيته القيسية لكى يفوِّت على يوسف غرضه . وكان الصميل داهية واسع الذكاء، ساخراً من كل شىء ، لا يكاد يفعل أمراً عن إيمان ، قال صاحب الأخبار المجموعة : « فلم

(١) DOZY, Recherches, I . pp. 116 Sqq .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

بأنه صديق أو عدو فحرمه ، فازداد سؤدداً ، وأقام بها أعوام الشدائد التى تتابعت»[١].

٩٢- اليمنيون يثورون على الصميل فى سرقسطة

وأقام يوسف يدبر الأمر وحده فى قرطبة بما عرفناه فيه من الضعف وقلة الرأى ، وكان لا يحزبه أمر إلا بعث يسأل الصميل فيه ، فلما اشتدت المجاعة وعدم الرسل ساء أمره وبدأ الناس يتجهمون له. وكان فى قرطبة إذ ذاك فتى من بنى عدى بن عبد الدار يسمى عامر بن هاشم ، وكان فارساً نجداً يلى الصوائف قبل ولاية يوسف والصميل ، فجعل يوسف يكيد له خوفاً منه وغيرة مما كان الفتى يتمتع به من عظيم المكانة ، وأحس هذا بما يدبر له الصميل فسارع بالكتابة إلى المنصور خليفة العباسيين يسأله توليته الأندلس وبعث سجل الولاية . وكان عامر يمنياً ساءه ما صنع يوسف والصميل باليمنية ، وخاف أن يفعل الصميل مثل ذلك بيمن سرقسطة ، فأخذ يستعد للوثوب بيوسف وابتنى لنفسه حصناً كبيراً فى منية بغربى قرطبة « فأغلق غلقة عظيمة كاد أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه إمداد اليمن ، وضعف سلطان يوسف حتى كان لا يركب معه خمسون رجلاً من حشمه»[٢]. ووقعت الوحشة بين الرجلين ، ولولا أن يوسف كان بطبعه جباناً متردداً لوقعت الحرب . ولكنه فضل أن يبدأ بسؤال الصميل رأيه ، فنصحه هذا بالتدبير عليه وقتله ، فلم يكد عامر يعلم بذلك حتى شعر بأن حياته أصبحت فى خطر ، واتجه همه إلى أن يقوم بعمل حاسم إزاء يوسف الفهرى وصاحبه الصميل[٣] .

كان الرجل يمنياً كما قلنا ، ففكر فى الالتجاء إلى ناحية تكون لليمن فيها عزوة وكثرة ، ولم يكن فى الأندلس أكثر يمناً من إقليم سرقسطة ، حيث أقام الصميل محاولاً جهده استلاف الناس والتحبب إليهم ، فكتب عامر إلى زعيم من زعماء يمن سرقسطة يسمى الحباب (أو الحبحاب) بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى- وكان سيد بنى زهرة من كلاب يمت إليه بالقرابة - يعلمه بأن لديه سجل أبى جعفر المنصور ويدعوه إلى معاونته للخلاص من سيادة القيسيين ، واستخفت الدعوة الزهرى فنهض مع عامر بنفر من قومه ، واجتمعت إليهما كذلك أعداد من اليمنية ، وسار جمعهم وحاصروا الصميل فى سرقسطة[٤].

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ - ٦٤ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦٥ .

ويبدو أن الخطر على الصميل كان شديداً لأنه بعث يستنجد بمن أمكنه الاستنجاد به من القيسية ، كتب إلى جُنْدَىْ قنسرين ودمشق ، ويبدو كذلك أنهم تقاعسوا عنه ، لأنه ألح عليهم . وجعل يقول إنه يجتزىء منهم بالقليل ، فنهض لعونه سيد من كلاب يسمى عبيد الله بن على وجمع له عدداً من قبائل كلاب ومحارب وسليم وهوازن ، وتقاعس من القيسية سيد جند قنسرين الحصين بن الدِّجن العقيلى وسيد جند دمشق سليمان بن شهاب ، ولم ينهض للعون إلا بنو عامر بن كلاب وشيخهم عبيد الله وبنو نمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسُلَيم بن منصور ثم تابعتهم غطفان . فلما اجتمعت معظم قيس على هذا النحو لعون الصميل شعر الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب أن قعودهما عن عونه ليس بضائره فنهضا بمن معهما . واجتذبت الدعوة كذلك أتباع بنى أمية ومواليهم فى الأندلس ، وكان معظمهم مقيماً فى جند دمشق بناحية البيرة . فنهض زعماؤهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت ، وكانوا من أنصار يوسف والصميل ، وبهذا تحركت قيس جميعها لغياث هذا الصميل الذى فعل بالأندلس الأفاعيل . بيد أننا لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير أعداد من نهض لعون الصميل ، فإن كل طائفة لم تنهض إليه إلا ببضع مئات ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا قد قلوا إذ ذاك قلة ظاهرة .

٩٤ـ الحرب بين القيسية والكلبية فى سرقسطة سارت هذه القوات لحرب اليمنيين ومن معهم من البربر الذين كانوا مقيمين على حصار سرقسطة ومن فيها من القيسية . وكان معظم هذه القوات من القيسيين لا تفكر إلا فى القضاء على اليمنية ، وكان فيهم نفر من موالى بنى أمية كما قلنا ، ولم يكن هؤلاء الأمويون يفكرون فى أمر الصميل بقدر ما كانوا يفكرون فى أمر فتى من بنى أمية كان إذ ذاك مقيماً فى العدوة الأخرى بشاطىء إفريقية عند برابر نفزة ، وكان قد أرسل مولاه بدراً إلى الأندلس ليلقى هؤلاء الموالى الأمويين ويدعوهم إلى أمره .

وصلت جموع القيسيين إلى طليطلة ، ويبدو أنها استغرقت وقتاً طويلاً فى التجمع والسير، فأمكنت اليمنيين الفرصة لتشديد الحصار على الصميل ومن معه حتى ساءت حالهم . وأقبلت رسلهم إلى طليطلة تستحث القيسيين فى سرعة السير ، فعجلوا بإرسال فارس منهم برسالة إلى الصميل تؤكد له إسراعهم إليه بالعون ، وتسلل الرجل بها بين فرسان عامر وزهرة المحاصرين للصميل ، وربط الرسالة بحجر ثم ألقى بها إلى المحصورين ، ولم يكن فيها إلا البيتان الآتيان :

تبشَّرْ بالسلامة يا جدارُ أتاك الغوث وانقطع الحصار
أتتك بنات أعوجَ ملجَمات عليها الأكرمون وهم نزار

فناولها الصميل لمن قرأهما له - فقد كان الرجل لا يقرأ - فلم يكد يسمع الأبيات حتى استبشر ونادى فى قومه يعلمهم بالخبر ، وسرى فى نفوس المحصورين الفرح والحماس ، ونهضت همتهم بعد أن كانوا قد أشرفوا على التسليم . وتسامع اليمنيون المحاصرون للصميل بذلك فخافوا أن تنزل بهم الهزيمة إذا انتظروا حتى تقبل هذه الأمداد القيسية ، فتفرقوا ، وخلص الصميل من هذا الحصار دون مشقة أو قتال . وأقبل القيسيون ومن معهم من الأمويين فاستقبلهم الصميل استقبال الخير والسلامة، « وأعطاهم العطاء الجزيل : أعطى خيارهم خمسين ديناراً ، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة وشقة شقة خز ، ثم أقبل معهم إلى قرطبة . فلما فرغ الصميل وأصحابه من الاحتفال بالنصر انتهز الأمويون الثلاثة الفرصة ليكلموا الصميل فى أمر صاحبهم عبد الرحمن بن معاوية»[١].

وسنقف هنا بأخبار هذه الفتن القبلية ريثما نلقى نظرة على وجوه أخرى من نشاط مسلمى الأندلس فى ذلك العصر ، ولنُلِمّ بظواهر أخرى لا تقل عنها أهمية بالنسبة لمستقبل الإسلام فى الأندلس . سنتحدث عن الأعمال العسكرية التى قام بها المسلمون فيما يلى شبه الجزيرة الايبيرية إلى الشمال من أرض أوروبا ، وسندرس ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة وشمالها الغربى .

* * *

(١) عن هذه الحوادث انظر :
الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ - ٦٩ .
ابن عذارى : البيان المغرب ،ج٢ ، ص ٤٣ - ٤٥ .
فتح الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها.
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٥ - ٥٠ .

الفَصل السَّابع

فتوح المسلمين فى غَـالة

وقفنا بالفتوح الإسلامية عند نهاية الأعمال العسكرية التى قام بها موسى بن نصير فى نواحى سرقسطة وما يلى طليطلة إلى الشمال الغربى وما يلى وادى الحجارة إلى الشمال ، ولكننا لم نفصل أعماله فى شمال سرقسطة لأنها أدخل فى باب فتوح المسلمين فى منطقة البرت[١] وما وراءها .

يذهب بعض المؤرخين إلى أن موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحا أربونة وأبنيون وواصلا التقدم حتى بلغا ليون فى فرنسا[٢]، وهى الحد الأقصى لفتوحات موسى وطارق بحسب ما يذكره هؤلاء المؤرخون . وليس من الممكن أن يكون موسى وطارق قد عبرا البرت وصعدا مع نهر رُدانُه[٣]، حتى بلغا ليون ، وليس بين أيدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم . وأما فتوحهما فى نواحى برشلونة والركن الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة فتحتاج إلى شىء من الدرس حتى يتضح مداها على وجه قريب من الصحة .

يذهب مؤرخونا إلى أن موسى حينما أتاه رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك - على ما ذكرنا - لم يتعجل العودة وإنما دفعه ذلك إلى الإسراع ومضاعفة الهمة فى الغزو حتى يستكمل فتوح شبه الجزيرة قبل أن تأخذ عليه الظروف سبيل إدراك هذه الغاية . فعبر نهر ابْره ومضى نحو الشمال الغربى دون أن يمر ببَنْبَلُونة وغزا بلاد البشْكُنس فيها حتى أتى قوماً كالبهائم - كما يقول ابن عذارى[٤] - ثم اتجه نحو الشمال فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها، حتى إذا بلغ لُك (Lugo - Lucus Asturum) أدركه رسول ثان من قبل الوليد يأمره بالعودة إلى دمشق ، فلم يستطع مخالفة الأمر هذه المرة فَكَرَّ راجعاً وانضم إليه طارق واتجها

---

(١) جبال البرت أو البرتات هى المعروفة عندنا خطأ بالبرانس . والبرت هو اللفظ اللاتينى **Porta** أى الباب أو الممر فى الجبال ، ولهذا تسمى فى العربية أيضاً بجبال الأبواب .

(٢) المقرى : نفح الطيب . جـ ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) رُدَانُه هى الصيغة العربية لاسم نهر الرون ، وهى مأخوذة عن اسمه اللاتينى **Rhodànus** .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

جميعاً نحو قرطبة ومنها إلى المشرق(١) وانتهى دوره فى الفتوح الإسلامية بعد أن قام بدور يضعه فى الصف الأول من الفاتحين المسلمين .

ولم يجد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته القصيرة التى لم تزد على سنتين وأشهر فراغاً يُمكِّنه من القيام بالغزو والفتح فيما خلا سيره إلى ناحية تدمير ، وعقده المعاهدة التى ذكرناها مع صاحبها تدمير ، مدة ولايته ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه افتتح مدناً وحصوناً كثيرة ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً على وجه التحديد مما يدل على أن جهده فى الفتوح أثناء ولايته كان قليلاً جداً (٢).

ويبدو أن خليفته أيوب بن حبيب كان أكثر منه انصرافاً إلى الغزو على الرغم من قِصَر ولايته ، ولم يحدد لنا المؤرخون النواحى التى صرف إليها نشاطه ، ولكن الغالب أن جهوده وجهت نحو شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقى ، ويذكر الأسقف رودريجو الطليطلى أن أيوب هـذا هو الذى ابتنى البلـد المعروف بقلعـة أيوب (Calatayud) إلى الشمال الشرقى من طليطلـة ، وكان فى موقعهـا حصن رومـانى قديم يسمـى (Bilbilis)(٣).

٩٥ـ بدء الغزوات فيما وراء جبال البرت وتتفق المراجع على أن الحـر بن مالك – خليفـة أيوب – كان رجـلاً ذا نشاط ملحوظ فى الغزوات فى غالة وما وراء البرتات ، ولم يذكر شيئاً مفصلاً عنها إلا إيزيدور الباجى ، فقد أفرد فقرة خاصة للحر وأعماله ، فذكر أنه غزا

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٤٤٨ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ١٨ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .
وقد ذهب إيزيدور الباجى إلى أن موسى لم يفتتح سرقسطة إلا بحد السيف ، فأنزل بأهلها من الويلات شيئاً كثيراً : ذبحهم بالسيف وأشعل النار فى البلد ، وقتل الشبان والأطفال الرضع بالحراب ، وأنه نشر الخراب والجوع فى المنطقة كلها . ولم تشر المراجع العربية إلى ذلك .

CF : ISIDORO PACENSE : Chronicon, c. 38

CODERA, Estudios. VIII. p. 204 .

وذهب فياردو وكوندى إلى أن موسى أنزل بنواحى قطلونية (Cataluna) ونبرة (Navarra) وأرغون مساءات كثيرة لأن أهلها قاوموه مقاومة شديدة ، ولم يذكر المؤلفان من أين أخذا هذه المعلومات ، وقد شك فيها كوديرا واعتبرها مبالغة مصدرها كوندى .

VIARDOT, Hist, des Arabes et des Maures d'Espagne, I, P. 82 .

CODERA, Estudios Criticos de historia àrabe esqanola (Segunda serie, Madrid, 1917) .

(٢) ابن الأثير : جـ ٥ ، ص ١٤ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) CODERA, Op. cit. p. III

جنوبى غالة حتى أربونة عاصمة غالة النربونية (Gallia Narbonensis) وظل يغاور أهل هذه النواحى حتى اضطروا إلى طلب الصلح فمنحهم إياه ، ولكن أحداً من مؤرخى العرب أو الفرنجة لا يؤيد إيزيدور فى ذلك ، ولهذا لا يمكننا التعويل على هذه التفاصيل الواردة فى روايته تلك(١) .

٩٦ـ السمح بن مالك يصل إلى طرسونة استشهاده عند طولوشة

فلما أقام عمرُ بن عبد العزيز السمحَ بن مالك الخولانى والياً على الأندلس (سنة ١٠٠هـ/ ٧٤٠م) نشطت حركة الفتوح فيما وراء البرتات نشاطاً عظيماً ، لأن السمح كان رجلاً وثيق الإيمان جم النشاط ، فلم يكد يستقر فى الولاية حتى بادر بالنهوض لحرب النصرانية فيما وراء البرتات ، فتوغل فى غالة حتى أدرك طرسونة (Tarascon) واستمر فى التقدم حتى وقف بأبواب طولوشة (Tolosa) . ويبدو أن نشاطه هذا روَّع أهل أقطانية (أكويتانيا) ، فنهض له دوقها وسار بجيشه حتى لقى السمح فى موقعة عنيفة على مقربة من طولوشة .

واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبراً كريماً حتى قُتِلوا عن آخرهم كما يقول ابن حيان ، وقد استشهد السمح مع من استشهد فى هذه الوقعة فى يوم عرفة من سنة ١٠٢هـ (١٠ يونيو سنة ٧٢١م) ، ولم تستطع فلول الجيش الإسلامى العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند - وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى - من الجهد ، فقد أقامه العسكر رئيساً عليهم ، فبذل الهمة فى جمع شتاتهم والتقهقر بهم حتى عاد إلى الأندلس . وكانت تلك هى ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى ، ولم تدم إلا أشهراً لأن عامل إفريقية استبدل به عنبسة بن سحيم الكلبى بعد هذه الكارثة بأشهر قلائل(٢).

---

(١) يقول إيزيدور الباجى عن غزوات الحر فى غالة ، فقرة ٤٣ ، ص ١٥١ :

Hujus tempore Alahor per Hispaniam lacertos judicum mittit, atque debellando etpacificando pené per tres annos Galliam Narbonensem petit, et penlatim His paniam ulteriorem vectigalia censendo, ad Hiberiam citeriorem se subrigit, regnans, annos supra scriptos .

وقد أخذ CENAT MONCAUT بقول إيزيدور وقرر أن الحر فتح أربونة ، وجعل هذا الحادث سنة ١٠٦ هـ وهى أولى سنوات حكم السمح بن مالك . وقد نقل عنه ذلك مؤرخون محدثون كثيرون دون أن يفطنوا إلى ذلك الخطأ .

CENAT MONCAUT, Histoire des peuples et des etats pérénéens (3e. éd - 1873) I, 477.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٤ .

المقرى ،جـ ١ ، ص ١٤٩ - جـ ٢ ، ص ٩ .

ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٥ - ٢٦.

وتذكر المراجع العربية أن هذه الهزيمة وقعت عند طرسونة ، والأصح أن يقال إنها كانت عند طرسكونة =

٩٧ - عنبسة بن سحيم وحملته الكبرى

وقد قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من ولايته فى تنظيم أمور الأندلس وتهدئتها ، بعد الاضطراب الذى وقعت فيه بسبب خلافات العصبية التى ذكرناها وبسبب هذه الكارثة التى أصابت السمح ورجاله ، ولكنه كان ذا حماس للفتوح ، فلم تكد الأمور تستقر شيئاً حتى عجل بالنهوض للغزو فى غالة ، فصعد مع نهر ردانه حتى أدرك قرقشونة (Carcassona) فحاصرها وشدد الحصار حتى نزل المدافعون عن البلد على شروطه ، فنزلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به وتعهدوا بردِّ أسرى المسلمين الذين كانوا فى الحصن وبأن يدفعوا الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين فى حرب أعدائهم جنباً إلى جنب ، ويضيف صاحب « مدونة مواسياك » أن عنبسة استولى بعد ذلك على نيمة (Nimes- Noemansum) وأخذ رهائن أهلها وأرسلهم إلى برشلونة ، مما يُفهم منه ضمناً أن برشلونة كانت إذ ذاك فى يد المسلمين وأنهم اتخذوها حصناً ومركزاً يصدرون منه للغزو فيما وراء البرتات .

ثم واصل عنبسة سيره حتى أدرك مجرى نهر ردانه . ويبدو أنه وجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعاً ، دون أن يلقى مقاومة ، وصعد مع النهر حتى أدرك نهر الساءون ، ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتون (Autûn- Ausgustodunum) ونهبها وأحرقها .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن حملة عنبسة لم تقف عند هذا الحد « بل نهبت مدينة أوزه (Uzès) وفيين وعاثت فى نواحى فالانس ووصلت الموجة حتى ليون وماكون وشالون . وهناك تفرعت فرعين ، سار الأول نحو ديجون وبيز(Béze) ولانجر (Langre) ، واتجه الثانى صوب أوتون مرة أخرى ، ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس (Sens) على بُعْد ثلاثين كيلو متراً جنوبى باريس ، لأن إيبون (Ebbon) أسقف سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم » (١) .

وعاد عنبسة بمن معه من الجند محملين بالغنائم بعد أن وصلوا إلى قلب غالة ، وغزوا

= (Tarascon) على مقربة من طولوشة عند مصب الرون ، وقد ذهب إلى هذا الرأى سافدرا معتمداً على ما ذكره إيزيدور الباجى من أن السمح استشهد عند طولوشة فى موقعة حامية بينه وبين دوق أكويتانية . وقد ذهب إيزيدور إلى أن هزيمة المسلمين كانت قاصمة .

ISIDORO PACENSE, Chronicon, c. 44 .

يقرر صاحب مدونة مواسياك كذلك أن هزيمة السمح ومقتله كانا عند طولوشة .

Chronicon Moissiacense. app. 4. p. 165 .

(١) DOM VAISSETTE, Histoire de Languedoc. I, 781-784 .

حوض الرون كله وتخطوا نهر اللوار وأصبحوا على مسافة قصيرة من السين نفسه . وقد تم ذلك كله خلال سنتى ١٠٦- و١٠٧هـ/ ٧٢٥-٧٢٦م .

وطبيعى أن تثير هذه الغارة العنيفة المخاوف فى نواحى غالة كلها : ارتاعت معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى ، وشعرت مملكة الفرنجة أنها أمام خطر داهم حقيقى . وبدا بوضوح أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة من كل وجه ، فإما أتم العرب فتح مملكة الفرنجة أو ارتدوا عنها . ولو قد كانت أحوال مسلمى الأندلس على غير ما علمنا من الاضطراب ، بسبب خلافات العصبية ومنازعات العرب والبربر ، لما اضطر عنبسة إلى الانصراف عن فتوحه الموفقة فى غالة بعد أن أدرك هذا النصر العظيم.

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن حملة عنبسة لم تكن فى الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عنبسة على نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات فى بعضها على عادة العرب فى فتوحهم . وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عُقْبة الكبرى : غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها . ولو قد استقر عنبسة فى ليون مثلاً أو فى أحد مراكز غالة الوسطى لكان فى إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبى غالة ووسطها ، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالى قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة ونشرت فى نواحى غالة كلها رعباً شاملاً . ومهما يكن من الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبى ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر(١).

٩٨ - لماذا اتجه عنبسة نحو حوض الرون؟

رأينا كيف استولى عنبسة بن سحيم على قرقشونة ، ثم كيف انحرف بعد ذلك شمالاً بشرق فى اتجاه نهر الرون واستولى على نيمه (Nimes - Noe-mansum) ، ولا يعلل اتجاهه هذه الوجهة إلا بأن طولوشة كانت ما تزال إذ ذاك فى أيدى المسلمين ، ولو كانت فى أيدى النصارى لما تركها - وهى أقرب البلاد إليه - واتجه نحو بلاد الرون .

---

(١) Chronicon Moissiacense, p. 165.
ISIDORO PACENSE, C. 52.
CODERA, Op. cit. p. 114 .
LEVI- PROVENCAL, Op. cit. pp. 41- 42 .
ويذهب بروفنسال إلى أن عنبسة لا بد أن يكون قد قُتِل أثناء اشتباكه مع نصارى طرسونة .

ولو كنا نملك نصوصاً أوضح من المدونات اللاتينية الشديدة الإيجاز لاستطعنا أن نفسر السبب فى اتجاه عنبسة نحو حوض الرون بدلاً من متابعة الغزو فى الاتجاه الأول ، أى فى اتجاه دوقية أقطانية . وربما اتضح الأمر بعض الشىء إذا درسنا الوضع العام فى جنوبى غالة فى ذلك الحين .

لاحظنا أن المسلمين لم يجدوا عناء فى غزو إقليم سبتمانية ، فاستولوا على عاصمته أربونة واستقروا فيها واتخذوها مركزاً لأعمالهم . والسبب فى ذلك أن سبتمانية لم تكن داخلة فى دولة الفرنجة ، بل كانت من أملاك القوط الشرقيين أصحاب الأمر فى إيطاليا . ثم تراخى سلطانهم عليها ، وطمع فيها الأمراء الإقطاعيون المتنازعون على السيادة على جنوبى غالة مثل كُنْد (كونت) طولوشة (تولوز) ودوق أقطانية (أكويتين) وكند بواتييه ، ولكنهم لم يجرءوا على غزوها تحاشياً للاشتباك مع القوط الشرقيين[١] . وكانت سبتمانية ولاية ساحلية تمتد من شمالى جبال البرت بحذاء ساحل غالة (فرنسا) الجنوبى وتتصل بها يُعرف اليوم بالرفيرا الإيطالية . وكانت تتألف من سبعة أقسام إدارية صغيرة ، ولهذا سميت بِسِبْتمانية (Septemania).

فلما خرج المسلمون من سبتمانية وبدأوا يجوسون خلال دوقية أقطانية واستولوا على عاصمتها طولوشة تغير الأمر ، ونهض لردهم دوقها أودو (Eude-Odon) وأوقع بهم الهزيمة التى ذكرناها عند طولوشة والتى استشهد فيها السمح بن مالك الخولانى (ذى الحجة سنة ١٠٢هـ/ يونيو سنة ٧٢١م) . وقد أخذ عنبسة بثأر السمح واستولى على قرقشونة وبدلاً من أن يتجه نحو طولوشة ، وكانت لا تزال فى أيدى المسلمين ، نجده يرتد إلى سبتمانية ثم يغادرها ليصعد مع الرون ويدرك نيمه (Nimes - Noe mansum)[٢] فما العلة فى ذلك ؟

ربما استطعنا تفسير ذلك إذا نحن درسنا علاقات الدوق أودو بالعرب من ناحية ، وبمملكة الفرنجة من ناحية أخرى .

* * *

(١) LAVISSE, Histoire de France, II,p. 45

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣٥٣ .

٩٩ـ الدوق أودو وعلاقته مع المسلمين تبدأ الروايات التى تحدثنا عن صلات أودو بالعرب بالكلام عن صلته بثورة مونوسة . وقد عرضنا من قبل لهذه الثورة وذكرنا كيف أوردت المراجع العربية هذا الاسم بصورة مبهمة لا يفهم منها إن كان اسم شخص بربرى أو اسم إقليم ، وكيف أن هذا الإبهام قد أوقع المؤرخين جميعاً فى خلاف حول الموضوع كله : فأما الغالبية – وهى كوند ورينو ودوزى وبروفنسال وجبرييلى وكاليْمِت – فقد ذهبوا إلى أن مونوسة زعيم بربرى ثار على المسلمين فى نواحى بنبلونة ، وعارض هذا الرأى جماعة من الإسبان على رأسهم كوديرا ، فقد ذهب إلى أن مونوسة إن هو إلا تحريف لاسم مكان هو منريسا (Manresa) معتمداً فى رأيه هذا على أن لفظ مونوسة ورد فى النصوص العربية مبهماً دون تحديد . ولكننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأى لأن رواية إيزيدور الباجى أبين من أن تُدحض جملة ، ثم إن سياق الحوادث يدل على أن شخصاً بربرياً اسمه مونوسة وُجِد فعلاً ، وأنه لعب دوراً خطيراً فى العلاقات بين المسلمين والنصارى فى هذه الأيام(١).

وإليك موجزاً لرواية إيزيدور عن مونوسة :

إن رجلاً من الجنس البربرى اسمه مونوس(Munuz) ترامت إليه من حدود ليبية (إفريقية) أخبار الظلم القاسى الذى كان يعانيه أبناء جنسه فى هذه البلاد ، فصالح الفرنجة وصاهر أودو دوق أقطانية وأخذ يعمل على إيذاء العرب أعداء إسبانيا ، ووثب بهم بالفعل وأصبح فى حرب دائمة معهم .ولكن أنصاره كانوا فى خلاف متصل معه . ولم ينهض عبد الرحمن (الغافقى) لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالى عشر حملات . فنهض عبد الرحمن لمونوسة وتتبعه ففرَّ إلى خوانق الجبال . وتحرج مركزه وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة .

وتفيض رواية إيزيدور بعد ذلك فى ذكر أعمال العنف والاضطهاد التى أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى، وخاصة أهل شرطانية (Cerdana-Cerritania)، وكيف أنه أحرق أناباديوس (Anabadius) أسقفها بعد ذلك(٢).

وتهمنا من هذه الرواية مسألتان : الأولى هذا التفصيل الذى تورده عن أعمال عبد الرحمن

(١) ISIDORO PACENSE : Chronicon, C. 58.
CODERA, Estudios àrabes, VII pp. 141 Sqq. VIII pp. 115-118.

(٢) ISIDORO PACENSE : Chronicon, C. 58.

واضطهاده للنصارى ، والثانية هى علاقة أودو بالمسلمين ، وكيف أنه زوَّج ابنته لزعيم بربرى منهم لكى يأمنهم على بلاده .

فأما المسألة الأولى فسنناقشها عند عرضنا لأحاديث المدونات اللاتينية عن عبد الرحمن جملة ، وأما المسألة الثانية فذات أهمية خاصة لنا هنا ، لأنها تلقى بعض الضوء على علاقات أودو بالمسلمين .

ونقطة الضعف فى هذه الرواية هى زعمها أن مونوسة قام بثورته تلك حين بلغته أخبار ما كان البربر فى إفريقية يقاسونه من مظالم العرب ، أى فى نفس الوقت الذى حدثت فيه الثورة البربرية التى فصَّلنا أمرها ، ولم تقع هذه الثورة إلا بعد حركة مونوسة بعشر سنوات . ومن هنا لا يستقيم كلام إيزيدور ، وربما استطعنا القول بأن مونوسة إنما وثب بالعرب لما كان من سوء معاملتهم البربر جملة فى الأندلس .

كان أودو دوق أقطانية ، بناء على هذه الرواية ، حليفاً لمونوسة البربرى وحمياً له قبل أيام عبد الرحمن الغافقى ، أى فى أيام عنبسة وربما فى أيام السمح ، وربما كان هذا من أسباب هزيمة السمح عند طولوشة . ومما يؤيدنا فى هذا الظن أن عنبسة ، حينما نهض بحملته التى نحن بصددها ، اتجه نحو بلاد الدوق رأساً واستولى على قرقشونة ، ثم انحرف إلى سبتمانية من جديد وسار نحو نيمه على ما رويناه .

ولسنا نعلم – على أى الأحوال – إن كان مونوسة قد خرج مع عنبسة وساهم فى هذه الحملة أو لم يخرج ، وإن كان انحراف الحملة عن بلاد الدوق يؤيد خروجه مع المسلمين . وليس ببعيد أن يكون وجود مونوسة فى جيش عنبسة هو السبب فى انصراف المسلمين عن بلاده ، وقد كانوا مستطيعين التوغل فيها والاستيلاء على كبار معاقلها .

ثم إن الدوق لم يسر لحرب المسلمين كما فعل يوم ساروا إليه يقودهم السمح بن مالك ، ولم يحاول أن يهاجمهم من خلف بعد أن تركوا بلاده خلفهم وساروا مع نهر ردانه صعداً حتى قاربوا السين ، ولا يعلل ذلك إلا بأنه كان فى ذلك الحين صديقاً موالياً لهم . وربما كانت هذه الصداقة هى مصدر الرواية الفرنجية التى تتهم الدوق بأنه استدعى العرب لغزو غالة لأنه كان فى خصومة مع قارله (شارل مارتل) صاحب الأمر فى الدولة الفرنجية إذ ذاك[1] .

---

(١)يقول إيزيدور :

Eudo Sarracenos in auxilium sui adscivit, qui venientes cum rege suo Abdirama transeunt Garonnam, Burdigalem usque perveniunt cuncta vastantes acclesias igne crematis , Pictavis basilicam Sancti Hilarii incendunt . =

والواقع أن أودو لم يكن إذ ذاك على وئام مع دولة الفرنجة ، وكان قارله ينفس عليه مكانته ويود لو أزاله عن ولاية أقطانية (أكويتين) الغنية الواسعة ، وقد أوردت لنا الروايات اللاتينية أخباراً متفرقة عن عداء الرجلين وما كان بينهما من خصومة . وليست هذه العداوة بالأمر الغريب ، فقد كان معظم الأشراف الإقطاعيين فى غالة يخافون قارله ويكرهونه ، وكان الكثيرون منهم - وفيهم أودو - فى حالة حرب معه ، وهذا هو السبب المعقول الذى دفع بأودو إلى مصادقة المسلمين ومصاهرة واحد منهم هو مونوسة .

لم يقع انصراف عنبسة عن أراضى الدوق إذن مصادفة ، وإنما كان أمراً طبيعياً أَمْلَته الظروف العامة ، فقد انصرف العرب عن أراضيه لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما وُفِّق إليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً فى حملة عنبسة .

١٠٠ـ وفاة عنبسة

ولم يستطع عنبسة إدراك الأندلس بعد هذه الغزوة الكبرى فقد داهمته فى طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج التحمت معه فى موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفى على أثرها فى شعبان سنة ١٠٧هـ/ ديسمبر سنة ٧٥٢م وقام بقيادة الجند الإسلامى والعودة به إلى الأندلس قائد تسميه المراجع النصرانية Hodeyra أو Hodra وهما صيغتان محرفتان لعذرة(١).

١٠١ـ عذرة بن عبد الله الفهرى يواصل الغزو

وعذرة هذا هو عذرة بن عبد الله الفهرى الذى خلف عنبسة فى ولاية الأندلس بدون تعيين من عامل إفريقية أو من مركز الخلافة ، وقد ظل فى الولاية سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ / فبراير

= كوديرا ، ص ٢٠٦ .

(١) يذكر ابن عذارى (البيان المغرب جـ٢ ، ص ٢٦) وابن الأثير (جـ ٥ ، ص ٣٧٣) أن عنبسة مات حتف أنفه ولم يستشهد . وقد أورد المقرى روايات مضطربة كثيرة نقلها عن ابن حيان والرازى يفهم منها أنه توفى مستشهداً (المقرى: نفح ، جـ ٢ ، ص ٩) ورواية إيزيدور الباجى غير واضحة ، لأنه يذكر أن عنبسة توفى ، فقام أحد قواده وهو Hodera (عذرة) بقيادة الجند والعودة بهم إلى وطنهم (الأندلس) ، وأن عنبسة أوصى له بذلك قبل وفاته :

...Qui dum rabidus pervolat. morte propria vitae terminum parat : atque Hodera (عذرة) consulem patriae sibi commisae vel principem exercitus repedantis , vel quasi refraenantis, in extremo vitae positus ordinat (c.53) .

بيد أن الكثيرين من مؤرخى غالة يشيرون إلى هذه الموقعة التى استشهد فيها عنبسة وقيام عذرة (الذى يسمونه فى بعض الأحيان Hodeyra) بجمع شتات الجنود والعودة بهم إلى الأندلس ، وقد أخذنا بروايتهم لأنهم أدرى بحوادث تاريخ بلادهم ، ولم يكن لنا عن ذلك مفرّ أمام صمت الرواية العربية .

مارس سنة ٧٢٦ م - يونيو - يوليو سنة ٧٢٨م)(١).

ولا تنسب الرواية الإسلامية إلى عذرة أى عمل حربى فى غالة ، ولكن الرواية النصرانية تذكر أعمالاً حربية خطيرة قام بها المسلمون بعد مقتل عنبسة مباشرة ، وحيث أن ولاية عذرة دامت سنتين وأشهراً فلابد أن هذه الأعمال وقعت خلالها ، ويجمل رينو أخبار هذه الأعمال فى قوله : « .. وقد قتل (عنبسة) فى إحدى غزواته سنة ٧٢٥م . واضطر خليفته عذرة إلى قيادة الجيش فى طريق العودة إلى الحدود . ولم تلبث الحرب أن استعرت من جديد فى عنف ، ولما كانت أمداد كثيرة قد أقبلت من الأندلس ، فقد نهض قادة المسلمين ، وقد شجعتهم المقاومة القليلة التى صادفوها ، وأخذوا يرسلون الحملات فى كل وجه . ويقول مؤرخ عربى أن رياح الإسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ، فاقتحم المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا إلى حوض الرون وغزوا بلاد الألبيين (Les Albegeois) وإقليم رويرج (Le Rouergue) وجيفودان (Gévaudan) وليفليه (Levelay) ونهبوها نهباً ذريعاً ، وأتت النيران على ما أغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الإسراف فى أعمال العنف»(٢).

ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وإن كنا نقبل ما تذكره الروايات اللاتينية عن الأعمال التى وقعت أثناء ولاية عذرة ، لأن عبد الرحمن الغافقى حينما تولى وجد المسلمين فى حالة طيبة فى غالة ، ولو كان أمرهم وقف عند ما انتهت إليه أعمال عنبسة وهو الرجوع إلى الأندلس ، لما استطاع عبد الرحمن الغافقى أن يقوم بالعمل الكبير الذى قام به .

وتضيف الروايات النصرانية أخباراً كثيرة عن أعمال العرب فى غالة خلال هذه الفترة التى نتحدث عنها وهى التى انقضت بين موت عنبسة وقدوم عبد الرحمن الغافقى ، وهذه الأخبار ملأى بالمبالغات عما تسميه مساءات العرب أو مظالمهم التى أنزلوها بأهل هذه النواحى ، ونحن نورد طرفاً منها على سبيل استكمال الأخبار عن أعمال المسلمين الحربية فى غالة .

تذكر هذه الروايات أن المسلمين خربوا كنيسة رودس (Rhodès) الكبيرة وعاثوا فيها

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

(٢) REINAUD, Invasions ... 23 .

ولم يُشِر رينو إلى مراجعه التى استند إليها فى ذلك .

أى عيث ، واستقروا فى حصن قريب من موضع روكبريف الحالى (Roqueprive)(١) . وانضم إليهم نفر من أهل هذه النواحى وساروا معهم يغزون فى كل وجه ، ويحكى المؤرخون فى هذه المناسبة قصة شاب يسمى داتوس أو دادون أظهر بطولة كبيرة فى محاربة العرب وردهم عن ناحيته(٢).

ويغلب على الظن أنه فى خلال هذه الفترة - أى بين سنتى ٧٢٥ و٧٣٠م (١٠٧-١١٢هـ) - قام المسلمون بالغزوات التى تنسبها إليهم الروايات النصرانية فى أقاليم دوفينيه(Dauphiné) وليون وبورجونيا (Bourgogne) . ولا تذكر مراجعنا العربية عن ذلك شيئاً على الإطلاق فى حين تختلف المراجع النصرانية فيما بينها اختلافاً بيناً بشأنها . فأما المقرى فيذكر : « إن الله ألقى الرعب فى قلوب النصارى ، ولم يعد أحد منهم ليظهر إلا ليستأمن ، فاستولى العرب على البلاد ومنحوا الأمان لمن أراد ، وساروا مصعدين حتى وصلوا حوض الردانة ، وهناك ابتعدوا عن الشاطىء وتوغلوا داخل البلاد » .

ولم يذكر لنا المقرى البلاد التى وصلوا إليها حينما توغلوا فى غالة هذه المرة ، ويقول رينو فى تفسير عبارة المقرى تلك : « ولا نستطيع تعرف المواقع التى وصل إليها العرب إلا بما خلّفوه وراءهم من التخريب فى النواحى التى وصلوا إليها ، ففيما يحيط بفيين (Vienne)

---

(١) ويجعلها بعضهم فى موقع بالاجييه (Balaguier)

REINAUD, Op. cit. p. 23 .

والمراجع المعطاة .

(٢) أورد هذه الحكاية الشائعة ERMOLDUS NIGELLUS فى نص قصيدة لاتينية نشرها برتس: M. PERTZ Monumenta Germaniae Historiae, II, p. 466 sqq. وتبدأ قصة دادون فى البيت السابع بعد المائتين من أبياتها ، ووردت إشارة إليها فى كتاب « غالة المسيحية » Gallia Christiana جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، وقد لخصها رينو فى كتابه عن غزوات العرب فى غالة كما يلى :

كان دادون شاباً صغيراً من قرية كونك (Conques) فى إقليم رويرج (Rouergue) عندما اقتحم المسلمون هذه الناحية ، فحمل السلاح وخرج لقتالهم مع غيره من رجال ناحيته ، فبينما هو فى بعض مطارداته للغزلة بعيداً عن قريته ، دهمها المسلمون ونهبوا بيته وأخذوا أمه أسيرة وأدخلوها فى حصنهم . فلما عاد دادون وسمع الخبر حمل سلاحه ومضى إلى الحصن يريد اقتحامه ، وسخر منه المسلمون خلف أسوارهم ، وقال له بعضهم : « إذا أردت أن نرد لك أمك فأعطنا الحصان الذى تمتطيه وإلا ذبحنا أمك أمام عينيك » فرفض دادون أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فذبحوا أمه ورموا إليه برأسها، فبلغ من رعب الفتى وحزنه أن ذهب فترهب فى ناحية على ضفاف نهر الدوردون (Dourdon) وقد أنشىء فيما بعد فى مكان ترهُّبه دير كونك (Conques).

وقد أوردنا هذه الحكاية كنموذج لما كتبه مؤرخو غالة النصارى عن المسلمين فى هذه الفترة .

وقد أورد رينو قصة أخرى من هذا الطراز يذهب رواة النصارى إلى أنها حدثت فى هذه المناسبة .

cf : REINAUD : Invasions ... pp. 26-29.

Gallia Christiana : II, p. 468 .

وعلى ضفاف الرون تحولت الكنائس والأديرة كلها إلى خرائب ، وكذلك تخربت كنائس لـودون (Lyon) ونهبت ماكـون وشالـون على السـاءون ، وتعرضت بـون (Beaune) لتخريب ذريع ، وأشعلت النيران فى كنيستى سان نازير (Saint Nazaire) وسان جان فى أوتون ، وهدم دير سان مارتان (Saint Martin) خارج البلدة ، ونهبت كنيسة سان أندوش (Saint- Andoche) فى سوليو (Saulieu) وعلى مقربة من ديجون هدم العرب كنيسة بيز (Béze) »[١] .

ولم تشر المراجع التى أشار إليها رينو إلى أن العرب هم الذين خربوا النواحى التى ذكرها كلها ، وإنما هو الذى جعل دأبه - كلما وجد ديراً قد احترق أو كنيسة تخربت فى هذه المدة - نسبة ذلك إلى المسلمين ، مع علمه بأن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصارى فيما بين بعضهم وبعض فى هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص ، ومع علمه بأن كلوفس نفسه أنزل بالكنائس والأديرة فى جنوبى غالة وفى بورجونيا وفى أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف . وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم هَمٌّ فى غاراتهم فى غالة إلا تخريب الكنائس والأديرة وإشعال النار فى المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وإفريقية والأندلس وهى كلها غاصة بالكنائس والأديرة وما إليها من المؤسسات النصرانية فلم يحرقوا ولم يخربوا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم إذا عبروا إلى غالة فيتحولوا إلى برابرة مخربين لا يكادون يبقون على شىء !

الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول ، فليس من الجد فى شىء أن يقال إن العرب لم يفعلوا فى غالة غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديراً . وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التى كانت تسود غالة فى ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم ، لتبينا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا فى حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث فى غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك ، أو عنبسة بن سحيم ، أو عبد الرحمن الغافقى .

---

(١) ومراجعه هى :

REINAUD, Op. cit. pp. 29-30

Gallia Christiana IV. pp. 51. 450-860-1042.

Chronicon Moissiacense dans Hist. des Gaules, II, 655.

DOM PLANCHER : Histoire de Bourgogne, I. p. VII .

ويلاحظ رينو الملاحظة التالية : « ... إن غارات العرب هذه التى يُجمع الناس على أنها لابد أن تكون قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا[١] . تمت جميعها دون خطة مقررة من قبل ، ومع هذا فلم تلق إلا مقاومة ضيئلة جداً ، مما يدلنا على الحالة السيئة التى كانت تسود فرنسا فى ذلك الحين وعلى عدم وجود أية حكومة ترعى شئونها . ولكننا إذا قارناها بما حدث فى إسبانيا قبل ذلك بسنوات ، لتبين لنا أنه لم يحدث فى أى موضع أن وجد الفاتح إقبالاً من أهل البلاد ، إذا استثنينا بضعة أشخاص بلا دين أو وطن ، ولم يحدث أبداً فى أى مكان أن اتفقت معهم جماعة لها قيمتها من السكان ، وحتى فى المدن مثل أربونة وقرقشونة - حيث استقر العرب بصورة ثابتة - ظلت جماعة السكان على إخلاصها للنصرانية[٢].

وهذا أيضاً كلام لا قيمة له من الناحية التاريخية ، فأى سند استند إليه هذا الباحث الفرنسى ليقول ذلك ؟ وما معنى القول بأن أحداً من سكان البلاد لم ينضم إلى المسلمين ؟ ومن الثابت أن منطقة جبال البرت كلها ونواحى بسكاية وسبتمانية كانت تسكنها جماعات بدائية لم تستقر بعد على دين ولم تفهم بعد معنى الوطن ، بل لم يكن الفرنجة أنفسهم ، أصحاب الأمر فى غالة ، ليأخذوا الدين مأخذ الجد أو يشعروا بشعور « وطنى » نحو غالة .

---

(١) يقول رينو : يذهب بعضهم أن العرب أرسلوا سرايا بلغت اللوار عند نيفير (Nevers) من ناحية ، وبلغت فرانش كونتيه (Franche Comté) من ناحية أخرى . فإذا صدق هذا ، فلا بد أن يكونوا خربوا دير القديس كولومبان (Saint Colomban) فى نيفير ، ويذهب بعضهم كذلك أنهم قتلوا معظم رجال الدين والرهبان فى بيزانسون (Be-sançon) . وهذه المزاعم ليست بعيدة عن التصديق ، خصوصاً فيما يتصل بفرانش كونتيه حيث لا زال كثير من المواضع يحمل اسم سارازان (Sarrazin) . ويقال كذلك إن كنيسة لوكسيل (Luxeuil) هدمت وهى فى سفح الفوج (Vosges) وذبح رجالها وعلى رأسهم القديس ملان (Mellin).

cf : p. LECOINTE. Annales Ecclesiastici Francorum. IV pp. 728 Sqq. 795 Sqq .

MABILLON. Annales Benedictini.II. p. 88

MABILLON. Acta Sanctorum Benedicti II. lère partie pp. 527 Sqq .

وتذهب هذه المراجع إلى أن العرب لم يجدوا مقاومة جدية إلا عند بلدة صانص (Sens) إذ أن أسقفها (Ebbes) أو (Ebbon) تصدى لهم ، وجمع نفراً من أهل البلد وهجم بهم على المسلمين ، وألقى ناراً على آلات حصارهم فتفرقوا . وكان هذا الرجل قبل ذلك فارساً وكونداً لبلدة تونير (Touner) ثم ترهب ورسمته الكنيسة قديساً فيما بعد .

ولا تذكر هذه النصوص المسلمين ولا تشير إلى أنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال ، ولكنها تقول إن الوند (Vandes) والوندال (Vandali) والجندال (Gandali) هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم رينو وغيرهم من المؤرخين المحدثين فى ذلك ، وهو تعسف لا معنى له وخاصة أن هذه التسميات أطلقت فيما بعد على المجريين الذين أغاروا على هذه النواحى وخربوها على أيام قارله وبيبين وشرلمان . وقد عاد رينو فتشكك فى أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك .

انظر كتابه الآنف الذكر ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) رينو : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

وأنّى يكون ذلك وغالة كلها كانت فى دور التكوُّن ، لم تصبح بعد « وطناً » يتعصب له أحد ؟ وأيسر دليل على مغالطة رينو وأمثاله هو أن أولئك الذين يزعم أنهم لم ينضموا إلى المسلمين ولم يؤيدوهم هم الذين أنزلوا بمؤخرة جيش شرلمان الفرنجى المسيحى مذبحة رنشفالة ومأساة رولان بعد ذلك بأكثر من قرن .

* * *

وكان كبار رجال غالة فى حالة لا تُمكِّنهم من النهوض لحرب المسلمين ، فأما أودو فقد ركن إلى السكون ولم يجرؤ على الخروج لملاقاتهم بعد الذى رأى من قوتهم ، ولم يجرؤ كذلك على طلب المعاونة من قارله لأن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، وأما قارله فكان مشغولاً بحرب الفريزيين سكان إقليم فريزيا الذى يعرف اليوم بالنورمندى والبافاريين والسكسون غربى نهر الرين ، وكانوا يهددون نوستراسيا - قلب بلاد غربى الرين - بخطر داهم إذا ما عبروا الرين ، ولهذا لم ينهض قارله لملاقاة المسلمين حينما غزوا بورجونيا ، وكانت إذ ذاك داخلة فى طاعته .

لم تكن هذه الأحداث التى ذكرناها فى ولاية عذرة بن عبد الله الفهرى أعمالاً عسكرية منظمة يمكن إدراجها فى سلسلة الغزوات المنظمة التى قام بها ولاة الأندلس فى غالة ، وإنما كانت نشاطاً عاماً قام به المسلمون الذين استقروا فى سبتمانية وقاعدتها أربونة ، وبعض قواعد جنوبى غالة مثل طولوشة وطرسونة .

أما سلسلة الفتوح فتتصل من جديد عندما يتولى الأمر عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠م .

١٠٢ـ عبد الرحمن الغافقى لا نزاع فى أن عبد الرحمن الغافقى كان أقدر قائد عسكرى عرفته الأندلس فى عصر الولاة . ومن المؤسف أن أخبـاره لدينا قليلـة جداً لا تتناسب مع الدور الكبير الذى قام به فى تاريخ الإسلام . ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء التى ختمت حياة الغافقى كانت أليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الإيجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة إليه مع عظيم تقديرهم له .

كان عبد الرحمن جندياً أندلسياً ، قضى أحسن أيامه عاملاً فى جيوش المسلمين المغازية فيما وراء البرتات . ويُفهم من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان سليماً من نزعة

العصبية التى ابتلى بها غيره ، ومن دلائل ذلك أن عبيدة بن عبدالرحمن القيسى عامل إفريقية المتعصب لقيسيته أقامه على الأندلس وهو يمنى من غافق . وقد أورد ابن عبد الحكم رواية يُفهم منها أن الرجل كان مسلماً سليم الإيمان حريصاً على أصول الشريعة ، لا يحفل فى سبيل ذلك بغضب من بيدهم الأمر . يقول ابن عبد الحكم بعد الكلام عن إحدى غزوات عبد الرحمن : « .. وكان فيها أصاب رِجْل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة (بن عبد الرحمن القيسى عامل إفريقية) فغضب غضباً شديداً ، وكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : « إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً ، فاستشهد وعامة أصحابه »[(١)].

وهذه هى الإشارة العربية الوحيدة التى تدل على ناحية من خلق عبد الرحمن . ويصفه إيزيدور الباجى بأنه كان رجلاً نشيطاً عنيفاً قاسياً ، لا يبالى أن يُنزل بالنصارى أقسى المظالم وأشد ألوان الاضطهاد والتخريب والقسوة[(٢)]. ولا تضيف النصوص اللاتينية الأخرى إلى أوصافه هذه شيئاً ، وإن كانت جميعها تتحدث عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة. ولو أمدتنا المراجع العربية بأخباره مفصلة لاستطعنا تعرُّف مكان هذه الروايات النصرانية من الصحة ، ولكنها أقدم ما بين أيدينا وأكثره تفصيلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتماد عليها إلى حد كبير .

وكان عبد الرحمن جندياً من طراز آخر غير طراز عنبسة ، وإذا كنا قد قلنا إن هذا الأخير كان من طراز عقبة ، أى من الذين تستهويهم الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية ، فلنقل عن عبد الرحمن الغافقى إنه كان من طراز حسان بن النعمان ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، فيعمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكى يتم الفتح وتدخل البلاد فى حوزة الإسلام .

١٠٣ـ خروج عبد الرحمن للغزو، أوائل سنة ١١٤هـ / ربيع سنة ٧٣٢م

عبر عبد الرحمن البرتات فى أوائل سنة ١١٤هـ/ ربيع سنة ٧٣٢م، ولسنا نعلم على وجه التحقيق عدة الجيش الذى كان معه ، فأما المراجع النصرانية فتزعم أنه كان يقود أربعمائة ألف مقاتل فى حين تكتفى الرواية

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١١٧ .

(٢) إيزيدور الباجى : فقرات ٥٨-٥٩- ٦٠ .

وانظر أيضاً ، ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٥٨٤ .

الإسلامية بتحديد عدة الجيش بعدد يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف . وليس لدينا ما يوضح هذا الأمر ، لأننا لا نستطيع قبول أى الرقمين ، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن عدة الجيش لم تكن لتزيد عن سبعين ألفاً على أى حال ، وأن جل هؤلاء كان من البربر ، لأن الكثيرين من عرب إفريقية والأندلس كانوا إذ ذاك فى شغل بما انصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار فى القرى والاشتغال بالزرع من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول كذلك إن معظم هؤلاء كانوا يمنيين ، لأن عبد الرحمن الغافقى كان يمنياً ، ولأن غالبية سكان نواحى إقليم سرقسطة كانوا يمنيين ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين فى ناحية البرتات وما يليها .

وكانت مصلحة المسلمين تقتضى الاستمرار على صداقة أودو لكى يكون لهم عوناً على حرب الفرنجة والخلاص منهم ، ولم يكن ذلك بالعسير لو كان عبد الرحمن الغافقى سياسياً كما كان قائداً ممتازاً ، فقد وصل المسلمون إلى قرب السين ، وكان على خليفة عنبسة أن يكمل عمله ، فيمضى بالمسلمين إلى قلب الدولة الفرنجية . ولكن حركة مونوسة[١] أفسدت الأمر كله ، وقد رأينا أنه من العسير أن نتعرف أسباب الجفوة التى طرأت بينه وبين عبد الرحمن ، وإن كان من الممكن ردها إلى ما كان بين العرب والبربر عامة إذ ذاك من التحاسد والتباغض ، وبما كان فى خلق عبد الرحمن نفسه من الصلابة والاستقامة ، مما لا يستبعد معه أن يكون قد كره هذه الصداقة المتصلة وذلك العهد المتين بين مونوسة وأودو .

وعلى أى الأحوال ، كانت ثورة مونوسة ونهوض عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل عبد الرحمن فى حملته الكبرى على غالة ، فقد غضب الدوق لما أصاب صهره وتوقع الشر من ناحية العرب وبدأ يُظهر الجفوة نحوهم ، فلم تعد لهم مندوحة من حربه أولاً ، ولهذا اتجه عبد الرحمن بقواته إلى عواصم أقطانية ففتحها كما سنرى ، وفر من بقى من جند الدوقية إلى الشمال وأخذوا يستنجدون ملك الفرنجة ، وانضمت قواتهم إلى قواته فكثر جمع النصارى أمام المسلمين . هذا إلى أن الحرب بين مونوسة وعبد الرحمن كانت حرباً بين البربر والعرب فى حقيقة الأمر ، وسنرى أن نفوس العرب والبربر لم تكن متفقة فى هذه الحملة كما كانت فيما سبقها ، وسيكون لهذا أثره البليغ فى هزيمة « بلاط الشهداء » التى سنفصل أمرها.

---

(١) راجع عنه :

ISIDORO PACENSE. C. 61.
RODRIGO XIMENEZ DE RADA, P. 12

جمع عبد الرحمن جنده فى بنبلونة ، واحتفل فى إعداد حملته هذه احتفالاً عظيماً ، لأنه كان يرجو أن يكون فتح غالة على يديه ، ثم اخترق بجنده جبال البرت فى أوائل صيف سنة ٧٣٢م من ممرات رونشفالة التى ستشهد مأساة رولان بعد ذلك بسنوات ، أى أنه لم يسلك الطريق المألوف الذى سار فيه العرب إلى ذلك الحين : طريق ساحل البحر الأبيض الذى يفضى إلى سبتمانية وحوض الرون ، بل طريقاً فى وسط الجبال يفضى إلى قلب دوقية أقطانية مباشرة . فلما أفضى إلى غالة اتجه أول الأمر نحو وادى الردانه لكى يمهد أمره ويحمى ظهره قبل أن يتجه إلى دوقية أقطانية فى الغرب .

١٠٤ـ فتح آرل

ويقال إن سبب اتجاهه إلى وادى الردانة خروج مدينة آرل (Arelatum) عن الطاعة وتوقف أهلها عن دفع الجزية ، فهاجمها واستولى عليها بعد معركة عنيفة [١] . فلما تم له ذلك وأمن ظهره توجه بجموعه نحو الغرب ليهاجم دوقية أقطانية (أكويتين) . وكانت هذه تتكون من عدد من الكونتيات أكبرها غسقونية وتمتد من جبال البرتات إلى حدود اللوار فى الشمال ، ومن نهير الأليه فى الشرق إلى خليج بسكاية فى الغرب ، وكانت تعد أعظم إمارات غالة بعد المملكة الفرنجية التى كانت تصاقبها على حدودها الشمالية مباشرة.

١٠٥ـ الاستيلاء على بزدال (بوردو)

توجه عبد الرحمن بقواته نحو بردال (بوردو) ، فخف الدوق بقواته لكى يوقف تقدمه ، ولقيه على ضفاف الدوردونى (Dordonia) على مقربة من ملتقاه بالجارون (Garona) فانهزم هزيمة قاصمة فقد فيها عدداً عظيماً من فرسانه وفر هارباً [٢]، وتقهقر أمام المسلمين نحو الشمال تاركاً لهم عاصمته بردال ، فدخلوها ونهبوها نهباً ذريعاً[٣]، فلما فرغوا منها انساحوا فى البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم ، فلما امتلأت أيديهم من الغنائم تقدموا نحو اللوار ، وكانت وجهتهم هذه المرة مدينة تور ثانية مدائن الدوقية على نهر اللوار وفيها كنيسة سان مارتان ، وكانت لها إذ ذاك

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، ص ٨٦ .

DOM VAISSETTE. Op. cit. I. p. 795 .

(٢) ISIDORO PACENSE. Chronicon. C. 95 .

ويبدو أن عدد القتلى من جيش أودو كان عظيماً ، لأن إيزيدور يقول :

"Deus numerum morientiun vel pereuntium recognoscat" .

(٣) DOM VAISSETTE. Op. cit. I. p. 795 .

شهرة ذائعة فى الآفاق ، فاقتحموا البلد وخربوا كنيستها(١) .

١٠٦ـ أودو يستنجد بشارل مارتل

هنالك أسرع أودو إلى قارله (شارل مارتل) يستنجد به ، إذ وجد نفسه مضطراً إلى مصالحته ، وبهذا توحدت قوى النصرانية فى غالة للوقوف فى وجه المسلمين . ورحب قارله بالفرصة ، لأنه كان تواقاً إلى بسط نفوذه على أكويتين وأراضيها الواسعة ، ولأنه كان قد استشعر الخطر الإسلامى منذ حين ، فقد غزا المسلمون منذ عام فقط بورجونيا وهى داخلة فى بلاده وصعدوا حتى قاربوا اللوار . وقد عرف قارله كيف يأخذ للأمر عدته ، فجعل يجمع الجند والفرسان من كل ناحية ، ولم يدخر جهداً فى ذلك ، فقد كان الخطر فى هذه المرة واضحاً جلياً ، ويبدو أنه لم يكتف بمن كان عنده من الجند فى غالة ، فبعث يستقدم جنداً من حدود الرين من نواحى أوستراسيا ، فأتته نجدات من جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة فى مثل هذا الجو البارد ، ويصفهم إيزيدور بأن أيديهم كانت حديدية ترسل ضرباتها القاصمة فى سرعة وقوة ، وبهذا اجتمع لقارله جيش قوى قدير على الثبات للعرب ومنازلتهم(٢) .

وينبغى أن نضيف هنا أن الفرنجة السالبين أنفسهم - ومنهم كان معظم جند قارله - كانوا قوماً بدويين أشداء لا يقلون عن العرب صلابة ولا شجاعة ، فقد مهدوا بحرابهم وصدورهم غالة كلها وغلبوا البرغنديين والقوط الغربيين وبقايا الرومان فى غالة وغلبوا السكسون عدة مرات وما زالوا بهم حتى كسروا شرتهم ، وانصاعت لهم جماعات كثيرة من

---

(١) "Tunc Abderraman suprafatum Eudonem Ducem insequens, dum Turonensem ecclesiam, palatia diruendo et ecclesias ustulando depraedari desiderat" ISIDORO PACENSE, Op. cit. c. 59 .

ولم يذكر إيزيدور اسم كنيسة القديس مارتين (سانكتوس مارتينوس) التى ذكرناها فى النص ، ولكن رودريجيث خينيث ذكر أن العرب خربوا كنيسة البلد الرئيسية .

Turonis civitatem, ecclesiam et palatia vastatione et incendio simili diruit et consumpsit .
cf : RODERIGUEZ JIMENEZ,12-13 .

أما صاحب ذيل تاريخ فريجيداريوس فيقول :

...Ad domum beatissimi Martini evertendam destinant .

أى : أنه يقول إن العرب أرادوا فقط تخريب الكنيسة ولم يفعلوا

Scolastici Fregedarii Continuatio II .

(٢) Ubi dum penè per septem dies utrique de pagnae conflictu excruciant, sese postremo in aciem parant, atque dum acrite r dimicant gentes septentrionales in ictu oculi ut paries immoviles permanentes, sicut et Zona rigoris glacialiter manent adtrictae. Arabes glodio enecant" ISID. PAC. Op. cit. c. 59.

المتبربرين كالسويف والآلان ، وكان مُلكهم فى ذلك الحين فى صعود ، إذ كان قارله حاجب الملوك الميروفنجيين ، وكان أبوه بيبين قد استولى على السلطان منهم ، وخلفه قارله واعياً لهذا المطلب البعيد وهو إزالة الميروفنجيين عن الملك والحلول محلهم . وكان سياسياً قادراً ومحارباً ماهراً ، استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى ، واجتمعت له قوات ظل يرقب بها الحوادث ، فلما بلغته أنباء الغزو العربى شعر ألا مندوحة له عن اتخاذ الأهبة ، ثم أقبل خصمه أودو يستغيث به فلبّى النداء وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرئبة للظفر وجنود متطلعة للقتال(١).

١٠٧ـ المعسكر الإسلامى قبيل المعركة وكان المعسكر العربى فى مثل هذه الحال من التوفز وعلو الحالة المعنوية : لم يكن ينقص المقاتلين الإيمان ولم تكن الخبرة لتعوز القيادة ، ولكن أموراً أخرى كانت تفل من عزيمة الجيش وتقلل من أمله فى الظفر .

أول هذه الأمور أن العرب بعدوا مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الإسلامية(٢). ويكفى أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق ، وبين جبل طارق ونهر اللوار ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة فى نواحى غالة كانت تقوم فى الواقع بمغامرة أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ ، لأنها كانت فى وضع لا تستطيع معه أن تحصل على إمدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . ولم يكن فى استطاعة هؤلاء المحاربين أن يحصلوا على إمداد من عامل الأندلس فى قرطبة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا فى العاصمة بل تفرقوا فى نواحى شبه الجزيرة وشغلوا بها إلى حد كبير عن الحكومة المركزية .

وقد رأينا فيما مر من الحديث أن عرب الأندلس هؤلاء كانوا فى واقع الأمر جماعات متفرقة فى النواحى لا يستطيع العامل استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبيات قد توزعتهم وفرّقت بينهم فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بنى عصبيته . وربما لم يكن لهذه النقطة الأخيرة أثر كبير فى تكوين جيش عبد الرحمن ، لأنه كان فى الواقع بعيداً عن نزعة العصبية ، فاجتمعت إليه أعداد كبيرة من عرب الأندلس جميعاً، إلا أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق العرب واختلفوا فيما بينهم اختلافاً شديداً

---

(١) GIBBON, Decline and Fall . II. p. 803.

(٢) أشار جيبون إلى هذا البعد الشاسع إشارة لطيفة جداً .
انظر : اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، ج٢ ، ص ٨٠٢ .

أدى إلى انسحابهم جملة ، ولو كانوا يداً واحدة لارتدوا بعد الهزيمة إلى أقرب مركز لهم ليستجمعوا قواتهم من جديد كما فعلوا بعد الهزائم المتكررة التى جرت عليهم فى إفريقية .

ولنضف إلى هذا ما كان بين العرب والبربر إذ ذاك من أسباب الخصومة ، وهى ظاهرة تاريخية ينبغى ألا يهمل حسابها فى كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الهجرى الثانى ، وقد رأينا مثلاً ثورة مونوسة وما جرَّته من وخيم العواقب ، وسنرى أثرها واضحاً كذلك فيما أعقب موقعة البلاط . وكانت غالبية الجيش الإسلامى المقاتل فى غالة من البربر ، وليست لدينا أية تفاصيل عن أعدادهم أو طوائفهم ، مما يحول بيننا وبين استجلاء حقيقة الموقف فى المعسكر الإسلامى قبل المعركة الحاسمة .

ومسألة أخرى كانت تضعف الجيش الإسلامى وتقلل من أمله فى الظفر ، هى الغنائم التى جمعها الغزاة المسلمون من النواحى التى مروا بها قبل لقاء الفرنجة فى الموقعة الفاصلة . وتتفق المراجع جميعاً على أن الجيش الإسلامى كان يجر وراءه قطاراً عظيماً محملاً بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، وربما بالغت المراجع النصرانية فى وصف أعمال السلب والنهب التى قام بها المسلمون فى نواحى غالة ، ولكن أكثر الأحكام اعتدالاً فى هذه الناحية يقرر أن المسلمين اجتمع لهم شىء عظيم جداً من أسلاب المدن وتحف الكنائس والقصور والحصون. ويبدو أن استمساك الجند بهذه المغانم كان عظيماً ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا نفراً منهم ليودعها أربونة أو برشلونة حتى يطمئنوا عليها وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، ولكنهم كانوا أحرص عليها من أن يفارقوها ، بل سنرى أنهم كانوا أحرص عليها منهم على النصر والظفر ، فكان هذا الحرص فى ذاته من أشد أسباب هزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم وعرف كيف يستغله لصالحه .

١٠٨ـ مكان المعركة ولسنا نعلم مكان الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة على وجه التحقيق : أغفلته الرواية الإسلامية فيما أغفلت ، وتركته الرواية النصرانية مبهماً فذكرت أنها كانت إلى شمال بواتييه Pictavens فى اتجاه تور ، أى على الطريق الرومانى القديم بين البلدين ، ونقول على « الطريق الرومانى » لأن اسم المكان كما تحدده الرواية العربية باسم «بلاط » الشهداء يُفهم منه أنها وقعت على مقربة من قصر كبير « بلاط»[1] وربما كان أقرب الآراء إلى الصحة فى هذا الموضوع ما ذكره بروفنسال من أن الموقعة كانت « على مقربة من

(١) LEVI- PROVENCAL : Hist. de l'Esp. Musulmane, I. p.44 .

طريق رومانى يصل شاتلرو(Chatellerault) ببواتييه ، على مسافة نحو عشرين كيلو متراً من المدينة الأخيرة ، وربما كانت عند الموضع الذى يسمى اليوم (Moussais- la Ba- taille)[١].

* * *

١٠٩ـ معركة بلاط الشهداء

لم تقدم لنا الرواية الإسلامية إلا إشارات عابرة مبتسرة عن هذه الموقعة الفاصلة ، ولا يعلل هذا الإغفال الغريب بمجرد رغبة الرواة المسلمين فى إخفاء معالم هذا الحادث المحزن ، لأن هؤلاء المؤرخين قدموا لنا تفاصيل طيبة عن هزائم أخرى نزلت بالإسلام على يد النصرانية ، كهزيمة الخندق ومأساة « العقاب » ، وكانت هذه الأخيرة أخطر من « بلاط الشهداء » وكانت مصيبة الإسلام فيها أعظم ، فكان إخفاء معالمها أَوْلَى ، فكيف اتفق أن كل ما تقدمه الرواية العربية عن هذه الموقعة لا يزيد فى مجموعه على عشرين سطراً موزعة فى نحو سبعة مراجع أو ثمانية ؟ بل كيف نجد نصوص هذه الروايات من الاضطراب بحيث يذهب ابن عذارى على دقة روايته إلى أن الموقعة حدثت سنة ١١٥هـ لا سنة ١١٤ ؟[٢] بل كيف يذهب ابن خلدون إلى أن قائد المسلمين الذى استشهد فى هذه الوقعة لم يكن عبد الرحمن الغافقى وإنما محمد بن عبيد الله بن الحبحاب ، وهى شخصية لم نسمع بها إلى الآن فى حوادث الأندلس ؟[٣] وكيف يذكر المقرى فى إحدى رواياته أن الواقعة حدثت أيام السمح بن مالك ؟[٤] كيف يقع هذا التناقض كله وذلك الإهمال كله فى وقعة مشهورة فريدة فى بابها كوقعة البلاط مع أن نفس هذه المراجع أوردت لنا تفاصيل هزائم إسلامية أخرى حدثت فى نفس الفترة على درجة كبيرة من الدقة والعناية ، كما رأينا فى هزيمة « تهودة » و« الأشراف » اللتين مررنا بهما ؟ ثم كيف نجد الرواية النصرانية لا تخطىء مرة واحدة فى ذكر اسم القائد الإسلامى الذى خلط رواتنا الثقات فيه هذا الخلط ؟

---

(١) ظن الكثيرون أن المراد بلفظ « بلاط » طريق مبلط ، وترجمها النصارى إلى pavé ، ولكن المراد بلفظ بلاط فى الأندلس قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » و « بلاط يوسف » ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ، واللفظ مشتق من Palatum اللاتينية . وعلى هذا فبلاط الشهداء معناها فى الواقع « قصر الشهداء » ، مما يُفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٤ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن حيان فى المقرى : نفح ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

الواقع أن المسألة لا تعلل إلا بشيء واحد : هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم ، فاندرجت أخبارها فى مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبق فى ذاكرة الرواة منها إلا أن أهل الإسلام قد هُزِموا فى هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتى ١١٤ و ١١٥ هجرية .

والدلائل كلها تنطق بأن الهزيمة كانت مروعة حقاً : **أولها** تسمية الموقعة ببلاط «الشهداء » وهى تسمية يُفهم منها أن عدد من استشهد فيها من المسلمين كان عظيماً جداً . **وثانيها** أن المسلمين لم يحاولوا الاقتراب من اللوار بعد ذلك أبداً ، ولو كانت هزيمتهم هناك يسيرة لعادوا إلى المحاولة ، ولو بقيت منهم بقية صالحة ما ترددت فى العودة . **وثالثها** هذا الصمت الغريب الذى تسدله الرواية الإسلامية على الموقعة . **ورابعها** هذا الإجماع على فداحة خسارة المسلمين الذى نجده عند المؤرخين النصارى فى هذا الموقف ، فضلاً عن مؤرخنا الأول ابن حيان الذى لا تدع روايته مجالاً إلى الشك فى مصاب المسلمين فى هذه الموقعة(١).

ولا مندوحة لنا عن الاعتماد على المراجع النصرانية فى وصف هذه المعركة الخطيرة، وينبغى أن ننبه إلى أن أقدم هذه المراجع - وهما المدونتان المنسوبة أولاهما إلى ايزيدور الباجى وثانيتهما المنسوبة إلى بلدة مواسياك (Moissiac) - قد كتبت أولاهما بعد الحادث بنيف وعشرين عاماً وثانيتهما بعده بنحو قرن ، ولم يزد ما كتبتاه معاً عن الموقعة على بضعة أسطر ، أما التفاصيل الكثيرة فترجع إلى مدونات متأخرة جداً تشوبها روح القصص والأساطير .

ونكتفى فى وصف تطورات هذه الموقعة بما أورده عنها إيزيدور الباجى وصاحب مدونة مواسياك وباولوس دياكونوس وصاحب ذيل فريجيداريوس الأول والثانى(٢).

---

(١) ... وذكر أنه - أى عبد الرحمن الغافقى (ويذكر ابن حيان السمح بن مالك خطأ) - قتل فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين ، فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان : فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » .

ابن حيان برواية المقرى فى نفح الطيب ، جـ ١ ،ص ١٠٩ .

(٢) ISIDORO PACENSE : Chronicon. cc. 58-59.60.

Chronicon Moissiacense. p. 166.

PAULUS DIACONUS , Ex Lib . VI .

Scolastici Fregedarii. Continuatio. II,III. apud Ajbar Machmua. p. 168 .

CODERA, Op. Cit. PP. 118 Sqq .

REINAUD : Op. cit. p. 34 Sqq .

١١٠ـ المعركة

وقع اللقاء بين قارله وعبد الرحمن فى الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢م / أواخر شعبان سنة ١١٤هـ . وتدل التفاصيل التى لدينا على أن كلاً من الفريقين كان يحس خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان فى المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام ظلا خلالها يتناوشان فى اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك فى قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون فى اختراق خطوط العرب يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحراب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثباتاً فريداً ، بل بدا فى بعض الأحيان - قرب مساء اليوم الثانى على الخصوص - أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم .

ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة فاخترقت صفوف المسلمين فى موضع ، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئاً عظيماً جداً ، فريع الجند الإسلامى المحارب وخشى الكثيرون من أفراده أن يستولى عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا إلى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها . وهنا اضطربت صفوف المسلمين واتسعت الثغرة التى نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها فى عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، بل أصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيوش المسلمين ، إذ انهال عليهم الفرنجة من كل جانب وحصدوهم حصداً . وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك فى العشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ).

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة لمواصلة القتال ، فلم يجدوا من المسلمين أحداً ، وتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هى خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن الأمر خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم فى تتبع المسلمين ، إما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شَرَكاً ، أو لأن قارله تبين ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيع العودة إلى الشمال مطمئناً إلى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

١١١ - بعد المعركة

وسندع التعليق على هذه الموقعة وأهميتها إلى أن نفرغ من تتبع الجيش الإسلامى فى أعقابها ، وليس لدينا مرجع عربى واحد نستطيع الاعتماد عليه فى هذا الصدد . ولا مفر لنا - هنا أيضاً - من الاعتماد على الروايات النصرانية وحدها . اندفع المسلمون فى تقهقرهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيريه (Guéret) وغزوا فى طريقهم بلدة ليموزين وخربوا كنيسة سولنياك (Solignac) ، وحينما أحسوا أن أحداً من النصارى لا يتتبعهم تمهلوا فى سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد . ويبدو أن فرقاً منهم شردت عن الجيش فوقعت فى أيدى النصارى ، ولدينا تفاصيل كثيرة من هذا النوع ، ولكنها جميعها غير ثابتة ولا محققة ، ولا نستطيع لهذا أن نتحدث عنها بأكثر من هذه الإشارة(١).

وتزعم الروايات النصرانية أن خبر الهزيمة الإسلامية تردد فى نواحى غالة الجنوبية وإسبانيا الشمالية فتواثب أهلها بالمسلمين من كل ناحية ، وتخطفوا فلول قواتهم المتراجعة . وليس لدينا على ذلك دليل ، وإن كان المعقول أن يطمع أهل هذه النواحى فى المسلمين ، لا لأنهم مسلمون بل لأن قواتهم فى غالة قد تفرقت بعد هذه المعركة ، فأسرع هؤلاء يفيدون من هذه الفرصة ، كما سيفعلون حينما ينقضون على مؤخرة جيش شرلمان النصرانى بعد ذلك بسنوات(٢).

وكانت هزيمة « البلاط » سبباً فى تعجيل عبيدة بن عبد الرحمن بتولية عبد الملك بن قطن الفهرى ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق إن كان عبد الملك قد قدم الأندلس من إفريقية أو كان من عربها المقيمين فيها ، ويغلب على الظن أنه كان من جند العرب فى الأندلس ، واختاره عبيدة للولاية من بينهم ، لأننا نجده من أول الأمر فى عصبة من الرجال يؤازرونه ويتعصبون له . وهو أمر لم يكن ليحدث لو أنه أتى من إفريقية ، خصوصاً وأن المراجع لا تذكر أن جماعة من العرب انتقلت إلى الأندلس فى ذلك الحين.

١١٢ - عبد الملك ابن قطن الفهرى يسير إلى غالة

وكان أول ما اهتم به عبدالملك هو المسير إلى غالة لإقرار أمر المسلمين فيها بعد موقعة البلاط وما تلاها ، وقد توجه بنشاطه أول الأمر إلى نواحى شمالى

(١) Gallia Christiana, II. p. 566 .
REINAUD. Op. cit. p. 49 .

(٢) GREGOIRE DE TOURS dans RUINART, De Gloria Confessorum. p. 934 et 1402 .
REINAUD, Op. cit. p. 50 .

الأندلس ، فهاجم نواحى أرغون ونبره ، ثم عبر البرتات وأفضى إلى لانجدوك واهتم بتحصين المعاقل التى كانت ما تزال فى أيدى المسلمين . وكانت نواحى سبتمانية إذ ذاك فى فوضى شاملة بسبب الحروب المتوالية وبسبب الاضطراب الذى نجم عن هزيمة البلاط وتقهقر جيوش المسلمين ، وكان الظاهرون من أهلها قد انتهزوا فرصة تلاشى أمر الدوق أودو لكى يتوزعوا النواحى فيما بينهم ويعلنوا أنفسهم أكناداً أو أدواقاً بها ، واحتربوا فيما بينهم . وكانوا جميعاً يكرهون أودو وقارله معاً ، وخشوا أن تؤدى هزيمة المسلمين إلى وقوعهم تحت سلطان أحدهما ، فجعلوا يستعينون بالعرب المتحصنين فى أربونة ، وتذكر المراجع منهم دوقاً يسمى ماورنت (Maurontes) اتخذ لقب دوق مرسيلية وحالف جند المسلمين وطمع فى السيادة على بروفانس كلها[١] .

وكان قارله مشغولاً إذ ذاك بتقرير سلطانه فى ولايتى بورجونيا وليون اللتين تم له فتحها، وكان المسلمون قد فتحوهما ثم تخلوا عنهما بعد الهزيمة وخلفوهما فى فوضى شاملة ، فأقام قارله فيهما نفراً من المخلصين له يسمون Laudes (أى الخلصاء) وفرض طاعته على أشرافهما . ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا (Frisii) ومضى لإخضاعهم وأنفق فى ذلك وقتاً ليس بالقصير . وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم فى ذخائر الكنائس وأملاكها ، فأغضب بذلك القساوسة وعامة الناس . وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة ، وكان قارله يميز جنده على أهل غالة الأصليين ويحرم عليهم الزواج منهم ويلزمهم بالعيش بعيداً عنهم ، فأبغضه أهل جنوبى غالة ، وفتر حماسهم نحوه ، وهكذا خسر ولاءهم[٢]، وأعان ذلك العرب على الثبات فى هذه النواحى ، بعد أن كان أمرهم قد تحرج وتواتر عليهم تواثب الناس ، حتى غدوا كالمحصورين فى أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعاقل.

١١٣ ـ المسلمون يستعيدون آرل وكان قائد جند المسلمين فى أربونة وغالة رجلاً تسميه المراجع النصرانية بيوسف (Jussef) ، والغالب أنه يوسف الفهرى الذى ستصير إليه ولاية الأندلس فيما بعد ، فاتحد مع ماورنت دوق مرسيلية (Massilia) ، وسار فعبر الردانه واستولى على آرل (Arelatum) وخربها وأطلق يد جنده فيما حولها حتى صارت قفراً

(١) REINAUD. Op. cit. p. 52 .

(٢) Gallia Christiana. I. p. 537. 544.600.620 .
REINAUD. Op. cit. pp. 53-54 .

خراباً بعد ذلك أربع سنين ، وتوغل بعد ذلك فى بروفانس واستولى بعد حصار طويل على بلدة فرتا(Fretta) التى تسمى اليوم (Saint-Remi).

١١٤ـ الاستيلاء على أبنيون ثم توجه نحو أبنيون (Avenionum) واقتحمها على أهلها بعد أن دافعوا عنها دفاعاً عنيفاً ، وأفضت جيوش المسلمين إلى نهير الديورانس (Du-rance) ووقفوا عند ذلك الحد بعد أن استعادوا بقيادة يوسف هذا جزءاً عظيماً مما كانوا قد فقدوه بعد وقعة البلاط ، وقد ثبتت قدم المسلمين فى هذا الجزء أربع سنين لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيه(١).

وقد لبث قارله ساكناً أثناء ذلك كله ، ولم يفكر فى المسير للقاء المسلمين مع نهمه إلى الأرض وطمعه فى توسيع سلطانه بأى سبيل ، وبدلاً من ذلك أسرع الى أقطانية حينما بلغه موت أودو سنة ٧٣٥م ، وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له . ولا يعلل انصرافه عن العرب وتجنبه لقاءهم إلا بأنه قد ذاق مرارة الحرب معهم وعرف جَلَدهم وقدرتهم فصار يتجنبهم ، وقد رأيناه يتخوف تتبعهم بعد موقعة البلاط مما يدل على أن تجربة « البلاط » لم تكن عسيرة على العرب وحدهم ، بل على قارله أيضاً . وكان هو أعرف الناس بأنه لولا تفطنه إلى حيلة مهاجمة معسكر الغنائم لما استطاع كسب معركة البلاط ، وقد كان يقود المسلمين فيها بطل من أبطالهم هو عبد الرحمن الغافقى، وهو جيش وحده .

١١٥ـ إخضاع إمارات البرت وكان عبد الملك بن قطن قد اطمأن إلى جهد قائده فى أربونة ، فلم يتجشم عناء المسير نحو الردانه ، فوجَّه همه نحو إمارات جبال البرت(٢) ليكسر شرة أهلها ، وكانوا كما رأينا قوماً جبليين شديدى المراس قد ضروا على حروب الجبال

(١) Chronicon Moissiacense, p. 166 .
Recueil des Historiens de France, II,p.655
Fregedarii Scolastici Continuatio, dans Recueil des Historiens de France, op. cit . II p.456.
ويسمى العرب فى ذلك النص الإسماعيليين :
" Denuo rebellante gente validissima Ismahelitarum,irrumpenteque Rhodanum Fluvium ... "
PAPON : Hist . de provence, I, p. 85 .
M. DE LAGOY : Description de quelques médailles inédites de Massilia (Aix,1834) p. 23.
REINAUD, Op.cit. pp. 54 - 55 .

(٢) لم تكن جبال البرت إذ ذاك فاصلاً بين غالة وإيبيريا كما هى اليوم فاصل بين فرنسا وإسبانيا ، وإنما قامت فيها إمارات تمتد على جانبى الجبال فى غالة وإيبيريا ، وهذه الإمارات هى النويات التى نشأت حولها فيما بعد ممالك نبرة وأرجون.

والعصابات ولم يكن قد أخضعهم إلى ذلك الحين أحد ، وقد لقى عبد الملك فى الحروب معهم بلاء شديداً وهزموه فى معركة كبيرة لا تذكر المراجع زمانها أو مكانها ، وكان بطبعه رجلاً سيىء السياسة عنيفاً ظلوماً ، فلم تلبث الشكوى منه أن وصلت الى إفريقية واتصلت إلى دمشق ، وانضافت إلى ذلك هزيمته فعجلت بعزله . وكانت ولاية إفريقية قد صارت إلى عبيد الله بن الحبحاب ، فعجل بعزل عبد الملك وبعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان أفضل من عبد الملك من كل وجه[١].

كان عقبة بطبعه رجلاً مجاهداً ، مثله فى ذلك مثل عبد الرحمن الغافقى ، وكان قد اختار ولاية الأندلس لأنها « موضع جهاد » كما قال[٢]، وكان مسلماً صلباً عادلاً متفانياً فى القيام بأعباء منصبه الجديد ، وكان عبد الملك قد أفسد الأمور ونفَّر أهل الأندلس ، عرباً وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فصرف عقبة همه إلى إقرار الأمور وإشاعة العدل فى الناس، ثم تجرد للغزو فى شمالى الجزيرة ، وصرف همه أول الأمر نحو الثائرين فى أشتريس ، فلما أَوْفَى على غايته فى هذه الناحية انحدر إلى الشرق ، فنزل سرقسطة وتوجه منها نحو البرتات وغالة .

١١٦ ـ عقبة ابن الحجاج السلولى يجدد نشاط الفتوح فى غالة

وكان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامهم فى بروفانس قد تحصنوا فى المدائن الكبرى وحوَّلوها إلى رباطات ثم جعلوا يرقبون الحوادث . فلما أقبل إليهم عقبة بحماسه ورغبته فى الجهاد نهضوا معه نحو ناحية الدوفينيه (Dauphiné) واستولى عقبة على سان - بول - تروا - (Saint-Paul Trois-Chateaux) ـ ودونزير(Donzaire) وخربوهما . ثم اتجه نحو الشمال فى جرأة وحزم فاستولى على فالانس وخرب جميع الكنائس المحيطة بفيين (Vienne) ، وكان من معه من الجند ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدركوا ثأر معركة « البلاط » ، فمضوا معه يشتدون لا يكادون يقابلون شيئاً عامراً إلا خربوه .

---

(١) REINAUD : Op. cit. p.55 .

ويذكر رينو فى نفس الموضع أن الخليفة أبقى لعبد الملك ولاية الثغور الشمالية فى الأندلس ومنطقة البرتات ، ولا نعرف المصدر الذى استقى منه هذا الكلام ، وكل ما نعرفه هو أن عبد الملك بقى فى الأندلس بعد عزله وأنه كان يتمتع بمركز ممتاز بين اليمنيين فى الأندلس ، وقد ظل يدبر على عقبة حتى وثب به فى أخريات أيام ولايته واسترد ولاية الأندلس من جديد كما نعلم .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧-٢٨ .

١١٧ـ إعادة فتح بورجونيا وصعد بهم عقبة مع ردانه حتى أعاد فتح إقليم بورجونيا كله ، واستولى على ليون من جديد ، وامتد جناح المسلمين الشرقى فى إقليم دوفينيه حتى وصل إلى بيدمنت فى شمالى إيطاليا ، وبدا أن المسلمين مستعيدون مراكزهم كلها فى غالة عن قريب(١).

هنا تحرك قارله للعمل من جديد ، وكانت حروبه مع أعدائه فى شمال أوستراسيا وشرقها قد انتهت إلى هدنة مؤقتة سنة ٧٣٧م واستطاع التفرغ للسير نحو الجنوب ، فعجل بإرسال أخيه شلدبراند (Childebrand) - ساعده الأيمن فى كل حروبه - فى جيش كثيف نحو أبنيون ، وكتب إلى لويتبراند (Luitbrand) ملك اللومبارد فى شمال إيطاليا يسأله المسير لمهاجمة جناح المسلمين الشرقى المتحصن فى جبل بيدمنت . وانحدر شلدبراند مع الرون حتى وصل أبنيون وبدأ حصارها ، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها فعجز الجيش الفرنجى عن اقتحامها ، واضطر قارله إلى المسير بنفسه فى جيش جديد ، وشدد الأخوان الحصار واستعانا بآلاته ، وتقدم لويتبراند فى نفس الوقت وهاجم المسلمين عند بيدمنت ، وأمام هذا الضغط الشديد لم يستطع المسلمون الاستمرار فى الدفاع عن أبنيون ، ولكنهم لم يسلموا البلد واستماتوا فى الدفاع عنها حتى اقتحمها الفرنجة عليهم . ويصف صاحب ذيل مدونة فريجداريوس استيلاء قارله على البلد بقوله :

«... وأحاط كارولوس (قارله) بالبلد وحاصر أسوارها حصاراً حديدياً (in modum Hierico) بجيش ضخم وأبواق ذات أصوات عالية وآلات حرب وأدوات مفزعة مركَّبة على الأسوار ، وحفرت حول الأسوار خنادق ، وتواترت على البلد جيوش جرارة فلم يلبث البلد أن سلم»(٢).

---

(١) Gallia Christiana : I, 703-737
REINAUD : Op. cit . p . 57 .

(٢) PAULUS DIACONUS, Lib. VI apud Achbar Machmua., p.167

ونصه :

"... Cum machines et restium funibus super muros et aedium moenia irrunt, urbem succedunt,hostes capitiunt interficientes trucidant ..."

وخلف لويتبراند لوحة عند بافيا أشار فى بضعة أبيات نقشها عليها إلى ما صنعه مع العرب فى شمال إيطاليا بقوله :

Deinceps tremuere feroces
Usque Saraceni, quos dispulit impiger, ipso,
Cum dremerent Gallos, Carolo poscente juvari =

ثم تقدم الجيش الفرنجى نحو أربونة معقل العرب الرئيسى فى غالة ، وتذكر المراجع النصرانية أن قائده كان يسمى أثيمة (Athima) وربما كانت صحته « هرثمة ». وتذكر المدونات اللاتينية أن أمم البرت وثبت بالمسلمين من جديد وقطعت مواصلاتهم مع الأندلس ، فلم يبق للقوات الإسلامية فى غالة إلا أن تتصل بمراكزها الرئيسية فى إسبانيا عن طريق البحر ، فعجل عقبة بن الحجاج بإرسال مدد عن طريق البحر يقوده قائد عربى يسميه إيزيدور الباجى (Amor) وصحته عمرو أو عمر على الغالب ، فنزل المدد على شاطىء غالة فى موقع قريب من أربونة ، فأسرع قارله للقائه ، والتقى به يوم أَحَد على شاطىء نهير البر (Berre-Birra) على بضعة فراسخ من أربونة ، ويذكر صاحب مؤرخة مواسياك أن القائد العربى كان قد تحصن على ربوة عالية واعتمد على كثرة جنده ولم يتخذ الحيطة ، ففاجأه قارله على غِرَّة وأنزل به هزيمة قبيحة استشهد فيها عمر نفسه ، ولم ينج ممن معه إلا عدد قليل استطاع بعضهم الوصول إلى أربونة ودخولها ، وحاول الباقون الهرب فى المراكب فتعقبهم الفرنجة فى مراكب صغيرة وأصابوا كثيرين منهم[(١)].

١١٨ـ قارله يفشل فى الاستيلاء على أربونة وعاد قارله يشدد الحصار على أربونة ، واستبسلت حاميتها الإسلامية فلم يدرك الفرنجة منها على طول الحصار منالاً ، فاضطر إلى رفع الحصار والتقهقر إلى الشمال . ويبدو أن أهل غالة الجنوبية وقفوا منه موقف العدو ولم يعينوه على ما طلب من إخراج المسلمين ، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم فى النواحى التى دخلوها إنْ هى إلا مبالغات قساوسة ومزاعم رهبان نصارى. فأراد قارله الانتقام من أهل غالة ليعزى نفسه عن فشله أمام حصون أربونة ، فعسفهم عسفاً شديداً ، وخرب حصون بيزييه وأجدة ونيمة . وقد لقيت هذه البلدة النصرانية الأخيرة من الويلات على يد قارله شيئاً كثيراً ، فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران ، وفعل قارله مثل ذلك بمجلونة (Magallona) وكانت إذ ذاك من المدن الزاهرة فى

= Cf : SIGONIUS .De Regno Italiae, anno 743

وأما تفصيل حصار قارله لأبنيون المذكور فقد ورد فى :

Fregedarii Continuatio III, apud Achbar Machmua pp. 168-169.

وانظر أيضاً Recueil des Historiens des Gaules, II. p. 486 .

REINAUD, Op. cit. pp. 57-59.

(١) Continuatio Scolastici Fregedarii III, Loc . cit .

Chronicon Moissiacense apud Achbar Machmua pp. 165-166.

هذه الناحية . وعاد إلى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين ، أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم إرغام أهل نواحيهم على التخلي عن عون العرب ، مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبية كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة ، وذلك طبيعى ، لأن الفرنجة كانوا إذ ذاك أجلافاً قساة بعيدين عن كل تمدن ، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصلاً في مسائل الحكم والتنظيم .

ويؤيد المؤرخ رينو ذلك بقوله : « ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبغضاً إلى أهل غالة الجنوبية ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها ، فكانوا ينظرون إلى أهل الشمال نظرتهم إلى متبربرين همج لم تزايلهم طوابع الجلافة الجرمانية . ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بممتلكات الكنائس . وكان العرب فى تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات ، فلما أقبل قارله وأخرج العرب لم يُعِد إلى رجال الدين ممتلكاتهم ، وإنما فرَّق الأراضى والمنازل على جنوده ، فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خراباً لقلة تعهدها بالعناية . ويذكر التاريخ فيليكاريوس (Vilicarius) أسقف فيين الذى حاول ، بعد خروج العرب من المدينة ، أن يسترجع ممتلكات أسقفيته ، فلما وجد أنها تفرقت فى أيدى غير رجال الدين غادر بلده ومضى إلى دير القديس ماوريكيوس (سان موريتز الآن) ، ولم تصلح هذه الأخطاء إلا خلال الأعوام التالية شيئاً فشيئاً ، فى حكم ببين وشارلمان »(١).

١١٩ ـ العرب وأهل غالة

وعبارة رينو تفسر لنا سر كراهية أهل غالة الجنوبية للفرنجة ، ولكنها لا تفسر لنا سر ميلهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم ، وليس لذلك إلا تفسير واحد لم يشأ المؤرخ أن يذكره ، وهو أن المسلمين كانوا يحترمون الدين وأصحابه ، ولم تمتد يدهم بالأذى إلى أموال الناس فيما دخلوه من البلاد إلا بقدر ما اضطرتهم إليه الضرورات العسكرية . وقد رأينا المسلمين ينصفون الناس فى الأندلس ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية ، فمن عجب أن تتغير خطتهم دفعة واحدة بعد دخولهم غالة ! وقد كان قائدهم إذ ذاك رجلاً اشتهر بالعدل وإيثار الحق هو عقبة بن الحجاج السلولى

(١) انظر عن هذه التفاصيل مدونة مواسياك والذيل الثالث لمؤرخة فريجيداريوس فى المواضع المشار إليها آنفاً .
C*f*: CHARVET : Hist . de la Sainte Eglise de Vienne , p. 147.
REINAUD : Op . cit. pp. 59-61 .

الذى تجمع المراجع النصرانية نفسها على الثناء عليه ، ومن أسف أن مراجعنا العربية تضن علينا بسطر واحد ينير أمامنا الطريق فى هذا الموطن المبهم ، إلا عبارة يسيرة عن سلوك عقبة تؤيد ما قلناه ، تقول إن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألفا رجل بذلك(١) ، مما يأذن لنا فى القول أن عقبة ومن عمل تحت إمرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى (وكان مصيرهم القتل فى قواعد الحرب فى تلك الأيام) فكيف بأهل المدن والأرياف الذين يستسلمون ويؤدون الجزية دون حرب ؟ وكيف ولدينا البرهان الساطع على حسن تصرف المسلمين مع أهل هذه النواحى من انضمامهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم على ملك الفرنجة وأودو وغيرهما من طواغيت الجرمان ؟ وحتى كتابات الرهبان - على تعصبها الشديد - تفيض بالشكوى من مساءات الفرنجة وملكهم قارله ، وقد كتب معظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، أى فى ظلال امبراطورية شرلمان ، فلابد أن كتابها خفَّفوا كثيراً من مساءات قارله ، وأما ما فيها من الأقوال عن أفاعيل المسلمين فمبالغات تقرب من الأساطير ، ولا يستطيع التاريخ المنصف أن يقبل إلا القليل منها(٢).

وكان الدوق ماورنت قد عاد إلى بروفانس بعد انصراف قارله ، وعقد الخناصر مع المسلمين من جديد ، فتخوف قارله من عواقب ذلك وقرر المسير إلى الجنوب مرة أخرى لمحاولة القضاء على هذا الخصم العنيد ، فانحدر سنة ٧٣٩م مع أخيه شلدبراند ووجهتهما ماورنت وبلاده ، واستوليا على ماسيليا (مرسيليا) قاعدة دوقيته وطرداه من البلاد ، وأقاما المحارس على الشاطىء المقابل لشواطىء إسبانيا وحالا بذلك بين العرب وبين الاسترسال إلى شرقى ردانه من جديد(٣).

بيد أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا التحدى ، وجعلوا همهم بعد ذلك

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٩ .

(٢) راجع ما يقوله رينو فى هامش ص ٦٣ :

« يبدو أن التفاصيل الواردة فى تاريخ حياة القديس بوركاريوس Porcarius بخصوص أعمال التخريب التى أحدثها العرب فى داخل إقليم بروفانس تنصب على ما فعله المتبربرون فى هذه النواحى حينما نزلوها بعد سنة ٨٨٩م» .

وهى ملاحظة قيمة تؤيد ما قلناه ، وهو أن الرهبان نسبوا كل ما أحدثه المتبربرون الجرمان من التخريب فى شمالى إيطاليا وجنوبى غالة إلى العرب . ويشير المؤلف إلى كتابات البولانديست (Bollandistes) بتاريخ ١٢ أغسطس ٧٣٧م.

(٣) Continuatio Fregedarii, III, Loc. cit .

REINAUD. Op. cit. p. 63

نزول بروفانس ودوفينيه من ناحية البحر . وأعانهم الحظ بموت قارله (٧٤١م/ ١٢٣هـ) واضطراب الأمر من بعده حيناً حتى استقراره لابنه بيبين الثانى ، ولكن ظروفهم لم تعنهم على الاستفادة من هذه الفرصة استفادة كاملة ، لأن فتنة البربر فى الأندلس وإفريقية كانت إذ ذاك على أشدها ، فتوقفوا عن مدد حامياتهم فى غالة[١].

وكان عقبة بن الحجاج قد توفى (صفر سنة ١٢٣هـ/ يناير٧٤١م) على ما رأينا ، وصار الأمر مرة أخرى إلى عبد الملك بن قطن : وثب عليه هو ومن معه من اليمنية واستبدوا بالبلاد وأشعلوا الأندلس ناراً ، ثم أقبل بلج والقيسيون ونازعوه الأمر وانتزعوا الإمارة وقتلوه ، فثارت اليمنية على كلمة واحدة .

١٢٠ـ عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ينصرف عن غالة بجنده

وكانت قيادة المسلمين فى غالة قد صارت إلى عبد الرحمن بن علقمة اللخمى على أوائل أيام عبد الملك بن قطن ، وكان عبد الرحمن يمنياً متعصباً فلم يكد يترامى إليه خبر مقتل عبد الملك حتى قرر المسير إلى قرطبة للانضمام إلى قطن وأمية ابنى عبد الملك بن قطن ، وأخذ معه معظم من معه من أنجاد الجند ، حتى لتزعم المراجع العربية أن عدة من سار معه إلى قرطبة كانت مائة ألف[٢] . وهى مبالغة ظاهرة ولكنها تدل على أن غالة خلت من أنجاد مقاتليها من المسلمين ، فتضعضع مركزهم فيها نتيجة لهذا ، وكان ذلك من أقوى الأسباب فى زوال أمر الإسلام من غالة جملة ، وكان عبد الرحمن نفسه من خيرة قادة المسلمين وفرسانهم حتى لكان يلقب بـ « فارس الأندلس» وكان قيامه بقيادة جند الإسلام فى غالة خير ضمان لثبات أمر الإسلام فيها ، فأما وقد انصرف بمن معه ، وألقى بنفسه فى معمعة « المصارة » وفقد الآلاف من خيرة جنده فيها ، فلم يعد للمسلمين أمل كبير فى الثبات فيها وراء البرتات ، خصوصاً وقد انتظم أمر الدولة الفرنجية واستتب الأمر لبيبين فى أوستراسيا ودان له ابنا أودو صاحبا أقطانية بالطاعة ، وتمهد أمامه الطريق للتجرد لحرب المسلمين .

ولا غرابة والحالة هذه أن نقرأ فى المدونات النصرانية أن كبريات مدائن سبتمانية مثل بزييه ونيمة ومجلونة تخلصت من الحكم الإسلامى، وقامت فيها حكومات محلية من أهلها ،

(١) REINAUD. Op. cit. p 72 .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
وانظر أيضاً :
ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

وكذلك حدث فى إمارات البرتات مثل كنتبريه ونبره ، خلعت طاعة المسلمين وصار أمر أهلها بأيدى أنفسهم(١).

ولم يكد الأمر يستقر ليوسف الفهرى والصميل (من ربيع الثانى سنة ١٢٩هـ/ ديسمبر سنة ٧٤٦م) حتى عجل يوسف بإرسال ابنه عبد الرحمن فى بعث إلى نواحى البرتات لإقرار أمر الإسلام فيها من جديد ، فلقى مقاومة عنيفة ولم يوفق إلى شىء يذكر . وكانت المواصلات بين جند المسلمين فى أربونة وأجنادهم فى شمالى الأندلس قد تقطعت ، فطمع فيهم فايفر (Vaifre) ولد أودو الذى صارت إليه أمور أقطانية بعد نزاع طويل مع أخيه فى سنة ٧٥١م/ سنة ١٣٣هـ . وكان عبد الرحمن بن علقمة اللخمى قد عاد إلى أربونة بعد هزيمته مع اليمنيين فى وقعة المصارة فتولى الدفاع عن أربونة ، ولكن أمره كان قد ضعف بسبب ما فقده من الجند فى حروب العصبيات فى الأندلس(٢) .

١٢١ـ ببين الثانى يهاجم أربونة

وكان مركز ببين قد قوى فى غالة كلها بعد أن انحاز إليه البابا ونقل إليه التاج من آخر الميروفنجيين (سنة ١٣٣هـ/ سنة ٧٥١م)فبادر بالمسير فى جيش كبير نحو أربونة عام ١٣٣ - ١٣٤ هـ / ٧٥٢م . وأعانه الحظ بوجود حليف قوى من قوط جنوبى غالة يسمى أنسموندوس (Ansemundus) كان سلطانه يشمل بلدان نيمة وأَجْدةَ ومَجَلُّونة وبزييه ، فسلمها إليه ، وبهذا لم يبق أمام ببين إلا أن يوجه قواته كلها نحو أربونة ، فتقدم وحاصرها فترة من الوقت ، ولم يلبث أن استبان مناعتها وصعوبة الاستيلاء عليها ، فتركها وخَلَف أنسموندوس ليمضى فى الحصار . ودارت الحرب بين أنسموندوس والمسلمين ، فلم يلبثوا أن أوقعوا به : فاجأه كمين منهم وقتله ، وحلَّت مجاعة شديدة بجنوب غالة كله ، فلم يستطع جند الفرنجة الاستمرار فى حصار أربونة ، فاضطروا إلى الانسحاب منها ونجا البلد من خطر الحصار هذه المرة أيضاً(٣) .

ولم يجِدّ جديد فى أمر أربونة خلال السنوات السبع التالية ، لأن أهل الأندلس شغلوا بأمر عبد الرحمن الداخل وتأسيس دولته ، فظلت حامية البلد قائمة بالدفاع عنها معتمدة على نفسها دون أن يعمر قلوبها أمل فى وصول نجدات من المسلمين ، ولكن الحظ أعانهم

(١) REINAUD. Op. cit. p.77.

(٢) REINAUD. Op. cit. pp. 76-77.

(٣) Cronicon Moissiacense. Loc. Cit . REINAUD. Op. cit . p. 78.

باشتغال بيبين عنهم بما دهاه من الثورات فى بلاده ، فظلت أربونة وبعض نواحى سبتمانية ثغراً إسلامياً يقوم للأندلس الإسلامى كالدرع الحصين دون أن يفطن أهل الأندلس إلى هذا الدور الخطير الذى لعبه هؤلاء المسلمون المنعزلون فى هذه الناحية القاصية يحيط بهم الأعداء من كل ناحية .

ولم تغب عن عبد الرحمن الداخل أهمية هذا الثغر ، فلم يكد الأمر يستقر له حتى أسرع فى سنة ١٤٠هـ/ سنة ٧٥٨م بإرسال بعث قوى يقوده قائد تسميه المراجع النصرانية سليمان(١) ، ولكن التوفيق أخطأ هذا البعث ، إذ دهمه رجال العصابات فى ممرات جبال البرت الخطرة ومزقوه إرباً(٢) . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأندلس لإنقاذ آخر معاقل الإسلام فى غالة ، إذ روعت هذه الكارثة عبد الرحمن فلم يعد يفكر فى أمر حامية غالة ، وشغلته الثورات الكثيرة التى تواترت عليه ولما يستتب سلطانه .

١٣٢ـ سقوط أربونة (سنة ١٤١هـ / سنة ٧٥٩م)

فإذا كانت أربونة قد تُرِكت لشأنها على هذا النحو المحزن ، ولم يعد أحد يفكر فى نجدة أهلها أو استغلال موقعها الذى بذل المسلمون تضحيات كبرى للتمكن منه ، ودافعت عنه جماعات منهم بعد جماعات ثبتت كلها للهجمات المتوالية من جيوش الفرنجة ومن انضم إليهم من جماعات الجرمان قرابة الثلاثين عاماً ، إذا كان هذا حالها الذى صارت إليه ، فقد كان من الطبيعى أن يضعف أمر حاميتها إلى حد لا تستطيع معه الثبات . والواقع أن انتصار رجال العصابات على البعث الإسلامى الذى أرسل لنجدتها سنة ١٤٠هـ/ سنة ٧٥٨م وتبيُّن نصارى جنوبى غالة أن حامية أربونة وحاميات غيرها من المعاقل الإسلامية فى سبتمانية باتت وحيدة منعزلة لا يزداد أمرها مع الأيام إلا ضعفاً ، فزاد طمعهم فيها وأخذوا يتربصون بها . فلما كانت سنة ٧٥٩شعر أهل أربونة من النصارى أن فى استطاعتهم الوثوب بمن بينهم من المسلمين وإخراجهم منها ، وكان الفرنجة قد أرسلوا بعثاً حاصرها ، فتشجع أهل أربونة وانقلبوا على

(١) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء رجلين من رجال دولة عبد الرحمن الداخل يسمى كل منهما أبا سليمان : الأول أبو سليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والثانى فطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان أبو سليمان الكاتب . والراجح أن المراد هنا هو الأول ، لأن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن ولاه طليطلة وأعمالها ، وقد توفى أبو سليمان هذا فى عهد عبد الرحمن فى حين توفى الثانى فى عهد الحكم الربضى .
انظر :
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٥ وما بعدها وص ٦٠ .

(٢) REINAUD. Op. cit. p. 81 .

الحامية الإسلامية على حين غِرَّة ، فقتلوا من أفرادها نفراً عظيماً وأسرعوا ففتحوا أبواب البلد للفرنجة ، وعجل بيبين بإرسال بعث قوى أكمل ما بدأ به أهل البلد ، وقضى على ما بقى للمسلمين من الجند فى أربونة ، وبهذا ضاع هذا المعقل الإسلامى الفريد ، بعد أن ظل فى يد المسلمين قرابة الثلاثين سنة يؤيد سلطانهم على سبتمانية ومعظم نواحى جنوبى غالة[١].

١٢٣ـ بقايا المسلمين فى غالة وبقيت من المسلمين بعد ذلك جماعات صغيرة تسيطر على بعض نواحى دوقية الدوفينيه وكونتية نيس ، واعتصمت جماعات منهم فى شعاب الألب الغربية ، وظلت هذه الجماعات تقيم فى هذه النواحى طوال عصر شرلمان ، وتذهب بعض نصوص- غير موثوق فى صحتها - إلى أن تلك الجماعات الإسلاميـة استولت على جرينوبل فى تاريخ غير محدد بالضبط . وقد ظلت هذه الجماعات الإسلامية مقيمة فى هذه النواحى حتى نزل المسلمون شاطىء فرنسا الجنوبى مقبلين من صقلية وقرصقة بعد مائة وثلاثين عاماً على ما فصلناه فى دراسة أخرى[٢]. ولكننا نستطيع القول أن تاريخ سيادة المسلمين فى جنوبى غالة ينتهى بسقوط أربونة سنة ٧٥٩ ميلادية[٣].

١٢٤ـ نتائج سقوط أربونة وبعد أن سقطت أربونة تغير الوضع فى شمال الأندلس الغربى تغيراً تاماً ، إذ رفعت الولايات النصرانية الواقعة فى منطقة البرت رأسها وانتعشت بقيام الدولة الشرلمانية ، فقوى أمرها واستمدت العون من غالة ، وهنا يبدأ تاريخ « الثغر الإسبانى » الذى نشأت عنه إمارة قطلونية (كتلونيا) فيما بعد ، وسنرى شرلمان بعد

(١) وردت تفاصيل كثيرة عن هذا الحادث فى قصة فيلومين PHILOMENE التى نشرها M. CIAMPI فى فلورنسه سنة ١٨٢٣ تحت عنوان :

Gesta Caroli Magni ad Carcassonam et Narbonam

ويبدو أن هذا المرجع لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن رينو يقول إن المؤلف يزعم أنه كتبه بأمر شرلمان ، ولكن هذا الكتاب الذى كتب أول الأمر بالبروفنسالية والذى يضع المؤلف فيه فى عصر شرلمان حوادث وقعت على أيام أبيه بيبين وجده قارله ، قد كتب فى القرن الثانى عشر على الأغلب ولا يستحق أية ثقة :

REINAUD ,Op. cit. p. 81 et note I .

(٢) انظر : حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية .مجلة الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٥٤ .

(٣) REINAUD . Op. cit. p. 82 et note I .

ومراجعه :

Gallia Christiana. III, p. 1275.

M. DE COURCELLES : Hist . généalogique des pères de France

المواد الخاصة بـ Clermont- Tonnère , Agoult ، ولا يوافق رينو على كثير مما ورد فى هذه المراجع .

سنوات يعبر البرت ويحاول الاستيلاء على سرقسطة[١].

وقبل أن نترك غالة وتاريخ المسلمين فيها ، لابد من أن نتعرف أحوال المسلمين أثناء إقامتهم فيها ، والنظم التى ساروا عليها فى تنظيم ما كان تحت سلطانهم من نواحيها .

١٢٥ـ أحوال جنوبى غالة تحت الحكم الإسلامى

لا نملك عن ذلك الموضوع إلا معلومات عامة وأمثلة قليلة لا يُؤْمَن القياس عليها . والثابت على أى حال أن مقام العرب فى غالة لم يدم على هيئة مستقرة إلا نحو ثلاثين سنة ، وأن المسلمين لم يسيطروا فيها على مساحات واسعة يستطيعون أن يطبقوا عليها نظاماً ثابتاً كما كان الحال فى الأندلس مثلاً ، ولو قد انتصر المسلمون فى وقعة البلاط وتلاشت المقاومة الفعلية أمامهم لأخذت الأمور مجرى آخر : إذن لنشأت ولاية جديدة فى غالة ، ولأرسل عامل الأندلس إليها العمال والرجال . فأما وقد انهزم المسلمون فى محاولتهم الكبرى فقد وقفت ممتلكاتهم فى غالة عند وضعها الأول ، وظلت معتبرة ثغراً للأندلس فيما وراء البرتات ، يقيمون فيها ويحافظون عليها ليحموا ما وراءها ، ولنهضوا فيها للغزو إذا ما أمكنتهم الفرصة . والمعروف أن الولايات الإسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، هكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضاً واسعة دون نصر حاسم ، كما ملكوا جزءاً من آسيا الصغرى ، فلم تنشأ ولاية إسلامية فى آسيا الصغرى على الرغم من أن ما كانوا يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلاً .

ظلت فتوح المسلمين فيما وراء البرتات معتبرة إذن ثغراً تابعاً للأندلس من الوجهة الإدارية ، والأدلة كثيرة على أن عمال الأندلس اعتبروا سبتمانية ثغراً عسكرياً لا كورة إدارية، وقد نشأ هذا الثغر فى أيام السمح بن مالك ، فهو الذى افتتح أربونة ونيمة وأجدة ومجلونة ووصل بالفتح إلى ليون ، ولو لم ينهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غالة على سبتمانية وبعض الأراضى الساحلية الواقعة شرقى الردانه ، ولجعل المسلمون عاصمة ثغرهم فى أبنيون أو طولوشة أو غيرهما من كبار المراكز التى تسيطر على جنوبى غالة كلها ، فجاءت هذه الهزيمة قاضية على الآمال ، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الجنوب والتحصن بناحية سبتمانية .

---

(١) REINAUD . Op. cit. pp. 81-82 .

وقد حاول عنبسة بن سحيم أن ينتصف لمقتل سلفه فقام بغارته الكبرى التى لم تزد على أن تكون مظاهرة عسكرية رائعة ولكنها قليلة الأثر ، ثم جاء عبد الرحمن الغافقى وأراد أن يفتح غالة فتحاً دائماً ، وأعد عدته لملاقاة النصرانية فى معركة حاسمة فانهزم هو الآخر وقتل ، ثم جاء عقبة بن الحجاج وحاول أن يصل إلى ما فشل فيه عنبسة وعبد الرحمن فكان أحسن حظاً وإن لم يصل إلى نتيجة ، ومضى عن الولاية وأملاك المسلمين شمال البرتات لا تزيد عن إقليم سبتمانية .

١٢٦ـ لماذا لم يوفق المسلمون إلى البقاء فى غالة ؟

ومن الواضح أن ضعف مركز المسلمين فى غالة إنما أتى من اقتصار معظم محاولاتهم على العبور إلى غالة من الأبواب والممرات الشرقية ، فانصرفت جهودهم كلها على الجنوب الشرقى لغالة وحوض ردانه ، ولو نفذوا من الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطروا على أقطانية وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم وثبّتوا أقدامهم فى جنوب غالة كله ، ولاستطاعوا أن يكونوا أثبت أقداماً فى المعارك التى هزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة وعند تور مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماماً فى الركن الغربى من جبال البرتات ، وظلت أقصى فتوحهم فى هذه الناحية عند بنبلونة جنوبى البرت ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جبليون ذوو مهارة حربية وجَلَد لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث إسلامى إلا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غِرَّة فى المسلمين إلا انتهزوها .

وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من آكد الأسباب فى زوال سلطانهم عن منطقة البرتات وما صاقبها من الشمال والجنوب ، وستكون هذه النواحى مهداً تولد فيه الكثير من الولايات الإسبانية النصرانية التى ستناوىء المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية ورباجورثا وغيرها . ولو قد اهتم المسلمون بإكمال إخضاع منطقة البرتات وتثبيت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من الاسترسال فى مغازاة غالة لأن غزواتهم فى غالة لم تؤتهم أى ثمر على الإطلاق ، فى حين كان تمهيد الأمر فى نواحى البرتات تمهيداً تاماً يؤمن الأندلس الإسلامى ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس فى الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى فى غالة وإيطاليا .

ولنلاحظ إلى ذلك أن المسلمين خانهم الحظ فى الوقت الذى دخلوا فيه غالة ، فقد

دخلوها فى إبان قيام الدولة الكارولنجية وكانت أسرة فتية فى طور التأسيس ، وكان رجالها يجتهدون فى إخمال البيت الميروفنجى للاستحواذ على العرش من دونه ، وكانوا قد أنشأوا لأنفسهم جيشاً قوياً جمعوه من خيرة الفرنجة ومن انضم إليهم من المتبربرين، ومضوا يحاولون إخضاع غالة كلها وشمالى إيطاليا ، فأثارهم دخول العرب البلاد وتوغلهم فيها وغلابهم لكل من فكر فى مناوأتهم من أهل الجنوب ، ولو قد فطن العرب للوضع السياسى فى غالة وحالفوا أودو وغيره من أكناد الجنوب وأدواقه لكان حظهم أحسن ، ولكنهم كانوا يجهلون كل شىء عن الحال فى غالة . ولهم فى ذلك عذر : فقد بعدت بهم الشقة ، ولم يعد هناك سبيل لاتصالهم المباشر بقلب الدولة فى دمشق ، وكان كل عماد المجاهدين فى غالة على الأندلس وأهله ، ولم تكن أحوالهم قد استقرت بعد ، بل لم تكن أعدادهم كافية لسيادة الأندلس نفسه ، فكيف بقطر جديد تفصله عن الأندلس جبال وعرة مثل البرتات وتقوم فيه شعوب جديدة فتية ، يعمر نفوس أهلها من الآمال ما كان يعمر قلوب المسلمين أنفسهم ؟

ولا ينبغى أن نظن أن المسلمين لم يفكروا فى غزو غالة غزواً مستمراً والاستقرار فيها ، لأن الواقع أن نفوسهم تطلعت إلى فتحها فتحاً ثابتاً من أول الأمر ، ولا يسعنا ونحن نتأمل جهود الحر بن يوسف والسمح بن مالك وعنبسة بن سحيم وعبد الرحمن الغافقى وعبد الملك بن قطن إلا أن نقرر أن هؤلاء القواد المقتدرين كانوا يشعرون أنهم يقومون بفتح منظم غايته إدخال البلاد فى رحاب الدولة الإسلامية لا مجرد القيام بغارات سريعة لا هدف لها بعد الغنيمة كما يُفهم من كلام بعض المؤرخين المحدثين . بل لعلنا لو قارنا السمح والغافقى وعقبة بن الحجاج بغيرهم من رجال الفتوح الإسلامية الأخرى لتبينا أن فتوح غالة كانت من أمجد الجهود الإسلامية الحربية ، وأن تضحياتهم فى سبيلها من أغلى ما ضحوا به فى فتوحهم . وقد رأينا تفانيهم فى إتمام فتحها ، وتبينا أن تضحياتهم فى سبيلها لا تقل روعة عن تضحياتهم لفتح الأندلس نفسه ، ولا نزاع فى أن السمح والغافقى وعقبة يُعدون جميعاً فى طليعة قادة المسلمين العظام ، ولا نزاع كذلك فى أن المسلمين ضحوا فى سبيل غالة أكثر مما ضحوا فى سبيل مصر مثلاً ، وأن من استشهد من المسلمين فى نواحى غالة كانوا جديرين بفتحها ، ولو لم يكن الأندلس نفسه مضطرباً هذا الاضطراب .

وربما بدا غريباً أن نرد معظم السبب فى فشل المسلمين فى فتح غالة إلى اضطراب الأحوال فى الأندلس وبُعْد غالة عن مركز الدولة الإسلامية لا إلى الجشع فى الغنائم كما يزعم بعض

مؤرخى النصارى ، أو إلى قوة الدولة الفرنجية كما يزعم بعضهم الآخر . ولكن هذه هى الحقيقة : فأما البعد السحيق عن مركز الدولة فقد حرم فاتحى غالة من توجيه الدولة وعون رجالها السريع ، وحرمهم من أمداد العنصر العربى الذى كان قوام الفتوح وعمودها الفقرى . ويكفى أن نذكر أن من دخل الأندلس من العرب كان قليلاً لا يكاد يكفى لسيادة الأندلس نفسه ، وأن جزءاً عظيماً من هؤلاء استقر فى نواحى الأندلس ولم يشترك فى أعمال الغزو فيما بعدها من البلاد .

يكفى أن نذكر ذلك لكى نتبين أن عدد العرب فى الجيوش الإسلامية الغازية فى غالة كان قليلاً جداً . فأما غالبية الجند الإسلامى المحارب فى غالة فكانت من البربر ، وتدل الدلائل كلها على أن أعداد هؤلاء البربر كانت عظيمة وإن لم تبلغ مئات الآلاف كما يزعم رواة أصحاب المدونات اللاتينية[1] ، والغالب أن معظم من كان يُهَجَّر إلى الأندلس من البربر كان يُهَجَّر إليها طمعاً فى فضل الجهاد ومغانمه ، ولهذا كانت جموعهم فى الجيوش الغازية عظيمة ، وكان طمعهم فى الغنائم كبيراً كذلك ، وقد كان لهذا وذاك أثرهما البعيد فى تطور أحداث الغزوات فى غالة كما رأينا.

فإذا كانت نوايا المسلمين الغازين فى غالة قد انعقدت على الاستقرار ، وطال مقامهم فى سبتمانية نيفاً وثلاثين عاماً ، فلا بد أنهم وضعوا نظاماً لإدارة النواحى التى خضعت لهم ، وليس لدينا إلا إشارات عابرة تعيننا على تكوين فكرة عن هذا النظام . ويكفى أن ننبه الى أن كلامنا هنا مقصور على ما سار عليه العرب فى حكم سبتمانية فقط من النظم خلال السنوات الثلاثين التى سيطروا فيها عليها واتخذوا أربونة عاصمة لهم.

١٢٧ـ طبيعة الحكم الإسلامى فى غالة

وطبيعى ألا يكون العرب قد مضوا فى حكم هذه الناحية كما حكموا مصر مثلاً ، لأن مصر كانت ولاية مدنية فى حين كانت سبتمانية ولاية عسكرية ثغرية ، وكان المسلمون ينظرون إلى هذه الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم إلى الولايات المدنية ، فكانوا أميل إلى التساهل مع السكان فى النواحى الثغرية طمعاً فى كسبهم إلى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرماً على الجنود المقيمين فى الثغر منهم على المقيمين فى الولايات المدنية ، فقد وزع عمر بن الخطاب أراضى أقصى شرقى فارس على فاتحيها من المسلمين وسماها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلافاً لقلوب هؤلاء الجنود ولتقوية

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب رينو الآنف الذكر ، من ص ٢٢٩ فصاعداً .

نفوسهم على سداد ثغرها . واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية ، فأقر الإقطاعات فيها ، وتسامح المسلمون مع أهل النواحى من النصارى فيه ، فمنحوا كل ناحية عهداً بحريتها فى كل شىء مع اشتراط أداء جزية معينة ، والخضوع للحاكم الإسلامى الذى يقيم فى الناحية فى بعض المسائل الكبرى(١) .

١٢٨ ـ المسلمون يعتبرون غالة إقليماً ثغرياً

وقد ذهب رينو إلى أن المسلمين عاملوا سبتمانية على هذا الأساس ، وقال إن العرب ساروا فى حكمها على نفس الأسس التى قرروها فى صلحهم مع قلمرية(Coimbra) فى أقصى غربى الأندلس ، وإنما تخير قلمرية بالذات لأنها كانت أشبه بالثغر هى الأخرى ، ولأننا عثرنا على نص معاهدتها مع المسلمين كاملاً . وأهم ما فى هذه المعاهدة هو أن يكون لأهل قلمرية الحق فى أن يحكموا أنفسهم بقوانينهم التى تعودوا أن ينظموا بها أمورهم قبل مجىء المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم وينفذ الأحكام فيما عدا أحكام الإعدام إذ كان لابد من عرضها على الحاكم الإسلامى المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم فى قلمرية ممثلاً لسلطان المسلمين ، ومعه حامية تؤيده وتحميه وتمنع النصارى من الانتقاض عليه ، فإذا وقعت خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لابد من عرضها على الحاكم المسلم الذى يقضى فى الأمر بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وإذا اعتدى نصرانى على مسلمة ألزم باعتناق الإسلام والزواج منها ، فإذا كانت متزوجة لم يكن له من الموت مفر(٢).

فإذا طبقنا أشراط هذه المعاهدة على سبتمانية استطعنا أن نقول إن الحامية الإسلامية

---

(١) موضوع حكومات المسلمين فى الولايات الثغرية فى حاجة إلى الدرس ، فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التى أقرها المسلمون فى الأراضى المفتوحة . أما فيما يختص بثغرنا هذا - غالة - فيقول محمد بن مزين ، ونصه فى غاية الأهمية لدراسة الموضوع كله ، والكلام هنا منصب على الأندلس : « ... فبعث إليها السمح بن مالك عاملاً ، فوردها فى جند سوى جندها الأول ، فأرادا النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر (ابن عبد العزيز) وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه فى الرجوع إلى بلادهم ، وإدالتهم بمن ورد مع السمح ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد فى عقدهم على إقرارهم فى أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمح إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية . لولا إقطاعات عمر بن الخطاب (رضه) الجند فيها لم يسدوها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنا نستخير الله فى إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله ... » .

انظر النص فى : DOZY: Recherches. I, app. I. p. v.

(٢) Cf: REINAUD. Op . cit. pp. 272 Sqq .

والمراجع الواردة فى الهوامش .

الرئيسية كانت تقيم فى أربونة ، وأن حامية إسلامية صغيرة كانت تقيم فى كل بلد كبير من بلاد سبتمانية ودوفينيه وما خضع للمسلمين من دوقية أقطانية وحوض ردانه ، وهذه الحاميات تقوم بحماية المكان وإقرار السلام بين أهله وجمع أمواله . وكان للمسلمين إلى جانب ذلك جند غازٍ كبير يخرج للغزو مع العامل المقيم أو مع عامل الأندلس نفسه إذا أقبل.

١٢٩ـ نظام الحكم فى جنوب غالة ولا نزاع فى أن العرب خففوا عن أهالى هذه النواحى أعباء حكمهم إلى أقصى حد مستطاع ، وليس لدينا دليل مادى على ذلك ، ولكننا نستند فى القول به إلى أمرين :

الأول : هو تعلق أهل هذه النواحى بهم ووقوفهم إلى جانبهم أمام الفرنجة ، وهذا أمر لم يكن ليحدث لو لم يكن المسلمون قد اجتذبوا أهل هذه النواحى بالتخفيف عنهم فى كل شىء ، **والثانى** : هو أن المسلمين كانوا أحلافاً لنفر من أدواق هذه النواحى مثل ماورنت دوق مسيلية (مرسيليا) الذى ذكرناه ، ولم يكن هؤلاء الأشراف ليثبتوا على الولاء للمسلمين إلا إذا كان هؤلاء قد أبقوا لهم على ما كان لهم من سيادة فى بلادهم. ولنلاحظ أن أراضى هؤلاء الأدواق المعاهدين لم تكن منفصلة عن أراضى المسلمين ، أى أنهم لم يستقلوا بنواحيهم عن السلطان الإسلامى ، بل اعترفوا به وأقاموا معه : فقد كان ماورنت يحكم مسيلية وما حولها من أراضى دوفينيه ، وقد أخضع المسلمون هذه النواحى ولكنهم لم يمسوا ماورنت ، فظل يحكم أهلها ويؤدى للمسلمين ما حقّ لهم من أموالها ، أى أنه كان شيئاً يشبه « زعيم عجم الذمة » و « قومس النصارى » فى الأندلس ، مع فرق ظاهر وهو أن « زعيم عجم الذمة » كان رجلاً مدنياً صرفاً تقتصر مهمته على معاونة المسلمين على حكم البلاد ، وكان خاضعاً لعامل الأندلس خضوعاً تاماً ، ولم تكن له سيادة فعلية إلا فى حدود ضيقة ، فى حين كان « دوق عجم الذمة » فى ناحية سبتمانية سيداً قوياً ذا جند وسلطان ، وكان حليفاً للمسلمين لا خاضعاً لهم ، وكان يتعاون مع المسلمين فى مهمتين رئيسيتين : إقرار السلام فى الناحية ، ثم حمايتها من الفرنجة وحلفائهم .

١٣٠ـ موقف المسلمين من المسيحية فى غالة وقد زعم رينو أن المسلمين اضطهدوا النصارى فى سبتمانية واستولوا على كنائسهم ، ولم يستند فى ذلك إلى دليل واحد مباشر أو غير مباشر . ولسنا ندرى لماذا أصر على الكلام عن هذه الناحية بهذا الأسلوب مع عدم وجود

الدليل ، وربما كان الأصدق أن يقال إن المسلمين تركوا لأهل هذه النواحى حريتهم الدينية كاملة كما فعلوا مع أهل الأندلس ، بل ربما كان الأقرب إلى المنطق هو أن موقفهم من النصرانية ورجالها فى ناحية سبتمانية كان أكثر رفقاً ، فقد كان لهم حلفاء من النصارى ، وكانوا يحاولون كسب رجال الدين فى جنوبى غالة لأن قارله كان قد أساء إليهم إساءات بالغة وانتزع أموال الكنائس وفرَّقها على جنده ، وشرد الكثيرين من القساوسة والأحبار ، ولا نزاع فى أن حال الكنائس فى النواحى التى كانت خاضعة للفرنجة فى جنوبى غالة كانت أسوأ من حالها فى النواحى التى كانت خاضعة للمسلمين .

وليس لدينا كذلك أى وثيقة نستطيع أن نستخلص منها مقدار ما قرر المسلمون على أهل هذه النواحى من الجزية ، فلم يبق إلا القول بأن المسلمين ساروا فى ذلك على نفس الأسس التى ساروا عليها فى الأندلس . أى : أنهم تركوا الأرض التى فتحت عنوة فى أيدى أصحابها وأطلقوا فيها الأسرى وفرضوا عليها مالاً يتراوح بين ثلث وربع المحصول ، وأما ما فتح صلحاً فقد تقرر عليه العشر . ويستبعد أن يكون المسلمون قد ملكوا الأرضين واشتغلوا بالفلاحة فى هذه النواحى لاضطراب الأحوال وعدم استقرار الأراضى فى أيديهم أزماناً طويلة . وهذا فيما نظن كان من أقوى الأسباب فى زوال أمر المسلمين من هناك ، لأن من كان فيها من المسلمين ظلوا مجرد جند قلق يقيم فى المدن أو يخرج للغزو ، ولم تتح لهم الفرصة للانتشار فى الأرض وامتلاكها والاختلاط بأهلها ونشر الإسلام فيهم وتعريبهم.

ولم يكن سقوط أربونة وما تلاه من الأحداث التى ذكرناها هو ختام تاريخ المسلمين فيما وراء البرتات ، بل استمرت بقاياهم وآثارهم هناك زمناً طويلاً وتجدد لهم تاريخ فى جنوبى حوض ردانه بعد قرن ونصف ، إذ نزلوا هذه الناحية من البحر ، ولكننا نقف عند هذا الحد الآن ونحيل القارىء على ما كتبناه فى هذا الموضوع فى بحثنا عن « المسلمين فى حوض البحر الأبيض ».

وقد رأينا أن جهود المسلمين فى هذه النواحى لم تكن بالقليلة ولا بالعابرة ، وإنما كانت جهوداً مضنية جادة قصد من ورائها إلى فتح غالة ومد رواق الإسلام على غرب أوروبا ، ولم يوفق المسلمون فى ذلك للأسباب التى ذكرناها . ولا يقلل ذلك من قيمتها فى ذاتها ولا من أهميتها التاريخية . وأبسط نتيجة نخرج بها من هذا العرض السريع هو أن المسلمين لم يدخلوا غالة غزاة نهابين لا ينظرون إلى شيء بعد الغنيمة . بل دخلوها فاتحين منظمين

يريدون إدخالها فى رحاب دولتهم وتحويلها إلى الإسلام ، ولو قد استقر لهم الأمر فى غالة الجنوبية لاتجه نظرهم إلى ما وراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » فى تاريخ النصرانية فى غرب أوروبا ، فقد حالت بينها وبين الزوال فعلاً .

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا فى « بلاط الشهداء » وأقاموا حكم الإسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت فى الأندلس ، لأن الذى أعاد النصرانية فى الأندلس هو عجز المسلمين عن فتح غالة ، وكانت نصرانية غالة هى نواة النصرانية فى غرب أوروبا إذ ذاك ، ولم يكن يليها إلا شعوب وثنية ، أما البابوية فى روما فلم تكن لتستطيع شيئاً ، لأنها هى نفسها كانت فى حماية اللمبارد ، وكان أمرها إذ ذاك ضعيفاً لم يتقرر على النحو الثابت الذى نراها عليه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين(١).

* * *

١٣١ـ مقارنة بين المسلمين والفرنجة فى غالة

ولقد أسرف الغربيون فى تقدير أهمية « بلاط الشهداء» وقالوا إنها أنقذت حضارة غرب أوروبا أو المسيحية ووضعت حداً لسيادة الشرق على الغرب، وما إلى ذلك مما يحلو الكلام فيه لمؤرخى أوروبا وفرنسا خاصة . والواقع أن هذه كلها مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخى الصحيح فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن غالة بأصحاب البلاد ، بل كانوا غزاة أغاروا عليها وتملكوها بحد السيف . فإذا كان المسلمون أغراباً عن غالة فقد كان الفرنجة أغراباً أيضاً ، ولم يكن لهم من الحق فيها أكثر مما لغيرهم . وقد كانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة حكماً أجنبياً خالصاً ، وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين (الغاليين الرومان) ويعتبرونهم مجرد رعية عليها الخضوع . بل لم يكن هؤلاء الفرنجة الساليون مسيحيين مخلصين ، وإنما كانوا ما يزالون أجلافاً متبربرين أقرب إلى الوثنيين منهم إلى أهل الكتاب ، وكانت وطأتهم على الكنائس شديدة وظلمهم للرهبان ورجال الدين عظيماً ، ولا شك أن المسلمين كانوا أقرب إلى روح المسيحية من أولئك المتمسحين .

ولم يغلب الطابع المسيحى على الفرنجة إلا من أيام بيبين الثانى بن قارله بسبب تصديه لحماية البابوية من اللمبارديين حماية سياسية لا دينية ، وقد زاد ارتباط الفرنجة بالمسيحية على أيام شرلمان ، وهو أول ملك فرنجى مسيحى صادق . وقد كتب فى أيامه الكثيرون من

(١) cf : REINAUD. Op. cit. pp. 282 Sqq .

أصحاب المدونات النصرانية التى نقلت إلينا أخبار الصراع بين العرب والفرنجة على غالة ، وصوروا حروب قارله مع المسلمين على أنها حروب شارلمانية مسيحية، أى أنهم كتبوا عن عصر بروح عصر آخر ، ونسبوا إلى قارله ومعاصريه مالم يكن يعرفه هو . فلم يكن الرجل يفكر فى مصير المسيحية بقدر ما كان يفكر فى مصير مملكته ، وقد رأينا أن موقفه من الكنائس والقسيسين لم يكن موقف الصديق ولا موقف الراعى المسيحى وإنما موقف الطاغية العسكرى الذى لا يفكر إلا فى ملكه وأمواله ومغانمه .

وليس إلى الشك سبيل فى أن السمح بن مالك وعبد الرحمن الغافقى وأمثالهما كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان قارله ورجال مملكته يعرفون . ثم إن المسلمين كانوا أهل دولة ذات نظم وقوانين وقواعد مقررة ، فى حين كانت نظم الدولة الفرنجية فى طور التكوين ، وكانت أصول الحكم فيها تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهى شبيهة بقوانين العرب الجاهليين ، فلم تكن الحرب إذن حرباً بين إسلام ونصرانية بقدر ما كانت صراعاً بين حضارة وجاهلية ، بين نظام وفوضى .

بل لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارله نفسه لا يكتب اسمه ، لا باللاتينية ولا بغيرها (وكذلك كان شرلمان) وكان رجاله محاربين أجلافاً لا يفقهون من اللاتينية شيئاً ، بل لعلهم لم يكونوا قد سمعوا بعد بحضارة الرومان . ومن الثابت على أى حال أن الفرنجة والقوط الغربيين وأضرابهم من المتبربرين هم الذين أزالوا بقايا الحضارة اللاتينية من البلاد التى سيطروا عليها . وكان عليهم فيما بعد أن يتعلموا اللاتينية على أيدى رهبان ومعلمين أقبلوا من ايرلندة وبلاد الشمال . وقد بيّن هنرى بيرين هذه الحقيقة بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان ، وقد أوجزنا نحن آراءه فى بحثنا الذى أشرنا إليه عن « المسلمين فى حوض البحر الأبيض».

وإذن فلم تكن موقعة البلاط إنقاذاً للمسيحية والحضارة اللاتينية كما يذهب معظم مؤرخى الغرب ، فقد كانت المسيحية فى حرج فى غالة عندما دخلها المسلمون ، وكانت اللاتينية قد تلاشت منها. وهذا كله يلقى ضوءاً جديداً على مكان موقعة البلاط من التاريخ، نعم إن المسلمين لو انتصروا فيها لسادوا غالة وغرب أوروبا ولكان القرآن الكريم يدرس الآن فى جامعة أكسفورد كما قال ادوارد جيبون ، ولكن انهزام المسلمين فيها لم يكن هو الذى

أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » كما قال رسل هرقل عندما سألهم عن المسلمين ، وكانت الهزائم لا تعنى فى حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة فى إفريقية ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والإصرار على الفتح. إنما الذى أوقف تقدم العرب هم العرب أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ وتفاهة النظرة الجاهلية إلى الحياة .

* * *

الفَصل الثَّامِن

قيام حَـركة المقاوَمة النصرانية

حينما وصلت جيوش الإسلام الفاتحة إلى لُك (Lugo= Lucus Asturum) وأوغلت فى الجبال الصخرية المفضية إلى سواحل كنتبرية القاحلة، وأشرفت عند خيخون على خليج بسكايه[١]، اعتقد قادة المسلمين أنهم فرغوا من افتتاح هذه الناحية، وتحولوا بجهودهم إلى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة فيما يلى الخط الممتد من برشلونة إلى (أمايَه) ماراً بلاردة وسرقسطة وتطيلة وقلهرة ونخرة وما يلى ذلك من منطقة البرتات وما إلى شمالها من أراضى غالة[٢]. ولم يكن يخطر على بال موسى وطارق - ومن جاء بعدهما - أن الركن الشمالى الغربى القصى المسمى «جليقية» الذى خلَّفوه وراءهم دون فتح - استصغاراً لشأنه - إنما كان فى الواقع حصناً لجأت إليه أعداد قليلة من بقايا القوط، واطمأنت إلى الحياة فى هضابه ووديانه، وأخذت تنتظر الفرصة المواتية لتخرج منه وتنساح فيما يليه من الأرض رويداً رويداً، لتكوِّن لنفسها دويلة لا تزال تتسع بجهود أمرائها ومواتاة الظروف إياها حتى تصبح كتلة صلبة لن يستطيع العرب القضاء عليها، ولا تزال أحداث الزمان تجرى بها إلى سعود حيناً وإلى نحوس حيناً، حتى تضعف دولة الإسلام فى شبه الجزيرة، فيتنفس أهل جليقية الصعداء وينقلبون من الدفاع إلى الهجوم، ويتيح لهم المسلمون الفرص بما أسرفوا فيه من الخصومات فيما بين أنفسهم، حتى إذا هدموا دولتهم بأيديهم وانفرد كل فريق منهم بقطعة منها، أقبل هؤلاء المتحصنون فى الشمال يستعيدون من المسلمين البلاد بلداً بعد بلد، حتى استخلصوا شبه الجزيرة كله من أيديهم، بعد قرابة ثمانية قرون من الجهد والكفاح.

١٣٣ـ انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم وليس من الصواب فى شىء أن يذهب الإنسان إلى أن العرب أخطأوا إذ تركوا هذا الركن القصى دون فتح، فقد كان على أيام موسى هضبة مقفرة موحشة باردة لا أهمية لها من أية وجهة حربية أو عمرانية، تحيط بها غابات

(١) كان خليج بسكايه يعرف فى العصر الرومانى بالبحر الغالى الكنتبرى الأكويتا
انظر Mare Gallicum Cantabricum Aquitanicum
FRANCISCO CONDEMINAS Y LUIS VISINTIN : Atlas Historico de Espana.
الخريطة رقم ٤ من هذا الأطلس.

(٢) ابن عذارى : البيان، جـ ٢، ص ١٨.

كثيفة . وكان طبيعياً أن يخلفها العرب دون فتح ، ولم تأت العلة - فيما بعد - من تركه ، بل من انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم إلى منازعات الجنس والعصبية : فقد قضت هذه المنازعات على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة الجزيرة والاستمرار فى اليقظة على سلامة دولتهم فيها . بل أدت حروب العرب والبربر إلى مبارحة معظم البربر للنواحى التى كانوا قد استقروا فيها فى الشمال الغربى الأقصى ، وانحدارهم إلى الجنوب . بل إلى عودة أعداد عظيمة منهم إلى إفريقية على ما فصلناه ، فتخلفت وراءهم مساحات فسيحة من الأرض كان من الطبيعى أن يتقدم القوط والإيبيريون الرومان للسكنى فيها دون خوف ، فاستعادوا بهذا الشكل نحو خمس شبه الجزيرة دون أن يفطن العرب إلى ذلك ، فإذا استوثقوا من أنفسهم فى هذا الخمس فقد كثرت أعدادهم وتنسموا شيئاً من الرخاء أعانهم على الثبات للمسلمين وعلى ردهم عن بلادهم أولاً ، ثم شجعهم على التقدم نحوهم والاستيلاء على الأرض والبلاد من أيديهم فيما بعد .

١٢٢ ـ الريكونكيستا

وتسمى هذه الحركة فى تاريخ إسبانيا بحركة « الاسترداد» La Reconquista ، والإسبان يعتبرون تطوراتها الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومى الذى يبدأ بضعة قرون قبل المسيح ، حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الإيبيرية ، ويتصل أثناء العصور الإغريقية والرومانية والقوطية النصرانية ، ويستمر خلال الفترة الإسلامية متمثلاً فى هذه الدويلات التى نشأت فى الشمال ، وأخذت تتسع حتى قضت على دولة الإسلام فى البلاد وأعادتها نصرانية كما كانت .

ولا شك فى أن إطلاق تسمية « الريكونكيستا » على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها فى أوائل القرن الهجرى الثانى (النصف الأول من القرن الثامن المسيحى) وربطها بحركة الاسترداد الحقيقى التى بدأت بصورة جدية محسوسة بعد زوال خلافة قرطبة وانتثار دولة الإسلام فى شبه الجزيرة فى أوائل المائة الخامسة للهجرة ، لا يخلو من خطأ ، لأن اشتريس إنما ولدت فى ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءاً لحركة الاسترداد ، وإنما يعد ميلاداً لحركة المقاومة للسيادة الإسلامية . وقد بدأت حركة المقاومة هذه فعلاً فى أواخر أيام « بلاى » على ما سيجىء ، ونشطت على أيام أذفونش الأول ، ولكنها وقفت بعد ذلك زماناً طويلاً ، ولم يتجدد نشاطها إلا بعد أيام المنصور بن أبى عامر . ومن هنا يجوز لنا أن نعترض على ما تُجمع عليه التواريخ الإسبانية من أن حركة الاسترداد إنما كانت معركة دامت

ثمانى قرون La batalla de ocho siglos ، وقد اعترض على هذه التسمية نفر من معتدلى المؤرخين الإسبان .

وقد كان مؤرخو الإسبان ومن شايعهم من الأوروبيين ينظرون إلى الفتح الاسلامى على أنه حادث طارىء ، طال زمنه ثم انتهى أمره ، دون أن يخلف فى البلاد أثراً يذكر ، ولهذا كان هؤلاء المؤرخون يمرون بالفترة الإسلامية مروراً عابراً لا تظفر معه إلا ببضع صفحات من مؤلفاتهم . ولم يتبين الإسبان أهمية هذه العصور الإسلامية إلا من أواخر القرن الماضى ، ولم يعتبروها جزءاً هاماً مجيداً من تاريخهم إلا من أوائل القرن الحالى ، نتيجة لجهود طائفة من المستشرقين الإسبان ، لم يدخروا جهداً فى كشف النقاب عن جمال هذه العصور الإسلامية وما قام خلالها من حضارات ، وما خلفته للإسبان وللحضارة البشرية من تراث مجيد .

فإذا كان هذا هو مكان حركة الاسترداد هذه من التاريخ الإسبانى العام ، فلابد لدارس التاريخ الأندلسى من الوقوف عندها بين الحين والحين ليرقب تطوراتها ، لأن العلاقات الحربية وغير الحربية بين المسلمين والنصارى فى إسبانيا تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ العصور الإسلامية نفسها ، بل ستكون هى الناحية الهامة الخطيرة من تاريخ هذه العصور ابتداء من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وطبيعى ألا نجد من مراجعنا العربية أى اهتمام كبير بمبادىء هذه الحركة ، لأنها كانت فى أول الأمر خافية أو كالخافية ، لا يكاد يحفل لها مؤرخ يتتبع الحوادث الهامة ، وطبيعى كذلك أن تهتم بها المراجع النصرانية اللاتينية الإسبانية اهتماماً عظيماً ، لأن مصنفيها كانوا قساوسة ورهباناً عاشوا فى مدائن الدول النصرانية الشمالية أو فى العواصم الإسلامية ، ولكن اهتمامهم بها لم ينفعنا كثيراً لأن أسلوبهم فى كتابة التاريخ فى هذه الأعصر كان يقتصر على تسجيل قوائم من التواريخ والأحداث موجزة إيجازاً شديداً ومضطربة اضطراباً بالغاً ، ولهذا فإننا لا نستطيع الانتفاع بها إلا إلى حد محدود جداً.

لهذا كله كادت الحقائق الخاصة بتطورات هذه الحركة تضيع بين إهمال المراجع العربية واضطراب المراجع النصرانية ، وظلت مبادئها وتطوراتها فى أدوارها الأولى نهباً مقسماً بين الغموض والأساطير ، وأصبح من العسير جداً أن نكتب فى شىء من الثقة عن أول أبطالها

المسمى بلاى[١] بن فافيلا وعن أول حوادثها الجسام التى تسميها المراجع بواقعة « كوفا دونجا » .

١٣٤- الإيبيريون الرومان

وكذلك يحيط الغموض فى مراجعنا العربية بحقيقة الأجناس التى كانت تسكن اشتريس وكنتبريه على أول أيام الفتح الإسلامى ، لأن أصحاب المدونـات الإسبانيـة فى العصور الوسطى يسمونهم « القوط » فى حين يجعلهم العـرب قوطاً أو جلالقة ، وهم يريدون بالجلالقة أهل الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة الإسبانية ، والواقع أن هذه الناحية كانت تسكنها جماعات من الإيبيريين ، وهم جنس قديم أقبل إلى شبه الجزيرة من إفريقية واستقر فيها من أقدم العصور ، يمتاز بالنشاط والذكاء ويعتبر أساس سكان شبه الجزيرة كلهم ، وأما من أتوا بعد ذلك فمهاجرون اختلطوا بهذا العنصر الإفريقى الأصيل ، وأول من هاجر إلى شبه الجزيرة واختلط به جنس أوروبى قديم - جرمانى فى الغالب - هاجر إلى شبه الجزيرة من الشمال فى أعداد قليلة اختلطت بالعنصر الإفريقى وتكوّن منهما العنصر المسمى بالإيبيرى Los Iberos .

وتوالت الهجرات بعد ذلك على شبه الجزيرة ، أهمها هجرة الكلت وقد اختلط معظمهم بالإيبيريين ، وبقيت بعض جماعاتهم صافية فى نواحى جليقية ، ثم نزلت البلاد جماعات من الفينيقيين واليونان ، ثم أعقبت ذلك موجة الفتح الرومانى الذى شمل البلاد كلها ونظمها للمرة الأولى تنظيماً إدارياً ، وإلى هذا الأثر العمرانى ترجع القيمة العظيمة لهذه الموجة الرومانية التى طبعت البلاد بالطابع الرومانى ، حتى أصبح أهلها يُعرفون بالإيبيريين الرومان من ذلك الحين Ibero-Romanos ، فلما أقبل القوط لم يختلطوا بأهل البلاد ، فبقى سكان شبه الجزيرة إيبيريين روماناً فى حين كانت الطبقة الحاكمة من القوط[٢].

١٣٥- صخرة بلاى

تتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولاً من القوط فرت أمام الفاتحين المسلمين ، ولا زالت تتقهقر نحو الشمال حتى اعتصمت منهم بركن قصى من « جليقية » تسميه المراجع العربية « صخرة بلاى » والإسبانية (picos de Europa) فى

(١) Pelayo هذه هى الصورة الإسبانية لاسمه ، أما صيغته اللاتينية فهى Pelagius وقد آثرت استعمال الصورة الإسبانية لأنها أشيع ، ولأن هناك من المؤرخين من يقول بأنها الأصل كما سنرى .

(٢) cf: f . OLORIZ: Distribucion geográfico del indice refálico en Espana (Boletin de la Royal Sociedad Geográfica, Vol ,XXXDI,1894,primer semestre) pp.294 - 299.

ناحيـة كنتبريـة القاحلة[١] . وهناك اطمأن بها المقام ، لأن العـرب عجزوا عن الوصول إليها أو استصغروا شأنها ، ولم يجدوا على أنفسهم بأساً فى تركها حيث هى . وتبالغ المراجع العربية فى استصغار شأن هذه الأعداد ، فيقول عيسى بن أحمد الرازى مثلاً : « .. ولم يبق إلا الصخرة ، فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاى ، فدخلها فى ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقى فى ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجاً ، ما عسى أن يجيء منهم!»[٢].

ويقول ابن عذارى : « فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً ، وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه فى خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم»[٣] . وانصرف المسلمون عن بلاى وأصحابه ، فاطمأن المقام بهم واختلطوا بأهل هذه الناحية من الإيبيريين الرومان ، فأخذت أعدادهم تتزايد ، وازداد أمرهم ثباتاً .

ومن الثابت أنه كان على رأس هؤلاء القوط الهاربين إلى « الصخرة » نفر من أهل بيت لذريق ونفر من كبار القوط وعدد آخر من القساوسة ورجال الدين الذين فضلوا الهجرة والعيش فى هذه النواحى القاصية على العيش فى البلاد التى فتحها المسلمون . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفراً من هؤلاء اهاربين أخذ يفارق صخور كنتبريه ويعود إلى مواطنه الأولى بعد أن اطمأن إلى عدل المسلمين[٤]، بل إن بعضهم تبع غيره من أهل البلاد ودخل فى الدين الجديد ، ولم تحدد لنا الروايات تاريخاً لذلك وإن كنا نظن أنه حدث خلال ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى (أى بين سنتى ١١٦و١٢١هـ) .

(١) تسميها المراجع العربية فى الغالب « الصخرة » اختصاراً ، وقد ترجمها لافوينتى إى ألكانترا EL-Roco مجاراة للمسلمين فى تسميتهم . وهم يجعلونها فى جليقية Galicia خطأ ، إذ أنها فى كنتبرية ، وهى أعلى قمم كنتبرية ارتفاعاً وأبعدها إلى الشمال ، وهى الناحية التى تحصن بها بلاى ومن معه . وثابت من المراجع الإسبانية أن « بلاى » وأصحابـه احتموا من المسلمين فى مغارة أونجـا (Cova de onga) الواقعـة فى جبال « بيكوس دى ايروبا » ، وقد وصفها الكونت سان سو بقوله : « كتلة هائلة من صخر الجبل يتبين الإنسـان فيها ثلاث قمم : قمة إلى الشرق تسمى « أندارا » ، وثانية وسطى تسمى Bulnes ، وثالثة غربية تسمى قمة كوفا دونجا . ويبلغ متوسط ارتفاع الصخرة ٢٦٠٠ متراً .

cf: LE CONTE SAINT-SAUD : Monographie des picos de Europa, Etudes et Voyages, Paris 1923.

(٢) عيسى بن أحمد الرازى ، فى نفح الطيب للمقرى : جـ ٢ ، ص ٦٧١-٦٧٢.

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٤) LEVI-PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne Musulmane, I, p. 47 .

١٢٦ـ مونوسة

ولا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحى كنتبرية وجليقية مما يلى هذه الصخرة ، ولكن إشارات متناثرة هنا وهناك تدل على أنهم أنزلوا بها جماعات من المسلمين معظمهم من البربر ، وأقاموا هناك مرابطين ومستقرين ، وكان يرأس هذه الجماعات البربرية رؤساء من بنى جلدتها تتفق المراجع على ذكر واحد منهم هو مونوسة .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الزعيم البربرى عند كلامنا عن حملة عبد الرحمن الغافقى على غالة ، وبقى أن نستكمل الكلام عنه هنا ، إذ أنه كان أكبر قواد المسلمين فى الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة إذ ذاك .

وأقرب الآراء إلى الصحة فى أمر مونوسة أنه كان من رؤساء الجند فى جيش طارق بن زياد (١) ، والغالب أن موسى وطارقاً تركاه حاكماً على أشتريس وما يصاقبها من نواحى جليقية ، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلك حتى شملت شمال شبه الجزيرة كله(٢) ، فقد رأينا صلاته الوثيقة بالدوق أودو صاحب أقطانية وصهره معه ، وما كان لذلك الصهر من أثر على سير الأحداث فى غالة .

ويستوقف نظرنا أن المراجع النصرانية الإسبانية تذهب إلى أن مونوسة تعلَّق بابنة بلاى وتزوجها ، كما أحب ابنة أودو وتزوجها (٣) ، كأنه كان ذا ولع خاص بالوقوع فى هوى بنات الأشراف والزواج منهن ! وقد علل بعض المؤرخين ذلك بافتراض وجود شخصين بنفس

---

(١) SAAVEDRA, Estudio ... p. 70

(٢) ESTANSILAO RENDUELES LLANOS : Historia de la villa de Gijón desde los tiempos mas remotos hasta nuestros dias (Gijón, 1867) p.93.

(٣) عن علاقة مونوسة بابنة أودو انظر :

RODERIGO XIMENEZ DE RADA, Historia arabum. p. 12

وعن علاقته بابنة بلاى انظر :

BARRAU DIHIGO : Royaume Asturien, pp. 117-118.

وورد فى بعض الروايات أن ابنة أودو كانت تسمى لامبيجيا ، ويبدو أن هذه التسمية من ابتكار القصاص .

وأورد كوند عن هذه الحوادث رواية أكثر تفصيلاً زعم أنه استقاها من مراجع عربية ، ولم نستطع تحقيق روايته هذه لأننا لم نجدها فى أى من مراجعنا العربية ، وربما كانت من ابتكاره ، تاريخه ملىء بأمثال هذه الابتكارات . وفيها إلى ذلك خلط ظاهر ، فهو يزعم أن تحقيقه هداه إلى أن مونوسة إن هو إلا عنبسة (بن سحيم الكلبى والى الأندلس) وأنه نازع عبد الرحمن الغافقى على الولاية لأنه كان يعتقد أنه أحق بها منه . ويقول إنه بينما كان مونوسة فى إحدى غاراته إذ وقعت عينه على لامبيجيا فأخذ بجمالها وسعى حتى تزوجها ، وحالف أباها أودو . فلما أراد عبد الرحمن غزو غالة =

الاسم فى هذه الناحية فى ذلك الحين (١) ، وهو أمر مستبعد . والأصح أن يقال إن علاقات مونوسة مع أودو وزواجه بابنته اختلط أمرها على بعض الرواة والقصاص ، فجعلوها مع بلاى ، وأطلق القصاص لخيالهم العنان فقالوا إن مونوسة رأى ابنة بلاى وأعجب بها فاختطفها وتزوجها . ولا يبعد على أى حال أن يكون مونوسة قد تزوج بعض نساء ناحيته أو تسراهن فكان هذا أصل أسطورته مع ابنة بلاى(٢).

= عارضه مونوسة فى ذلك وأخذ جانب حميه أودو ، وأبى عبد الرحمن أن يقر المحالفة التى عقدها مونوسة وقال له أن لا حلف بين المسلمين والنصارى وأن السيف وحده هو الحكم بينهم ، فسارع مونوسة وأبلغ أودو بعزم عبد الرحمن حتى يستعد له ويحمى بلاده منه . وقرر عبد الرحمن محاربة مونوسة عقاباً له على ما أخطأ فى حقه وحق إخوانه المسلمين. وهاجمه على غرة ، ففر مونوسة أمامه وتحصن منه بالجبال مستصحباً معه زوجته لامبيجيا ، وما زال المسلمون يطاردونه من صخرة إلى صخرة حتى أثقلوه بالجراح ، اشتد به الجوع والإجهاد وتقاعس النصارى عن نصره بسبب أفاعيله معهم فى أول أمره ، وانتهى أمره بأن سقط من شاهق واندقت عنقه فقطع المسلمون رأسه وبعثوا به إلى دمشق ، وأسروا لامبيجيا وأرسلوها إلى دمشق كذلك فضمها الخليفة إلى حريمه . وقد وقع ذلك لمونوسة فى مكان يسمى بويكريدا Buycreda . وهى رواية مليئة بالخطأ لا نجد ما يؤيدها ، وإنما أوردناها لأنها تذكر أن مونوسة رأى ابنة أودو فى إحدى غزواته فهام بها بالضبط كما حدث عندما رأى ابنة بلاى (على ما تزعم الأقاصيص) مما يدل على الوضع والاختراع فيما يتصل بعلاقة مونوسة ببلاى

cf : CONDE : Historia . 1 , 83.

(١) LEVI- PROVENÇAL , Histoire de l'Espagne Musulmane . I, p. 42 .

وقد أنكر الأستاذ كوديرا وجود مونوسة إنكاراً تاماً ، وذهب إلى أن هذا اللفظ (Munuza) إن هو إلا تحريف للفظ ماسون (ويصححها كوديرا إلى Manresa) بليدة بجنوبى غالة غزاها الهيثم بن عبيد الكلابى كما يقول ابن عذارى (البيان المغرب ،جـ ٢ ، ص ٢٧) وقال : إن القصاص ابتكروا القصة كلها ، فزعموا أن مونوسة كان زعيماً بربرياً وبنوا على زعمهم ذلك القصص كله ، وهو رأى ضعيف لم يقره عليهم إلا بعض المؤرخين الإسبان مثل باليستروس ، وغالبيتهم اليوم لا تقره .

cf : F . CODERA : Manuza y el duque Eudon en Estudios historicos de historia arabe espanola, Zaragoza 1903. p. 135. Sqq .

BALLESTEROS : Historia ..., II.pp . 9-10

JUAN JAURGAIN : La Vasconie ..., p . 34

REINAUD : Invasions ..., pp . 36 Sqq

LEVI-PROVENÇAL : Histoire ..., I . pp . 42-43 et notes

(٢) وقد تحدث إيزيدور الباجى عن مونوسة فى شىء من التفصيل فقال : إنه رجل من الجنس البربرى uno ex Maurorum gente اشترك فى فتح الأندلس وسار مع قوات المسلمين حتى أقصى الشمال وساهم فى إخضاع ناحية شرطانية (Cerritania فى اللاتينية و Cerdana فى الإسبانية) ، وأظهر قسوة بالغة حتى لقد حرق أنامبادى أسقف شرطانية حياً ، واجتهد فى نصرة الإسلام ، حتى إذا ترامت إليه أخبار ثورة إخوانه البربر فى إفريقية انقلب على العرب وحالف أودو دوق أقطانية ، فرحب به أودو وزوّجه إحدى بناته ليضمن عونه وعون مَنْ معه من البربر :

Et quia filiam suam dux francorum nomine Eudo Causa Foederis ei in conjugio, ob persecutionem arabum differendam jam olim tradida

وكل ما يمكننا استخلاصه من تلك الروايات هو أن مونوسة كان زعيم المسلمين المستقرين فى أقصى شمال شبه الجزيرة ، وأنه كان ذا نشاط وهمة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين أودو من ناحية وبلاى من ناحية أخرى ، ونتيجة لطول الجوار نشأت بينه وبينهما ، وأودو على الخصوص ، علاقات صداقة زادت أواصرها عندما وقع النفور بين العرب والبربر .

١٣٧ـ بلاى

وهنا ينبغى أن نسأل : من هو بلاى هذا الذى تذكره النصوص وتنسب إليه أعمالاً كثيرة جعلته فى الطليعة من شخصيات التاريخ الإسبانى ؟ نبدأ بروايات المراجع النصرانية عنه لأنها أوثق صلة بهذا الموضوع : يذكر أقدمها - وهى رواية مدونة البلدة (Chronicon Albeldense) - أن بلاى كان ابن أمير قوطى يسمى برمودو (Vermudo) وابن أخى لذريق ، وأنه - أى بلاى - اختلف مع لذريق فنفاه هذا عن طليطلة قبيل دخول العرب البلاد ، فذهب إلى اشتريس وأقام نفسه أميراً عليها ، وأقام بلاطه فى بليدة (Cangas = Canicas) تسعة عشر عاماً . ومات فيها سنة ٧٣٧[١].

ورواية سبستيان السلمنقى أكثر تفصيلاً ، فهى تذهب إلى أنه عندما غزا العرب الأندلس هلك معظم القوط بالسيف أو بسبب الجوع ، وأن من نجا من أفراد بيتهم المالك فر بعضهم إلى غالة ، ولجأ معظمهم إلى اشتريس ، حيث أقاموا على أنفسهم بلايو بن الدوق فافيلا أميراً ، وقد حكم بلاى تسعة عشر عاماً وتوفى سنة ٧٣٧، وألحد مع زوجته « جاوْدْ يوسا » فى كنيسة سانتا أويلالياد فيلابينو[٢]. وتضيف مدونة سيلوس (Chronicon Silense) أن بلاى كان حامل سيف لذريق (Spatarius regis Roderici) ، وأنه هرب إلى اشتريس حينما غزا العرب البلاد وتشرد فى نواح غير معروفة منها (Vagabatur incertis Locis) يجمع الناس لحرب المسلمين ، فلما اكتملت له العدة نازلهم وانتصر عليهم ، فأكبره القوط لهذا وأقاموه عليهم أميراً[٣].

وأما تاريخ إسبانيا العام (Crónica general de Espana) الذى صنفه ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، فيذهب إلى أن بلاى كان ابناً « لفافيلا » دوق كنتبريه الذى كان

(١) HUICI : Crónicas Látinas de la Reconquista. Chrónicon Albeldense:I p. 157 .

(٢) HUICI, op.cit . I. P . 206 .

(٣) HUICI, op.cit . II. P . 44 .

الملك اجيكا قد نفاه من طليطلة ، فمضى إلى تُودَه Tuy واستقر فيها حيناً ، وهناك مات بسبب ضربة عصا كانت قد أصابته من يد غيطشة ، الذى كان يطمع فى زوجته (أى زوج فافيلا) ، فلما صعد غيطشة إلى العرش نفى بلاى من طليطلة ، وأراد أن يفقأ عينيه ، ففر إلى كنتبريه ، وهناك تزعم أهل هذه الناحية ، ودعاهم إلى الوثوب بالعرب ، واستطاع الانتصار عليهم فى معركة عند مغارة أونجا (La Cueva de Onga) سنة ٧١٨م(١) ويضيف لوقا التُّودى (Lucas Tudense) فى تاريخ العالم(Chronicon mundi) قصة تعلُّق « مونوسة» - الأمير المسلم على هذه النواحى ، وكان مقيماً فى خيخون - بإحدى بنات بلاى مما أدى إلى الخصومة بين الرجلين ، ووقعت الحرب بينه وبين المسلمين ، فأقامه القوط ملكاً عليهم قبل لقائه إياهم وانتصاره عليهم فى « معركة مغـارة أونجا » ، وتوفى فى كانجاس سنة ٧٣١م بعد أن حكم ثمانية عشر عاماً ، ويذهب لوقا التودى كذلك إلى أن فافلة أبا بلاى كان ابناً لشندسفنتو ، وربما زعم لوقا هذا رغبة منه فى أن يجعل بلاى سليلاً للبيت القوطى(٢).

وأما الروايات العربية عن أصل « بلاى» فأكثرها تفصيلاً رواية « ابن حيان » التى يقول فيها : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصارى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علج يقال له بلاى من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها سنة ٩٨ من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر ابن عبد الرحمن ، فطردوه وملكوا البلاد ، وبقى المُلْك فيهم إلى الآن»(٣) .

ويذهب صاحب « الأخبار المجموعـة » إلى أنه كان جليقياً من أهل أشتريس(٤)، ويؤيده

---

(١) Primera Cronica General de Espana (Madrid,1906) pp.303-499 .

(٢) LUCAS TUDENSE . Chrocrion Mundi. apud :
SCHOTT : Hispaniae ilustratae Scripiores varii : 17 n . 2-220,695 n. I .

(٣) ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب : جـ ٢ ، ص ٦٧١.

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٦١ .
ونص عبارتها : « فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علج يقال له « بلاى » قد ذكرناه فى أول كتابنا ، فخرج من « الصخرة » وغلب على كـورة (هنا كلمة أسقطها الناسخ ولم يلحظ ذلك الناشر) واشتريس ... » وقد جعل تاريخ هذا الحادث (سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٠م - ٧٤١م) ولما كان من الثابت أن بلايه توفى سنة ٧٣٧م (حوالى ١٣٠هـ) فإن لافوينتى إى ألكانترا فى تعليقاته على الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة يذهب إلى أن مؤلف « الأخبار » يخلط فى هذه الفقرة بين أعمال بلاى وأعمال أذفونش بن بيطره ... وهو رأى معقول .
انظر الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٦٦ هامش ٥ .

ابن خلدون فى رأيه هذا . ويقول : « إن أمم النصرانية أجفلت أمام المسلمين إلى سيف البحر من جانب الجوف ، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية ، وملّكوا عليهم بلايه ابن فافلة ، فأقام ملكاً فيهم تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ١٣٣ ، وولى ابنه فافلة سنتين ، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بيطره الذى اتصل الملك فى عقبه إلى اليوم ، ونسبهم فى الجلالقة من العجم كما تقدم ، ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط ، وعندى أن ذلك ليس بصحيح ، فإن أمة القوط قد دثرت وغبرت وهلكت ، وقلَّ أن يرجع أمر بعد اندثاره وإنما هو ملك مستجد فى أمة أخرى والله أعلم»(١) . أى : أنه يقرر مع المقرى وصاحب الأخبار المجموعة أن بلاى جليقى من أهل الشمال ، وليس قوطياً ، ونلاحظ أن ابن خلدون لا يؤيد رأيه إلا بدليل استخرجه من فلسفته ، فلا يمكن - فى رأيه - أن يكون الرجل قوطياً ، لأن ملك القوط قد اندثر ، ولا يمكن أن يقوم أمر أمة اندثرت ، وسنرى أن قانونه لم يصدق هذه المرة .

١٣٨ـ كوفادونجا ولم يكن أحد من المؤرخين ليتنبه إلى « بلاى » هذا لو لم يقترن اسمه بصراع قصير مع العرب أعانه الحظ على التوفيق فيه ، فانتصر عليهم وأبعدهم عن النواحى التى كان يبسط عليها سلطانه . وقد بالغت المراجع النصرانية فى تصوير هذا النصر ، وجعلته شيئاً أشبه بالفتح العظيم ، وزاده مؤرخو الإسبان تقديراً وإجلالاً مع الزمن، فجعلوه بدءاً لصراعهم لإخراج المسلمين من بلادهم ، وإيذاناً بميلاد إسبانيا النصرانية من جديد . ومن هنا أهميته التى تحدونا إلى أن نقف عنده وقفة تتفق مع قدره فى التاريخ الإسبانى عامة .

تكاد المدونات اللاتينية الإسبانية كلها تُجمع على ذكر هذا الانتصار ، وإن اختلفت فيما بينها فى التفاصيل وتحديد التواريخ اختلافاً بيناً .

ومصدر هذه الروايات النصرانية كلها قصة طويلة أوردها « سبستيان السلمنقى » فى تاريخه يقول فيها : « إن بلاى حينما انتهى به المطاف إلى ناحية « الصخرة » أعلن نفسه أميراً على ما يجاورها من النواحى واتخذ قرية كانجاس (Cangas = Canicas) مركزاً لأعماله ، وهناك أعلن الثورة على العرب وصارحهم بالعداء ، فأرسل إليه المسلمون جيشاً كبيراً يقوده

---

(١) أورد « دوزى » نص ابن خلدون فى ملاحق أبحاثه :

cf : DOZY : Recherches (3e éd .1881) I, appendice III, pp. X , XI.

قائد من كبار قوادهم يسمى علقمة(١) ، فغزا اشتريس وتوغل فى أرضها ، فلما سمع بلاى بذلك تحصن فى جبل أوسبة Auseva فى مغارة القديسة مارية Cova Sanctae Mariae التى تسمى كذلك « مغارة أونجا » فحاصره المسلمون وضيّقوا عليه ، وكان معهم أبه (Oppas)(٢) أخو غِيطِشة الذى انضم إلى المسلمين لأشياء نقمها عليه . فمضى أبه إلى بلاى ، وحاوره محاولاً إقناعه بالتسليم للمسلمين ، وأورد لنا سباستيان نص هذه المحاورة مفصلاً ، فلم يفلح فى إقناعه ، فإذ فشلت هذه المحاولة فقد قام المسلمون بهجوم عنيف على الجبل والمغارة بالمعاول (Fundibala) والسهام ، وهنا حدثت معجزة : إذ كانت السهام ترتد نحو المسلمين أنفسهم! وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقتل ١٢٤ ألفاً منهم ، فيهم القائد علقمة نفسه ، وأُخِذ « أبه » أسيراً ونجا من المسلمين ثلاثة وستون ألفاً فروا هاربين ، فتسلقوا جبل أوسبة وانحدروا من الناحية الأخرى ، وساروا فى خانق فى الجبل يسمى خانق أنكورا (El Tajo de Ancora) وانحدروا إلى إقليم ليبانا (Liebana) ، وهنا حدثت معجزة أخرى : إذ أن الجبل انهار من الناحية المشرفة على مصب نهير الديفا (Deva) فطمر بقية المسلمين (٣).

وتلى رواية سباستيان فى الأهمية والطول رواية « مدونة البلدة » التى تذهب إلى أن ثورة بلاى حدثت فى أيام يوسف الفهرى ، وكان مونوسة حاكماً على أشتريس فى ذلك الحين ومقيماً فى ليون ، فسار نحو بلاى جيش إسلامى يقوده رجل تسميه المدونة ألقمان أو ألوامان (Alcaman = Aloaman = علقمان = علقمة ؟) وكان معه « أبه » فانهزم المسلمون وأُسِر «أبه» ، ومات مونوسة بعد ذلك بزمن . وأما الذين نجوا من القتل فقد هلكوا بناحية ليبانا

(١) لم يرد ذكر علقمة اللخمى هذا على صورة صريحة فى مراجعنا الإسلامية . ولكن وجود ابنيه عبد الرحمن وتمام يؤيد وجوده فى الأندلس أوائل أيام الفتح ، فقد كان أولهما قائداً لقوات المسلمين فى جنوبى غالة وكان من كبار اليمنية ، وقد قام بدور كبير فى الحروب بين الشآميين والبلديين . وهو الذى قتل بلج بن بشر فى معركة « أقوة برطورة » ، ويصفه صاحب « الأخبار المجموعة » بأنه كان : « يعد فارس أهل الأندلس » وأنه « كان فارس نجدة مع جودة الاتقاء ، وعليه سلاح كريم لا يحيك فيه سيفٌ حصَين (بن الدجن العقيل) ، وانظر الأخبار المجموعة ص ٤٣-٤٤ . وكان الثانى من كبار موالى بنى أمية فى الأندلس ، وكان من الأعمدة التى أقامت ملك عبد الرحمن الداخل ، راجع نفس المصدر : ص ٧٥ وما بعدها .

وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) هذه هى الصورة العربية لاسم Oppas كما أوردها صاحب الأخبار المجموعة (انظر ص ٨) وهو أحد ابنى غيطشة Witiza ملك القوط الذى غصبه لذريق العرش . وقد سماه ابن القوطية « عباس » .

(٣) AMBROSIO HUICI : Las Cronistas de la Reconquista,I (Valencia 1913) . Sebastiani Chronicon. Pelagius p. 206 .

(Liebana) إذ انهار عليهم الجبل بإرادة الله(١).

وورد ذكر الواقعة كذلك فى « مدونة سيلوس » ، ولكن ما فيها إن هو إلا تكرار لما قاله سبستيان السلمنقى و« راهب البلدة » مع إضافات يسيرة . منها أن ثورة بلاى حدثت فى بليدة (Cangas) ، وهو يسمى علقمة (Alchaman) ويقدر العرب بمائة وسبعة وثمانين ألفاً ، ويذكر أن معجزة انهيار الجبل حدثت على مقربة من نهر الديفا بناحية ليبانا ، وأن مونوسة كان مقيماً ببلدة خيخون فهرب عندما سمع بخبر الهزيمة ، وقتله أهل هذه النواحى فى قرية أولاليس (Olalies)(٢).

وتكتفى مدونة كمبستيلة (Compastela) بالقول بأن بلاى طرد المسلمين من هذه الناحية واحتلها(٣) ، فى حين لا تزيد مدونة « شرطانية » على أن المسلمين سادوا شبه الجزيرة كله إلا « مغارة مارية المقدسة»(٤).

أما مراجعنا الإسلامية فقد أشارت إلى وثوب بلاى بالمسلمين فى ناحية « الصخرة» ومحاولتهم القضاء عليه وهزيمته إياهم . وإشاراتها كلها موجزة غير دقيقة التحديد ، ولكنها تدل على فهم أصحابها لأهمية الدور الذى لعبه بلاى فى تاريخ دول إسبانيا النصرانية والإسلامية أيضاً ، وما ترتب على نهوضه فى وجه المسلمين وحربه معهم من النتائج البعيدة فى تاريخ شبه الجزيرة كله : فعيسى بن أحمد الرازى يقول : «وفى أيام عنبسة بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية علج خبيث يقال له «بلاى» من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك» (٥) مما يُفهم منه أن الرازى كان يعتبر « بلاى » منشىء حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية فى الأندلس من جديد بعد تفرُّق أمرها على أول أيام الفتح ، وأن نهوضه بأمرها كان الحجر الأول فى بنائها الجديد ، فقد قوى شأنها بعد ذلك ، ونهض أهلها إلى مدافعة المسلمين عما استولوا عليه ، بعد أن كانوا لا يطمعون فى ذلك قبل ظهور « بلاى» .

ولابن حيان - عميد المؤرخين الأندلسيين - رواية أخرى أدل على شخصية بلاى وقدره

(١) A. HUICI : op. cit. Chronicon Albeldense . I.p. 159.
(٢) A. HUICI : op. cit. Monachi Silensis Chronicon, II,p. 50 .
(٣) A. HUICI : op. cit.Chronicon ex Historiae Compostellanae Codice I,P.80.
(٤) A. HUICI : op. cit.Chronicon Cerratensis, I,p.90 .
(٥) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٧١ .

يقول فيها : « أنه فى أيامه - أى أيام عنبسة بن سحيم الكلبى - قام بجليقية علج خبيث يدعى «بلاى» ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك . وقيل : إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا « الصخرة » التى لاذ بها هذا العلج ، ومات أصحابه جوعاً ، إلى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من عسل النحل يجمعونه فى جباخ معهم ، فى خروق الصخرة . وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجىء منهم .. »[1] مما يُفهم منه أن « بلاى» كان شهماً شجاعاً ، فهاله تراجع قومه المستمر أمام المسلمين ، فنهض يستنهض هممهم « ويذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر » وهى عبارة عظيمة المعنى والدلالة ، بل إن أحداً من مؤرخى إسبانيا النصرانية القدماء لم يقل مثل هذا القول الذى يحدد دور « بلاى » كواضع أساس حركة «الاسترداد» وصاحب الفضل الأول فيها .

وربما كان مؤرخانا الأندلسيان الكبيران - الرازى وابن حيان - أصدق نظراً وأصح تقديراً لبلاى من عامة من تناول الحديث عنه من أصحاب المدونات النصرانية ، الذين لا تخرج رواياتهم عن مبالغات وتفاصيل بعيدة التصديق عن انتصار بلاى على المسلمين عند مغارة أونجا عند سفح جبل أوسبة (Auseva) ، وهو انتصار محقق لا تنكره الرواية الإسلامية ، ولكن مبالغات الروايات النصرانية تلقى عليه ظلاً من الشك ربما قلل من قيمته.

يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد أن يشير إلى ظهور بلاى فى ناحية الصخرة : «.. وغزاه أهل أستورقة زماناً طويلاً ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرج (يريد : أخرجهم) عن جليقية كلها ، وتنصَّر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج [2] . وقُتل من قتل ، وصار فَلُّهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة ، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين » . ويقول بعد

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٩ - ١٠ .

(٢) هكذا فى الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا استغنينا عن حرف الجر « عن » .

قليل : « وكاد أن يغلب عليهم – أى على المسلمين – العدو ، إلا أن الجوع شملهم »[١] .

ونستخلص من روايته هذه الحقائق الآتية :

أولاً – أن « بلاى » خرج على المسلمين فى ناحية اشتريس واستقل بها فى ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى .

ثانياً – أن جند المسلمين القائم فى أستورقة حاولوا إخضاعه « زماناً طويلاً » دون أن يُوفَّقوا .

ثالثاً – أن حركة الرجل أخذت فى النمو ، حتى إذا وقعت فتنة أبى الخطار ، واشتغل المسلمون بحربه مع يوسف الفهرى والصميل بن حاتم انتهز الرجل الفرصة وضاعف جهده ، فهزم المسلمين هزيمة أخرجتهم عن جليقية جملة .

رابعاً – أن صدى هذه الهزيمة تردد فى نواحى جليقية كلها ، فعاد بعض من كان أسلم من أهلها إلى النصرانية ، وضعف الخراج تبعاً لذلك .

خامساً – أن أهل هذه الناحية انقلبوا على المسلمين فقتلوا منهم من استطاعوا قتله ، وفرَّ الباقى إلى أستورقة ، ليحتموا بالعسكر الإسلامى المقيم هناك .

سادساً – ولم يُضِع بلاى الفرصة ، فتقدم وأخرج المسلمين من أستورقة واستولى عليها .

سابعاً – وانسحب مسلمو هذه النواحى عن طريقين : طريق الغرب إلى إقليم سرقسطة وطريق الجنوب إلى ماردة وقورية .

وسنرى بعد قليل أن صاحب « الأخبار المجموعة » خلط بين أعمال « بلاى » وأعمال «أذفونش الأول » ، وأن عمل بلاى لم يتعد الحقائق الأربع الأولى .

ويقول صاحب فتح الأندلس : « وقام علج خبيث من أعيانهم فى أيام عنبسة هذا بأرض جليقية اسمه بلايه بن فافلة على من كان يملك أطراف جهته من العرب ، فنفاهم عنها . فملك سنتين ، ثم ملك ابنه فافلة بعده إلى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ثم هلك فاستولى على أهل جليقية بعده أذفنش بن بيطره جد بنى أذفنش هؤلاء الذين اتصل أمرهم إلى اليوم »[٢]. وهى رواية مختصرة فيها خطأ كثير فى نسب بلايه وفى تحديد التواريخ ، ولكنها تقرر أن بلاى

(١) الأخبار المجموعة ، ص٦٢ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٩ .

كان مستقلاً بناحيته عن المسلمين ثم ثار على من بأطراف هذه الناحية من العرب ، فهزمهم وطردهم عنها .

وللمقرى رواية لا تقل عن هذه أهمية ، وإن لم يسندها إلى أحد ، وذلك حيث يقول : «قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم علج يقال له « بلاى» من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينـة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن فطردوه ، وملكوا البلاد ، وبقى الملك فيهم إلى الآن »[١].

وهى إشارة هامة تعيننا على تكوين فكرة عن حياة بلاى قبل لجوئه إلى الصخرة وقيامه بالثورة على المسلمين ، وهى تحدد هروب بلاى من أيدى المسلمين بسنة ٩٨هـ/ ٧١٨م وهو تحديد سيعيننا على ربط أحداث حياته بعضها ببعض .

وقبل أن نستخلص من هذه الروايات كلها سلسلة واحدة مترابطة الحلقات عن حياة «بلاى» وحركاته ، يجدر بنا أن نناقش التواريخ التى تقدمها لنا هذه الروايات .

ليس من اليسير مناقشة التواريخ المتضاربة التى يقدمها إلينا المؤرخون عن هذه الحوادث ، لأن المؤرخين النصارى الذين يتحدثون عنها يختلفون فيما بينهم اختلافاً عظيماً ، فيجعلها « سبستيان» فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر أن قائد البعث الإسلامى المنهزم كان «علقمة » وهو من قواد طارق بن زياد ، فى حين يجعلها صاحب « مدونـة البلدة » فى ولايـة يوسف الفهرى ، أى بين سنتى ١٢٩-١٣٨هـ / ٧٤٦ و٧٥٦م . أما مؤرخونا الإسلاميون فلا يكادون يتفقون هم الآخرون فيما بينهم ، فابن حيان والرازى يجعلان ثورة « بلاى » أثناء ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣-١٠٧هـ/ ٧٢١-٧٢٥م) ، فى حين يجعلها صاحب «الأخبار المجموعة » فى بدء ولاية عقبة بن الحجاج السلولى (١٢٢هـ/ ٧٤٣م) ويكتفى المقرى بالقول بأن بلاى هرب من قرطبة سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م ، وأنه كان فى اشتريس فى العام التالى (١٠٠هـ/ ٧١٨م) ، دون أن يزيد على ذلك شيئاً . أما هزيمة بلاى للعرب فيجعلها صاحب الأخبار المجموعة وصاحب فتح الأندلس فى أثناء ثورة البربر على العرب أى فى أوائل فتنة أبى الخطار والصميل ، أى بعد سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠-٧٥١م.

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٧١ .

وقد حاول إدواردو سافدرا أن يستخلص من هذه التواريخ المتناقضة رأياً لا بأس من إيراده ، لأنه يمثل الرأى المتبع بين عامة المشتغلين بتاريخ هذه الأحداث من الإسبان المحدثين .

يقول « سافدرا » : إن رواية المقرى صريحة فى أن بلاى هرب إلى صخرته (picos de Europa) فى سنة ٧١٧م ، وأنه كان هناك فعلاً فى سنة ٧١٨م فى ولاية الحر بن يوسف ، ويعود ابن حيان والرازى فيؤكدان أن بلاى قام بثورته فى ولاية عنبسة ، أى بين سنتى ٧٢١- ٧٢٥م ، وهذا تاريخ معقول ، لأن بلاى لابد أن يكون قد أنفق هذه السنوات فى جمع الأنصار والقيام بغارات صغيرة ومناوشات مع المسلمين أقلقت بالهم ، ففكروا فى إرسال بعث لتأديبه والقضاء على حركته .

وحيث إن سبستيان يذكر أن وقعة « كوفادونجا » كانت فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر اسم القائد علقمة – الذى تؤيد المراجع العربية وجوده فى هذه الأيام – فإن أقرب الفروض إلى الصحة أن علقمة هذا سار لحرب بلاى فى ولاية عنبسة ، وهناك حدثت الوقعة ، وانهزم هذا البعث الإسلامى ، واستشرى أمر بلاى بعد ذلك ، ولكن ظروف المسلمين لم تسمح بإرسال قوة لتأديبه إلا بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أى فى ولاية عقبة ، وهذا ما أشارت إليه المراجع الإسلامية من قيام عقبة بن الحجاج بحملة تأديبية تتبعت بلاى ورجاله بالحرب حتى كادت تفنيهم ، ورجعت وهى تظن أن الرجل وأنصاره لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ولهذا اختفى اسم بلاى حتى من المراجع النصرانية ، فلم نجد له ذكراً إلا سنة ٧٣٧م ، وهو عام وفاته الذى تحدده المراجع النصرانية(١).

ولنا على هذا الرأى استدراك:

ذلك أن سبستيان السلمنقى لم يحدد تاريخاً لواقعة « كوفادونجا » وإنما ذكر أنها كانت فى أوائل أيام الفتح ، فليس هناك ما يدعو إلى القول بأنها حدثت أثناء ولاية عقبة بن الحجاج بالذات . وربما كانت أيام عقبة هى أبعد الأيام احتمالاً لوقوع هزيمة إسلامية على يد النصارى فى الأندلس ، لأن الرجل كان محارباً لا يمل القتال ، وقد استنفد أيامه فى الحروب مع النصارى ، وظل يتتبع الثائرين فى جليقية حتى خيل إليه أنه قضى على كل أمل لهم فى القيام على المسلمين من جديد ، ثم انصرف بعد ذلك إلى الناحية الشمالية الشرقية ودخل

(١) EDUARDO SAAVEDRA : pelayo, Conferencia histórica. Madrid 1906.

بنبلونة[1] وما يليها من البلاد شمالاً ، ولو قد هزم له بعث على يد بلاى لما انصرف عنه ولواصل قتاله . والثابت من الروايات النصرانية والإسلامية أن بلاى تتبع المسلمين بعد انتصاره عليهم حتى أخرجهم من بلاده ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد وقع على أيام عقبة . والمراجع الإسلامية صريحة كذلك فى أن بلاى طارد المسلمين وأخرجهم من بلاده أثناء فتنة أبى الخطار والصميل أى : بعد سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠-٧٥١ ميلادية .

بيد أن هذا لا يتفق وما تجمع عليه الروايات النصرانية من أن « بلاى » توفى سنة ٧٣٧ ميلادية ، وهى فى مجموعها لا تستند على دليل واحد يؤيدها فى هذا التحديد . بل إن الفونس العاشر يجعل وفاته قبل ذلك بست سنوات أى سنة (١٢١هـ/ ٧٣١م) أى أثناء ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى ، مما يدلنا على أن تحديد تاريخ وفاة بلاى بهذه السنة لم يخل من أن يناقضه مؤرخ مطلع كهذا الملك العالم ، الذى قرأ كل التواريخ التى كُتِبت قبله ولم يقر ما أجمعت عليه .

ثم إن ابن خلدون - وقد اعتمد على الرازى وابن حيان فيما كتب من تاريخ ملوك الجلالقة - يجعل وفاة بلاى سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠- ٧٥١م أى فى نفس السنة التى يؤكد صاحب الأخبار المجموعة أن بلاى هزم المسلمين فيها وأخرجهم من جليقية . ولما كان الرازى وابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة هم أقدم من حفظ لنا أخبار هذه الفترة البعيدة ، فإننا أميل إلى الأخذ برأيهم ، ومتابعتهم فى القول بأن واقعة كوفادونجا وقعت سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠-٧٥١م أثناء فتنة أبى الخطار والصميل ، وأن « بلاى» لابد أن يكون قد توفى بعد ذلك بقليل ، فى أواخر ٧٥١م على الأرجح[2] .

وقد لاحظ دوزى أن التواريخ التى تحددها المدونات اللاتينية لأحداث هذه الفترة

---

(١) يقول ابن عذارى عن أعمال عقبة الحربية : « وهو الذى فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين . وعمت فتوحاته جليقية كلها غير « الصخرة » ، فإنه لجأ إليها ملك جليقية وكان بها ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فنيت أزودتهم ، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه فى خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم ، وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها وأجمل طريقة وأعدلها إلى أن غزا أرض إفرنجة ...» - البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٩ ، وليس فى هذا كله إشارة إلى هزيمة ، ولا احتمال انكسار أى بعث إسلامى .

(٢) تذهب « مدونة البلدة » إلى أن كوفادونجا وقعت سنة ٧٥٦م أى : أثناء الصراع بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهرى ، وقد أخذ بروايتها ماسديو ، فذهب إلى أن الوقعة حدثت فى تلك السنة .

cf . J. F. MASDEU : Historia Critica, I. pp. 55 Sqq .

لا يمكن تأييدها ، وفضَّل عليها روايتى الرازى وابن حيان ، ولم يرض كذلك عن التواريخ التى قدمها ابن خلدون ، وختم كلامه عن موضوع تاريخ حوادث هذه الفترة بقوله : « إنه لمن العسير جداً - إن لم يكن من المحال - أن نحل إشكالاً من هذا النوع ، إذ ينقصنا الخيط الذى يدلنا على طريق الخروج من هذه المتاهة »(١) .

وهو على حق ، فليس لدينا ما يقنعنا بقبول ما تجمع عليه غالبية المراجع النصرانية من جعل وقعة كوفا دونجا سنة ٧١٨م وجعل وفاة بلاى سنة ٧٣٧م ولا يذكر لنا مؤرخونا الإسلاميون هذه الواقعة محددة باسم أو بتاريخ ولو تقريبيين لها . ثم إن منطق الحوادث لا يستقيم إذا نحن فرضنا أن بلاى هزم المسلمين على أيام عنبسة أو على أيام عقبة : فلو قلنا إن الهزيمة وقعت فى أيام عنبسة لضاعت قيمتها كنصر حاسم رد المسلمين عن بلاد أشتريس، لأن عقبة أتى بعد ذلك وغزاها حتى ألجأ بلاى إلى «الصخرة » ولم يبق له إلا على عدد قليل من الأنصار ، أى أن « كوفا دونجا » لم تكن الوقعة الفاصلة التى ردت المسلمين عن تعقب النصارى ، بل عادوا إليها وأوغلوا أكثر مما فعلوا من قبل ، وانصرفوا عنها بعد ذلك بسنوات من تلقاء أنفسهم ، لأن عقبة اضطر إلى مغادرة الأندلس إلى إفريقية ، كما يقول باليستروس(٢)، فلا يكون والحالة هذه لكوفا دونجا ولا لبلاى فضل فى ارتدادهم أو فى ميلاد اشتريس ، ولا تكون «كوفا دونجا » والحالة هذه إلا مناوشة خسرها المسلمون وعادوا بعدها إلى الظفر .

ولما كانت الروايات النصرانية وما بين أيدينا من الروايات الإسلامية تُجمع على أن انتصار بلاى على المسلمين كان حاسماً ، وأنه أعقبه إخراجهم من جليقية ، فلا مفر لنا من القول بأن هذا الانتصار حدث بعد أيام عقبة ، وفى أوائل فتنة أبى الخطار وثوابة بن سلامة العاملى أى فى سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠-٧٥١م أو فيما بعدها ، ولا محيص لنا فى هذه الحالة من جعل وفاة بلاى بعد ذلك بقليل فى نفس السنة ، تمشياً مع تحديد ابن خلدون لسنة وفاته .

فإذا انتهينا من تقرير أحداث حياة « بلاى» وتحديد تواريخها ، فلنعرض حياته وما قام به من الأعمال مستخلصة من مجموعة ما لدينا من المراجع الإسلامية والنصرانية.

---

(١) DOZY, Recherches, I, p.96 .

(٢) BALLESTEROS, Historia ..., II,p. 181.

وهو خطأ : لأن عقبة أقام بالأندلس حتى انتهت ولايته نهاية غير واضحة ، وقد تتبعت مرجعه الذى أشار إليه ، وهو الأخبار المجموعة ، فلم أجد فيه ذكراً لهذا ، لا فى الأصل ولا فى الترجمة الإسبانية ولا فى التعليقات عليها : الأصل العربى : ص ٢٨ ، الترجمة الإسبانية : ص ٣٨ - ٣٩ .

نستطيع أن نقبل ما يذكره ألفونس العاشر - الملك العالم - من أن « بلاى » كان ابناً لفافيلا دوق كنتبرية ، وأن فافيلا (Fafila) هذا كان قد استقر فى توده(Tuy=Tude) - عاصمة كنتبرية فى ذلك الحين - بعيداً عن البلاط القوطى فى طليطلة ، لأن نزاعاً قام بينه وبين الملك « اجيكا » (Egica) فلما مات هذا الأخير وخلفه غيطشة ، تجدد النزاع بينه وبين « فافلة » ، إما لأن غيطشة طمع فى زوج فافلة (أم بلاى) أو لسبب آخر ، والمهم هو أن النزاع ثار بين الرجلين ، وفرَّ فافلة مرة أخرى إلى كنتبرية حيث مات هناك مخلفاً ابنه « بلاى» .

فلما وثب لذريق بغيطشة وآله ، انضم إليه « بلاى » وأعانه على إدراك العرش ، فكافأه على ذلك بأن جعله « حامل سيفه » (spatarius) واستمر « بلاى » على هذا حتى فتح العرب الأندلس ، فكان ممن وقعوا فى أيديهم أسرى ، فاحتفظوا به لديهم فى قرطبة رهينة .

ولما كانت أيام الحر بن عبد الرحمن بن يوسف الثقفى ، عامل الأندلس بين سنتى ٩٧و١٠٠هـ/ ٧١٧-٧١٩م. أمكنت بلاى الفرصة ، ففرَّ من قرطبة ، وتشرد فى نواحى شمالى الأندلس فترة من الزمن ، وتنقل فى أشتريس حتى استقر به المقام فى بليدة « كانجا دى أونيس » ، وهناك التف حوله نفر من القوط الهاربين من المسلمين ونفر من الإيبيريين الرومان المقيمين فى هذه الناحية ، فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهض هممهم ، وجمعهم على الوثوب بهم .

وكان عامل المسلمين على نواحى أشتريس القائد البربرى « مونوسة » ، فوقعت بينه وبين بلاى مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى ألجأه إلى التحصن «بالصخرة » فى عدد قليل جداً من أنصاره ، ولو ظل مونوسة مكانه لقضى على بلاى فى ذلك الحين ولكن نزاعاً وقع بينه - أى بين مونوسة - وعبد الرحمن الغافقى ، فحاربه وما زال به حتى قتله على يد قائده البربرى « ابن زيان » سنة ١١٣ هـ/ ٧٣١م.

وخلا الجو أمام « بلاى » بذلك ، فتشجع وخرج من « الصخرة » وأخذ فى التوسع حتى استولى على خيخون التى كان « مونوسة » يقيم فيها ، وبسط سلطانه على إقليمى أشتريس وكنتبرية ، واتسع ملكه ، وأخذ ينازع من جاوره من الأدواق ، حتى شمل سلطانه جزءاً من جليقية وناحيتى أشتريس وكنتبرية .

فلما ولى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى (١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤١م) تجرد

للقضاء على هذه الدويلة التى قامت فى وجه المسلمين فى شمالى الأندلس وأخذت تنتقص من سلطانهم على شبه الجزيرة ، فما زال يحارب بلاى ويقتطع أراضيه جزءاً جزءاً حتى رده إلى « الصخرة » كما كان ، وأدخل الكثيرين من أهالى أشتريس فى الإسلام ، وكادت الدويلة الناشئة أن تنهار وينتهى أمرها .

ثم ساعفتها المقادير بما وقع من الخلاف بين اليمنيين والقيسيين فى الأندلس عقب وثوب عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية بعقبة وانتزاعهم الأمر من يده ، فتنفس بلاى ومن معه الصعداء ، وأخذوا يغادرون الصخرة وينتشرون فيما والاها من نواحى أشتريس .

ووقعت فى أثناء ذلك الفتنة البربرية ، واشتد الصراع بين العرب والبربر فى نواحى شبه الجزيرة كلها ، وكان عقبة قد خلف على أشتريس علقمة اللخمى ومعه قوة من الجند تقيم فى استورقة (Astorga=Asturicum) أو فى ليون (Leon=Legio) فهال علقمة ومن معه ما رأوا من تقدم بلاى وأصحابه فى أرض المسلمين ، فنهضوا إليهم فى قوة يسيرة ، وتوغلوا فى بلادهم حتى أدركوا الصخرة ، وتحصن بلاى منهم فى جبل أوسبة (Auseva) واحتمى نفر من أنجاد جنده فى مغارة كبيرة تسمى « مغارة أونجه» (Covadunga = Cova de Onga) أو « مغارة مارية المقدسة » ، فلما أراد العرب اقتحام الجبل والصعود إلى المغارة هبط عليهم بلاى وأصحابه فهزموهم ، وقتلوا علقمة ، وارتد المسلمون مسرعين نحو استورقة وشردت جماعة منهم ، ومضت تضرب فى نواحى اشتريس القاحلة حتى نزلت ناحية ليبانا Liebana حيث هلكوا ، إما على يد الجلالقة أو لسبب آخر . وتشجع بلاى وأصحابه فتقدموا واستعادوا ما كانوا فقدوه ، وعاد أمرهم كما كان ، وأتاح المسلمون لهم هذه الفرصة بما انشغلوا فيه بعد ذلك من فتنة أبى الخطار والصميل ، فاطمأن بلاى وأصحابه ، وقوى مركزهم وثبتت أقدام الدولة الجديدة .

١٣٩ـ أهمية كوفا دونجا هذه هى خلاصة ما بين أيدينا من النصوص عن « بلاى » ومعركة « كوفا دونجا» . وواضح جداً أن هذه المعركة لم تكن فى واقع الأمر أكثر من مناوشة انهزم فيها المسلمون لأسباب أخرى غير ما تزعمه الروايات النصرانية من تفوق بلاى وأصحابه فى الشجاعة والنجدة ، أو من تدخل قوى علوية خفَّت لنجدة النصارى فى اللحظة الحاسمة . ولم يعد المسلمون إلى مهاجمة هذه النواحى الشمالية القاصية إلا فى أيام المنصور بن أبى عامر ، فظلت منذ يوم « كوفا دونجا » مهداً لدولة اشتريس الناشئة ، فثبتت

قواعـدها ورست أصولها على نحـو لم يستطع المسلمـون معـه إزالتها بعـد ذلك أبداً ، أى أن هذه الوقعة كانت إيذاناً بميلاد اشتريس وبدءاً حاسماً لحركة المقاومة النصرانية فى شبه الجزيرة ، وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الإسبانى .

وربما بدا لنا أن التواريخ الإسبانية تبالغ فى تعظيم هذه الموقعة ، وربما كان مرد هذه المبالغة إلى « بلاى » وأصحابه ومعاصريهم من القصاص . بيد أنه لا حرج على بلاى وأصحابه ، ولا حرج كذلك على الروايات النصرانية فى مثل هذه المبالغة ، لأن هذه المناوشات ، التى وقعت بين المسلمين والنصارى فى نواحى اشتريس وانتهت بانتصار هذه الجماعات النصرانية التى اختارت العيش فى هذه الناحية القاصية القاحلة - مستقلة عن سلطان المسلمين - على العيش فى ظلالهم ، قد وضعت أساس الدولة الإسبانية النصرانية التى سيتاح لها أن تناوىء المسلمين قرناً بعد قرن حتى تتيح الظروف لها فرصة إخراجهم من البلاد .

والتاريخ الصحيح يعتبر «كوفا دونجا » ميلاداً لهذه الحركة التى ستصل حلقات تاريخ إسبانيا النصرانية وتعيد البلاد إلى النصرانية وإلى ميدان الحضارة الغربية من جديد . وليس إلى الشك سبيل فى أن حركة بلاى تعد حادثاً رئيسياً فى تاريخ إسبانيا كله ، لأن العبرة فى أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا بالأرقام الصغيرة أو الكبيرة ، بل العبرة فيها بالمعنى التاريخى الذى يستتر خلف الحادث نفسه . « ونحن - كما يقول المؤرخ باليستروس - بعيدون جداً عن الحادث بدرجة لا تسمح لنا بأن نزعم أننا نستطيع أن نقدر أعداد المقاتلين أو أن نصف الحركات الحربيـة على وجـه الدقـة ، ثم إن هـذا ليس هـو الأسـاس ولا المهم ، فسواء أُوجِد فى هذه المعركة هذا العدد أو ذاك من المقاتلين ، وساء أكانت وقعت فى هذا المكان بعينه أو فى مواقع أخرى ، فإن الأمر المهم هو أن بعثاً إسلامياً - ربما كان صغيراً - أراد أن يقضى على مركز حركة ثورية ، وحاول الوصول إلى الموضع الذى اعتقد رجاله أنه وكر رجال العصابات والثائرين ، ففشل فى إدراك ما طلب بسبب النخوة والشجاعة التى أبدتها حفنة من الرجال كانوا يقاتلون قتال اليائس منافحين عما بأيديهم ، وأنقذوا بهذا الكفاح ما هو أغلى مما كانوا يملكون فى ذلك الحين ، وهو الاستقلال عن السيادة الأجنبية . وقد أقاموا بعد ذلك محافظين على كرامتهم وممتلكاتهم محتملين ما كلفتهم هذه المحافظة من باهظ التكاليف » .

« ثم إن ازدياد الإجلال لكوفا دونجا مع مرور الزمن ، واتجاه الأنظار خلال الأعصر إلى هذه البقعة من الجبل التى أشرنا إليها بالذات ، ليدلان على أنه قد وقع فيها يحيط بها ويقاربها حادث باقى الأثر من حوادث الصراع الذى أراد خلفاء من حضروه وشهدوه أن يخلدوا ذكره . فكيف وبين أيدينا وثائق تؤيد وقوع هذا الحادث بالفعل ؟ ولسنا نريد بهذه التأكيدات كلها أن نقول - بأى حال - أن الموقعة كانت من الكبر بما يتفق مع هذه المعانى التى ذكرناها ، وليس معناه كذلك أن الكارثة التى نزلت بالعدو كانت بالشدة التى يصفها بها الرواة الذين استرسلوا مع خيالهم وحماسهم أكثر مما ينبغى، وإنما معناه أن النقد السليم يقرر الصفة الرمزية للواقعة ، فقد كانت بدءاً لعمل مجيد ، وكانت أول حجر فى بناء ضخم . وكانت هذه الهزيمة الصغيرة وذلك الفشل اللذان أصابا القوة الحربية الإسلامية عوامل أفهمت النصارى أن أعداءهم لم يكونوا معصومين من الهزيمة ، وذلك وحده يوضح لنا كيف أن الحادث الصغير أصبح منذ هذا التاريخ معتبراً فى نظرهم رمزاً وهدفاً وغاية بعيدة عالية ، أى أنه إنما كان فى الواقع الملموس بدء استقلالهم وبدء التحرر من السلطان الإسلامى . وهذا أمر ذو قيمة لا تقدر»(١).

وأما من وجهة النظر الإسلامية فهذه الحادثة فى ذاتها لم تكن تعنى شيئاً لو لم يعقبها من الأحداث ما زاد فى قيمتها وأهميتها ، فلو لم يختلف المسلمون على أنفسهم وينقسموا شيعاً لما كان لكوفا دونجا ولا لبلاى نفسه أهمية كبرى ، فإن انهزام الجيوش الإسلامية لم يكن بالأمر النادر ولا الحاسم ، وقد انهزمت هذه الجيوش فى إفريقية مثلاً عشرات المرات ، وكانت الهزائم فى بعض هذه الحالات قاسية بل قاصمة ، ولكنها لم تكن حاسمة ، لأن المسلمين استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم بعد كل هزيمة ويعودوا للقتال حتى يقضوا على الحركة ويستعيدوا ما يكون قد ضاع منهم . فأما فى هذه المرة فقد عجز المسلمون عن إخضاع هذه الناحية ، وقامت فيها الدولة النصرانية ولم تختف من التاريخ بعد ذلك أبداً ، فأصبحت لهذا حادثاً حاسماً له خطره فى تاريخ إسبانيا الإسلامية .

والثابت على أى حال أن المسلمين لم يتركوا هذا الركن القصى من جليقية دون فتح لأنهم هُزِموا أمام بلاى أو غيره ، أو لأنهم احتقروا هذه البقية الباقية من الثائرين ، بل لأنهم انصرفوا عنها إلى التافه من منازعات الجنس والعصبية ، فأضعفوا أنفسهم من جهة .

(١) BALLESTEROS : Historia ..., II,PP. 180-181.

وأعطوا رجال الحركة فرصة كانوا فى أشد الحاجة إليها ليثبتوا أقدامهم وليتحولوا من جماعة من الثائرين المطاردين إلى دولة مستقرة لها كيان ولها سيادة على ما تملكه من الأرض من جهة أخرى.

ومن الواضح جداً أن هذه الحركة وانصراف العرب عن القضاء عليها قد أنشأ فى شبه الجزيرة وضعاً جديداً سيكون محوراً من محاور التاريخ الأندلسى كله وهو: أن إسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطراً إسلامياً خالصاً ، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلاً من هاتين الدولتين ستسير فى طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ، وأن هذا النزاع سينتهى بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والإسلام من البلاد .

ولم يخف هذا المعنى على مؤرخينا الإسلاميين ، فهذا ابن حيان يقول عن جماعة بلاى : «... وما زالوا ممتنعين بوعرها - أى بوعر الصخرة - إلى أن أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجاً ! ما عسى أن يجىء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة والاستيلاء إلى ما لا خفاء به . وملك بعده - أى بعد بلاى - أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة ...»[1] . وهذا ابن سعيد يقول : «فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقبُ من كان فيها المدنَ العظيمة ، حتى أن حاضرة قرطبة فى يدهم الآن ، جبرها الله ، وهى كانت سرير السلطنة لعنبسة»[2].

وينبغى كذلك أن نقرر أن هذه الحادثة أخذت جانباً عظيماً من قيمتها من طبيعة هذه الطوائف القوطية والإيبيرية الرومانية التى اعتصمت بهذا الركن ، فقد كانت طبيعة صلبة مثابرة لا تكف عن القتال ولا تخشاه ، وهى لم تقنع بالسلامة من أيدى المسلمين ، وإنما عولت على الاستمرار فى مناجزتهم ، ومضت فى ذلك بصبر وجَلَد يستوقفان النظر . وأحسن رجالها الاستفادة من هذا الوضع الذى كانوا فيه على بساطة شأنه ، وما زالوا يحاربون ويجالدون ، لا يتركون غرة من العرب إلا انتهزوها ، حتى أصبحوا مع الزمن قوة يُخشى بأسها .

فإذا صح هذا استبانت لنا القيمة الحقيقية لشخصية بلاى فى التاريخ الإسبانى عامة ،

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٠ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

فهو واضع أساس الدول النصرانية الشمالية الغربية التى ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية « وهو أبو بنى أذفنش هؤلاء » كما يقول مؤرخونا الأندلسيون ، وقد رأينا أن معظم أحداث حياته لا زال نهباً موزعاً بين القصاص وأصحاب الملاحم الشعرية الأسطورية ، ولكن المهم أن التاريخ الصحيح يعترف له بجمع شمل النصارى المتفرقين وقيادتهم فى حرب المسلمين قيادة موفقة ، وفى هذا كفاية ، فلا معنى إذن لإنكار وجوده كما فعل بعض المسرفين فى الشك من المؤرخين(١) ولا معنى للإصرار على أنه ينحدر عن صلب البيت الحاكم القوطى القديم ، لأن الواقع أن الرجل سما إلى أوج الملوك بما قام به من دور كبير : « وربما كان بلايو هذا ، منشىء الأسرة الأشتورية رجلاً عادياً من العوام ، رجلاً بسيط الأصل رقيق الحال ، ولكنه امتاز على أى حال بخصال ممتازة أهَّلته للرياسة . وسواء أكان قوطياً أم إيبيرياً رومانياً ، فقد استطاع أن يضع نفسه على رأس المغلوبين فى لحظات الخطر المحيق ، وحاز لنفسه القيادة عن جدارة » كما يقول باليستروس (٢) ، فذلك لا يغير من الواقع شيئاً ، لأنه يبقى لبلاى بعد ذلك فضل إقامة دولة للنصرانية فى الشمال وتعزيزها أمام الفتح الإسلامى الجارف ، وفضل تكوين هذه النواة التى تكونت حولها فيما بعد دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الإسبانى إلى الأمام حينما عجز المسلمون عن الاستمرار فى القيادة بعد انهيار دولة الخلافة الأموية وفشل كل المحاولات الجليلة التى قام المسلمون بها لجمع الكلمة وإعادة سيادة الإسلام على شبه الجزيرة .

هذا ، وليس بين مؤرخى الإسبان المحدثين إجماع على إقرار ما تذهب إليه الروايات النصرانية من انحدار بلاى عن صلب قوطى - ملكى أو غير ملكى - بل منهم من يذهب إلى أنه من أهل أشتريس الأصلاء ، أى كلتى أو إيبيرى رومانى ، وأن اسمه الأصلى ليس بلاجيوس (Pelagius) كما تورده المدونات النصرانية بل بلايو (Pelayo) بدليل وجود ألفاظ كثيرة فى اللغة الأشتورية تنتهى بالياء والواو (yo) منها أسماء أعلام مثل (Volcayo) و (Poyayo) و (Olayo) و (Ubayo) وألفاظ مثل (orvayo) و (carbayo) و (bor-gayo)(٣) و(argayo)(٣).

(١) مثل MASDEU,MAYANS (يقرر وجوده ولكنه يشك فى نسبة الكثير من أعماله إليه) SARMIENTO و PELLICER و CASIRI و NOGUERA

cf : BALLESTEROS : op. cit. p. 194 .

(٢) BALLESTEROS : op. cit. p. II, 174 .

(٣) RICARDO BURGUETE : Recteficaciones historicas , p. 284.

بل من علماء الإسبان من يقرر أن أصل بلاى من ناحية ليبانا بالذات[١] ، ومراجعنا العربية تؤيد هذا الرأى ، وهى أقدم من المراجع النصرانية ، فهى تسميه بلاى وهى تسمية أقرب إلى بلايو منها إلى بلاجيوس ، ثم إن أوثق مؤرخينا الإسلاميين يؤكدون أن الرجل كان جليقياً على ما سبق ذكره .

وقد كانت عاصمته طول حياته بليدة كانيكاس اللاتينية (Can- icas) (Cangas de Onis) الإسبانية ، وأغلب الظن أنه دفن بها مع زوجته جاوديوسا (Gaudiosa) ، وخلفه ابنه فافلة (Fafila) على ما تُجمع عليه المراجع النصرانية (يؤيدها فى ذلك ابن خلدون) ، ولم يكن على شىء من خصال أبيه ، وإنما كان مولعاً بالصيد ، وقتله دب أثناء الطرد بعد أن حكم سنتين لم يكد يفعل خلالهما شيئاً ذا بال كما يقول سباستيان السلمنقى[٢]، ويجعل المؤرخون وفاته فى سنة ٧٣٩م ، وذلك لا يتفق مع ما ذكرناه ، والأصح أن يكون قد توفى سنة ٧٥٢م أى : قبل قيام الدولة الأموية بأربع سنوات ، ودفن مع زوجته فروليبا (Frole- ba) أو (Froiliuba) فى كنيسة سانتا كروث فى كانجاس .

وقد انتهت ولاية عقبة بن الحجاج الذى كان يرجى أن يتم القضاء على حركة بلاى على يديه نهاية غير واضحة ، فمن قائل إنه مات حتف أنفه إثر مرض ألم به ، وأنه أوصى لعبد الملك بن قطن بالولاية من بعده[٣]ومن قائل إن اليمنيين انتهزوا فرصة ثورة بربر إفريقية على العرب أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن ، فعزلوه وولوا شيخهم عبد الملك بن قطن مكانه[٤]، وهكذا اختفت هذه الشخصية العربية المجاهدة فى « ليل الزمان » كما يقولون ، ولو قد أتيحت له فرصة أطول لترك أثراً بعيداً فى تاريخ الغرب الإسلامى .

وكان من سوء طالع الدولة الإسلامية الأندلسية الناشئة أن الأمور صارت إلى عبد الملك ابن قطن من بعده ، إذ أن عبد الملك كان يمنياً شديد العصبية قليل السياسة فلم تلبث الأمور أن ساءت بين يديه ، واشتعلت نيران الثورة البربرية فى الأندلس ، وأعقبها قدوم طالعة بلج من الشآميين إلى الأندلس واحتدام الخصومة بين هؤلاء الشآميين ومن كان فى الأندلس من

(١) BALLESTEROS : op. cit.p. 182 .

(٢) cf:jios AMQZA GARCIA SALA : Gijon en La Historia general de Asturias II pp. 445 - 499.

(٣) ابن القطان ، فى البيان المغرب لابن عذارى ، جـ ٢ ص ٢٩ .

(٤) الرازى فى نفح الطيب للمقرى ، جـ ٢ ص ١١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٩ .

قدماء الفاتحين والمهاجرين من العرب والبربر الذين يطلق عليهم لفظ « البلديين » ، مما جعل الأندلس الإسلامى شعلة نار ، فهلكت من العرب أعداد كبيرة ، وفنيت من البربر جماعات، وعادت جماعات أخرى منهم إلى مواطنها الأولى فى إفريقية ، فلم يقف تراجع المسلمين عند حدود أشتريس كما رأينا ، بل خلت المساحة الواسعة الواقعة بين نهرى المنهو ودويره من سكانها المسلمين ، وأصبحت أرض فضاء حاجزة بين الدويلة النصرانية فى أقصى الشمال والدولة الإسلامية التى أصبحت تُحد من الشمال بخط يبدأ من إفراغه على ساحل المحيط الأطلسى ويمتد إلى قورية فطليطلة ، ثم يصعد حتى لارده فى ناحية الشرق . ولم يوقف هذا التقلص إلا قدوم عبد الرحمن الداخل وإقامته صرح الدولة الأموية فى سنة ١٣٤ هـ/ ٧٥٦م.

١٤٠ـ أذفونش ابن بطـره (ألفونسو الأول)

وكان من حظ الإمارة النصرانية الناشئة فى نواحى جليقية أن صارت قيادتها بعد فافيلا إلى زعيم قوى نشيط هو أذفونش (ألفونسو) الملقب بالأول . ولم يكن من بيت بلاى ، وإنما كان ابناً لبطره(Pedro) دوق كنتبرية ، وكان أذفونش قد تزوج بنتاً لبلايو تسمى ارمنسندا Ermensinda ، وارتقى العرش بعد موت فافله ، مما يُفهم منه أن فافله بن بلاى مضى صغيراً دون أن يخلف عقباً[١] .

تولى أذفونش بن بطره دوق كنتبرية شئون إمارة بلايه الصغيرة فأضاف إليها دوقية كنتبرية ، فاتسعت حدودها اتساعاً طيباً مكّنها من الخروج من صخرتها القاحلة التى كانت حروب عقبة بن الحجاج السلولى قد ألجأتها إليها .

ويُجمع المؤرخون على أن أذفونش الأول كان زعيماً واسع النشاط بعيد المطامع : تولى وقد انزاح عن الإمارة النصرانية خطر المسلمين إلى حين ، وشغلتهم عنها حروبهم سنوات طوالاً ، فعجل أذفونش بانتهاز الفرصة ، واستغلها أحسن استغلال لصالحه ، فلم يخلف العرش إلا وهذه الإمارة النصرانية الصغيرة دويلة ذات حدود ومعالم وأسباب من القوة تمكنها من الحياة والاستمرار فى التقدم ، ولم يستطع المسلمون بعد ذلك القضاء عليها ، فلا غرابة أن يعتبر الإسبان حكومة أذفونش الأول الميلاد الحقيقى لإسبانيا النصرانية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين فى أعمال بطره كما اختلفت فى بلاى وأعماله ، فذهب هركولانو إلى أنه لم يكن أكثر من زعيم جماعة من رجال العصابات[٢]، وذهب ساموذا إلى

(١) BALLESTEROS : op.cit.II. p. 184

(٢) ALEJANDRO HERCULANO : Historia de portugal (Lisboa, 1863 IV).

أنه كان مجرد نهاب يباغت المواضع العامرة لينهب ما فيها ، دون أن يجد حرجاً فى ذلك[١]، فقد كان أمثاله من القادة يعيشون على السلب فى هذه الأعصر ، وربما حرَّكته إلى القيام ببعض غاراته عوامل دينية . ومهما يكن من أمر فقد كان الرجل صاحب فتوح وحروب ، وقد اقترن عصره باتساع مفاجىء لدولة أشتريس الناشئة أصبحت بعده تسيطر على نحو خمس شبه الجزيرة كله ، وقد ذهبت المدونات النصرانية ومن تابعها من المؤرخين مذاهب شتى فى تفصيل حروبه وفتوحه التى قام بها حتى بلغ بدولته الصغيرة هذا المبلغ[٢].

١٤١ـ المسلمون يخلون الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة

لم يكد أذفونش يستقر فى الإمارة ويوطد أمورها بعد اتساعها الجديد حتى وجد البربر الذين كانوا يحتلون نواحى أشتريس وكنتبرية وجليقية وعامة النواحى التى يسميها صاحب الأخبار المجموعة « خلف الدروب»[٣] يهجرون مساكنهم وأوطانهم وينحدرون إلى الجنوب ، ووجد أن الهجرة لا تقتصر على البربر بل تشمل العرب كذلك ، فقد انجفل الذين كانوا يقيمون منهم فى هذه النواحى القاصية إلى نواحى وسط الأندلس وجنوبها ، وأن الكثيرين منهم هلكوا فى الفتنة التى وقعت بينهم . وقد كان انجفال المسلمين - ما بين عرب وبربر - من هذه النواحى حادثاً خطيراً يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « فقضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرغ ابنَ قطن إلا فلُّهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس ، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر ، فأخرج إليهم عبد الملك (بن قطن) جيوشاً فهزموها وقتلوا العرب فى الآفاق»[٤]. وبهذا لم تبق منهم فى هذه الناحية بقية ، ولم يعد العرب إلى الاستقرار فى « المداين التى خلف الدروب » بعد ذلك،

---

(١) SAMOZA, op. cit. p.431-504 .

(٢) MASDEU, op. cit. XII pp. 60 sqq .

(٣) الدروب هى الطرق التى كان المسلمون يسلكونها فى طريقهم من سهول الجنوب والوسط إلى النواحى الساحلية العامرة فى أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال وأهمها دربان : درب شرقى من طليطلة إلى وادى الحجارة إلى حوض إيره ، ثم يسير بمحاذاته ماراً بقلهرة ونخره حتى بنبلونة Pampelona ومن ثم يفضى إلى إلبه Alava والقلاع Castilla وأشتريس Asturias . ودرب غربى يبدأ من الجوف El Al-garve ويسير إلى ماردة Merida وقورية Coria ثم طلبيرة Talavera فطليطلة Toledo ومنها إلى سلمنقة Sala-manca وسمورة Zamora فجليقية .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

وكان ذلك آخر عهدهم بها : زالت آثارهم منها على الرغم مما بذلوا من جهد فى فتحها والاستقرار فيها ، زالوا منها لا على يد القوط أو الإيبيريين الرومانيين بل على يد البربر شركائهم فى الدين وحلفائهم فى هذا الفتح الكبير .

١٤٢ـ هجرة أعداد كبيرة من البربر إلى إفريقية

وليت البربر حينما فعلوا ذلك استقروا فى مواضع العرب وأقاموا يعمرون هذه النواحى ، بل اتجهت همتهم إلى التجمع فى جيوش والسير إلى الجنوب للقضاء على العرب جملة ، فتحرج مركز العرب ، ولم يجد عبد الملك بن قطن شيخ اليمنيين وسيد الأندلس إذ ذاك بداً من الاستعانة ببلج بن بشر ومن معه من الشاميين الذين كانوا محصورين فى سبتة لكى يخلصوهم من البربر(١٢٣هـ/ ٧٤١م) فعبروا ونازلوا البربر وانتصروا عليهم فى مواقع حاسمة عند شذونة وعلى مقربة من قرطبة وعلى وادى سليط El Rio Salado (أوائل ١٢٤هـ/ منتصف ٧٤١م) وقتلوا منهم أعداداً عظيمة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعقبوهم بالأذى والقتل فى نواحى الأندلس كلها « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرَّقوا الجيش فى الأندلس ، فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم»[١].

١٤٣ـ المجاعة تجتاح شبه الجزيرة

ولما كان البربر هم غالبية من استقر فى نواحى الشمال الغربى للأندلس وريفها من المسلمين ، فقد بدأت هذه الأرياف والمزارع تخلو من العنصر الإسلامى ، وكانت الحروب بينهم وبين العرب ، وبين العرب وأنفسهم قد خربت الزرع وحالت بين المزارعين من أهل البلاد ، وبين مواصلة عملهم الآمن فى الحقول ، فأخذت المحاصيل تقل من منتصف سنة ١٢٤هـ (٧٤١م) ، وتوالى ذلك خلال السنوات التالية ، فلم تحل سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م حتى شملت الأندلس جميعه المجاعة الكبرى التى أشرنا إليها ، انضافت مساءاتها إلى مساءات الحروب والمنازعات فَقَلَّ العمار فى النواحى وضربت المجاعة بجرانها ، حتى تقطعت أوصال البلاد ، « وكانت البرد قد قطعها الجوع فلا بريد » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة[٢]. وهبطت البلاد كلها خلال السنوات التى أعقبت هذه الثورة البربرية هبوطاً بالغاً خيف منه على مصير الإسلام فى البلاد جملة .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

١٤٤- إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها

لم يكن أذفونش وأصحابه يترقبون بخصومهم المسلمين فرصة هى أحسن من ذلك، فعجلوا بانتهازها، وتشجع من كان فى طاعة المسلمين من أهل النواحى الشمالية من الإيبيريين الرومان فوثبوا بالعرب فى نواحى جليقية وما يصاقبها، ويشير إلى ذلك صاحب الأخبار المجموعة إشارة فيها خطأ فى تحديد التواريخ ولكنها تصور الحال تصويراً حسناً بقوله: «وغلظ أمر علج يقال له بلاى قد ذكرناه فى أول كتابنا، فخرج من الصخرة، وغلب على كورة (كلمة ناقصة) واسترس (خطأ من الناشر وصحتها أشتريس) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين (ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصَّر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج، وقُتِل من قُتِل، وصار فَلُّهُم إلى خلف الجبل إلى أستورقة حتى استحكم الجوع، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة، وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين (٧٥٤م). واشتد الجوع، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط، فخفَّ سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم»(١). مما يُفهم منه أن نصارى الأندلس استغلوا الفرصة استغلالاً كاملاً، فلم يدعوا وسيلة يمكنهم أن ينالوا فيها من المسلمين إلا ابتدروها، ولو لم تشملهم هم الآخرين المجاعة لكان بلاؤهم فى المسلمين أشد وأبعد مدى.

١٤٥- حدود دولة الإسلام تتراجع إلى نهر دويره

وتؤيد المراجع النصرانية ذلك بما تذكره من الفتوحات التى تنسبها إلى أذفونش بن بطره، وهى لا تذكر أنه وجد هذه النواحى خالية أو شبه خالية فدخلها، وإنما تذكر أنه فتحها على المسلمين بحد السيف وانتزعها من أيديهم، وهذا خطأ كما رأينا. وفى نصوص هذه المدونات النصرانية تفصيل لما أوجزه صاحب الأخبار المجموعة من قوله «فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها» لأن «غيرها» هذه كانت مدائن كثيرة لا تقل أهمية عن أستورقة مثل افراغه Praga وبورتو Oporto وفيزيو Visiu والنواحى المحيطة بهذه البلاد حتى نهر دويره Duero(٢).

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦١-٦٢.

(٢) DOZY, Recherches ..., I. p. 121.

BALLESTEROS : Historia ..., II.p. 185.

أما قول صاحب الأخبار المجموعة : « وانسحب المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر » فمعناه انسحابهم عن طريق الدروب الشرقية المفضية إلى حوض ابره وإقليم سرقسطة الذى لم تنله المجاعة لخصبه ، وقد استطاع المسلمون الثبات أخيراً عند قورية وماردة فى الغرب مخلّفين وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora ولدسما Ledesma وشلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسيمانقاس Simancas وشقوبية Segovia وأبله Avila وأوكا Oca وأوسما Osma وميراندا(١) ، وكلها مراكز هامة فتحتها الجيوش الإسلامية بعد العناء والنصَب وفقدها هؤلاء العرب والبربر بسبب منازعات قبلية عنصرية عمياء لا معنى لها .

وأصبحت حدود الأندلس الإسلامى الشمالية قبيل مجىء عبد الرحمن الداخل تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونة فى أقصى الشمال الشرقى ثم تنحدر إلى تطيلة على الابره ومنها إلى وادى الحجارة إلى الشمال من طليطلة بين حوض الابره والتاجه ، ثم طليطلة وطلبيرة فى حوض التاجه ، ثم قورية وتنتهى الحدود عند قلمرية على ساحل المحيط الأخضر . أى أن الأندلس الإسلامى فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) .

وقد لاحظنا أن مؤرخينا الإسلاميين لا يؤيدون دوزى فى هذا الرأى الذى انتهى إليه من أن أذفونش أخذ هذه النواحى دون قتال مع المسلمين وأن هؤلاء انسحبوا منها قبل اقترابه منها ، وهم يستعملون عبارة « أخرجهم منها » وهى واضحة الدلالة. وتفسير ذلك يسير ، وهو أن الذين هجروا النواحى بسبب المجاعة وحروب العرب والبربر كانوا جند المسلمين ورجال حامياتهم وغالبية المستقرين منهم فى هذه النواحى، وقد بقيت خلف هؤلاء جماعات من المسلمين معظمهم من البربر لم يستطيعوا الرحيل وأقاموا فى منازلهم خلف الدروب على رغم الخطر المحيط ، فاستقوى عليهم أذفونش حينما وجدهم دون حماية وأخرجهم مما كانوا

---

(١) DOZY: op.cit.p.123 .

وقد جعل المقرى فتح بعض هذه النواحى فى أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وفى عهد فرويلة الثانى ابن أذفونش بن بطرة ، وقال : « وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره ، قوى أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة ابن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لكه وبرتقال وسموره وشلمنقة وقشتالة وشقوبية ، وصارت الجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبى عامر آخر الدولة ... » نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢١٧) . ولكن إجماع المؤرخين منعقد على أن هذه المدائن سقطت فى أيدى النصارى فى أيام أذفونش .

انظر : BALLESTEROS : op.cit . II. p. 185 .

قد استقروا فيه ، وقد بقيت من البربر رغم ذلك كله بقية فى بعض النواحى القاصية ، وتكاثرت فيها وتركت أسماءها على بعض المواضع فى أقصى نواحى جليقية وأشتريس .

١٤٦ـ ما بين نهرى المنهو والدويره منطقة فـراغ وليس معنى ذلك أن مملكة أشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت ذلك كله، لأن الواقع أن أذفونش الأول لم يستول بالفعل إلا على النواحى المحيطة بأشتريس أى ناحية لِيبَانا وبردوليا Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون . وأما الباقى وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوضِى المنهو والتاجه فكانت فى ذلك الحين أرض فضاء فاصلة بين إسبانيا الإسلامية فى الوسط والشرق والجنوب والغرب ودولة أشتريس النصرانية فى أقصى الشمال(١).

وتؤيدنا المراجع النصرانية فى هذا القول لأنها لا تقول أن أذفونش استقر فى هذه البلاد الكثيرة التى تعددها ، وإنما تكتفى بالقول بأنه خربها وأفقر أريافها (Eremavit campos)(٢).

تذهب التواريخ الإسبانية إلى أن أذفونش الأول حكم عشرين سنة امتدت من ٧٣٩م إلى ٧٥٧م(٣)، ويقرر ابن خلدون أنه لم يحكم إلا ثمانى عشرة سنة ويجعلها من ١٣٥هـ إلى ١٤٢هـ / ٧٥٢-٧٦٠م وهو خطأ ظاهر فى الحساب ، والغالب أنه أراد أن يقول ثمانى سنوات فقط ، ونظن أن حكومة أذفونش لم تزد على هذه السنوات الثمان تبعاً للحساب الذى قدمناه . وتوفى فى أوائل حكم عبد الرحمن الداخل ، فكأنما أرادت المقادير أن تتدارك المسلمين فى هذا القطر الواسع برجل يعيد إليهم ما فقدوا على يد أذفونش الأول(٤).

---

(١) BALLESTEROS : op. cit . p. 185 .

(٢) MANUEL RISCO : Espana Sagrada, XXXVII.p.93.

(٣) DOZY : Recherches ..., I,p.95 .

(٤) انظر نص ابن خلدون الذى أورده دوزى ذيلاً لأبحاثه :

DOZY, op . cit . appendice III p. XII.

وإليك قائمة ملوك أشتريس الأول وتواريخ حكمهم كما أوردتها المدونات اللاتينية مقارنة بما أورده ابن خلدون (ص ٩٥ من الأبحاث) :

=	المدونات اللاتينية	ابن خلدون
بلاى	Pelayo ٧١٨-٧٣٧م	١١٤-١٣٣هـ/ ٧٣١-٧٥١م
فافلة	Fafila ٧٣٧-٧٣٩م	١٣٣-١٣٥هـ/ ٧٥١-٧٥٣م
أذفونش بن بطرة	Alfonso I ٧٣٩-٧٥٧م	١٣٥-١٤٢هـ/ ٧٥٣-٧٦٠م
فرويلة بن أذفونش	Froila ٧٥٧-٧٦٨م	١٤٢-١٥٢هـ/ ٧٦٠-٧٦٩م
أورال بن فرويلة	Aurelio ٧٦٨- ٧٧٤م	١٥٢-١٥٨هـ/ ٧٦٩-٧٧٥م
شيلون	Silon ٧٧٤-٧٨٣م	١٥٨-١٦٨هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م
مورقاط	Mauregatos ٧٨٣-٧٨٩م	١٦٨-١٧٥هـ/ ٧٨٥-٧٩٢م

١٤٧ـ آراء المؤرخين فى أذفونش

وقد اختلفت أحكام المؤرخين الإسبان على أذفونش الأول ، فمن قائل إنه لم يكن إلا رئيس عصابات يفجأ بها الأماكن الآمنة العامرة ويخربها ، ومن قائل إنه لم يكن يرمى من وراء هذا الجهد كله إلا إلى السلب والنهب ، ومن قائل إنه كان يسعى واعياً إلى استرجاع إسبانيا من المسلمين . وربما كان أصح الآراء فيه أنه كان يغاور كل من جاوره طمعاً فى الغنائم التى لم يكن ليستطيع تسيير أموره فى دولته بدونها ، وطمعاً فى توسيع رقعة مملكته الصغيرة .

أما القول بأنه كان يسعى لاسترجاع البلاد من المسلمين فمبالغة فى التقدير لا يؤيدها الواقع ، لأن الرجل كان يغاور جيرانه النصارى ويُنزل بهم من البلاء أشد مما أنزل بالمسلمين ، ثم إنه - آخر الأمر - لم يلق المسلمين فى موقعة واحدة ولم يفكر فى السير إلى نواحيهم ، وإنما اقتصرت جهوده على النواحى الخالية التى لم يكن ليتوقع فيها مقاومة . ثم إنه لم يحتل من البلاد التى خلت من أهلها المسلمين إلا ما ذكرنا من نواحى أشتريس وليبانا وبردوليا ، أما الباقى فقد قام بإخراج بقية المسلمين منه أهل البلاد من الإيبيريين الرومان ، بعد أن أخرج المسلمون أنفسهم بأنفسهم منها .

ومهما يكن من الأمر فقد انتقلت دولة النصارى فى الشمال فى عصره من طور إلى طور : اتسعت حدودها واطمأنت أمورها وابتعد عنها الخطر الإسلامى ، فأتيحت لها الفرصة للتكوُّن والسير نحو القوة ، وأصبحت نواة صلبة لن يستطيع المسلمون القضاء عليها بعد ذلك ، بعد أن كانت قد قاربت الزوال خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولى ، قبيل الثورة البربرية المشئومة .

إلى هنا نقف بهذه القطعة من تاريخ الولايات النصرانية الشمالية خلال عصر الولاة ، بعد أن حددنا الوضع السياسى العام فى شبه الجزيرة الإيبيرية فى مطالع الإمارة الأموية الأندلسية على يد صقر قريش .

* * *

الفَصْل التَّاسِع

المجْتَمع الأندلُسى

(١) العَرب والبْربَر وَالمَوالى

دامت فترة الولاة ستة وأربعين عاماً هجرياً ، تبدأ من رجب سنة ٩٢هـ (إبريل - مايو ٧١١م) وتنتهى فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٠ مايو سنة ٧٥٦م) وهو اليوم الذى أُعلنت فيه إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل على الأندلس جميعه وولدت فيه الدولة الأموية الأندلسية . وقد جرت العادة بأن ينظر المؤرخون إلى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة لا أهمية لها فى تاريخ الأندلس الإسلامى ، بل نظر إليها بعض المؤرخين على أنها فترة عابرة أنفقها العرب فى منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته. ولعلنا رأينا فيما مر بنا من أحداثها أنها أهم من أن ينظر إليها هذا النظر السطحى ، لأن ما عبر بها من الأحداث كان له من النتائج البعيدة ما سنلاحظ أثره فى كل دور من أدوار تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الأندلسية بعد ذلك .

فقد قام المسلمون خلال هذه الفترة بأعظم جهود حربية قاموا بها فيما وراء البرتات خلال تاريخهم الطويل ، ووضعت فى أثنائها أسس النظم الإدارية والمالية التى ستجرى الأمور بمقتضاها حتى قيام الخلافة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر فى أواخر سنة ٣١٦هـ (أوائل سنة ٩٢٩م) ، وفى خلالها أيضاً ولدت الولايات النصرانية الإسبانية فى شمالى غربى الجزيرة وشمالها ، ونشأت كذلك عداوة العرب والبربر ، وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة . وقد عرضنا هذه الظاهرات كلاً على حدة بحسب ما اقتضاه المقام ، وبقى أن نلقى نظرة عامة على الفترة كلها ، لنكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن الأندلس الإسلامى فى فجر تاريخه .

أ - العــــرب

١٤٨ - طالعة موسى دخل العرب الأندلس على هيئة تيار متصل لم تسجل المراجع من موجاته إلا عدداً قليلاً تسميه « الطوالع » جمع طالعة ، وهى الجماعة من العرب الذين دخلوا الأندلس . وأول هذه الطوالع طالعة موسى[١] ، لأن الجيش الذى أقبل مع طارق لم

(١) المقرى : نفح ، جـ١ ، ص ١٤١ -١٤٤ .

يكن يضم إلا طائفة قليلة من العرب ، ورجاله على هذا لا يسمون بطالعة طارق . كانت طالعة موسى تضم نحو اثنى عشر ألفاً من العرب ، معظمهم من القيسية واليمنية وموالى بنى أمية ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتمين إلى موسى بن نصير ، وقد كانوا فى حكم العرب رغم أصلهم البربرى .

وقد استقرت هذه الطوائف فى كل ناحية على طول الطريق الذى سار فيه موسى ، أى فى نواحى الجزيرة الخضراء وإشبيلية وسرقسطة وبعض نواح متفرقة فى أقصى الشمال والشمال الغربى ، فيما تسميه المراجع « ما وراء الدروب » . والأدلة كثيرة عن أن معظم اليمنيين استقروا فى ناحية سرقسطة ، وتناثرت جماعات منهم فى قرطبة وحواليها وفى إقليم إشبيلية ومرسية ، وكان القيسيون قلة فى هذه الطالعة استقر معظمهم فى نواحى الجنوب .

وحينما أقبل الحر بن يوسف الثقفى إلى الأندلس فى ذى الحجة سنة ٩٧هـ (أغسطس سنة ٧١٦م) استصحب معه أربعمائة من « وجوه أهل إفريقية » ، ويبدو أنهم كانوا نخبة عربية ممتازة لأن صاحب فتح الأندلس يصفهم بأنهم كانوا « أول طوالع الأندلس المعدودين » ، ولما كان معظم عرب إفريقية من اليمنيين ، فإننا نستطيع أن نقول إن معظم هذه الطالعة كانوا من اليمنيين ، ولما كان الحر قد قدم بهم ليشدوا أزره فقد أقاموا فى قرطبة وما حواليها (١) .

١٤٩ - طالعة بلج وأهم هذه الطوالع - بعد طالعة موسى - هى طالعة بلج بن بشر القيسى فى ذى القعدة سنة ١٢٣هـ (يناير سنة ٧٤١م) الذين نجوا من مذبحة العرب فى موقعة الأشراف ، ولجأوا إلى سبتة وتحصنوا بها حتى عبروا إلى الأندلس فى ولاية عبد الملك ابن قطن الفهرى الثانية على ما فصلناه ، وكان عدد هذه الطالعة يقارب العشرة آلاف غالبيتهم العظمى من القيسيين .

١٥٠ - البلديون ولما كان أهل الطوالع السابقة على طالعة بلج قد استقروا فى البلاد وتقسموا خير نواحيها فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أهل البلد وأصحابها ، وتسموا بالبلديين وكرهوا أن يقبل إليهم مثل هذا العدد العظيم من الشآميين ويقاسمهم خيرات البلد بل يحاول أن يغلبهم عليها ، فنفروا من هجرتهم وانبروا ينازعونهم السيادة على البلاد .

---

(١) فتح الأندلس ، ص٢٣ .

١٥١ - الشآميون

ومن تاريخ نزول بلج وجماعته القيسية بدأ النزاع بين اليمنية والقيسية فى الأندلس ، لأن الأقلية القيسية التى كانت هناك لم تلبث أن انضمت إلى القيسية المقبلة بنازعة العصبية القبلية ، وقد أظهرت هذه الجماعة القيسية من الشجاعة والنجدة ما مكّنها من القضاء على ثورة البربر فى زمن قليل ، فارتفعت بمقدمهم أسهم القيسيين وبدأ الصراع المحزن بين جذمى العرب الكبيرين ، واحتدمت نيران هذا الصراع بينهما خلال ولايتى بلج وثعلبة بن سلامة العاملى (ذو القعدة ١٢٣هـ / يناير ٧٤١م إلى رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م) لأن بلجاً وثعلبة كانا من أعنف القيسيين .

انتزع بلج ومن معه من الشامية الولاية من اليمنيين ، وما زالوا بشيخ الأندلس إذ ذاك - عبد الملك بن قطن - حتى تخلصوا منه . ولم يكن عبد الملك يمنياً صرفاً بل كان فهرياً ينتسب إلى مُضَر ، ولكنه كان يمثل البلديين ، فما زال الشاميون برئيسهم حتى قتله . ولما كان عبد الملك يمثل زعامة البلديين - ومعظمهم يمنيون - فقد ثارت اليمن على كلمة واحدة فى كل ناحية يقودهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمى «صاحب أربونة» أى حاكم الثغر الأعلى (إقليم سرقسطة وما يليه شمالاً حتى أربونة) وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن فى ناحية ماردة .

« . وحشدوا من أقصى أربونة وراجعوا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى»[١] ، وانضمت إليهم جماعة قليلة من اليمنيين كانت فى جيش بلج يتزعمها عبد الرحمن ابن حبيب رأس العرب البلديين فى إفريقية فيما بعد ، ونهضت هذه الجماعة كلها لتحارب القيسيين الدخلاء لتستعيد منهم الزعامة ولتخرجهم من البلاد جملة .

١٥٢ - النزاع بين البلديين والشآميين

وقد احتدم الصراع بين العرب فى شبه الجزيرة ، وينبغى أن ننبه إلى أمر هام ، هو أن ما تلا ذلك من أدوار الصراع بين العرب لم يكن فى حقيقة الأمر صراعاً خالصاً بين كلب وقيس بقدر ما كان صراعاً بين عرب الأندلس القدماء (البلديين) والعرب الدخلاء الذين أخذوا يُعرفون من ذلك الحين بالشآميين ، وهى تسمية دقيقة تدلنا على أنهم لم يكونوا قيسيين خالصين ، بل كانت فيهم قلة يمنية ، بل سيتطور وجه النزاع بعد قليل ، ولن يصبح مجرد صراع بين البلديين والشآميين بل صراعاً بين حزبين

(١) الأخبار المجموعة ، ص٤٣ .

كبيرين غالبية الأول من القيسية وغالبية الثانى من الكلبية ، وتنضم إلى كل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب تميل بها مصالحها الخاصة إلى هذا الحزب أو ذاك .

وقد بلغ هذا الصراع بين هذين الحزبين الكبيرين أقصاه فى شوال سنة ١٢٤هـ / أغسطس سنة ٧٤٢م ، حينما التقى رجالهما فى موقعة أقوة برطورة التى انتصر الشآميون فيها انتصاراً حاسماً وصارت إليهم قيادة الأندلس من ذلك الحين إلى قيام الدولة الأموية ، ولم يرفع البلديون رأسهم من جديد إلا بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته بعد ذلك بأربع عشرة سنة . ولما كانت غالبية الشآميين قيسية ، فإن هذه الفترة كلها تعتبر فترة سيادة القيسية على الأندلس .

١٥٣ - سيادة الشآميين على الأندلس وأثرها

ولم ير الأندلس فترة هى أسوأ من هذه قبل وقوع الأزمة الكبرى التى تعرض أمر الإسلام خلالها للضياع مدى إمارات محمد والمنذر وعبد الله ، لأن الشآميين أوقدوا البلد ناراً ونشروا بين أهلها روحاً من التقلقل والاضطراب لا سبب لها فى الواقع إلا ما جُبِل عليه القيسيون من ميل إلى الفوضى واستهانة بالدماء وإسراف فى الخصومة .

وقد بدأت هذه الفترة المظلمة بولاية ثعلبة بن سلامة العاملى (شوال ١٢٤هـ / أغسطس ٧٤٢م) ، فقد كان قيسياً جافياً غليظاً لا تكاد تخالط خلقه رحمة أو رفق ، ومما رواه المؤرخون من أفاعيله هذه السوق التى أقامها عند « المصارة » لبيع أعدائه من العرب المغلوبين فى موقعة أقوة برطورة ، فيقول صاحب الأخبار المجموعة : «ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم لمن ينقص بهم ، لقد قيل إنه صاح على ابن الحسن - رجل كان بالأندلس من أهل المدينة - وعلى الحرث بن أسد - من جهينة من أهل المدينة - فقال: من يخسر على هذين الشيخين ؟! فقال قائل : أحدهما عندى بعشرة دنانير ! فقال الصائح : من ينقص ؟ فلم يزل يصيح : من ينقص ؟ حتى باع أحدهما بكلب والآخر بعود ..» (١) .

ولم ينقذ البلديين - واليمنيين خاصة - إلا قدوم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى والياً من قِبَل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، وكان الناس قد استغاثوا به وكتبوا إليه يقولون : « أعنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » . فوصل أبو الخطار فى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

اللحظة المناسبة ، وأنقذ اليمنيين من الذل والفناء ، ورضيه عرب الأندلس جميعاً ، ولهذا يسمى عسكره عسكر العافية [(١)] .

١٥٤ - تفريق الشآمية فى النواحى

وقد بدأ أبو الخطار بدءاً طيباً ، وأراد أن يستعين بآراء قوم ليسوا من اليمنية ولا من القيسية ، فاستشار أرطباس شيخ أهل الذمة ، وكان رجلاً عاقلاً مجرباً كما سيجىء ، فأشار عليه بتفريق الشآميين فى النواحى ، لأن بقاءهم إلى جواره فى العاصمة وضواحيها خطر على الحاكم والمحكومين ، فعمل على تفريقهم فى الكور التى لم يكن فيها من البلديين أحد ، وأنزلهم فى هذه النواحى مع أصحابها من أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث الخراج وللدولة الثلثان . ويبدو أنه وجد صعوبة فى إقناعهم بقبول ذلك ، لأنه اضطر إلى إخراج ثلاثة من زعمائهم من البلاد هم : ثعلبة بن سلامة العاملى ، والوقاص ابن عبد العزيز الكنانى ، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، لأنهم كانوا سبب فساد الأندلس ، ووكل بهم من أخرجهم من البلاد[(٢)] . وأبى الباقون منهم بعد ذلك إطاعة أمره ، فلم يزل أبو الخطار يلاطفهم حتى استأمنوا إليه وأقاموا معه ، وتوسع لهم فى البلاد ، فأنزل كل قوم على قدر منازلهم فى الشرق [(٣)] .

وقد فرَّقهم أبو الخطار على الكور على أساس لطيف : تخير لكل قوم ناحية تشبه من حيث المناظر والبيئة المحيطة بها الناحية التى أتوا منها من الشرق على النظام التالى:

جند مصر : فى كورة أكشونبة وباجه وبعض نواحى كورة تدمير .

جند الأردن : فى كورة ريه .

جند دمشق : فى كورة البيرة .

جند قنسرين : فى كورة جيان .

١٥٥ - خصومة القيسية واليمنية تعود

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السيرة لدام السلام وعاد إلى البلاد هدوؤها ، ولكن أبا الخطار لم يلبث أن نبض فيه عرق اليمنية ، فمال إلى قومه وحاباهم وأخذ يعسف القيسيين ، وكان من سوء حظه أن كان بين هؤلاء

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح، ص٢٠ .
(٣) فتح الأندلس ، ص٣٦ .

القيسيين رجل من طراز الصميل بن حاتم الذى أشرنا إليه ، وكان بدوياً جلفاً من جند قنسرين ، وكانت إليه زعامة القيسية بعد إخراج زعمائهم الآخرين ، وبلغ من سلطانه على قومه أنهم كانوا يطيعونه فى كل ما يريد دون أن يسألوه السبب ودون أن تكون هناك حاجة ظاهرة إلى ذلك. فلم يلبث أن تصدى لأبى الخطار ، وذهب إليه مرة يشكو إليه أمراً لحق يمنى ، فتعمد أبو الخطار الإسراف فى إهانته فلُكز وشُتم ، فخرج عنه ، فأتى داره ، وبعث إلى خيار قومه ، فشكا إليهم ما لقى ، فقالوا له : نحن لك تبع ..(١) .

هكذا ثارت نيران العصبية مرة أخرى : أثارها أبو الخطار بسوء سياسته والصميل بعنفه وبداوته وجهله ، وانقسمت البلاد حزبين من جديد ، وثارت بينهما حرب مخربة لم ينقذ مصير الإسلام فى الأندلس منها إلا قدوم عبد الرحمن بن معاوية .

١٥٦ - تحول الصراع من القبلية إلى الحزبية

لم يكن هذان الحزبان الجديدان هما المضريين والقيسيين كما كان الحال قبل قدوم طالعة بلج ، ولم يكونا كذلك البلديين والشآميين كما كان الحال منذ دخول بلج إلى مجىء أبى الخطار ، بل تكوّنا من جماعتين من القبائل ألفت بين عناصر كل منهما عوامل المصلحة وحب البقاء : ذلك أن أبا الخطار لم يعسف القيسيين كلهم ، فبقيت منهم جماعة إلى جانبه تؤيده ، ولم ينصف اليمنيين كلهم فانضمت جماعة منهم إلى الصميل ، ولا نستطيع أن نسمى هذين الحزبين إلا بحزب أبى الخطار وحزب الصميل ، وإن كانت اليمنية أغلب على الأول ، والقيسية أغلب على الثانى . وإليك التكوين القبلى لكل من الحزبين – على قدر ما تعيننا المراجع على تصوره :

حزب أبى الخطار	حزب الصميل
طوائف من : جذام (يمن)	معظم قبائل : لخم (يمن)
فهر (عدنان)	جذام (يمن)
قضاعة	قيس (عدنان)
جند حمص (خليط)	غطفان (قضاعة) (٢)

(١) الأخبار المجموعة ، ص٥٦ .

(٢) جاء فى الأخبار المجموعة أن الصميل بن حاتم عندما قرر مخاصمة أبى الخطار قال لقومه : « والله ما أحب أن أعرضهم للقضاعية واليمانية ، ولكن اللطف ندعو بالله مرج راهط ، وندعو لخماً وجذاماً ، وندخل منهم رجلاً نقدمه يكون له الاسم ولنا الخط . قال : فكتبوا إلى ثوابة بن سلمة الجذامى وكان من أهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأجابهم ، وأجابتهم لخم وجذام ...» (ص٥٦ – ٥٧) . =

أى أن الأمر لم يعد عصبية قبلية بل عصبية حزبية ، وربما عصبية موطن . فسنرى عند بياننا لمنازل القبائل العربية فى شبه الجزيرة أن هذه الجماعات التى تآلفت كانت متجاورة المواضع ، ولا يعزى انضواء بعض جند حمص إلى حزب أبى الخطار إلا إلى أن إقليم حمص الذى كانوا فيه ، وهو إقليم إشبيلية ، كان يضم مواطن القبائل التى انضموا إليها .

وقد رشح الصميل بن حاتم ، وهو قيسى ، لرياسة حزبه رجلاً من جذام ، أى من اليمن ، هو ثوابة بن سلامة الجذامى ، وهو ما كان ليفعل ذلك إلا وقد تبين أن معظم المنضوين تحت رايته كانوا من اليمن . ثم إننا نستنتج من قبول القيسية الذين كانوا مع الصميل لذلك الوضع أن العصبية القبلية لم تعد المحرك الرئيسى لجماعات العرب ، بل عصبية المصلحة والموطن ، أى العصبية السياسية . وقد كان الصميل نفسه رجل سياسة ودهاء قبل أن يكون رجل قبائل : كان رجلاً واقعياً لا يؤمن إلا بما ينفعه ، وربما كان خلقه هذا هو الذى أخرج الصراع من الميدان القبلى الصرف إلى ميدان السياسة والمصالح .

وتولى حزب الصميل الحكم ، وقام ثوابة بن سلامة بالأمر ، ولم تطل مدة ولايته أكثر من عام ، وكاد الانشقاق يقع فى صفوف الحزب ، إذ تنازع الرياسة عمرو بن ثوابة ويحيى بن حريث ، ولكن الصميل تدارك الأمر بذكائه واختار رجلاً من محارب بن فهر ، أى من قريش الظواهر ، وكانت بطون قريش الظواهر كلها أشبه بالمحايدة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فكان اختيار الصميل لهذا المحاربى - وهو يوسف الفهرى - حسماً للنزاع وإرضاء للفريقين ، ودليلاً على مهارته السياسية .

ومن دلائل غلبة الروح السياسية على عرب الأندلس خلال هذه الفترة الأخيرة من عصر الولاة أن الذين تحركوا لاستنقاذ أبى الخطار من سجنه لم يكونوا أهله من اليمن ، بل كانوا من قضاعة ، وقضاعة على ما نعرف مشكوك فى موضعها من عدنان وقحطان، فبعضهم يجعلها من العدنانية وبعضهم يجعلها من القحطانية ، وإن كان الأخيرون أكثر : قامت جماعة من القضاعية قوامها مائتا راجل وأربعون فارساً واختطفوا أبا الخطار وفروا به إلى منازل بعض القبائل اليمنية بناحية إشبيلية .

وكان يقود أولئك القضاعيين عبد الرحمن بن نعيم الكلبى (يمن) فبدأ حزب أبى

= وانظر تعليق دوزى على هذا الوضع :

DOZY, Musulmans d'Espagne, I pp. 175 - 177.

الخطار ينهض من جديد ، واشتد ساعده عندما أخطأ الصميل فعزل يحيى بن حريث شيخ لخم عن كورة ريه . فنفر يحيى بن حريث ومن تابعه من لخم وانضموا إلى حزب أبى الخطار. وشيئاً فشيئاً انفصلت بقية القبائل اليمنية التى كانت فى حزب الصميل وانضمت إلى أبى الخطار ، فلم يبق مع الصميل إلا قيس . وهكذا وقف قيس وكلب مرة أخرى وجهاً لوجه ، وهوى عرب الأندلس إلى دَرَك النزاع القبلى الخالص من جديد ، وانضم البلديون - ومعظمهم من يمن - إلى الكلبية حزب أبى الخطار ، ووقف اليمنيون فى جانب والقيسيون فى جانب على النحو التالى :

اليمنيون يرأسهم ابن حريث

حمير + كندة + مذحج + قضاعة

القيسيون يرأسهم يوسف الفهرى والصميل

مضر + ربيعة

ومن غريب ما وقع أن أهل بعض القبائل المتجاورين الذين عاشوا إلى ذلك الحين فى سلام ووئام ، جعل بعضهم يودع بعضاً ثم يخرج كل منهم ليأخذ مكانه فى صفوف الجبهة التى سيقاتل فيها دون أن تكون لديه أى دوافع خاصة لهذا الخروج . وليس أنصع من هذا دليلاً على أن العرب ظلوا ، رغم الإسلام ورغم ما نالوا من خبرة ، بدواً جاهليين فى أعماق نفوسهم لا يكاد اختلاف الأحوال والظروف يغير من طبعهم الأصيل شيئاً [١] .

وقد سدر العرب فى هذا الصراع وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم فى ذلك القطر ، أو كأن جماعاتهم فيه بلغت من الكثرة بحيث غطت على ما عداها . ولكن الواقع - وهذا أغرب ما فى الموضوع - أنهم لم يكونوا إلا قلة بالنسبة لبقية سكان الجزيرة . وعلينا أن ندرس الآن توزيع القبائل العربية فى شبه الجزيرة فى هذه الفترة ، فلعل ذلك يعيننا على تفهُّم ذلك الوضع الذى يبدو من الغرابة بمكان .

١٥٧ - تكاثر العرب فى الأندلس وإذا أخذنا بالمعلومات القليلة التى لدينا عن أعداد العرب الذين نزلوا الجزيرة لم نستطع أن نقدرهم إلا ببضعة آلاف : فقد كانت طالعة موسى تضم ١٢ ألفاً وطالعة بلج ١٠ آلاف واصطحب الحر بن عبد الرحمن الثقفى معه

(١) الأخبار المجموعة ، ص٥٨ - ٥٩ .

أربعمائة ومجموع هؤلاء ٢٢٤٠٠ ، فإذا افترضنا أن بضعة آلاف آخرين دخلوا الجزيرة فرادى أو جماعات لم نستطع تقدير أعداد من دخلوا الجزيرة من صرحاء العرب بأكثر من ثلاثين ألفاً . فإذا حسبنا من قُتِلوا فى حروب العصبيات ومن استشهدوا فى الفتوح وراء البرت تبينا أن بقية هذا العدد القليل لا يمكن أن تغمر شبه الجزيرة الواسع على هذه الصورة التى رأيناها .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن جميع العرب الذين دخلوا الجزيرة دخلوها رجالاً بدون نساء ، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد ، وقد توسعوا فى ذلك ، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضاً . ولكى نعطى القارىء فكرة عن خصوبة أولئك الداخلين نذكر جانباً من نسل عبد الرحمن الداخل وبنيه ، وقد أحصاهم ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب . وقد اخترناهم لأنهم الوحيدون الذين لدينا إحصاء بالأرقام عنهم وعن أولادهم وأعقابهم ، وينبغى أن نلاحظ أن ابن حزم لم يذكر إلا الظاهرين من بنى أمية ، أى أنه ترك الخاملين ، والخاملون فى العادة أكثر أولاداً ، وقد ترك كذلك ذكر الخلف من الإناث فى الغالب .

أعقب عبد الرحمن بن معاوية سبعة ذكور ، وهشام ابنه ستة ، والحكم الربضى ثمانية عشر ، وعبد الرحمن الأوسط مائة ولد ، منهم خمسون ذكراً وخمسون أنثى ، والأمير محمد نيفاً وثلاثين ذكراً ، والأمير عبد الله أحد عشر ذكراً ، وعبد الرحمن الناصر أحد عشر ذكراً... إلى آخره (١) .

فإذا نحن أحصينا الذكور فقط تبينا أن ستة من رجال البيت الأموى أنجبوا ١٤٤ ولداً ذكراً ، أى بمتوسط ١٩ ولداً للواحد ، وذلك غير البنات . وإذا اعتبرنا هذا العدد أعلى من الطبيعى ، لأن عبد الرحمن الأوسط أخل بالتوازن الطبيعى وجاوز الحد المألوف ، أمكننا الاجتزاء من ذلك العدد بعشرة لكل شخص ، وأمكننا أيضاً أن نطبق نسبة التكاثر هذه على بقية العرب ، فقد كانوا جميعاً فى سعة من النساء والعيش فى ذلك البلد الطيب الرخى .

ومعنى ذلك أن أولئك الثلاثين ألفاً من العرب أصبحوا بعد عشرين سنة من دخول العرب الجزيرة ٣٠٠ ألف ، غير من انضم أو انتسب إليهم من مواليهم ممن أتى معهم من المشرق أو المغرب أو انضم إليهم من أهل البلاد .

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (طبعة بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ، ص٨٦ - ٩٣ .

وهذا التقدير لا يحل تلك المعضلة التاريخية حلاً تاماً ، ولكنه يجعلها أقرب إلى المعقول والممكن . وربما زادت وضوحاً إذا ذكرنا أن العرب انتشروا فى شبه الجزيرة انتشاراً واسعاً بحيث لم تخل منهم ناحية من نواحى الشرق (من شماله إلى جنوبه) والجنوب والوسط والغرب حتى نواحى قلمرية وشنترين وأشبونة . وقد كان العرب ، رغم ما رأيناه فيهم من العنف فى خصوماتهم بين بعضهم البعض ورغم اعتزازهم بعصبهم العربى قوماً يحسنون العشرة ، بعيدين ، كأفراد أو جماعات صغيرة ، عن نزعات السيادة والتعالى التى تمسك بها من سبقهم من الرومان والقوط .

ثم إن مطامعهم فى أموال أهل البلاد المفتوحة كانت قليلة ، وسنرى عند دراستنا للناحية المالية ، أن الإدارة العربية لم تكلف أهل البلاد شيئاً ثقيلاً . ومن ثم فقد كان العرب لا يحلون فى ناحية من نواحى الأندلس حتى تتصل العلاقات بينهم وبين من حولهم من أهل البلاد ، خاصة وأن العرب كانوا يعاهدونهم ويرتبطون معهم بأواصر القربى ، أى أنهم لم يكونوا سادة أو حكاماً بقدر ما كانوا مساكنين أو معايشين ، فأمن إليهم الناس وأقبلوا عليهم ، واختلطوا الحيّان ، وبدا وكأن العرب أكثر من عددهم الحقيقى .

١٥٨ - مراجعنا عن منازل العرب بالأندلس

ولدينا عن منازل العرب فى شبه الجزيرة معلومات طيبة فى معظم ما لدينا من المراجع ، وقد أورد المقرى فى نفح الطيب صفحات من «فرحة الأنفس» لمحمد بن أيوب بن غالب الغرناطى من أهل القرن السادس الهجرى ، وأورد أبو محمد على بن حزم فى تضاعيف « جمهرة أنساب العرب » معلومات وبيانات مستفيضة عن منازل العرب فى الأندلس ، نستطيع إذا نحن جمعناها وأضفنا إليها ما لدينا من بيانات ابن غالب وغيره أن نحدد منازل العرب فى شىء كثير من الدقة ، بل نستطيع أن نرسم خريطة ديموجرافية لعرب الأندلس .

ومن الواضح أن معلومات ابن حزم وابن غالب لا تنصبُّ فقط على الفترة التى ندرسها ، وأن بعض من ذكرا من العرب دخلوا الجزيرة فيما بعد ، وخاصة أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الرضى ، ولكننا نستطيع الأخذ بها دون التعرض لخطأ كثير ، لأن الذين دخلوا الأندلس بعد فترة الولاة لا يمكن أن يكونوا إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لمن دخلوها فى تلك الفترة . ثم إن الداخلين أيام الإمارة الأموية كانوا يفدون فرادى أو فى جماعات صغيرة، وكانوا فى الغالب ينزلون قرطبة أو يقصدون أهل قبائلهم فى النواحى، أى : أن دخولهم لم

يغير الوضع العام ، وفى إمكاننا أن نعتمد على تفصيلات ابن حزم وابن غالب فى شىء كثير من الاطمئنان .

وواضح مما بين أيدينا من النصوص أن جماعات العرب التى دخلت الأندلس كانت تضم أعداداً طيبة من فحول العرب ممن يمثلون الخصال الرئيسية الأصيلة لهذا الجنس خير تمثيل . وسواء نظرنا إلى الأعمال الإيجابية كعملية الفتح نفسها ومواصلة الفتوح فيما وراء الأندلس ، أو إلى النشاط السلبى كحروب العصبية ومنافسات الرياسة ، فإننا نتبين هذه الفحولة العربية بصورة لا نجدها فيما يشبه الأندلس من حيث الوضع العام مما فتحه المسلمون من البلاد . وقد أشار إلى ذلك المقرى بقوله : «فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس وتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من « جراثيم » العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان » [(١)] ...، والمراد بـ« الجراثيم » هنا الأصول .

ويتفق ابن حزم وابن غالب وابن سعيد على أن هؤلاء الأعقاب الذين يشير إليهم المقرى كانوا كثيرين ، وأن هذه الكثرة لم تقتصر على فريق دون فريق : ففى الحديث عن المنتسبين إلى محارب بن فهر (من قريش الظواهر) يقول ابن حزم - برواية المقرى - : «ولهم بالأندلس عدد وثروة ، وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلهم فى طليطلة وأعمالها » [(٢)] . وفى الحديث عن تميم (مضر) يقول ابن غالب : « إنهم خلق كثير بالأندلس » [(٣)] ، وهكذا الأمر مع معظم القبائل التى يذكرها أولئك المؤرخون .

١٥٩ - القحطانيون

وقد كانت جماعات اليمنية تفوق العدنانية كثرة عدد وسعة أقاليم ، قال المقرى فى الكلام عن القحطانية : « وهم الأكثر فى الأندلس ، والملك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بنى أمية ، فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين...»[(٤)] . ويقول ابن غالب : « ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالأندلس . قال ابن سعيد : والعجيب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرنى من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخاً

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٢٧١ .
(٢) نفس المصدر والجزء ، ص٢٧٢ .
(٣) نفس الموضع .
(٤) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٢٧٤ .

من الخزرج وعجوزاً من الأزد »[١] ، وهى مبالغة من ذلك الداعية الأندلسى البارع ، يخفف من غلوائها ما يصرح به ابن غالب أن من الأزد - أزد الأندلس - من يفضل الانتساب إلى الأنصار ، لأن هذا الانتساب كانت له قيمته الاجتماعية فى الأندلس ، ولهذا كان يلجأ إليه « الجم الغفير » من الأزد فيما نظن .

غير أننا عندما ننظر فيما لدينا من البيانات نلاحظ أن القبائل اليمنية التى نزلت الأندلس لم تكن تزيد على العدنانية هذه الزيادة التى تتحدث عنها النصوص ، فقد أحصينا مجموع ما ذكره ابن حزم وابن غالب وابن سعيد من هذه وتلك فكانت العدنانية ٤٢ قبيلة واليمن ٥٢ ، ولا تُفسر الغالبية اليمنية إلا على أحد وجهين : فإما أن تكون أعداد من دخلوا الأندلس من القبائل اليمنية أكثر بكثير من أعداد من دخلوا من القبائل العدنانية ، أو أن يكون « الجم الغفير » من العرب الداخلين قد زعموا لأنفسهم أنساباً أنصارية - ما بين أوس وخزرج - التماساً للمكانة والمنزلة ، وقد يكون الأمران قد حدثا معاً .

وإذا نحن أمعنا النظر فيما لدينا من البيانات عن منازل العرب فى الأندلس لاحظنا ما يلى:

١٦٠- ملاحظات على منازل العرب فى الأندلس

١ - أن ما يقال من أن العرب اختصوا أنفسهم بأغنى نواحى الأندلس وتركوا للبربر النواحى القاحلة التى لا خير فيها غير صحيح ، فقد ترك العرب لغيرهم نواحى من أخصب ما فى الأندلس ، فقد تركوا مثلاً أحواض الواديانة والتاجة ونهر شقورة (نهر مرسية) ونهر شقر (نهر بلنسية) والوادى الأبيض ووادى لكه وغيرها كثير ، ولم تكثر منازلهم بشكل واضح إلا فى حوضى الوادى الكبير ووادى ابره الأوسط وفروعهما الكثيرة . بل هم لم يعمروا من وادى ابره إلا النهر الرئيسى والفروع الجنوبية ، أما الشمالية فتركوها دون سكنى ، ونزل البربر فيما عدا ذلك كله. ولو أننا وازنا بين ما احتله العرب وما احتله البربر ، لوجدنا الكفتين متعادلتين تقريباً .

١٦١ - استقرار العرب على طول خطوط الفتح

٢ - ونستطيع أن نقول بصفة عامة أن العرب استقروا على طول خطوط الفتح الأول ، فنرى منازلهم تنتشر ابتداء من الجزيرة الخضراء ، وتملأ معظم المنطقة الواقعة جنوب نهر شنيل وحوض الوادى الكبير ، ثم تكثر بصورة ظاهرة فى إقليم إشبيلية ، وتستمر على طول الوادى الكبير وفروعه . وعند إقليم إشبيلية

(١) نفس المصدر ، جـ١ ، ص٢٧٥ .

تنتشر منازل العرب فى نفس الاتجاه الذى سار فيه موسى ، وتكثر فى نواحى أونبة ولبلة وباجة ، وتتصل حتى بطليوس ثم نواحى طلبيرة وطليطلة فوادى الحجارة وقلعة أيوب ودروقة وحوض ابره الأوسط حول سرقسطة فى منطقة واسعة تشمل حوض نهير جَلَّق Gallego ونهير الحَمَّه Rio Alhama .

ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربى آخر ، على طول طريق طارق بن زياد حتى طليطلة ماراً بقلعة رباح .

ومن حوض الوادى الكبير انساح العرب شرقاً ، فملأوا نواحى ما يُعرف عادة بشرق الأندلس ، وهى نواحى بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة . ويبدو أن هذا الامتداد متأخر قليلاً عن عصر الولاة ، ولكنه لا يتعدى أيام هشام بن معاوية ، لأننا سنجد الجماعات العربية التى استقرت بشرق الأندلس قد تأصلت فيه على أيام الحكم الربضى . وقد زحف العرب مع السهل الساحلى الشرقى حتى وصلت بعض جماعاتهم إلى برشلونة ، فاستقرت فيها بطون من تجيب (كندة) .

٣ - أن واحداً من جِذْمَىْ العرب الكبيرين (عدنان وقحطان) لم ينفرد بالسكنى فى ناحية بعينها إلا فى قليل من المواضع ، بل الأغلب أن نجد قبائلهما متجاورة فى كل ناحية تقريباً .

١٦٢ - منازل العرب فى الأندلس

ويمكن إجمال توزيع قبائل عدنان وقحطان فيما يلى :

أ - مواضع سكنتها مجموعات متساوية تقريباً من قحطان وعدنان :

عدنان	قحطان
إشبيلية ونواحيها	
مرة بن ذبيان - غطفان - عك - غافق - هوازن بن عكرمة .	هوازن - جذام - الأشعر - جزيلة - ثوابة - بلى - لخم - مراد - لَبَص - الخيار بن مالك - الأنصار [1].

(١) كانت كتلة اليمنيين فى ناحية إشبيلية وغرب الأندلس أقوى مجموعاتهم وأكثرهم نظاماً ، وكان لها شيخ يرأسها هو « أبو الصباح » شيخ اليمانية فى غرب الأندلس ، ومسكنه قرية مورة من شرف إشبيلية (ابن القوطية ، ص٢٠) .

البيرة وغرناطة

خزيمة – أسد – مرة بن ذبيان – نمير بن مضر . طيىء – همدان – غسان – الحضارمة(١).

وادى آش

خويلـــــد سعد العشيرة

بطليوس

زهــــــرة حضارمة

ب – مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمنيون) :

عدنان	قحطان
سرقسطة ونواحيها	
	خزرج – عذرة – قضاعة – تجيب – كندة – جذام .
تدمير	
ربيعة	جذام – دوس – غافق – حضارمة
ريــــه	
نهـــــد	جزيلة – خزرج – ذو رعين
مالقـــــة	
خزيمـــة	حضارمة
شــــذونة	
كنـــانة	جزيلة – عرمرم – جذام
استجة ومورور	
غــــافق	لخم – خثعم
الجزيرة الخضراء	
كنـــانة	خولان – بنو عذرة – لخم – جذام

(١) يؤيد كثرة اليمنيين فى إقليمى إلبيرة وجيان ابن القوطية بقوله : « ثم خاطبوا القحطانيين بإلبيرة وجيان مثل جد بنى أضحى بالهمدانيين (يغلب أن هذا اسم قرية) وجد [بنى] حسان وبنى عمر أصحاب وادى آش الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين بجيان » – ص٢٢ .

جـ - مواضع غالبية من نزلها من عدنان :

عدنان		قحطان
	جيـــــان	
ملكان - مزينة - شوذر - ربيعة - غنم -		بنو منخل - جذام - مرة - عنس [1] .
أفصى	**باجة ولبلـــــة**	
		عوف - زهرة [2] .
	أونبــــــه	
خُشَـــيْن		سلول - الطماح - مطروح
	طليطلـــــة	
الزبارقة (تميم) - باهلة - كنانة		الأنصار

د - مواضع لم يسكنها إلا قحطانيون :

عدنان		قحطان
	قلعـــــة رباح	
		خزرج - جذام .
	دلايـــــــــة	
		عذرة - قضاعة .
	قرية صالحة (قرب مالقة)	
		غســـــان
	قلعـــــة خولان	
		خـــــولان
	برشـــــــلونة	
		تجيب
	دار بلىّ (شمالى قرطبة)	
		بلىّ

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) جاء فى افتتاح الأندلس لابن القوطية : « وكانت الرياسة بلبلة لعبد الغفار ابن عم أبى الصباح ، وبباجه لابن عمه أيضاً عمرو بن طالوت وكلثم بن يحصب » (وكلهم يمن) .

هـ - مواضع لم يسكنها إلا عدنانيون :

عدنان		قحطان
	مدينة مرسية	
ملكان - أفصى بن مضر		
	طلبيرة	
عوف		
	بلنسية	
هوازن		

وينبغى أن ننبه إلى أن هذا الإحصاء تقريبى ، فقد اعتمدنا فيه على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت فى ثنايا كلامهم إشارات لمنازل العرب فى الأندلس . وقد أدخلنا قضاعة فى جملة اليمن ، مع اختلاف النسابة فى جعلها من عدنان أو قحطان ، لأن الرأى الأغلب هو أنهم قحطانيون [(١)] .. وينبغى أن نلاحظ أن معظم ملاحظات ابن غالب لا تشير إلى المواضع ، فهو يقول مثلاً : «ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عُدثان بن أزان بن الأزد ..» [(٢)] .

٤ - أن هناك نواحى معينة حببت إلى العرب سكناها ، فتكاثروا فيها . ونستطيع أن نعتبر هذه المواضع مراكز العروبة فى الأندلس ، فقد كانت هى المهاد التى تكاثروا فيها وانتشروا منها إلى غيرها من النواحى . وقد ظل العنصر العربى غالباً على هذه النواحى حتى نهاية تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وكانت إلى نهاية القرن الخامس الهجرى نقط ارتكاز للإسلام الأندلسى ، ومن هذه المواضع قرطبة مثلاً - ولم نذكرها فى الإحصاء السالف الذكر لأن العرب من كل قبيلة نزلوها ، بحيث لا تجد قبيلاً عربياً إلا كان منه فى قرطبة - وإشبيلية ونواحيها . واستجة وريه وقبرة والجزيرة الخضراء والبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسرقسطة وشذونة وقرمونة ولبلة وباجة وأونبة .

---

(١) وقد كان القضاعيون فى الأندلس يعتبرون أنفسهم من اليمن ، جاء فى الأخبار المجموعة : « فأصفقت يمن الأندلس ، حِمْيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها ، واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل » (ص٥٨) .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٦ .

٥ - ويقول المقرى : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر ، الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء »[1] ، ومعنى ذلك أن كل قطعة من العرب نزلت بناحية ظلت محتفظة بكيانها القبلى ، رغم تزاوجهم مع أهل البلاد . وقد حافظت الدولة على هذا الكيان القبلى إلى أيام المنصور ، لأن هذه القبائل كانت - كما سنرى عند كلامنا على التنظيم الإدارى - أساساً من أسس تكوين الجيش الأندلسى ونظام الضرائب .

٦ - ويبدو أن الكثير من القبائل التى نزلت مواضع فى الريف بعيدة عن المدن اتخذت لأنفسها حصوناً تعتصم بها ، وقد ظهرت أهمية هذه الحصون أثناء الفتنة التى شملت عهود الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ، فقد تحولت الحصون والقلاع أثناءها إلى مدن ظلت تحمل أسماء أصحابها ، ومثال ذلك حصن مراد (بين إشبيلية وقرطبة) وقلعة بنى سعيد (أو قلعة يحصب) فى إقليم غرناطة ، وقلعة خولان (بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية) .

ومنهم من أنشأ قرى كاملة ظلت تحمل أسماء أصحابها ، مثل منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة) ومنزل طيىء (جنوبى مرسية) ودار بلىّ (شمالى قرطبة) وغيرها.

وكانت هذه المواطن العربية كلها فى دور التكوين خلال الفترة التى نتحدث عنها: كانت كِسَر القبائل الوافدة من المشرق تتجمع إلى ذوى قرباها وتكوّن العصبيات التى لعبت الدور الخطير الذى فصَّلنا تاريخه . وسنرى فيما بعد أن قبائل العرب لم تغير مواضعها إلا فى النادر ، وإن كان كل مركز قد مد له فروعاً فيما بعد وأنشأ مراكز أخرى تنتمى إلى نفس الأصل .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يدخلون الأندلس رجالاً فقط ، ثم يتخذون النساء من أهل البلاد ، وعلى هذا فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعاً لا يمكن أن يكونوا عرباً من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مُولّدين ، حتى البيت الأموى نفسه كان بيتاً مولداً ، إنما كانوا عرباً بالإحساس والاتجاه واللغة إلى حد كبير .

وبديهى أن أولئك جميعاً لم يعودوا يتكلمون العربية فى حياتهم العادية بعد الجيل الثانى ، فقد غلبت عليهم فى المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد ، اختلطت بها لغة العرب ونشأت

(١) المقرى : نفح ، جـ١ ، ص ١٧٤ .

عن ذلك « عجمية أهل الأندلس » أو « اللطينية » كما يسميها ابن حزم ، وقد بلغ من غلبة هذه « العجمية » أن ابن حزم يذكر جماعة من العرب بالذات فيقول : « دار بليّ بشمال قرطبة ، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، نساؤهم ورجالهم ، ويقرون الضيف ، ولا يأكلون إلية الشاة إلى اليوم ، ولهم دار أخرى بمورور »(١) ، مما يُفهم منه أن كلام عرب الأندلس « باللطينية » كان أمراً عاماً شذت عنه هذه القبيلة . وبطبيعة الحال لم يكن لسان عرب الأندلس قد استعجم بعد فى فترة الولاة ، ولكن العملية كانت قد بدأت على أى حال(٢) .

ب - البربر

١٦٣ - تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس من الواضح أن أعداد من اشترك من البربر فى فتح الأندلس وفى فتوح غالة كانت تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وأن هذه الأعداد لم تقتصر على من اشترك فى الجيوش الغازية ، إذ أن تياراً من الهجرة البربرية اتصل واستمر عقب الفتح مباشرة ، وأن شبه الجزيرة لم يلبث أن امتلأ بهؤلاء المهاجرين . قال المقرى فى نفح الطيب : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق»(٣) .

وبين أيدينا نص يؤيد غلبة البربر على العرب أول الأمر ، لا من حيث العدد فقط ، بل

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤١٥ .
(٢) اعتمدنا فى هذه المعلومات ، كما أشرنا آنفاً على :
جمهرة أنساب العرب لابن حزم (نشر ليفى بروفنسال) ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .
ابن غالب : فرحة الأنفس ، مقتطفات أوردها المقرى فى نفح الطيب (القاهرة ١٩٤٩) جـ١ ، ص٢٧١ - ٢٧٩ .
ابن سعيد : مقتطفات من المغرب فى الأغلب ، أوردها المقرى فى نفح الطيب ، نفس الجزء والصفحات السابقة .
المقرى : نفح الطيب ، ملاحظات للمؤلف فى نفس الصفحات .
الأخبار المجموعة : طبعة لافوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جايانجوس وسافيدرا وكوديرا ، مدريد ١٩٢٦ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة ليفى بروفنسال وكولان ، لايدن ١٩٤٧ .
LÉVI - PROVENÇAl, Histoire de l'Espagne Musulmane (2e. èd. vol. I, Paris 1951) pp. 71 Spp.
ELIAS TERES : Linajes Arabes en Al - Andalus, Segun la "Jamhara" de Ibn Hasm, Al - Andalus vol. XXII fasc. I pp. 55- 113.
(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٦٣ .

من حيث القوة أيضاً ، قال ابن القوطية بعد فراغه من أخبار عبد العزيز بن موسى: «ومكثوا سنين لا يجمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير » مما يدل على أن البربر هم الذين اختاروا ثانى ولاة الأندلس ، وقد رضى به بقية مسلمى الجزيرة وظل فى الولاية حتى ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفى . ولو لم يكن البربر غالبين على الأمر فى الأندلس حينذاك لما استطاعوا تولية وال يرضاه جميع المسلمين(١).

وقد أمدنا ابن حزم فى الجمهرة بمعلومات غاية فى الأهمية تلقى ضوءاً على الهجرة البربرية إلى الأندلس . ومن الواضح أن كلام ابن حزم يتعلق بمنازل البربر فى الأندلس على أيامه ، ولكننا نستطيع بمقارنة هذه المعلومات بما لدينا من أخبار فترة الولاة أن نتبين مَن من أولئك البربر نزل الأندلس فى ذلك الزمن المتقدم .

وينبغى أن نلاحظ أن التحديد فيما يتصل بالبربر أعسر منه فيما يتصل بالعرب ، لأن الهجرات العربية الكبيرة انتهت بنهاية عصر الولاة ، فلم يفد منهم على الأندلس بعد ذلك إلا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة ، أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلاً ، بحكم الجوار أولاً ، وبحكم الجاذبية الخاصة التى كانت لشبه الجزيرة الأندلسية على بربر الشمال الإفريقى ثانياً ، ولأسباب سياسية ثالثاً . ومن ثم فإن القطع بشىء فى هذه الناحية لا يخلو من مجازفة ، وكل ما سنذكره فيما يتصل بمنازل البربر خلال عصر الولاة ينبغى أن يؤخذ بحذر .

١٦٤ - جماعات البربر الأولى يذهب ابن خلدون إلى أن جموع البربر التى دخلت الأندلس مع الفتح وبعده بقليل كانت من قبائل مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة (٢) ، وهذه القبائل كلها من زناتة أو من البربر البتر ، وكل منها أشبه بالشعب الكبير الذى تتفرع عنه القبائل الصغيرة ، وكانت بطونها متفرقة فى نواحى المغرب ، ولكن كتلة هوارة ونفوسة كانت منتشرة على سواحل البحر الأبيض من حدود مصر إلى طرابلس ، أما مديونة فكانت منازلها على ساحل البحر من نواحى المغرب الأوسط إلى سبتة ، ومطغرة كانت تحتل إقليم طنجة وتمتد على ساحل المحيط الأطلسى .

ومن هذه الأصول الأربعة كان جيش طارق بن زياد ، وكانت الأمداد البربرية التى أتت

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص١٣ - ١٤ .
(٢) ابن خلدون ، طبعة بولاق ، جـ٦ ، ص١٠٦ وما يليها .

عقيب الفتح وشاركت فى إتمامه وفى فتوح غالة . ويضيف ابن حزم إليها نفزة ، وهم أولاد نفزاو أكبر أبناء لاوى الأكبر جد اللواتيين جميعاً . ونفزة قبيل ضخم لا يقل عن مطغرة وهوارة ونفوسة ومديونة ، ويذكر أيضاً مغيلة وملزوزة وهما بطنان صغيران من بطون البتر ينتسبان إلى ضَرِىّ بن مادغيس أخى لاوى الكبير ، ومعنى ذلك أن أولئك البربر الذين دخلوا الأندلس أول الأمر كانوا جميعاً بتراً ، وفيهم زناتية مثل مكناسة والباقى من بطون بترية أخرى .

ولم يكن البربر إذ ذاك يقسمون أنفسهم هذا التقسيم الحاد إلى بتر وبرانس ، لأن ذلك ظهر فيما بعد ، عندما سرت عدوى العصبية القبلية من العرب إلى البربر ، وعندما بدأ البربر يستقلون بأنفسهم ويقيمون الدول معتزين بالعصبيات والأصول : بدأت ذلك صنهاجة من البرانس ثم تلتها زناتة من البتر . أما فى الفترة التى نحن فيها ، فلم يكونوا جميعاً إلا بربراً إلى جوار العرب . وتدل الدلائل على أنه كانت فيهم جماعات مصمودية ، فيحدثنا صاحب «فتح الأندلس » أنه كان يرأس جماعة البربر بتاكُرنّا « فى جبال رندة » زعيم يسمى عبد الرحمن بن عوسجة [١] ، وهو جد بنى عوسجة المصموديين (من البتر أى البرانس) الذين كثروا فيما بعد فى الأندلس وعمروا نواحى جنوب شنتبرية الغرب ، حتى صارت تسمى «بلاد عوسجة » ، وإليه أيضاً ينسب دانس بن عوسجة الذى أنشأ قصر أبى دانس Alcocer de Sal على مقربة من قلنبيرة Colenbeira [٢] فى البرتغال الحالية .

ويذكر ابن القوطية أن رئيس بربر ناحية مورور أثناء دخول عبد الرحمن بن معاوية كان إبراهيم بن شجرة [٣] ، وهو من المصامدة . ويذكر ابن القوطية أيضاً أن جماعة من الهواريين نزلت خلال عصر الولاة على مقربة من جيان ، والهواريون مختلف فى نسبهم ، فهم من البتر حيناً ومن البرانس حيناً ، كما يختلف العرب فى نسبة قضاعة [٤].

وقد ذهب سيزار دوبلر فى بحث قيم عن « منازل البربر فى الأندلس » يبحث عن أسماء المواضع الإسبانية التى يمكن ردها إلى أصل بربرى . واستنتج من هذه الأسماء أن البربر لابد أن يكونوا قد سكنوها وأعطوها أسماءهم . واستطاع بذلك اكتشاف الكثير من منازل

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٣ .
(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص٤٦٥ .
(٣) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص٥٣ .
(٤) نفس المصدر ، ص٣٢ .

البربر مما لم يسجله المؤرخون ، ولا نستطيع القطع بأن هذه المنازل ترجع إلى عصر الولاة ، لأن تيار البربر لم ينقطع عن الأندلس طوال العصور الإسلامية ، ولكننا نستطيع القول بأن المواضع التى ذكرها دوبلر فى أقصى الشرق أو فى الشمال أو قاصية الغرب يمكن اعتبارها منازل قديمة ترجع إلى عصر الفتح الأول ، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس ابتداء من عصر الناصر كانوا يستقرون فى الجنوب والوسط والشرق ، دون أن يستقروا فى أماكن متطرفة كانت فى ذلك الحين ميدان حرب . واعتماداً على ذلك يمكن القول بأن مواضع مثل التالية يمكن اعتبارها من منازل البربر الأُوَل فى الأندلس :

Villa Nova de Ourem فى البرتغال الحالية نسبة إلى بربر وهران .

Tunis فى البرتغال الحالية نسبة إلى بربر تونس .

Alquerubim فى البرتغال الحالية نسبة إلى بربر القيروان.

Arzila فى البرتغال الحالية نسبة إلى بربر أرزيلا ، وهى أصيلا .

Adzenata فى الشرق على مقربة من قسطليون Castellon نسبة إلى زناتة .

Sanet أو Senet قرب لاردة نسبة إلى زناتة .

Benisanet قرب طركونة نسبة إلى زناتة .

Butsenit قرب لاردة نسبة إلى زناتة .

Barasal قرب جواردا فى البرتغال نسبة إلى بنى برزال (زناتة) .

Mequinenza فى الثغر الأعلى عند ملتقى الابره بنهيره الأشقر (Segre) نسبة إلى مكناسة .

Ceneja قرب قسطليون نسبة إلى صنهاجة .

Cenija ضاحية من ضواحى سرقسطة نسبة إلى صنهاجة .

Azinhaga فى البرتغال نسبة إلى صنهاجة .

Cotanes قرب بلد الوليد نسبة إلى كتامة .

Cotanillos حى من أحياء شقوبية نسبة إلى كتامة .

Cotimos و Alcoutim فى البرتغال نسبة إلى كتامة .

Benigomar بناحية انكا نسبة إلى غمارة .

Gómara بناحية صورية Soria نسبة إلى غمارة .

Gomeriz و Gomeris فى جليقية نسبة إلى غمارة .

Albornos بناحية أبله نسبة إلى البرانس .

وغير ذلك كثير (١) .

وقد ذكرنا هذه المواضع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لنستنتج أن البربر انتشروا منذ العصر الأول فى نواحى شبه الجزيرة كلها . وقد اكتفينا بذكر المواضع المتطرفة فى أقصى الشمال الشرقى والشمال والغرب وتركنا غير ذلك من مواضع الوسط والجنوب والجنوب الشرقى والجنوب الغربى ، إذ لا تكاد تخلو ناحية من هذه النواحى أو مدينة من مدنها من منازل بربرية . ثم إننا - كما قلنا - لا نستطيع القطع بأن البربر نزلوا مواضع الجنوب والوسط والجنوب الشرقى والجنوب الغربى من أول الأمر (٢) .

بيد أننا نستطيع القول بأن المواضع التى قامت فيها إمارات بربرية فيما بعد أو التى ولى عليها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ولاة من البربر كانت منازل بربرية من قديم الزمان ، لأن الأمراء لا يولون أميراً بربرياً على ناحية معظم سكانها عرب أو من أهل البلاد . ومن غير

(١) انظر :

CÉSAR E. DUBLER : Ueber Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel.

وقد نشره فى SACHE und ORT, Festschrift Jakob Jud ، وهو عدد من " Romanica Helvetica " Band 20, pp. 183 - 203. Zuerich. Genf. 1942 والنقد الذى كتبه J. OLIVER ASIN فى مجلة الأندلس . العدد الأول سنة ١٩٤٣ ، ص٢٦٢ - ٢٦٧ .

(٢) ودليل ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة ، حيث يقول فى كلامه عن الصراع بين العرب والبربر فى الأندلس : «وكانت قد رأست البربر على أنفسها ابن [بياض بالأصل] وحشدوا من جليقية وأستورقة وماردة وقورية وطلبيرة ، فأقبلوا فى شىء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهراً يقال له تاجه » (ص٤٠) وهى عبارة تدل على أن جماعات البربر فى النواحى التى ذكرها كانت كثيرة قبل هذه الفتنة حتى استطاعوا أن يحشدوا منها أعداداً لا تحصى . وقد هجر الكثير من أولئك البربر مواضعهم بعد ذلك على ما فصلناه ، ولكن بقيت منهم فى كل من هذه النواحى جماعات قليلة . أما فى نواحى طلبيرة وماردة وقورية فقد ظلت جماعات كثيرة منها على طول العصور الإسلامية .

الممكن كذلك أن تقوم إمارة بربرية فى ناحية لا يغلب على سكانها العنصر البربرى ، لأن حكم هذه النواحى كان لا يقوم إلا على عزوة وعصب متأصلين .

١٦٥ - البربر فى الثغور

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر البيانات التى يقدمها ابن حزم فى كلامه على « بيوتات البربر فى الأندلس » فى جمهرة أنساب العرب عن أصول البربر ومنازلهم ، مثل قوله :

أمراء الثغر (١) :

بنو هذيل	من مديونة	
بنو عبدوس	من سُرِتَّة	من ناحية صَدِّينة
بنو غزلون	من تيروال	
بنو عميرة	من أهاصة من نفزة	من ناحية شاطبة
بنو رزين	من مديونة	السهلة
بنو ذى النون	من هوارة	وبذة
بنو فَرْفَرِن	من هوارة	ماردة ومِدلِّين
بنو نبيه وبنو الأخطل		شذونة
بنو الفرج	من مصمودة	وادى الحجارة
بنو مضى	من مصمودة	قصر مضى
بنو رسين	من مصمودة	
بنو زروال	من مغيلة	المُتَنَانِية
بنو إلياس	من مغيلة	شذونة
بنو عزون	من زناتة	شنتبرية

فهؤلاء جميعاً كانوا أمراء على نواحيهم مما يدل على كثرة بربرية فيها ، ثم إن وصفه لهم بأنهم « أمراء الثغر » يدل على أن معظم أمراء الثغر كانوا من البربر ، أى أن معظم النواحى الشمالية كانت منازل للبربر . وعندما نذكر ما قلناه عن مونوسة الذى كان والى الثغر كله من حدود البرت إلى المحيط ، تتأكد لدينا هذه الحقيقة . أضف إلى ذلك أن مجموعة منازل البربر

(١) يلاحظ أن الكثير من المواضع التى سيذكرها ليس من الثغر .

التى ذكرها ابن حزم تكون خطاً واحداً يبدأ من نواحى جبال البرت عند لاردة ووشقة ثم ينحدر إلى ناحية مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط فيما بعد) فقد نزلها بنو سالم من البرانس وأعطوها اسمهم ، وسكن إلى جوارهم بنو الفرج وبنو عوسجة .

وفى الدائرة الواسعة التى تحيط بمدينة سالم والتى تضم شنتبرية والسهلة ووادى الحجارة نجد كتلة بربرية ضخمة تعمر هذه النواحى كلها إلى أحواز طليطلة ، وهذه الكتلة تتكون من بنى الفرج وبنى سالم وبنى عوسجة وبنى صبرون بن شبيب وآل وهب بن عامر الهواريين ، وكل هؤلاء من البرانس ، ثم بنى عزون وبنى بلال وبنى نعمان وكلهم من البتر . وتمتد هذه الكتلة البربرية شرقاً فتشمل تيروال حيث نزل بنو غزلون وناحية البونت حيث نزل بنو قاسم ، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية ، بناء على البيانات التى يقدمها صاحب الأخبار المجموعة ، فتشمل مناطق طلبيرة (جنوبى طليطلة) وماردة وقورية بين التاجه والدويره ثم تصل إلى ساحل المحيط عند قلنبيرة حيث نجد فرعاً من بنى عوسجة وبنى دانس عند قصر أبى دانس .

ويذكر ابن حزم فرعاً من بنى الفرج استقروا فى طرسونة أى فيما يلى جبال البرت من نواحى غالة ، وهذه الجماعة إن هى إلا بقية من البربر الذين كانوا يعمرون النواحى القصية من الأندلس والذين كانوا يمتدون بحذاء خليج بسكاية ويعمرون حوض نهر المنيو ويتوغلون فى جليقية ، وقد اكتشف سيزار دوبلر - كما رأينا - مواضع ذات أسماء بربرية كثيرة فى هذه النواحى القاصية .

وقد رأينا فى كلامنا عن البربر والعرب كيف انسحب معظم البربر الذين كانوا يعمرون « ما وراء الدروب » أى شمالى نهر الدويره إلى الجنوب وعاد بعضهم إلى إفريقية ، ورأينا كيف أن جموعهم أزعجت العرب واضطرت عبد الملك بن قطن إلى السماح لجند بلج بدخول الأندلس لينقذوا من فيه من العرب ، ولولا أن أعداد أولئك البربر كانت كثيرة جداً لما أفزعت العرب إلى هذا الحد . ومعنى هذا أن ما يلى نهر دويره شمالاً والحوض الأعلى لنهر ابره ثم ما بين نهر الدويرة وتاجة ، هذه النواحى الفسيحة كلها كانت عامرة بالبربر وكانت لهذا دار إسلام فى ذلك الوقت المبكر ، ولم يخرجها من بلاد الإسلام ويجعلها بلاداً نصرانية أو بلاداً خلاء مفتوحة للامتداد النصرانى من الشمال ، إلا هذه الفتنة العمياء التى وقعت بين شعبى الإسلام الكبيرين اللذين فتحا هذا البلد وأدخلاه فى نطاق الدولة الإسلامية

الواسعة[١] .

والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا الجزيرة أول الأمر اختلطوا بعرب الطالعة الأولى المسمَّين بالبلديين وأصبحوا معهم حزباً واحداً لا فرق فيه بين عربى أو بربرى ، بل كان الجانبان إلباً واحداً على الشآميين أو عرب الطالعة الثانية . قال ابن القوطية فى «افتتاح الأندلس» : « وتولى أمر قرطبة والشآميين والأمويين ثعلبة بن سلامة العاملى ، وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشآميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا»[٢] . وقال فى خبر ولاية أبى الخطار : « فلما أشرف من فج المائدة والحرب قائمة بين الشآميين والأمويين وبين البلديين والبربر ونظر الفريقان إلى اللواء خلوا الحرب ..»[٣] . وقال بعد ذلك : «فقال أهل البلد والبربر : سمعنا وأطعنا ، ولكن لا محل فينا لهؤلاء الشآميين فيخرجوا عنا »[٤] . وقال بعد خبر تفريق الشآميين فى الكور : « وبقى البلديون والبربر على غنائمهم لم ينتقصهم شىء »[٥] . وقد ظل هذا الحلف بين البلديين والبربر قائماً حتى نهاية عصر الولاة ، بل إن « الموالى » أنفسهم - وستتحدث عنهم - كانوا ينقسمون قسمين : البلديين والبربر فى ناحية والشآميين فى ناحية أخرى ، وكانت الصدارة بين الموالى للشآميين منهم .

ويؤيد صاحب الأخبار المجموعة ما قلناه عن اتحاد العرب البلديين مع البربر بقوله فى سياق الحديث عن الصراع بين بلج وأصحابه والعرب البلديين : « فبيناه محصوراً قد نزل أهل البلد من البربر والعرب وجلهم البربر على ماردة إذ حضرهم عيد فطر أو أضحى»[٦] ثم يقول بعد ذلك : « فجمع له أهل البلد - العرب والبربر - جمعاً »[٧] .

(١) هذه البيانات مستقاة من « جمهرة » ابن حزم ، ص٤٦١ - ٤٦٧ . وعبارة « الأخبار المجموعة » التى أشرنا إليها واردة فى ص٤٠ وقد أوردناها بنصها فيما سبق .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص١٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص١٩ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) نفس المصدر ، ص٢٠ .
(٦) الأخبار المجموعة ، ص٤٤ .
(٧) نفس المصدر والصفحة .

١٦٦ - هل اختص العرب أنفسهم بأحسن نواحى الأندلس ؟ وقد كثر كلام المؤرخين المحدثين فى أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن نواحى الأندلس ، فلم يتركوا للبربر إلا النواحى الجبلية أو القاحلة أو القصية فى الشمال ، وأن ذلك كان من أكبر أسباب الثورة البربرية . ولكننا رأينا فى كلامنا على هذه الثورة أن الذى أغضب البربر لم يكن احتجان العرب لأحسن المواضع ، وإنما لسوء سياسة العرب جملة ، فقد تخاصم العرب فيما بين بعضهم وبعض بسبب سوء هذه السياسة لا بسبب انفراد فريق منهم دون آخر بخيرات البلاد . ذلك أن شبه الجزيرة الايبيرية فسيح يتسع لأضعاف من نزل هناك من العرب والبربر معاً . ثم إن العرب لم يختاروا مواضعهم ، فهم لم يدرسوا شبه الجزيرة ويتبينوا الطيب من أرضها وغير الطيب ، ولكنهم استقروا حيث شاءت لهم المقادير على طول خطوط الفتح ، أى فى النواحى التى عرفوها لأول دخولهم البلاد .

وقد فرَّق أبو الخطار عدداً عظيماً من الشآميين فى الكور ، التى عرفت فيما بعد بالكور المجندة ، واختار لهم هذه الكور بنفسه ، أى أن الذين نزلوا لم يختاروها هم بأنفسهم ، أى أن العرب لم يكونوا يتخيرون بل كان استقرارهم فى الغالب نتيجة مصادفات ، فقد رأينا مثلاً كثرة العرب وتزاحمهم فى منطقة جيان ، والسبب فى ذلك واضح يفسره قول ابن الخطيب فى كلامه عن فتح جيان والبيرة ومالقة أن طارقاً «سار فى معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة » (١) . فلو لم يكن « معظم الناس » قد مروا بهذه الناحية لما كثر العرب فيها ، ولو أن العرب مروا أول الأمر بناحية قطلونية ورأوا خصب أراضيها لتزاحموا فيها ، ولكن لم يعرفها منهم إلا القليل فى زمن متأخر فظلت شبه خلاء منهم ، لم يسكنها إلا جماعة من تُجَيْب ، وقد أشرنا إلى ذلك .

ولدينا دليل واضح على أن العرب الأُوَل لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأرضين ، وهو أن عرب الطالعة الأولى ، طالعة موسى ، كانوا دائماً أحلافاً للبربر على الشآميين لأنهم تقاسموا معهم ما نزلوا به من البلاد ، وساءهم جميعاً - عرباً وبربراً - أن يحاول الشآميون مشاركتهم فى هذه الأراضى فنفروا يدافعونهم عنها ، واشتدت الخصومة بين الجانبين .

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، جـ١ ، ص١٠٧ . وقد نسب ابن الخطيب فتح هذه الناحية أول الأمر إلى طارق ثم عاد فصحح ذلك فى نفس الصفحة فقال : إن هناك من يقول إن ذلك الفتح تم فى أيام موسى بن نصير سنة ٩٣ على يد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته على ما قلناه .

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأُوَل الذين دخلوا البلاد ، عرباً وبربراً ، استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، ولجأ كل فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحى : فأما العرب فكانوا يفضلون دائماً البسائط والمنخفضات والنواحى الدافئة والقليلة المطر فى الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا فى بلادهم يعيشون فى بلاد جبلية عالية ، فألفوا مثل هذه البلاد فى الأندلس ، فاستقروا فيها باختيارهم .

ففى الجنوب مثلاً استقر العرب فى شذونة واستجة ، واختار البربر منطقة رندة الجبلية فسكنوها ، وسميت تاكُرنّا باسم بعض قبائلهم ، وأعجبتهم نواحى قبرة وموررور وأشونة فنزلوها واختلطوا مع العرب فى بقية نواحى الجنوب ، ثم إن جماعات من البربر أحبت الانفراد بنواحٍ يكونون فيها مستقلين ، على مثل أحوالهم فى بلادهم الأولى فى إفريقية ، فاستقروا فيما بين نهرى دويره وتاجه ، وهى نواحى هضاب مرتفعة تناسبهم من كل وجه .

١٦٧ - تحول البربر إلى بلديين وأثره

استقر البربر إذن إلى جانب العرب فى بعض النواحى ، ومنفردين بأنفسهم فى نواح أخرى ، واختلطوا فى كل ناحية بالأهلين وارتبطوا معهم بروابط الزواج وتحولوا مع الزمن إلى « بلديين » أى أندلسيين . وقد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم جداً فى انتشار الإسلام فى الأندلس ، فإن البربرى قريب جداً من حيث المزاج والطبع - والأصل أيضاً - من أهل البلاد الأصليين ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرون الأرياف منهم ، فامتزجوا بهم دون تكلف . ثم إن البربر لم يعرفوا عصبية الجنس التى أفسدت على العرب الكثير من أمورهم ، وكانوا شديدى الحماس للإسلام ، فقد كان الإسلام بالنسبة لهم رمز سيادة ، فأظهروا العصبية له ، واجتهدوا فى نشره ، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته ، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التى انبثت فى نواحى البلاد من أكبر العوامل فى تحوُّل أهلها إلى الإسلام .

ولو درسنا طبيعة الإسلام الأندلسى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى على الأقل ، لتبينا أنها تشبه طبيعة الإسلام المغربى عامة من حيث التمسك الحرفى بأهداب العقيدة والتزام مذهب واحد والتعصب له ، والحرص على تبجيل رجال الدين ، والمتصوفين منهم بصفة خاصة ، والميل إلى تقديس الأولياء وحب الجهاد فى سبيل الدين وما إلى ذلك . وقد أشار ليفى بروفنسال إلى غلبة الطابع البربرى على الأندلس بقوله : « وفى هذا الصدد ، ربما كان

«الطابع البربرى » أظهر وأوضح اليوم فى إسبانيا وجنوبى البرتغال من « الطابع العربى » بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ ، وذلك فى كثير من ظواهر الحياة الريفية ، والنشاط الزراعى »[١].

١٦٨ - غلبة الزناتيين على البربر الأوّل فى الأندلس

وكان معظم من أقبل إلى الأندلس خلال هذه الفترة الأولى من الزناتيين ، وكان زعماؤهم كذلك زناتيين ، فقد كان أبو زرعة طريف وطارق بن زياد زناتيين ، وكان زعيم البربر فى ثورتهم الكبرى التى أشرنا إليها زناتياً ، وكان بنو الخليع وبنو وانسوس الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على إقامة إمارته زناتيين ، وقد رأينا أن معظم أسماء الأماكن البربرية فى نواحى أشتريس وجليقية زناتية . ثم إن البتر (ومنهم زناتة) كانوا أول أهل إفريقية إسلاماً ، وقد انضمت جماعات منهم إلى المسلمين منذ أيام عقبة بن نافع وأسلمت واشتركت فى فتح المغربين الأوسط والأقصى، وكان ولاة إفريقية يتخذون منهم حرسهم وخاصة جندهم[٢] . وكان منهم زعماء الثورة فى إفريقية ، مثل ميسرة المطغرى وخالد بن حميد الزناتى . وذلك كله يؤيد غلبة العنصر الزناتى على من دخل الأندلس من البربر خلال هذه الفترة الأولى .

ومن المعروف أن الزناتيين كانوا أقرب إلى العرب وأشبه بهم من الصنهاجيين ، فقد كانوا بدواً مثلهم ، ثم إنهم كانوا على الوثنية حتى دخول المسلمين البلاد ، ففتح لهم الدين الجديد أبواب التحضر والانتظام فساروا جنباً إلى جنب مع العرب الأُوَل ، وخاصة البلديين منهم .

وكان هؤلاء البربر فى مجموعهم أبسط طبعاً وأكثر سذاجة من العرب ، وأقرب إلى تذوق بساطة الإسلام من كثيرين من العرب الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد تقلب طويل فى الفتن فى المشرق ، ولهذا كان أولئك البربر يصرون على التمسك بمبادىء العقيدة ، وكانوا يحاجون العرب وينتقدون تصرفاتهم معهم مستندين إلى أصول الشريعة ، كما كان يلقنها لهم دعاة إسلاميون انبثوا بين صفوفهم . ولهذا أيضاً سهل اجتذاب الكثيرين من أولئك البربر إلى مبادىء الخارجية ، الإباضية والصفرية بصفة خاصة ، لأن دعاتها بين البربر كانوا كثيرين ولأن ظاهر هذه المبادىء ، كما كان أولئك الدعاة يشرحونها ، أقرب إلى مبادىء الإسلام الصحيح .

---

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd. Paris, 1950) vol. I p. 880.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ .

١٦٩ - البربر والفتوح فى غالة

وإلى هذه الجماعات البربرية يرجع جانب كبير من دافع العرب إلى الاسترسال فى الفتوح فى غالة ، كانت جماعات البربر تجوز إلى الأندلس وقلوبها معلقة بالفتح والجهاد وما يتعلق بهما من مغانم وأسلاب ومكاسب ، وكانوا يتجمعون فى الأندلس فلا يستطيع العمال تركهم دون عمل يتسكعون فى العاصمة وحولها ، فكانوا ينهضون معهم للغزو . ولا شك أن حملات واسعة المدى ، كتلك التى قام بها السمح ابن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ما كانت لتتم لولا وجود هذه الجماعات البربرية المتوفزة المتعطشة للفتح ومغانمه . وكلما زاد نشاط الفتح زاد هؤلاء البربر ضراوة على الحرب وطمعاً فى المغانم ، وربما اشتد طمع بعضهم فى الأسلاب فكان ذلك من أسباب فشل بعض الحملات .

كان فى هؤلاء البربر إذن قوة تدفعهم إلى الاسترسال فى الفتوح ، كما كانت شعوب المتبربرين يدفع بعضها بعضاً نحو أراضى الدولة الرومانية .

هكذا يمكننا تعليل جانب من هذا النشاط الحربى العظيم الذى أبداه المسلمون فى فتوح الأندلس وغالة .

ومن العسير جداً أن نقدر أعداد العرب والبربر الذين اشتركوا فى هذه الأعمال الحربية، لأن أعداد من اشترك منهم فى الجيوش الرسمية - وهى الأعداد التى رواها المؤرخون - لا تكون إلا نسبة ضئيلة من العرب والبربر الذين هاجروا إلى الأندلس على هيأة تيار متصل: فقد كانت الاضطرابات السياسية فى المشرق ، وميل خلفاء بنى أمية إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية حيناً ، سبباً فى هجرة جماعات من العرب معظمهم من اليمنين والمدنيين إلى الولايات وخاصة المغرب والأندلس ، وقد استقر نفر قليل من هؤلاء العرب فى إفريقية واستمر الأكثرون فى طريقهم حتى حطوا رحالهم بالأندلس ، أما البربر فكان تيارهم أقوى وأعدادهم أكبر ، ولا يمكننا تصور تحول بلد كالأندلس إلى الإسلام هذا التحول السريع إلا بافتراض أن أعداد المهاجرين المسلمين كانت كبيرة فعلاً [١] .

---

(١) ويؤيد ذلك بوضوح قول الرازى : « إن الذى أزعج موسى من الأندلس أبو نصر رسول الوليد ، فقبض على عنانه وثناه قافلاً ، وقفل معه من أحب إلى المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها فأقاموا فيها » مما يدل على أن عدداً قليلاً جداً ممن ورد البلاد من الفاتحين المسلمين قد غادرها وعاد إلى إفريقية أو إلى المشرق . وسنلاحظ أن معظم من يقبل إلى الأندلس يستقر فيه ولا يعود يفارقه أبداً (المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص١٧٧) .

ومن الطريف أن نلاحظ أن البربر - على حداثة عهدهم بالإسلام - كانوا أكثر تمسكاً بالإسلام وحماساً للفتح من العرب ، لأن الإسلام كان وسيلتهم الأولى فى النهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب وسادة فى البلاد المفتوحة وأصحاب حق فى الغنائم والأرضين ، ولهذا نراهم يحتجون دائماً على العرب ويتهمونهم بمخالفة الدين ويطالبونهم بتنفيذ أشراطه . وكانوا إذا استقروا فى الأرياف استمسكوا بالإسلام حتى يميزوا أنفسهم عن أهل البلاد ، ولهذا لا نبالغ إذا قلنا إن جانباً عظيماً من الفضل فى إسلام أهل الأندلس يرجع إلى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد فى سذاجة وقوة ، واحتفظوا بهذا الإيمان لأنه يكسبهم حقوقاً معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه .

وقد أساء العرب معاملة هؤلاء البربر من أول الأمر كما رأينا ، فنما فى نفوسهم شعور من الخوف من العرب ، حتى إذا قامت الثورة البربرية فى إفريقية وانتقلت إلى الأندلس وقعت القطيعة بين الحيين وصار الأمر بينهما إلى عداء سافر خطر . وقد انتهى الدور الأول من الصراع بانتصار العرب ، فهاجر من البربر من هاجر ، وأقام على خوف من أقام ، حتى بدأت بشائر الدولة الأموية فانضموا إلى عبد الرحمن ، وهم لا يكادون يثقون فى حسن نواياه ، وكان لابد له من أن يخوض صراعاً طويلاً معهم - كما فعل مع غيرهم - حتى يخضعهم للدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بهم إلى الطاعة والاستقرار .

١٧٠ - البربر والعرب البلديون ولا نزاع فى أن البربر انضموا إلى البلديين وكوَّنوا حزباً واحداً منذ بدء الصراع بين هؤلاء وبين الشآميين كما قلنا ، ولكن انضمامهم هذا لم يكن خالصاً ولا صادقاً ، لأنهم عرفوا من ويلات البلديين إلى ذلك الحين ما نفَّرهم من العرب جملة ، ولصاحب الأخبار المجموعة عبارة عظيمة الدلالة ذكرها أثناء روايته للنزاع بين بلج ابن بشر والبلديين ، قال : « فلما بلغ ابنيه (ابنى عبد الملك بن قطن وهما أمية وقطن) ما كان ، حشدا من أقصى أربونة ، وراجعا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشآم ، فإذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى »(١) مما يدل على ما كان يخامر نفوس البربر جميعاً نحو العرب - بلديين وشآميين - من الكراهية والخوف .

وقد أشرنا إلى ما خلفه القيسيون من الأحقاد فى قلوب البربر بسبب أفاعيلهم فيهم

(١) الأخبار المجموعة ، ص٤١ - ٤٢ .

عندما نزلوا البلاد بقيادة بلج ، ورأينا أن البلديين انضموا إلى الشآميين أثناء هذه المحنة ، فلما انتهت بالقضاء على البربر وتقتيلهم فى كل ناحية زاد نفور من بقى منهم ، وأخذوا ينظرون إلى العرب نظرهم إلى عدو ، فكانوا لا يسيرون معهم إلا على خوف ، ومن دلائل ذلك ما يرويه ابن القوطية فى أخبار عبد الرحمن بن معاوية الداخل وإنشائه دولته ، قال : « فلما كان بالعشى ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون فى العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر مثل بنى الخليع وبنى وانسوس وغيرهم وقال لهم: خاطبوا بنى عمكم وعظوهم وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية فأجابوهم إلى ما أحبوه ووعدوهم ، إلى أن انحرفوا عن عسكرهم ، فلما أصبح لهم (كذا) قالوا للعرب : إنَّا لا نحسن الحرب إلا فرساناً فاحملوا من بقى منا على الخيل ، فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم . ودخلوا رجالة فخرقوا إلى عبد الرحمن، ووقعت الهزيمة على عبد الغفار »[1] مما يدل على أن بعض البربر الذين كانوا فى صفوف عبد الرحمن كانوا متخوفين مترددين يفكرون فى الانقلاب عليه ، وأنه استعان على كسبهم بتخويفهم مما سيصيبهم على أيدى العرب إذا هو انهزم ، وكان هذا التخويف كافياً لتغيير رأيهم فأخلصوا فى القتال فى صفوفه ونصروه .

١٧١ - جماعات السودان فى الأندلس

وينبغى أن نذكر أنه كانت هناك إلى جانب البربر الذين هاجروا إلى الأندلس واشتركوا فى الفتوح جماعات من السودان أو السود ، فقد قال صاحب « فتح الأندلس » مثلاً فى كلامه عن غزوات موسى : « وقدم السودان بين يديه للفتح والغارة »[2] ، ويبدو أن أعدادهم كانت قليلة ، ولهذا كان أثرهم قليلاً . والغالب أنهم ظلوا مجرد جنود يحاربون إلى جانب هؤلاء وأولئك ، ثم اندرجوا فى جيوش الدولة الأموية بعد ذلك ولم نعد نسمع عنهم .

١٧٢ - تأثر البربر بالبيئة المحلية

تأثرت جماعات البربر المستقرة فى الأندلس بالبيئة الجديدة تأثراً عظيماً ، فكان الجيل الأول منهم لا يكاد ينقضى حتى يطلع الجيل الجديد أندلسياً قد أنسى أصله واتخذ الأندلس وطناً ، فأما من الناحية العقلية المعنوية فكانوا يجتهدون

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٣٢ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٥ .

فى التعرب : يتعلمون العربية ويقبل من له ميل منهم على دراسة الإسلام والتفقه فيه ، وأما من الناحية المعاشية فنجد البربر قد ارتبطوا بمن يجاورونهم من أهل البلاد بالصهر والقرابة، وأخذوا عن أمهاتهم الإسبانيات لغتهن فى الحديث ، أى أن شأن أولئك البربر كان شأن غيرهم من مهاجرة العرب ، طوتهم البيئة الأندلسية الغلابة فى ثناياها ، فأصبحوا أندلسيين ، ومنهم من اتخذ لنفسه اسماً عربياً زيادة فى التعرب ، ومن هنا كانت أسماء جماعاتهم ذات الأسماء العربية التى ذكرنا بعضها . ومن الواضح أن البربر كانوا أسرع اندماجاً من العرب فى البيئة الجديدة ، فقد حالت بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل عصبيتهم ولغتهم العربيتان ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، لا عصبية ولا لغة مكتوبة . ثم عمل الإسلام عمله فيهم ، فانتظموا وتحضروا ، وأصبحت غالبيتهم مع الزمن فى جملة العرب الأندلسيين . وقد كان لهؤلاء الأندلسيين الذين رجعوا إلى أصل بربرى أعظم الأثر فى بناء الأندلس الإسلامى من كل ناحية .

وقد أشار ليفى بروفنسال إلى أن الزواج بينهم وبين العرب كان قليلاً أو منعدماً ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، لأن العرب مهما قيل فى اعتزازهم بأنفسهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم جنساً متميزاً بدمه عن غيرهم ، كما كان الحال مع الرومان أو القوط ، بل كانوا من أكثر الشعوب امتزاجاً بغيرهم . وللإسلام فى ذلك أثر واضح .

جـ - المـــوالى

ولا يكتمل الكلام على العرب والبربر بدون الإشارة إلى الموالى ، فقد كانوا خلال هذه الفترة كلها عاملاً من أكبر العوامل فى توجيه تيار الحوادث ، ثم كانت لهم بعد ذلك اليد الطولى فى إقامة دولة عبد الرحمن الداخل .

١٧٣ - موالى بنى أمية نجد الموالى – مذكورين باسم « موالى بنى أمية » – لأول مرة فى حديث ابن القوطية عن بلج بن بشر وفراره إلى ناحية طنجة بمن نجا من العرب من «معركة الأشراف » ، وذلك حيث يقول : « وانخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة : منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى »[(١)] . ولسنا نجد لهؤلاء الموالى قبل ذلك

(١) وهؤلاء الموالى جزء من عدد عظيم من الموالى كان هشام بن عبد الملك قد بعث بهم إلى إفريقية . قال ابن القوطية : «فقدم كلثوم [بن عياض] إفريقية ومعه ثلاثون [ألفاً من موالى] بنى أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب » ، وقد انهزم هذا الجيش أمام البربر فى موقعة بقدورة (أو نقدورة) ولم ينج من الجيش العربى إلا بلج وأصحابه ، ثم «انخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل مدينة طنجة ، وهى المعروفة بـ « الخضراء » ، منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » ، ص١٥ .

ذكراً ككتلة « متماسكة » ، وإنما نجد أفراداً منهم مذكورين هنا وهناك مما يسمح لنا بالقول بأن قيام « موالى بنى أمية » كحزب أو كقوة سياسية فى الأندلس يرجع إلى تاريخ دخول بلج ابن بشر الأندلس ، وقد انضم إليهم بعد ذلك من كان فى الأندلس من موالى بنى أمية ومن دخلها بعدهم ، ثم من دخل فى ولاء البيت الأموى من أهل البلاد .

١٧٤ - تكوين كتلة الموالى فى الأندلس

ولا يتضح من إشارة ابن القوطية هذه ما إذا كان أولئك الموالى من موالى بنى أمية فى المشرق أو ممن دخل فى ولائهم من أهل المغرب ، ولكن ما لدينا من أخبارهم بعد ذلك يدل على أن عدداً قليلاً منهم كان من موالى المشرق وأن أكثرهم كانوا من أهل المغرب الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو عمالهم . ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد فيهم قبيلتين بربريتين كاملتين ، هما بنو الخليع وبنو وانسوس [١] .

ولا نزاع فى أن إفريقية كانت تضم عدداً عظيماً من موالى البيت الأموى الذين كان الخلفاء يبعثونهم مع الجيوش ، فحينما خرج كلثوم بن عياض من المشرق لقتال البربر مثلاً كان جيشه يتكون من « عشرة آلاف من بنى أمية وعشرين ألفاً من بيوت العرب»[٢]، والمراد ببنى أمية هؤلاء مواليهم من أهل الشام أو العراق وفارس ، ومن البديهى أن الكثيرين من هؤلاء الموالى المشارقة قد شاركوه فى فتح الأندلس واستقروا فيه ، وتكونت منهم ، وممن انضم إليهم ممن دخل فى ولاء بنى أمية من أهل المغرب والأندلس ، هذه العصبة القوية التى سيكون لها أعظم الأثر فى مجرى الحوادث فيما بعد . وقد دخل فى ولاء بنى أمية نفر كبير من أهل المغرب ودخل فى ولاء عمالهم ، وخاصة موسى بن نصير ، عدد عظيم كذلك ، وقد ارتبط هؤلاء جميعاً برابطة الولاء نحو البيت الأموى حتى البربر الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية كانوا أقرب إلى إخوتهم فى الولاء منهم إلى بنى عمومتهم من البربر، مما يدل على أنهم كانوا يعتبرون رابطة الولاء الجديدة أقوى من رابطة العصبية الأولى[٣].

ويبدو أن التفرقة بين الموالى وغيرهم كانت واضحة فى ذلك العصر ، وأن الموالى كانوا معتبرين فى مركز اجتماعى ومعنوى لا يقل عن العرب ، بل إننا نلاحظ أن العرب كانوا يميلون إلى أن يعتبروا أنفسهم موالى ، فقد ذكر ابن القوطية فى أخبار أرطباس أنه « دخل

(١) كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . (ابن القوطية : افتتاح ، ص٢١) .

(٢) ابن القوطية : افتتاح الأندلس، ص١٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص٣٢ .

وقد كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . نفس المصدر ، ص ٢١ .

عليه عشرة من الشآميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلَّموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه ، فلما أخذوا مقاعدهم وحيّا بعضهم بعضاً دخل ميمون العابد ، جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشآميين.. فقال الصميل : يا أرطباس ، ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاد الطيبة : أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان .. » (ص ٣٨-٣٩) .

أى أن الصميل وصف العشرة الذين كانوا معه بأنهم من الموالى ، وابن القوطية يقول إنهم كانوا عشرة من الشآميين فقط ، مما يُفهم منه أن الشآميين جميعاً كانوا يعتبرون وصفهم بالموالى شرفاً لهم ، ويؤيد ذلك أن الصميل قال لهم بعد ذلك : « أنتم ملوك » ولم يكن ليصفهم هذا الوصف لو لم يكونوا من سادات العرب جملة ، لا من الموالى فحسب .

وظاهر أن أعداد هؤلاء الموالى زادت فى الأندلس زيادة عظيمة ، بدليل أن بلج بن بشر عندما سار للقاء اليمنية الذين كان يقودهم عبد الرحمن بن علقمة وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن خرج فى « عشرة آلاف من الأمويين والشآميين » [(١)] . ثم تزايدت أعدادهم بعد اضطراب الأمر على الأمويين فى المشرق ، ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن « الطلب حينما اشتد على بنى أمية هربوا إلى الآفاق ، وكانوا يسمعون فى الرؤية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم إلى إفريقية»[(٢)] ، ولابد أن الكثيرين منهم عبروا إلى الأندلس ، وسنرى براهين ذلك فيما يلى من الأحداث .

١٧٥ - **الموقف السياسى للموالى** وكان هؤلاء الموالى يعتبرون أنفسهم تابعين للبيت الأموى أو لمن عهد إليه الأمويون بالولاية ، وهم لهذا لم ينضموا إلى عبد الملك بن قطن لأنه انتزع الأمر من الوالى الرسمى الذى سلفه وهو عقبة بن الحجاج ، وحينما أقبل بلج بعهد خاله كلثوم بن عياض عامل هشام انضموا إليه ، فلما قُتِل بلج انضموا إلى خليفته ثعلبة بن ثوابة ، وكانوا لهذا يحاربون البلديين لأنهم كانوا يعتبرونهم ثائرين على بنى أمية ، ومصداق ذلك ما يقوله ابن القوطية : « وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشآميين ، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس، ص١٥ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٥٠ .

لعرب الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ..» [١] .

وبقى هؤلاء الموالى إلى جانب الشآميين حتى أقبل أبو الخطار ، ولا نسمع لهم ذكراً فى عهده ، والظاهر أنه فرَّقهم فى النواحى فيمن فرق من الشآميين ، لأننا سنجد جماعات منهم عند مجىء عبد الرحمن متفرقة فى نواحى ريه وشذونة وتاكرنا ، ولكن غالبيتهم العظمى بقيت فى قرطبة وفيها زعماؤهم من أمثال يوسف بن بخت ، وأمية بن يزيد ، وتمام بن علقمة ، وأبو فُرَيْعة .

وحينما انتصر يوسف الفهرى على أبى الخطار وتخلص منه ، بمعاونة الصميل بن حاتم ، اعتبر نفسه الوالى الشرعى وحاول لهذا أن يضع يده على موالى بنى أمية ، فجعل يسميهم «موالينا ويظهر الميل إليهم » [٢] على اعتبار أنه الوالى الشرعى للأندلس والنائب عن خلفاء بنى أمية وصاحب حق الولاء على مواليهم . ولو قد كان يوسف صاحب رأى وسياسة لأفاد منهم ولقوَّى مركزه بهم فى صراعه المقبل مع عبد الرحمن بن معاوية ، ولكنه كان ضعيف الرأى بعيداً عن السياسة ، وكان أمره كله بيد وزيره الصميل بن حاتم ، فاستطاع هذا أن يكسبهم إليه ، فكانوا إلى جانبه إلى أن ظهر عبد الرحمن الداخل .

ولم يَعْلُ أمر موالى بنى أمية فى فترة كما علا خلال الفترة التى سبقت قدوم عبد الرحمن، فقد كانوا كتلة طيبة متناسقة من الرجال الأشداء . وقد أيدوا يوسف الفهرى والصميل لتحاملهما على القحطانية [٣] ، لأنهم كانوا يكرهون هؤلاء القحطانيين (اليمنيين) ورؤساءهم ، فكانوا خير نصير ليوسف والصميل فى صراعهما مع أبى الصباح وغيره من كبار اليمنيين . قال صاحب الأخبار المجموعة : « وكان لبنى أمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبرمحمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر ، فخرجوا مع قيس فيمن قوى من بنى أمية » [٤] .

١٧٦ - الموالى وقيام الدولة الأموية

فلما أقبل بدر مولى عبد الرحمن واتصل بهم بدأ موقفهم من المضرية يتغير، لأن بدراً خاطبهم بأحب لغة إلى نفوسهم ، وأفهمهم أن انضمامهم للأمر الجديد إنما هو إنقاذ لهم من فوضى العصبيات فى الأندلس . والمراجع فى خلاف على

(١) الأخبار المجموعة ، ص٥٠ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢١ .
(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢١ .
(٤) الأخبار المجموعة ، ص٦٦ .

ما اتفق معهم عليه : هل طلب منهم العمل على « إجارة » عبد الرحمن وإيوائه لإنقاذه من البربر فقط ، أو تحدث إليهم فى تحويل السلطان إلى عبد الرحمن وإقامة دولة جديدة . والرأى الثانى أصح ، لأن تطور الحوادث يؤيده ويدل على أنهم كانوا يسعون لتمهيد السلطان لعبد الرحمن لا لمجرد إيوائه وتأمينه .

ولم يَخْفَ ذلك على الصميل ، رغم محاولة موالى بنى أمية خداعه ، وكان الرجل رغم إسرافه فى الشراب وتشعث ذهنه ذكياً يفهم بواطن الكلام ، ولهذا لم يكد يوافق على إيواء عبد الرحمن ويعد موالى بنى أمية بإرغام يوسف على إجارته وتزويجه ابنته ، حتى روّى الأمر على نفسه وتبين خطورته ، فبعث من استوقف رسوليهم فى منتصف الطريق ، وأسرع بنفسه على فرسه الأبيض « الكوكب » وقال لهما : « إنى منذ أتيتمونى برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل فى إدارة ، فاستحسنت ما دعوتما إليه ، ثم كان منى إليكما ما كان. فلما فارقتكما روّيت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله . وهذا رجل قد حكمنا عليه ، مع ما لَه فى أعناقنا (يريد يوسف الفهرى)... وأنا أعلمكما أن أول سيف يسل عليه (أى على عبد الرحمن) فسيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما ..» [(١)] .

وهى عبارة خطيرة الدلالة ، لأن الصميل كشف بها عن أعمق ما كان يدور بنفوس الموالى ، وأعلن إليهم عداءه الصريح لما يريدون ، ومن هذه اللحظة فَهِم هؤلاء الموالى ألَّا خير هناك يرجونه من يوسف والصميل والمضرية جملة ، وبدأت أفكارهم تتجه وجهة أخرى . اتجهوا نحو اليمنيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة ، وقد جاء هذا التغير الحاسم دليلاً على ما كان يمتاز به هؤلاء الموالى من تمام المعرفة بأحوال البلد وسلامة حسهم السياسى ، فقد سارت قضية مولاهم عبد الرحمن من ذلك الحين صعداً ، وقد قال أبو عثمان عبيد الله بن عثمان أحد كبار هؤلاء الموالى يصف هذا التحول : « فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا إلى أطْباء اليمن وإدخالهم فى رأينا ، ففعلنا ذلك من فورنا : لم نمر بيمانى له بال وثقنا به إلا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوناه إليه ، فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم ، ورغبوا فى عقد بنى أمية بالأندلس ، ثم رجعنا إلى جندنا وقد يئسنا من مضر فابتعنا مركباً .. » [(٢)] .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٧٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص٧٤ .

ولصاحب « فتح الأندلس » عبارة على جانب عظيم من الأهمية تبين موقف هؤلاء الموالى وعلاقتهم بعبد الرحمن وبنى أمية ، وذلك حيث يقول : « وشاور (عبد الرحمن) كل من معه من الأمويين فقالوا : إنما يرضى لك هذا الفهرى ببعض أعماله التى هى أعمالك وأعمال جدك ، وإنما هو عامل لعامل ابن عمك ، فيخرج عهده الذى يحاجنا به ، فإنما هو من عمال جدك أمير المؤمنين هشام ، فلا والله لا نرضى لك بهذا حتى نكافحه دونك ويعود إلى حالته الأولى ويترك الأمر لك » (١) . أى أن قدوم عبد الرحمن قد حل رابطة الولاء التى تربطهم إلى هذا الفهرى الذى هو فى الواقع عامل لعامل إفريقية ، وعامل إفريقية من عمال بنى أمية ، فما معنى الولاء له وعبد الرحمن حفيد هشام مقيم بينهم ؟

والواقع أن موالى بنى أمية قاموا بدور خطير جداً فى إقامة أمر عبد الرحمن وتحويل تاريخ الأندلس كله وجهة جديدة ، ولولا مؤازرتهم له والتفافهم حوله لما قام أمره ، ولولا إخلاصهم له ولبنيه لما استطاعت الإمارة الأموية أن تسير على هذا النحو الموفق الذى سارت عليه .

١٧٧ - موال من أصول إسبانية

وقد دخل الكثيرون من أهل الأندلس فى ولاء بنى أمية بعد الفتح ، فقد قال ابن حزم مثلاً فى « الجمهرة » فى سياق الكلام عن بنى قَسِّى : « كان قسى قومسَ الثغر فى أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشآم وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى فى أول أمرهم ، إذا وقعت الفتنة بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة المضرية ، فولدُ قسى : فُرْتُون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى » (٢) وتحدثنا الحوليات الأندلسية عن عدد كبير من هؤلاء الموالى الأندلسيين وبيوتهم : بنو بارون ، بنو غومس ، بنو غرسية، بنو قارلُه ، بنو مرتين ، وغيرهم . فقد دخل آباء هذه البيوت أول الأمر فى ولاء بنى أمية فى المشرق ، ثم انتقل ولاؤهم إلى بنى أمية الأندلسيين ، وظل بعضهم محتفظاً بهذا الولاء ، واندرج بعضهم الآخر فى عداد المولَّدين . ولا شك أن هذا الولاء سار على نفس الأسس التى جرى عليها نظام الولاء فى المشرق ، مع فرق واضح : هو أن الموالى فى الأندلس كانوا موالى البيت الأموى لا موالى قبائل عربية ، كما كان الحال مع الكثير من الموالى الفرس ، فلم تذكر الحوليات الأندلسية

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٢ .
(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص٤٦٧ .

ولاء قوم لقبيلة إلا نادراً ، فقد ذكر ابن حزم مثلاً فى « الجمهرة » من بيوت البربر بنى سالم وبنى الفرج وقال إنهم موالى بنى مخزوم[١].

١٧٨ - طبيعة ولاء الأندلسيين

وليس لدينا نص يثبت أن هؤلاء الموالى الأندلسيين أو بعضهم كانوا موالى عتاقة إلا فى حالات قليلة ، فقد ذكر المؤرخون أهل ناحية من نواحى ماردة باسم «موالى موسى » وهم موالى موسى بن نصير ، ويغلب على الظن أنهم دخلوا فى ولاء موسى بعد فتح الناحية عنوة فأعتقهم وصاروا مواليه . وذكر ابن الفرضى فى حديثه عن بعض علماء الأندلس مثل سُعدان بن إبراهيم .. بن زياد وابنه قاسم أن الأب كان « مولى الإمام عبد الرحمن بن معاوية ولاء عتاقة »[٢] . ولو قد كان سعدان هذا وأمثاله من موالى بنى أمية الذين أتوا من المشرق لاكتفى ابن الفرضى بالقول بأنه مولى بنى أمية ، كما هى عادته ، أما وقد ذكر أنه مولى عتاقة فلا يفسر إلا بأنه كان ممن صاروا إلى ملكية الأمويين من أهل البلاد أو البربر ثم أعتقوهم فصاروا مواليهم بالعتاقة.

ويؤيد هذا ما يذكره ابن الفرضى عن عالم آخر هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد إذ يقول إنه « مولى نعمة لبنى أمية من أهل قرطبة »[٣] ، وموالى النعمة هم موالى العتاقة مع اختلاف يسير ، هو أن مولى النعمة لا ينبغى أن يكون رقيقاً ثم أعتق ، بل قد ينعم عليه بالولاء كشارة من شارات الإعزاز والتقدير . وهم فى الأندلس يختلفون عن الموالى إطلاقاً ، لأن ابن الفرضى يذكر الكثير من الموالى محدداً ولاءهم الأول أو مكتفياً بالقول بأنهم موالى بنى أمية ، مثال ذلك : إسماعيل بن خلف المعروف بابن الخبازة من أهل سرقسطة « وينسب إلى ولاء بنى أمية »[٤] ، وإسماعيل بن القاسم بن عبدون « مولى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من أهل قاليقلا »[٥] ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم « مولى عثمان بن عفان رحمه الله »[٦] ، وحرث بن أبى سعد «مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية »[٧] ، وحسن بن عبيد

(١) نفس المصدر ، ص٤٦٥ .
(٢) ابن الفرضى : علماء ، ترجمة رقم ٥٤١ ، ١٠٧٠ .
(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٢) ترجمة رقم ٢١٤ .
(٤) نفس المرجع ، رقم ٢٢٠ .
(٥) نفس المرجع ، رقم ٢٢١ .
(٦) نفس المرجع ، رقم ٢٧٨ .
(٧) نفس المرجع ، رقم ٣٢٤ .

الله بن محمد .. بن رافع «مولى رسول الله ﷺ » (١) ، وزكريا بن يحيى بن عايذ بن كيسان «مولى هشام» (٢) ، وسليمان بن عبد الرحمن بن يزيد « مولى معاوية بن أبى سفيان » (٣) ، وهكذا .

وقد يكتفى المؤرخون بقولهم : « من الموالى » (٤) ، كما هى الحال مع سعيد بن حميد بن عبد الرحمن ، أو بقولهم : « مولى لهم » (٥) كما هى الحال مع سعيد بن عثمان بن سليمان التجيبى . وقد يذكر الولاء محدداً فى دقة كقول ابن الفرضى فى ترجمة شمر بن نمير : « مولى بنى أمية ثم لآل سعيد بن العاصى » (٦) . وقد يرد ذكر الولاء فى صورة غير واضحة ، كقول ابن الفرضى فى ترجمة سهل بن إبراهيم بن نوح : « نسبه فى البربر ويوالى بنى أمية » ، وقد أشرنا فيما سبق إلى دخول أعداد من البربر فى ولاء الأمويين ، فقد رأينا أن بنى وانسوس يعتبرون أنفسهم موالى عبد العزيز بن مروان .

١٧٩ - موالى الاصطناع وإذن فقد عرف الأندلس فى هذا الوقت المبكر نظام الولاء ، وكان الموالى إما مشاركة أقبلوا إلى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموى أو لأفراد منه ، أو مغربيين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب ، وانتقلوا إلى الأندلس محتفظين بهذا الولاء ، أو إسباناً دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين ، هم وأبناؤهم ، بهذه العلاقة .

والنصوص التى بين أيدينا لا تسمح لنا بالحكم على طبيعة ولاء الإسبان ، ولكن الأحداث لا تدل على أنهم كانوا موالى عتاقة ، بل موالى اصطناع ، دخلوا فى ذلك الولاء التماساً للحماية أو شرف المنزلة ، كما رأينا فى حالة بنى قسى .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن معظم أولئك الموالى كانوا موالى اصطناع ، أن عبد الرحمن الداخل عندما أراد أن يكسب يوسف الفهرى بعث إليه وفداً من مواليه ، «وبعث معهم بكسا وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، وكتب إليه يذكر له اصطناع آبائه جد يوسف

(١) نفس المرجع ، رقم ٣٤١ .
(٢) نفس المرجع ، رقم ٤٤٣ .
(٣) نفس المرجع ، رقم ٥٥٧ .
(٤) نفس المرجع ، رقم ٤٨٢ .
(٥) نفس المرجع ، رقم ٤٨٤ .
(٦) نفس المرجع ، رقم ٤٩٥ .

(أى اصطناع بنى أمية لعقبة بن نافع جد يوسف الفهرى) ولأهله ، ويدعوه إلى الصهر والتوسعة »(١) مما يدل على أن الاصطلاح المستعمل فى الأندلس للولاء هو الاصطناع .

وكان أهل الأندلس يرعون حرمة الولاء ، ويحافظ الخلف منهم على ما ارتبط به السلف منهم ، فقد ذكر ابن القوطية كيف أن محمد بن موسى - وكان من بيت من العرب يقال لهم بنو موسى ، « وكان بنو عبد الرحمن الغافقى عامل الأندلس المتقدم ذكره يدَّعون أنهم مواليه» - عندما تولى الوزارة أيام الأمير محمد ، « بعث فى بنى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وكان لهم عدد وثروة بمرنانة الغافقيين من شرف إشبيلية ، فقال لهم : إنكم تدعون أمراً لو كان حقاً وعلمناه لم يَحِلّ لنا الانتفاء عنه ، فهلم إلى أن تخلطونا بأنفسكم وتدعون أهلاً ، فإن كنا مواليكم كما تقولون فنحن منكم ، وإن كنا من العرب فنحن بنو عمكم ، فأجابه القوم وشكروا على ذلك ، وصاروا أهلاً وصاهر بعضهم بعضاً ، وانقطعت تلك الدعويات من يومئذ »(٢) .

١٨٠ - أهمية الموالى فى تاريخ الأندلس

وعلى أى الأحوال لم يكن الموالى فى الأندلس فى هذه الفترة وما بعدها ، فى نفس الوضع الذى كان فيه موالى المشرق ، فهناك كان المولى فى وضع اجتماعى أقل من وضع الحر ، أما هنا فقد كان الولاء شارة امتياز ، ولم يحدث إلا نادراً أن ترفع العرب على الموالى ، فقد ذكر ابن القوطية أن العرب احتجوا عندما عين عمرو بن عبد الله بن الليث - وكان مولى - قاضياً للجماعة فى قرطبة (٣) ، وفيما عدا ذلك كان الموالى فى مركز اجتماعى لا يقل فى شىء عن مركز الأحرار . وعندما أتى عبد الرحمن وأعانوه على إقامة الدولة أصبحوا فى مركز أعلى من مركز العرب الأحرار، فقد أصبحت الوظائف الكبرى مقصورة عليهم ، وحرص أمراء بنى أمية على الاحتفاظ ببيوت الموالى وإعطائهم مكاناً ممتازاً فى الإدارة والمجتمع ، فلم يكونوا يعتمدون إلا عليهم.

وقد أخلصت بعض بيوت أولئك الموالى للبيت الأموى إخلاصاً عميقاً مستمراً ، وحملت عن البيت الأموى جانباً كبيراً من المسئولية ، بحيث لا يمكن التأريخ للبيت الأموى بدون التأريخ لهذه البيوت إلى جانبه ، ومن أكبرها بنو أبى عبدة وبنو حُدَير وبنو شهيد وبنو

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٧٥ - ٧٦ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٧٦ .
(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٧٣ .

عبد الرءوف وبنو فُطَيس وبنو مغيث (١) - وأصلهم كلهم من موالى بنى أمية ، بعضهم موالى البيت الأموى نفسه ، وبعضهم موالى قوادهم ؛ وقد كان موالى البيت الأموى يسمون بموالى قريش ، وكانت لهم الصدارة على غيرهم من الموالى . وفى عهد عبد الرحمن الناصر زاد مركزهم ارتفاعاً حتى صاروا يسمون بالأبناء (٢) .

فأما بنو أبى عبدة فهم أبناء حسان بن أبى عبدة مولى مروان بن الحكم ، وقد دخل جدهم الأندلس سنة ١١٣هـ / ٧٣١م مع ابنه عبد الغافر الذى أصبح فيما بعد وزيراً لعبد الرحمن الداخل . وقد ظل أبناء هذا البيت يتولون كبار المناصب إلى أيام المنصور بن أبى عامر ، وقد تفرع عن هذا البيت بعد ذلك بيت أبى الحزم بن جهور أصحاب قرطبة فى عصر الطوائف (٣) .

وبنو حدير هم أبناء مولى من موالى عبد الرحمن الداخل ، ولا شك أن أصلهم من موالى بنى أمية فى الأندلس ، لأن المراجع لا تذكر أن عبد الرحمن أتى بمولاه هذا من المشرق . وقد أظهر أمر بنى حدير عندما نبغ منهم موسى بن محمد بن حدير الذى تولى أمر قرطبة أيام الأمير محمد ، وقد ظل بنو حدير يتقلبون فى كبار الوظائف حتى أيام الناصر (٤) . أما بنو شُهيد فهم أبناء مولى من موالى عبد الرحمن الداخل ، وقد ظلوا فى الوظائف إلى أيام الدولة العامرية . وكذلك كان الأمر مع بقية البيوت التى ذكرناها (٥) . ومن الطريف أن بعض مؤسسى هذه البيوت دخلوا الأندلس عرباً أحراراً ثم دخلوا هناك فى ولاء بنى أمية المشارقة، ثم انتقلوا إلى ولاء بنى أمية الأندلسيين ، ومثال ذلك بنو شهيد وبنو عبد الرءوف .

وفى عداد هذه البيوت من موالى بنى أمية ذوات الأصول المشرقية تدخل بيوت الموالى ذوات الأصول البربرية ، مثل بيت الزجّالى ، وذات الأصول الإسبانية كبيت بنى قسى ، وإن كان وضع هذه البيوت الأخيرة يختلف عن وضع الموالى المشارقة والمغاربة من حيث

(١) هم أولاد مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك (أخبار مجموعة ، ص١٠) وأول من امتاز منهم فى الأندلس عبد الكريم بن مغيث . وقد قتل مغيث فى معركة القرن بإفريقية (أخبار ، ص٣٤) .

(٢) LÉVI - PROVENÇAL : L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle (Paris, 1932) p. 106.

LÉVI - PROVENÇAL: Histoire de L'Espagne Musulmane. 2e. éd. II, p. 126, III, p. 194.

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص١٣٢ - ١٣٣ .

LÉVI - PROVENÇAL, L'Espagne Musulmane. II, p. 101.

(٤) الحلة السيراء ، ص١٢٣ - ١٢٤ .

(٥) LÉVI - PROVENÇAL, Op. cit. pp. 99 sqq.

الوظائف ، فقد قصرها أمراء بنى أمية على الموالى البلديين والشآميين ؛ ولكن مركز الموالى الإسبان الاجتماعى كان عظيماً ، فقد كانوا سادة فى نواحيهم [١] .

وقد بلغ من اختصاص أمراء بنى أمية هذه البيوت بالوظائف أن كان أفرادها يتنافسون على الوظائف حتى يتحير الأمراء ، ومع ذلك كانوا لا يفكرون فى إخراجها عنهم ، كما حدث أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة ، واضطره كل واحد منهم إلى ألا يولى غيره ، فأخذته ضجرة ، فأقسم ألا يولى واحداً منهم ، وأمر بالإقراع بين الخُزّان ، (خزان الأموال) وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغماز وطاهر بن أبى هارون (وكلهم من أهل بيوت الموالى هذه) ومهران بن عبد ربه لا قديم له ، وكان له به اتصال وهو ولد فخرجت إليه القرعة فولى الحجابة أعواماً .. ثم مات ..» . وقد وضعت خطاً تحت «لا قديم له » لأن ابن القوطية أراد بها أن مهران لم يكن من أهل هذه البيوت القديمة ، وقد كانت توليته الحجابة مصادفة ، ثم عادت بعد ذلك إلى آل غانم ثم إلى آل شهيد وهم من موالى البيت الأموى .

١٨١ - آراء حول أصل ولاء الاصطناع

وقد لاحظ بعض الباحثين شيئاً من التشابه بين « الاصطناع » الذى شاع فى الأندلس الإسلامى ونظام الانتفاع Benefactoria أو Behetoria الذى عرفته الدولة الليونية الأشتورية الإسبانية ، و« البنفاكتوريا » أقرب إلى نظام « الإلجاء » الذى عرفته الدولة الإسلامية فى المشرق ابتداء من القرن الرابع الهجرى ، ومعناه أن يلتجىء مالك صغير إلى مالك كبير و« يلجىء » إليه أرضه ويصبح من أتباعه فى نظير قيام المالك الكبير أو الإقطاعى القوى بحمايته ؛ فكان الرجل يعتبر «لاجئاً » والأرض «ملجأة » ، وهذا بالضبط هو ما يعنيه المصطلح الرومانى Beneficium الذى أصبح فيما بعد لوناً من ألوان الإقطاع الأوروبى . وقد لاحظ ليفى بروفنسال أن صاحب القاموس اللاتينى العربى المعروف بالفوكابيولستا Vocabulista يترجم كلمة Benefacere بلفظ «اصطنع » بل إن لفظ « مولى » انتقل كما هو إلى المصطلح القانونى فى تلك المملكة النصرانية ، فكانوا يقولون Maullatus .

وقد ذهب الذين يُرجعون نظم الدولة الليونية الأشتورية كلها إلى أصول رومانية ، إلى أن مسلمى الأندلس أخذوا نظام الاصطناع عن نظام الولاء الرومانى Patrocinium وهو

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٦٢ .

رأى معقول إذا نحن اعتبرنا الظروف الخاصة التى أحاطت بتكوين النظم الإسلامية فى الأندلس ، فقد يكون أولئك الأندلسيون الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية من الداخلين فى ولاء البيت القوطى ، فلما صار الأمر للمسلمين انتقلوا بولائهم إلى بنى أمية ليحتفظوا بما كان لهم من ميزات اجتماعية واقتصادية . وهذا هو التفسير المعقول لما فعله قسى عندما ذهب إلى المشرق ليدخل فى ولاء الخليفة الأموى مباشرة (١) .

١٨٢ - ملاحظات أخيرة على الموالى فى الأندلس

ومهما يكن من أمر فقد عرف الأندلس الإسلامى فى ذلك العصر نظام الموالى ، وكان هؤلاء أنواعاً وطبقات : منهم موالى رسول الله ﷺ ، وموالى عثمان بن عفان ، وموالى خلفاء بنى أمية ، ثم موالى بعض موالى البيت الأموى مثل مغيث الرومى وموسى بن نصير ، ثم موالى بعض القبائل العربية ؛ وقد كان عددهم جميعاً قليلاً بالنسبة لعدد السكان ، ولكن عددهم كان محترماً بالنسبة لعدد العرب . وقد كان من الممكن أن يظل الموالى فى نفس الوضع الذى كانوا فيه فى المشرق ، ولكن الظروف المضطربة التى أحاطت بالعرب خلال فترة الولاة ، وانصرافهم إلى التحارب فيما بين بعضهم وبعض أعطت هؤلاء الموالى مركزاً ممتازاً ، إذ ظلوا كتلة واحدة يسعى اليمنيون والشآميون إلى كسب تأييدها ، ثم سنحت لهم الفرصة بدخول عبد الرحمن بن معاوية فاجتهدوا فى إقامة دولته ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، ومن ذلك الحين أصبحوا أهل الدولة وأصحاب اليد العليا ، فارتفع بارتفاعهم معنى الولاء فى الأندلس ، وأصبح وسيلة من وسائل علو المنزلة فى المجتمع وعلو المرتبة فى الإدارة ، وأصبح أقرب إلى « الاصطناع » منه إلى الولاء الصرف . وأفاد من ذلك الإسبان الذين نقلوا ولاءهم من البيت القوطى إلى البيت الأموى ، أو الذين دخلوا منهم فى ولاء الأمويين على أساس الباتروسينيوم الرومانى، فاحتفظوا بمكانتهم وثرواتهم وزاد مركزهم قوة كلما طالت بالبيت الأموى الأيام فى الأندلس (٢) .

وسيجرى على اصطناع الموالى كل أمراء البيت الأموى وخلفائهم ، فقد اتخذ كل منهم لنفسه موالى انضموا إلى طبقة الموالى ، حتى المنصور بن أبى عامر اتخذ لبيته موالى عُرِفوا بالموالى العامريين .

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Esp. Mus. III. p. 210 - 213.

(٢) ويؤيد ذلك أن أولئك الموالى أصبحوا يسمون « بالأبناء » أى أبناء بيت الإمارة أو « أبناء نعم الخلفاء » كما يقول ابن القوطية (ص٨٣) ، بل كان كبارهم يسمون خلفاء الأمراء ، وقد كان الواحد منهم يسمى « خليفة » (انظر : ابن القوطية ، ص٦٩) .

وأساس هذا الاختلاف بين وضع الموالى فى المشرق ووضعهم فى الأندلس يرجع إلى الظروف الخاصة التى أحاطت بهذا البلد خلال الفترة التى نتحدث عنها . ولو لم تكن هذه الظروف لظل موالى الأندلس فى نفس وضع أشباههم فى المشرق ، بل ربما تلاشوا كقوة سياسية ، كما كان الحال فى مصر الإسلامية مثلاً . وهذه الناحية تبين الأهمية الخاصة لعصر الولاة ، فلولا ظروفه الخاصة لما كانت نظم الأندلس على النحو الفريد الذى نعرفه ، وسنرى مصاديق ذلك عند دراستنا لنواحٍ أخرى من النظم الأندلسية التى وُضِعت أسسها فى عصر الولاة .

* * *

الفَصْل العَاشر

المجْتَمع الأندلُسى

(٢) المولّدون وَالمستعربُون

تحدثنا فى الفصل السابق عن عناصر السكان التى دخلت الأندلس بالإسلام أو مع الإسلام ، ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبته ، وبدأت فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية صفحة « الأندلس » ذات الحضارة الزاهرة والشخصية الفريدة فى بابها بين صفحات التاريخ . تحدثنا عن العرب والبربر والموالى ، وقصرنا الكلام عنهم على فترة التأسيس التى تعنينا فى هذا الكتاب . وبقى الآن أن نتكلم عن الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس : المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

١٨٣ - إسبانيا فى النطاق الغربى قبل دخول العرب

وسنرى فى سياق كلامنا على هذين العنصرين أن الإسلام والعروبة قد أثرا فيهما تأثيراً لا نكاد نجد له مثيلاً فى غير الأندلس مما دخل فى رحاب الإسلام ، فهذا الشعب الايبيرى الذى دخل عليه المسلمون كان قبل دخولهم شعباً أوروبياً نصرانياً فى غالبيته العظمى ، يضم مجموعات قليلة من اليهود ، وكان داخلاً فى نطاق الغرب الأوروبى الذى نشرت فيه روما حضارتها ولغتها ، وكان متجهاً بإيمانه نحو روما عاصمة المسيحية الغربية ، وكان يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية [١] ، ويتحدث لغة رومانية ايبيرية يغلب عليها الطابع الرومانى ، سماها العرب لأول سماعهم إياها بالعجمية أو عجمية أهل الأندلس ، وعندما زادت معرفتهم بها سموها اللطينية [٢] . وكان هذا الشعب – نتيجة لذلك كله – يدور فى فلك الحضارة الغالبة على غرب أوربا إذ

(١) انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : La Iglesia en la Espana Visigoda (en Historia de Espana dirigida por RAMON MENÉNDEZ PIDAL) tomo III. pp. 265. sqq.

(٢) انظر : RAMON MENÉNDEZ PIDAL : Origenes del Espagnol (3a. éd. Madrid, 1950.)
مقدمة الكتاب ، حيث يقول إن اللغة التى كان يتكلمها أهل إيبيريا قبل القرن الحادى عشر الميلادى لا يمكن تعرفها إلا على وجه التقريب ، نظراً لقلة الأصول التى يعتمد عليها ، وكل ما يمكن قوله إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط، أما بقيتها فكانت لهجات مختلفة من اللاتينية العامة Latin Vulgar . ولا زالت الدراسات مستمرة لتعرف هذه اللغة . انظر : ISIDIRO DE LAS CAGIGAS. Los Mozárabes (Madrid, 1947) p. 58 - 59 Y nota 42 p. 73.

ذاك ، وهى حضارة لاتينية متأثرة بما حملته جماعات المتبربرين إلى غرب أوروبا من ثروة لغوية جرمانية تختلف من قبيل لقبيل ، ونظم سياسية جرمانية بدائية كان لها أبعد الأثر فى تكوين النظم السياسية وقواعد القانون التى جرت عليها ممالك الجرمان جميعاً فى غرب أوربا فيما بعد [١] .

١٨٤ - طبيعة حركة الامتداد الإسلامى

ثم دخل المسلمون هذه البلاد : لم يدخلوها كما دخل القوط سادة حكاماً يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظاً على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيبة سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الإسلام فى عالم القرن السابع الميلادى . وإنه لمن مخالفة الواقع مخالفة مقصودة أن يقال إن امتداد الإسلام كان حركة فتوح أو غزوات ، أو أنه كان إنشاء لامبراطورية سياسية يسودها جنس بعينه ، وإنما كان فى الواقع حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً ، فلا يكاد الإسلام يقبل على بلد حتى يستيقظ أهله ويهبُّوا ليحملوا رايته بأيديهم. فقد فتح عرب الجزيرة الشام والعراق ومصر ، ثم انتقلت الراية -فيما يتصل بنا هنا - إلى الشام ، ففتح الشام المغرب ، ثم فتح المغرب الأندلس . وكان العرب يقومون فى تلك الحركة كلها بدور الدافع الأول أو المحرك الأول ، فلا تزال هذه الشعوب تنظر إليهم وتلتفت بقلوبها نحوهم ، لا على اعتبار أنهم شعب بعينه ، بل على اعتبار أنهم رمز الحركة كلها ، فصاحب الدعوة ورسولها عربى ، وكتاب الدعوة ودستورها - وهو القرآن - عربى، والمثل الأخلاقية التى أدت إلى النصر عربية .

ومهما كان حكمنا اليوم على المثل الأخلاقية الجاهلية ، فلا نزاع فى أنها بدت لأهل هذه الأعصر شيئاً عظيماً شديد الجاذبية ، ولا نزاع كذلك فى أن العربى الذى حمل عبء الفتح الأول ، وشارك فى بقية الفتوح ، وهاجر إلى البلاد - المفتوحة ، كان - مهما حكمنا على تصرفاته الشخصية فى تلك البلاد - شخصاً ممتازاً جديراً بأن يقلد ، فقد كان على الجملة شجاعاً لا يهاب شيئاً ، دءوباً لا يمل السعى ، كريماً لا يضن بذات يده ، عنيفاً -إذا استثيرت عواطفه - عنفاً جاهلياً كان أهل تلك الأيام يرون فيه صورة جميلة من صور الرجولة . وكان إلى جانب ذلك رقيقاً تهفو نفسه إلى كل ما هو رقيق جميل ، حتى لقد يحركه

(١) سندرس هذه الناحية فيما بعد .

بيت من الشعر إلى ما لا يحركه إليه الخطر الداهم (١) .

وكان ألُوفاً بسيطاً لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم، وتمتزج دماؤهم بدمائه ويشركهم فى أصله وحسبه . وكان رغم أصله البدوى القاسى يحب اللين والترف ويستطرف الجمال فى شتى صوره ، ويستطيب الحياة الناعمة ، ومن ثم فإننا نجد هذا العربى الذى أشعل الأندلس ناراً ، كما رأينا ، لم يخرب ما نزل به من مدائن ، وما مر به من منشآت . فعلى الرغم مما رأينا ، من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض ، وإسرافهم فى الخصومة على هذا النحو الذى رأيناه ، ظلت المدن التى نزلوها قائمة عامرة تدور الحرب بظواهرها أو بعيداً عنها وهى آمنة ، بل هم اعتبروا هذا الصراع أمراً خاصاً بهم لا شأن لأهل البلاد به ، فلم يؤذوهم أو يسيئوا إليهم.

ومن أعجب ما يقرأ الإنسان فى حوليات هذه الأيام أن الصميل بن حاتم ، هذا البدوى الجافى ، على ما رأيناه من عنفه وجاهليته وقسوته على خصومه من العرب ، ذهب إلى أرطباس كبير عجم الأندلس على أيامه فى رفقة عشرة من رؤساء عرب الأندلس ومواليهم ليطلب إليه أن يمنحهم شيئاً من الأرض ، ولقد حاوره أرطباس محاورة ند لند ، بل أخذ يُقَرِّعه ويقول له : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر علىَّ بر من بررت !» ثم مضى يلقى عليه درساً فى الإيمان فقال : « إنكم بإكرامكم [من أكرم] الله ، إنما تكرمونه عز وجل . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم اللهُ من عباده ، وجبت كرامته على جميع خلقه» .ثم يعلق ابن القوطية على ذلك بقوله : « فكأنما ألقمه حجراً ! ثم «وهبهم» مائة ضيعة ، صار لكل واحد منهم عشر

---

(١) مثال ذلك أن أبا الخطار كتب إلى هشام بن عبد الملك بأبيات جعلته يغير سياسته نحو اليمنية ، مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ الأندلس فى هذه الفترة ، وهذه الأبيات هى :

أفأتم بنى مروان قيساً دماءنا	وفى الله - إن لم تنصفوا - حكَم عدلُ
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط	ولم تعلموا من كان ثَم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا	وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا	وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا	بلاء وأنتم - ما علمتُ - لها غُفل

.... إلى آخره .

قال ابن القوطية : « ولما وردت الأبيات منه ولى حنظلة بن صفوان الكلبى على إفريقية ، وأمره أن يولى عمه أبا الخطار الأندلس ....»

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٨-١٩ .

ضياع»(١).

فهذه صورة من المعاملات بين العرب « الفاتحين » وأهل البلاد ، وإذا كان هذا هو موقف الصميل ، على عتوه وجبروته ، فمن باب أولى يكون التعامل بين عامة العرب وعامة الناس أبسط وأقرب إلى التعامل بين ناس لا يختلف أحد منهم عن أحد بشىء. وبرهاننا على ذلك أن نفس الخبر يقص أن واحداً من كبار صالحى العرب ، وهو ميمون العابد ، أتى ليطلب من أرطباس أن يعطيه ضيعة من ضياعه يعتمرها بيده ويؤدى إليه الحق عنها ويأخذ الحق ، فقال له أرطباس : « لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة » ودعا بوكيل له فقال له : « ادفع إليه المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من الغنم والبقر والعبيد وادفع إليه القلعة بجيان ، وهى المعروفة بقلعة حزم ، فملكها...» (٢).

١٨٥ - العرب وأهل البلاد وإذن فلم يستقر العرب فى الأندلس سادة مترفعين ، وإنما نزلوها ناساً عاديين يطلبون العيش فى سلام إلى جانب أهل البلاد . وربما كان هذا السلوك العربى أثراً من آثار البيئة الأندلسية فيمن نزلها من العرب والبربر ، فقد كان الإيبيريون الرومان شعباً مسالماً مجداً حسن العشرة ، لم يلبث أن أنس إلى العرب وأنسوا إليه . ولدينا صورة طريفة جداً عن الحياة العائلية فى بيوت العرب بعد أن اتخذوا النساء من أهل البلاد ، قال صاحب « الأخبار المجموعة » فى أخبار عبد العزيز بن موسى : « ثم إن ابنه عبد العزيز تزوج امرأة للذريق يقال لها أم عاصم ، فَهَمَّ بها ، فقالت له : إن الملوك إذا لم يتتوجوا فلا ملك لهم ، فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندى من الجوهر والذهب تاجاً ؟ فقال لها : ليس هذا فى ديننا ! فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه فى خلوتك ؟ .. فلم تزل به حتى فعل . فبينا هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذ دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد ابن النابغة التميمى ، من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال : ليس فى ديننا استحلال لباسه ، فقالت : فو دَينِ المسيح إنه لعلى إمامكم! فأعلم بذلك زيادٌ حبيبَ بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به حتى علمه خيار الجند ، فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا : تنصر ! ثم هجموا عليه فقتلوه ...» (٣).

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

وربما تكون يد القصّاص قد فعلت فعلها فى هذا الخبر ، ولكن مغزاه فى جملته عظيم القيمة ، فهو يدل على روح المودة العائلية التى كانت تسود بيوت العرب بعد استقرارهم فى الأندلس واتخاذهم النساء من أهل البلاد ، وهو كما رأينا جو عائلى فيه ألفة وفيه محبة وفيه دعابة ذات معان عظيمة بالنسبة لمن يؤرخ لذلك المجتمع العربى الأيبيرى ، أو الأندلسى بتعبير أصح ، الذى نشأ عن الفتح الإسلامى للبلاد[(١)].

١٨٦ - التزاوج بين العرب وأهل البلاد لقد اتجه اهتمام خليان ريبيرا ، عندما أراد دراسة موضوع التزاوج بين المسلمين وأهل البلاد ، إلى الجوارى ، ومضى يلتمس فى مجموعات الوثائق المستعملة - كمجموعة أبى جعفر أحمد بن محمد بن مغيث - نصوصاً تثبت إقبال العرب على شراء الجوارى الجليقيات والقطلونيات ومن إليهن[(٢)] ، ولكن فاته أن الزواج بالجوارى كان قليلاً بالأندلس ، فقد كن غاليات الثمن فى تلك البلاد . قال الإصطخرى : « والذى يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجوارى المثمنات ، تأخذ الجارية والخادم عن غير صناعة على وجوهها ألف دينار وأكثر »[(٣)] . ولم يكن يستطيع دفع هذا الثمن إلا القليل، أما بقية العرب والبربر فكانوا يصاهرون أهل البلاد مصاهرة عادية كالذى رواه ابن القوطية عن زواج سارة القوطية ابنة المُنْذُ بن غيطشة ، من تزويج هشام بن عبد الملك إياها من عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفى عنها فى العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حَيْوَة بن ملامس المذحجى وعمير بن سعيد اللخمى ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سِيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجُرز ، وهؤلاء أشراف ولد عمير بإشبيلية ، إذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء ، وهذا الخبر فى كتاب عبد الملك بن حبيب فى فتح الأندلس فى أرجوزة تمام بن علقمة الوزير أو أكثره »[(٤)] .

(١) JULIAN RIBERA Y TARRAGO, Disertaciones Y Opúsculos (Madrid 1928) tomo I. p. 122.

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥ وما يليها .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالإصطخرى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه ، ليدن ١٩٢٧ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح، ص ٦ .

ولقب بنى حجر الوارد هنا : الجُرز ، يغلب أنه لفظ عجمى : el gordo ، أى : السمين . وبنو سيد الوارد ذكرهم فى النص يمكن أن تكون صحة اسمهم بنو سعيد .

وإذن فقد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الإسلام بين أهل الجزيرة . ومن الواضح أن المسلمين لم يحاولوا إرغام الناس على دخول الإسلام ، لا عن عدم اهتمام بنشر الإسلام ، أو عن كراهة لانتشار الإسلام بسبب إضراره ببيت المال كما يقول ليفى بروفنسال(١) ، بل لأن هذا كان أسلوب العرب الذى جروا عليه فى نشر الإسلام فى كل بلد دخلوه : كانوا - على الأغلب - يدعون الناس حتى يتبينوا فضائل الإسلام بأنفسهم ويدخل منهم فيه من يريد ، بل ليس صحيحاً أن الجيوش الفاتحة لم تكن تعنى بالدعوة إلى الإسلام ، لأن الحقيقة أنها كانت تضم دعاة للدين ، بل كان الفاتحون أنفسهم يحرصون على إدخال الناس فى الإسلام ، ومثال ذلك : « أن الناس قحطوا بإفريقية عاماً فخرج [موسى ابن نصير] فاستسقى ، فأمر رجلاً فقص على الناس ورقّقهم ، فجعل يذكّر ... » (٢).

وذكر أن عقبة بن الحجاج السلولى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويبشره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يده بذلك الفعل ألف رجل» (٣).

ولا نملك من النصوص ما يمكننا من تتبع انتشار الإسلام فى الأندلس ، ولكن ابن القوطية وابن عذارى يؤكدان انتشار الإسلام وقوته فى الأندلس فى أول ولاية السمح بن مالك (١٠٠هـ/ ٧١٩م) ، قال ابن القوطية : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد إلى السمح بإخلاء الأندلس من الإسلام ، إشفاقاً دخل عليهم (كذا) إذ خشى تغلُّب العدو عليهم ، فكتب إليه السمح بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلهم ، فوجه حينئذ جابراً مولاه ليخمس الأندلس .. » (٤).

أما ابن عذارى فيقول إن السمح كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « إن الناس قد

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de L'Espagne Musulmane (2e. éd. Paris, 1950) tome I, p. 74.
وقد قال ذلك أيضاً فى كتابه عن « إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر » ص ٣٢-٣٣ .

(٢) انظر القطعة التى أوردها خليان ريبيرا بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ويغلب أنها مقتطعة من « الإمامة والسياسة » ، ص ١٨٤ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، طبعة محيى الدين ، جـ٤ ، ص ١٨ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .
والعبارة التى كتبنا إلى جوارها (كذا) يمكن تقويمها : إشفاقاً [مما] دخل عليهم ...

كثروا بها وانتشروا فى أقطارها ، فأضرب عن ذلك »[١]، والمراد بالناس هنا المسلمون. ثم إن الأندلس يبدو لنا ، عند دخول عبد الرحمن الداخل ، بلداً إسلامياً استبحر الدين واستقرت قواعده فيه ، وتلك ظاهرة فريدة فى بابها ، فإن الفتح الإسلامى للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن ، ومع ذلك فهى حقيقة واقعة لا مناص من قبولها وانتظار ما عسى أن نعثر عليه من نصوص تفسرها وتقدم لنا تفاصيلها .

١٨٧ - عجم الأندلس وقد كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعاً اسم العجم أو عجم الأندلس ، وربما أطلق اسم الروم ومفرده رومى ، وإن كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال . فلما تمكن سلطان المسلمين أصبحوا يسمون عجم الذمة أو الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان لهم عهد منهم سموا المعاهدين ومفرده المعاهد ، وربما قالوا المعاهدة من النصارى أو النصارى المعاهدون : أما اليهود فكانوا يسمون اليهود فقط أو الذميين[٢].

فلما بدأ أهل البلاد يدخلون فى الإسلام أطلق على من أسلموا منهم المسالِمة - مفرده مُسالِم - أو الأسالمة - مفرده أسلمى - ثم أطلق على أولادهم الذين نشئوا على الإسلام اسم المولَّدين - مفرده مولَّد - واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية فى الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز[٣].

١٨٨ - خطأ تسميتهم بالمستعربين أما لفظ « مستعرَب » ، وجمعه مستعرَبون ، فلم يظهر فى النصوص أو الكتابات الرسمية إلا فى زمن متأخر على خلاف ما يظن ، وربما كان اللفظ جارياً على الألسن فى اللغة الدارجة ، كما نقول نحن « إفرنجى » فإذا كتبناه قلنا فرنسى أو إنجليزى أو أوربى أو أمريكى . ودليلنا على ذلك أن اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وأهل الأدب ومن إليهم ، ولكنه ظهر فى وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم فى كتابات

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب (الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٤٨) ، ص٢٦ .

(٢) انظر البيان الذى أورده سيمونيت :

FRANCISCO JAVIER SIMONET, Historia de los Mozárabes de España (Madrid, 1897 - 1903) pp. VII- IX del Prólogo.

(٣) انظر : سيمونيت : نفس المصدر ، ص١٦ من المقدمة .

LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd.) I. pp. 74 - 75.

نصـارى الأندلس سـواء باللاتينية أو الإسبانية القديمة (عجمية الأندلس) ابتداء من القرن الحادى عشر أيضاً .

ففى الوثائق اللاتينية كانوا يقولون :Castellanos, Mozárabes atque Francos ، وذلك تمييزاً للنصارى الأندلسيين من أهل النواحى التى استولى عليها ملوك إسبانيا النصرانية عن القشتاليين والفرنجة وهم المهاجرون إلى إسبانيا النصرانية من أهل غالة ، ممن أقبل للاشتراك معهم فى حرب المسلمين ، ثم استقر فى النواحى التى استغلبها النصارى وأصبح من أهلهـا . وكان ملوك النصـارى يميزون رعاياهم من القشتاليين وحلفـاءهم من الفرنجة عن نصارى الأندلس الإسلامى الذين دخلوا فى طاعتهم . فقد كان أولئك الأخيرون مستعرَبين ثقافة ولساناً وأسلوب حياة ، وكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم المسماة El Rito Mozárabe ، وكان لهم رجـال دين خاصـون بهـم يقيمون صلواتهـم على أسلوب خاص وبلغة خاصة هى عجمية أهل الأندلس ، وهى خليط من الايبيرية الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة والقوطية والعربية ، ثم ألغيت هذه الطقوس فيما بعد ، وفرضت الطقوس الكاثوليكية واللغة الكاثوليكية على نصارى إسبانيا جميعاً .

ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على ألسن نصارى الأندلس فقط ، وأن استعمالها فى إسبانيا النصرانية لم يبدأ إلا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها إسبان نصارى مستعربون ، لأن إحدى الوثائق التى صدرت عن الامبراطور ألفونسو السابع حوالى سنة ١١١٨ تقول : quos vacabunt Mozárabes (= الذين يسمون مستعربين) ، وفى خطاب وجهه البابا يوجين الثالث إلى أهل طليطلة سنة ١١٤٦م (سقطت طليطلة فى أيدى النصارى سنة ١٠٨٥م) يقول : quidam Muzárabes Noncupantur (= أولئك الذين يسمون مستعربين) ، وجاء فى تاريخ حياة القديس تيوتونيوس Teotonius التى كتبت فى نفس العصر : quandam christianorum gentem quos vulgo mozárabes vo- cant (= وأولئك النفر من المسيحيين الذين يسمون فى اللغة الدارجة مستعربين) وفى منشور صدر عن الامبراطور ألفونسو السابع إلى أهل وادى الحجارة سنة ١١٣٣ يقول :

ad vos totos christianos Muzarabis quos ego traxi cum Dei auxilio de potestate sarracenorum...

(= إليكم يا جميع النصارى المستعربين الذين استخلصتهم بفضل الله من سلطان العرب) . ونصوص ذلك العصر كله تفرق بينهم وبين نصارى قشتالة والفرنجة تفريقاً واضحاً كما رأينا ، بل كانت النصوص تؤكد اختلافهم عن بقية النصارى فى طقوس العبادة ، بسبب اختلاطهم بالعرب واستعرابهم ، فقد جاء فى كتاب عن الراهب شيمينيوس أسقف طليطلة:

Ergo ejusmodi homines quod arabibus permixti viverent Mistárabes appelati sunt et illorum ecclesiasticus ritus officium Mistárabum

(= ولهذا يسمى الناس الذين عاشوا مع العرب مستعربين ، وطقوسهم الكنسية تسمى الطقوس المستعربية) [١].

وخلال القرن الثانى عشر ظهرت الكلمة فى وثائق النصارى الأندلسيين فى البلاد التى استولى عليها النصارى ، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية ، فكانوا يقولون مثلاً : « دون يوان مستعرب » (= السيد خوان - أيام العرب كان يسمى يحيى - المستعرب) . وفى بعض الأحيان كانت الكلمة تكتب بصيغتها العجمية ، مما يدل على أن اللفظ لم يكن يكتب قبل ذلك بالعربية ، فقد جاء فى إحدى الوثائق « دون يوان - مستارَب » . ولكن الأغلب أن ترد الكلمة فى هذه الوثائق فى صورتها العربية الصحيحة: « دون بِطْرُه بن مرتين مستعرب » و«دون لب بن بيطره مستعرب » و«..من كبار مدينة طليطلة من المدرجين والمستعربين والقَشْتَلَنين » و « دون دُمِنْقُه (Domingo) ابن بيطره الذى كان أميناً للحصارين » . بل كانوا يستعملون اللفظ فى صيغته الإسبانية : « .. بقرية عين الديك المسماة ببال دى مستعربِشْ فى شِشْلة مدينة طليطلة » ، أى أن قرية عين الديك كانت تسمى Val de

(١) أورد هذه النصوص كلها سيمونت فى مرجعه الذى أشرنا إليه (ص ٨ وما يليها من المقدمة) .

وقد جرت عادة المؤرخين المحدثين على تسمية أهل الذمة من النصارى الذين عاشوا فى ظلال الحكم الإسلامى بالمستعربين ، وهى تسمية خاطئة كما رأينا . وأول من وقع فى ذلك الخطأ هو سيمونيت نفسه ، فإنه لم يعن بدراسة تاريخ هذا اللفظ ، وإن كان هو صاحب الفضل فى اكتشاف أصله العربى ، فقد كان الناس قبله فى حيرة من هذا الأصل ، وجعله بعضهم محرفاً عن Mixtarabes أى المختلطين بالعرب . ونلاحظ أننا نقرأ اللفظ « مستعرِب » بكسر الراء وصحته بفتحها ، لأن أهل الأندلس كانوا يقولون « موزاراب » لا موزاريب . وقد جرى على نفس الخطأ فسمى نصارى الأندلس الإسلامى مستعربين ليفى بروفنسال وإيزيدورو دى لاس كاخيجاس وبقية مؤرخى إسبانيا الإسلامية من الأوربيين . وقد عنينا نحن هنا بالبحث عن هذا اللفظ فى كتب المسلمين فلم نجده ، فرجح لدينا أنه كان لفظاً دارجاً جرى على ألسنة الناس فى الأندلس للدلالة على الذميين الذين استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وأنه لم يظهر فى الكتابات إلا من القرن الثانى عشر الميلادى أو أواخر الحادى عشر على الأكثر : ظهر فى الكتابات اللاتينية أولاً ثم انتقل إلى كتاب الإسبان أنفسهم كما هو وارد فى النص .

Mozárabes (وادى المستعربين) فى ناحية طليطلة (١).

وإذن فلفظ مستعرَب لم يستعمل عند عرب الأندلس بصورة رسمية ، وإنما كان الجارى قولهم: « العجم » أو « النصارى » أو « نصارى الذمة » ، تفريقاً لهم عمن أسلم منهم حديثاً (الأسالمة والمسالمة) أو أبناء هؤلاء (المولدين) . فابن حيان يقول : «حصون المسالمة والنصارى » و « تحزبت المسالمة مع المولدين » وابن الأبار يقول : «فصب على المولدين والعجم منه » .

ويبدو أن الاستعراب كان يسبق الإسلام فى معظم الحالات ، فقد اختلط العجم بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم فى الحياة ، ثم كان يسلم منهم من يسلم شيئاً فشيئاً ، بل كان بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفوقاً فى العربية ، بل منهم من تفوق فى الفقه ، فقد جاء فى « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضى فى ترجمة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، من أهل إشبيلية أنه كان « من مسالمة الذمة ، فملأ إشبيلية علماً وبلاغة ولساناً ، حتى شرقت به العرب ، فلما حدثت الثائرة بينها وبين الموالى قتل يومئذ ، وذلك سنة ٢٧٦» (٢).

وكان هذان الفريقان : أهل الذمة والمسالمة ، ثم أبناؤهم من المولدين ، يُكوِّنون معظم سكان الأندلس ، ابتداء من نهاية الفترة التى نتحدث عنها . وكان عدد أهل الذمة أكثر بكثير من المسالمة والمولدين أول الأمر ، ثم لم يزل عدد هؤلاء الأخيرين يزيد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس .

١٨٩ - المسالمة والمولدون فأما عن المسالمة والمولدين فواضح من النصوص أنه لم يكن هناك فرق ما بين وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين أصلاً ، فقد كان الذمى إذا أسلم انتقل إلى وضع المسلمين دون تفريق أو تمييز ، وهذه ظاهرة أخرى يختلف فيها الأندلس عن سائر نواحى الدولة الإسلامية ، بل ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعنوة . نعم شرع بعض الولاة فى إحصاء نواحى الأندلس وتعرف ما فتح منها صلحاً وما فتح عنوة ، كما سنرى ، ولكن هذه العمليات لم تتم ، وبقى الحال فى الأندلس مبهماً فى هذه الناحية ، فأصبح غير المسلمين كلهم ذمة دون تمييز ، ومن أسلم منهم دخل المجموعة الإسلامية ، وتلاشى كل شىء يتصل بأصله تماماً .

---

(١) F. J. SIMONET, op. cit. pp. XIV - XV.

(٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ترجمة ٦٤٧ .

وربما كان السبب فى ذلك هذه القلقلة التى سادت عصر الولاة كله ، فلم يتسع وقت الولاة لتنظيم شىء أو لتحديد وضع ، فسارت الأمور على عواهنها ، وسنرى مصاديق ذلك فى كلامنا عن الإدارة والمال فى الفصل التالى ، وستبين أن ذلك كان من حسن حظ الأندلس ، ورب ضارة نافعة ! فلو أن « جهبذة » الولاة والعمال عملت فى هذا البلد عملها الذى عملته فى غير الأندلس من بلاد الإسلام لما أسلم أهله واستعربوا بهذه السرعة ، ولما كانت لأهله هذه الصفحة المشرقة فى تاريخ الإسلام .

وربما كانت الجماعات الأولى من أولئك الذين أسلموا من العبيد ورقيق الأرض ، فقد رأينا أن إسبانيا القوطية ضمت من الأولين آلافاً كثيرة ، ثم إن حالة رقيق الأرض كانت من السوء بحيث بدا الإسلام لأولئك الناس وكأنه خلاص من المتاعب والشقاء . وسنرى أن الجبايات فى الأندلس كانت أخف بكثير من مثيلاتها فى الأمصار الأخرى ، وأن أهل الأرياف كانوا أحراراً ، سواء أسلموا أم لم يسلموا ، وأنهم تمتعوا فى ظل هذا العهد الجديد الذى طلع عليهم بأمان ورفاهية لم تعرفها أوروبا إلى أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل .

١٩٠ - رأى بروفنسال

كان أولئك المسالمة والمولدون إذن من طبقات اجتماعية شتى قبل إسلامهم ، كان منهم العبيد ورقيق الأرض والزراع وأهل المدن بشتى صنوفهم : الأشراف والأوساط وأهل الأسواق ، وكان فيهم موالٍ وغير موالٍ ، فتساووا جميعاً فى رحاب الإسلام . وجدير بنا أن نلاحظ أن الأندلس لم يعرف التشدد والتعصب حتى إمارة الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، عندما قامت دولة الفقهاء وتسلطوا على العامة ونصبوا أنفسهم حكاماً إلى جانب الأمراء .

ويؤيد الأستاذ ليفى بروفنسال ما ذهبنا إليه من إقبال أهل الجزيرة على الإسلام ويقول : «وقد أصبح نفر من أبناء أولئك المسلمين الجدد من مياسير أهل الطبقة الوسطى ، بل منهم من أصبحوا سادة أغنياء عن طريق التجارة أو الزراعة ، وقد مضوا فى هذا المضمار حتى غاب عنهم أن أجدادهم كانوا مستقرين فى إسبانيا قبل الإسلام بزمن طويل ، وذهب بعضهم إلى ادعاء نسب عربى - دفعوا فى تلفيقه مالاً كثيراً - يسمح لهم بالزهو بأنهم من أصول عربية ، واحتفظ بعضهم بعد إسلامهم بأسمائهم القديمة ، وظلوا يعرفون بها مثل

بنى أنجلين Angelino وبنى شَبَرِيقُ Savarico الإشبيليين ، وفيما بعد ذلك بزمن طويل ، بنى لُنْقُ Longo وبنى القَبْطُرنُه Kabturno وآخرين كثيرين .

ولقد فخر أحـد مؤرخى إسبانيا الإسـلامية ، وهو ابن القوطيـة ، الذى عاش فى القـرن العاشر الميلادى ، بأصله الذى يرجع به إلى بيت الملك غيطِشَة ، وهذا هو السبب فى تلقبه بابن القوطية . ولكن الذى كان يحدث فى غالب الأحيان أن التزاوج بين المولَّدين والمسلمين الداخلين كان يقضى عند بيوت هؤلاء المولدين على ذكريات أصولهم الإسبانية البعيدة . وقد حدثت على عجل حركة اختلاط بشرية واسعة المدى بين عناصر سكان أهل الجزيرة الأندلسية، وأصبح من العسير شيئاً فشيئاً تمييز أهل البلاد الأصليين من الداخلين عليهم » .

« ومهما يكن من أمر فإنه – حتى فى حالة أولئك الإسبان الذين تخلوا عن دين آبائهم واتخذوا أسلوب حياة المسلمين الداخلين ، واندرجوا فى نطاق نظامهم الاجتماعى – لم يفقد المولدون أبداً شخصيتهم الخاصة بهم ، وإنه ليرجع إلى وجود أولئك المولدين فى ذلك البلد – ووضعه متطرف وجزرى منعزل بالنسبة لبقية بلاد الإسلام – أن تميز الأندلس فى نواح كثيرة بأنه قطعة فريدة فى بابها فى عالم الإسلام ، سواء أكان ذلك التفرد فى صور حياته السياسية أو كان فى مثله الأعلى الحضارى والثقافى .

ومن المهم ألا ننسى أنه ابتداء من القرن الثامن (الميلادى) أو التاسع على الأكثر ، حتى القرن الخامس عشر ، لم تكن اللغة العربية قط هى اللغة الوحيدة المستعملة فى الأندلس ، وأنه كانت هناك عناصر كثيرة من سكانه تتحدث بلهجات دارجة عجمية مشوبة بالايبيرية والعربية ولكنها مشتقة قبل كل شىء من اللاتينية ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنه إلى عصر متأخر من عصور التاريخ الأندلسى ، غلبت على ألسنة أهل الأندلس رطانة عامة إسبانية (١) فى كل مكان تقريباً ، وتحدث بها الناس أكثر مما كانوا يتحدثون بالعربية ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك أظهر فى الأرياف منه فى المدن ، وقد غلبت هذه الرطانة بصورة أوضح على اللهجات البربرية»(٢).

---

(١) استعمل المؤلف هنا لفظ κόίηε اليونانى . والكوينيه كانت لغة دارجة مستعملة فى البلاد التى على شواطىء البحر الأبيض كلها ، وكانت جارية على ألسن التجار والملاحين فى نواحى هذا البحر كلها .

(٢) LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane (2e. éd.) Paris, 1950 Vol. I, pp. 76 - 77.

وقد علق المؤلف على هذه العبارة فى الهامش بالإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من قول ابن حزم أن عرب دار بلى =

١٩١ - آراء في أجناس سكان الأندلس

وفى موضع آخر من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » يقول ليفى بروفنسال : «وتعطينا عبارة لم تنشر بعد لمؤلف أندلسى نجهل اسمه ، أوردها فى سياق رسالة قديمة عن كبار بيوت أهل فاس [1] بياناً بالغ الغرابة عن التكوين البشرى للمجتمع الأندلسى وعن اختصاص كل عنصر من العناصر التى كان يتألف منها السكان المسلمون فى الجزء الذى ساده الإسلام من شبه الجزيرة فى نهاية الخلافة بشىء من الأعمال الزراعية أو الصناعات اليدوية : ويمكن تقسيم هؤلاء السكان بناء على ما ذكره ذلك المؤلف المجهول إلى أربعة أجناس : البربر الذين دخلوا الأندلس من المغرب أو إفريقية ، وأهل البلاد من النصارى الذين دخلوا الإسلام ، واليهود الذين أسلموا ، ثم - بطبيعة الحال وفى المكان الأول - العرب ، ويضمون الهاشميين وبقية العرب الذين هاجروا إلى الأندلس من جزيرتهم بكل جراثيمهم (= أصولهم). وقد انضافت لكل من هذه الأجناس جماعات من الموالى » .

« واستناداً إلى المعلومات التى يوردها هذا المؤلف ، كان العرب الذين دخلوا إسبانيا من الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو ليبية أو إفريقية وحتى من السوس الأقصى ، يتجمعون فى المدن الكبيرة ، حيث كانوا يتجنبون قدر المستطاع الاشتغال بالحرف البسيطة ويحتلون أعلى الوظائف فى خدمة الدولة أو القضاء ، واشتغل بعضهم بالتجارة أو عنوا

= شمالى قرطبة كانوا إلى عصره لا يتحدثون « اللطينية » (الجمهرة ٤١٥) مما يدل على أن ذلك الفريق من العرب كان شيئاً نادراً .

(١) اسم هذا الكتاب « ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم » ، وقد ألف فى القرن الخامس عشر . انظر :
LÉVI - PROVENÇAL : Islam d'Occident. I p. 39 note 45.

وتوجد نسخة من هذا المخطوط فى المكتبة الشريفية فى رباط (رقم ١٣٩٤) والنص المشار إليه فى الورقة ٢١ .

وإليك نص التعليق الذى يشير إليه بروفنسال فى هذا المرجع: ورد هذا المخطوط من مكتبة البعثة العلمية القديمة فى مراكش ، وهو موجود فى المكتبة الشريفية فى رباط تحت رقم د ١٣٩٤ (D. 1394) وقد نسب هذا المؤلف الصغير إما إلى عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٠هـ / ١٦٨٠م - انظر عنه كتابى (كتاب بروفنسال) تاريخ الشرفاء Historiens des Chorfa. pp. 264 - 265. - أو إلى أبى الوليد إسماعيل بن الأحمر مؤلف كتاب « روضة النسرين » المتوفى فى فاس عام ٨٠٧ / ١٤٠٤ - ١٤٠٥ . ويبدو أن نسبة الكتاب إلى المؤلف الثانى أقرب إلى المعقول ، بشرط أن يُفهم أن الإشارات المتعلقة بحوادث وقعت بعد وفاة ابن الأحمر قد أضيفت فيها بعد، وهى إشارات كثيرة تتعلق بحوادث القرن التاسع الهجرى. انظر : عبد الحى الكتانى : فهرس الفهارس ، فاس سنة ١٣٤٦ للهجرة ، جـ١ ، ص١٠١.

Actes du VIIIe. Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, dans Hespéris, t. XIX. 1934 p. 196.

وقد اطلعنا على هذا المخطوط والفقرة المشار إليها وأبدينا آراءنا فيها فى المتن .

باستثمار أراضيهم . وليس فى هذه العبارة - أى عبارة المؤلف الأندلسى - شىء جديد لم نكن نعلمه . ويكفى أن نلقى نظرة على خريطة توزيع السكان فى الأندلس فى القرن التاسع ، لكى نتبين أن المهاجرين العرب لم يعقدوا صفقة خاسرة عندما استقروا فى الأندلس فى المناطق الأوفر غنى أو الأكثر خصباً أو التى حبتها الطبيعة بخيراتها من الجزء الساحلى والذى يليه إلى الداخل فى جنوبى الجزيرة أو شرقها . فقد كانوا يختصون أنفسهم فى هذه النواحى بأحسن الأراضى ، ويضمنون لأنفسهم بذلك دخولاً تسمح لهم بالعيش عن سعة سواء فى ممتلكاتهم ، أو - وكان هذا هو الأغلب - فى عواصم النواحى أو فى كبار المدن ، وخاصة إشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، وحتى فى العاصمة (قرطبة) فى القرن العاشر ، إذ اجتذبتهم إليها لطائف الحياة المترفة التى كان يحياها أشراف قرطبة حول بلاط الخليفة...»[١].

وقد عاد بروفنسال ففسر كلام ذلك المؤلف الأندلسى وذهب إلى أن سكان الأندلس يُقسَّمون ، بناء على ذلك الكلام ، كما يلى :

(ا) أبناء الإسبان الذين دخلوا فى طاعة المسلمين صلحاً ودخلوا فى الإسلام وأقاموا فى مواضعهم التى كانوا فيها .

(ب) أبناء الإسبان الذين دخلوا فى طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا وأقاموا فى مواضعهم .

(جـ) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء أسرى النصارى الذين أتت بهم الفتوح والغزوات ، ثم اعتنقوا الإسلام واستقروا نهائياً فى الأندلس [٢].

ثم قال : « إن هذا التقسيم يبدو مطابقاً للواقع إذا عرفنا أن دخول الإسلام لا يستتبع من تلقاء نفسه المساواة فى الحقوق الكاملة بين من أسلموا صلحاً ومن أسلموا عنوة . وعلى أى الأحوال ، فقد اقتصر أولئك المسلمون الجدد - الذين كانوا يُعرفون كما رأينا بصورة عامة بالمولدين والمسالمة (أو الأسالمة) ، وبحسب هذا النص - على تربية الماشية والزراعة فى الأرياف وعلى صيد السمك والأعمال البحرية على الساحل . أما فى المدن فقد زاولوا ، هم ومواليهم حرفاً وأشغالاً يدوية واشتغلوا كذلك بالتجارة الصغيرة ، وذلك كله على وجه

(١) LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III pp. 172 - 173.

(٢) LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III p. 180.

التقريب . وهذه الملاحظات ، مهما بدا لنا من قلة أصالتها لا تخلو من قيمة . فهى تؤكد الدور العظيم الذى قام به المولدون - الذين كانوا يؤلفون أكثر أهل الأندلس من ناحية العدد والأهمية - فى الحياة الاقتصادية فى البلاد ، فقد كانوا فى هذه الناحية أوفر العناصر نشاطاً وأكثرهم تلاؤماً مع ظروف الحياة فى شبه الجزيرة ، مثلهم فى ذلك مثل المستعربين ثم البربر إلى حد معين .

وقد دل الأمويون (الأندلسيون) على أحسن صور الحكمة السياسية عندما شجعوا هذه العناصر على النهوض ، وذلك بإطلاق الحرية للكثيرين منهم فى أن يتمولوا ويندرجوا أكثر فى الجماعة الإسلامية ، حيث كان العنصر الفاتح يكوّن أرستقراطية قليلة العدد جداً . وكذلك دل الذين سبقوهم إلى حكم الأندلس فى القرن الثامن على مقدرة سياسية عندما احتضنوا المولدين ، فحلوا - على الصورة الوحيدة المعقولة - تلك المشكلة التى واجهتهم كما واجهت غيرهم من حكام المسلمين فى كل البلاد التى استقر فيها أمر الإسلام ، وذلك الحل هو السيطرة - بمساعدة سادة البلاد القدماء أنفسهم - على بلاد واسعة لم يكن الفاتحون وحدهم ليملكوا من قوى الاحتلال ما يكفى للمحافظة عليها ولمواجهة موقف العداء الذى اتخذه أهل البلاد الذين كانوا ينتظرون أول فرصة ليتحرروا من سلطان كانوا يرون أنه يجاوز حد الاحتمال »(١).

١٩٢ - خطأ هذه الآراء والأحكام

وهذه الأحكام العامة كلها لا تخلو من أخطاء : فأما عبارة ذلك المؤلف المجهول فواضح أنه لم يعتمد فيها على معرفة صحيحة بأحوال الأندلس خلال تلك العصور الأولى ، فلم يكن سكان الأندلس يتألفون من العناصر الأربعة التى ذكرها أولاً وهى: العرب والبربر والنصارى واليهود الذين أسلموا، أو من العناصر الثلاثة التى ذكرها ثانياً وهى : الإسبان الذين فتحت نواحيهم صلحاً ثم أسلموا ، والذين فتحت نواحيهم عنوة ثم أسلموا ، ثم أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، ويُضاف إليهم أولاد أسرى الغزوات والفتوح الذين استقروا فى الأندلس .

فأما تقسيمه الأول فواضح منه أنه أسقط النصارى الذين ظلوا على دينهم، وكانوا كما سنرى يمثلون نسبة عالية من سكان البلاد ، وأما تقسيمه الثانى فظاهر أنه مضطرب غير مستقيم . ثم إن تفريقه بين من فتحت نواحيهم صلحاً ومن فتحت نواحيهم عنوة لا محل له

(١) LÉVI-PROVENÇAL, Op. cit . III. pp 180-183 .

هنا ، فإن مسلمى الأندلس لم يستطيعوا أبداً تمييز أرض صلح من أرض عنوة فى هذه البلاد ، وانتهى بهم الأمر إلى اعتبار من أسلم منهم جميعاً مسلمين يتمتعون بنفس الحقوق ، ومن لم يسلم منهم أهل ذمة ، وطبقوا عليهم أشراط الشريعة فى أبسط صورها .

وينبغى أن نلاحظ أن صدر الإسلام لم يعرف ما عرفته العصور المتأخرة من مضايقات أهل الذمة ، كاختصاصهم بملابس خاصة وتحريم ركوب بعض الدواب عليهم وما إلى ذلك ، إنما كان الإسلام إذ ذاك سمحاً طلقاً يترك الناس وشأنهم ما أدوا الأموال المفروضة عليهم ، وهذه السماحة هى التى حببت الناس فيه وجعلتهم يقبلون عليه ، وكأنما اجتذبهم إليه عدم إصرار المسلمين الأُوَل على إدخالهم فى الدين ، فلما أقبل الفقهاء وأخذوا يقننون ويشرعون ويخرِّجون ويستعينون بالعوام على إقامة جاه لهم لا يقل عن جاه الدولة - إن لم يزد عليه - ظهرت هذه المضايقات التى ازدادت ثقلاً كلما بعد العهد بسماحة الإسلام الأولى وبساطة من حملوا لواءه . وكلما زاد الفقهاء إثقالاً على من بقوا على دينهم من أهل البلاد ازدادوا تمسكاً به ونفوراً من الدخول فى الإسلام ، لأن المسألة لم تصبح مسألة دعوة سمحة وإنما تحدياً وتهديداً ، والتحدى من جانب يبعث تحدياً فى الجانب الآخر كما يقول آرنولد توينبى فى دراسته الجليلة للتاريخ .

وأغلب الظن أن أحكام هذا المؤلف مستقاة من بعض افتراضات المؤرخين المتأخرين ممن كانوا ينظرون فى كتب الفروع والأحكام والفتاوى ويستخرجون منها أحكاماً يطلقونها على الماضى ، ظناً منهم أن الإسلام كان هكذا دائماً ، أو رغبة منهم فى توجيه سياسة أهل الحكم فى أيامهم حيال الذميين وجهة خاصة بالزعم بأن ذلك كان الحال أيام « السلف الصالح » .

١٩٣ - هل كان العرب أرستقراطية مترفعة عن غيرها فى الأندلس ؟

ولقد تابع بروفنسال هذه الآراء فقال بأنه كان هناك فى الأندلس تمييز بين أهل الصلح وأهل العنوة ، وسنرى أن شيئاً من هذا لم يكن فى الأندلس، ثم اعتبر اليهود جنساً قائماً بذاته ، ولم يكونوا إلا قلة اندرج معظمها فى عداد المسلمين . ثم ذهب يقول من عنده إن العرب كانوا يكونون أرستقراطية خاصة، والواقع أنهم لم يكونوا كذلك ، وإنما كانت الأرستقراطية الحقيقية فى بيوت الموالى ولم يكونوا عرباً على ما رأيناه فى الفصل السابق، وقد ظل الجاه والسلطان فى هذه البيوت إلى آخر أيام الخلافة الأموية ، أما العرب فقد اندرج منهم فى أهل البلاد من اندرج ، وبقى منهم

فى العواصم نفر يطلبون العيش كغيرهم، وبقيت منهم فى الأرياف جماعات محتفظة بأراضيها كما احتفظ غيرهم من غير العرب بأراضيهم ، فيما عدا عرب الكور المجندة ، وكان لهؤلاء وضع خاص كما سنرى ، إذ كانوا نواة القوة العسكرية للدولة أول الأمر ، وكان لهم من الامتياز والاعتزاز بأنفسهم ما كان لأمثالهم من العسكريين فى كل مكان فى تلك العصور .

وعندما استبدل أمراء بنى أمية جند الصقالبة بجند العرب وجعلوا أولئك الصقالبة نواة جيشهم انحدر جند العرب إلى المكان الثانى ، فأحفظهم ذلك ، وكان من أكبر أسباب الفتنة الكبيرة التى أشعل العرب نارها من أوائل حكم الأمير محمد إلى أوائل عهد الناصر . ويلاحظ بصفة خاصة أن ثورة العرب هذه وغضبهم على الأمراء ، الذين أحلوا غيرهم مكانهم فى الجيش واعتمدوا على الموالى فى شئون الدولة ، كانا السبب الأول فى اتجاه العرب إلى أذى المولدين والعجم ، وهذا الأذى بدوره هو الذى روع هؤلاء واستنهضهم إلى المقاومة ، فكان ذلك عصب ثورة عمر بن حفصون وغيره ممن قادوا ثورات المولدين ومن انضم إليهم من نصارى الذمة ، ولم يكن سبب ثورتهم سوء المعاملة أو ثقل الجبايات ، ولم يكونوا ينتظرون أول فرصة للتحرر من نير كانوا يرون أن احتماله يجاوز الطاقة كما قال بروفنسال.

* * *

١٩٤ - أهل الذمة

من الطبيعى أن يكون أهل الذمة معظم أهل الأندلس الإسلامى خلال السنوات الأولى التى أعقبت الفتح ، وأن يقل عددهم شيئاً فشيئاً كلما قدم عهد الإسلام فى البلاد حتى يصبحوا أقلية بالنسبة إلى العرب والبربر والمسالمة والمولدين . ولقد بينا فيما سبق كيف أنهم كانوا يعيشون على اتصال مباشر بالمسلمين ، ما بين عرب وبربر فى الريف والمدن ، وأشرنا كذلك إلى أن التمييز الواضح بينهم وبين المسلمين فى الوضع والمعاملة ، لم يظهر إلا فى عصر متأخر ، عندما تمكن أمر الفقهاء ووضعوا ما شاءوا من القيود لا على الذميين فحسب ، بل على المسلمين أيضاً .

ولقد أخطأ كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسة أحوال الذميين فى الأندلس وغيره من بلاد الإسلام ، عندما التمسوا الحدود والقواعد التى وضعت لهم من كتب الفقه والنظم الإسلامية ، وفاتهم أن هذه الكتب كلها وضعت فى زمن متأخر عن عصر صدر الإسلام ،

فهى لا تمثل الوضع فى صدر الإسلام ، بل هى لا تمثل الوضع فى العصور التى كتبت فيها ، فالكثير مما تحتويه من قواعد وأحكام إنما تمثل « أمانى » مؤلفيها ، وما كانوا يرون أن يكون عليه أهل الذمة بحسب ما انتهى إليه تصورهم وتفسيرهم للآيات والأحاديث وآراء كبار الأئمة .

ونحن إذا قرأنا اليوم كتاب « الخراج » لأبى يوسف ، أو كتاب « الأموال » لأبى عبيد ، أو « الأحكام السلطانية » للماوردى إنما ندرك أن ما فى كتبهم إنما هو « المثل الأعلى » للنظم الإسلامية كما ارتآه أولئك الفقهاء ، وليس هناك مؤرخ محقق يقول بأن هذا هو النظام الذى كان جارياً بالفعل : إذ الواقع أن أحوال المسلمين كانت أسوأ بكثير ، وأحوال الذميين أحسن بكثير مما فى هذه الكتب ، وكان هدف الفقهاء من هذه المبالغة هو طلب الرفق بالمسلمين والتشديد على الذميين ، حسباناً منهم أن هذا يسرع بإسلامهم ؛ ولم يتحقق شىء مما رجوه : لا المسلمون تحسنت أحوالهم ، ولا الذميون أسرع إسلامهم .

١٩٥ - وضع الذميين فى المجتمع الأندلسى خلال هذه الفترة

ولقد رأينا فيما سبق كيف كان لون العلاقات بين كبار عرب الأندلس وكبير نصارى الذمة أرطباس ، ورأينا كيف كان الأمر صداقة بين الجانبين لا سيادة جانب على جانب ، وأن ميمون العابد ، وكان قطباً من أقطاب الإسلام الأندلسى فى ذلك العصر ، ذهب يطلب إلى هذا الذمى قطعة أرض ليزرعها على أساس المزارعة ، أى اقتسام الثمر بينه وبين صاحبها ، ولو أن العرب كانوا غاصبين مستبدين - كما زعم خافيير سيمونيت ، وايزيدورو دى لاس كاخيجاس - لما احتاج هذا الرجل إلى أن يطلب أرضاً من أرطباس على هذه الصورة .

ولا نزاع فى أن العرب لم يمسوا النصارى الذين صالحوا على أنفسهم بسوء ، فقد روى صاحب « فتح الأندلس » أن موسى بن نصير رأى النبى ﷺ أثناء عبوره إلى الأندلس فنصحه « بالرفق بالمشركين» (١) ، وهى رواية أسطورية فى الغالب ، ولكنها على أى حال تدل على اتجاه المسلمين حيال غير المسلمين أثناء الفتح وبعده بقليل . ومما يؤيد ذلك عبارة للرازى يقولها فى سياق الحديث عن أم عاصم (إيلونا) زوج لذريق: « وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها فى ظل نعمتها ، إلى أن

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ، ويقال إنه سكن بها فى كنيسة بإشبيلية »[(١)]، مما يدل على أن من كان يصالح على نفسه من النصارى ويقبل دفع الجزية كان يضمن حرية دينه والبقاء « فى ظل نعمته » .

وسنرى أن ذلك كان صحيحاً فى جملته وتفصيله ، وأن كل ناحية من نواحى الأندلس صالحت على نفسها بمعاهدة خاصة ، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بين بعضها وبعض ، من حيث الصيغ والتفاصيل واتفقت فى الروح والأساس ، بل إننا نلاحظ أن الفاتحين كانوا يتصرفون تصرفاً واسعاً فيما يعقدونه من عهود مع أهل النواحى، بل ذهب بعضهم إلى حد «الابتكار » الذى يتجاوز ما تبيحه السوابق والقواعد ، ومن أمثلة هذا ما يرويه صاحب فتح الأندلس من أنه « عندما وصل موسى إلى الفج المنسوب إليه انقطع إليه أهل ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم ، فسموا موالى موسى»[(٢)].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما حكاه الرازى عن فتح طارق لاستجة ، قال : « ثم نازل أهل استجه ، وهم فى قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغتراً سيىء التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق فى الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب، وضرب عليه الجزية وخلَّى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه .. »[(٣)]. وقد كان المسلمون يحرصون على الوفاء بعهودهم ، حتى فى الحالات التى يبدو لهم أنهم خدعوا فيها ، كحالة تدمير الذى احتال على جند المسلمين بحيلة بارعة فصَّلنا أمرها فى كلامنا عن الفتح ، وقد وفى المسلمون رغم ذلك لتدمير ، قال الرازى : « فمضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم »[(٤)].

١٩٦ - عهود المسلمين للنواحى

وقد ضاعت نصوص معظم المعاهدات التى عقدها المسلمون مع ما فتحوه من النواحى ، ولكن بقى لنا النص الكامل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مع

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، جـ١ ، ص ١٧٨ .
(٢) فتح الأندلس ، ص ١٤ .
(٣) رواه المقرى فى نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص٢٤٧ .

تدمير وقطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازى فى القطعة الباقية من تاريخه فى ترجمتها الإسبانية ونصها : «... فذهبوا (يريد أهل ماردة) إليه ، وقالوا إنهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ومن جرح (فى القتال بينه وبينهم) وممتلكات الكنائس وما فيها ، وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة وكل ممتلكات رجال الدين . وبعد أن تم التوقيع على ذلك فى عهود صحيحة (مؤكدة) فتحوا له الأبواب وأدخلوه البلد وأسلموه إياها ، ولم يمس المسلمون من أقام فى البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يمضى دون أذى .. » [(١)].

وأما نص الأمان الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير فقد أورده الضبى فى « البغية » ، ووردت ترجمته الإسبانية فى قطعة الرازى المشار إليها ، وقد أوردنا نصه فى كلامنا عن فتح الأندلس وسنعرض له فى الفصل التالى عن الإدارة ، ويهمنا فى هذا المقام أن ننص على ما فيه من الضمانات التى منحها للذميين .

وقد اعتمد نفر من الباحثين الإسبان فى دراسة أحوال أهل الذمة فى الأندلس على وثيقة تسمى « عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنصارى » . وهى وثيقة ظاهرة الوضع ، إذ أنها تشير إلى إلزام النصارى بملابس خاصة منها « القلنسوة » و« العمامة» وهى ملابس لم يعرفها المسلمون فى أيام عمر رضى الله عنه ، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما إلى ذلك ، ولم يُعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك . والحقيقة أن هذا « العهد » من وضع فقهاء العصور المتأخرة ، ولا يجوز اتخاذه أساساً لدراسة أحوال أهل الذمة فى عصر صدر الإسلام [(٢)].

---

(١) النص :

"...Et fueronse para el, et pleitaron que le diessen todo el aver de los muertos, et de los feridos, et de las iglesias, et de lo que en ellas estaba, ansi como piedras preciosas et otras nobles cosas, et todo el aver de los clerigos. Et despues que esto fué firmado por buenas cartas abrieronsse las puertas, et acogieronlo dentro, et entregaronlo de ella. Et aquellos christianos que hi moravan nos les facian mal, et los que irse querian ibanse, et non les facian mal ... "

PASCUAL DE GAYANGOS, Memoria sobre la autenticidad de la crônica denominada del Moro Rasis. p. 78.

(٢) نشر هذا النص المستشرق بيلان فى المجلة الأسيوية الفرنسية . انظر :

BELIN, Fetoua relatif à la condition des dzimmis, et particulièrement des chrétiens, en pays musulmans, dans Journ. Asiat. tome XVIII de la IVe. serie. pp. 126 sqq et 138 sqq.

وترجمه سيمونيت فى كتابه الأنف الذكر . ملحق ٢ ، ص٨٠١ وما يليها .

١٩٧ - تطور النظم الإسلامية ويبدو أن مؤرخى الإسلام جميعاً ، ما بين قدامى ومحدثين ، مسلمين وغير مسلمين ، يغيب عنهم أن النظم التى جرى المسلمون عليها فى حكم الأقاليم والمعاملة التى اختصوا بها أهل الذمة لم توضع كاملة من أول الأمر ، وإنما تكاملت شيئاً فشيئاً مع الزمن ، وخضعت فى كل مكان للظروف المحلية . ومن أمثلة ذلك أن أبا يوسف يذهب فى كتاب « الخراج » إلى أن تقدير الجبايات تقديراً إجمالياً ودفع الخراج جملة واحدة غير جائزين ، فى حين أن الوثائق البردية التى عثرنا عليها تدل على أن حكام المسلمين جروا على ذلك أول الأمر: ففى مصر مثلاً اتفق عمرو بن العاص مع ممثلى القبط على أن يؤدوا ما عليهم جملة واحدة تشمل الجزية والخراج جميعاً ، وقد جرى الأمر على ذلك أيام عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح، ثم كان التقسيم والتقنين بعد ذلك (١).

بل إن تحديد معنى الجزية والخراج غير واضح ، فتسمى الجزية فى بعض الأحيان « خراج الرءوس » ويسمى الخراج « جزية الأرض » . ذلك أن الذين عقدوا العهود مع أهل البلاد المفتوحة هم الفاتحون ، وهم رجال عسكريون عمليون ، كل ما كان يعنيهم إقرار الأمن وضمان طاعة البلاد المفتوحة وإشعار أهلها بسماحة الإسلام وعدل الدولة الإسلامية ، ثم ضمان حق الدولة فى الجبايات ، وهم لهذا كانوا لا يدققون فى طريقة الجباية ولا يتدخلون فى شئون أهل البلاد إلا بالقدر الذى يضمن حقوق الدولة . ولم ينتقل الأمر إلى أيدى الفقهاء والمقننين إلا فيما بعد ؛ وقد بدأ الفقهاء عملهم على أسلوب علمى : يسألون عن الصلح والعنوة ، ويلتمسون الأحكام من القرآن الكريم والسنة ، ويتصرفون فيما يصدرونه من أحكام تصرفاً واسعاً ذكياً يدل على إدراك وسعة فَهْم ، كما نرى فى موطأ مالك وما استند عليه مثل مدونة سحنون .

ثم مضى عهد كبار الفقهاء وأئمة الشرع فى منتصف القرن الثالث الهجرى تقريباً ، وبدأ عهد « الفقهاء السياسيين » أى الفقهاء الذين طمحوا إلى السلطان عن طريق التقرب من الحكام حيناً أو الاستعانة بالعوام حيناً آخر لإقامة جاه يستندون إليه. ولا نجد هذه الظاهرة

(١) انظر مناقشة ذلك فى :

C. H. BECKER, Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam. II, p. 83 sqq, 124 sqq.

-,Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904 - 1905) 301 - 319.

-,Papyri Schott Reinhardt, I (Heidelberg, 1906) S. 37 sqq.

على صورتها الواضحة ، التى يمكننا تأريخها ، إلا فى المغرب والأندلس ، وفى هذا البلد الأخير بصورة خاصة ، حيث نجد دولة الفقهاء وجهاً لوجه أمام دولة الأمراء ، ونجد دولة الفقهاء تبنى جاهها على إيمان العوام ، وتشرِّع بما يرضيهم ويستثير عواطفهم ، ومن هنا كانت مناداتهم بكل ما يرضى مشاعر الجماهير ، ومن ذلك التشدد مع الذميين ، وتحريض الأمراء عليهم وتحريض العامة على الأمراء إذا هم قربوا رجالاً منهم(١). وكان الفقهاء حريصين على أن يؤيدوا مذاهبهم بتفسيرات خاصة لأحكام الشرع، وربما ابتكروا وثائق ونسبوها إلى رجال الدولة الإسلامية الأولى ، كما رأينا فى الوثيقة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب وكما نرى فى الوثيقة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل وغير ذلك كثير (٢).

والحقيقة أن المسلمين الأولين كانوا يجرون على تسامح كريم صادر عن إدراك فطرى أن هذه هى السياسة المثلى لاجتذاب الناس إلى الإسلام وإقناعهم بعدالة الدولة الإسلامية . وذلك أمر لا ينبغى أن يغيب عنا عند التأريخ للنظم الإسلامية : ينبغى أن نقف عند ما لدينا من الوثائق الأصلية وشواهد المؤرخين الموثوق فيهم دون محاولة إكمال الفجوات من أحكام أبى يوسف ، وقدامة بن جعفر ، ويحيى بن آدم ، وأبى عبيد بن سلاَّم .

* * *

١٩٨ - المسلمون يدعون أهل الذمة أحراراً

ضمن المسلمون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم ، وأدخلوهم فى ذمتهم مقابل الجزية والخراج على ما تقضى به الشريعة الإسلامية . وسنرى فى الفصل التالى أن المسلمين فى الأندلس لم يفرقوا كثيراً بين الصلح والعنوة ، فنال كل المسيحيين تقريباً نفس الحقوق ، ولم يمس المسلمون من الممتلكات إلا ما كان ملكاً لبيت لذريق وأفراده أو للذين قتلوا فى الحرب مع المسلمين ،

(١) انظر مثلاً تحريض الفقهاء للعامة على الحكم الربضى لأنه أطلق يد ربيع القومس متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى فى المعاون والمغارم على المسلمين (أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، طبعة بيروت بعنوان : إسبانيا الإسلامية ، بيروت ١٩٥٦) ، ص١٥ . وتحريض هاشم بن عبد العزيز للأمير محمد على قومس بن انْتُنْيان بسبب توليته إياه الكتابة (ابن القوطية : افتتاح ، ص٨٢ - ٨٣) .

(٢) أورد سيمونت نص هذه الوثيقة الموضوعة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من ساير البلدان ، كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح فى كل عام إلى خمس سنين . كتب بمدينة قرطبة ، ثلاثة من صفر عام اثنين وأربعين ومائة » .

وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه كلها غنيمة أخرج خمسها فجُعل ملكاً للدولة ، وتُرِك الباقى بيد من كانوا يزرعونه يؤدون عنه خراجه فيئاً للجماعة الإسلامية كلها . ولما كانت أملاك الكنيسة والبيت المالك كثيرة جداً ، فإن الدولة لم تستطع إحصاءها كلها ، بسبب اشتغال الأمراء بالحروب والفتن ، فوضع الكثير من أفراد الجيوش الغازية أيديهم على أرض كثيرة واستقروا فيها على أن يؤدوا للدولة ما لها من مال . بل إن المسلمين أطلقوا أسرى النصارى فى أراضى الخمس ليعمروها ، فكأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأمان .

١٩٩ - النصارى يتقاضون بقانونهم وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحراراً ينظمون أمورهم على النحو الذى أرادوه ، ما داموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال ، فظلوا يفصلون فى أقضيتهم وفقاً للقانون القوطى القديم [١] ، وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان يدير أمور الجماعات المسيحية الكبيرة فى المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة ، وواحدهم قومس Comes ، وهو لقب كبير كان مقصوراً قبل ذلك على القوط ، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد ، فكأن الفتح الإسلامى رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية [٢].

٢٠٠ - الجماعات النصرانية تنظم أنفسها وقد ترك العرب للجماعات النصرانية نظامها المدنى الذى كانت جارية عليه أيام القوط ، وهو نظام مدنى وإدارى أيضاً ، أى أن القائمين بأمره كانوا مسئولين عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم فيما بين أنفسهم ، كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها إلى بيت المال نيابة عنهم ، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون فى منازعاتهم بحسب القانون القوطى ، وكانوا يشرفون على كنائسهم ويتولون أمور قساوستها ، أى أنه وُجِد من أول الأمر نظامان إداريان جنباً إلى جنب : واحد للمسلمين وواحد للنصارى . أما فى القضايا التى تقع بين المسلمين وغير المسلمين ، فكان ينظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام ، ولهذا جاء فى أحد كتب الفقه الأندلسية : « ويستحب للقاضى الجلوس للحكم فى رحاب المسجد الخارجة عنه من غير تضييق عليه فى جلوسه فى غيرها ، ليصل إليه اليهودى والنصرانى والضعيف وهو أقرب

(١) المعروف باسم Forum Judicum وفى الإسبانية Fuero Juzgo ويعرف باسم Lex Gothorum أو Lex Judi-cum.

(٢) SIMONET, op. cit. pp. 106 - 107.

المواضع »[١].

٢٠١ - التشريع الإسلامى والقانون القوطى

وسنرى فى الفصل التالى أن مسلمى الأندلس فى ذلك العصر كانوا يجرون فيما يتصل بالتشريع والتنظيم على مذهب الأوزاعى ، وهو مذهب أهل الشام فى ذلك العصر ، يعتمد على القرآن والسنة ، ويفسح مجال الرأى ، فيعتبر ما فعله الصالحون من خلفاء بنى أمية من الآثار الصالحة التى يمكن القياس عليها ، وقد كان العصر الأموى كله عصر فتوح وحروب وتوسع كثرت فيه المشاكل والمسائل الناجمة عن الحروب والفتوح ودخول أمم جديدة فى الإسلام ، وكان لابد من القضاء فيها برأى سريع حازم عملى ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعى فقه عسكرى ، وكان معظم امتداد الإسلام إذ ذاك فى بلاد جرى أهلها على التشريع البيزنطى أو الرومانى ، فدخل تشريع خلفاء بنى أمية ورجالهم الكثير من أصول القوانين البيزنطية والرومانية ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعى تأثر بالتشريع الرومانى[٢] ، وقد رفض الكثيرون من المفكرين المحدثين هذا الرأى اعتزازاً منهم بأصالة التشريع الإسلامى[٣].

ونظن أن الوضع فى الأندلس يعطينا رأياً نافعاً فى هذا الموضوع ، فها نحن أمام حالة فريدة فى بابها : تشريعان ساريان جنباً إلى جنب تقر الإدارة الإسلامية ما يصدر عنهما : تشريع إسلامى يطبق على المسلمين ، وغير المسلمين فى حالات خاصة ، وتشريع قوطى رومانى نصرانى يطبق على النصارى . والتشريعان يسيران جنباً إلى جنب . فإذا ذكرنا أن معظم أهل الأندلس فى الفترة الأولى بعد الفتح كانوا نصارى ، أى يطبق عليهم القانون القوطى ، وأن القاضى المسلم كان إذا جلس للحكم ، جلس فى موضع يصل إليه فيه النصارى واليهود ، وأنه كان يستمع إلى متخاصمين قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى ، ويجتهد فى أن يصدر حكماً يرضاه المتخاصمون ويكون فى نفس الوقت متمشياً مع أحكام الشريعة الإسلامية ويكون قابلاً للتنفيذ فى نفس الوقت - أفليس من المعقول فى هذه الحالة أن يستمع القاضى وهو فى مجلسه إلى ما يقوله النصرانى معتمداً فيه على ما جرى عليه العمل من القانون القوطى ، ولم يكن كله متعارضاً أو بعيداً عما يقول به الشرع الإسلامى ؟

---

(١) SIMONET, op. cit. p. 99.

(٢) انظر :
JOSEPH SCHACHT, the Origins of Mohammedan Jurisprudence; 72. 288 -289.

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ص٢٤٨ .

لقد كان القاضى المسلم فى ذلك الحين قاضى المسلمين ، وكان يسمى لهذا « قاضى الجند» لأن المسلمين جميعاً كانوا إذ ذاك معتبرين جنداً ، ولم يسم بـ « قاضى الجماعة » إلا فى زمن متأخر [(١)] ، عندما صارت الجماعة الأندلسية كلها جماعة إسلامية ، وتضاءل نفوذ «قاضى العجم» حتى اقتصر على الأقلية المسيحية . وكان « قاضى الجند » هذا مضطراً إلى الاستماع إلى حجج المتخاصمين ، والكثيرون منهم نصارى أو مسالمة ، ومنهم من يطالبون بحقوق أقرها لهم القانون القوطى ، فهل يستبعد والحالة هذه أن يجتهد القاضى فى العثور على رأى يضمن للناس حقوقهم ويربطه بطريقة ما بأصول التشريع الإسلامى ؟ [(٢)] .

لقد جاء فى وصية عقبة بن الحجاج السلولى إلى قاضيه مهدى بن مسلم - وهى دستور القضاة فى الأندلس إذ ذاك ، وكان مهدى بن مسلم من أبناء المسالمة ، أى من المولَّدين ، أى نشأ فى بيت يتحدث أهله بالعجمية ويجرون على ما جرى عليه قومهم من قوانين القوط - : « ... وأمره أن يساوى بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ، ويستأنى بكل عيى اللسان ناقص البيان ، فإن استقصاء الحجة ما يكون به لحق الله تعالى قاضياً وللواجب فيه راعياً ، فقد يكون بعض الخصوم ألحن بحجته وأبلغ فى منطقه وأسرع فى بلاغ المطلب ، وألطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاء وأحضر جواباً من بعض ، وإن كان غير الصواب مرماه ...» [(٣)] . والإشارة هنا - كما يغلب على الظن - إلى أولئك الذين لا يحسنون الإبانة عما فى نفوسهم بالعربية ، إذ هم حديثو عهد بها ، فإذا ذكرنا أن مهدى بن مسلم هو الذى كتب عهده بنفسه عن الأمير عقبة بن الحجاج تأكد فى نفوسنا هذا المعنى [(٤)] .

ولدينا أمثلة قليلة جداً من قبول قضاة الأندلس لأشياء مما جرى به العرف أو القانون الجارى فى تلك البلاد بين أهل البلاد . قال الخشنى : « ومن ذلك أن أحمد بن خالد سمع محمد بن عمر بن لبابة يقول : حضرت وقد خاصم إليه رجل فى فرن بناه صاحبه فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة يقول [فيها] ابن قاسم أن ذلك من الضرر الذى يجب

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص٢١ .

(٢) راجع ما يقوله جوزيف شاخت عن فقه الأوزاعى وحركة إدخال بعض قواعد التشريع التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة فى الفقه الإسلامى :

JOSEPH SCHACHT. op. cit. pp. 288 - 289.

(٣) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص٢١.

(٤) نفس المصدر ، ص٢٠ .

قطعه ، ولا يباح اتخاذه ، فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك : أن يجعل أنبوباً فى أعلى الفرن ، فيخرج الدخان من أعلاه فلا يضر ذلك بمن جاوره ، فكان محمد بن عمر [بن لبابة] يفتى بهذا ويحمل الناس عليه فيما أخبرنى أحمد بن خالد » (١).

وهناك مثل آخر يحكيه الخشنى فى ترجمة القاضى الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمى، فقد ذكر أن مجاعة حدثت فى أيام الأمير محمد ، فكثر التطاول من المفسدين، « فولى السوق حينئذ إبراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد ، وعهد إليه بالتحفظ وأذن [له] بالتنفيذ فى القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان ، فكان إبراهيم يجلس فى مجلس نظره فى السوق ، فإذا أوتى بالفاسد المفدح قال له : اكتب وصيته ! ودعا له بشيوخ فأشهدهم على ما يوصى به ، ثم صلبه ونحره ؛ فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم . فأتاه قوم بنفر من جيرانهم فشكوا إليه تطاولاً على ما يكون من أشرار الأحداث ، وهم لا يشكُّون أنه سيزجره الزجر القوى ، وإن أفرط فى عقابه فالسجن ، فقال لشيخ منهم : ما يستحق عندك ؟ فقال - على وجه المثال - : ما استحق هؤلاء ! وأشار إلى المصلّبين ، فقال إبراهيم بن حسين [له] ولأصحابه : انصرفوا ، فانصرفوا . ثم قال للفتى : اكتب وصيتك ! فقال له : اتق الله فىّ ، فإنه لم يبلغ ذنبى أن أستحق القتل والصلب . فقال له : بذلك شهد عليك الشهود ، فقتله وصلبه . فلما بلغ الشهود ذلك أتوه فقالوا له : لم نشهد عندك على الفتى بذنب يجب فيه القتل! فقال : أو لم يقل قائلكم إنه يستحق ما يستحق هؤلاء ؟ فقالوا له : « على المثْل! » ، قال : فإثم ذلك فى رقابكم ، إذ لم تحسنوا الإبانة من أنفسكم » (٢).

وظاهر أن هذين الحكمين مستقيان من جارى العرف والقانون القوطى ، فوضع المداخن أمر لم يكن معروفاً فى المشرق ، والحكم به يعتبر تجديداً مقتبساً من البيئة الأندلسية ، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز فى الشريعة الإسلامية ، ولكنه جائز فى شريعة القوط. بل إن القضاة أنفسهم كانوا يجيزون لأنفسهم ما لا يجيزه أهل التقى والورع فى المشرق ، فقد خطب زياد بن عبد الرحمن - الذى أصبح قاضياً فيما بعد - ابنة القاضى معاوية بن صالح ، وأحب رؤيتها قبل البناء بها « على ما يفعله بعض الناس، فتحيل النساء عليه فى ذلك وأتين به عند العشاء الآخرة ، فصار فى الأُسطوان ، فنفرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله ،

(١) نفس المصدر ، ص١٣٧ .
(٢) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص١٧٨ - ١٧٩ .

حتى خرج معاوية إلى الصلاة فسمع حس الدابة فرابه ذلك ، فدعا بالمصباح ، فوجد زياداً فى مذود الدابة فى بعض زوايا الأسطوان ، فما زاد على أن قال له : استوصوا [بحرمات المسلمين يستوص الله] بكم خيراً ، ثم خرج إلى الصلاة »(١) . وأمر كهذا ما كان يجيزه عرف أهل التقى والعلم فى المشرق ، ولو فعله رجل لما ولى القضاء أبداً ، ولكن زياد بن عبد الرحمن ولى القضاء بعد ذلك وصار من كبار أهل العلم والفتيا ، وهذا أثر من آثار البيئة الأندلسية فى تصرفات شيوخ الأندلس وحكمهم على الأشياء .

وروى الخشنى أن القاضى محمد بن زياد اللخمى كان يتساهل مع السكارى ويتغافل عنهم ، حتى لقد أتوه برجل « يتمايد سكراً » فأمر القاضى بأخذه ليقيم عليه الحد ، وكان يرافق القاضى صديق له فقيه هو محمد بن عيسى الأعشى ، فلما كان فى موضع ضيق . «تقدم القاضى وتأخر الأعشى ، ففى تأخره عن القاضى التفت إلى الذى كان يمسك السكران فقال : يقول لك القاضى : أطلقه ! فأطلقه ، ثم افترقا جميعاً . ونزل القاضى ودعا بالسكران ، فقيل له : أمرنا عنك أبو عبد الله الفقيه أن نطلقه ، فقال : وفعل ؟ قال : نعم ! قال : أحسن ! » . وقد علق الخشنى على ذلك محتجاً ، وقال : « وما أُتى عن القضاة فى هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقة عليهم ، فلا أعرف لذلك وجهاً من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم فيه العذر ، إلا وجهاً واحداً ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول ﷺ .. إلى آخره »(٢).

وقد فات الخشنى ، وهو من فقهاء القرن الرابع الهجرى ، أن قضاة الأندلس أيام محمد ابن زياد ، أى منتصف القرن الهجرى الثانى ، لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط، بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئة المحلية، ويتأثرون بما حولهم، وأن القانون كائن حى يغتذى بما حوله وينمو ويتطور ، وإذا كان تاريخ أى جماعة يتجلى بأصدق صوره فى تاريخ تشريعها، فلا شك أن المجتمع الإسلامى والشرع الإسلامى لا يشذان عن هذه القاعدة ، وأن التشريع فى صدر الإسلام كان حياً متطوراً متقبلاً لكل جديد ، مثله فى ذلك مثل الجماعة الإسلامية فى ذلك العصر ، فلما جمدت هذه الجماعة جمد هو الآخر ولم يعد يتطور .

(١) نفس المصدر ، ص٣٥ .

(٢) الخشنى : قضاة ، ص١٠٢ - ١٠٣ .

وقد جمد التشريع الإسلامى ووقف عن التطور عندما تحول إلى علم ثابت الأصول والفروع على أيدى الفقهاء ، ولا يبدو ذلك فى صورة هى أوضح مما ظهر به فى الأندلس والمغرب ، فقد كان التشريع فى هذين البلدين أول الأمر سهلاً مرناً يأخذ من البيئة المحلية كثيراً ويطوع ما يأخذه لأصول الإسلام ، بل اشترك نفر من أهل المغرب والأندلس مع مالك بن أنس فى تكوين مذهبه ، فأهل الأندلس يذهبون إلى أن مالكاً روى عن قاضيهم معاوية بن صالح [١] ، وأهل المغرب يقولون إن سحنوناً كان صاحباً لابن القاسم يجالسه ويشاوره [٢] ، واستمر ذلك حتى اكتمل مذهب مالك وأقبل إلى المغرب والأندلس تلاميذ مالك ونشروا مذهبه وحملوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار . هنا جمد التشريع ولم يعد له سبيل إلى التطور ، وأخذ باب الرأى يضيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح « رأى مالك » فقط وأصبح الفقهاء هم أهل الحديث ، وتلاشى مذهب الأوزاعى وقامت دولة المالكية وفقهائها.

ومن المحقق أن تشريع قضاة الأندلس الأول قد ضاع معظمه ، قال الخشنى : «وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين: جمعتم حديث معاوية بن صالح؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم! قال : أضعتم والله علماً عظيماً ! » [٣]. وقال محمد بن عبد الملك بن أيمن أنه بحث عن كتب معاوية بن صالح فلم يجدها ، قال : « فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أهلها » [٤]. ويؤكد الخشنى أن أحد قضاة ذلك العصر الأول فى الأندلس ، وهو المصعب بن عمران ، لم يكن «بالمتسع فى علم السنن ولا فى رواية الأخبار » فبماذا كان يحكم ؟ ثم يقول بعد ذلك أن « زياد بن عبد الرحمن أول من دخل الأندلس بالفقه والحلال والحرام » [٥] مما يُفهم منه أن أحكام الأندلس لم تكن تجرى قبل ذلك على فقه ثابت معروف ، بل على الاجتهاد والرأى والقياس .

وربما كان المراد هنا أن زياداً أول من دخل الأندلس بفقه مالك ، وهو أمر لا يغير من

(١) نفس المصدر ، ص٣٠ .

(٢) المالكى : رياض النفوس (قام على نشره حسين مؤنس سنة ١٩٥١) جـ١ ، ص٢٥٠ وما يليها .

(٣) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص٣١ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص٥٠ .

الوضع كثيراً ، ولدينا براهين تؤيد ذلك ، فمن ذلك ما يحكيه ابن القوطية من أن عيسى بن مزاحم عندما تزوج سارة القوطية قدم معها إلى الأندلس « وقبض ضياعها»[١] ، والزوج فى الشريعة الإسلامية لا يقبض أملاك زوجه إلا بشروط ، ولكن القانون القوطى يقره مبدأ عاماً . ويؤيد ما نقوله النباهى فى حديثه عن المصعب بن عمران القاضى ، قال : « وكان يروى عن الأوزاعى وغيره ، وكان لا يقلد مذهباً ، ويقضى بما يراه صواباً » [٢].

ومن الثابت أن قضاة الأندلس فى ذلك العصر لم يكونوا يرون بأساً بمخالفة ما ينص عليه الأئمة ، ومن ذلك أن القاضى محمد بن بشير كان «لا يجيز الشهادة على الخط فى غير الأحباس ، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد » ، وقد علق على ذلك محمد بن عمر بن لُبَابة بقوله : « قد علم القاضى - حفظه الله - اختلاف أهل العلم ، وما ذهب إليه مالك وأصحابه من اليمين مع الشاهد ، وما ذهب إليه قضاة بلدنا منذ دخلته العرب ، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد ولا يقضون به .. » [٣] مما يدل على أن قضاة الأندلس كانت لهم آراء خاصة يجرون عليها.

٢٠٢ - عمل قرطبة ومن الثابت أيضاً أنه كان لقضاة قرطبة فقه خاص يجرون عليه وينكره غيرهم من قضاة المغرب والمشرق ، وهذا الفقه القرطبى يسمى بتسمية خاصة تدل على أنه مستقى من جارى العرف وأعمال الناس بحكم العادة ، فكان يسمى « عمل قرطبة»، وللمقرى رواية طويلة فى هذا الباب لا بأس من إيرادها على تواليها لأهميتها . قال المقرى : « واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى أنهم يقولون فى الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة. وفى هذه المسألة نزاع كبير، ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك. قال الإمام ابن عرفة رحمه الله تعالى : فى اشتراط الإمام على القاضى الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقَد المشترِط اجتهاداً وتقليداً - ثلاثة أقوال : الصحة للباجى ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة ، قال المازرى: مع احتمال كون الرجل مجتهداً. الثانى : البطلان للطرطوشى، إذ قال : فى شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم. الثالث : تصح التولية ويبطل الشرط ، تخريجاً على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس ، انتهى مختصراً .

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص٦ .
(٢) النباهى : قضاة الأندلس ، ص٤٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص٥٠ .

قال ابن غازى : أن ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنما نسب له التفصيل ، انتهى .. ولما ذكر مولاى الجد الإمام قاضى القضاة بفاس سيدى أبو عبد الله المقرى التلمسانى فى كتابه القواعد شرطَ أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصه : وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ، فبينما نحن ننازع الناس فى «عمل المدينة » ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلى وابن مسعود ومن كان معهما : ليس التكحل فى العينين كالكَحَل ، سنح لنا بغض الجمود ومعدن التقليد!

الله أَخَّــر مــدتـــى فتأخــرتْ حتى رأيـت مـن الـزمـــان عجائبـــا

يالله والمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقنه ويلقيه . ألا ترى خصال الجاهلية - كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك - وأسماءها - كالعتمة ويثرب - وكذا التنابز بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تزل من أهلها (يريد أهل قرطبة) وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ، بل يجعلون العادات القديمة أساً ، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسيب وما انخرط فى ذلك السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه إلا قولاً ، ولا نحمله إلا كلاً ؟ .. انتهى » (١).

وهذه عبارة لا تحتاج إلى تعليق ، فهى تُجمل كل ما قلناه من تأثر التشريع فى الأندلس بالبيئة المحلية ، وجرىَ القضاة فى قضائهم «على العادات القديمة» واعتبارهم ما يصدرون من أحكام « عملاً » خاصاً بهم يلتزمونه ولو اشترط الأمير الذى يوليهم أن يحكموا بمذهب معين . وذلك هو الأمر الطبيعى المعقول ، لأن القانون جزء من الحياة العامة يتأثر بما فيها ويجاريه ولا مفر للقضاة من إفساح المجال لما جرى عليه الناس، ما دام لا يتعارض مع الأصول ، وما دام مالك قد اعتبر عمل أهل المدينة أساساً من أسس تشريعه ، وأبو حنيفة قد خضع للبيئة العراقية وصاغ فى حدودها مذهبه ، فقد كان من الطبيعى أن يكون لقضاة الأندلس فلسفة خاصة فى أحكامهم ، فلسفة قائمة على قبول جارى العرف والقانون والتقليد ، وإن وصف الفقهاء ذلك بأنه «جهل عظيم» .

(١) المقرى : نفح الطيب ، طبعة محيى الدين ، جـ٢ ، ص٩٣ - ٩٤ .

٢٠٣ - اختلاف نظم القضاء فى الأندلس عن مثيلاتها فى المشرق

وإنما استطردنا هذا الاستطراد لأن منطق التاريخ - إلى جانب ما أوردناه من البراهين - يؤيد ما ذهبنا إليه من تأثر التشريع فى الأندلس بالتشريع القوطى الذى كان العمل جارياً به فى الأندلس قبل أيام المسلمين : وإذا كان هناك قاض للعجم يحكم بـ « سنة النصارى »، وقاض للمسلمين يحكم بسنة الإسلام ، جنباً إلى جنب ، وكلما انقضى حِينٌ دخل نفر من النصارى فى الإسلام وصار منهم قضاة وفقهاء ، فإن تسرب أشياء من « قضاء العجم» إلى قضاء المسلمين أمر طبيعى. بل بلغ من ذلك التأثر أن أخذ تنظيم القضاء العام فى الأندلس صورة يختلف فيها عن نظم القضاء فى المشرق جملة وتفصيلاً ، فظهر نظام القضاة المشاورين وتألفت منهم هيئة تسمى « المَشْوَرة » وهى صورة « الكوريا » Curia القضائية فى نظام القضاء الرومانى ، وهذه « المشورة » أو الكوريا هى التى تضع القواعد الفقهية وتحدد المبادىء ، فى حين اقتصر أمر القضاة على التطبيق ، مما لا يتسع المجال لدراسته فى العصر الذى نؤرخ له (١).

٢٠٤ - العرب يحترمون نظم البلديات

وقد وجد العرب فى الأندلس مدناً كبيرة كثيرة منظمة أمورها تنظيماً طيباً ، وصادفوا لأول مرة نظم البلديات وحكومات المدن ، ووجدوا كل مدينة وحدة قائمة بذاتها ولها زمام حولها يتبعها. وقد كانت أحوال المدن الرومانية فى

(١) ليس هنا مجال الكلام عن وجوه اختلاف نظم القضاء فى الأندلس عن مثيلاتها فى المشرق . وقد أشار إلى ذلك خليان ريبيرا فى مقدمته لتاريخ القضاة للحارث بن أسد الخشنى ، واعتمد على كلامه ليفى بروفنسال فيما أورد من مادة طيبة عن القضاء فى الأندلس فى الجزء الثالث من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » . وقد قدمتُ مادة طيبة عن الموضوع فى بحثى عن «سقوط خلافة قرطبة » (بالفرنسية) ويهمنى أن أشير هنا إلى بعض المراجع الهامة لدراسة هذا الموضوع لم يشر إليها أحد ممن اشتغل به ، وهى :

JOSÈ LOPEZ ORTIZ : La recepción de la Escuela Maliqui en España.

-. La Curia Musulmana.

SANCHEZ ALBORNOZ : Los Arabes y las origines del feudalismo.

LACARRA : Fueros navarros del siglo XII.

GONZALEZ PALENCIA : El Fuero latino de Albarracin

SALVADOR VILA : El capitulo del matrimonio del formulario notorial de Aben Moguit.

وكلها ظهرت فى حوليات تاريخ القانون الإسبانى :

Anuario de Historia del Derecho Español.

ابتداء من المجلد السابع سنة ١٩٣٠ وما يليه .

وفى كتاب « المعيار المُغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » لأبى العباس أحمد بن يحيى التلمسانى الونشريشى (أو الونشريسى) طبع حجر ، فاس ١٣١٤ و١٣١٥، مادة طيبة ونافعة ابتداء من الجزء الخامس.

غرب أوروبا قد اضطربت واضمحلت بسبب غارات الجرمان وما أحدثته من الفوضى والاضطراب والفقر ، ولكن هيكل التنظيم المدنى كان باقياً ما يزال (١). وقد احترم العرب هذا التنظيم على اعتبار أنه جزء من احترامهم لعهودهم مع أهل الذمة ، وكانوا أول الأمر معظم أهل المدن . وقد أفاد العرب من احتفاظهم بهذا النظام فيما بعد ، إذ أنه عندما أسلم معظم أهل المدن وتعربوا اتسعت حدود هذا النظام فشمل المسلمين أيضاً من أهل المدن ، وعُرب وأصبح جزءاً من النظام العام للأندلس .

٢٠٥ - قومس الأندلس

أقام العرب على أهل الذمة والنصارى رئيساً منهم ولقبوه بقومس الأندلس أو زعيم نصارى الذمة ، وجعلوه مسئولاً أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، وأحاطوه بما يليق به من الاحترام . وكان أول القمامسة هو ارطباس ، وسنتحدث عنه بعد قليل . حقيقة أن هذا اللقب لم يظهر فى النصوص إلا أيام عبد الرحمن الداخل ، ولكن صورة الخبر الذى يتضمن هذا اللقب عند ابن القوطية تدل على أن الوظيفة كانت قديمة والجديد هو اللقب (٢). وستستمر الوظيفة بهذا اللقب بعد ذلك .

٢٠٦ - العرب يتركون لأهل الذمة حرية اختيار رؤسائهم

ويذكر الراهب الذى كتب مدونة البلدة Chronicon Albeldense أن العرب تركوا لأهل البلاد من النصارى حق اختيار حكامهم ومنظمى أمورهم :

" .. Et unusquisque ex illorum origine de semit epsos comites eligerent, qui per omnes habitantes terrae illorum pacta Regis congregarentur"(٣)

(١) لم يدرس أحد إلى الآن تطور أحوال المدن الإسبانية خلال العصور الوسطى ، وكل ما لدينا معلومات عامة مستخلصة من تطور أحوال المدن فى غالة وإيطاليا . والرأى الغالب هو أن الاضمحلال العام الذى شمل المدن الرومانية جميعاً خلال العصر الرومانى المتأخر أدى إلى تدهور المدن ، فاختفى بعضها وتحول الباقى إلى قرى ، وأصبح التقسيم الإدارى زراعياً خالصاً يقوم على وحدات ضرائبية تعرف الواحدة منها باسم territoria وإن ظل الناس يطلقون لفظ المدينة على التيريتوريا وموضع المدينة القديمة civitas وزمامها urbs . انظر :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : en Historia de España dirigida por D. Ramon Menéndez Pidal. Vol. III (Madrid, 1940) p. 220.

والآراء التى يبديها المؤلفان حافلة بالأخطاء . وقد أتى الخطأ من أن هذين الباحثين الإسبانيين نقلا أقوال مؤرخين ألمان وفرنسيين حاسبين أن مثل ذلك قد حدث فى إسبانيا ، وفاتهما أن الفتح الإسلامى أوقف اضمحلال المدن فى إسبانيا كما سترى فيما يلى .

(٢) انظر عن لقب قومس Comes فى إسبانيا القوطية :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, op. cit. p. 221

(٣) SIMONET, op. cit. p. 108.

وورود هذا اللفظ بصيغة الجمع فى هذا النص يُفهم منه أنه كان هناك أكثر من قومس ، والأقرب إلى المعقول أنه كان على رأس النصارى فى كل ناحية قومس ، لأن كل ناحية فى إسبانيا كان لها قومس على أيام الرومان ثم القوط من بعدهم ، فأقر العرب هذا الوضع (١) ، واشترطوا - كما هو واضح فى النص - أن تنتخبه الجماعة النصرانية بنفسها ، على خلاف ما كان الحال عليه أيام القوط ، إذ أن ملك القوط كان يعين القمامسة من أصحابه والمقربين إليه ، إذ أن المعنى الأصلى للفظ Comes هو رفيق أو صاحب . وهذا التغيير فى طريقة تعيين القمامسة طبيعى ، لأن مُلْك القوط قد زال ، فانتقل حق اختيار الحكام إلى الجماعة النصرانية ، واكتفى العرب باختيار القومس الأعلى وهو الملقب بقومس الأندلس ، ولم يروا أن يتركوا له حق تعيين قمامسة النواحى ، لأن ذلك كان يعطيه سلطاناً واسعاً خطراً ، إذ أن الغالبية العظمى من أهل البلاد كانت نصارى . وسنرى بعد قليل كيف أن قومس الأندلس أساء التصرف مع إخوانه فى الدين ، حتى فى الحدود التى وضعها العرب لسلطانه .

ويذهب سيمونيت إلى أن سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المدن التى ينتخبهم أهلها ، بل يمتد إلى كل الناحية الداخلة فى زمامها ، ويقول : « ولا شك أنه كان يعاون القمامسة موظفون آخرون أصغر منهم ، كانوا يعملون تحت إدارتهم خاضعين لسلطانهم فى المدن ، وينوبون عنهم فى القرى الداخلة فى زمام ناحيتهم ، وكانوا يتولون الأعمال المختلفة من إدارية ومالية وقضائية » (٢) .

٢٠٧ - الوظائف القوطية تدخل فى النظام العربى العام

وكان أصحاب وظائف أهل الذمة يلقبون أول الأمر بألقابهم اللاتينية التى عرفت بها أيام الرومان والقوط ، ثم عرَّبها الناس عندما غلبت العربية على غيرها فى شبه الجزيرة ، ثم أخذت اللفظة العربية على ألسنة

(١) يبدو أن هناك شيئاً من الالتباس فى قول مانويل توريس فى الموضع الذى أشرنا إليه فى الهامش قبل السابق أن القومس فى أيام القوط كانت له سلطات عسكرية ومالية وقضائية ، ولهذا كان يسمى Comes civitatis (قومس المدينة) أو Comes territorii (قومس الناحية) أو Comes provinciae (قومس المديرية) أو Comes exercitus (قومس الجيش) إذ يغلب على ظننا أنه كان هناك أكثر من قومس ، لكل منهم اختصاص ، وفوق هؤلاء جميعاً كان الدوكس dux أى القائد أو الحاكم الأعلى ، وهذا هو الذى كانت له الاختصاصات المتعددة . ويبدو أن القمامسة كانوا قد أصبحوا فى أواخر أيام القوط مجرد موظفين ، كل منهم يوكل بناحية من نواحى الإدارة ، وصغر شأنهم تبعاً لذلك ، لأننا لا نجد القمامسة يتصدون للعرب دفاعاً عن نواحيهم . حقيقة أنهم كانوا جميعاً قوطاً ، وقد هربوا بعد واقعة وادى لكه ، ولكن يمكن أن يقال أيضاً أن أمرهم كان قد ضعف ، فلم تعد لهم القيادة ، ولهذا لم تذكرهم النصوص .

(٢) SIMONET, op. cit. p. 108.

الناس صورة إسبانية عندما جرت فى الاستعمال الدارج ، وقد صحب هذا التطور اللفظى تطور فى معنى الوظيفة واختصاصها فى بعض الأحيان .

٢٠٨ - **قاضى العجم** كان القاضى يسمى أولاً « يودكس Judex » ، ثم حلت محلها لفظة «القاضى» العربية ، ثم صارت هذه اللفظة على ألسنة الناس أَلْكَالْدِ Alcalde ، وبهذه الصورة دخلت اللغة القشتالية وظلت فيها إلى اليوم ، وتطور معنى الألكالد أيضاً مع الزمن فصار إلى ما يشبه « العمدة » عندنا (فى المدن الصغيرة والقرى)، والأغلب أن هذا التطور حدث عندما أسلم معظم الناس وتضاءل بذلك اختصاص قاضى العجم فى الفصل فى القضايا ، وأصبح أشبه برئيس شرفى تنتخبه الجماعة النصرانية من غير اختصاص واضح ، كما هى حالة العمدة فى المدن الصغيرة .

وقد حدث تطور شبيه بذلك أيام القوط فى اختصاصات القضاة : فقد كان للقوط قضاة من أنفسهم يسمون فى اللاتينية Millenarii وفى الدارجة Theofadi إلى جانب قاضى الأهالى من الايبيريين الرومان الذى كان يسمى Judex ، ثم غلب اختصاص هذا الأخير حتى أصبح قاضى الايبيريين الرومان والقوط جميعاً وتحول قاضى القوط (الميليناريوس أو الثيوفادوس) إلى موظف عسكرى (١) .

٢٠٩ - **صاحب المدينة** وإلى جانب القومس ، وهو حاكم المدينة وزمامها ، وهو ما عُرِف فى النظام الإسلامى بالكورة ، كان يوجد فى النظام الرومانى ثم القوطى حاكم خاص للمدينة Defensor Civitatis أى حامى المدينة أو حارسها ، فبقيت هذه الوظيفة وعُرِّبت إلى « صاحب المدينة » ، وصارت فى عجمية أهل الأندلس Zahalmedina

(١) يستعمل لفظ يودكس (Judex = قاض) فى التشريعات القوطية استعمالاً واسعاً ، فيطلق على القاضى وعلى الموظف بصورة عامة ، وربما أطلق لفظ يودكس على حاكم الناحية بدلاً من Comes ، ومن ثم فإن ما يذكره القانون القوطىLiber Judicum من وجود iudex provinciae أو iudex civitates ليس معناه قاضى المديرية أو قاضى المدينة بل يراد به الحاكم . وكان لهؤلاء اليوديسِس Iudices نواب فى النواحى . وكان يشترط فى اليودكس أن يكون من القوط فى حين كان النواب Vicarii من أهل البلاد. ويلاحظ أن هذا الاضطراب فى استعمال لفظ يودكس لم يقتصر على اللفظ بل شمل الاختصاصات أيضاً ، فأصبح حاكماً أو موظفاً كما رأينا . وقد انتقل هذا إلى قضاة العجم فى الأندلس الإسلامى ، فهم يسمون فى بعض الأحيان « الوزير القاضى » ولفظ وزير هنا ليس مجرد لفظ تشريف ، بل يدل على أن قاضى العجم كان يتمتع بسلطات تنفيذية إلى جانب وظيفته القضائية . ولا نجد قضاة مسلمين يلقبون بالوزير القاضى إلا فى الأزمنة المتأخرة عندما انحط معنى لفظ وزير ، وأصبح مجرد لقب تشريف .
انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : ibidem. و PEDRO AGUADO BLEYE, Manuel de Historia de España, tomo I (Madrid, 1947) p. 368.

أو Zafalmedina أو Zalmedina ، وستدخل هذه الوظيفة فى النظم الإسلامية الأندلسية ، وسيتولاها مسلمون فيما بعد [١] .

٢١٠ - المشرف وكان هناك موظف يوكل بشئون المال فى الناحية ، يعرف قبل العرب باسم Praefectus aerarii فعرَّبها العرب إلى « المشرف » وانتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس فى صور شتى : alamosérife و almossarif و almoxerife و almoxarife ، وبهذه الصورة الأخيرة بقى اللفظ فى اللغة القشتالية.

٢١١ - مستخرج الخراج أما قومس الخزانة Comes thesaurorum فقد حل محله « مستخرج الخراج» أو مستخرج خراج الذمة ، إلى جانب عامل الخراج المعروف فى النظم الإسلامية ، وقد تضاءلت أهمية « مستخرج الخراج » مع الزمن .

٢١٢ - صاحب الشرطة وكان هناك موظف مكلف بالأمن فى المدينة يعرف باسم praetor urbanos فحل محله «صاحب الشرطة » ، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس فى صور مختلفة مثل Sahba Seorta و Sacbascorta ، ودخلت الوظيفة فى النظام الإسلامى كما هو معروف . ومن الطريف أن العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها فى المشرق من البيزنطيين (شرطة = Securitas) ثم حملوا الوظيفة بلفظها إلى الأندلس حيث أخذ اللفظ صورة عربية فى العجمية الأندلسية.

٢١٣ - الأمين وكان العمال فى المدن منظمين منذ العصر الرومانى على صورة هيئات تشبه النقابات تعرف كل منها بالكلية collegia [٢] ، وكان لكل منها رئيس مسئول عن أهل الحرفة وضرائبهم أمام الدولة ، وقد اضطرب نظام هذه النقابات على أيام القوط ، فلما أقبل العرب أعادوا تنظيم هذه النقابات ، وجعلوا على رأس كل منها رئيساً من أهلها يسمى «الأمين»، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية الأندلس، فكان يقال el alamin .

---

(١) ذهب سيمونت فى كتابه المعروف Historia de los Mozárabes (ص١٠٨ - ١٠٩) إلى أن تعريب هذه الوظائف كان كما يلى :

judex = القاضى

praetor urbanus = صاحب المدينة

praefectus acrarii = المشرف

وقد خالفناه فى ذلك كما يرى فى النص

وقد خلط بين المحتسب والأمين والعريف ، وصوبنا ذلك فى كلامنا .

(٢) AGUADO BLEYE, op. cit. p. 248.

٢١٤ - العريف وكان لهذا التنظيم أثره فى استقرار أحوال المدن وأهلها ، وكان معظمهم كما قلنا من أهل الذمة . وقد ظهرت نتائج هذا الاستقرار بصورة خاصة بين الصناع ، إذ تحسنت أحوالهم بصورة لم تكن قبل أيام المسلمين ، وظهر من بينهم أساتذة مهرة فى صناعاتهم عُرِف الواحد منهم بالعريف والجمع عرفاء، وقد انتقل لفظ عريف إلى عجمية أهل الأندلس فى صورة alharif (وتحرف إلى alhariz) ومنها إلى القشتالية el al-arife واقتصرت بعد ذلك على رؤساء البنائين ، ولا زال اللفظ باقياً فى الإسبانية إلى اليوم .

وقد تطورت هذه المصطلحات بعد ذلك تطوراً أوقع الكثير من الباحثين فى الخطأ، فخلط بعضهم بين الأمين والمحتسب ، وسنتحدث عن هذا الأخير فى كلامنا على التنظيم الإسلامى العام للأندلس ، وخلطوا بين القاضى والوزير ، لأن الوزير أخذ معانى خاصة فى الأندلس ، منها معنى الأستاذية أو التمكن من صناعة ما ، بل أصبح لفظاً من ألفاظ التشريف ، فيقال : الوزير القاضى فلان ، أو الوزير المشرف فلان ، أو الوزير الكاتب وما إلى ذلك . ويبدو أن هذا الترخص فى استعمال لفظ الوزير ، والقاضى كذلك ، بدأ أولاً بين جماعات أهل الذمة ، فكانوا يخاطبون قاضيهم بقولهم : «الوزير القاضى الأفضل دون ملنده ابن لَنْبَظار رحمه الله » أو « الوزير القاضى دُمِنْقُه أنْتُلِين » ، ومن الغريب أن لفظ القاضى فى الإسبانية وهو Juez لقى أيضاً مثل ذلك الانحدار ، فقد جاء فى قاموس بطرس القلعى (Pedro de Alcala) فى تعريف لفظ Juez albañir : alarife (= قاض بنّاء ، يريد معلم بناء) ، وjuez de edificios (= قاضى مبان ، يريد معلم مبان)[(١)] .

٢١٥ - الزراع وسنتحدث فى الفصل التالى عن تنظيم العرب للسكان عموماً ، ولكن ما دمنا بصدد الكلام عن أهل الذمة ، فلنقل شيئاً عن الزراع ، وكان معظمهم أول الأمر من أهل الذمة . لقد أزال العرب النظام الذى كان سائداً أيام القوط والذى كان يجعل الزراع جميعاً إما رقيق أرض Servi ، أو عمال أرض أحراراً أقرب إلى الرقيق-ingenui in-feriores ، أو عبيداً esclavi فأزال العرب ذلك كله ، فلم يبق إلا الأحرار والعبيد أو الأرقاء ، فإذا أسلم الرقيق صار حراً ، له ما للأحرار من حقوق ، أما رقيق المسلمين الأندلسيين فحكمهم حكم الرقيق كله فى العالم الإسلامى ، وهو معروف . وقد احتفظ العرب بالتنظيم العام للزراع فى قرى أو ضياع aldeas .

(١) Cf. : SIMONET, op. cit. p. 109.

٣١٦- المسلمون والكنيسة يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروا ما أصاب الكنيسة الإسبانية من الأذى على أيدى المسلمين ، ويطيل بعضهم - مثل سيمونيت ولاس كاخيجاس - الحديث بالتفصيل عن الكنائس التى تهدمت والمتاعب التى لقيها بعض النصارى على أيدى المسلمين ، ولا يسع القارىء وهو يتتبع ما يقولونه إلا أن يأسف إذ يجد مؤرخين محدثين لا زالوا يجرون فى مضمار عصب الدين فى حديثهم عن أشياء وقعت قبل قرون متطاولة ، خاصة وقد عادت إسبانيا نصرانية ، وأصبح كل ما يتصل بإسبانيا الإسلامية تاريخاً ماضياً ، وأصبحت المبالغة فى العصبية الدينية أو العنصرية مجرد تشويه للتاريخ .

ومن الغريب أن هذه العصبية تشمل عصور ما قبل الإسلام ، ففى كل ما لدينا من التواريخ التى كتبت حديثاً لإسبانيا يحاول المؤرخون أن يثبتوا أن إسبانيا كانت على الأقل منذ المجمع الدينى الطليطلى الثالث الذى عقد فى سنة ٥٨٩ بلداً كاثوليكياً خالصاً لا شبهة فيه لمذهب مسيحى آخر ، ولا صوت يعارض قواعد هذه العقيدة كما قررها ذلك المجمع ، بل إننا لنجد مفكراً طائر الصيت مثل مارثيلينو مننذ اى بلايو يتصدى لنقد المذهب الأريوسى فى حماس المبشر الذى يخشى خطر أقوال آريوس المصرى على العقيدة الكاثوليكية الراهنة ، هذا وقد ذهب آريوس وذهبت أيامه منذ نيف وثلاثة عشر قرناً (توفى آريوس سنة ٣٣٦م) ولم يكن الرجل إلا مفكراً مسيحياً حاول جهده أن يصل إلى الحق بحسب ما انتهى إليه فهمه لنصوص الكتاب المقدس .

والمؤرخون المنصفون ينظرون إليه بإجلال ، لا تقديراً لرأيه ، بل لأنه كان أحد الباحثين عن حقيقة العقيدة المسيحية فى عصر كان البابوات والأساقفة وغيرهم من رجال المسيحية يحاولون فهمها وتوضيح قواعدها . وإذا ذكرنا أن آريوس ولد سنة ٢٨٠ وأينع وأخذ يتعرف عقيدته المسيحية حوالى سنة ٣٠٠ وأن المسيحيين جميعاً كانوا إذ ذاك يطلبون النجاة فى باطن الأرض ، ويقيمون كنائسهم فى السراديب والمغاور ، إذا ذكرنا ذلك قدرنا جهده كمفكر وكمؤمن مسيحى ، لأن المسيحية لم يُعترف بها ديانة كغيرها من ديانات الامبراطورية الرومانية إلا بعد صدور منشور ميلان فى سنة ٣١٢ ، ثم إن الذى دحض آراء آريوس وقطعه بالحجة كان مفكراً مصرياً آخر هو أثناسيوس المعروف باسم الأنبا طناش ، فقد تولى بطريركية الإسكندرية بعد الأنبا إسكندر ، ونحن عندما نؤرخ للكنيسة المصرية إنما ننظر لآريوس - رغم إنكار الكنيسة المصرية له - على أنه مفكر جدير بالتقدير ، وشخصية

لها قيمتها فى تاريخ الفكر المسيحى والإنسانى عامة دون أن يملكنا الخوف من أن تعود آراؤه فتشوب عقائد الكنيسة القبطية المصرية .

ولكن مننذذ بلايو وأجوادو بلاى من مؤرخى إسبانيا المحدثين يحملان عليه حملة عنيفة، ويرددان كلام القديس إيزيدور الإشبيلى فى حماس كأننا لا زلنا اليوم فى معركة الآريوسية والكاثوليكية(١) .

٢١٧ - المسيحية فى إسبانيا القوطية وهذه الروح نفسها هى التى تسود ما لدينا اليوم عن أحوال الكنيسة أيام القوط ، فلم تكن المسيحية الإسبانية أيام القوط كتلة واحدة : كانت هناك نزعات وآراء معارضة ينادى بها جماعات من الناس ، ولم تكن كلها رحمة وسلاماً ، فقد كانت هناك اضطهادات ومحاكمات وكان هناك ضحايا ، ولكن هذا كله يسدل عليه ستار كثيف ، فلا نظفر إلا بإشارات عابرة عنه ، والهدف من ذلك فيما يبدو هو تصوير هذه الكنيسة على أنها كانت رمزاً لوحدة الوطن الإسبانى وسلامه ، مما يجسم بطبيعة الحال ما أصاب إسبانيا بدخول الإسلام فيها ودخولها فى الإسلام ، ويعظم بالتالى قيمة عودتها إلى المسيحية .

٢١٨ - الكنيسة والدولة أيام القوط بل إن أجوادو بلاى ، وهو مؤرخ معاصر له مكانة ، يحاول أن ينفى عن الكنيسة القوطية خضوعها للدولة ، وهى حقيقة بسيطة يسلم بها المؤرخون المنصفون لا تضير الكنيسة الكاثوليكية فى شىء ، وإليك مثلاً من حديثه :

« إن الاتحاد الوثيق بين الكنيسة والدولة ، ابتداء من المجمع الطليطلى الثالث ، لا يسمح بالقول بأن الكنيسة القوطية كانت كنيسة قومية (يريد أنها كانت كاثوليكية أى عالمية) ، ذلك لأن الملك كان لا يوجهها ولا يحكمها ، ولا يجوز كذلك أن نسمى الدولة القوطية حكومة ثيوقراطية ، لأن الكنيسة لم تكن تسود الدولة . حقيقة كان الملك يتدخل فى الشئون الكنسية ، ولكن هذا التدخل يرجع فى أصوله إلى أيام الامبراطورية وأيام الآريوسية . كان ملوك القوط يدعون المجامع الدينية للانعقاد ، كما كان يفعل ذلك قبلهم الامبراطوران

(١) MARCELINO MENENDEZ y PELAYO, Historia de los Heterodoxos Españoles, tomo I (Madrid, 1946) pp. 306 sqq.

AGUADO BLEYE, op. cit. I p. 363.

وانظر ص٣٤٧ حيث يقرر بلاى أنه غير آسف على إحراق كتب الآريوسيين وغيرهم من المخالفين ويسخر من أحرار الفكر الذين يأسفون على ضياعها !

قسطنطين وثيودوسيوس . بل إن ملوك القوط لم يكونوا يدعون إلى عقد المجامع فقط ، بل كانوا يحضرون جلسة الافتتاح للمجمع الطليطلي يحيط بهم نفر من الحاشية الملكية aula re-gia ، وكانوا يقرأون الكتاب الملكي tomo regio وهو برنامج الموضوعات التي سيبحثها المجمع. وكانت قرارات المجمع توقع بإمضاءات من حضر من رجال الحاشية إلى جانب إمضاءات الأساقفة والقساوسة ورعاة الكنائس » .

« ولم يكن لمجامع طليطلة سلطة تشريعية فيما يتصل بالشئون المدنية ، بل في الشئون العقيدية فحسب . ولم يكن للقرارات المتصلة بالعقيدة أثر في الشئون المدنية إلا إذا أقرت ذلك القوانين التي يصدرها الملوك . كانت القرارات في هذه الحالة تعتبر قوانين ، لا بمحض صدورها عن المجامع ، وإنما بإقرار الملوك إياها . كان الأساقفة بصفتهم من كبار أهل الدولة يعتبرون جزءاً من الحاشية الملكية ، وكانوا تبعاً لذلك جزءاً من المحكمة التي تنظر في الجرائم السياسية والمخالفات التي يرتكبها أهل الطبقة العليا . وقد شاعت هذه الصور من تدخل الملوك في شئون الكنيسة بعد ذلك بقليل في كل الدول الأوروبية في العصر الوسيط . إن تأثير الكنيسة في قرارات الملوك لم يكن ناشئاً عن أن القانون يقرر ذلك ، ولم يكن قائماً على أساس من النظام العام ، بل كان سببه الامتياز الفكري الذي تمتع به رجال الدين ، ولم يقتصر هذا الامتياز على إسبانيا ، بل كان شائعاً في كل بلاد غرب أوروبا » .

ثم يقول بعد ذلك : «... إن مجمع طليطلة ، بعد انعقاده الرابع في سنة ٦٣٣ ، وبسبب اعتبار لعنة الكنيسة مبدأ سياسياً ، أصبح محكمة عليا ، ضماناً للملك ورعاياه، وكانت هذه المحكمة تفرض على الناس احترام شخص الملك ، وأقامت من نفسها سلطاناً معدِّلاً لسلطان الملك ، وأوجدت نوعاً خاصاً من الجرائم ضد الوطن يعاقب بعقوبتين : عقوبة مدنية ولعنة الكنيسة . وقد قال متندذ بيدال : إن هذه الملكية الكاثوليكية التي كان للأخوين لياندرو وإيزيدور عليها أثر عظيم لا يمكن أن تكون ثيوقراطية . لم يكن رجل الدين يحكم بل يوجه ، وكان ينفع الحاكم كما ينفع المحكوم : إن التداخل والتشابك بين الكنيسة والدولة كانا أقوى في إسبانيا منهما في أي بلد آخر معاصر ، لأنهما كانا من صنع المجامع »[1] .

وهذا الكلام - الذي اجتهد العالمان الجليلان في صياغته على هذا النحو الذي يبدو

(١) MENENDEZ PIDAL. Historia de España. tomo III (Madrid, 1940) Introducciôn, p. XLI. AGUADO BLEYE. op. cit. p. 366.

وكأنه « تأملات » أكثر مما هو حقائق تاريخية - يحاول الرد على حقيقة تجمع عليها كتب التاريخ غير الإسبانية ، وقد أوجزها جيبون فى عبارة بسيطة عندما قال إن إسبانيا القوطية كانت : a priest ridden state « دولة يركبها القساوسة » ، وربما كانت خلاصة ما أراد أجوادو بلاى الرد عليه فى عبارته الآنفة الذكر .

لقد عرفت الكنيسة كيف تستغل نصرها بتحويل ريكاريدو إلى الكاثوليكية وفرض سلطانها على الدولة ، فاستولت على أرضين وعقارات بلغت خمس الأرض الخصيبة فى إسبانيا كلها ، وقامت سيفاً مسلطاً على رءوس الناس ، كما ستصبح المالكية فيما بعد ، فحرقت كتب المذاهب المخالفة ، وفى مقدمتها المذهب الآريوسى ، وعوقب المعارضون بالقتل والنفى والتشريد وانتزاع أبنائهم منهم وما إلى ذلك من العقوبات [١] .

٢١٩ - رأى راينهارت دوزى

ولسنا نريد أن نجارى المؤرخ راينهارت دوزى فى مبالغته فى تصوير سوء حالة الكنيسة وما جر إليه اتحادها مع الدولة فى ذلك العصر ، فقد كان دوزى ملحداً يحسب أن حرية الفكر معناها مهاجمة رجال الدين أياً كانوا ، ولقد قسا فى « تاريخ إسبانيا الإسلامية » على رجال الدين جميعاً نصارى ومسلمين . ولكننا نكتفى من كلامه بعبارة تغنى عن كلام كثير ، فقد قال بعد أن سخر ما شاء له أسلوبه اللاذع من رجال الدين عندما صاروا إلى القوة والسلطان : « ... ومن الآن فصاعداً ، وبعد أن أصبحوا ملاكاً لأراض فسيحة تعمرها أعداد غفيرة من رقيق الأرض ، وأصحاباً لقصور فاخرة تعج بالعبيد ، تبين القساوسة أنهم أسرفوا فى المسير ، وأن زمان تحرير الرقيق لم يحن ، وأنه لن يحين إلا بعد انتظار قرون لا أدرى عددها ». لقد دهش القديس إيزيدور الفَرَمى [٢] وهو متأبد فى صحارى الصعيد ، من أن مسيحياً يستطيع أن يملك عبداً ، فى حين أن قديساً آخر يحمل اسم إيزيدور أيضاً ، هو أسقف إشبيلية المشهور ، الذى كان خلال زمن طويل روح مجامع طليطلة الدينية و« فخر الكنيسة الكاثوليكية » كما قال الآباء الذين اجتمعوا فى المجمع الثامن ، لا يردد عندما يتحدث عن الرق آراء سميه وإنما آراء حكماء الأعصر القديمة ، آراء أرسطو وشيشيرون . لقد قال الفيلسوف الإغريقى : « إن الطبيعة خلقت بعض الناس ليحكموا وبعضهم الآخر ليطيعوا » ، وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس هناك ظلم فى أن

---

(١) MENENDEZ PELAYO, op. cit. I p. 352.
وهذا المفكر الجليل يبرر ذلك كله ويدافع عنه .

(٢) هو القديس Sanctus Isidorus Pelusii نسبة إلى بلوزيوم وهى الفرما . ولهذا سميناه الفرمى .

يقوم بالخدمة أولئك الذين لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ، وإيزيدور الإشبيلى يقول نفس الشىء :

acquus Deus ideo discrevit hominibus vitam, alios servos constituens, alius dominos, ut licentia male agendi servorum potestate dominantium restringatur.

(= ... ولهذا السبب أيضاً ميَّز الله مصائر الناس بعضهم على بعض : فصار بعضهم عبيداً ، وصار بعضهم سادة ، وذلك حتى يكون سلطان السادة مانعاً لسريان الشر الذى يصدر عن العبيد) .

ولكنه يناقض نفسه ، لأنه يقرر أن كل الناس سواسية أمام الله وأن خطيئة الإنسان الأول ، وهو يعتبرها أصل العبودية ، قد زالت بالخلاص (بدخول المسيحية) . «وإننا لبعيدون كل البعد عن الرغبة فى لوم رجال الدين إذ لم يعتقوا العبيد ، وعن الرغبة فى مجادلة رأى أولئك الذين يؤكدون أن العبد غير قادر على عبء الحرية . نحن لا نجادل، وإنما نكتفى بأن نقرر حقيقة كان لها نتائج هامة ، وهى أن رجال الدين بسبب تناقضهم، لم يحققوا آمال الرقيق . وقد ساء حال أولئك المساكين بدلاً من أن يتحسن ، لقد اتخذهم الجرمان - مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية فى ولايات الدولة الرومانية الأخرى - خدماً خاصاً لهم وفرضوا عليهم السخرة . وجدير بنا الإشارة إلى عُرف جدَّ ولم يكن معروفاً أيام الرومان فيما يبدو ، وهو أن تُلزَم أسرة من الرقيق بأداء خدمة معينة إلى السيد بصورة وراثية ، فتقوم أسرة بعينها بزراعة الأرض للسيد ، ويخلف الآباء الأبناء فى ذلك ، وتقوم أسرة أخرى على نفس المنوال بالصيد ، وثالثة بحراسة قطعان الماشية ، ورابعة بأعمال النجارة ، وخامسة بالحدادة وهكذا »[١] .

« ولم يكن الرقيق أو العبد ليستطيع الزواج بدون موافقة سيده ، فإذا تزوج دون أن يحصل على هذه الموافقة اعتبر زواجه كأن لم يكن ، وفصل بينه وبين زوجته بالقوة ، وإذا تزوج رجل من طبقة الرقيق امرأة فى ملك سيد آخر تقاسم السيدان الأولاد مناصفة . وإذن فقد كان قانون القوط فى هذه الحالات أقل إنسانية من قوانين الامبراطورية الرومانية ، لأن الامبراطور قسطنطين حرم التفريق بين النساء وأزواجهن وبين الآباء وأبنائهم والإخوة

(١) MUÑOZ, Fueros, p. 123 - 125.

وإخوتهم (١) وعلى العموم لا يمكن الشك فى أن حالة طبقة الرقيق لم تكن بالغة القسوة تحت سلطان القوط ، [ويتبين ذلك] عندما تتأمل القوانين العديدة القاسية التى أصدرها القوط ضد الرقيق والعبيد الآبقين ، وعندما نرى رقيق أشتريس - وكانت أحوالهم فيها قد بقيت على ما كانت عليه فى إسبانيا كلها دون تغيير - يقومون بثورة عامة ضد سادتهم » (٢) .

ثم يستطرد دوزى قائلاً : « وإذا كان القساوسة لم يحسنوا بصورة ما أحوال الرقيق، فإنهم لم يفعلوا شيئاً أيضاً للطبقة الوسطى ، ظل أهل هذه الطبقة (الكوريالس Curiales) على ما كانوا عليه : تابعين للأرض التى يعيشون عليها . وعلاوة على ذلك ، لم يعد من حق أى مواطن أن يبيع ممتلكاته . لقد انتقل الحرص على جباية أموال الدولة من أباطرة الرومان إلى ملوك القوط ، ضمن ما انتقل إليهم من تقاليد الرومان ، بل إنه ليبدو أن التلاميذ (وهم القوط) لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم (وهم الرومان) فى هذا المضمار . ظلت الطبقة الوسطى إذن فى شقائها وسوء أحوالها ، ولا تنكر قرارات مجامع طليطلة ذلك » .

« وبقيت كل الجروح التى كان الناس يئنون منها فى العصور الرومانية : ظلت الملكية محصورة فى أيد قليلة (فى صورة إقطاعيات ضخمة)، وبقى الرق بصورة عامة، ونتيجة لذلك ظل العمل فى الأرض نصيب الزراع وملك الأراضى نصيب الملاك » (٣) .

٢٢٠ - الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة

والواقع أن اتحاد الدولة والكنيسة ، بعد تحول ريكاريدو إلى الكاثوليكية لم يجلب معه السلام واتحاد الشعب كما يتصور بعض المؤرخين ، ولم يأت وصول رجال الدين إلى السلطان إلا بالنتائج الطبيعية التى نتجت عن مثل هذه الظاهرة على طول التاريخ : اضطهاد المخالفين والقسوة عليهم والمحاكمات الدينية وإثراء رجال الدين وتحول الدين إلى أداة للحكم، وتعرض لكل ما تتعرض له أدوات الحكم كلها من نزوع إلى الاستبداد، وأخطاء فى السياسة، وتعرض رجال الدين للنقد والمخاصمات ونفور الناس. وقد حدث مثل ذلك فى الإسلام ، عندما وصل المعتزلة إلى السلطان أيام المأمون ، وعندما قامت دولة المالكية فى الأندلس ابتداء من أيام عبد الرحمن الأوسط .

---

(١) انظر :

MUÑOZ, Del Estado de las personas en los reinos de Asturias y Leon

(٢) Forum Iudicum, V, 4, 19 : De non alienandis privatorum et curialem rebus.

وهذه التعليقات الثلاثة الأخيرة واردة بنصها على هامش كلام دوزى الذى نتابعه :

Cf : R. DOZY, Histoire des Musulmans d'Espagne (2e éd. dirigée par LÉVPROVENÇAL. Leyde, 1932) vol. I, p. 265 - 266.

(٣) DOZY, Ibidem.

ومع ذلك ، فإن الاتجاه الغالب على التأريخ الإسبانى للعصر القوطى ينكر هذه الحقيقة ، ويتصدى لدحضها بالحماس والبلاغة والقسوة فى الحكم على المخالفين ، لا بحقائق التاريخ. ويبدو هذا الاتجاه فى أظهر صورة فى كلام كاتب إسبانيا الأكبر فى العصور الحديثة مننديث بلايو ، وإليك مثلاً من كلامه الذى يُذكِّرنا بعنف أبى محمد على بن حزم فى مجادلاته مع خصومه : « يقولون إن المجامع الدينية اغتصبت اختصاصات ليست من حقها . من الذى يستطيع تأييد هذا السخف ؟ فى أى ناحية كان المعلم وفى أيها كان الجهل ؟ لمن كانت الكنيسة تتنازل عن وظيفة تعليم أبنائها وتوجيههم ؟ أكانت تنزل عنه لأتباع ويتريك(Los Witericos) وخشندش Los Chindasvintos أو إيرفيج Los Ervigios الذين وصلوا إلى الحكم عن طريق قتل الملك السابق أو بواسطة حيلة حقيرة تحرمه من التاج ؟ لقد كانت الإنسانية تستطيع أن تحقق تقدماً واسعاً فى حكم أمثال أولئك الأمراء ! إن وصاية المجامع على الدولة لم تُفرض فرضاً ولم تُنتزع انتزاعاً ، وإنما ساقها القانون الإلهى وسعى إليها ملوك القوط أنفسهم » .

« لم يوافق كل الشعب الآريوسى على الانفضاض عن عقيدته ، وذلك لسوء حظه وحظ الملكية القوطية ، فبالإضافة إلى بعض الدخلاء من الأساقفة ، كان هناك عنصر محارب معاد (للكاثوليكية) ولا يمكن التفاهم معه ، عنصر لم ينسجم مع الحضارة الإسبانية الرومانية ، التى لم يستطع إدراك كنهها ، ولم يستمع إلى تعاليم الكنيسة ، بل تصدى لاضطهادها قدر ما استطاع عن طريق مؤامرات أو ثورات ضد الملوك الذين كانوا يؤيدونها . هذه المعارضة العسكرية الكافرة تمثلت أولاً فى صورة ويتريك Witerico وتمثلت ظاهرة إلى حد ما فى اغتصاب وخَشَنْدش Chindasvinto للعرش ، وفى الحرب التى شنها هيلديريك وبولس (Hilderico y Paulo) على الملك « وامْبَا » ، وتمثلت قبل كل شىء فى موقف غيطشة وأولاده ، أو أولئك الخونة - أياً كانوا - الذين فتحوا للعرب أبواب الزقاق . وقد وصلوا دون شك إلى إدراك ما طلبوا من الانتقام الوضيع ، وزالوا من الوجود كشعب جزاء وفاقاً لهم على ما كان من شرهم وخبثهم . إن الشعب الذى نهض لاسترداد أرض الوطن شبراً شبراً كان شعباً إسبانياً رومانياً ، إذ اندمج فيه القوط الطيبون اندماجاً تاماً ، أما عصبة النبلاء الذين باعوا وطنهم فقد أغرق الله ذكرهم فى بحر التاريخ »(١) .

(١) MENENDEZ PELAYO, Historia de losheterod oxos... I, p. 347 - 348.

٢٢١ - الخلافات الدينية والفتح الإسلامى

وهذا الكلام يفتح لنا باباً فى تفسير سرعة انتشار الإسلام فى الأندلس ، فهو - على ما فيه من مجافاة «السياسة العلم» كما يقول أصحابنا الأندلسيون فى نقدهم لابن حزم - يربط بين تصرف غيطشة وأولاده والنفور الذى ساد بعض جماعات من أهل إسبانيا القوطية من استبداد الكنيسة واستعانتها بسلطان الملوك . وعلى ضوء هذه الإشارات نفهم أن عداء غيطشة لإيخيكا كان من بعض نواحيه نفوراً من سلطان الكنيسة واتجاهها إلى فرض مذهبها بالقوة . وإذا نحن ذهبنا نتعمق الأمر تبين لنا أن الأمر فى إسبانيا قبيل الإسلام كان يشبه إلى حد بعيد الموقف فى مصر قبيل الفتح ، فقد كانت منازعات المذاهب فى مصر على أشدها ، وكانت مصر ابتداء من القرن الثالث المسيحى فى صراع متصل مع الدولة البيزنطية ، وكان المصريون - قبل أن تتدخل الدولة البيزنطية فى نزاع العقائد - يسوون مشاكلهم بأيديهم ، كما حدث فى الصراع بين الآريوسية والأثناسيوسية ، إذ انتصرت الأخيرة وتلاشى مذهب آريوس ، وتفرق الباقون من المتأثرين به ، ومنهم أوريجانس ، الذى ذهب إلى أنطاكية حيث تكونت حوله مدرسة كان لها فى تاريخ المسيحية الشرقية تاريخ طويل ، واتحد المصريون مع أهل الإسكندرية فى محاربة كل بدعة تناقض المذهب الأرثوذكسى كما تقرر فى مجمعى نيقية وافيسوس الأول .

فلما تدخلت الدولة وتصدت لحماية الأرثوذكسية ، وأخذت تفرض على الناس مذاهب معينة ، كما حدث فى مجمع افيسوس الثانى ، بدأ المصريون وأنصارهم يتخذون موقفاً معارضاً للدولة ، بدافع التحدى لسلطانها فى صورة معارضة لسلطانها السياسى ، وظهر هذا بصورة واضحة فى مجمع خلقيدونية الذى تصورت كنيسة القسطنطينية أنها قضت فيه على منافستها كنيسة الإسكندرية فخاب ظنها ، لأن النزاع تحول بعد ذلك إلى نزاع قومى ، وصمد المصريون وتحولوا شيئاً فشيئاً نحو المونوفيزية وثبتوا عليها رغم اضطهاد قَيْـرُس ، ثم انضم قيرس إلى أقباط مصر ، ولم يجد مخرجاً من أذى الدولة إياه إلا بالاتفاق مع العرب ، إذ رجا أن يجد فى حكمهم خلاصاً من اضطهاد الدولة وتدخلها الدائم فى شئون العقيدة .

وقد درجنا فى دراستنا لتاريخ مصر على أن ننظر إلى الخلافات المذهبية التى كانت متأججة بين مصر والدولة البيزنطية على أنها من آكد الأسباب فى تيسير فتح مصر على العرب أولاً ، وفى دخول المصريين فى الإسلام بعد ذلك . فأما عن أثر هذه الخلافات فى تيسير الفتح فأمر ظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل ، وأما عن تيسيرها دخول المصريين فى

الإسلام فنقول فيه إن مناقشات رجال الدين فى موضوع طبيعة المسيح واجتهاد كل صاحب مذهب فى اجتذاب الناس إلى رأيه وتنفير الناس من مذاهب الآخرين ، ثم تدخل الدولة وحرصها على فرض آراء معينة فى ذلك الموضوع ، كل ذلك أوقع الناس فى حيرة كبرى من أمر دينهم ، وتضاربت الآراء فى أذهانهم ، فلم يعرفوا أيها الصحيح ، ولم يعرفوا كذلك بأيها يأخذون ليضمنوا سلامة عقيدتهم من ناحية وسلامة أبدانهم من أذى الحكام من ناحية أخرى . فإذا هم فى ذلك إذ دخل عليهم العرب بالإسلام ببساطته ويسر أصوله ، فبدا لهم وكأنه مخرج من ذلك الحرج كله ، ووجدوه يقرر نبوة عيسى عليه السلام ويلغى مسألة الطبيعتين باستنكاره بنوة المسيح لله وتقريره أنه نبى كغيره من الأنبياء ، وتأكيده ذلك بنفيه مسألة صلب المسيح مما ينقض نظرية الخلاص نقضاً مبرماً . وكان القول « بالخلاص » عبئاً ثقيلاً على نفوس الناس ، إذ لم يتصوروا كيف يخلق الواحد منهم محملاً بإثم خطيئة الإنسان الأول ، وكيف ينبغى عليه أن يسعى فى خلاص روحه بالإيمان بالصلب أولاً ثم بشراء نصيبه من الخطيئة بألوان من الحرمان والعذاب من بينها تلقى الشهادة ثانياً .

وينبغى أن نذكر ذلك كله عند دراستنا لفتح المسلمين للأندلس ودخول أهله فى الإسلام ؛ فأما عن أثر الأحوال فى إسبانيا فى تيسير الفتح فقد فسرناه عندما قلنا إن القوط كانوا طبقة حاكمة متعالية منفصلة عن الناس ، وكان حكمهم ثقيلاً على الناس، فلما كسر العرب القوط دانت لهم البلاد ، كما دانت لهم مصر بهزيمة البيزنطيين. ولا عبرة بالقول بأن القوط غيَّروا سياستهم حيال الناس بعد قرارات مجمع طليطلة الثالث فى سنة ٥٨٩ وبعد إلغاء الملك رِخِشْفِنتُّو للقانون الذى يحرم زواج القوط بأهل البلاد بعد ذلك بسنوات قليلة ، فإن سلوك الناس لا يتغير بالقوانين بل بفعل الزمن ، وكان ما بين هذه التشريعات الطليطلية ودخول الإسلام زمناً قصيراً لا يسمح بحدوث هذا التغير الحاسم الذى يتغنى به مننذ بلايو (١) .

فقد ظل القوط حكاماً معتزين بالسلطان وإن أشركوا معهم رجال الدين فيه ، ولو أن أيام القوط طالت لكان من الطبيعى أن يحدث التمازج الذى افترضه مننذ بلايو، ولكن العرب دخلوا الأندلس والقوط على ما هم عليه من الانفراد بالسلطان ، فكانت المعركة بينهم وبين القوط لا بينهم وبين الايبيريين الرومان ، ولهذا كانت قصيرة المدى، وساعد على

(١) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. p. I. 345.

تقصير مداها ما كان من ضعف القوط واختلافهم فيما بين بعضهم وبعض . ويقرر ذلك منندذ بلايو بقوله: «لقد كان لحرص نبلاء القوط على الانتقام (بعضهم من بعض) ثمراته الطبيعيـة ، وربما لم يكن أولئك النبـلاء يحسبون أن عملهم هذا سيؤدى إلى هذه النتائج البعيدة ، فقد توجت الغـارة العربية التى قـام بها طـارق وموسى بنصر سريع عجيب ، وذلك بفضـل العناصر المعاديـة التى كانت تغلى فى إسبانيا ، وفُتحت المـدن والحصون عنوة أو صلحاً ، واستسلمت فى أوريولة المقاومة الضعيفة التى حاولها تدمير، وهو القوطى الوحيد الذى حاول أن يرفع رأسه وسط الدمار العام ، وقامت الحاميات العربية واليهودية فى إشبيلية وقرطبة وطليطلة وباجة...» (١) .

٢٢٢ - رأى فى الخلافات الدينية المسيحية وإذن فقد كان للخلافات الدينية أثر بعيد فى تيسير الفتح الإسلامى للأندلس ، كما كان لها نفس الأثر فى فتح مصر . والمؤرخون الإسبان يستنكرون هذه الخلافات ويحملون حملة بالغة على ما خالف العقيدة الكاثوليكية منها ، ويصفون أصحابها بالخيانة والإجرام والمروق وما إلى ذلك ، ولكنهم لو أمعنوا النظر لبدا لهم الأمر أهون من ذلك بكثير . فإن المسيحية نفسها كانت إلى ذلك الحين موضع مناقشات ، وكانت أصولها غير واضحة أو محدودة ، وكانت المجامع الدينية فى الشرق والغرب تجتهد فى تحديد أركان العقيدة ، وكل مجمع ينشر على الناس رأياً يقرر أنه الصحيح ويحاول أن يحمل الناس على الأخذ به ، وكان الخلاف بين ما تصدره هذه المجامع يبدو فى بعض الأحيان وكأن كلاً منها ينادى بدين يختلف عما ينادى به الآخر .

كانت الكنيسة الشرقية تعتبر مذهبها هو المذهب القويم (أورثوذكس) ، والكنيسة الغربية تعتبر مذهبها عالمياً (كاثوليكى) ، وكانت كل منهما تكفر الأخرى ، بل كان فى داخل كل منهما أكثر من مذهب ، ففى الشرق كانت عشرات المذاهب أظهرها النسطورية والمونوفيزية والخلقيدونية ، وفى الغرب كانت الحرب المذهبية بين الأسقفيات بعضها وبعض ، وبينها وبين البابوية ، وقد كانت هذه الأخيرة لا تعنى عقيدة فقط وإنما عقيدة ودولة ، فقد كان بابوات روما يرون إذ ذاك أنهم ورثة الرسول بطرس من ناحية وورثة أباطرة الرومان من ناحية أخرى ، ولم يكن ذلك خافياً على أحد ، فكان الملوك يؤيدون بابـوات رومـا أو يناهضونهم تبعاً لمصالح عروشهم ، فقد أيدهم الفرنجـة وحاربهـم

(١) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. II, p. 7 - 8.

اللومبارد ، وكانت علاقاتهم بكنيسة طليطلة علاقة ولاء يشوبه الحذر ، وبين الحين والحين ، كانت الخلافات تقع بين البابوات ومطارنة طليطلة ، فقد كتب يوليانوس مطران طليطلة إلى البابا فى سنة ٦٥٣ يصفه « بجهل مخجل » وكانت الخلافات على أشدها فى مسائل العقيدة داخل الكنيسة الإسبانية : حول مسألة الرؤيا Apocalipsis أو مركز كنيسة روما (كنيسة الرسول بطرس) أو قداسة التعميد de sacramento babtismatis وما إلى ذلك ، وكانت المناقشات بين الأساقفة حول هذه الموضوعات تطول وتشتد ، وتنتهى عادة بقرار من مجمع طليطلة يُفرض على الناس فرضاً .

فإذا كان هذا حال البابوات والمطارنة والأساقفة من الحيرة فى مسائل العقيدة فما بالنا بغير رجال الدين من عامة الناس ، وكانت غالبيتهم العظمى لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم من اللاتينية حرفاً ؟ كيف ننتظر أن تكون أمور العقيدة مقررة فى أذهانهم بهذه الصورة التى يفترضها مؤرخو إسبانيا ؟ إنما الطبيعى أن تكون أذهانهم مبلبلة كما كانت حال غيرهم من علمة المسيحيين فى ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من انتشار السحر والكهانة والشعبذة فى إسبانيا وغالة ، وهى ظواهر لا تعم إلا فى أزمنة الاضطراب السياسى وانتشار المخاوف وضعف الإيمان وهبوط مستوى العقائد . ولم يقبل عليها عامة الناس فقط بل الملوك والنبلاء وبعض رجال الدين ، وابتداء من المجمع الطليطلى الثالث لا تخلو قرارات مجمع منها من بضع مواد تحرم السحر والكهانة والتوسل بالأشجار والأحجار وما إليها لكفّ أذى الأرواح الشريرة ، بل إن المجمع الخامس اعتبر من يمارس السحر أو يلجأ إلى الكهان ملعوناً من الكنيسة محروماً من رحمة الله ، وإننا لنلمح فى بعض قرارات المجامع ضد السحر أن بعض الناس كانوا يلجأون إليه ليتخلصوا من الحكام ، وأن بعضهم الآخر كان يقدم القرابين للشياطين ، بل انحدر الناس إلى الوثنية الصريحة حتى اضطر المجمع الطليطلى الثانى عشر عام ٦٨١ إلى حفز همم القساوسة على القضاء على عبادة الأصنام ، ولم ينحسم الأمر مع ذلك فنجد المجمع السادس عشر يحرم من رحمة الله عبدة الأوثان والأحجار وعيون الماء والأشجار والعرافين والسحرة ، وقرر المجمع الحادى والعشرون طرد القساوسة الذين يصنعون الأحجبة والرقى (١) .

لم تكن النصرانية فى إسبانيا القوطية إذن بالشمول الذى نتصوره ، ولم تكن العقيدة

(١) MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I, p. 422 - 428.

المسيحية واضحة محددة المعالم لعامة الناس ، وإنما كانت القلوب فى حيرة والعقول تتلمس طريقها لتفهم ما يلقى إليها ، وكانت الخلافات المذهبية كثيرة متضاربة ، وقد قامت مجامع طليطلة بجهد عظيم فى سبيل تحديد أصول العقيدة ، وقامت تفرض رأيها بالقوة والعنف ، فكان لذلك أثره الطبيعى : نفر الكثيرون منها وأخذوا يعارضونها ، ولما كان الملوك يؤيدون الكنيسة ويأتمرون بأمرها ، فقد أصبحت المعارضة الدينية معارضة سياسية أيضاً . ولا شك أن الخلاف بين بيتى غيطشة واخيكا كان له وجهه الدينى ، والأسقف لذريق الطليطلى يؤيد ذلك فيقول : « إن غيطشة لم يكن طاغية بغيضاً فحسب ، بل كان ملكاً منشقاً على الكنيسة وثائراً ، يؤيد اليهود ويحابيهم ، ويجمع مجلساً فى طليطلة ، ويصدر قرارات منكرة ، ويرد على تحذيرات البابا بفصل مملكته عن البابوية ، ويصدر قراراً يحرم به على رعاياه الاعتراف بسلطان البابا ويثير غضب الكنيسة بتعيين قريبه أوبه Oppas مطراناً لطليطلة فقد حشره فى هذه الوظيفة حشراً روع الناس ، وكان يحتل كرسى المطرانية قبل ذلك سِنْدِرِد (الذى عاد إليه عندما اعتلى لذريق العرش) وقتل فافله Fávila دوق كنتبريه وسمل عينى ثيودوفريدو Theodofredo وهدم أسوار المدن وأحرق السلاح ، لا حباً فى السلام ، كما زعم بعض المولعين بالمتناقضات ، ولكن ليحول دون قيام الثورات على سلطانه المستبد»[١].

٢٢٣ - الإسلام يضع حداً للاضطهادات الدينية المسيحية فى الأندلس

ولقد أعفى أصحاب هذه المذاهب والآراء من اضطهاد الكنيسة والدولة عندما صار الأمر للمسلمين، فقد دخلت الغالبية العظمى من أهل البلاد فى الإسلام ، إذ وجدت فيه حلاً سعيداً مريحاً للمشكلة العقيدية . وتلك ظاهرة واسعة المدى لا ينبغى أن تغيب عن نظر أحد ممن يدرسون تاريخ انتشار الإسلام : كانت المشكلة الدينية هماً ناصباً لكثيرين جداً من المسيحيين فى تلك الأعصر . فأما العوام والبسطاء فقد أراحوا أنفسهم من العناء ولم يتعبوا أنفسهم فى مسائل الطبيعة والطبيعتين وما يترتب عليها ، ونجوا بأجسامهم كذلك من سلطان الحاكمين الذين كانوا يخرجون كل يوم برأى جديد فى هذه المشاكل، وأخذوا يرددون ما يقال لهم أو صاغوا العقيدة الجديدة فى قالب الوثنية القديمة . وأما الأقلية المفكرة فكان بلاؤها عظيماً ، إذ كانت تصر على أن تفهم دينها فى حين أصر رجال الدين على أن يفهموه نيابة عنهم وما عليهم إلا التصديق والترديد.. وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد المسيحية فى ذلك العصر .

---

(١) Apud MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. p. 367 - 368.

ثم جاء الإسلام يقدم لهم حلاً يطمئن إليه معظم الناس وينجو به معظم القلقين ، بل جاء يعرض حماية لمن أراد أن يقول قولاً لا ترضى عنه الكنيسة ، فأمنت البقية الباقية من النساطرة فى العراق وبعض نواحى الشام ، وأمن المونوفيزيون فى مصر والشام ، وأمن أصحاب الأقوال المختلفة فى إسبانيا . وفى ظلال الخلفاء قال يوحنا الدمشقى ما شاء له القول ، وتفلسف اسبيرايندوس فى الأندلس ما شاءت له الفلسفة ، دون أن يخشى أحد منهم أن يحدث له ما حدث لجريجوريوس حاكم قرطاجنة إفريقية البيزنطى سنة ٦٤١ ميلادية ، فقد كان رجلاً متديناً وأرثوذكسياً مخلصاً ، وكان يعارض كل رأى يناقض المذهب الأرثوذكسى كما أقرته الدولة أيام قنسطنطين الثالث ، ثم قتل قنسطنطين هذا فجأة فى مايو سنة ٦٤١ وتولى العرش هرقلوناس وقامت بالوصاية عليه أمه مارتينه ، فأصدرت أمرها بالارتداد إلى مذهب هرقل ، وكان مونوثيلياً ، ووصل الخبر إلى جريجوريوس فأنكره ، حاسباً أنه إشاعة ، « وقام فى الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية إن هى إلا وسيلة يراد بها النيل من الامبراطورية المؤمنة الطاهرة الذيل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على الاجتهاد فى تتبع المونوثيليين واضطهادهم ، غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكد الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دعى إلى هناك ليحاسب أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل إلى القسطنطينية ، وهو - من حيرته - لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً »[١] .

وربما بدا غريباً أن يقال إن دخول المسلمين هذه البلاد كلها قد وضع حداً للاضطهادات الدينية فيها ، ولكن هذا هو الواقع . فإن المسلمين تركوا المسيحيين الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحراراً يفعلون ما يشاءون ، ولم تجد البابوية ولا رجال الدين وسيلة لأذى المخالفين ، فقنعت بالشىء الوحيد المعقول: المجادلة والأخذ والرد ، فبينما كانت اللعنة الأبدية والقتل والسجن والتشريد نصيب من يخالف الرأى الرسمى للبابوية والمجامع أيام القوط ، نجد البابا ورجاله يكتفون بخطابات يدحضون بها آراء اليباندوس **Elipandus** مطران طليطلة الذى قال بعد الفتح العربى بقليل إن المسيح ، من الناحية البشرية ، كان ابناً لله بالتبنى فحسب :

" (Christus) Unigenitus autem vocatur secundum divinitatis excellen-

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٥ .

tiam, quia sine fratribus. Primogenitus secundum susceptionem hominis, in qua per adoptionem gratiae fratres habere dignatus est, de quibus esset primogenitus ".

وهى مقالة لو نطق بها أحد فى أيام القوط لكان جزاؤه القتل ، ولكن البابا هدريان الأول ورجاله لم يستطيعوا إلا حض المخلصين لهم من رجال الدين على مطاردة هذا الرأى الذى انتشر حتى آمن به نفر من نصارى أشتريس وكنتبرية ممن كانوا خارجين عن طاعة المسلمين، وكتب ايتريوس Heterius كتابًا فى الرد عليه :

Liber Etherii adversus Elipandum, sive de adoptione Christi filii dei.

وقد استمرت هذه الآراء تظهر وتختفى خلال العصور الإسلامية ، ولم يكن لأحدها من الصدى أكثر مما يكون لرأى يطرح للناس ، فيؤيده من يريد وينصرف عنه من يريد ، ولا يبقى آخر الأمر إلا الرأى الذى يقبله العقل ويطمئن إليه القلب ، ولو كانت هناك المجامع وسلطان الدولة لأصبح لكل رأى منها فرقة كما كان الأمر أيام الدولة البيزنطية ، إذ أنه لا يحيى الآراء ويقوى المذاهب شىء كالاضطهاد . وقد وقفت الدولة الإسلامية فى الأندلس موقف الحياد الكامل، ولم تفعل فعل الدولة العباسية مثلاً عندما ناصرت النساطرة على من سواهم. وقد بلغ من عدم حفل الدولة الإسلامية فى الأندلس لهذه المذاهب ، ولآراء نصارى الأندلس جملة ، أن ضاق ذرع المُطْهَرِين من رجال الدين بهذه الدولة التى تغرى المسيحيين بتسامحها على دخول الإسلام ، ولا يقرأ أحد من أهلها شيئاً مما كان رجال الدين هؤلاء يكتبونه فى نقد الإسلام ويملأونه بالطعن الجارح !

لقد شكا الراهب أَلْبَرُ القرطبى من أن أحداً من إخوانه النصارى لا يقرأ اللاتينية أو يلقى بالاً إلى الكتب المقدسة المكتوبة بها ، لأن الناس فى الأندلس كانوا فى شغل عن ذلك بالعربية ودراستها ومحاولة التمكن منها ، فلما لم يستمع أحد لشكاته أخذ يحرض المسيحيين على التحرش بالإسلام والقرآن والرسول ﷺ ، فجعل نفر من النصارى يفعلون ذلك ويعرضون أنفسهم للأذى ، فكانت محنة نصارى قرطبة أولاً ثم طليطلة ثانياً ، وهى الفتنة الوحيدة من نوعها فى التاريخ ، لأن الغالب أن تضطهد الأكثرية الأقلية ، أما هنا فقد شاء طموح رجال الدين إلا أن تُضَطهد الأغلبيةُ الحاكمة بالطعن فى مقدساتها ، ولم يدفع هذا

النفر من رجال الدين المسيحيين إلى تحريض الناس عليها إلا هذا التسامح الذى جرى عليه أمراء بنى أمية فى الأندلس . وهو تسامح بلغ حد الإهمال ، حتى شعر رجال الدين أن أمرهم قد ضاع فلا هم يجدون سبيلاً إلى الحكم ، ولا هم يملكون الوسيلة إلى السيطرة على عقول الجماهير بإظهار براعتهم فى مسائل الدين ، فلم يجدوا طريقاً للخروج من ذلك الخمول إلا بركوب هذا المركب الوعر .

٢٢٤ - أثـر الإسلام فى نصرانية الأندلس

ولقد ذهب سيمونيت ومن تبعه إلى القول بأن كل ما ظهر بين نصارى الأندلس خلال العصور الإسلامية من الآراء المخالفة لرأى كنيسة روما إنما كان أثراً من آثار الإسلام فى نصارى الأندلس، وليس ذلك من الضرورى، لأن المسيحية نفسها ضمت كل لون من المذاهب والآراء قبل ظهور الإسلام ، مثال ذلك أن مذهب البياندوس - الذى أشرنا إليه - أقرب ما يكون إلى قول النسطورية ، وقد عرفت إسبانيا النسطورية قبل مجىء الإسلام(١) ، ومثال ذلك أيضاً أن القس اسبيرايندوس Espiraindus وكان من شيوخ الكنيسة الإسبانية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (أى فى أيام الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضى)، كتب رسالة صغيرة « ضد بعض المذاهب المنحرفة التى ظهرت فى هذه الفترة التعيسة ، يقول أصحابها بإنكار سلطان أنبياء الكنيسة وعلمائها ، وجرءوا على أن يضعوا ألوهية المسيح موضع الشك ، وعلى إنكار عقيدة الثالوث ، إذ أضلتهم الآراء الإسلامية » كما يقول سيمونيت فى أسلوبه المقذع الجافى ، وعنوان رسالة اسبيرايندوس :

Speraindeo Abbas contra haereticos quosdam negantes trinitatem personarum in unitate substantiae atque divinitatem in Christo (٢).

ولا نستطيع القطع بأن هذه المذاهب كانت أثراً من آثار الإسلام ، لأن هذه الآراء نفسها ظهرت فى المسيحية فى المشرق والمغرب قبل ظهور الإسلام ، ولا يستبعد أن يكون وجود الإسلام فى الأندلس قد أعطى أصحابها حججاً وآراء وقوّى مركزهم .

* * *

(١) انظر عن النسطورية فى إسبانيا :
MENÉNDEZ PELAYO, op. cit. I p. 313 sqq.

(٢) SIMONET, Mozárabes, p. 341 - 342.

٢٢٥ - المسلمون والكنيسة الإسبانية

وإذن فلم تكن المسيحيـة فى إسبانيا قبل دخـول الإسلام ثابتة الأركان ولا موحـدة الكلمة ولا متمكنة فى قلوب الناس جميعاً على النحو الذى يصـوره المؤرخون عادة ، بل لم يكن كل النصـارى بآمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى كانت عليه . ومن هنا فإنه يبدو لنا أن ما يسرف فيه بعض المؤرخين من الكلام عما أصاب المسيحية على أيدى المسلمين مبالغ فيه إن لم يكن مناقضاً للحقيقة والواقع . حقيقة أن المسلمين اعتبروا أملاك الكنائس التى تركها أساقفتها وقساوستها وفرُّوا ملكاً للدولة ، وقصروا نفوذ رجال الدين على الدين ، وذلك لا يعنى أذى المسيحية والمسيحيين، فقد كانت الكنيسة كما رأينا تملك نحو خمس الأرض العامرة ، وكان رجال الدين يتولون الحكم باسم الملوك ، ويتعرضون لكل ما يتعرض له أصحاب الحكم من أخطاء وعداوات ، وليس ذلك من صالح الدين فى شىء . بل من الغريب أن أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خربوا عشرين أو ثلاثين كنيسة يفعلون ذلك باسم حرية الفكر وحرية العقيدة ، ونحن جديرون بأن نسألهم : كم مسجداً بقى فى إسبانيا بعد أن أصبحت السيادة فيها للنصرانية ؟

كان فى إسبانيا على أيام القوط ست كنائس جامعة على رأس كل منها مطران ، وكانت هذه الكنائس الست تقوم فى قواعد الأقسام الإدارية الكبرى كما كانت على أيام الرومان ، وهى : طركونة وماردة وإشبيلية وافراغة وقرطاجنة وطليطلة ، ويبدو أن مجمع طليطلة الثانى عشر قد اعتبر مطرانية طليطلة رأس المطرانيات جميعاً .

ثم تلى ذلك الأسقفيات وعددها إحدى وعشرون فى إسبانيا القرطاجنية ، ومن المفيد أن نذكرها هنا ، لأن معظمها سيكون قواعد كور فى التنظيم الإدارى الإسلامى ، وسنذكرها بأسمائها اللاتينية ونتبع كل اسم بمقابله العربى إن وجد ثم القشتالى الذى أُخِذ عن الصيغة العربية فى بعض الحالات ، وبقى إلى اليوم :

Acci وادى آش	Guadix
Arcávica أركبيقة	Arcábica
	(عاصمة إقليم كونكه اليونانى)
Beacio أو Biatia بياسة	Baeza

Boasti بسطة	Baza
Bigastra (فى مرسيه)	Bigastro
Cartago قرطاجنة	Cartagena
Castulo قسْطلُونة	Cazlona
Compluto مدينة المائدة	Alcalá de Henares
Diania دانية	Denia
Illici إلْش	Elche
Mentesa مَنْتِيشة	La Guardia, Jaen
Oreto أوريط	Granatula, Ciudad Real
Oxuma أشونة	Osma
Palentia -	Palencia
Setabis شاطبة	Játiva
Segobia شقوبية	Segovia
Segòbriga -	Segorbe
Segontia -	Sogüenza
Valentia بلنسية	Valencia
Veleria (فى قونقة)	en Cuenca
Urci على مقربة من	Villaricos

وفى ولاية بيطى عشر أسقفيات هى :

Hispalis إشبيلية	Sevilla
Asidonia شذونة	Medina Sidonia
Astigi استجة أو إسْجَة	Ecija
Córduba قرطبة	Córdoba

Egabro قبرة	Cabra
Elepla لبلة	Niebla
Iliberri أو Eliberis إلبيرة	Elvira
Italica طالِقَة	Italica
Malaca مالَقَة	Malaga
- Tucci	Martos

وفى لشدانية (Lusitania) - وهى البرتغال الحالية - ثلاث عشرة أسقفية هى :

Emerita ماردة	Mérida وهى القاعدة
Abela أبِلَه	Avila
Beseo بيزو	Viseo
Caliabria (على مقربة من Cuidad Rodrigo)	
Cauria قورية	Coria
Conimbria قلمرية	Coimbra
Ebbora يابرة	Evora
- Egitania	Idania la Vieja
- Lameco	Lamego
Olisipone الأشبونة	Lisboa
Ossonoba أكشونبة	Oxonoba (Faro)
Pax Julia باجه	Beja
Salamantica شلمنقه	Salamanca

وفى جليقية تسع أسقفيات هى :

- Braga	Braga القاعدة

Asturica استرقه	Astorga
Auriense –	Orense
Britonia –	Santa María de Breto
Dumio قرب Braga	(cerca de Mondeñeds)
Iria –	Padron (Coruña)
Lucus لُك	Lugo
Magneto أو Portucale برتقال	Meinedo o Oporto
Tude توده	Túy

وفى إسبانيا الطركونية (الشرق) ١٥ أسقفية هى :

Tarracona طركونة	Tarragona القاعدة
Auca أوقة	Oca
Ausona أشُونة	Osona (فى مقاطعة فيش Vich)
Barcimona –	Barcelona
Caesaraugusta سرقسطة	Zaragoza
Calagurris قلهرة	Calahorra
Dertosa طرطوشة	Tortosa
Egara –	Tarrasa
Empurias امبرياش	Ampurias
Gerunda جرندة	Gerona
Ilerda لاردة	Lerida
Osca وشقة	Huesca
Pampilona بنبلونة	Pamplona

Tirassona طرسونة	Tarazona
– Urgello	Urgel

وفى المقاطعة النربونية ثمان أسقفيات هى :

Narbona أربونة	Narbonne وهى القاعدة
Agatha أجدة	Agde
– Beterres	Bezîers
Carcassona قرقشونة	Carcasonne
– Elena	Elna - Perpignan
– Luteba	Ludève
Magalona مجلونة	Magallon Montpellier
Neumaso نيمه	Nime

فمجموع المطرانيات والأسقفيات على هذا كان ٧٧ ، منها ٨ خارج شبه الجزيرة و٦٩ فى شبه الجزيرة [١] . ومن هذا العدد الكبير يذهب أصحاب المدونات النصرانية ، ويتابعهم المؤرخون المحدثون ، إلى أن العرب خربوا عدداً يبلغ الأربعين ، وهذا القول مبالغة نعرفها من أولئك الرهبان ، لأن المعروف أن المسلمين لم يخربوا فى الشام أو مصر كنيسة واحدة ، فلا يعقل والحالة هذه أن يخربوا فى إسبانيا نحو نصف الكنائس والواقع يدحض هذا الزعم ، وأبسط الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخربوا كنيسة قرطبة ، مع أنهم استولوا على البلد عنوة ، بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين إياها ، وعندما انتشر الإسلام فى البلد ، وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخر من النصارى ، وأذن لهم فى بناء كنيسة أخرى بدل القديمة التى أصبحت كلها مسجد قرطبة الجامع .

بيد أننا لا نستبعد أن يكون بعض الأذى قد أصاب الكنائس الواقعة فى الأقاليم التى ظلت خلال الفترة التى نتحدث عنها دار حرب ، وهى كنائس أقاليم جليقية والولاية

(١) AGUADO BLEYE, op. cit. p. 364 - 365.

النربونية والجزء الشمالى من إسبانيا الطركونية وولاية لشدانية . فقد ظلت هذه النواحى ميدان صراع ينال التخريب كل ما فيها : كنائس وغير كنائس ، وهى لم تتخرب لأن المسلمين أرادوا تخريبها ، بل لأن هذا فعل الحرب فى كل زمان ومكان .

وربما كان الذى أوقع أولئك الرهبان من أصحاب المدونات النصرانية فى الخطأ هو أن الكثيرين من الأساقفة تركوا أسقفياتهم وهربوا أمام الجيوش الإسلامية ، ظناً منهم أن المسلمين سيفتكون بهم ، ولجأوا إلى بلاد الشمال القصى ، فظن الرهبان أن هروب الأسقف والقساوسة معناه تخريب كنيستهم . وقد عاد الكثيرون منهم إلى كنائسهم بعد أن رأوا أن المسلمين لا يعتدون على الكنائس أو رجال الدين ، ويؤيد ذلك القول سيمونيت كبير الحاملين على الإسلام والمسلمين بين المؤرخين الإسبان المحدثين (١) .

وعلى أى الأحوال ، فإن المراجع النصرانية نفسها تذكر أن الأسقفيات والكنائس الآتية بقيت وعاش أهلها فى سلام مع المسلمين :

مطرانيات طليطلة وماردة وإشبيلية ،

وأسقفيات وادى آش - ازْكَبِيقَة (فى ولاية قونقه) - شذونة - استجه - برشلونة - بَسْطه - بياسة - بيجاسترُ (نقلت فيها بعد إلى قرطاجنة) - قَلَهُرة - قورية - سرقسطة - مدينة المائدة (Compluto - Alcalá de Henares) - قلمرية - قرطبة - قبرة - لبلة - البيرة (غرناطة) - جَرُندة - الشر - مالقة - ارجلُو (Urgel) - اوسمه - سِجِيَّة- (Exea Segîa) - سيُجونْثيا (Siguenza) - توكى (Martos) - أرشى (Urci، على مقربة من المرية) - طالِقَة - بلنسية .

المجموع إحدى وثلاثون مطرانية وأسقفية .

فإذا ذكرنا أن عدد هذه الكراسى الكنسية داخل شبه الجزيرة كان أيام القوط تسعة وستين ، منها تسعة فى جليقية فى ناحية لم تخضع للمسلمين ، ومثلها سبعة لم تخضع لهم من كراسى الولاية الطركونية الخمسة عشر ، وخمسة من كراسى ولاية لشدانية فى نواح لم تدخل فى طاعة المسلمين ، ومثلها أربعة من كراسى ولاية إسبانيا القرطاجنية - إذا استبعدنا هذه الكراسى التى كانت واقعة فى نواح خارجة عن دار الإسلام وعددها خمسة وعشرون

(١) SIMONET, op. cit. 122 - 123.

كرسياً ، كان الباقى الذى دخل فى ديار المسلمين من قواعد الكراسى الكنسية أربعاً وأربعين. وقد ذكرنا أن المراجع النصرانية نفسها تؤكد وجود واحد وثلاثين ، أى أن الذى اختفى من الكراسى الكنسية أحد عشر .

نقول « اختفى » ولا نقول أزيل أو محى ، لأن هناك ظاهرة هامة لا ينبغى أن نهمل أمرها فى ذلك الحساب ، وهى أن قيام دولة الإسلام فى الأندلس اقتضى تغييرات إدارية استدعاها وضع الدولة الجديدة : أعيد تنظيم بعض الأقسام الإدارية القوطية عند تحويلها إلى كور ، فأخرجت من بعضها بلاد ضمت إلى أقسام أخرى ، ونقلت قواعد بعض أقسام إلى مدن أخرى أكثر مناسبة للمطالب الإدارية الإسلامية وهكذا ، فكانت النتيجة أن خمل بعض المدن فلم يعد يستحق أن يقوم فيه كرسى كنسى . ولم يقتصر هذا الأمر على الأندلس الإسلامى بل حدث مثله فى إمارة أشتريس التى أصبحت مملكة ليون فيما بعد ، فقد ضم مثلاً كرسى افراغه (Braga - Bracara) إلى كرسى لُك(Lugo -Lucus) ونتيجة لذلك قل عدد الكراسى الكنسية فى الأندلس الإسلامى . وعندما كانت تعمر ناحية وتتمدن قاعدتها – أى تصبح مدينة – كان المسلمون لا يمانعون فى إنشاء كرسى كنسى فيها ، ومثال ذلك ما حدث لبطليوس عندما عمرت وكبرت وأصبحت قاعدة كورة : أنشأ المسيحيون فيها كرسياً كنسياً رغم قربها من قورية وماردة . وكان فى كل منها كرسى ، بل كانت الأخيرة مطرانية[١].

٢٢٦ - انتقال مركز المسيحية الأندلسية إلى قرطبة

وربما كان أهم تغيير فى النظام العام للنصرانية فى الأندلس هو انتقال مركز الثقل من طليطلة إلى قرطبة . لم ينقل المسلمون كرسى المطرانية الكبرى من طليطلة إلى قرطبة ، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى، ثم حرصوا على أن يكون المطران قريباً منهم فى العاصمة ، بل عقدت مجامع طليطلة فى قرطبة [٢] ، وذلك إجراء بسيط لم يؤثر فى أحوال النصارى ولم يمس نظام الكنيسة ، بل استدعاه الصالح العام ، وربما يكون رجال الدين أنفسهم هم الذين حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، ولكن مؤرخى إسبانيا النصرانية ينقدون ذلك ويعتبرونه عدواناً على كنيستهم وتعصباً على النصرانية ، وهذا أغرب ما يمكن سماعه من قوم لم يبقوا فى الأندلس

(١) SIMONET, op. cit. p. 122 - 123.

(٢) SIMONET, op. cit. p. 123 - 124.

كله - عندما صار الأمر إليهم - على مسجد واحد أو مسلم واحد ! ومهما يتأمل الإنسان فى منطق أولئك المؤرخين لا يسعه إلا أن يأسف أن يكون هذا مبلغ نفر من أهل الديانة والفكر والعلم فى عصرنا هذا من الإحساس الإنسانى .

٢٢٧ - الكنيسة الأندلسية فى النطاق الشرقى

حل أمراء قرطبة محل ملوك القوط ، فانتقل إليهم بذلك الإشراف الأعلى على شئون الكنيسة فى بلادهم ، وجعلوا قرطبة المركز الفعلى للنصرانية الأندلسية ، واحتفظوا لأنفسهم بالحق فى تعيين المطران - أو إقرار انتخابه بقول أصح - وفى الموافقة على الدعوة لعقد المجامع الدينية . وكان هذا فى ذاته تغييراً حاسماً فى تاريخ الكنيسة الإسبانية ، لأن مطرانية طليطلة كانت معتبرة قبل الفتح تابعة لكنيسة روما روحياً وأدبياً ومالياً أيضاً من بعض الوجوه ، فقطع العرب هذه العلاقة وجعلوا للنصرانية الإسبانية كياناً مستقلاً ، فلم يعد النصارى المقيمون فى النواحى الخاضعة للمسلمين يرسلون شيئاً من أموالهم إلى روما ، وانقطع مجىء القساوسة والرهبان ورسل البابوية من غالة وإيطاليا بصفة رسمية ، أى أن هؤلاء النصارى انفصلوا تماماً عن إخوانهم النصارى فى إيطاليا وغالة وبقية أوروبا ، وتغير اتجاه أولئك النصارى من الغرب إلى الشرق ، واندرجت النصرانية الأندلسية فى عداد النصرانية الشرقية وإن كانت كاثوليكية ، وأخذت تتأثر تبعاً لذلك بمؤثرات نصرانية - وإسلامية - آتية من الشرق . ومن هنا فقد أخذت طقوس هذه الكنيسة الأندلسية تختلف عن الطقوس التى سادت الكنيسة الكاثوليكية عامة . وقد أتى هذا الاختلاف نتيجة لدخول الكنيسة الأندلسية فى النطاق الشرقى ، ونتيجة لثبات هذه الطقوس على ما كانت عليه أيام دخول المسلمين ، فى حين ظلت بقية الكنائس الكاثوليكية التى كانت على اتصال دائم مباشر مع البابوية خاضعة لكل ما تقرره البابوية من تعديلات وتحديدات تصدر بها أوامر من المجمع الكنسى العام أو مجمع الكرادلة فى روما .

٢٢٨ - الطقوس القوطية الكنسية

ويذهب مؤرخو الكنيسة الإسبانية إلى أن أول من أدخل هذه الطقوس إلى إسبانيا كان القديس الرسولى سان توركواتوس Sanctus Torcuatus مؤسس كنيسة وادى آش ، ثم حدد أصولها وشعائرها القديسان لياندروس وأخوه إيزيدور، ولهذا يسميها الأسقف رودريجو خيمينيث شعائر إيزيدور ولياندروس Officium Isidori et Leandri ، ويسميها بعضهم الإيزيدورية فحسب Isidoriano . ثم شاعت وجرى بها العمل أيام القوط ، ومن هنا أطلق عليها اسم الطقوس القوطية Oficio Góteco - Offi-

cium Góticum ، وربما سميت الطقوس الطليطلية Oficio Toledano لأن مجمع طليطلة الرابع قرر تعميمها فى كنائس إسبانيا وغالة النربونية كلها . وقد جرى بها العمل فى الكنائس فى الأندلس الإسلامى دون أن يتعرض لها المسلمون بشىء ، وعندما بدأ ملوك ليون يتغلبون على بلاد المسلمين ، أطلق الليونيون على من كان فى هذه البلاد اسم المستعربين كما قلنا ، وأطلق هذا الوصف أيضاً على شعائرهم فسميت بالشعائر المستعربية Oficio Mozárabe .

٢٢٩ - البابوية والطقوس القوطية وما كادت البابوية تقف على أقدامها فى حماية الدولة الكارولنجية الفرنجية حتى أخذت تلقى الشكوك فى قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيتها ، فبدأت بإرسال حَبرين أيام البابا يوحنا العاشر لينظرا فى أمر هذه الطقوس ويعرضا عليه رأيهما فيها، فذهب الحبران إلى كنائس ممالك إسبانيا النصرانية وعادا ليقررا أنها شعائر كاثوليكية سليمة. ولكن البابوية أصرت رغم ذلك على إلغاء هذه الشعائر وإحلال الشعائر الرومانية (نسبة إلى روما) محلها ، وما زال البابا جريجوريوس السابع حتى حمل شانجُه ملك نَبَرَّه وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على الاستجابة لما يريد ، فألغيت الشعائر المستعربية فى نبره وقشتالة وليون فيما بين سنتى ١٠٧٧ و١٠٧٨ رغم معارضة شديدة من نصارى هاتين المملكتين (١) .

ثم جاء دور نصارى الأندلس الإسلامى عندما بدأوا يدخلون فى طاعة ملوك إسبانيا النصرانية بعد استغلاب بلادهم . لقد ظلوا آمنين على شعائرهم ما داموا فى حمى المسلمين ، فلما صاروا إلى حماية ملوك النصرانية بدأت متاعبهم وعادوا إلى ما كانوا فيه فى العصر القوطى ! وقد تحول الأمر إلى صراع دموى اشتبك فيه أنصار الشعائر المستعربية مع أنصار الشعائر الرومانية ، ولو أن أمراً كهذا حدث أيام المسلمين لما وسعت الكلمات غضب المتحاملين على الحكم الإسلامى ، ولكن ما أشد اختلاف معايير القيم فى أيدى أولئك الناس ! لقد جمع الامبراطور ألفونسو السادس مجمعاً فى برغُش عام ١٠٨٥ ، وألغى الشعائر

---

(١) يحتج سيمونيت على موقف البابوية من الطقوس القوطية ، ولكن احتجاجه رقيق لطيف لا يقاس بحملاته المقذعة على المسلمين ، ولو أن المسلمين مسوا طقوس الكنيسة لما وجد فى ألفاظ العنف - بل البذاءة - ما يكفيه . وقد رأيت الإشارة إلى ذلك لبيان روح التعصب الشديد الذى كتب به هذا المؤرخ ومن تابعه ، وهو تعصب يشوه الصورة التاريخية للأندلس الإسلامى تشويهاً تاماً .

Cf : SIMONET, op. cit. p. 695.

المستعربية التى حافظ عليها المسلمون وأحل محلها شعائر فرضت على الناس فرضاً بسلطان الرهبان الكلونيين ، وهم أجانب عن إسبانيا ، كانوا يدخلونها إذ ذاك سادة لأهلها وقساوستها أيضاً .

ولم يرض الشعب عن ذلك ، وسرت فى صفوفه روح المقاومة ، وقال قائلهم : « نموت أو نستبدل هذا الملك بملك آخر قبل أن نقبل هذا التغيير » . ووقف الملك وحيداً أمام رعيته كلها . وتدخل نفر من الوسطاء فى الأمر ، واستقر الرأى أخيراً على تحكيم القدرة الإلهية جرياً على شريعة العصور الوسطى : اتفق الطرفان على أن يوقدوا ناراً ثم يلقى فيها بكتاب صلوات وفق الطقوس المستعربية ، وكتاب صلوات آخر وفق الطقوس الكاثوليكية ، وما يحترق منهما فهو الباطل . ويقص ردريجو الطليطلى هذا الخبر ويؤكد أن النار أكلت كتاب الشعائر الرومانية فى حين بقى كتاب الشعائر القوطية سليماً لم يمس! ويؤكد صاحبنا سيمونيت هذا الخبر ، ويروى رواية أخرى يتهم أصحابها بأنهم ممالئون للبابا ، إذ أنهم يقولون إن كتاب الصلوات الرومانى عندما طرح لم يقع فى النار ، أما القوطى فوقع فيها ولم يصب بأذى وهكذا ثبت أن الاثنين على حق ! [1] .

ويقولون إن الطقوس المستعربية سلمت من الأذى نتيجة لهذا الحكم الإلهى ، ولكن ذلك لم ينفعها طويلاً ، فما زال البابوات يؤيدهم الملوك يلحون عليها حتى تلاشت آثارها خلال القرن السابع عشر .

وإنما استطردنا مع تاريخ هذه الطقوس لكى نؤكد ما قلناه ، وهو أنها كجزء من التقاليد الإسبانية القومية عاشت فى سلام طالما كان الأمر للمسلمين ، فلما انقضت أيامهم زالت واختفت فى ليل التاريخ مع ما ذهب من آثار المسلمين .

* * *

٢٢٠ - وظائف الكنيسة بقى نظام الكنيسة بعد الفتح سليماً دون تغيير ، كل ما حدث هو أن أسماء الوظائف تغيرت تبعاً لاستعراب ألسنة الناس ، وظهرت لها أسماء هى مزاج من أسمائها الأولى وألفاظ عربية ، وإليك بياناً بأهم هذه الوظائف كما وردت فى كتابات نصارى الأندلس ، نوردها على سبيل المثال :

(١) SIMONET, op. cit. p. 699.

Metropolitanus	مطران أو مِطْروبُل (Metrópol) .
Episcopus	أُسْقُف أو أسقوف .
Archi - presbiter	أرج بْرِشْبِطَر ، وربما سموه بالتسمية الإسبانية Arcipreste فقالوا أرْجُبْرِشْت أو أرسبرشت . وقد يضعون له اسماً مركباً Archi اليونانية الإغريقية «وقس» العربية ، فقالوا : أرج قس .
Archidiaconus	أرجدياقُن أو أرسِدياقُن (إسبانية : Arci-diacono أو Arcediano) .

وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يمسوها بأذى، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصةCapellas، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم (١) ، ثم غيروها شيئاً فشيئاً من تلقاء أنفسهم عندما أخذهم تيار الحضارة المشرقية واستعربوا لساناً وأسلوب حياة ، بل الكثيرون منهم أخذوا أسماء عربية يُعرفون بها بين الناس ، وإن كان لكل منهم اسمه الكنسي اللاتيني أو الإسباني الأصل .

٢٣١ - المسلمون وأملاك الكنيسة وقد وضع المسلمون أيديهم على جزء كبير من أملاك الكنيسة الواسعة، واستولوا كذلك ، أيام الفتح فقط ، على الكثير من ذخائر الكنائس وخاصة تلك التي تركها رجالها وسدنتها وهربوا . وعندما استقر الأمر لم يعودوا يمسون ذخائر الكنائس . وقد اعتبر المسلمون ما وقع في أيديهم من ذلك غنائم يجرى عليها حكم الخمس ، فأما خمس أراضي الكنيسة فقد اعتبر ملكاً للدولة ووزع الباقي بين الفاتحين ، وكان الجند في الغالب يتركون الأرض بيد زراعها يؤدون إليهم عنه مالاً ، ويدفعون منه ما يشاءون لكنائسهم ، فكأن الأمر لم يتغير كثيراً بالنسبة لهذه الأرضين ، وأما الذخائر فأخذت الدولة خمسها وتوزع الجند الفاتح الباقي . وكانت الأديرة النصرانية طوال الأعصر الإسلامية آمنة لا يروع أصحابها شيء ، وقد درج المسلمون على التردد عليها لالتماس النبيذ الطيب على

(١) SIMONET, op. cit. p. 127.
ISIDORO DE LAS CAGIGAS, Los Mozárabes, I. p. 65.

عادة مُجّان المشرق فى هذا الباب ، وقد بلغ من تسامح المسلمين مع نصارى الذمة أن أذنوا لهم فى قرع النواقيس .

وظلت الجماعات النصرانية فى المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقسسها ورعاتها ، لم يتدخل المسلمون فى شىء من علاقاتها بهم ، فظلت الكنائس تؤدى وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية ، فكان القساوسة يعقدون الزيجات ويعمّدون المواليد ويختارون لهم الأسماء ، ويسجلون المبايعات والعقود بين الناس . وليس بصحيح أن المسلمين خصصوا للنصارى أحياء خاصة يقيمون فيها كما يذهب بعض المؤرخين ، فليس لدينا دليل واحد على ذلك ، ثم هو ليس بمعقول ، وقد كانت عملية دخول النصارى فى الإسلام على قدم وساق.

والآن وقد ألممنا بأحوال أهل الذمة من النصارى ، فلنمر سراعاً بتاريخ جالياتهم خلال عصر الولاة .

٢٣٢ - سياسة أمراء المسلمين تجاه أهل الذمة

كان عهد عبد العزيز بن موسى - ثانى عمال الأندلس المسلمين - عهد أمن وخير للنصارى الإسبان ، فقد كان الرجل سمحاً ليّنا لا يميل إلى الشدة إلا حيث لا يجد لنفسه محيصاً عنها ، وقد تزوج أيلونة Egilona زوج لذريق (فيما يقال) وسماها أم عاصم، وكان بينه وبينها ود كريم كانت نتيجته وبالاً عليه ، لأنه أسرف فى الانقياد لها وأحب أن يرضيها باتخاذ سمات ملوك القوط ، فأنكر العرب عليه ذلك وقتلوه [١] . ولم ينفرد عبد العزيز بن موسى بهذا الزواج بل فعل ذلك غيره من كبار العرب، وقد ذكر لنا الرواة منهم زياد بن النابغة التميمى ، مما يدل على أن حركة الامتزاج بين العرب والبربر والإسبان بدأت من زمن مبكر جداً ، وهذا طبيعى، لأن المسلمين حينما دخلوا هذا البلد دخلوه رجالاً بغير نساء ، فلا بد أنهم اتخذوا نساءهم من أهل البلد، أى أن الجيل الثانى من مسلمى إسبانيا كان هجيناً ، ولما كان ورود العرب إلى الأندلس قليلاً جداً نظراً لبعد المسافة ، فإن الدم العربى الصريح تلاشى فى هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام الإمارة الأموية عربياً صريحاً إلا فى النادر ، حتى عبد الرحمن الداخل نفسه كان هجيناً [٢] ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ٢١٢.
الأخبار المجموعة ، ص٢٠ .

SIMONET, op. cit. p. 149.

(٢) انظر عن ذلك :

JULIAN RIBERA, Disertaciones y Opûsculos I, p. 4 - 15.

إذ كانت أمه بربرية من نفزة ، وهذا فى ذاته من غرائب المقادير : أن تكون أمه من المغرب ، وأن تقسم له الحظوظ سيادة الأندلس حيث كان الكثيرون من رعاياه هجناء من نفس الجنس . وقد أمن نصارى الإسبان فى عهد عبد العزيز وبدأوا يطمئنون إلى حكامهم الجدد ، ويبالغ بعض مؤرخى الإسبان فى التعليق على سياسة عبد العزيز، فيذهبون إلى أنه مال إلى النصرانية وأنه كان يفضل الإسبان على العرب ، ولكن هذه مبالغات لا يؤيدها نص ولا منطق ، وكل ما فى الأمر أن دواعى الشدة قد انقضت وهدأت البلاد فلم يبق إلا اللين والمحاسنة ، وقد فعل ذلك غير عبد العزيز من فاتحى المسلمين كعمرو بن العاص فى مصر(١) .

ولم يصادر المسلمون فى ذلك العهد المبكر من كنائس إشبيلية – وكانت عاصمتهم إذ ذاك – إلا واحدة هى كنيسة القديسة رفينا Santa Ruffina وتسميها بعض المراجع كنيسة رُبينه ، ولم يأخذوها كلها بل جزءاً منها جعلوه مسجداً ، وبقيت بعد ذلك كنائس كثيرة مثل « كنيسة الماء » وغيرها ، مما يدل على أن المسلمين لم يمسُّوا عقيدة الإسبان فى كثير (٢) .

٢٣٣ - بيوت فيها مسلمون ونصارى

وفى ذلك العهد المبكر وجدت أسر مختلطة فيها مسلمون ونصارى كبنى أَلْمُنْذُ أخى غيطشة ، فقد كان حليفاً للمسلمين وتوفى عن ولدين وبنت ، فأما الولدان فهما أُبَّه (أو عباس) الذى قُتِل فى واقعة كوفا دونجا وأصبح الثانى مطراناً لإشبيلية ، وأما سارة فقد اختلفت مع عمها أرطباس فذهبت تشكوه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها من عمها ورد عليها ضياعها وزوَّجها عربياً هو عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية (المؤرخ) وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفى عنها فى العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حَيْوَة بن ملامس المَذْحِجى وعُمَيْر بن سعيد اللخمى ، فعُنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها وولدت له حبيب ابن عمير جد بنى سيد (لعل صحتها سعيد) وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجُرْزُ ..» أى أن إسحاق وإبراهيم ابنى عيسى بن مزاحم (٣) المسلمين كان لهما خال نصرانى

(١) SIMONET, op. cit. p. 152.

(٢) SIMONET, op. cit. p. 151.

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٥ – ٦ .

هو مطران إشبيلية . ولا نزاع فى أن مثل هذا حدث فى أسر كثيرة ، ونحن إذ نشير إلى هذا إنما نضع أصبعنا على بدء حركة « ذوبان » العنصر العربى فى العنصر الإيبيرى ، هذا الذوبان الذى نتج عنه شعب إسبانيا الإسلامية حاملاً خصائص العرب والبربر والإسبان .

٢٣٤ - خلفاء عبد العزيز بن موسى وأهل الذمة

وتذهب المراجع النصرانية إلى أن خلفاء عبد العزيز وهم أيوب بن حبيب اللخمى والحر بن يوسف والسمح بن مالك كانوا معادين لنصارى الأندلس حاملين على النصرانية ، وليس ذلك صحيحاً ، لأن ثلاثتهم أنفقوا خير أيامهم فى الجهاد فيما وراء البرتات ، وربما يكونون قد عسفوا نصارى النواحى التى ذهبوا لفتحها ، فحسب الرهبان المؤرخون أنهم فعلوا بالإسبان مثل ذلك [(١)] ، وليس ذلك صحيحاً ولا نملك نصاً واحداً يشير إليه ولو عن طريق غير مباشر. بل الثابت أن كبار القساوسة كانوا نشطين فى ذلك العهد فى تجديد الكنائس ، ويذكر إيزيدور الباجى أن فريدواريوس أسقف وادى آش Freduarius, Accitanae sedis Episcopus. وأربانس أسقف طليطلة Urbanus, Toletanae sedis urbis Regiae cathedralis عمرا كنيسة وادى آش فى ذلك الحين واشتهر أمرهما وانجفل الناس إليهما دون أن يتعرض المسلمون لهم فى ذلك بشىء ، ويذكر سيمونيت - رغم تعصبه - أمثلة كثيرة تدل على أن النصرانية الإسبانية انتعشت بعد الفتح الإسلامى - كما حدث لنصرانية مصر - انتعاشاً ظاهراً [(٢)] بعد دخولها فى طاعة المسلمين أيضاً .

وكان سندريدو Sindredo مطران طليطلة قبيل أيام الفتح قد هجرها وفرَّ حينما أقبل المسلمون [(٣)] ، وصالح نصارى البلد على أنفسهم بشروط خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه مستقل : احتفظوا بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم ، واحتفظوا بمعظم كنائسهم وبرجال الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله . فظل هذا البلد عامراً بالكنائس الكبيرة ، أعظمها كنيسة « جميع القديسين » Omnium Sanctorum ، وظلت الأديرة التى

---

(١) SIMONET. op. cit. p. 156 - 157.

(٢) SIMONET. op. cit. p. 160 - 162.

(٣) التاريخ المنسوب لإيزيدور الباجى ، فقرة ٣٥ .

SIMONET. op. cit. p. 163.

فى أرباض البلد قائمة لم يمسسها المسلمون بأذى كبير ، وإن كانوا قد استولوا على الكثير من ذخائرها كمذبح كنيسة طليطلة الكبيرة المشهور فى النصوص العربية بمائدة سليمان .

أما الكنيسة الجامعة السابقة ، وهى كنيسة القديسة مريم (سانتا ماريا) التى كانت معتبرة قبل ذلك قاعدة المسيحية الكبرى فى إسبانيا فقد حوَّلها المسلمون إلى مسجد جامع ، وانتقل مركز المطرانية إلى كنيسة أخرى كبيرة تسمى كنيسة القديسة ماريا دى ألفيثين Santa Marîa de Alficen ، وقد نقل النصارى إلى هذه الكنيسة أوراقهم ووثائقهم وكل ما كان فى الكنيسة القديمة من الذخائر ، وظلت على ذلك طوال العصور العربية (١) .

وكان العرب قد أقاموا حليفهم أبه (عباس) (٢) مطراناً للبلاد خلفاً لسندريدو ، ولكن أهل البلد لم يرضوا به وتركوه فى مطرانيته ، وأقاموا لأنفسهم مطراناً آخر يسمى أوربانو Urbano وكان قبل ذلك مرتلاً فى الكنيسة ، ولم يعترض المسلمون على ذلك .

٢٣٥ - ثورة أكويلا واستسلامه

وكان المسلمون بعد أن فرغوا من تثبيت أمرهم فى البلاد وإخضاع مراكز المقاومة فيها ، قد مضوا فى احتلال بقية النواحى التى كانت قد تركت على حالها لانعدام المقاومة فيها . مثال ذلك أن طركونة وإقليمها تم احتلالها على يد الحر بن يوسف ، وكانت طركونة عاصمة ولاية إسبانيا الطركونية ، وكانت فيها كنيسة جامعة على رأسها مطران ، وكان يقيم فيها أحد أبناء غيطشة المسمى أكويلا Aquila ، فحسب أن العرب يتركون هذه الناحية له كما ظن غيره من آل غيطشة أن العرب يتركون البلاد لهم ، فلما استبان أن العرب مقيمون فى البلاد وأنه لن يصل إلى العرش على أيديهم حاول الوثوب بهم فى طركونة ، فسار إليه السمح وأخضع البلد وأنزل به شيئاً من التخريب . فلما قتل السمح بعد ذلك فى وقعة طولوشة حاول أكويلا الثورة من جديد ، ولكن عنبسة بن سحيم قضى على حركته ونهب البلد نهباً ذريعاً ، واستسلم أكويلا وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها ، ولم يحاول الثورة بعد ذلك ، وقد استعرب أبناؤه من بعده وحفظت لنا النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن أَلْبَرُ ALvaro قاضى العجم (٣) .

(١) SIMONET, op. cit. p. 166.

(٢) هكذا كتب ابن القوطية اسمه ، انظر ص٤ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٥ .
سيمونيت ، ص١٧٠ - ١٧١ .

٢٣٦ - نصارى الأندلس يحجون إلى بيت المقدس

ومن طريف ما يلاحظ أن نصارى الإسبان انتهزوا فرصة دخولهم فى طاعة الدولة الإسلامية لكى يذهبوا إلى بيت المقدس للحج ، ويذكر لنا الرواة النصارى قصة قس يسمى القديس فيليبالدو San Willibaldo ذهب للحج إلى الأراضى المقدسة ، ووصل إلى الرُّها ليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربى فى أمره وسجنه ، ثم أطلق سراحه حينما استبان أنه من أهل الذمة فى الأندلس ، ويبدو أن هذا الحادث أخاف فيليبالدو فلم يعد إلى بلده وإنما إلى دير مونت كاسينو فى إيطاليا ، ومنها انتقل إلى روما سنة ٧٤١ حيث أقامه رجال الكنيسة أسقفاً لمدينة أيـخْشْتات فى ألمانيا (١) . ولكن يبدو أن عدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيراً .

٢٣٧ - عبد الرحمن الغافقى وأهل الذمة

وتُـجْمع المراجع النصرانية على أن نصارى الأندلس لقوا أذى كبيراً على يد عبد الرحمن الغافقى وعبد الملك بن قطن ، ولا نملك من النصوص العربية ما يؤيد هذا أو ينفيه وإن كانت الدلائل كلها تدل على أن عبد الرحمن اشتد مع نصارى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة بسبب احتماء مونوسة بهم ، وكان بطبعه رجلاً عسكرياً عنيفاً ومسلماً متفانياً لا يكاد يحفل لغير الإسلام والمسلمين . ويؤكد ايزيدور الباجى أن عبد الملك بن قطن عسف النصارى عسفاً شديداً فى ولايته الأولى (٢) .

٢٣٨ - موقف عبد الملك بن قطن من أهل الذمة

وقد أراد عبد الملك أن يعتدى على تدمير صاحب ناحية مرسية الذى عقد العرب معه الصلح المعروف على يد عبد العزيز بن موسى ، ووضع ابن قطن يده على بعض أراضيه ، فلم يسع تدمير إلا الرحيل إلى المشرق حيث لقى هشام بن عبد الملك وشكا إليه عامله عبد الملك بن قطن ، فأحسن هشام لقاءه وأكد له شروط الصلح الذى عقده عبد العزيز بن موسى وأقره أخوه سليمان بن عبد الملك ، وانتهز تدمير الفرصة واتصل بنصارى الشام حيث لقى منهم إكراماً عظيماً ، ثم عاد إلى بلاده حيث أقام فى إقليمه آمناً حتى توفى سنة ٧٤٣م (٣) .

---

(١) SIMONET, op. cit. I. 175.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص١٤٩ .
سيمونيت ، ص١٨٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص١٤٩ .
سيمونيت ، ص١٨٣ .

٢٣٩ - المسلمون ونصارى قلمرية وكان المسلمون حينما فتحوا نواحى الغرب قد قبلوا من أهل قلمرية Co-nimbria صلحهم وأقروا البلد على حاله ، وأقام عبد العزيز بن موسى عليه حاكماً عربياً تسميه وثيقة لاتينية Alboacem ibn Mahamat Alhamar ibn Tarif - وربما كانت صحة الاسم العربى أبا عاصم بن محمد الأحمر بن طريف - فى سنة ٧١٦م . وكانت المدينة إذ ذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فأقام أبو عاصم على عجم البلد قومساً يسمى آيدولفو Aidulfo ، فلما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atanagildo وأعقبه ابنه تيودوس Theodus ، وأقام على الأسقفية قساً يسمى لوربان Lorban .

واستمر أمر البلد على هذا الحال من الاستقلال تحت السيادة الإسلامية العليا حتى سقطت فى يد النصارى سنة ١٠٥٨ ميلادية ، وحول هذا البلد تكونت فيما بعد إمارة البرتغال وحلت محل ولاية لشدانية (لوزيتانيا) الرومانية ، وإنما أشرنا إلى ذلك لنضع أيدينا على أوائل احتلال المسلمين للبرتغال وحكمهم إياها . وقد أحسن أبو عاصم معاملة نصارى ناحيته وارتبط مع أهلها بأواصر الود وصار يخرج للصيد - وكان مولعاً به - معهم، وكان يوقر الرهبان ويقربهم ، وتذهب الوثيقة التى أشرنا إليها إلى أنه ألزم نصارى قلمرية بأن يدفعوا جزية مقدارها ضعف ما كان يدفعه المسلمون النازلون فيها ، وجعل على كل كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالاً Pesanta من الفضة ، وعلى كل أسقفية مائة مثقال وعلى كل دير خمسين مثقالاً ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شىء ، لأن رئيسه كان حليفاً للمسلمين [١] ، وترك رهبانه أحراراً. وتذكر المراجع حاكماً مسلماً آخر لقلمرية فى هذه الفترة يسمى مروان بن موسى ، حكمها بعد أبى عاصم وسار على طريقته فى التودد إلى الأهلين والإحسان إليهم والولع بالصيد .

٢٤٠ - عقبة ابن الحجاج وأهل الذمة وتختلف المراجع فيما بينها على موقف عقبة بن الحجاج السلولى من النصارى وحالهم فى أيامه ، فأما القطعة الإسبانية التى بين أيدينا من تاريخ الرازى فتقول فى حوادث سنة ٧٣٤م : « وقد وضع عقبة هذا أموره كلها فى أيدى النصارى ، فأراحوه وأعانوه ، وكانوا معه بالليل والنهار » [٢]. وأما إيزيدور الباجى فيقول عنه إنه « راك البلاد روكاً جديداً وأحصى كل ما فيها ، وطالب النصارى بأن يؤدوا ما

(١) SIMONET, op. cit. p. 182.

(٢) SIMONET, op. cit. p. 184 - 185.

عليهم بأشد ألوان العنف ، ولم يغادر أى وسيلة تمكنه من ملء خزانة الدولة بالمال من أى طريق » (١) . ولكنه يقرر فى نفس الوقت أن عقبة لم يختص النصارى وحدهم بهذه الشدة ، بل عامل بها المسلمين كذلك ، أى أنه اشتد على الناس أجمعين . والواقع أن عقبة كان رجلاً حازماً شديد الحرص على حقوق الدولة ، دائم المواظبة على القيام بواجباته . وقد روينا أخبار اجتهاده فى محاربة النصارى فى الشمال وفى غالة ، وكان إلى ذلك مولى بعيداً عن نزعة العصبية العربية ، فلا يبعد أن يكون قد قرَّب أهل البلاد وسوَّى بينهم وبين العرب فى المعاملة ، وبهذا تصدق الروايتان وتضيفان شيئاً جديداً هاماً عن عقبة بن الحجاج وحكمه فى الأندلس .

وتذكر الروايات النصرانية أن الراهبين الأخوين فوتو Voto وفيلكس Felix أنشآ فى عهد عقبة دير سان خوان دى لابينيا San Juan de la Peña فى لحف جبل أورويل Oruel فى أقصى الشمال ، وقد ازدهر هذا الدير فيما بعد وكان له أثر بعيد فى التاريخ الأندلسى بعد ذلك بثلاثة قرون : إذ اتخذه أنييجو خيمينيث Iñigo Jiménez المعروف باسم أريستا Arista وكراً وعاصمة لإمارة بنبلونة التى أنشأها وكان لها دور عظيم فيما بعد فى حركة الاسترداد ، وقد أصبح اسم هذه الإمارة حينما اتسعت بعض الشىء مملكة شُبْرْب El Reino de Sobrarbe ودخلت بعد ذلك فى مملكة نبرة . وكان الأخوان فوتو وفيلكس من أغنياء النصارى فى سرقسطة ، فلما رأيا تكاثر المسلمين فى هذه الناحية وانتشار الإسلام بين أهلها باعا ممتلكاتهما وفرَّقاها على الفقراء ومضيا إلى جبل أورويل حيث أنشآ دير بينيا هذا ، مما يدلنا على أن المسلمين حينما نزلوا هذه الناحية لم يستولوا على ما بيد أهلها النصارى من الأملاك ، بل تركوهم على حالهم ، وكانت سرقسطة قد صالحت عن نفسها بشروط طيبة ضمنت لأهلها الحرية فى كل شىء ، وقصة هذين الأخوين ترينا كيف كانت عناصر المقاومة النصرانية تتكون فى بطء منذ أوائل أيام الحكم الإسلامى ، وتدل كذلك على أن المسلمين تركوا النصارى من أهل البلاد أحراراً فى إنشاء ما يريدون من الأديرة (٢) .

فلما وقعت الثورة البربرية أثناء ولاية عبد الملك بن قطن واشتدت المجاعة فى الأندلس ، أخذ بعض النصارى الإسبان يهاجرون إلى نواحى الشمال القاصية : إلى أشتريس وكنتبرية ،

(١) إيزيدور ، فقرة ٦١ .

(٢) SIMONET, op. cit. p. 190 - 191.

ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين لم تكن كثيرة ، لأن مراجعنا العربية لا تشير إليها [١] .

وقد عرفنا فيما سبق أن أبا الخطار فرّق الشآميين وأنزلهم فى بعض كور الأندلس «وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم» [٢] ، «وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة». وقد حاول سيمونيت أن يفسر هاتين العبارتين بأن أبا الخطار فرض على النصارى الإسبان الذين أنزل العرب فى كورهم ضريبة جديدة مقدارها ثلث أموالهم ، وهو تفسير خاطىء ، إذ لم يزدد على أهل الذمة شىء جديد ؛ وإنما أخذ الشآميون ثلث الجباية ، ومن هنا لا محل لما يذهب إليه سيمونيت من القول بأن حال أهل الذمة ساء فى أيام أبى الخطار بسبب هذه الزيادة المزعومة .

بيد أن أبا الخطار أخطأ فى إنزال بعض الشآميين فى نواحى تدمير التى ضمن العرب سلامتها بصلح أوريولة الذى عقده تدمير مع عبد العزيز بن موسى ثم عاد هشام بن عبد الملك فأكده . وكان صاحب تدمير إذ ذاك أتاناجيلدو Atanagildo الذى خلف أباه تدمير سنة ٧٤٣م ، فلم يكد يسمع بتصرف أبى الخطار حتى اعترض عليه وأعلن أن ذلك يخالف نصوص معاهدة أوريولة ، وكانت العلاقات بين أتاناجيلدو والنازلين فى أرضه من البلديين طيبة ، فنهضوا ينصحون أبا الخطار بالعدول عن ذلك ، فغضب أبو الخطار ، وأراد عقاب أتاناجيلدو ، ففرض عليه غرامة قدرها سبعة وعشرون ألف قطعة من الذهب ، وسبَّه وأهانه ، فمضى أتاناجيلدو يتحبب إلى جند مصر من الشآميين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبهم بإحسانه ، فتوسطوا له عند أبى الخطار ، وما زالوا به حتى أسقط الغرامة ورد على الرجل اعتباره واحترم حقوقه[٣] . وإنما ذكرنا هذه الحكاية لكى نستدل منها على أن علائق من الود كانت قد تأصلت بين العرب النازلين فى الأرياف وأهلها من النصارى الإسبان ، فهذا أتاناجيلدو يعاونه البلديون والشآميون على رفع الظلم عنه ، وسنرى فى تاريخ كبير نصرانى آخر – هو أرطباس – أمثلة أخرى كثيرة تؤيد ذلك .

---

(١) SIMONET, op. cit. p. 193.

إيزيدور فقرة ٦٣ – ٦٦ .

(٢) ابن القوطية ، ص٢٠ .

ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٣٤ .

فتح الأندلس ، ص٣٦ – ٣٧ .

(٣) SIMONET, op. cit. p. 199 - 200.

ويذهب الإصطخرى إلى أن المسلمين وضعوا يدهم على نصف كنيسة قرطبة الجامعة (١٣١هـ / ٧٤٨م) أى فى هذه الفترة التى نتحدث عنها . ذلك أنهم كانوا قد عاهدوا أهل قرطبة على أول الفتح بأن يدعوا لهم هذه الكنيسة الجامعة المعروفة بكنيسة القديس بجنت أوبزنت San Vicente (Sanctus Vicentius) وأقاموا لأنفسهم مساجد صغيرة . فلما نقلوا مركز الدولة إلى قرطبة وكثر المسلمون فيها وفى أرباضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة واحتاجوا إلى مسجد جامع ، فقاسموا النصارى كنيستهم الجامعة كما فعلوا فى دمشق والرُّها ، « فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة فى كنيستهم العظمى التى كانت بداخلها، وابتنى المسلمون فى ذلك الشطر مسجداً جامعاً ، وبقى الشطر الثانى بأيدى الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس »[١].

ويذهب مؤرخونا إلى أن ذلك تم على أول زمان الفتح، والواقع غير ذلك ، لأن الثابت من صلح قرطبة مع المسلمين أن هؤلاء تركوا للنصارى كنيسة سان بجنت الجامعة ، ولدينا نص من الأخبار المجموعة يدل على أنها كانت لا تزال كنيسة فى سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م[٢] ، وللرازى رواية تدل على أن ذلك حدث فى ولاية أبى الخطار ، وبعد سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م على الأغلب[٣] .

٢٤١ - أرطباس

وفى هذه الفترة تظهر شخصية أرطباس Ardabast زعيم عجم الذمة وابن غيطشة إلى جانب كبار الشخصيات العربية فى أيام أبى الخطار ومن جاء بعده. ويبدو لنا أرطباس رجلاً مهذباً حسن التصرف واسع الحيلة ، ينصح عمال الأندلس فى شئون سياسة بلاده ويعامل زعماء العرب بكياسة تدعو إلى الإعجاب . ومن أمثلة ذلك رواية ابن القوطية التى أتينا بطرف منها ، وهى رواية تدل على حسن تصرفه وتلقى ضوءاً على أسلوب حياة العرب والإسبان والنصارى فى ذلك العصر ، وقد ذكرنا فيما سبق فقرة منها ولا بأس من إيرادها على تواليها هنا ، يقول : « وحكى الشيخ ابن لبَّابة رحمه الله عمن أدركه من الشيوخ أن أرطباس كان من عقلاء الرجال فى أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة

(١) ابن عذارى : بيان ، جـ١ ، ص١٤٤ .
ابن بطوطة : رحلة ، ص١٩٨ .
ابن جبير : رحلة ، ص٢٦٣ .
(٢) الأخبار المجموعة : ص٦١
(٣) المقرى : نفح ، جـ١ ، ص٣٦٨ .

من الشآميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه . فلما أخذوا مقاعدهم ، وحيَّا بعضهم بعضاً ، دخل ميمون العابد جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشآميين ، فلما رآه أرطباس داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيه الذى قام منه ، وكان مصمَّداً بالذهب والفضة ، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يحل لى هذا ! فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك إلى مثلى ؟ فقال ميمون : قدمنا إلى هذا البلد وظننا أن ثوانا لا يطول فيه ، ولم نستعد للمقام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما نتوهم به أنَّا لا نعود إلى موضعنا معه ، وقد وسع الله عليك ، فأريد أن تعطينى ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدى ، وأؤدى إليك الحق منها وآخذ الحق . فقال له أرطباس : لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة ! ودعا بوكيل له فقال له : ادفع إليه المجشر الذى على وادى شَوس وما فيه من الغنم والبقر والعبيد ، وادفع إليه القلعة بجيان ، وهى القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها [بياض] فشكر وقام ، وعاد أرطباس إلى مقعده ، فقال له الصميل : يا أرطباس ! ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاد الطيبة ! أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السوّال ، فتصير من إكرامه إلى حيث صرت ! فقال له أرطباس : يا أبا جوشن ! أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ! ولو أخذك لم تنكر علىَّ برَّ من بررت ! وكان الصميل أمياً لا يقرأ ولا يكتب : إنكم أكرمكم الله ، [وأنتم] إنما تكرمونه عز وجل [إذا أكرمتم الصالحين] . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم اللهُ من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه ، فكأنما ألقمه حجراً . فقال له القوم : دع هذا وانظر فيما قصدنا له ، حاجتنا وحاجة الرجل الذى قصدك وأكرمته واحدة ، فقال: أنتم ملوك ، وليس يرضيكم إلا الكثير ، فوهبهم مائة ضيعة ، صار منها لكل منهم عشر ضياع ؛ منها طُرُش لأبى عثمان ، والفُنْتين لعبد الله بن خالد ، وعُقدة الزيتون بالمُدَوَّر للصميل بن حاتم » ؛ وهى حكاية حافلة بكل ما يعيننا على تصور العلاقات بين العرب ونصارى الإسبان فى ذلك العصر (١) .

ولم يكن أرطباس رجلاً كريماً كيساً فى كل حال ، بل ذكر المؤرخون ما يدل على جشعه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٤٠ .
وقد حرَّف سيمونيت هذه العبارة عند ترجمتها ، انظر ص٢٠٥ .

وطمعه ، فقد انتهز فرصة وفاة أخيه الـمُنْذُ وتركِه ابنة واحدة هى سارة وابنين صغيرين ووضع يده على أملاكهم وكانت ألف ضيعة ، فذهبت سارة إلى المشرق ، وعادت منه وقد حكم لها هشام باسترداد ضياعها ، وزوّجها عيسى بن مزاحم (١) . وكان أرطباس يتخذ هيئة الأمراء فيجلس على كرسى مصَمَّد بالذهب والفضة كما رأينا فى الفقرة السابقة ، ويضرب لنفسه قبة عظيمة إذا خرج مع الأمير « وحولها من الهدايا غير قليل ، إذ كانت الهدايا تتلقاه فى كل محلة من ضياعه . فنفَس عليه الأمير [عبد الرحمن بن معاوية] ... » (٢) .

٢٤٢ - المطران سيشيليا وتدل الدلائل كلها على أن النصارى لم يصبهم شىء من الأذى أثناء الحروب العنيفة التى دارت بين العرب ، بين أبى الخطار والصميل ، فقد ازدهر أمر مطرانية طليطلة ورأسها حبر جليل ضليع له صيت فى الحوليات النصرانية وهو سيشيليا Cixilia ، كان دائم الحرص على سلامة العقيدة النصرانية ، حتى لقد كان يشتد مع أصحاب المذاهب الخارجة على الكاثوليكية ، وكان يعمر ما يهى من الكنائس ، وكتب النصارى فى امتداحه القصائد اللاتينية (٣) .

ومن دلائل الحرية التى كان النصارى يتمتعون بها فى هذه الفترة تمكنهم من نقل الكثير من الأشياء المقدسة التى انتثرت من الكنائس التى تهدمت إلى كنيسة أبيط الجامعة ، حتى لقد عمرت هذه الكنيسة لهذا العهد وانتقلت من بيعة صغيرة إلى كنيسة كبيرة عامرة ، ولم يتعرض المسلمون للنصارى فى شىء من ذلك ، مما يدل على أنهم تمتعوا بحرية كاملة فى كل ما يتصل بأمورهم الدينية (٤) .

ويذكر ابن حيان فى عداد الثوار الذين خرجوا على يوسف الفهرى رجلاً يسمى عروة ابن الوليد « ثار فى مدينة باجه فى أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية وكثر جمعه ، إلى أن خرج عليه يوسف فقتله » (٥) ولم يذكر لنا ابن حيان شيئاً نتعرف منه شخصية الوليد هذا ، ولكن الغالب أنه لم يكن نصرانياً مستعرباً ، وإنما عربياً جمع نفراً من العرب وأهل الذمة وثار بهم فى هذه الناحية .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٤ - ٥ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٣٦ - ٣٧ .
(٣) SIMONET, op. cit. p. 207.
ويكتب اسمه فى النصوص بصور مختلفة : Zixilanus, Cixilanus, Cigilia
(٤) SIMONET, op. cit. p. 211 - 212.
(٥) المقرى : نفح ، جـ٢ ، ص١٣ .

وربما كان دافع هؤلاء النصارى إلى الاستجابة لدعوة رجل كالوليد هو الزيادة التى فرضها يوسف على أهل الذمة ، ذلك أن الجباية نقصت بسبب هلاك الكثيرين من النصارى أو فرارهم من أرضهم نتيجة للحروب العنيفة التى دارت بين العرب أيام يوسف ، فطالب يوسف الباقين منهم بأداء المبالغ التى كانت قد تقررت عليهم فى اتفاقات الصلح ، فنقل ذلك على أفرادهم وترددت شكواهم منها (١) .

٢٤٣ - النصارى يعمرون بعض البلاد الخالية وحينما ازدادت الحروب بين العرب حدة ، وضربت المجاعة بجرانها على الأندلس بين سنتى ١٣٣ و١٣٨هـ/ ٧٥٠ - ٧٥٥م ، وعادت جماعات البربر التى كانت تعمر النواحى الشمالية الغربية من شبه الجزيرة واستولى أذفونش الأول على الكثير منها ، كثرت هجرة النصارى من البلاد التى كانت خاضعة لحكم المسلمين إلى هذه النواحى الخالية الفاصلة بين دار الإسلام وبلاد مملكة ليون ، فيما بين نهرى تاجه ودويره لتعميرها ، فعمرت لُك وليون وسلمنقة وأبله وأوكا وشقوبية وأمايا ، وقد كان المهاجرون إلى هذه النواحى من كل طبقات النصارى : أشرافاً وغير أشراف tam no-biles quam ignobilis . وعمرت لُك بالنصارى وقام على تعمير كنيستها حبر كبير هو أدواريوس (Odoario فى النصوص الإسبانية) وكان قد فر منها حينما دخلها العرب ، فعاد إليها مع أذفونش الأول واستقر فيها ومضى يقيم شعائر النصرانية فيها من جديد وجعلها أسقفية عامرة ، واتخذ لقب مطران .

٢٤٤ - تعمير شقوبية وكذلك عمرت شقوبية بعد أن كان الكثيرون من أهلها قد تركوها وهربوا إلى الجبال على أوائل أيام الفتح ، ولكن معظم الهاربين عادوا بعد أن صالح الباقون منهم على أنفسهم بصلح طيب ضمن لهم حرية تامة فى كل شىء لقاء دفع جزية مقررة ، وكانت المدينة قبل الفتح عامرة بالكنائس الكبيرة ، مثل سانتا ماريا دلوس هويرتوس Santa Maria de los Huertos وسان فيسنت San Vicente ولاترينيداد La Trinidad وسان خيل San Gil وسان أنطون San Antón وكلها قديمة ترجع إلى ما قبل عصر ريكاريدو (٢) . وقد اطمأن النصارى فى بلدهم هذا بعد أن تأكدوا أن العرب لن يصيبوهم بضرر ، فمضوا يقيمون كنائس جديدة أهمها سان ماركوس San Marcos وسان بلاس San Blas وشنت ياقب Santiago .

(١) SIMONET, op. cit. p. 217.
(٢) SIMONET, op. cit. p. 223.

وكان العرب ينزلون كثيراً بهذه المدينة فى غزواتهم نحو الشمال ، ثم تخوفوا من كثرة النصارى فيها ، فأخرجوا الكثير منهم إلى الأودية المحيطة بها لكى يجعلوا البلد ثغراً . ويبدو أن مقامهم بها لم يطل ، لأنهم لم يخلفوا فيها إلا أثراً قليلاً جداً ، ولم يرد لها ذكر كثير فى التواريخ الإسلامية ، وقد احتفظت لنا الروايات النصرانية بأسماء ثلاثة من أحبار هذا البلد لقبوا بالمستعربين الثلاثة Los tres Santos mozárabes كانوا على جانب عظيم من الزهد والصلاح ، حتى لقد فرقوا أملاكهم فى الفقراء وخرجوا إلى بادية عند مصب نهر الدوراتون el Rio Duratón وخف إليهم الناس وعمرت بهم هذه الناحية القاحلة من برديل Bardulia ، وهكذا نلاحظ أن الفتح الإسلامى أدى - بطريق غير مباشر - إلى تعمير الكثير من نواحى الأندلس الخالية ، وكانت هذه الناحية من أعمر نواحى برديل حينما تكونت فيها إمارة قشتالة خلال القرن التاسع الميلادى [(١)] .

وعندما اشتد ساعد الإسلام وانتظمت أموره فى خلال الدولة الأموية استعاد المسلمون المنطقة الواقعة بين نهرى التاجه ودويره ، ووضعوا أيديهم على كبار مدائنها مثل أبلة وشقوبية . وقد ثبتت حدود الإسلام فيها بعد عند خط فى منتصف المسافة بين الدويره وتاجه ، فبينما كانت أبلة وشقوبية من بلادهم نجد شلمنقه خارجة عنها . ولم يحاول المسلمون الوصول إلى نهر الدويره والثبات عنده بصورة دائمة .

٢٤٥ - ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبرة وفى خلال السنوات الأخيرة من فترة الولاة تقلص سلطان المسلمين عن كثير من نواحى الشمال الشرقى القاصية فى جهة البشكنس Vasconia كما تقلص ظلهم من ناحية الشمال الغربى على ما روينا ، وإلى هذه الفترة يرجع ميلاد إمارات شُبْرُب Sobrarbe وأرغون Aragon ونبرة Navarra فى ناحية البشكنس وجبال البرت ، وكانت هذه الناحية قبيل دخول العرب البلاد مقسمة إلى ثلاث مقاطعات صغيرة هى Calagurri (قلهرة) فى الجنوب و Segia (Exea de los la balleros) فى الشمال الشرقى و Pamplona (بنبلونة) فى الشمال [(٢)] . وكلها واقعة فى سهل ريوخه Rioja وكانت قلهرة مركز أسقفية عامرة ، فلما افتتحها العرب هرب كبار رجال الدين فيها إلى غالة أو إلى جليقية ، وأقام بعضهم فى أبيط (Oviedo).

---

(١) IBID, p. 226.

(٢) IBID, p. 227.

وفى هذه السنوات أيضاً عاش ذلك الراهب الذى كتب الحوليات التى نسبت زماناً طويلاً إلى إيزيدور الباجى Isidorus Pacensus ، إذ حسب الناس أنه كان أسقفاً لباجه (Pax - Julia) فى البرتغال الحالية . وقد ثبت بعد أبحاث طويلة أن هذه الحوليات لم تكتب فى باجه وإنما فى طليطلة ، ولم يكتبها إيزيدور ولكن راهب غير معروف . وهذه الحوليات تاريخ طيب جداً لأحداث الأندلس فى هذه الفترة ، ولأحداث الخلافة الأموية المشرقية كذلك . مما يدل على أن نصارى تلك الأيام كانوا يعرفون الكثير عن أحوال المسلمين عامة وتاريخهم كذلك (١) .

٢٤٦ - اليهود فى إسبانيا قبل الفتح

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى سياسة القوط حيال اليهود ، وبيّنا كيف كانت هذه السياسة بعيدة الأثر فى موقفهم من الدولة القوطية جملة ، وفى موقفهم من العرب الفاتحين .

وعلينا الآن أن ندرس موقف المسلمين منهم بعد الفتح ، وأن نرى كيف كان دخول المسلمين خيراً عليهم ، وسنرى فى غضون الكلام كيف كان موقف المسلمين حاسماً فى تاريخ اليهود جملة ، وأن المسلمين لو واصلوا سياسة القوط والكنيسة الطليطلية من اليهود لما كان لهم اليوم شأن فى الوجود .

كان موقف الدولة الرومانية من اليهود موقف عداء واضطهاد ، وما زال ذلك العداء يشتد حتى قضى الرومان على دولة اليهود فى فلسطين وخربوا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان سنة ٧٠ ميلادية ، فتفرق اليهود فى نواحى الأرض . وبلغ من كراهة الرومان لليهود أنهم حسبوا أول الأمر أن النصارى يهود ، وإلى هذا الظن الخاطىء يرجع السبب فى الاضطهادات الأولى التى لقيتها النصرانية من الرومان .

وقد ورثت الكنيسة المسيحية عن الدولة الرومانية هذه الكراهة ، وفى تلك العصور الأولى من تاريخ المسيحية كانت جرائم اليهود حيال المسيح وأصحابه ماثلة أمام المسيحيين جميعاً ، فحرص المسيحيون على تتبع اليهود طلباً للثأر . وقد كان هذا التتبع هادئاً غير ملحوظ فى المشرق ، وأما فى الغرب ، فقد ثابرت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم ، فهربوا إلى النواحى التى كان سلطان هذه الكنيسة فيها ضعيفاً ، هربوا إلى إسبانيا والشمال

(١) SIMONET, op. cit. p. 231.

الإفريقى وبلاد الشرق ، وربما أوغل نفر منهم فى بلاد الجرمان حتى أدركوا سواحل البلطيق ، وفى بلاد الصقالبة حتى الفولجا وشواطىء البحر الأسود .

٢٤٧ - اضطهاد القوط لليهود

وقد كثرت جماعاتهم فى إسبانيا حتى أننا لنجد مدناً كاملة يعمرها اليهود فى أواخر العصر القوطى ، ومن تلك المدن اليُسانه Lucena والبيره Ileberis من مدن الجنوب . وعندما وصل رجال الدين إلى السلطان على عهد ريكاريدو ، بدأت المجامع الطليطلية تضيق الخناق عليهم ، فأصدر المجمع الطليطلى الثالث قراراً بضرورة تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر ششبوتو سنة ٦١٣ قراراً يخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد . وقد عارض القديس إيزيدورو هذا القرار، وأيد مجمع طليطلة الرابع قرار ششبوتو فاضطر الكثيرون من اليهود إلى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية ، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المسترين Judaizantes . وقد ضاق القوط بهم ذرعاً فقرر المجمع الطليطلى الثامن ضرورة تعميدهم من جديد ، وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه . ثم حرمت إقامة الشعائر الدينية اليهودية ، وصودر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وصبت لعنة الكنيسة على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على إقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود حتى طردوهم من أربونة .

وبلغ هذا التعقب مداه على أيام الملك ايرفيج حيث قرر المجمع الطليطلى الثامن عشر إرغام اليهود جميعاً على التنصر أو مبارحة البلاد فى مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عدد اليهود المسترين . وبدأ اليهود يتحركون سراً للقضاء على الدولة القوطية ، وأحس القوط بما كانوا يدبرون ، فقرر المجمع الطليطلى السادس على أيام اخيكا اعتبار اليهود جميعاً رقيقاً وتوزيعهم على المسيحيين ، وحرم على هؤلاء الأخيرين عتقهم ، وتقرر فصل أولادهم عنهم ، وتنصير الأولاد وتربيتهم تربية مسيحية ، واستثنى من ذلك يهود سبتمانية (١) .

وقد حاول اخيكا أن يخفف الوطأة عن اليهود ، فأزال عنهم بعض ما كانوا يلقونه من إرهاق ، ولم يكد اليهود يتنفسون الصعداء حتى بدأوا يكيدون للقوط ، ونمى إلى اخيكا أنهم يتصلون بأبناء عمومتهم فى المغرب ويحاولون إغراء العرب بفتح إسبانيا ، فانقلب عليهم ، وأصدر المجمع الطليطلى السابع عشر قراراً فى سنة ٦٩٤ بالعودة إلى الاضطهاد السابق .

(١) MANUEL TORRES y PEDRO PRIETO BANCES, op. cit. III, p. 180 - 183.

وليس لدينا - من مراجعنا العربية - دليل على اتصال اليهود بالعرب وتحريضهم إياهم على المسير إلى إسبانيا ، وإن كنا لا نستبعده ، لأننا سنجد اليهود إلى جانب العرب أثناء الفتح وبعده (١) .

٢٤٨ - المسلمون واليهود وقد رأينا كيف وقف اليهود إلى جانب المسلمين أثناء الفتح ، وكيف كانوا يدلونهم على عورات البلاد وثلمات الأسوار وما إلى ذلك ، وكان من الطبيعى أن يكافئهم المسلمون على ذلك ، فاتخذوا منهم حرساً لما يفتحونه من البلاد إلى جانب الحرس الإسلامى . وقد لقى اليهود بعد ذلك تسامحاً مطلقاً من العرب ، سواء خلال عصر الولاة أو ما بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم ما أحبوا ، ولا نسمع خلال العصور الإسلامية باضطهاد اليهود إلا ابتداء من القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط الخلافة وافتراق الكلمة وشيوع الفوضى.

ولقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصور الوسطى كلها : بلغ بعضهم مبلغ الوزارة ، ونظر إليهم المسلمون نظرتهم إلى إخوان ، حتى أصبح الأندلس موئل اليهود ، بل إن حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبرى بدأت فى إسبانيا ، نشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم ، بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على إنشاء نحو لغتهم. ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا فى غمارهم(٢).

٢٤٩ - تنظيم جماعات اليهود وليست لدينا مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات اليهود فى الأندلس الإسلامى ، ولكن القوانين والمنشورات التى أصدرها ملوك إسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامى فى أيديهم واحدة بعد أخرى ، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات فى ظلال الإسلام . وجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود ، مما يُفهم منه أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان ، فلم تكن هناك حاجة إلى تشريعات خاصة لهم ، بعكس ما حدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد ، إذ أُفرِد اليهود بمعاملة خاصة ، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم فى إسبانيا كلها . وهذا وحده يكفى للدلالة على فضل المسلمين على يهود إسبانيا ، وهو فضل لم

(١) IBIDEM. III, 132.

(٢) LÉVI - PROVENÇAL, Histoire..., 1, p. 80 - 81.

يُعْنَ مؤرخ يهودى واحد بالإشارة إليه : لقد أظلهم الإسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة ، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم ، فلما زال أمر المسلمين من إسبانيا كان ذلك إيذاناً بزوال أمر اليهود أيضاً .

وتبدو لنا جماعات اليهود ، فى الوثائق الإسبانية ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى، منظمة تنظيماً دقيقاً . وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم من أول الأمر ، ولكن الطبيعى أن يكون قد بدأ فى صورة بدائية ، ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح له الحكم الإسلامى فرصة هذا التكامل ، بما ضمن من حقوق الذميين ، ومنهم اليهود .

رأينا فى كلامنا عن الفتح كيف أن المسلمين كانوا إذا وجدوا فى بلد يهوداً جعلوهم فى جملة حرس المدينة ، و« ضموهم إلى القصبة » أى أنهم أوسعوا لهم مكاناً فى الجزء المحصن من البلد ، وهو القصبة . ومن الطبيعى أن يتجمع اليهود فى جزء معين من القصبة ، وهذا الجزء هو الذى أصبح مع الزمن حى اليهود أو حارة اليهود ، وحارة هنا تعنى حياً أوْ قسماً من المدينة ، كما هو الحال فى المغرب إلى اليوم ، إذ تقسم المدينة إلى حارات ، وهذا الحى أو الحارة هو الذى عُرِف فيما بعد باسم اليودرية أو الخودرية Judería فى مصطلح إسبانيا النصرانية .

٢٥٠ - حكومة الجماعات اليهودية وتسمى جوالى اليهود فى النصوص الإسبانية باسم عربى : aljama (الجماعة) ، ويغلب أن يطلق هذا الاسم على جماعة اليهود فى النواحى الداخلة فى دولة الإسلام ، أو فى نواحى قشتالة وليون التى تأثرت بالحضارة العربية بصورة ظاهرة ، أما النواحى التى لم تتأثر بالحضارة الإسلامية إلا قليلاً ، مثل قطلونية ، فالغالب أن تسمى باسم عبرى : كاحال Kahal . وكان يرأس كل جماعة نفر من الظاهرين منهم يسمى الواحد منهم « البَرورُ » ، وكان لهذا النفر مجلس يسمى «البَرُوريم » (البَرورين) وقد يسمى البَرور مُقدَّماً (الجمع فى العبرية مقدميم = مقدَّمين) أو نعمان (والجمع نعمانيم Ne'emanim) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين يُعرفون عادة باليوعاظيم (الواعظين) ، ويغلب أن لفظ مقدَّم غلب فى جماعات اليهود التى أقامت فى البلاد الإسلامية ، وقد ترجم هذا اللفظ إلى الإسبانية عندما زال أمر الإسلام ، فأصبح المقدَّمون فى المدن التى استغلبها النصارى يعرفون باسم أدلانتادوس (adelantados) أو (Adenantados) .

وكان البَرورون والمقدَّمون والنعمانون يُنتخبون أول الأمر ، ثم أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم ، وكانت مدة ولايتهم عاماً ، وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها . وكانوا مسئولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكما كانت للنصارى قوانينهم ، فكذلك كانت لليهود قوانينهم وقضاتهم ، وكانت الإدارة الإسلامية لا تتدخل فى شئونهم ، بل كان للجماعة اليهودية الحق فى تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات . وفى الحالات التى كان الخلاف فيها يقع بين مسلمين ويهود ، كان الأمر يُرفع لقاضى المسلمين .

وكانت لليهود بِيَعهم التى تُقَام فيها صلواتهم ، وكانوا أحراراً فى ذلك لا يعرض لهم المسلمون فى شىء ، وليس لدينا دليل على أن حى اليهود كان يحاط بأسوار فى البلاد الإسلامية ، بخلاف الجودريات فى البلاد النصرانية ، فقد كانت لها أسوار عالية. وكذلك كان الحال فى بقية بلاد النصرانية ، فقد عرفت فى بولندا وألمانيا باسم الجتو Ghetto . وكانت العلاقات بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد ، مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج فى الجماعة الإسلامية ، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين ، وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع الزمن [١] .

وبعد ، فهل أجدى ذلك على الإسلام والمسلمين شيئاً ؟

كانت النتيجة أن وقف اليهود إلى جانب النصارى عندما بدأ الصراع بين الجانبين على مصير إسبانيا ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة الغزاة يقومون لهم بنفس المهمة التى قاموا بها

(١) اعتمدنا فى جمع هذه المعلومات على ما كتبه اليهود عن تاريخهم فى إسبانيا ، ومن الغريب أن نفراً منهم يستطرد عن أحوال اليهود فى الأندلس الإسلامى كأنهم يتهربون من الاعتراف بفضل المسلمين ، وفريق آخر منهم ينكر الواقع ويتحامل على المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كثيراً جداً من هذه المؤلفات كتب قبل اعتداء اليهود الحالى على العرب واغتصابهم قطعة من فلسطين لإنشاء دولة فيها ، مما يدل على أن اليهود – حتى علماءهم – كانوا يضمرون العداوة والكيد للمسلمين منذ زمن طويل . انظر .

ABRAHAM A. NEUMAN, The Jews in Spain. (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes. 1948.

FRITZ BOER, Die Juden in Christlischen Spanien.

JACOB, Sources of Spanish _ Jewish History (New York 1894).

J. PERLES, Rabbi Salomo ibn Abraham ibn Aderth. (Breslau 1863).

للمسلمين . وإذا نحن فسرنا موقف اليهود من الدولة القوطية بما كانوا يلقون منها من العنت ، فما تفسير خيانتهم للمسلمين ولم يلقوا منهم إلا خيراً ؟ لقد أحس المسلمون فى القرن الحادى عشر بخطأ أجدادهم فيما جروا عليه من تسامح وإكرام مع اليهود ، ولكن الوقت كان قد فات ! بيد أن الإسبان أنفسهم تكفلوا بسداد الدين لليهود ، فما كاد الأمر يستتب لهم حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين ، وما زالوا يلحون عليهم حتى استأصلوا شأفتهم من البلد الذى تخونوه أكثر من مرة . وفرَّ من نجا بحياته منهم إلى المغرب ونواحى البحر الأبيض وهم اليهود السِّفَراديون ، وهم نصف يهود العالم اليوم . والنصف الآخر هم الأشكنازيون ، وهم سلائل أولئك الذين ذكرنا أنهم فروا أمام اضطهاد الرومان والكنيسة الكاثوليكية إلى بلاد الجرمان والصقالبة ، تكاثروا هناك وانضمت إليهم جماعات من الهاربين من انفجارات العداوة التى كانت تثور بهم فى بلاد أوروبا الغربية ، وفى ألمانيا وبولندا ونواحى روسيا ، عاشوا فى مخابىء وأحياء مقفلة تسمى الجِتُّو ، ولم يبارحوها إلا مع العصور الحديثة . ثم تجمع اليهود جميعاً على أيامنا ونسوا ما أسلف إليهم الناس جميعاً من أذى ، ولم يصبح لهم هدف فى الحياة إلا القضاء على العرب والمسلمين ، وما أحسن إليهم فى التاريخ أحد بمثل ما أحسن العرب والمسلمون ..

* * *

الفَصل الحَادى عَشرَ

الإدارَة وَالمال

٢٥١ - قلة المراجع عن شؤون الإدارة والمال

لم تصمت مراجعنا العربية - الأندلسية وغير الأندلسية - عن ناحية من نواحى التاريخ كما صمتت عن نواحى الإدارة وشؤون المال . فعلى طول التاريخ الإسلامى وعرضه ، ليس لدينا بيان رسمى واحد عنيت دولة من الدول الإسلامية بوضعه ، تورد فيه النواحى الداخلة تحت سلطانها وحدودها ، وما يتبع كلاً منها من المدن والقرى بـوصفها وحـدودها ، وما ينبغـى على أهلها من مال ، وما كان لهؤلاء الناس من حقوق مختلفة الأوضاع القانونية على الأرض وما فيها ، كما هو الحال فيما يتصل بنظم الدولة الرومانية . واعتمادنا فيما يتصل بالمشرق على بضعة بيانات نقلها بعض المؤرخين والجغرافيين ، عن أوراق وقعت بين أيديهم بطريق المصادفة ، تحدد دخل جزء من الدولة أو نفقاته فى فترة معينة ؛ ومثال ذلك البيان الذى أورده ابن خلدون فى « المقدمة » ، نقلاً عن خط رجل يسميه أحمد بن محمد بن عبد الحميد « بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحى ، نقلته من جراب الدولة » (١) . وهو بيان ناقص لا يبين إلا دخل جزء من أجزاء الدولة ، وهو بعد ذلك حافل بالمشاكل، سواء فيما يتصل بأسماء النواحى وتقسيمها ، أو معانى المصطلحات التى يستعملها .

ومثال ذلك أيضاً البيان الذى أورده قدامة بن جعفر فى جزء من « كتاب الخراج » نشره دى خويه فى ليدن سنة ١٨٨٩ ، عن دخل الدولة العباسية أيام المعتصم (٢) ، وهو بيان مضطرب فى حاجة إلى دراسة طويلة. وهناك بيان ثالث وصل إلينا عن طريق المصادفة البحتة ، فقد أراد الوزير على بن عيسى بعد عزله أن يقدم للخليفة المقتدر « حساباً » عما وصل إليه من أموال الجباية وما أنفقه منها ، وقد عثر البارون ألفريد فون كريمر على ذلك الحساب ونشره ؛ وهو بيان خاص لا نستطيع الاعتماد على ما فيه اعتماداً تاماً ، نظراً لأنه صادر عن وزير فى موقف الدفاع عن نفسه (٣) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ط. بولاق ، ص١٥٠ - ١٥١ .

(٢) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ ، ص٢٣٧ - ٢٤٠ .

(٣) ALFRED VON KREMER, Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

وهذه البيانات كلها لا تعيننا على رسم صورة كاملة لتقسيم الدولة الإدارى وشؤونها المالية ، حتى إذ استعنا فى فهمها بالشروح التى أوردها الخوارزمى فى كتابه القيم « مفاتيح العلوم »[(١)] للمصطلحات المالية ، وبالتفصيل الطيب للمصطلحات الجغرافية والإدارية الذى أورده ياقوت فى مقدمة « تقويم البلدان » . وربما كانت مصر أوفر البلاد الإسلامية حظاً من هذه الناحية ، نظراً لما لدينا من الوثائق البردية ذات القيمة العظيمة ، ونظراً لاهتمام بعض مؤرخى مصر ، كالمقريزى فى « خططه » والقلقشندى فى « صبح الأعشى » ، والنويرى فى « نهاية الأرب » ، بالكتابة فى مسائل الإدارة والتقسيم الإدارى وشؤون المال .

* * *

٢٥٢ - التقسيم الإدارى ولكننا لا نملك ، فيما يتصل بالأندلس ، شيئاً يشبه ذلك . وبين هذا الحشد الحافل من المؤلفات الأندلسية فى كل فن ، لا نجد مؤلفاً عنى بناحية كالتى عنى بها المقريزى والقلقشندى والنويرى ؛ حتى ابن حيان ، أمير مؤرخى الأندلس ، لم يَجُدْ علينا الزمان بنسخة كاملة من تاريخه ، وليس فى القطع التى بين أيدينا منه شىء يتناول التقسيم أو التنظيم الإدارى ، بل لم يورد لنا بياناً شافياً عن نواحى الدولة وأموالها ، مع أنه وأباه كانا من كُتَّاب الدولة ورجال الدواوين ، ومع أنه كان ينقل عن أحمد بن محمد الرازى وابنه عيسى بن أحمد ، وكان كلاهما من عمال الدولة وخواص الأمراء .

ولا يعلل هذا الصمت إلا بافتراض أن التقسيم الإدارى للأندلس والجبايات التى تقررت على النواحى لم تكن ، بالنسبة للأمراء أو كتابهم ، مسألة تستوقف الاهتمام والنظر ، كأن العرب حينما دخلوا البلد وجدوا فيه نظاماً إدارياً جارياً ثابتاً صالحاً فجروا عليه ، دون الحاجة إلى إعادة التخطيط والتنظيم ، وكأن الظروف العامة فى الأندلس ، إلى سقوط الخلافة الأموية على رأس المائة الخامسة للهجرة ، كانت مستقرة بصفة عامة ، وكأن مقادير الجباية كانت وافرة طوال هذه الفترة ، فلم تقع الدولة فى أزمات مالية وإدارية كالتى تعرضت لها دولة العباسيين ، أزمات جعلت الناحية المالية هى المشكلة الرئيسية للخلافة العباسية من أواخر القرن الهجرى الثالث ، ولم يتورط الأمراء والخلفاء الأندلسيون فى تلك الأخطاء الفادحة التى زعزعت الأسس العامة التى قامت عليها دول المشرق ، فاضطرت إلى إعادة التنظيم والروك ، وزيادة الجبايات وابتكار الجديد منها ، وما إلى ذلك .

---

(١) الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم (صنفه سنة ٣٦٦هـ) القاهرة ١٣٤٤هـ ، ولايدن ١٨٩٥ .

٢٥٢ - كتاب الأندلس وتقسيمه الإدارى

وهذا - على الأقل - هو ما يبدو لنا مما بين أيدينا من تاريخ الأندلس . فعلى الرغم مما يحفل به هذا التاريخ من أخبار الفتن والثورات ، فإن الحال كان دائماً رخياً والناس فى سعة ، وبيت المال عامراً بالدخل والمدخر ، حتى فى أيام فتنة العرب وأهل الذمة التى شغلت الأندلس من أواخر إمارة محمد إلى منتصف عصر عبد الرحمن الثالث ، لا نسمع عن إفلاس بيت المال أو مصادرات العمال والوزراء والتجار التى يحفل بها تاريخ دول المشرق ، وهذا أمر لا يمكن أن ينتج إلا عن رخاء شامل جعل عامة السكان بنجوة من الفقر المدقع الذى يؤدى إلى الثورة ، ولا يمكن أن يكون إلا إذا كانت هناك موارد مستمرة منتظمة لثروة الأفراد والدولة ، مما لا يمكن أن يتحقق إلا مع افتراض وجود نظام إدارى سليم وتنظيم مالى صالح ، هذا بالإضافة إلى الحكمة الإدارية التى اتصف بها الأمراء والخلفاء ، والنزاهة - النسبية - فى شؤون المال والحكم التى اتصف بها الوزراء والعمال ورجال الدولة فى العاصمة والنواحى .

وهذا الاستقرار الإدارى والاقتصادى ، هو الذى صرف المؤرخين والجغرافيين عن الموضوع ، لأن مؤرخ التاريخ الإسلامى إنما يؤرخ عادة للحوادث الجسيمة والثورات والفتن والاضطرابات ، فإذا لم يجد من ذلك شيئاً ملأ فراغ صفحاته بأخبار الشعراء والكُتَّاب والفقهاء ومن إليهم . وإن الناظر إلى تاريخ دول المشرق فى موجز تاريخى جامع ، مثل « الكامل » لابن الأثير ، ليجد أن المشكلة الرئيسية التى دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسى الأول هى مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم؟ من يرث الخلافة ومن لا يرثها ؟ وابتداء من خلافة الواثق تختفى مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية ، فقد كانت الدولة فى حالة إفلاس حقيقى من عهد المتوكل، وعلى صخرة الأزمة المالية تهاوى الخلفاء والوزراء والكُتَّاب ، وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلاً ، وانتهى الأمر بزوال الدولة كلها جملة .

وواضح أن المشكلة المالية بدأت من أول يوم قامت فيه دولة بنى العباس ، فقد تربع خلفاؤها على امبراطورية واسعة تضم ولايات فسيحة ، لكل منها طبيعة وأحوال خاصة ، فكان لابد من وضع نظام إدارى وآخر مالى ، ولم يوضع هذا ولا ذاك . ومضت الأيام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يتنبه إلى الأمر أحد طالما كانت الدولة فى سعودها والجباية وافرة ، ولكن الإنفاق كان دائماً أكثر من الوارد ،

وقد أحس بذلك هارون الرشيد فطلب إلى أبى يوسف القاضى أن يضع له دستوراً إدارياً مالياً ، فوضع له مبحثاً فقهياً لم ينتفع به الرشيد أو من جاء بعده. وجاء يوم وجد الخليفة فيه بيت المال خالياً ، فبدأ فى مصادرة أموال الناس ، ونظر الوزراء والكُتَّاب إلى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسراً ، فثبطت الهمم وأخذت الثروة القومية تتلاشى، ونزر الوارد إلى بيت المال شيئاً فشيئاً ، حتى وصلت الدولة إلى الإفلاس ، وبدأت مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجرى .

أما فى الأندلس فلم يحدث من ذلك شىء ، وهذا ما يحدو بنا إلى القول بأنه لابد أنه كان هناك نظام إدارى مالى ثابت سليم ، لأن الثروة الطبيعية للبلاد لا تغنى شيئاً إذا كان النظام فاسداً . فقد كان « ارتفاع » الأهواز مثلاً مضرب المثل ، ولكن سوء النظام وفساد ذمم العمال هبطا بها إلى حضيض الفقر البالغ . ومصر كذلك كانت من أغنى بلاد دولة الإسلام فى المشرق ، ولكنها أفلست تماماً فى منتصف العصر الفاطمى بسبب سوء الإدارة وفساد النظام المالى ، وتوالت عليها المجاعات والغلوات والمحن التى يُفصِّلها ويشرح أسبابها المقريزى فى كتابه الفريد فى بابه « إغاثة الأمة وكشف الغمة » . ولسنا نجد فى الأندلس شيئاً يشبه ذلك : لا نجد أميراً أو خليفة يمسح أراضى الدولة أو يعيد تحديد الأقسام الإدارية ، لا نجد كوراً يُجمع بعضها إلى بعض أو تقسم تقسيماً جديداً لمواجهة ظروف إدارية طارئة ، ولا نجد جبايات ثقيلة تُفرض على الناس فيشكون منها . وهذه ظاهرة لا تُفسَّر إلا بما قلناه : وجد العرب تقسيماً إدارياً مستقراً صالحاً ، فأخذوه كما هو ، ووضع العرب من أول الأمر نظاماً مالياً لم يحتاجوا بعد ذلك إلى تغييره ، ومضى العمل به على ما هو عليه ، ولم يتعرض واحد من النظامين لشىء من التغيير الحاسم يستوقف انتباه المؤرخين .

ثم إننا نجد أن كل التفاصيل التى لدينا عن تقسيم الأندلس إلى كور وأقاليم تتفق فيما بينها اتفاقاً واضحاً مع اختلاف العصور التى كتبت فيها ، وحتى مع افتراض أن كل ما كُتِبَ بعد الرازى أخذ عنه ، فلا يعقل أن ينقل عنه أحمد بن عمر بن أنس العذرى المتوفى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ ، وأبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، ومحمد بن أيوب بن غالب الغرناطى المتوفى فى أواخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وأبو الحسن على ابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥/ ١٢٨٦ ، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميرى الذى كتب فى سنة ٨٨٦/ ١٤٨١ ، وغيرهم كثيرون ، دون أن يشير واحد منهم إلى تعديل أو تغيير

أصاب نظام الكور وحدودها وما يتبعها من المدن رغم اختلاف الأعصر التى كتبوا فيها . ولقد زار الأندلس رحالة كابن حوقل ، وكتب عنه جغرافيون كابن الفقيه وابن رستة والإصطخرى والمقدسى ، وهم جميعاً ممن يهتمون بالتقسيمات الإدارية ونظم المال ، فلم يبين أحد منهم حقيقة ذلك التقسيم أو التعديلات التى أدخلت عليه ، بل وقف ياقوت طويلاً عند مصطلحات الأندلسيين الإدارية ، وبَيَّن الفروق بينها وبين ما يستعمله أهل المشرق ، دون أن يشير إلى أصول هذه المصطلحات وما يمكن أن يكون قد نالها من التغير والتعديل . وكل ذلك يلقى فى الروع أن الرازى ، عندما كتب « صفة الأندلس » ، إنما كان يكتب عن نظام مقرر ثابت لم يتكلف العرب فى وضعه مشقة . وليس فى ما بين أيدينا من كتب التاريخ إشارة إلى وضع هذا النظام أو من وضعه أو فى أى وقت كان وضعه ، مما ينتهى بنا إلى القول بأن العرب وجدوا فى الأندلس عند دخولهم تقسيماً إدارياً ثابتاً للبلاد ، فساروا عليه مع بضعة تعديلات شكلية اقتضتها الأحوال الجديدة - وسنشير إليها - واستبدلوا ما وجدوا من التسميات والمصطلحات بما حملوه معهم من المشرق ؛ وثبت الأمر على ذلك .

فإذا صح هذا الرأى ، فما هو هذا التقسيم ؟ هل هو تقسيم إسبانيا الإدارى على عهد القوط ؟ ثم ، ما هو هذا التقسيم القوطى ؟ ما أصله وما حدوده ، وما هى درجة انطباقه على ما بين أيدينا من تقسيم الأندلس الإسلامى إلى كور وأقاليم ؟.. أم هل هو التقسيم الكنسى إلى مطرانيات وديقونيات ؟

٢٥٤ - أصول التقسيم الإدارى الإسلامى فى الأندلس من الثابت أن القوط لم يضعوا لإسبانيا تقسيماً إدارياً ، وأنهم قنعوا بالتقسيم الرومانى الذى وجدوه فى البلاد عند دخولهم ، فلنرجع إلى العصر الرومانى لنتتبع هذا التقسيم من أوله .

كانت للرومان عناية خاصة بالتنظيم الإدارى ، فلا تكاد ناحية من النواحى تدخل تحت سلطانهم حتى يخضعوها للنظام الإدارى العام لدولتهم ، ويحددوا وضعها السياسى داخل الدولة أو علاقتها بها إذا كانت محالفة أو صديقة ؛ وكان مجلس الشيوخ لا ينفك يعيد النظر فى النظم ويعدلها أو يعيد وضعها بما يتفق مع الظروف القائمة . فلما اختفت الجمهورية وجاء عصر الامبراطورية تابع الأباطرة هذا الاهتمام ، ومن هنا كان لكل ولاية من ولاياتهم تاريخ إدارى حافل بالتطورات . وفيما يتصل بإسبانيا سار هذا التطور جنباً إلى جنب مع امتداد سلطان الرومان على الجزيرة وتمكُّن قبضتهم منها ، وتأثر إلى جانب ذلك بما قام فى

البلاد من ثورات أو حركات معادية للرومان . ويهمنا من هذه التقسيمات كلها التقسيم الأول الذى وضع سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ، والتقسيم الأخير الذى تم فى عهد دقلديانوس ، والذى يسمى عادة تقسيم قسطنطين أو « قسمة قسطنطين » كما يقول كُتَّابنا الإسلاميون .

٢٥٥ - تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمة قسطنطين

فأما التقسيم الأول فهو الذى يجعل إسبانيا قسمين إداريين كبيرين ، يحكم كلاً منهما موظف كبير بلقب بروكنسل Proconsul أولاً ثم بلقب برايتور Praetor فيما بعد ؛ هذان القسمان هما إسبانيا الدنيا Hispania Citerior وإسبانيا القصوى Hispania Ulterior . وقد كان هذا التقسيم أساساً لكل تقسيم جاء بعده فى الفترة الرومانية ، فانقسمت إسبانيا القصوى فى عهد الامبراطور أجريبا سنة ٢٧ قبل الميلاد إلى ولايتى بيطى Betica ولشدانية Lusitania. وفى أيام كاراكالا ظهرت ولاية إسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana وتضم إقليمى جليقية وأشتريس ، وفى عهد دقلديانوس ظهرت ولايتا إسبانيا الطركونية Hispania Tarraconensis وإسبانيا القرطاجنية Hispania Cartaginensis[١] . وهذا يصل بنا إلى تقسيم دقلديانوس الأخير الذى يُنسب إلى قسطنطين ، وبمقتضاه أصبحت إسبانيا ديقونية Diocesis – أى عملاً كبيراً بالمصطلح العربى – تابعة لمديرية الغالتين Praefectura Galliarum داخلة فى القسم الغربى من الدولة الرومانية ، وهو التقسيم الذى وصل إلينا فى وثيقة رسمية اسمها : بيان بالوظائف الجليلة فى الدولة وغير ذلك Notitia dignitatum utriusque imperii[٢]. وتضم إسبانيا بحسب هذا البيان ست ولايات Provinciae ، هى : باطقة Betica ، ولشدانية Lusitania ، وجليقية - أشتريس Calicia Astúrica ، والولاية الطركونية ، والولاية القرطاجنية ، ثم أضيفت إليها مرطانية الطنجية Mauretania Tingitana والجزائر الشرقية Provincia Balearica .

(١) MANUEL TORRES, La Peninsula Hispanica, Provincia Romana. En Historia de España dirigida por R. MENÈNDEZ PIDAL, II Madrid, 1935. p. 371 - 372.

(٢) نشر هذه الوثيقة الهامة seeck سنة ١٨٧٦ ، وانظر عنها أيضاً :

TH. MOMMSEN, Vergeichnis der römischen Provinzen aufgesetzt um 297. Abhandlungen der Berliner Akad. d. Wiss. Phill. Hist. Kl. 1862. S. 489 - 518. Gesammelte Schriften, vol. V. 1908, S.S. 561 - 588.

C. JULLIAN, De la réforme provinciale attribuée à Diocletien. Rev. Hist. XIX, 1882, p. 331 - 374.

وقد ذكر كُتَّابنا العرب هذه التقسيمات مع تحريفات ظاهرة سنتحدث عنها فيما بعد ، فقال أحمد بن عمر بن أنس العذرى : « ... تمَّ ذِكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزَّأها على ستة أجزاء : أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحَلَفاء ، وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة ، إلى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة إلى سرقسطة وما وازاها . وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرْى الأنهار ؛ فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربى ، وما جرى أنهاره إلى الشرق سماه بالشرقى . والقسمة من تدمير ، ونهرها جارٍ إلى الشرق »[1] . وإذا نحن نظرنا إلى التقسيم الرومانى الأول إلى إسبانيا الدنيا وإسبانيا القصوى تبينا أنه ينطبق تماماً مع كلام العذرى ، فيما عدا المدن التى يذكرها ، فإن الحد الفاصل بحسب التقسيم الرومانى هو نهر تدمير بالفعل ، أما قوله إن بعضهم يسمى القسمين الأندلس الشرقى والأندلس الغربى فيفسره تصور الجغرافيين المسلمين للهيأة العامة لشبه الجزيرة الايبيرية ، وهو تصور يجعل الساحل الشرقى لشبه الجزيرة كله ساحلاً جنوبياً تقريباً .

٢٥٦ - قسمة قسطنطين كما يعرضها البكرى

ولأبى عبيد البكرى نص أكثر تفصيلاً وأهمية ، لا بالنسبة للتقسيم الإدارى أيام الرومان ، بل أيام المسلمين كما سنرى ، قال : « وحَدَّت الأوائل الأندلس بعبارات مختلفة . وحَدَّها قسطنطين حدوداً ستة : جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة ، وهو حد ما بين غاليوش (Gallos = الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) وأضاف إليها سبع مدن مما حواليها وهى بَطَرَّش (Béziers = Betteris بيزييه) ، وطُلَيْوشة (Tolosa = تولوز) ومقَلُونة (Maguelonne = Magallona) ، ونومْشو (Nîmes - Nemauso) وقرقشونة. وفى قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم ، تسمى شَنْت مريَّة غراثية (Sainte Marie de Grâce) وفيها سبع سوار من فضة ، ولها يوم عيد ترده العجم من الآفاق ، وبينها وبين برشلونة ٢٥ يوماً .

وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة (Braga = Bracara) ، وهو حوز جليقية

(١) أحمد بن عمر بن أنس العذرى : نظام المرجان فى المسالك والمهالك (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) ورقة ١٧ .

وشِلطيانة (Celtiana) وهو بلد ابن غومس(١) ، وجعل لها اثنتى عشرة مدينة مما حواليها ، منها : مدينة برطقال (Portus Gallensis = بورتو) ، ومدينة تُوذَى(Túy = Tude) ومدينة أوْرِيَة (Orense = Auria = Sedes Auriensis) ، ومدينة لكُّه = Lugo) Luco = Lucus Asturicum) ومدينة برطانية-Santa Maria de Bretoña = Bri) tonia) ، ومدينة أشترقة (Astorga = Asturica) ، ومدينة شنت ياقو (Santiago) ، ومدينة كنيسة الذهب (٢) ، ولها يوم يرد فيه من افرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها. ومدينة ايرية (Iria = Iria Flavia وتسمى اليوم Padrón) ، ومدينة بطقة ، ومدينة شارّة (Sarria).

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونة (Tarragona - Tarracona) وأضاف إليها مدينة سرقسطة وأشقة (Huesca = Osca وتسمى أيضاً وشقة) ولاردة وطرطوشة وتطيلة ، وأعمال بلدان ابن شانجو كلها (٣) ، وبلد بليارش (Pallars) ، وبرشلونة وجرندة (Gerona) ، ومدينة أنبورش (Ampurias) ، ومدينة بنبلونة ومدينة أوقه(Oca = Auca) ومدينة قلهرة (Calagurris = Calahorra) ، ومدينة طرسونة(Tarazona)، ومدينة أماية (Amaya وتكتب أيضاً أمايا) .

وجعل الجزء الرابع عشرين مدينة ، قاعدتها مدينة طليطلة ، وأضاف إليها مدينة أوريط (Oreto = Oretum) ، ومدينة شقوبية (Segovia) ، ومدينة أركيبقة (Ercávica) ، ومدينة وادى (الحجارة) ، ومدينة شغونسة (Sigiienza) ، ومدينة أكشومة= Osma) Oxuma) ، ومدينة بلنسية ، ومدينة بلازيا (Palencia = Palentia ?) ، ومدينة أوريولة، ومدينة ألش (Elche) ، ومدينة شاطبة ، ومدينة دانية ، ومدينة بياسة (Baeza) ، ومدينة قسطلونة (Cazlona = Castulona) ، ومدينة منتيشة (Mentesa) ، ومدينة وادى آش

---

(١) فى القرن الحادى عشر كان الإقليم الواقع فى الركن الشمالى الغربى من إسبانيا فيما بين شنت ياقب والبحر يسمى بلاد الكلت Celticos .

أما ابن غومس ، فالمراد به على الأغلب غرسية بن فرناندو الأول ملك جليقية فى أيام البكرى (ملك من ١٠٦٥ إلى ١٠٧١) .

Cf : LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibérique, p. 247, n. 3 - 4.

(٢) يبدو أن هنا اضطراباً فى سياق الكلام . وقد يستقيم المعنى إذا قلنا : و [هى] مدينة كنيسة الذهب ...

(٣) المراد هنا شانجُه الرابع ملك نبره ، وقد حكم بين سنتى ١٠٥٤ و١٠٧٦ .

Cf : LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibèrique, p. 248. n. 1.

(Guadix) ، ومدينة بسطة (Baza) ومدينة أرش (Urci) وهى بجانة (Pechina) [١] .

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة ، وأضاف إليها اثنتى عشرة مدينة، وهى: باجه (Beja) ، مدينة أكشونبه (Ocsonoba) ، ويابره (Evora) وشنتره (Cintra) ، وشنترين (Santarem) ، والأشبونة وقلمرية (Coimbrá) ، وقورية (Coria = Cauri-um) ، وشلمنتقة (Salamanca = Salamantica) ، وصموره (Zamora) وهى محدثة برّاً إلى شنت ياقوب .

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة إشبيلية ، وأضاف إليها لبلة (Niebla) وقرطبة وقرمونة ومورور (Moron) ومرشانة والجزيرة (Algeciras) وتاكرنا وريه وأشونه (Osuna) واستجه (Ecija = Astigi) وقبرة وأعمالها إلى بجانة ، والبيرة وجيان ومنتيته (?) وباكرته (?) وأبذه (Ubeda) وبياسة (Baeza) » [٢] .

وخلاصة كلام أبى عبيد البكرى أن تقسيم قسطنطين يجعل إسبانيا ستة أقسام كبرى يسميها أجزاء ، وكل قسم يتبعه عدد من المدن كما يلى :

١ - قسم نربونة : ويتبعه ٧ مدن لم يذكر البكرى منها إلا خمساً ، هى : بطرش - طليوشة - مقلونة - نومشو - قرقشونة .

٢ - قسم براقرة : وهو حوز جليقية وبلاد الكلت ، وتتبعه ١٢ مدينة لم يذكر البكرى منها إلا ١١ هى : برطقال - توذى - أورية - لكه - برطانية - أشترقة - شانت ياقو - مدينة كنيسة الذهب (كذا) - إيرية - بطقة - شارة .

٣ - قسم طركونة : ويتبعه ١٤ مدينة هى : سرقسطة - أشقه - لاردة - طرطوشة - تطيلة - بليارش - برشلونة - جرندة - أنبورش - بنبلونة - أوقة - قلهرة - طرسونة - أماية .

(١) يلاحظ أن الإقليم المجاور للمرية وبجانة كان يسمى أُرش اليمن ، وقد ذهب ابن عبد المنعم الحميرى فى مادة بجانة إلى أن الأُرش من الأرش وهو العطية أى النّحْلة ، أى أن أرش اليمن معناه الإقليم الذى منح لليمنين ؛ وهذا غير صحيح، وأصل أرش هنا لفظ Urci القديم ، وهو موضع قديم فى تلك الناحية .
انظر : الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص٤٧ ، هامش ٣.

(٢) أبو عبيد البكرى : قطع من جغرافية البكرى نشرها ليفى بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية لـ « الروض المعطار».
LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Iberique, pp. 246 - 249.

وأدخل فى ذلك الجزء « أعمال بلد ابن شانجه كلها » أى نبره (نافار) .

٤ - قسم طليطلة : ويتبعه ٢٠ مدينة ذكر منها ١٨ هى : أوريط - شقوبية - أركبيقة - وادى الحجارة - شغونسة - أكشومة - بلنسية - بلازيا - أوريولة - ألش - شاطبة - دانية - بياسة - قسطلونة - منتيشة - وادى آش - بسطة - أرش (بجانة).

٥ - قسم ماردة : ويتبعه ١٢ مدينة ذكر منها ١٠ هى : باجة - أكشونبة - يابرة - شنترة - شنترين - الأشبونة - قلمرية - قورية - شلمنتقة - صمورة .

٦ - قسم إشبيلية : ويتبعه ١٧ مدينة هى : لبلة - قرطبة - قرمونة - موررور - مرشانة - الجزيرة الخضراء - تاكرنا - ريه - أشونة - استجة - قبرة (وأعمالها) - البيرة - جيان - منتيشة (؟) - باكرتة (؟) - أبذة - بياسة .

ونلاحظ ما يلى :

١ - أن البكرى لا يعطى الأجزاء أسماء واضحة ، ولا يضع لها حدوداً بل يكتفى بالقول: « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » و« جعل الجزء الثالث من مدينة طركونة » ، والمراد بهذا على الأغلب : « من حد مدينة نربونة » و« من حد مدينة طركونة » ، ويراد بذلك الزمام الذى يتبع المدينة بحسب النظام الرومانى كما سنرى .

٢ - أنه لم يذكر قواعد الأجزاء إلا فى ثلاث حالات : الرابع وقاعدته طليطلة ، والخامس وقاعدته ماردة ، والسادس وقاعدته إشبيلية .

٣ - المفهوم ضمناً أن لكل مدينة مما يذكر أعمالاً تابعة لها ، فهو يقول مثلًا : «وقبرة وأعمالها إلى بجانة » ، ويقول مرة أخرى : « وصمورة وهى محدثة برا إلى شنت ياقوب» ، وهى عبارة جعلها ليفى بروفنسال فى ترجمته الفرنسية :

Zamora (Samura) ville de fondation moderne, dédiée à Saint Jaques.

أى أنه قرأ بِرا بكسر الباء ، وفسر « إلى شنت ياقب » بقوله : « بشنت ياقوب » . ونفضل نحن أن نقرأ العبارة : « وصمورة ، وهى محدثة ، [وأعمالها] بَرا إلى شنت ياقوت » قياساً على « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » .

٤ - وقد سميت الأجزاء إما باسم القاعدة ، كما هو الحال فى الأجزاء الرابع والخامس

والسادس ، أو بالنسبة إلى المدينة الرئيسية فيه ، التى يميزها بقوله مثلاً : «جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » ، أو « وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة » ، ويريد أن الجزء يُحكم من المدينة التى يذكرها .

* * *

٢٥٧ - التقسيم الكنسى

وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم وجدناه ينطبق تماماً من حيث الأجزاء على التقسيم الكنسى لإسبانيا أيام القوط ، فقد كانت هناك ست مطرانيات تقابل تماماً أجزاء قسطنطين بحسب رواية البكرى ، وينطبق كذلك على تقسيم دقلديانوس الذى وصل إلينا فى وثيقة سنة ٢٩٧م التى أشرنا إليها ، وإليك جدولاً مقارناً يوضح هذه الحقيقة:

تقسيم دقلديانوس بروفنسيات (ولايات)	تقسيم قسطنطين أجزاء	التقسيم الكنسى مطرانيات	قواعد الأجزاء
	ما بين جاليوش والأندلس	أربونة	نَرْبُونة
جليقية أشتريس	حوز جليقية	جليقية	بَرَاقَرَة
طركونة	طركونة	طركونة	طركونة
قرطاجنة	طليطلة	قرطاجنة	طليطلة
لُشدانية	ماردة	لُشدانية	ماردة
باطِقَة	إشبيلية	باطِقَة	إشبيلية

ويلاحظ أن تقسيم دقلديانوس لا يجعل ولاية نربونة داخلة فى ديقونية إسبانيا وإنما فى ديقونية غالة ، وكانت الاثنتان تكونان مديرية الغالتين Praefectura Galliarum كما قلنا.

وقد أضيفت إلى ديقونية إسبانيا فى نفس عهد دقلديانوس ولاية مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) ، وهى إقليم طنجة أو ما عرف فيما بعد باسم العدوة الإفريقية. وفيما بين ٣٧٠ و٤٠٠ ميلادية أضيفت إلى إسبانيا ولاية الجزائر الشرقية (Provincia Balearica) .

وسنقف عند هذا التقسيم قليلاً ، لأنه فيما نعتقد الأساس الذى قام عليه كل تقسيم إدارى آخر لشبه الجزيرة ، بما فى ذلك التقسيم العربى ، لأن شبه الجزيرة الإيبيرية مقسم

طبيعياً إلى أقسام تصلح بهيئتها الجغرافية لأن تكون أقساماً إدارية ، وخاصة بالنسبة للأقسام الصغيرة . وإذا كان تقسيم إسبانيا إلى عمالات كبيرة ، ثم تقسيم هذه العمالات إلى مديريات قد مر فى أدوار مختلفة ، حتى انتهى إلى الصورة التى ثبت عندها فى تقسيم دقلديانوس سنة ٢٩٧ ميلادية ، فإن تقسيم هذه المديريات إلى أقسام إدارية أصغر لم يكلف الرومان أى عناء ، بل يبدو أن الرومان وجدوا هذه الأقسام الصغيرة قائمة ، فلم يكن عليهم إلا أن يثبتوا حدودها الجغرافية ويضعوها فى الوضع القانونى الذى ينسجم مع نظمهم الخاصة بالمدن والأقاليم . وهذه التقسيمات نفسها هى التى أخذتها الكنيسة وجعلتها أساساً لتقسيم المطرانيات إلى ديقونيات ، مع بعض تغييرات طفيفة اقتضتها مطالب التنظيم الكنسى (١) ، وأخذها العرب بعد ذلك مع إدخال تغييرات محلية فى الغالب اقتضتها طبيعة النظام الإسلامى العام ، وستتحدث عن ذلك فى حينه .

* * *

٢٥٨ - المدينة أساس للتقسيم الإدارى الرومانى

ومن الواضح أن هناك تشابهاً بين الأسس العامة التى سار عليها كل من الرومان والعرب فى تقسيماتهم الإدارية . فقد كانت « المدينة » هى الأساس الذى قام عليه التنظيم الإدارى السياسى الرومانى (٢) ، وكانت المدن هى المراكز التى اعتمد عليها العرب أيضاً فى الحكم والإدارة . ولقد انتفع العرب باهتمام الرومان بالمدن وتنظيمهم إياها وعنايتهم بإتقان بنيانها وتزويدهم إياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدنى ، ولا يبدو ذلك بصورة هى أوضح مما يبدو بها فى الشام والأندلس . ففى الشام تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية ، وألحقوا بكل منها جانباً من الريف اعتبروه حوزاً للمدينة أو زماماً ، وهذا هو ما عرف بالأجناد . أما فى الأندلس ، فكان شأن المدن أهم ، وكان الرومان عندما دخلوا البلاد ، قد وجدوا فيها مراكز ومواضع عامرة بالناس ، بعضها يلتف حول مدن كبيرة- (Civitas Civitates) وبعضها يلتف حول مدن بدائية أقرب إلى القرى(Gentes - Gens) .

---

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, en Hist. de España, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, III, Madrid 1940. pp. 276 - 279.

(٢) MANUEL TORRES, en Hist. de España, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Madrid 1935, p. 379.

وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوماً سياسياً واجتماعياً خاصاً ، أخذوه عن الإغريق وأضافوا إليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم. وأصبحت المدينة مرادفاً لنظام سياسى يتضمن حريات وحقوقاً وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولاً على حق المواطنة الرومانية . فإذا دخل الرومان بلداً قسموه أقساماً بحسب طريقة دخول نواحيه فى حوزتهم : عنوة أو صلحاً أو بمحالفة أو ما إلى ذلك . وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحى بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أى حق المواطنة . ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة ، بل كان لها زمام محيط بها (Orbs - is) تابع لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها ، لهم ما لأهلها من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات . وإذا كان هذا الزمام واسعاً قسم إلى أقسام ، لكل قسم اسم ينسب إلى قرية كبيرة أو إلى زراعة غالبة عليه أو إلى ظاهرة معينة تميزه كسَند جبل أو جبل أو ساحل أو سهل أو ما إلى ذلك . فلم تكن هناك نواح لا تتبع مدينة ما ، وإذا ذكرت مدينة قصد فى نفس الوقت ما يتبعها من النواحى وقد ثبَّت الرومان زمامات المدن وفصَّلوا أمرها فيما أصدروه من وثائق خاصة بها [(١)].

وعندما ظهر نظام الولايات (Provinciae) فى نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديريات عن مجموعات من المدن وزماماتها ، وحددت مساحة كل منها بمعرفة لجنة خاصة من عشرة رجال ، وأصدر بمديريات كل ناحية من أملاك الرومان قانون خاص يحدد ما يتبع كلاً منها من المدن وأحوازها ، وفيما يتصل بإسبانيا لدينا قانون أو قائمة ولايات إسبانيا (Lex o Formula Provinciae Hispaniae) الذى يحدد ما يتبع كل مديرية من المدن والنواحى . وإذا كانت المديريات قد تكونت من زمامات ما أدخل فى حوزها من مدن، فإن الأساس الثابت للتقسيم الإدارى فى إسبانيا كان المدينة وحوزها ، فقد تغيرت حدود المديريات من عصر لعصر ، أما زمامات المدن فقد ظلت ثابتة وظلت هى الأساس ، ومضى الأمر على ذلك بقية أيام الرومان وأيام القوط أيضاً .

وقد تحددت أحواز المدن بالوثائق التى كان يصدرها الرومان ، فقد كانوا أهل تنظيم وترتيب ، وعناية بتسجيل كل شىء ، وقد كانوا إذا فتحوا بلداً اجتهدوا فى ترتيب أرضه وأهله : فأما الأرض التى وجدوها أو أدخلوها فى حوزة مدينة فاحتفظ أهلها بالحقوق التى منحها الرومان للمدينة ، واعتبرت هذه الأرض (Municipia) من الناحية القانونية. وأما

---

(١) MANUEL TORRES. op. cit. p. 374.

الأرض التى استصفوها أو وجدوها طلقة لا تتبع أحداً فقد أنشأوا فيها المستعمرات (Co-loniae) وجلبوا إليها المعمرين (Coloni) لتعميرها لقاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض . أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان ، فهناك مدن دخلت فى طاعة الرومان صلحاً ، وهناك مدن دخلت فى طاعتهم عنوة . وكانت للرومان أسس قانونية معقدة خاصة بهذه المدن ، فمنها ما صالح الرومان بعقد صلح يجعلها حليفة لهم (Foedera) ، ومنها ما منحه الرومان وضع الحليف (déditio) ، ومنها ما كان يمنح حق إنشاء مجلس بلدى له حق التصويت فى المسائل الهامة ، ومنها ما لم يكن له هذا الحق (sine sufragio) ، ومنها ما كان يدفع للرومان جزية معينة (Stipendium) أو (Tributum) ، ومنها ما كان مُعْفًى منها . وكان للوضع الخاص بكل مدينة أثر عظيم فى تاريخها خلال العصرين الرومانى والقوطى ، سواء فيما يتصل بمركز البلد فى الإقليم الذى يقوم فيه أو بطريقة حكومته لنفسه والحوز التابع له أو بعلاقته بالدولة المركزية : الرومانية أولاً ثم القوطية بعد ذلك .

والمهم لدينا أن هذا كله كان عظيم الأثر بالنسبة لوضع هذه البلاد ونواحيها فى الدولة الإسلامية . فنلاحظ مثلاً أن معظم نواحى إسبانيا لم تقاوم الفاتحين المسلمين ، لأنهم عقدوا مع أهلها محالفات محلية تشبه تلك التى كانت قائمة بينهم وبين الرومان، فلم يتغير عليهم شيء بدخول المسلمين ، ومن ثم فلم يكن هناك ما يدعو إلى المقاومة ، واستقر معظم هذه النواحى داخل الدولة الإسلامية استقراراً سلمياً قائماً على تعاقد مكتوب ، عقد حفظ لها حقوقها وحدد التزاماتها حيال الدولة الإسلامية . وقد احترم العرب هذه العهود ، حتى فى أيام الفتن التى فصَّلنا أمرها حرص العرب على ألا يمسوا المدن وأهلها ، وتبعت المدن نواحيها ، فكان ذلك من أوكد أسباب الاستقرار والرخاء فى الأندلس الإسلامى فيما بعد .

ومن المعروف أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خلال القرون الرومانية المتأخرة ، وأن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك ، فلم يعد هناك إلا الأحرار والعبيد ، فأما الأحرار فكان منهم أهل المدن الأصلاء (Cives) وأهل النواحى التابعون لبلديتها (Muni-ceps) والمعمرون (Coloni) والزراع (Inculae) . وكانوا كذلك إما مدنيين تابعين لمشيخة البلد (Curia) أو أهل قبائل جرمانية لم يستقروا بعد تابعين لمشيخة القبيلة ، وكانت تكون من المشيختين هيئة تسمى (Comitia Tributa) أو (Comitia Curiata) تقوم

بحكم البلد والحوز التابع له ، يتقاسم رجال المشيختين الوظائف فيها (١) .

* * *

٢٥٩ - القوط والتقسيم الرومانى ولم يُدخِل القوط تغيراً ذا بال على هذه الأوضاع ، فقد حلوا فى البلاد محل الرومان (٢) ، وكانوا من الناحية القانونية معتبرين مجرد نازلين فى البلاد بمقتضى العرف الرومانى المسمى (Hospitalitas) وهو لفظ عسير الترجمة ، فمن الناحية اللغوية معناه « الضيافة » ، أما فى الواقع فأخذ معنى الاستيلاء على نسبة معينة من الأرض والعقار ، أى أن الهوسبيتاليتاس كانت أول الأمر إذناً للقوطى فى أن ينزل وعائلته «ضيفاً» على مزارع رومانى مع إعطائه حق الملكية على ما يتنازل له عنه المزارع الرومانى وينزله فيه من بيت أو أرض. ثم أصبحت هذه الضيافة حقاً مقرراً للجرمانى، يستولى بمقتضاه على أراض وعقارات . وربما أقطعت الدولة لحلفائها من الجرمان ناحية بأكملها ينزلونها مزارعين مع أهلها ويكون لهم فى الواقع حق ملكيتها ، ومهما كانت الصورة التى نزل بها القوط أرض الدولة ، فإن الأمر انتهى بتملك القوط لما نزلوا به من النواحى على صورة تعبر عنها إحدى المدونات بقولها فيما يتصل بإنزال الدولة الرومانية للقوط فى أقطانية : « إن أقطانية سلمت للقوط Aquitania Ghotis tradita » .

وكانت القاعدة فى مثل هذه الحالة أن القوط كانوا يستولون على ثلثى الأرض ، ويتركون للمزارع الرومانى أو اللاتينى أو الإيبيرى الرومانى الثلث فحسب ، أى أن كل قرية أو ناحية كانت تسلم ثلثى أرضها للنازلين بها من القوط ، وكانت القسمة تحدد تحديداً دقيقاً فى حالة نزول الجرمانى الأرض واشتغاله بالزراعة بيده أو بواسطة عبيده ، أما فى حالة عدم اشتغال الجرمان بالزراعة ، فكانت القاعدة أن يفلح الناس الأرض ويسلموا ثلثى الغلة للقوط ، وكانت حصص القوط تسمى الأنصبة ، واحدها نصيب (Sors, sortes) ، أما الباقى بيد أهل البلاد فكان يسمى بالأثلاث (Terciae) (٣) . ولم تكن القسمة لتقتصر على الأرض ، بل كانت تشمل ما عليها من الدور والماشية والرقيق أيضاً. وخرجت من القسمة أراضى الغابات (Compascua) وأراضى المراعى، فقد تركت مشاعاً . أما الأراضى التى

(١) MANUEL TORRES, op. cit. p. 384.

(٢) ANTONIO BALLESTEROS y BERETTA, Historia de España y su influencio en la historia universal, tomo I (2a. ed Madrid, 1934. p. 909).

(٣) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, op. cit. III. p. 151.

كانت تملكها الدولة فقد وضع ملوك القوط أيديهم عليها ، فى حين دخلت الضياع الكبيرة (Latifundiae) فى القسمة أيضاً ، وانتقلت ملكيتها لكبار القوط [١] .

وقد دخل القوط غالة وإسبانيا قبائل ، يرتبط أفراد كل قبيلة منها برابطة تقابل العصبية العربية تسمى (Sippe) وتسمى فى المصطلح الرومانى (Centena) ، لأن الغالب أن كل قبيلة كان عليها أن تقدم للجيش القوطى مئة من المقاتلين . وقد انحلت روابط العصبية القبلية القوطية بتقادم عهدهم فى البلاد ، وخاصة فيما يتصل بالمزارعين منهم .

٢٦٠ - اضمحلال المدن خلال العصر القوطى

وقد أصاب المدن فى الدولة الرومانية كلها اضمحلال عام ، حتى ليذهب بعض الباحثين إلى أنها أخذت تتلاشى ابتداء من القرن الرابع الميلادى، نتيجة لغارات الجرمان واضطراب أمور الدولة وضياع الأمن ، وقد تحول بعضها إلى قرى أو حصون ، واختفى بعضها الآخر تماماً ، وتحول غرب أوربا كله إلى عالم زراعى قروى ، وانحطت فيه كل الظواهر المتصلة بالمدن كالتجارة والصناعة المنظمتين ، وتحول المجتمع الأوربى إلى مجتمع زراعى ، وهى الصفة الغالبة التى يوصف بها المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى المبكرة .

ولما كان العرب قد دخلوا إسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادى ، أى فى الوقت الذى كانت المدن تتلاشى فيه فى بقية غرب أوربا ، فقد وجدوا فيها كثيراً من المدن باقية فى حالة اضمحلال شديد . وذكرُها قليل فى النصوص على أى حال ، وتذكرها النصوص أيام القوط بالتسميات الثلاث التى كان الرومان يستعملونها : - (Civitas, Civitates Oppidum, Oppida - Urbs, Urbis) دون تفريق بين أنواعها أو أهميتها ؛ والثابت أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل موضع مأهول مسور ، وكان لها نظام خاص لحكومتها هو نظام المشيخة (الكوريا) الذى أشرنا إليه .وتذكر النصوص أيضاً قرى كبيرة غير مسورة وتسميها (Vicos) ، وتذكر القلاع (Castillos) ، ولم تكن مجرد قلاع بل كان يعيش الناس فيها وحولها ، وتذكر الباجى (Pagi) – مفردها باجوس – ويراد بها الدوار الريفى ، أما المدينة المحصنة القائمة على مرتفع من الأرض فتسمى (Castrum) ، وتذكر المراجع البرج (Burgos)وهى معسكرات القوط التى تحولت إلى مدن أو قرى كبيرة ، والفيلا (Villa) وهى الدوار يقيمه المالك الكبير وسط أرضه ، ثم يتحول إلى قرية وربما مدينة وربما سورت

(١) ANTONIO BALLESTEROS, op. cit. I. p. 913.

وحصنت . وهذه المواضع كلها سيسميها العرب مدناً دون تمييز أول الأمر ، ثم يميزون بعضها عن بعض بمرور الزمن .

٢٦١ - الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الرومانى

وإذا كانت أحوال الدولة الرومانية فى عصورها المتأخرة قد أدت إلى اضمحلال المدن واختفائها شيئاً فشيئاً ، فإن الكنيسة احتفظت بالهيكل العام للتنظيم الرومانى القديم ، فجعلت المديريات على تقسيم دقلديانوس وقسطنطين مديريات كنسية (Provinciae Ecclesiasticae) يمتد سلطان مطران كل منها على جميع النواحى التى كانت داخلة فيها فى التقسيم الرومانى ، وجعلت المدن الكبيرة الواقعة فى الولاية ديقونيات (Diocesi) يتولى كلاًّ منها أسقف (Episcopus) ، وجعلت الأقاليم التابعة لكل مدينة من هذه أبرشيات (Parrochiae) يتولى كلاً منها برشبطر (Presbiterus) يعينه الأسقف ويناوله كتاب الصلوات (Liber Officialis) وهو شارة التعيين . وقد أحكمت الكنيسة هذا التنظيم واحتفظت به قائماً ، وإن تعارض مع الواقع(١)، فقد تضاءلت مدن كانت كبيرة فى العصر الرومانى ولم تصبح غير قرى ، ومع ذلك ظل لأهلها الحق فى أن يكون لهم أسقف ، وتلاشت مدن أبرشية تماماً ، ومع ذلك كان لها برشبطر يمثلها ويتحدث باسمها ، وأصبح هذا التقسيم النظرى هو التقسيم الإدارى فى نظر الناس . ولم يحدث هذا فى إسبانيا وحدها بل فى كافة بلاد الامبراطورية الغربية ، التى دخلت شيئاً فشيئاً تحت سلطان كنيسة روما. وظل هذا الوضع قائماً حتى أقبل العرب وقضوا على القوط واتصلوا بالناس رأساً ليستعينوا بهم على تنظيم البلاد ، وأخذوا عنهم هذا النظام وأعطوه صفة إدارية مع تعديلات اقتضتها ظروف الدولة العربية الإسلامية .

وهذه الظروف تتلخص فى أن مركز الثقل فى الأندلس الإسلامى كان فى الجنوب ، فى حوض الوادى الكبير وجنوبه بصورة خاصة وما يوازى حوض هذا النهر فى شرق الأندلس وغربه ، فتزاحم الناس هناك وتزايد العمران وأزهرت المدن القائمة ، ونمت قرى وتمدنت وأصبحت مدناً مما اقتضى إنشاء كور جديدة صغيرة حول المدن التى كبرت وعظم شأنها . فبينما كان مركز الثقل أيام الرومان فى الشمال الشرقى حول طركونة ونربونة (ولم تنشأ ولايات باطقة وجليقية ولشدانية وما إليها إلا فيما بعد) ، وبينما كان مركز الثقل أيام القوط هو الوسط حول طليطلة ، نجد أن اهتمام العرب انصرف معظمه إلى الجنوب.

---

(١) ANTONIO BALLESTEROS, op. cit. I. p. 930.

٢٦٢ - الاتجاه العربى فى التقسيم الإدارى

وكان الاتجاه الإدارى فى الأندلس الإسلامى يميل نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال ، بل يبدو أن ذلك هو الاتجاه فى الإدارة الإسلامية عامة ، فحوض الدجلة والفرات مثلاً كان يضم ما لا يقل عن خمس عشرة كورة ، ولا يشذ عن ذلك إلا الشام ، فقد قسم إلى مناطق عسكرية كبيرة تسمى « الأجناد » كما قلنا .

ثم إن النظم الإدارية الإسلامية كانت لا تميل إلى تجزئة الوحدات الإدارية إلى أجزاء والأجزاء إلى أجزاء صغيرة كما رأينا فى النظام الرومانى والنظام الكنسى الذى قام على أساسه . فاكتفى المسلمون بالكور ، كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها ، وقد أدى ذلك إلى تبسيط السلم الإدارى ، فالإدارة المركزية يتبعها عمال الكور، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسئولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجرت العادة أن يعين عامل المدينة عاملاً خاصاً بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة. ومن هنا فقد كان عدد الموظفين فى الإدارة الإسلامية لا يبلغ خمس عددهم فى الإدارة الرومانية ، وخاصة منذ أيام دقلديانوس الذى زحم الإدارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض ، فثقل عبؤهم على الخزانة من ناحية واتسع المجال لأكل أموال الدولة من ناحية أخرى .

٢٦٣ - الأجناد

وقد عرف الأندلس الإسلامى نظام الأجناد أو الكور المجندة .وقد أخذ العرب هذا النظام عن البيزنطيين ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها «جند» والجند خمس فرق من المحاربين ، وهى تقابل (Tema) فى التنظيم البيزنطى ، ويسميها العرب البند والجمع بنود ، وهى تقابل الثغور ويحكمها قائد عسكرى . وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة ، ويكون لها خراج الناحية فى مقابل تقديمها لجند كامل أى خمس فرق من المحاربين . ولم يعرف نظام الأجناد إلا فى الشام ، إذ قسمها المسلمون إلى أجناد خمسة هى : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين (وتبعتها أول الأمر بلاد الجزيرة) . وقد كان نظام الأجناد من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية ، إذ ضمن لها المحاربين [١] . ومن الشام انتقل نظام الأجناد إلى الأندلس على أيام أبى الخطار الحسام ابن ضرار سنة ١٢٥ / ٧٤٣ مع اختلاف واحد ، هو أن الجند فى الشام كان يضم كوراً كثيرة أما فى الأندلس فكان يقابل كورة واحدة . ومن هنا يغلب على الظن أن أجناد الأندلس كان

(١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، جـ١ ، ص٣٨ .

عليها أن تقدم أعداداً من الجند أقل من خمس فرق . وقد ظلت هذه الأجناد عصباً من أعصاب القوة العسكرية الأندلسية إلى منتصف حكومة عبد الرحمن الناصر على الأقل . ولدينا من عهد الأمير محمد بيان بأعداد من كانت بعض النواحى تقدمه من الفرسان إلى جيش الدولة . وإذا نظرنا إلى هذا البيان تبيّنا أهمية نظام الأجناد بالنسبة للقوة العسكرية للإمارة الأموية الأندلسية :

كورة البيرة	٢٩٠٠ فارس	جيان	٢٢٠٠ فارس
كورة قبرة	١٢٠٠ »	باغة	٩٠٠ »
كورة تاكرنا	٢٩٩ »	الجزيرة	٢٩٠ »
كورة استجة	١٢٠٠ »	قرمونة	١٨٥ »
كورة شذونة	٦٧٩٠ »	ريه	٢٦٠٠ »
كورة فحص البلوط	٤٠٠	مورور	١٤٠٠ »
كورة تدمير	١٥٦ »	رينة	١٠٦ »
قلعة رباح وأوريط	٣٨٧ » (١)		

وهذا البيان ناقص ، والكور المخطوط تحتها هى من الكور المجندة ، ويلاحظ بوضوح أن أربعاً من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان أضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجندة . وذلك يعطينا فكرة عن الأهمية العسكرية لنظام الأجناد . ولم يبين لنا أحد من المؤرخين النظام المالى الخاص بالأجناد فى الشام والأندلس ، ولكننا نستنتج ذلك من البيان المقارن الذى أوردناه ، إذ لا يفسر أن كورة شذونة تقدم أضعاف ما تقدمه كورة أكبر منها وهى تدمير إلا بأن هذه الكور كانت تقدم فرساناً بدلاً من الضرائب ، ويؤيد ذلك قول المؤرخين أن الشاميين الذين نزلوا هذه الكور « كان إنزالهم على أموال العجم من خير ونعم » (٢) ، أى

(١) ابن حيان، برواية ابن عذارى : البيان المغرب، طبعة بروفنسال وكولان (لايدن ١٩٥١) جـ٢ ، ص١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (نفس الطبعة) ص٣٣ . وقد نقل لنا ابن الخطيب كلام ابن حيان فى هذه المناسبة ، فقال إن الذى أشار على أبى الخطار بذلك كان أرطباس ، أشار عليه « بتفريق القبائل الشاميين الغالبين على البلد من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور ، على مثل منازلهم التى كانت فى كور شامهم، ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة إلبيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجه، وبعضهم بكورة تدمير ، فهذه منازل العرب الشآميين ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة، وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم ...» - الإحاطة ، طبعة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) جـ١ ، ص١٠٩. =

فى مقابل تملكهم لجزء معين من أملاك العجم ونعمهم ، ويؤيده أيضاً أن عرب الكور المجندة بالذات هم الذين قاموا بالثورة الكبيرة التى شغلت عصرى محمد وعبد الله وجزءاً من عصر الناصر ، وأسبابها ترجع إلى تمسك العرب النازلين بهذه النواحى بما كان لهم من حق التملك والاستقلال بنواحيهم ثم ميلهم إلى عسف من كان يسكنها من أهل البلاد ، ونفور هؤلاء لمحاربتهم ، ورفض أولئك العرب لطاعة الإمارة القرطبية ، اعتزازاً منهم بما كانوا فيه من استقلال بنواحيهم وما اجتمع لهم من الثروة نتيجة لذلك الاستقلال .

ومن طريف ما يلاحظ أن ثورات العرب ووثباتهم بالدولة فى الأندلس وغيره كانت تقع فى كثير من الأحيان نتيجة للرخاء والثروة وشعور العرب بقوتهم ، ونزوعهم إلى التخلص من السلطان . وهذا سبب من أسباب الثورات فات بيكون أن يذكره ضمن ما ذكر من أسباب الثورات .

ولسنا نجد فيما بين أيدينا من نصوص التاريخ إشارة واحدة إلى قيام واحد من الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بتكوير الأندلس ، أو تقسيمه إلى أقسام إدارية ، حتى أحمد بن محمد الرازى صاحب أول وأوفى تاريخ للأندلس لم يشر إلى ذلك . ونحن نجد الأندلس فى كلامه مقسماً تقسيماً إدارياً ثابتاً منذ زمن طويل ، فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار أنها أشياء معروفة . أما فى جغرافيته فهو يعطينا بياناً كاملاً لا يضم إشارة واحدة إلى تغيير أو تعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك هو أن أحداً من المسلمين لم يضع هذا النظام وإنما وجدوا تقسيماً قائماً فأخذوه .

٢٦٤ - المقدسى والتنظيم الإدارى للأندلس

ولم يتحدث من الجغرافيين المشرقيين عن تقسيم الأندلس إلى كور إلا المقدسى فى «أحسن التقاسيم» ، أما الإصطخرى وابن حوقل فكلامهما عام غير دقيق ولا يمكن التعويل عليه فى هذا المطلب . فإذا نظرنا فى كلام المقدسى بشىء من التدقيق وجدناه حافلاً بالمشاكل ، وخاصة إذا قارناه بكلام الرازى ، والمصطلح الذى يستعمله مضطرب ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو رجل مشرقى على علم تام

= ويلاحظ أن هذه هى أول مرة تنزل الدولة الإسلامية فيها عرباً على أموال العجم من رعاياها وتعطيهم الحق فى تملك ثلث أملاك هؤلاء الأخيرين . وفى النسختين المخطوطتين اللتين نشر عنهما الأستاذ عنان « ثلثا أموال أهل الذمة»، وقد استبعد الناشر هذه الصورة وأثبت « ثلث » من عنده ، ونظن أن الثلثين أصح لأنها تقابل أنصبة القوط من الأرض (Sors - Sortes) على ما ذكرناه ، ثم إن صاحب الرأى فى إنزال هؤلاء الشآميين على أموال العجم قوطى هو أرطباس. وسنعود للكلام على هذه الناحية عند الحديث عن الناحية المالية .

بأقاليم المشرق ، وخاصة خراسان وهيطل ، وهو يحاول أن يطبق على الأندلس ما وجد من القواعد هناك ، فشاب كلامه لبس شديد . ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه موضع الاعتبار ، نظراً لقلة ما لدينا من المعلومات عن هذا الموضوع .

يجعل المقدسى قرطبة كورة كبيرة ، ويسمى أقاليمها الرساتيق ، ويقول فى رواية المعلومات التى أخذها عن « بعض الأندلسيين » : « قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فإشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال: هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة ، وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيطل ، فليست بأقل منها ، فيحصل القول وأثبت الدلائل على أن مثل المغرب كمثل المشرق، كل واحد منهما جانبان ، فكما أن المشرق خراسان وهيطل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم . غير أنَّا نعجز عن تكوير الأندلس، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابى على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثمانى عشرة كورة ، فعَدَّ : بجانة - مالقة - بلنسية - تدمير - سرقوسة (كذا وصحتها سرقسطة) - يابسة (كذا ، وربما كانت صحتها بياسة) - وادى الحجارة - تطيلة - وشقة - مدينة سالم - طليطلة - إشبيلية - بطليوث - باجه - قرطبة - الجزيرة الخضراء . وسألت آخر ، فقال : صدق ، وزاد لبيرة - خُشُنْبَة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحى قياساً على ايلاق وكَشْ والصَّغانيّان ، والله أعلم بالصواب » [1] .

ولو عددنا الكور التى يذكرها لوجدناها ١٧ لا ١٨ ، فإذا أضفنا إليها الاثنتين اللتين يذكرهما بعد ذلك كان الحاصل ١٩ كورة ، ثم إنه يذكر كوراً مثل سرقوسة ويابسة ، ليست من كور الأندلس ، ونظن أنه ينبغى تصحيح الأولى إلى سرقسطة والثانية إلى بياسة . ومعلوماته كلها فى هذا الصدد غير دقيقة ، وعذره واضح . ولكن له عبارة تستوقف النظر لعظيم دلالتها ، وذلك حيث يقول : « وأما الأندلس ، فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أننا لا نقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل » [2] ،

(١) شمس الدين المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، (طبعة دى خويه) لايدن ١٩٠٦ ، ص٢٣٤ - ٢٣٥.
(٢) نفس المصدر ، ص٢٢٢ .

وموضع الغرابة فى هذه العبارة أن الإصطخرى كتبها بينما كان كتاب الرازى فى جغرافية الأندلس ذائعاً بين الناس منذ أمد طويل . ومن عجب أن مثل الإصطخرى - على تدقيقه وسعة اطلاعه - لا يستأنس بمثل هذا المرجع . وهذا القول يصدق كذلك على ابن حوقل ، وإذا كنا نستنتج من ذلك شيئاً ، فهو أن كتاب الرازى لم يكن متداولاً بالصورة التى نتصورها إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ، أما بعد ذلك فقد كان المرجع الأول لمن كتب فى صفة الأندلس .

ويذهب المقدسى إلى أن الكورة فى الأندلس تعادل الرستاق والإقليم فى المشرق ، وعبارته هنا مضطربة لا نستطيع الاعتماد عليها ، فهو يقول : « وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا » ، ثم إنه يقول : « قلت : وهل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا » ، ونخلص من ذلك بأن المقدسى يرى أن الأندلس تنقسم إلى كور ، والكور تنقسم إلى رساتيق ، أى أقاليم ، وهذا ينطبق على تعريف ياقوت الحموى للكورة وللرستاق (١) .

والغالب على الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التى هى قواعدها ، فيقولون مثلاً : جيان وماردة ويريدون كورتى جيان وماردة . وقد وقعوا بسبب ذلك فى أخطاء واضحة ، لأن الكورة فى الأندلس كانت تضم أكثر من مدينة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة ، وإنما جاء الخطأ من أن المدن فى الأندلس كانت لها أحواز تابعة لها ، وهى التى سميت أقاليم ، فنظر الجغرافيون فوجدوا مدناً لها أقاليم ، فحسبوا أن كل مدينة كورة .

٢٦٥- نصوص جديدة — وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص جديدة غاية فى الأهمية بالنسبة لموضوعنا الأول : أصل كامل للترجمة البرتغالية لجغرافية إسبانيا للرازى ، والثانى : مختصر لجغرافية الرازى وضعه ابن غالب وضمَّنه كتابه « فرحة الأنفس » ، والثالث : قطعة صالحة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذرى للأندلس .

٢٦٦- ترجمة كاملة لجغرافية الرازى — فأما الترجمة البرتغالية لنص جغرافية أحمد بن محمد الرازى فهى أكمل ما لدينا من النصوص المترجمة لهذه الجغرافية التى ضاع أصلها العربى ، وقد عثر عليها الأستاذ البرتغالى لويس لندلى سِنترا ضمن نسخة كاملة من ترجمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ، (طبعة الخانجى) ، جـ١ ، ص٢٦ - ٢٨ .

برتغالية كاملة لتاريخ إسبانيا العام الذى صنفه الملك العالم ألفونسو العاشر ، وترجم القطعة الجغرافية إلى الفرنسية الأستاذ ليفى بروفنسال ونشرها فى مجلة الأندلس ، وقدم لها بمقدمة قال فيها إن هذه النسخة أكمل من كل ما لدينا من ترجمات جغرافية الرازى، وذكر كيف أن هذه الجغرافية - فى صورتها العربية - هى الأصل الذى نقله عدد عظيم من الجغرافيين وأولهم فى المغرب أبو عبيد البكرى وابن عبد المنعم الحميرى ، وفى المشرق القزوينى . وقال إن هذا النص يدل على أن الناقلين عن الرازى قد أفسدوا هيكل جغرافيته بما أدخلوه من معلومات جغرافية ، ظنوا أنها تضيف شيئاً ، واستطرادات تاريخية ضيعت الكثير من نظام الأصل وتناسقه (١) .

٢٦٧ - تعليق منتقى من «فرحة الأنفس» لابن غالب

وأما قطعة محمد بن أيوب بن غالب فقد نشرها الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، وهى ليست نص ابن غالب بل «تعليقاً منتقى» منه كما يدل على ذلك العنوان . ولكننا ما نكاد نطالعه حتى نتبين أن ابن غالب قد نقل جغرافية الرازى نقلاً حرفياً فى معظم المواضع ، وأفسد هذا النقل هنا وهناك باختصارات أخلت بالسياق وإضافات من عنده . غير أننا نستطيع بمقابلة النص المترجم لجغرافية الرازى بهذا النص أن نستخرج جغرافية الرازى كاملة مع الاستعانة بالفقرات التى نقلها عنه البكرى وابن سعيد والمقرى وابن الخطيب وغيرهم . وقد كونَّا نحن هذا النص الكامل للاستعانة به فى هذا الفصل عن تقسيم الأندلس الإدارى وسنرى فى الفصل التالى أن الرازى اعتمد فى تصنيف جغرافيته على صفة للأندلس صنعها المؤرخ اللاتينى الإسبانى باولوس أوروزيوس المعروف عند العرب بهروشيش (٢) .

---

(١) LÉVI - PROVENÇAL, La description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi. al - Andalus, vol. xviii 1953, fasc. I pp. 51 sqq.

وهى ترجمة فرنسية للنص الذى نشره لويس لندلى سنترا .

Crónica Geral de Espanha de 1344, edicào critica de texto português por LUIS F. LINDLEY CINTRA. II, Lisboa 1952 (Academia Portuguesa de Historia).

ونص جغرافية الرازى يقع فى صفحات ٣٩ - ٧٥ من هذه الطبعة .

(٢) الدكتور لطفى عبد البديع : نص أندلسى جديد : قطعة من كتاب « فرحة الأنفس » لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة . وعنوان القطعة : تعليق منتقى من [فرحة] الأنفس فى تاريخ الأندلس ، للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الأندلسى ، مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ١ ، جزء ٢ (القاهرة نوفمبر ١٩٥٥) ، ص٢٧٢ وما يليها .

٢٦٨ - قطعة من جغرافية العذرى

والقطعة الثالثة نص فريد فى بابه لأحمد بن أنس العذرى فى جغرافية الأندلس، عثر عليه الدكتور عبد العزيز الأهوانى وتفضل فأذن لنا فى الاستفادة منه. ومن أسف أن النص ناقص، فهو لا يتناول إلا بضع نواح من الأندلس، ولكنه تناولها تناولاً شاملاً عظيم القيمة بالنسبة لموضوعنا (١).

وإذا نحن درسنا المعلومات التى تتضمنها هذه الأصول الثلاثة على ضوء البيانات القيمة التى يقدمها لنا ياقوت فى مقدمة « معجم البلدان » وفى تضاعيف مواده الخاصة بالأندلس خرجنا بنتائج إيجابية تمكننا من تصور التقسيم الإدارى للأندلس الإسلامى تصوراً لا يبعد عن الحقيقة كثيراً. وأول ما يستوقف نظرنا أن الأندلس كان له من أول الأمر نظام خاص يختلف كثيراً عن النظم التى جرى عليها العمل فى الدولة الإسلامية. وإذا كان المسلمون قد جروا فى التقسيم على أساس الكورة والرستاق فى بلاد الجزيرة وما يليها شرقاً، ونظام الكورة فقط فيما يتصل بمصر، ونظام الأجناد فيما يتصل بالشام، فإن الأندلس لم يعرف هذه التقسيمات المشرقية إلا فى صورة معدلة تتفق مع ظروفه الخاصة، بل هو لم يعرف نظام الرساتيق أصلاً، وكان تطبيق نظام الأجناد فيه تطبيقاً محدوداً من حيث المساحة التى طبق عليها ومن حيث طبيعته ذاتها كما رأينا.

ونبدأ فنلاحظ أن الترجمات التى لدينا لجغرافية الرازى تقسمها إلى أقسام تسميها (Dis-tritos) أو (Districts) وهى لفظة يجعلها ليفى بروفنسال معادلة للفظ كورة. فإذا قارنا ذلك بنص ابن غالب، لاحظنا أن هذا الأخير يذكر نوعين من الأقسام الإدارية : الكورة والمدينة، ولكى نستطيع تبين المراد بهذين المصطلحين والفرق بينهما نذكر ما يورده من الكور والمدن :

الكور : قبرة - البيرة - جيان - تدمير - بلنسية - ماردة - باجه - لبلة - قرمونة - إشبيلية - مورور - شذونة - الجزيرة الخضراء - ريه - استجة.

(١) عثرت على ترجمة العذرى واسم كتابه عند ياقوت، فقد قال فى مادة المرية : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر ابن أنس العذرى، ويعرف بالدلائى المرى. رحل إلى مكة، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته، وبمصر جماعة أخرى. وهو مكثر، سمع منه الحميرى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم، وكانا شيخيه، سمع منهما، وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعا منه. وله تآليف حسان، منها « كتاب أعلام النبوة » وكتابه المسمى « نظام المرجان فى المسالك والممالك ». ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية ».
ياقوت : معجم البلدان، طبعة الخانجى، جـ٨، ص٤٣.

المدن : طرطوشة - طركونة - لاردة - بريطانية - أشقة - تطيلة - سرقسطة - مدينة سالم - شنتبرية - طليطلة - قلعة رباح - أوريط - فريش - شنترين - أشبونة - أكشونبة - قرطمة - حصن ببشتر .

وهذا بخلاف قرطبة ، وكان لها وضع خاص سنتحدث عنه .

ونلاحظ أن صاحب « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » قد وقع فى أخطاء فى عملية التلخيص ، فقد ذكر مثلاً « لبلة » تحت اسم حصون لبلة ، والحقيقة كما يتبين من « ياقوت » أن لبلة كورة ، وكذلك جعل « قرطمة » مدينة قائمة بذاتها مع أنها عند الرازى وياقوت مدينة من مدن كورة رية . ويلاحظ أيضاً أن « الانتقاء » من « فرحة الأنفس » عمد إلى اختصار مخل فى بعض الأحيان ، فقد روى ياقوت عن ابن غالب نفسه قطعاً كبيرة هامة ساقطة من التعليق الذى بين أيدينا . وسنشير فى بعض تعليقاتنا إلى أخطاء أخرى وقع فيها صاحب التعليق .

أما النص المترجم لجغرافية الرازى ، فواضح أن المترجمين أدخلوا يدهم فيه، فأضافوا أشياء جديدة لا يمكن أن تكون عند الرازى ، وفى بعض الأحيان تكون الإضافة خفية يعسر تبيُّنها ، وفى أحيان أخرى تكون واضحة يلحظها القارىء وهو يتصفح ، ومن ذلك إضافة كورة باسم اشِتانيا (Exitania) بين قلمرية ولشبونة ، وجعله بطليوس كورة ، وكذلك باروشة ورقوبل (Racupel) وسرتة (Zorita) . وواضح أن الذين قاموا بالترجمة لألفونسو العاشر حاولوا تعديل تقسيم إسبانيا على الصورة التى كانت عليها أيام هذا الملك. ومن هنا فإن ذلك النص قد يفيد الذين يدرسون نظم إسبانيا النصرانية فى القرن الثانى عشر الميلادى فائدة لا يجدونها فى أصل آخر . وستظهر هذه الإضافات كلها فى جغرافية الإدريسى ، مما يدل على أن هذه الترجمة المحرفة كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه .

* * *

٢٦٩ - التقسيم إلى مدن وكور

وبعد ذلك نسأل: ما السر فى التقسيم إلى مدن وكور ؟ إذا نظرنا إلى «المدن» وجدناها تشبه الكور إلى حد بعيد ، فلكل مدينة منها حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى ، فمدينة طرطوشة « لها حصون كثيرة وأقاليم واسعة » (١) ، ومدينة

(١) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص٢٨٦ .

لاردة « لها حصون كثيرة » (١) ، ومدينة بريطانية لها أحواز ومدن ، « فمن مدنها ببشتر وهى من أمهات مدن الثغر » ، « ولها حصون كثيرة » (٢) ، وكذلك مدينة وشقة ، ومدينة تطيلة لها مدائن كبيرة مثل طرسونة وأرنيط وفارة وناجره (٣) ، ومدينة فِرِّيش « لها من الأقاليم إقليم لواته وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالى موسى » (٤) ، وهكذا . بل إن « ياقوت » يتحدث عن لاردة كما لو كانت كورة ، فيقول : « ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر فى مواضعها » (٥) ، ويقول إن فريش « لها رستاق يكون فيه قرى » (٦) ، وهو يتحدث عن شلون ويقول : « ناحية بالأندلس من نواحى سرقسطة نهرها يسقى أربعين ميلاً طولاً » (٧) ، والناحية هنا هى الإقليم ، لأنه يقول إن أهل الأندلس « يسمون الناحية إقليماً » ، أى أن ناحية واحدة من نواحى مدينة سرقسطة تبلغ ٤٠ ميلاً طولاً ، وهو يذكر أوقانية (Ocaña) ويقول: « جبل من أعمال طليطلة بالأندلس من ناحية القاسم فيه قرى وحصون » (٨)، ويذكر أشقة ويقول : « مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال بريطانية » (٩) . وعندما يتحدث عن طرطوشة يقول : « مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد فى جملتها » (١٠) . ويقول عن مدينة قلعة أيوب : « مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر.. من أعمال سرقسطة ، ولها عدة حصون»(١١)، ويقول عن قَلَهُرَّة : « مدينة من أعمال تطيلة فى شرق الأندلس » ، أى أن مدينة تطيلة تتبعها مدينة أخرى هى قلهرة (١٢) . ويقول عن بقيرة (viguera) : « مدينة فى شرق الأندلس معدودة من أعمال تطيلة ، بينهما أحد عشر فرسخاً » (١٣) .

(١) نفس المصدر والصفحة .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ، ص٢٨٧ .
(٤) نفس المصدر ، ص٢٨٩ - ٢٩٠ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٧ ، ص٣١٣ .
(٦) ياقوت ، جـ٦ ، ص٣٧٤ .
(٧) ياقوت ، جـ٥ ، ص٢٩٠ .
(٨) ياقوت ، جـ٢ ، ص٣٧٦ .
(٩) ياقوت ، جـ١ ، ص٢٩٥ .
(١٠) ياقوت ، جـ٦ ، ص٤٢ .
(١١) ياقوت ، جـ٧ ، ص١٤٨ - ١٤٩ .
(١٢) ياقوت ، جـ٧ ، ص١٥٤ .
(١٣) ياقوت ، جـ٢ ، ص٢٥٣ .

ويُفهم من ذلك كله أن هناك أقساماً إدارية تسمى مدناً أو تنسب إلى مدن ، أقسام واسعة لها أحواز فسيحة فيها مدن كبيرة وقرى وحصون . وهذا شيء لا شبه له في المشرق . فإن المدينة هناك مدينة ولا زيادة ، لها خطتها وأرباضها ، وهي بدورها تتبع الكورة التي تقع فيها. أي أن نظام المدن كأقسام إدارية لم يُعرف إلا في الأندلس .

فإذا نظرنا إلى هذا النوع من المدن وجدناه كله في الثغور الشمالية والغربية . كلها تقع في حوض نهر ابره ، وما بين ابره وتاجه ، وفي حوض تاجه ، ثم ما بين المجرى الأدنى للوادي آنه وساحل المحيط ، فيما عدا فريش ، وسنتحدث عنها فيما بعد ، أي أنها كانت النواحي الثغرية ، السياج الذي يحمي الأندلس الإسلامي . وهذا السياج يبدأ عند طرطوشة في الشرق ثم طركونة فلاردة - بريطانية ، وشقة ، تطيلة - سرقسطة - مدينة سالم - شنتبرية - طليطلة وقلعة رباح - شنترين - أشبونة - أكشونبة .

وهناك ثلاث من هذه المدن تستوقف انتباهنا بصورة خاصة ، هي قرطبة وطليطلة وسرقسطة . فأما قرطبة فلا تذكر النصوص أنها كورة ، بل مدينة تتبعها أقاليم ومدن أخرى، بل إن ابن عبد المنعم الحميري يقول عن قرطبة : « وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات »[(١)] ، وليس في تخطيط قرطبة كما نعرفه ما يؤيد أنها كانت تحيط بها خمسة أسوار ، وإنما الذي يُفهم من ذلك أنها كانت مدينة ذات حوز واسع فيه خمس مدن تتبعها ، ويفسر ذلك قول المقدسي في « أحسن التقاسيم » : «وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة إليها والمدن فقال: إنَّا نسمي الرستاق إقليماً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط .. الخ »[(٢)]، أي أن المراد بمدن قرطبة أقاليمها ، وسنعود إلى هذه العبارة بعد قليل . بل يبدو أن ابن عبد المنعم الحميري اختلط عليه أمر أبواب قرطبة فحسبها أسواراً ، فقد ذكر المقدسي أن « للمدينة خمسة أبواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، باب عامر » . وليس لدينا في أي مرجع ذكر لكورة تسمى كورة قرطبة ، مما يُفهم منه أنها كانت « مدينة » على النظام الأندلسي الذي ذكرناه .

---

(١) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ، ص١٥٣ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٢٢٢ .

وينطبق ذلك أيضاً على سرقسطة وطليطلة ، فهما إما تُذكران دون صفة معينة ، أو يقال « مدينة » . ومع ذلك فقد كانت كل منهما ذات « ولاية واسعة » تتبعها مدن وحصون وقرى ، فسرقسطة « لها مدن ومعاقل ، منها مدينة قلعة أيوب ، عظيمة جليلة القدر ، ولها من الأقاليم عدة » [١] . وكذلك طليطلة فهى « من أجل المدن قدراً وأعظمها خطراً وأشدها حصانة .. ولها من الأقاليم إقليم شاقرة وفيه حصون عدة ، ثم إقليم شِشْلة ، ومدينة وقش ، ثم إقليم الاشبورة وإقليم القاسم وغير ذلك » [٢] . وابن عبد المنعم الحميرى يذكر طليطلة على أنها مدينة ، ويقول : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل المعروف بالشارات » [٣] ، وياقوت يقول : « طليطلة مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادى الحجارة من أعمال الأندلس ، وهى غربى ثغر الروم وبين الجوف والشرق » [٤] .

وأما فريش ، فهى درع قرطبة ، فهى بأقاليمها الواسعة تقوم إلى الشمال الغربى من العاصمة ، وتمتد أقاليمها شمالها وشمال شرقيها ، وهذه الأقاليم كثيرة يذكر منها ابن غالب خمسة ، هى « إقليم لواته وإقليم المرج وإقليم السَّنَد وإقليم قسطانية وإقليم موالى موسى »[٥] ، فهى إذن فى عداد الثغور ، ولهذا ظل حكمها حكم الثغور ، واعتبرت مدينة .

وإذا تذكرنا قسمة قسطنطين التى حدَّت الأندلس حدوداً ستة هى : نربونة وجليقية وطركونة وطليطلة وماردة وإشبيلية ، والتى قام على أساسها التقسيم الكنسى إلى ست مطرانيات هى : جليقية وقاعدتها براقرة ، ولشدانية وقاعدتها ماردة ، وباطقة وقاعدتها إشبيلية ، وقرطاجنة وقاعدتها طليطلة ، وطركونة وقاعدتها طركونة ، وأربونة وقاعدتها أربونة لاحظنا أن اثنين من هذه الأقسام خرجا من أول الأمر عن نطاق الأندلس الإسلامى هما جليقية وأربونة ، فالباقية هى لشدانية وباطقة وقرطاجنة وطركونة ، وإذا ذكرناها بقواعدها قلنا ماردة وإشبيلية وطليطلة وطركونة، وقد استبدل المسلمون إشبيلية بقرطبة وطركونة بسرقسطة ، أى أن الباقية على هذا الأساس هى أقسام ماردة وقرطبة وطليطلة

(١) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص٢٨٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص٢٨٨ - ٢٨٩ .
(٣) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص١٣٢ .
(٤) ياقوت ، جـ٦ ، ص٥٦ - ٥٧ .
(٥) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص٢٩٠ .

وسرقسطة . وهذا يفسر لنا بقاء الثلاث الأخيرات من هذه مدناً ، فقد كانت كل منها على أيام الرومان فالقوط قاعدة قسم إدارى كبير يعدل سدس البلاد ، أو قاعدة ولاية كبيرة تضم عدداً من الديقونيات على النظام الرومانى حسب تقسيم دقلديانوس ، والديقونية ليست ولايـة، وإنما هى مدينـة لها حوز أو زمام ، وقد أصبحت هـذه المـدن تسمى دوقيات أو كونتيات على أيام القوط ، وعلى هذه الهيئة دخلت فى التنظيم الإسلامى ، فبقيت مدناً لها أحواز (١) .

* * *

٢٧٠ - المدينة كقسم إدارى

والخلاصة أنه كانت هناك كور ومدن ذات أحواز واسعة حتى اشتبهت بالكور . وقد عبر عن ذلك ابن حوقل بقوله : « وفيها - أى فى الأندلس - مدن يزيد بعضها على بعض فى المحل والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والمخلَّفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلَّف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة ، فيها ضياع عِداد وأكَرة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع » (٢) ، وإذن فليس فى الأندلس - على قول ابن حوقل - إلا مدينة ذات رستاق فسيح أو كورة ، وهذا هو الذى قلناه .

وهذا هو الذى حيَّر الجغرافيين المشارقة فى أمر تقسيم الأندلس ، فالإصطخرى يقول : «والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة ، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة » (٣)، ثم يمضى فى وصف الأندلس فلا يذكر غير المدن ويقول مثلاً : «ثم إلى بلاد مرسية على مدينة لقنت ، إلى بلاد بلنسية » ، ثم يقول : « وهذه المدن التى ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة » ، ثم « ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونفزة وسرقسطة ولاردة ووادى الحجارة وتُرجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور واستجة وريه ، وكلها مدن عظام» (٤) ، ثم « ووادى الحجارة مدينـة ، وهى وما حواليها من المدن والقرى تُعرف بمدن بنى سالم » . وهو لا يذكر « الكورة » فى الأندلس إلا فى ثلاث حالات: « وريه كورة عظيمة خصيبة ومدينتها أوجذونة ، ومنها كان عمر بن حفصون ، الذى خرج

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, tome III (Paris, 1953) p. 48.

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٣٨ ، جـ١ ، ص١١٦ .

(٣) الإصطخرى : مسالك الممالك ، ص٤١ .

(٤) نفس المصدر ، ص٤١ - ٤٢ .

على بنى أمية بها ، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ، ومدينتها غافق ، وقورية مدينة كانت كبيرة إلا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم .. وماردة من أعظم مدن الأندلس وكذلك طليطلة .. وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية ..» (١) ، أى : أن الأمر مختلط عليه ، فمعظم الأندلس عنده مدن لها بلاد ، فيما عدا ثلاث يجعلها كوراً مع خلط واضح . هذا مع علمنا باهتمام الإصطخرى بالتقسيمات الإدارية ، وذكره الكور والرساتيق بالتحديد فى كل ناحية يتحدث عنها (٢) .

وموقف المقدسى ، وهو لا يقل عن الإصطخرى اهتماماً بالتقسيمات الإدارية ، لا يختلف عن موقف الإصطخرى ، فهو يقول : « وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أنَّا لا نقف على نواحيها فنكورها ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل، وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعنى المشهور منها ، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور ووضع القصبات ، فبعض المدن التى ذَكر قصبات على قياس ما رتبنا . وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة إليها ، والمدن ، فقال : إنَّا نسمى الرستاق إقليماً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط ، بلاط مروان ، حصن بُلكونة ، الشنيدة (السند ؟) ، وادى عبد الله ، فريش ، المائدة ، جيان ، وعلى ما دل آخر الاسم ، هى ناحية مدنُها : الجعز ، بيغوا ، مارتش ، قانت (يريد لقنت) ، غرناتة ، منتيشة ، بياسة ، وسائر مدن الأندلس المذكورة : طرطوشة، بلنسية ، مرسية ، بجانة ، مالقة ، جزيرة جبل طارق ، شذونة، إشبيلية ، أخشنبة ، مرية ، شنترين ، باجة ، لبلة ، قرمونة ، موررور ، استجة » (٣) ، وهذا كلام مختلط بعض الشىء ، ولكننا نخرج منه بما يلى :

١ - أن ابن خرداذبة يقول إن الأندلس أربعون مدينة .

٢ - أن أحداً من الجغرافيين والكُتَّاب لم يسبق المقدسى إلى ذكر كور الأندلس وقصبات هذه الكور .

٣ - أن أهل الأندلس يسمون الرستاق إقليماً .

---

(١) نفس المصدر ، ص٤٣ .

(٢) لاحظ مثلاً دقته فى الكلام عن فارس وعنايته الشديدة بتقسيماتها الإدارية ، ص١٠٠ وما بعدها .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٢٢٣ - ٢٢٤ .

٤ - أن أقاليم قرطبة ١٣ .

٥ - سائر مدن الأندلس المذكورة ١٦ ذكرها بأسمائها ، وجعلها كلها مدناً ليس فيها كورة واحدة .

وللإصطخرى نص آخر طويل ، ملخصه ما يلى :

١ - أن لقرطبة ١٣ رستاقاً هى :

أرجونة على ١٥ ميلاً .

قسطلة على ١٣ ميلاً من أرجونة .

شوذر على ١٨ ميلاً من قرطبة .

مارتُش على ١٥ ميلاً من قرطبة .

قَنْبانُش على ١٥ ميلاً من قرطبة بموضع يقال له قنبانية .

مرج ابن لقيط على ٢٥ ميلاً من قرطبة .

بلاط مروان على ٣٠ ميلاً من قرطبة .

بُريانة

حصن بلكونة على ٤٠ ميلاً من قرطبة .

الشنيدة (السند) على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط .

وادى عبد الله على ٤٠ ميلاً من قرطبة ، المنزل وادى الرمان .

فريش على ٦٠ ميلاً من قرطبة .

جيان على ٥٠ ميلاً من قرطبة ، اسم الرستاق أولبة .

٢ - يعتبر الإصطخرى جيان كورة ، ويقول إن « بكورتها حر هو فى عداد نواحيها». ومن رأينا أن « حر » ينبغى أن تقرأ : جزء .

ومدنها ، أى مدن جيان :

الجَعْز على ١٠ أميال من جيان .

بيغوا .

مارتش فى قنبانية .

منتيشة .

غرناطة ، على وادٍ به مُنْيَة طوله ١٣ ميلاً فيه للسلطان كل عجيبة .

بياسة .

٣ - ويقول : قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فإشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة . وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا .

٤ - عرض المقدسى كلامه على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ١٨ كورة ، فعد : بجانة - مالقة - بلنسية - تدمير - سرقسطة - يابسة ؟ - وادى الحجارة - تطيلة - وشقة - مدينة سالم - طليطلة - إشبيلية - بطليوث - باجة - قرطبة - شذونة - الجزيرة الخضراء .

وزاد آخر : لبيرة - خشنبة (١) .

وغريب أن يخلط المقدسى هذا الخلط مع أنه كتب كتابه بعد الرازى بنحو قرن ، فإن جغرافية الرازى كتبت حوالى سنة ٨٩٠م . فى حين أن المقدسى كتب كتابه سنة ٩٨٥ . ومن الواضح أنه لم ينظر فيه واكتفى بالاعتماد على معلومات أخذها عن بعض الأندلسيين مشافهة ، وربما كانت لمعلوماته لهذا السبب أهمية خاصة .

والمهم لدينا أن أولئك الأندلسيين قالوا إن بلادهم أقاليم ، وأنهم يسمون الرستاق إقليماً، والمعروف أن الرستاق جزء من الكورة ، وعندما أرادوا أن يطبقوا تقاسيم المشرق على الأندلس قالوا إن الأندلس يجب أن تكون على ذلك ١٣ كورة . ويهمنا فى كلامه ما نقله عن ابن خرداذبة أن الأندلس ٤٠ مدينة ، وحقيقة قال ابن خرداذبة ذلك ، وقد ألف ابن خرداذبة كتابه بين سنتى ٢٣٠ و٢٣٤ / ٨٤٤ - ٨٤٨ ، وقال ذلك أيضاً اليعقوبى الذى كتب بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، والهمدانى وقد كتب بعد اليعقوبى بثلاثين سنة . أما

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٢٣٤ - ٢٣٦ .

معاصره ابن رستة فحديثه عن الأندلس قليل القيمة(١) .

فإذا كان أوائل الجغرافيين - من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبى والهمدانى وابن رستة - لا يشيرون صراحة إلى أن الأندلس كان مقسماً إلى كور ، وإنما هو عندهم مقسم إلى مدن ، ولا يذكرون « الكورة » إلا نادراً وعلى سبيل التجوز لا التحديد ، وإذا كان متأخروهم - كالإصطخرى وابن حوقل والمقدسى - ينصُّون على « المدن » نصاً صريحاً ، فلا تذكر الكورة عندهم إلا على سبيل الشرح والتوضيح ، كما رأينا فى حالة المقدسى ، فإن ذلك يدل على أن الأساس الأول الذى اتخذ لتقسيم الأندلس كان الأساس الرومانى والقوطى من بعده ، وهو نظام المدن ذات الحوز . فإذا قالوا مدينة تطيلة مثلاً أرادوا بذلك « ولاية » واسعة منسوبة إلى تطيلة . ولم نأت بلفظ « الولاية » هنا من عندنا ، بل إنه مصطلح يستعمله الجغرافيون كقول ياقوت . « طرطوشة ، مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد فى جملتها»(٢). وقوله : « كَركِى ، اسم حصن من أعمال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى » (٣) . و«ولاية » هى الترجمة الاصطلاحية للفظ (Provincia) ، وقد سميت الديقونيات الرومانية ولايات دوقية (Provincia Ducado) ودوقية كونتية (Provincia Condado) (٤) بحسب رتبة القائد الذى كان يتولاها ، لأن الأقسام الإدارية كلها أصبحت وحدات عسكرية ، فقد كان القوط شعباً محارباً . وحلَّ محلهم العرب ، وكانوا شعباً محارباً أيضاً ، فمضوا على هذا النظام ، واعتبروا الأندلس كله مدناً لا كوراً .

* * *

٢٧١ - ظهور مصطلح الكورة أما مصطلح الكورة فلم يظهر إلا بعد سنوات ، وظهر على سبيل التجوز لا على أنه مصطلح إدارى . وأول ما نسمع به فى سنة ١٣٥ / ٧٥٢ فى خبر تفريق أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى للشامية على ست كور مذكورة بأسمائها وهى : البيرة وريه وشذونة وإشبيلية وجيان وباجة (٥) . وتذكر أيضاً تدمير ولكنها لم تكن إذ ذاك

(١) Cf : JOSÉ ALEMANY BOLUFER, La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX 1919 n. 3 - 4 pp. 119 sqq.

(٢) ياقوت ، جـ٦ ، ص٤٣ .

(٣) ياقوت ، جـ٧ ، ص٢٤١ .

(٤) LÉVI - PROVENÇAL, op. cit. III, p. 48.

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص٣٣ .

كورة ، وإنما كانت ناحية معاهدة بيد صاحبها تدمير ، ولم تصبح كورة إلا فى عهد عبد الرحمن الداخل .

ونلاحظ أن هذه الكور كلها فى الجنوب والجنوب الغربى ، وأنها كانت كوراً مجندة على نظام أجناد الشام الخمسة ، ولم تكن أجناد الشام « كوراً » ككور مصر مثلاً ، بل كانت مناطق عسكرية كما قلنا . على أن لفظ الكورة استعمل بعد ذلك ، فقد ذكر صاحب «الأخبار المجموعة » أن الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ومن معهما « اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة ريه ليحيى بن حريث » (١) .

ويبدو أن نظام الكور فيما يتصل بنواحى الجنوب عُمِّم من أيام عبد الرحمن الداخل، أما نواحى الثغور التى ذكرناها فقد ظلت مدناً ذات أحواز حتى نهاية أيام الخلافة .

بهذا يكون العرب قد أخذوا - فيما يتصل بالتقسيم الإدارى - بالنظام الرومانى القوطى الذى وجدوه ، ثم عدَّلوه بعض الشىء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحى الحدود والثغور كما هى: مدناً عسكرية ذات أحواز(٢).

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٥٧ .

(٢) ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن فى بلاد الإسلام محدد المعنى بالشكل الذى نتصوره ، خذ مثلاً تعريف ياقوت للكورة ، وهو أدق ما لدينا : « ذكر حمزة الأصفهانى أن الكورة اسم فارسى بحت (كذا) يقع على قسم من أقسام الاستان. وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان ، كما استعارت الإقليم من اليونانيين ، فجعلته اسماً للكشخر. فالكورة والاستان واحد ... قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، كقولهم : دارابجرد ، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارابجرد ، ونحو نهر الملك ، فإنه نهر عظيم مخرجه من الفرات ، ويصب فى دجلة ، عليه نحو ٣٠٠ قرية ، ويقال كذلك جميعه نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك » - (ياقوت ، جـ١ ، ص٣٦) .

وهذا كلام غير متناسق لا يخرج الإنسان منه بمفهوم واضح للكورة . وربما كان سبب ذلك الغموض أن «الكورة» كمصطلح إدارى لم تستعمل بصورة منتظمة إلا فى مصر ، أما فى العراق وما يليه شرقاً فكان المصطلح يستعمل تجوزاً ، وقد استعمله الجغرافيون من أمثال المقدسى والاصطخرى للتسهيل . وهما يخلطان بين الكورة والرستاق والاستان والرَّم وما إلى ذلك من المصطلحات الإدارية . أما فى الأندلس ، فلم يستعمل لفظ « كورة » استعمالاً دقيقاً ، وأظهر مثال لذلك استعماله فى الروض المعطار . مثلاً : أقليش : « ... وهى قاعدة كور شنتبرية » (ص٢٨) - ألش : « ... من كور تدمير » (ص٣١) - أندة : « ... مدينة من كور بلنسية » - أوريولة : « ... حصن بالأندلس ، وهو من كور تدمير » (ص٣٤) ، ومثل هذا كثير جداً . وقد ذهب ليفى بروفنسال إلى أن كور هنا معناها كورة ، أى : أن الجمع يستعمل فى معنى المفرد .

LÉVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Esp. Mus. III, 48.

ولكننا نرجح أنه يستعمل الكورة هنا بمعنى الإقليم .

٢٧٢ - التقسيمات الفرعية : الإقليم

ولكنهم لم يتابعوا المشرق فى التقسيمات الفرعية للكور والمدن . فهم لم يقسموا الكورة والمدينة إلى رساتيق أو ما يشبهها . لأن الرستاق - كالكورة - قسم زراعى يشتمل على مساحة مزروعة فيها قرى . ولم تكن المساحات الأرضية هى أساس التقسيم فى الأندلس ، بل كانت المدن وما يتصل بها من أحواز . وإذا كانت المدينة تابعة للكورة فى المشرق ، فإن الكورة هى التى تتبع المدينة فى الأندلس . ولهذا فقد قُسِّمت الكورة أو المدينة فى الأندلس إلى مدن أو نواح ، لكل مدينة أو ناحية حوز يسمى الإقليم . قال ياقوت فى تعريف الرستاق : « قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى . ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد (أى أرض زراعية) عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة والاستان »(١) .

وقال فى تعريف الإقليم عند الأندلسيين : « الاصطلاح الثانى لأهل الأندلس خاصة ، فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليماً . وربما لا يعرف هذا الاصطلاح إلا خواصهم ، وهذا قريب مما قدمناه عن حمزة الأصفهانى ، فإذا قال الأندلسى : أنا من إقليم كذا ، فإنما يعنى بلدة أو رستاقاً بعينه »(٢) . وهذا تعريف واضح يدل على أن الأندلسيين يعنون بالإقليم القرية الكبيرة أو البلدة وحوزها المتصل بها طبعاً . قارن ذلك بمعنى الإقليم عند المشارقة : « كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليم ، نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وأفريقية ونحو ذلك »(٣) فالإقليم فى الأندلس بلدة تتبعها أرض ، وفى المشرق أرض تتبعها بلاد ، والفرق واضح لا يحتاج إلى بيان . فى الشرق أخذ العرب الأساس الفارسى وهو الأرض ، وفى الأندلس أخذوا الأساس الرومانى وهو المدينة .

ولا عجب والحالة هذه أن كانت مدن الشرق جميعها قرى كبيرة فى اضمحلال متصل ، ومدن الأندلس مدناً حقيقية ذات نظام وتخطيط وهيئة ، وكانت فى صعود دائماً . ولا غرابة فى أن يفاخر المقرى المشارقة بمدن الأندلس ، ويقول إننا نجد فى الأندلس المدينة الكبيرة إلى جانب المدينة الكبيرة . ولا غرابة أيضاً فى أن نجد فكرة أمراء الأندلس فى إنشاء المدن أقرب إلى المفهوم الصحيح للمدن ، وما من ناحية اختطوها هناك إلا بقيت إلى يومنا هذا ، وأمامنا

(١) ياقوت : معجم ، جـ١ ، ص٣٧ - ٣٨ .
(٢) ياقوت : معجم ، جـ١ ، ص٣٩ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

مرسية والمرية وتطيلة ومدينة سالم وقلعة أيوب وما إليها ، نستطيع أن نقارنها بالبصرة والكوفة وواسط والأنبار والفسطاط والمهدية وما إليها مما دثر وذهب أمره ، لأنها إما كانت معسكرات أو مراكز زراعية .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من الأقاليم التى تنقسم إليها الكور والمدن ذات الأحواز ، ولكن العذرى يقدم لنا نصوصاً تزيد معنى الإقليم الأندلسى وضوحاً ، ويهمنا بصفة خاصة حديثه عن أقاليم قرطبة ، قال :

عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر إقليماً :

إقليم المُدوَّر :

عدد قُراه فى المغارم (١) تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث [...] .

القمح : ٨٥ مدياً و٤ أقفزة .

الناض (٢) : ٣٩٨٠ مثقالاً .

الطبل (٣) للعام : ٤١٤٠ ديناراً .

الصدقة والبيزرة : ٤١٢ ديناراً و٤ دراهم .

إقليم القصب :

القرى فى الوظائف ٨٧ ، منها فى العشور ٥٦ قرية .

القمح	: ١٤٢ مدياً .
الشعير	: ١١١ مدياً .
الطبل للعام	: ٢٧٠٠ دينار و٤ دراهم .
الناض للحشد	٤٧٧٢ مثقالاً .
الصدقة والبيزرة	: ٢٠٣ دنانير و٤ دراهم .

(١) المغرم : تسمية عامة تطلق على الضرائب غير الشرعية ، والجمع مغارم .

(٢) كانت الضرائب على المنقولات فى الأندلس تجبى نقداً أو عيناً ، فإذا بيعت نقداً سميت الناض ، وإذا بيعت عيناً سميت وظيفاً ، وكان الناض يعتبر فى الأندلس ضريبة خاصة بالجيش ، ولهذا يسمى أحياناً الناض للحشد .

(٣) الطبل ضريبة شخصية ، كان الناس يؤدونها عيناً ، وتعتبر معونة مالية للدولة فى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية.

إقليم لَوْرة :

القرى	: ٦٤ قرية ... منها للعشور ...
القمح	: ١٧٣ مدياً و١٠ أقفزة
الشعير	: ٣٠٠ ... و ... قفيز
الناض للحشد	: ٢٤٧٢ مثقالاً

إقليم الصَّدف :

القرى	: ٢٨ قرية ، منها للعشور ...
القمح	: ٨٩ مدياً و١١ قفيزاً ...
الشعير	: ١٩٣ مدياً ...
[الناض]	: [...] ٤٧٥ مثقالاً
الصدقة	: [...]
الطبل للعام	: [...] ٥٥ [...] و $\frac{٢}{٧}$

إقليم بني مُرة :

القرى	: ١٧ قرية
القمح	: ١١٧ مدياً [...] أقفزة
الشعير	: ٢٥٤ مدياً و٣ أقفزة

إقليم منْيَانة :

القرى	: ٢٦ قرية
القمح	: ١٢١ مدياً [...] قفيزاً
الشعير	: ٢٢٨ مدياً و٦ أقفزة .
الناض للحشد	: ٧٠٠ مثقال

إقليم كُرتَش :

القرى	: ٦٠ قرية ، منها للعشور ٣٠ قرية

القمح	: ٢٢٠ مدياً [...] أقفزة
الشعير	: ١١٦ مدياً و٦ أقفزة
الناض للحشد	: ٧٣٠ مثقالاً
الطبل للعام	: ١٧٨٢ ديناراً ، و٤ دراهم
الصدقة والبيزرة	: ٤٩ ديناراً و٤ دراهم

وهكذا بالتفصيل فى بقية الأقاليم ، وهذه هى أسماؤها مع عدد قراها :

إقليم الفَتل	: ٤٨ قرية
إقليم الهَزّهاز	: ٧٣ قرية
إقليم وايُه الملاحة	: ٨٤ قرية
إقليم وايه الشَّعْراء	: ٩٤ قرية
إقليم أولية السهلة	: ١٠٢ قرية

وإلى هنا ينتهى بيان الأقاليم كما يورده العذرى ، أى أنه يذكر أن عدد الأقاليم ١٥ ولا يذكر إلا ١٢ [١] .

ونخرج من هذا البيان القيم بأن الأقاليم كانت محددة تحديداً دقيقاً بما على كل منها أن تؤديه من الجبايات ، وهذا التحديد لا يذكر ما على كل قرية أن تؤديه بل تذكر جملة ما ينبغى أن يؤديه كل إقليم فى مجموعه من أصناف الضرائب . أى أن الإقليم كان وحدة مالية فى نظر الدولة ، وهذه هى الحقيقة الأولى التى تهمنا ملاحظتها هنا .

ثم نعود فنسأل : ما هو الأساس الذى عمل عليه هذا التقسيم ؟ لو أن المسلمين هم الذين وضعوه للاحظنا بين الأقاليم لوناً من التناسب فى عدد القرى على الأقل ، فلا نجد

(١) قال أبو عبيد البكرى : « وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة ، وكانت جباية هذه الأقاليم فى أيام الحكم بن هشام :

الحشد وناض الطبل وناض البيزرة للعام ١٤٢٠٠٠

ومن وظيفة القمح ، مديا ٥٣٠٠٠

ومن الشعير ... ... ٧٣٠٠٠ ... »

أوراق من جغرافية البكرى جمعها ليفى بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية للروض المعطار :

LÉVI - PROVENÇAL, La Péninsule Ibérique, p. 250 - 251.

إقليماً ١٧ قرية وإقليماً ١٠٢ ، ثم إن أسماء معظمها ليس عربياً مما يدل على أن الإقليم بحدوده واسمه كان موجوداً قبلهم ، كما حدث فى مصر ، عندما أخذ العرب الباجركيات البيزنطية (Pagarchoi) وسموها كوراً ، وتلك هى الحقيقة الثانية التى يهمنا النص عليها .

وإذن فالأقاليم وحدات إدارية مالية وجدها العرب بحدودها عند دخولهم ، فتبنوا هذه الحدود وحددوا ما عليها من المال . كل إقليم يضم عدداً من القرى ، فهناك قرى تدفع العشور ، وهى بطبيعة الحال قرى الحبوب ، والزراعات ، وقرى تؤدى جبايات تحدد بحسب طبيعة إنتاجها ، وهى نواحى الثمار والأشجار والزيتون والغابات والصيد والمعادن وما إليها . والقرية فى ذاتها ليست وحدة ، بل الإقليم هو الوحدة .

وللعذرى نص آخر يذكر الأقاليم بحدودها الجغرافية ، وإذا ضممنا هذا النص إلى النص السابق ازداد معنى الإقليم عندنا وضوحاً . يقول العذرى :

أقاليم سرقسطة :

إقليم المدينة : وهو من باب سرقسطة ، قبلةً منها إلى عقبة مليلة .

إقليم قصر عباد : وهو متصل بإقليم المدينة . وقصر عباد مجاور لطرطوشة ، وهو فى هذا العصر منصرف إلى طرطوشة .

إقليم قُتُنْدة : وهى على ستين ميلاً من مدينة سرقسطة . وفى هذا الإقليم يخرج نهر بلطش (Pleitos) من فج يُعرف بفج بذره (Pedro ?) .

إقليم زيدون : وهو مجاور لطرطوشة ، ومجاور لبلنسية ، ومجاور لتدمير ، ومجاور لشنت بريه . وفى هذا الإقليم من ناحية مدينة غَلْواذه يتفجر نهر شليقُه (Jalico) ثم يمضى حتى يواقع نهر شلون (Jalón) .

إقليم بَلْطُش (Pleitos) : ونهره يسقى من قرية مواله (Muela del Ebro) إلى مدينة سرقسطة ، طول ٢٠ ميلاً ، غرب عن عين بلطش .

إقليم قنتّش : وله عين ، يسقى من ناحية بلد نوبه (Villa Nueva) إلى أن ينصب ماؤها فى نهر ابره ، طوله ٢٠ ميلاً .

إقليم شَلُون : وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبانِس (Cabañas de

(Ebro وركله (Ricla) . وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ثمانين قرية .

إلى آخر هذه الأقاليم ، وواضح أن هذه التحديدات كلها زراعية ، تُعنى بالرى والأنهار والعيون وما تسقيه . والتقسيم الزراعى فى أساسه مالى ، لأن الذين يرسمونه ينظرون إلى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية . ثم إن التحديدات الجغرافية تحديدات ثابتة لا تتغير بتغيُّر الأعصر ، أى أن حدود الأقاليم كما أقرها المسلمون كانت موجودة قبلهم ، فأخذوها كما هى ، بأسمائها فى معظم الحالات ، وترجموها أو أعطوها أسماء عربية فى أحوال قليلة .

وليس معنى ذلك أن كل الأقاليم أخذها العرب كما هى ، بل الحكم هنا على الأمر الغالب ، لأن استقرار قبائل العرب والبربر فى بعض النواحى أوجد أقاليم جديدة تنسب إلى من سكنها ، كإقليم القاسم أو بنى القاسم الداخل فى حوز مدينة سالم ، فقد كان إقليماً واسعاً نسب إلى أولئك القوم ، وهو الذى ذكره الإدريسى باسم إقليم القواصم وصحتها القواسم ، وإقليم بنى مرة فى حوز قرطبة ، وإقليم زناتة وإقليم كنانة فى حوز بلنسية ، وما إلى ذلك .

٢٧٣ - الجزء ويذكر العذرى إلى جانب الأقاليم أقساماً إدارية أخرى تسمى الأجزاء ، مفردها « جزء » . وهو يورد هذه الأجزاء بعد الأقاليم مباشرة ، مثال ذلك فى كلامه عن بلنسية يقول :

أقاليم بلنسية :

إقليم المِنَيرة (Almenara) ، إقليم أنده (Onda) ، إقليم شُبُرْب ؟ ، إقليم زناتة (Za-nete) ، إقليم كنانة (Benicanena) ، إقليم شلينة ، إقليم أوهيل (Ollierea) ، إقليم لبايه ، وله رتبة أولية ، إقليم ممح ؟ ، إقليم شارقة (Jerica) .

ثم تلى ذلك الأجزاء دون أى تفصيل :

جزء الساحل ، جزء قلبيرة (Calavera) ، وجزء الجزيرة ، جزء البيضاء(Albayda) وغلثار ، جزء الأسناد ، جزء فحص شاطبة ، جزء براكانه ، جزء مدينة التراب ، جزء مصمودة ، جزء بنى غتيل ، جزء قسطانية ، جزء فقيرة (Viguera) ، جزء مسل ، جزء مربيطر .

ونلاحظ أولاً أن عشرة على الأقل من هذه الأجزاء منسوبة إلى مدن من كورة بلنسية ، وأن اثنين منسوبان إلى أقوام : مصمودة ، بنو غتيل ؛ واثنين منسوبان إلى معالم جغرافية: الساحل ، الأسْناد .

وليس هناك ما يدل على أن هذه الأجزاء كان فيها قرى . وقد وقع فى ظنى أنها قد تكون أجزاء من أقاليم ، فلم يصح ذلك ، ولم يصح أيضاً أن تكون أجزاء أو أحياء من مدينة بلنسية نفسها .

وقد وجدت عند ياقوت - وهو كنز الجغرافية الإسلامية ، ولم يُدرس بعد دراسة كافية - تعريفاً للجزء فى الأندلس يعيننا بعض الشيء على فهم معناه ، فقد قال فى كلامه عن مدينة رباح : « ولها عدة قرى ونواح ، ويسمونها الأجزاء ، يقوم مقام الإقليم، كما ذكرنا فى اصطلاحهم فى لفظة الإقليم فى أول الكتاب ، منها جزء البكريين، وجزء اللخميين وغير ذلك »[1] . وقال تحت لفظ « جزء » : « رمل الجزء بين الشِّحر وبيْرين ، طوله مسيرة شهرين ، تنزله أفناء القبائل من اليمن ومعدّ ؛ وعامتهم من بنى خويلد بن عُقيل ، قيل إنه يسمى بذلك ، لأن الإبل تجْزأ فيه بالكلأ أيام الربيع فلا ترد الماء »[2] . وهذا التعريف ينطبق على ما ذُكر آنفاً من الأجزاء : «جزء البكريين وجزء اللخميين وغير ذلك » . ثم لاحظت أن الأجزاء لا توجد إلا فى النواحى التى تكثر فيها أراضى المراعى مما نزلته بطون العرب بكثرة: إشبيلية وبلنسية وقلعة أيوب وما يشابهها ، ولا توجد فى النواحى المحروثة المزروعة من قديم الزمان ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما لاحظناه من أن معظم الأجزاء ينسب إلى مدن ، خرجنا من ذلك بأن الأجزاء قد تكون مساحات من الأرض خصصت للإبل والماشية ، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلأ فى التشريع الإسلامى ، فلا تكون مملوكة لأحد ، وإنما مشاعاً للجماعة كلها ، ولا يجبى عنها مال . وقد كانت فى شبه الجزيرة أراض كثيرة يجرى عليها هذا الحكم من قديم الزمان ، وهى أراضى المراعى المشاع(Compascuas) التى ذكرناها آنفاً .

بهذا تكون قد اجتمعت لنا فكرة واضحة إلى حد ما عن الأساس الذى اتخذه العرب لتقسيم الأندلس تقسيماً إدارياً : ساروا على ما وجدوه قائماً فى البلاد مع تكييفه على نحو

(١) ياقوت ، جـ٤ ، ص٢٢٠ .
(٢) ياقوت ، جـ٣ ، ص٩٣ .

يتفق مع ظروفهم فى شبه الجزيرة دون أن يغيروا روحه : ظلت المدينة هى الأساس تتبعها الأرض ، وحينما حولوا بعض المدن إلى كور ظلت المدينة أساس الكورة ، ولم تكن الكورة هى الأساس تتبعها المدينة . ولم تكن المدينة فى الأندلس بمعناها فى المشرق : مجموعة من الأبنية يحددها سورها ، بل بالمعنى الرومانى : نواة لإقليم أو أقاليم كل أهلها يُعتبرون من أهل المدينة . وقد اقتضى الأمر اعتبار الكثير من مدن الجنوب وحدات مستقلة ، فجعلوها كوراً ، لأن مركز الثقل فى الأندلس الإسلامى كان فى الجنوب ، ولهذا صغرت مساحات الكور فى الجنوب بينما اتسعت فى الشرق والغرب . أما الوسط ونواحى الشمال فقد ظلت مدناً بالمعنى الرومانى القديم ، مدناً لها أحواز وفى أحوازها تقع مدن أخرى ذات أحواز .

٢٧٤ - المدينة الأم وقد جرت العادة بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات مفردها بنت ، وقد تتحول الأم إلى بنت إذا زادت عليها فى العمارة إحدى بناتها . قال ابن عبد المنعم الحميرى فى كلامه عن طرسونة : «كانت مستقر العمال والقواد بالثغور . وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، المعروف بصاحب الأرض ، اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً . وكانت ترد عليها عُشُر مدينة أربونة وبرشلونة، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة ، عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم إياها لفضل بقعتها واتساع خطتها »[(١)] . وكذلك حدث لالبيرة ، فقد كبرت بنتها غرناطة وأصبحت الأم وعادت البيرة من بناتها . ومثل ذلك حدث لبجانة ، إذ اختطت وعمرت واتسعت حتى صارت أماً ، « ثم خربت وانتقل أهلها إلى المرية وعادت المرية أماً » .

وتسمى المساحة التى تشغلها المدينة نفسها بخطة المدينة ، وقد تكون الأم أكبر مدن الناحية وأهمها دون أن تكون القاعدة أو القصبة ، لأن القاعدة أو القصبة يُشترط فيها الحصانة والمنعة ، وخاصة فى نواحى الثغور . فلم تكن قبرة مثلاً قصبة الكورة المنسوبة إليها، بل كانت القصبة بيّانة ، لأنها - كما يقول ياقوت - « كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار وأنهار »[(٢)] . وكذلك الحال مع قلْب - وهى Calpe القديمة - فقد كانت أول الأمر قاعدة

(١) الروض المعطار ، ص١٢٣ .

وقد يستعمل لفظ « الأم » للدلالة على أكبر مدن الناحية ، قال صاحب « الروض » فى الكلام عن أولية السهلة (ص٣٤) : « بالأندلس ، قريبة من قرطبة ، تعرف بالرملة ، وهى أم الأقاليم ، كثيرة الأهل واسعة الخطة ، مثمرة الأرضين ، بها ديار للعجم متقنة البنيان ... » .

(٢) الروض المعطار ، ص١٦٢ والترجمة الفرنسية ، ص١٩٤ وتعليق ٣ .

كورة موررور (١) . وعندما اختط الأمير محمد مدينة مجريط جعلها قاعدة « مدينة » وادى الحجارة . وكذلك عندما اختط عبد الرحمن الأوسط مدينة مرسية ، نقل إليها قاعدة كورة تدمير ، وكانت قبل ذلك فى أوريولة (٢) . وتسمى الضواحى بالأرباض ، مفردها ربَض ، إذا كانت صغيرة متصلة بعمارة المدينة ، فإذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر ، مثال ذلك أن طَريانة كانت «حاضراً من حواضر إشبيلية » (٣) .

٢٧٥ - الحصون والمعاقل وكما تتبع المدينة مدن ، فكذلك تتبعها حصون ومعاقل . ويغلب على الظن أن هناك فرقاً بين الحصن والمعقل . فالحصن موضع محصن مأهول يشبه أن يكون مدينة ، وقد تتبعه حصون أخرى ، وقد يكون له حوز . مثال ذلك حصن بيطْرة فقد عرَّفه ياقوت بقوله : « بلدة وحصن من أعمال سرقسطة » (٤) ، وقال عن كَركى : «اسم حصن من أعمال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى » (٥) ، وقال ابن عبد المنعم عن قَيْشَاطة : « حصن بالأندلس كالمدينة ، بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلاً ، وفى قيشاطة أسواق وربض عامر وحمام وفنادق » (٦) . أما إذا اتسع الحصن عن ذلك فيصبح « قلعة مدينة » أى حصناً كبيراً ومدينة كبيرة أيضاً ، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح . فى حين أن المعقل لا يزيد عن أن يكون موضعاً محصناً يلجأ إليه المزارعون إذا داهمهم خطر ، أى أنه مجرد كرال (Kraal) . وقد كانت المعاقل كثيرة جداً فى الأندلس ، لا يشذ عن ذلك إلا معقل « رُندة » فقد تحول إلى بلد .

ومن غير الميسور الآن تقدير حوز كل كورة ومدينة ، أو رسم خريطة دقيقة للأندلس الإسلامى وتقسيماته الإدارية ، لأن البيانين اللذين يقدمهما نص جغرافية الرازى المترجم و« التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » وما لدينا من جغرافية العذرى وأوراق جغرافية البكرى ، كل هذه لا تقدم إحصاء بأقاليم كل كورة ومدينة وحدود هذه الأقاليم ، ولعل

(١) ياقوت ، جـ٨ ، ص٣٩٤ .
(٢) ياقوت ، جـ٨ ، ص٢٤ .
(٣) ياقوت ، جـ٦ ، ص٤٧ .
(٤) ياقوت ، جـ٢ ، ص٣٣٩ .
(٥) ياقوت ، جـ٧ ، ص٢٤١ .
(٦) الروض المعطار ، ص١٦٥ .
وراجع أيضاً كلامه عن حصن « جنجالة » (ص٦٧) وحصن الثلج (ص١٠٨) وحصن الكرس (ص١٦٦ - ١٦٧) .

جغرافية العذرى لو كانت كاملة لأعانتنا على إدراك هذا المطلب ، ولكنها كما قلنا ناقصة ، فلم يبق لدينا إلا الاكتفاء بمعرفة الأسس العامة للتقسيم وإحصاء الكور والمدن على ما بيناه ، وربما أعاننا الحظ فى المستقبل على إكمال الصورة .

وقد ذهب ليفى بروفنسال إلى أنه من الممكن رسم صورة كاملة للتقسيم الإدارى للأندلس بالاستعانة بكتب التاريخ ، وهذا صحيح ، ولكن ما بين أيدينا من أصول تاريخ الأندلس مبتور فى مواضع شتى ، كما هو الحال مع جغرافية العذرى . وقد أحصى بروفنسال سبعاً وعشرين كورة غير الثغور . وهذه الكور هى : قرطبة - فحص البلوط - قبرة - استجة - إشبيلية - قرمونة - لبلة - أكشونبة (شلب) - باجة - مورور - شذونة (قلسانة) - الجزيرة الخضراء - تاكرنا (رندة) - ريه أو مالقة - البيرة - جيان - بجانة - تدمير (مرسية) - شاطبة - بلنسية - طليطلة - طلبيرة (أقلش) - ماردة - بطليوس - شنترين - لشبونة - قلمرية (١) .

وقد تكون هذه هى كور الأندلس فى القرن العاشر الميلادى ، ولا نستطيع الآن أن نناقش هذه القائمة ، لأننا لا نملك إحصاء كاملاً لما فى كتب التاريخ من معلومات .

* * *

٢٧٦ - تقسيم مجارى الأنهار وقد تبع اعتبارَ المدن وأحوازها وحدات إدارية بضع صور إدارية لا نجد لها شبيهاً فى المشرق ، كاتباع الأنهار أو أجزاء منها للمدن التى تقع عليها أو الأقاليم التى تقع فيها ، مثال ذلك قول العذرى فى كلامه عن إقليم جَلَّقٌ من أقاليم سرقسطة : « ونهره يسقى ما وازى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً . ومخرج نهر جَلَّقٌ (El Gallego) من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج إلى ناحية وشقة إلى سرقسطة ، ويقع فى ابرُه ، والجزء الأعلى من نهر جَلَّقٌ يروى من الصخيرة إلى منزل حسان إلى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً » (٢) . فهنا نرى بوضوح أن النهر تابع للإقليم ، بل إن الأجزاء التى يرويها محددة تحديداً تاماً ، كما تحدد النواحى التى ترويها الترع والقنوات فى نظم الرى الحالية . وتسمية النهر باسم الإقليم هنا ليست تسمية جزافية بل لها معنى التبعية الإدارية .

(١) LÉVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Espagne Musulmane, III pp. 49 - 51.

(٢) العذرى : نظام المرجان ، ورقة ١٦١ .

ومثال ذلك أيضاً قوله فى الكلام عن إقليم شلون (El Jalón) : «وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبانش وركله إلى باب سرقسطة ٤٠ ميلاً ، وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ٧٠ ميلاً » [(١)] . ومعنى ذلك أن أربعين ميلاً من مجرى شلون تبع لإقليم شلون ، والباقى خارج عن هذه التبعية . وعلى هذا الأساس قالوا نهر مرسية ونهر بلنسية وما إلى ذلك ، فقد كانت لهذه الأنهار أسماؤها الجغرافية وكان العرب يعرفونها ، ولكن نسبة النهر هنا تحمل معنى التبعية ؛ أى أن نهر مرسية داخل فى حوز مرسية وأقاليمها ، ونهر بلنسية كذلك . بل إن مجارى الأنهار الطويلة كانت تقسم ، فيدخل كل قسم منها فى حوز مدينة ، ومثال ذلك نهر الوادى الكبير ، فهو فى زمام إشبيلية نهر إشبيلية ، والجزء الداخل من مجراه فى حوز قرطبة يسمى نهر قرطبة ، وفى حوز جيان يسمى نهر جيان ، وقِسْ على ذلك بقية كبار الأنهار.

٢٧٧ - المراسى

وكانت لمسلمى الأندلس من أول الأمر عناية بالموانى ، نظراً لأهمية الصلات مع العدوة الأفريقية . وكانوا يسمون الميناء مرسى ، وهى تسمية لها معناها بالنسبة لطبيعة الموانى الإسلامية فى الغرب الإسلامى فى هذه العصور الأولى. ويلاحظ أن أهل المغرب والأندلس دون غيرهم من أهل الدولة الإسلامية ، توسعوا فى استعمال لفظ المرسى مقابلاً للميناء وخاصة فيما يتصل بما أنشأه المسلمون منها ، فهم يقولون « مرسى تونس » و« مرسى الخزر » و« مرسى الدجاج » و« مرسى المرية » و«مرسى بجانة » وما إلى ذلك ، وهذه كلها موانٍ جديدة نشأت بعد الفتوح الإسلامية ، أى أن الميناء كان يبدأ عادة بأن يكون مرسى للسفن ثم يتطور بعد ذلك كما تطورت تونس والمرية وبجانة ، فأصبحت مدناً ومراسى فى نفس الوقت .

ويُفهم من كلام صاحب « الروض المعطار » أن الميناء قد يبدأ فى أول أمره رباطاً بحرياً ، ثم ينشأ عنده مرسى ، ثم يتحول إلى مدينة ، كما حدث فى المرية [(٢)] ؛ وقد يبدأ إقطاعاً بحرياً لقبيل من العرب فى مقابل حفظ الساحل ، فينشأ فيه مرسى ثم ميناء كما كان الحال مع بجانة. وفى حالة هذه الأخيرة نضع أيدينا على « ميلاد » مدينة . قال صاحب « الروض » : «وبقرب بجانة كان جامع الإقليم الأعظم ، إلا أنها كانت حارات مفترقة ، حتى نزلها البحريون وتغلبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ، فجمعوها وبنوا

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) الروض المعطار ، ص٣٧ .

سورها»[١] . وقد كانت بجانة - كما هو واضح هنا - قرية صغيرة (هى التى تعرف باسم Pechina) ، وكان حولها أحياء كثيرة آهلة متفرقة هي المسماة هنا بالحارات . وكان لأهل هذه الحارات مسجد جامع كبير بقرب بجانة ، فقام أولئك البحريون بجمع الحارات بعضها إلى بعض ، وأقاموا سوراً حولها وحول بجانة والمسجد الكبير ، فنشأت المدينة .

٢٧٨ - الضياع وتظهر « الضِّياع » فى الأندلس الإسلامى من أول الأمر ، فقد ذكر ابن القوطية أن أبناء غيطشة حالفوا طارق بن زياد على « أن يمضى لهم ضياع أبيهم وكانت ٣٠٠٠ ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك » ، وقد أجابهم طارق إلى ذلك ؛ وقد خص أرطباس منها ألف ضيعة كان يفرق منها على العرب . والضيعة الواحدة هى مقابل الفيلا (Villa) فى النظم الرومانية ، والضياع الكثيرة المتجاورة تقابل اللاتيفونديوم (Latifundium) . وإذا كانت النصوص تدل على أن نظام الضِّياع استمر فى الأندلس واتسع مداه ، كما كان الحال فى المشرق أيضاً ، إلا أننا لا نملك ما يدل على بقاء نظام الملكيات الشاسعة (Latifundia) وربما لاحظنا تشابهاً بين الفيلا ، وهى القصر الريفى تحيط به ضيعة أو ضياع واسعة يملكها صاحب القصر ، ومصطلح « المُنية » الذى كان شائعاً فى الأندلس . فتعريف المنية عندهم قريب من تعريف الفيلا ، ولكن هناك فرقاً واضحاً بين الضِّياع والمنيات ، فالضياع قرى تصير إلى ملك مالك كبير وربما أقام فيها ، فى حين أن المنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفى ينشئه المالك الكبير ، ولكن كليهما من حيث الهيئة والوضع يقابل الفيلات الرومانية ، ومعروف أن هذه الفيلات أيضاً كانت تختلف فيما بينها ، ففيها ما يشبه الضياع وفيها ما يشبه المنيات .

٢٧٩ - الفحص وهناك مصطلح آخر تحسن الإشارة إليه فيما ذكرنا من مصطلحات جغرافية إدارية ، وهو مصطلح « الفحص » وهو كثير الاستعمال فى المغرب أيضاً حتى يبدو لنا أن أصله مغربى ، وقد وضع ياقوت تعريفاً للفحص، قال: « وسألت بعض أهل الأندلس : ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يُسكَن - سهلاً كان أو جبلاً ، بشرط أن يزرع - نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع »[٢] وكانت الفحوص فى الأندلس كثيرة ، ومعظمها أقاليم فى كور ومدن ، فيقال إقليم الفحص من أعمال طليطلة أو من أعمال أكشونبة أو إشبيلية . وأكبرها فحص البلوط الذى أصبح كورة فيما بعد .

* * *

(١) الروض المعطار ، ص٣٧ .

(٢) ياقوت ، مادة فحص .

وقد يكون بعض الحقائق التى ذكرناها قد وقع فيما بعد ، ولكننا كما ذكرنا نؤرخ لنظام بدون تاريخ ، لم يذكر واحد من مراجعنا متى وُضع أو متى عُدل ، فلم يبق إلا أن نذكر ما لدينا من المعلومات مطلقة حتى تعيننا أصول جديدة على مزيد من التوضيح . وإذا كان الرأى الذى ذهبنا إليه ، فيما يتصل بأصول هذه الأنظمة ، أن العرب أخذوها مما وجدوه جارياً لدى دخولهم ، فليس هناك ما يمنع من القول بأن معظم ما أثبتناه من النظم حدث أثناء فترة الولاة التى نتحدث عنها ، ثم دخله الضبط والترتيب والتفصيل والتدقيق فيما بعد.

٢٨٠ - المشيخة والكوريا وقد بيّنا كيف كانت هذه النظم فريدة فى بابها فى العالم الإسلامى كله ، ومن الطبيعى أن ينسحب هذا الحكم على ما بُنى عليها ، فإذا قلنا إن دخول العرب أحيى المدن التى كانت تتلاشى رويداً رويداً فى الأندلس قبلهم ، وأن ذلك الإحياء استتبع انتعاش مشيخات البلاد أو الكوريات الرومانية المدنية القديمة ، فقد انبنى على ذلك تعميم فكرة المشيخات أو المجالس على كثير من النظم الإسلامية فى الأندلس ، مما أدى إلى ظهور هيئات خاصة بالأندلس كهيئة « الفقهاء المشاورين » وجماعة الوزراء وما إلى ذلك مما جدَّ بعد الفترة التى نؤرخ لها من النظم .

ذلك أن لفظ مشيخة كان له معنى خاص فى الأندلس ، فالمشيخة فى المشرق هى الرياسة أو هى الوظيفة أو الأستاذية ، فيقولون مثلاً إن فلاناً « تولى مشيخة دار الحديث» أو «مشيخة الحديث بتربة أم صالح ومشيخة الرباط الناصرى ومشيخة المالكية » أو « ولى مشيخة المدرسة بالقدس ، ومشيخة الرباط الناصرى بالجبل » أو « برع فى النحو وانتهت إليه المشيخة » ، أما فى الغرب الإسلامى فكان له معنى المجلس أو الجماعة ، قال ابن خلدون : «واستبد مشيخة كل بلد بأمره » أو « وكانت مشيختها فى القديم فى بنى ورمان من أهلها بما كاثروا ساكنها وملكوا عامة ضياعها ، وكان مشيخة قابس لذلك العهد فى بيوتات من أهلها» . والمعنى فى هذه النصوص واضح ، فهو الجماعة من أعيان الناس يتولون أمر البلد .

ويفسر دوزى معنى المشيخة هنا بأنه « الحق الذى كان لعدد من الأسر الكبيرة فى أن تؤلف مجلساً بلدياً لحكم البلد أو مجلساً جمهورياً » ، بل إن الكلمة وردت بمعنى المجلس البلدى أو أعضائه ، وذكر بطرس الكلاعى Pedro de Alcalá فى قاموسه أن الشيخ هو

العضو فى مجلس البلد (Jurado en la cibdad) والمشيخة هى الطائفة [1] . وهذه كلها معان لم تُعرف إلا فى المغرب والأندلس ، وفى هذا الأخير خاصة ، وثابت على أى حال أن العرب عندما قضوا على سلطان القوط عقدوا مع أهل كل بلد استسلم لهم عقداً أو معاهدة ، وكان التعاقد يتم مع الكوريا القديمة ، وترجمها العرب إلى المشيخة ، وكانت هذه المعاهدات سبباً فى إحياء مشيخات البلاد ، فأصبح فى كل بلد مشيخة من أهله هى التى تتخاطب مع العرب وتضمن لهم الأمن والأموال ، فنشطت المشيخات وانتظم أمرها ، وعندما أسلم أهل البلاد احتفظوا بمجالسهم وهى مشيخاتهم ، ومن هنا كان للمدن فى الأندلس نظام بلدى يرعى شئونها وشئون أهلها ، وثبتت صلاحية هذا النظام فامتد حتى شمل الحرف ، فأصبح لأهل كل حرفة مشيخة أو مجلس ، ونشأت مشيخة الفقهاء ، وهى جماعة من الفقهاء يتخذهم الأمراء والخلفاء مستشارين وسموا « الفقهاء المشاورين » ، ووزعت اختصاصات الوزير بين نفر من الوزراء كان لهم مجلس .

٢٨١ - انفصال العرب عن أهل البلاد أول الأمر

وظاهر من النصوص أن أهل البلاد من النصارى واليهود عاشوا أول الأمر منفصلين عن العرب ، مستقلين بحكومة أنفسهم ، وكان لهم رئيس أعلى يسميه ابن حيان « قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين » [2] . أى أنه هو الذى كان يتصل بأهل الذمة ويستخرج ما عليهم من الأموال ويؤديها للحكومة المركزية . وكان تعامُله مع مشيخات البلاد ، أى أن كل مشيخة كانت تجمع ضرائب بلدها وتؤديها إلى القومس . وقد أشرنا فيما سبق إلى حكومة البلد وذكرنا بعض ما عثرنا عليه من ألقاب موظفيها . وقد أقام العرب لكل ناحية حاكماً من المسلمين ، فأما حاكم الكورة فكان يسمى العامل أو الوالى ، وأما حاكم المدينة ذات الحوز فكان يسمى القائد ، لأنه كان يُختار من العسكريين لأن هذه المدن كانت كلها ثغوراً أو مناطق عسكرية على ما قلناه ، وكان حوز الكورة أو المدينة يسمى العمل أو النظر أو الولاية أو الحوز .

أما العرب فقد عاشوا أول الأمر مستقلين بأنفسهم ، سواء من نزل منهم المدن أو من عاش منهم فى الريف ، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب فى الإحاطة بنص رواه عن ابن حيان

(١) انظر دوزى : ملحق القواميس ، مادة شيخ ، جـ١ ، ص٨٠٩ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة (طبعة محمد عبد الله عنان) الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص١٠٩ .

والرازى يوضح أحوال المسلمين من عرب وبربر تمام التوضيح ، ونحن نورده هنا بنصه مع تقسيمه إلى فقرات زيادة فى البيان :

١ - « قال أبو مروان (بن حيان) : أشار على أبى الخطار أرطباس قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين - وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء - لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين الغالبين [١] على البلد ، من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور على شبه منازلهم التى كانت فى كور شامهم .

٢ - ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ؛ فهذه منازل العرب الشاميين [٢] .

٣ - وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة .

٤ - وبقى العرب البلديون والبرابرة شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على غنائمهم [٣] لم يعرض لهم فى شىء منها.

٥ - فلما رأوا (يعنى العرب الشاميين) بلداناً شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه موضعاً رصيناً فإنه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ، فإذا كان العطاء أو حضر الغزو لحق [٤] بجنده ، وهم الذين كانوا سموا الشاذة [٥] حينئذ .

٦ - قال أحمد بن موسى [الرازى] [٦] : وكان الخليفة يعقد [للشاميين] لواءين : لواء غازياً ولواء مقيماً .

(١) قرأها محمد عبد الله عنان : العَلَميين ، وشرحها فى الهامش بأنها نسبة إلى علم مكان بالشام ، ولا محل لذلك التكلف لأن صحتها الغالبين كما أثبتناه .

(٢) النص هنا ناقص وغير دقيق ، وصحته ما أورده ابن عذارى إذ قال إن أبا الخطار أنزل أهل دمشق بإلبيرة ، وأهل الأردن بريُّه ، وأهل فلسطين بشذونة ، وأهل حمص بإشبيلية ، وأهل قنسرين بجيان ، وأهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير .

انظر ابن عذارى : البيان ، طبعة ليفى بروفنسال وكولان ، ليدن ١٩٥١ ، ص٣٣ .

(٣) أثبتها محمد عبد الله عنان : عنائهم ، وهى قراءة لا يستقيم بها المعنى ، والصحيح ما أثبتناه . وسنفصل فيما يلى كيف اعتبر جند الأندلس الأرض غنيمة بخلاف ما يقضى به تشريع عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٤) أثبتها عنان : ولحق بجنده ، والواو زائدة .

(٥) أثبتها عنان : الشادة بالدال ، وهو خطأ . راجع دوزى : ملحق القواميس ، مادة شاذ ، جـ١ ، ص٧٣٩ .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين من عندنا ، لأن المراد أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، لا أحمد بن موسى العدوى الذى ذكره عنان فى الهامش نقلاً عن كشف الظنون .

وكان رزق الغازى بلوائه (أى صاحب اللواء) ٢٠٠ دينار ويبقى المقيم (أى صاحب اللواء المقيم) بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال (صاحب اللواء) بنظيره من أهله أو غيرهم .

٧ - وكان الغـزاة من الشاميين ، مثـل إخـوة المعهـود له (أى صـاحب لوائهـم) أو بنيه أو بنى عمه يرزقون عند انقضاء غزاته ١٠ دنانير .

٨ - وكان يعقد المعقود له (أى صـاحب اللواء) مع القائد (أى قائـد الجيش المركزى ، ومعنى يعقد له أن يتعهد له) يتكشف عمن غزا ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تكرمة له .

٩ - وكانت خـدمتهم (أى خـدمة الشاميين) فى العسكر (أى الجـيش العـام للـدولة) واعتراضهم إليه (أى أن قيادة الجيش هى التى كانت تستعرضهم قبل الخروج) .

١٠ - ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد (أى من غير بيوتات أصحاب الألوية) ارتزاق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو .

١١ - ولم يكن يعطَى أحد من البلديين شيئاً غير المعقود له .

١٢ - وكان البلديون أيضاً يعقد لهم لواءان : لواء غازٍ ولواء مقيم .

١٣ - وكان يرتزق الغازى [بلوائه] مائة دينار وازنة . وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر، ثم يدال بنظيره من غيرهم .

١٤ - ولم يكن الديوان والكتبة إلا فى الشاميين خاصة .

١٥ - وكانوا أحراراً من العُشر ، معدين للغزو .

١٦ - ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التى كانت بأيديهم .

١٧ - وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد (= أهل البلاد).

١٨ - وكان أهل بيوتـات منهم (أى من أهل البـلاد) يغزون كما يغزو الشـاميون ، بـلا عطاء ، فيسير بهم إلى ما تقدم ذكره ؛ وإنما كان يكتب أهل البلد فى الغزو .

١٩ - وكان الخليفة يخرج عسكرين إلى ناحيتين .

٢٠ - فيستتر بهم (أى يستعين بالمقيدين من أهل البلاد فى الغزو ليحتمى بهم أثناء غياب العسكرَين الرسميين فى الغزو) .

٢١ – وكانت طائفة ثالثة يسمون « النظراء » من الشاميين والبلديين ، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين »(١) .

وهذا نص واضح مفصل يلقى ضوءاً على أسلوب حياة العرب ووظيفتهم فى المجتمع الأندلسى . وأهم ما يعنينا منه هو أن جماعات العرب انتشرت فى البلاد ونزلت النواحى وملكت الأرض ، وكثرت وتمولت . وغالبية هؤلاء من البلديين ، أما الشاميون فقد كانت لهم الصدارة ، كانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتبة فيه ، وكان عليهم أن يقدموا للجيش المركزى لواءين ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الأهبة ، واللواء الغازى لا يقيم فى الغزو إلا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثانى ، وكان لكل لواء أمير يرزق ٢٠٠ دينار عن كل غزوة ، أما الجند وأقارب صاحب اللواء فكان الواحد منهم يُرزق عشرة دنانير فى نهاية كل غزوة . وكانوا فى مقابل هذه الخدمة الحربية المستمرة يعفون من أداء العُشر ، ويستولون على ثلث أموال من نزلوا بأرضهم من أهل البلاد . أى أن الدولة منحتهم حق ملكية ثلث هذه الأموال . فإذا ذكرنا أن القوط أيضاً كانوا يستولون على ثلث الأموال فى مقابل الخدمة العسكرية ، تبينا أن أولئك الشاميين حلوا فى الواقع محل القوط فى وضعهم وحقوقهم . وإقطاع المحاربين الثلث عُرْف غير إسلامى ، وإنما هو استمرار لتقاليد القوط مع خلاف واضح استتبعته العدالة الإسلامية ، فإن القوطى كان يستولى على الثلثين(Sors - Sortes) ويترك لأهل البلد الثلث (Tercia) ، أما العرب فلم يسمحوا للمحارب منهم بغير الثلث وتركوا الثلثين لأهل البلاد .

أما العرب البلديون – وهم القدامى من اليمنين والشامين ، ومعظمهم من اليمنين – فقد اختلطوا بأهل البلاد وزرعوا وحصدوا وسقط عنهم التكليف العسكرى ، غير أنهم كانوا يستطيعون الانخراط فى ألوية خاصة بهم ، ولا يقدر عطاء إلا لرؤسائهم أصحاب ألويتهم ، أما المقاتلون منهم فلم يكونوا يعطون شيئاً ، وحسبهم ما كانوا يحصلون عليه من غنيمة ، وكانوا يدفعون العشر كغيرهم من زراع أهل البلاد ، فى حين كان الشاميون معفين من العشور ، بالضبط كما كان القوط معفين من الضرائب .

٢٨٢ - اشتراك أهل البلاد فى الجيوش

والإشارة إلى أهل البلاد هنا جديرة بالملاحظة ، والمراد بهم كما قلنا أهل البلاد الأصليون ، فهؤلاء لم يكونوا ملزمين بالغزو بل كان يتطوع منهم من يريد ،

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ص١٠٩ – ١١١ .

ويقيد اسمه فى سجلات المعسكر ولكنهم كانوا لا يرزقون ، شأنهم فى ذلك شأن البربر والعرب البلديين ، وكانت تؤلف منهم قوات احتياطية يستعين بها الحاكم إذا خرجت جيوشه للغزو .

٢٨٣ - التقليد الشامى

والخلاصة أن الشاميين الذين أتوا مع بلج أصبح لهم مركز ممتاز ، فهم رجال الأجناد وأهل الديوان ، وهم لا يدفعون العشور ، أى أن الدولة الإسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجىء طالعة بلج : أصبح أهل الشام أصحابها وذوى المكانة العليا فيها ، وهذا ما يعرف فى تاريخ الأندلس بالتقليد الشامى ، وقد أيد أمراء بنى أمية هذه الشامية على طول تاريخهم ، حتى أن الأمير محمداً رفع الشاميين فوق غيرهم ، وقرر لهم ذلك الامتياز الذى سيحافظون عليه حتى منتصف إمارة عبد الرحمن الناصر على الأقل .

* * *

٢٨٤ - الإدارة المركزية

لا تكاد المراجع التى بأيدينا تقدم لنا شيئاً يعيننا على تكوين صورة تقريبية عن النظام الذى أدار العرب به شئون الأندلس خلال الأربعين سنة التى سبقت قيام الدولة الأموية ، وقد كان من الميسور أن نقول إن الأندلس أدير على النحو الذى أديرت به مصر مثلاً خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، لو كانت لدينا بضع معلومات رئيسية تؤيد القول بأن الأمر فى الأندلس كان كما كان فى غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، ولكن هذه المعلومات الرئيسية ليست بين أيدينا مع الأسف ، حتى الخراج والجزية - وكانا موضع اهتمام مؤرخى الفتوح - لا نجد لهما ذكراً واضحاً فى تواريخ الأندلس التى بين أيدينا ، بل ليس فيها ذكر لقدر الخراج أو نظامه ولو مرة واحدة نستطيع القياس عليها ، ولو أننا قلنا إن الأندلس لم يرسل إلى دار الخلافة خراجه مرة واحدة لما بالغنا ، ويبدو من مجموع ما لدينا من المعلومات أن عرب الأندلس الذين فتحوه أداروه على غير نظام ثابت معروف كما سنرى (١) . وسنورد فيما يلى ما لدينا من البيانات عن الإدارة المركزية .

* * *

(١) اكتفى صاحب « فتح الأندلس » فى بيان سياسة المسلمين فى الأندلس بقوله إن موسى غفت عينه أثناء العبور إلى الأندلس و« رأى موسى النبى ﷺ فبشره بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد للمشركين ... » ، وهذا هو كل ما نجده فى هذا الكتاب عن حكومة المسلمين فى الأندلس فى عهد الولاة !

انظر : « فتح الأندلس » ، ص٥ .

وقد اكتفى نفس المؤلف فى الكلام عن تصرف طارق فى الغنائم بقوله : « وجمع طارق الغنائم وأخرج خمسها، وقسم باقيها » دون أن يذكر لنا ماذا فعل طارق بهذا الخمس - (فتح الأندلس ، ص٧) . ثم أكد بعد ذلك أمر تقسيم الغنائم بين الفاتحين وفصل تلك الغنائم بأنها كانت سبياً ومتاعاً وأرضين ورباعاً (أى بيوتاً) - نفس المصدر ، =

٢٨٥ - نظام الولاية ويبدو اضطراب هذا النظام فى صورة واضحة جداً فى طريقة تولى ولاة الأندلس مناصبهم ، فقد فُتِح الأندلس على يد عامل إفريقية موسى بن نصير : بعث مولى من مواليه البربر هو أبو زرعة طريف فاستطلعها له ، ثم بعث مولى آخر بربرياً هو طارق بن زياد ففتحها ، ثم عبر هو بنفسه فأتم هذا الفتح وأصبح أول ولاتها ، واعتبرت الأندلس جزءاً من المغرب يولى عليها عامل المغرب من يريد من رجاله ، كما اعتبرت أفريقية ولاية تابعة لوالى مصر فى أول أمرها ، ولهذا ترك موسى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى حينما رحل إلى المشرق فى أواخر سنة ٩٥هـ . ولم يثبت الخليفة سليمان بن عبد الملك فى الولاية ، فظل والياً معتمداً على وصاة أبيه له بالحكم .

فلما قتل عبد العزيز بن موسى انفرد جند الأندلس بإقامة واليهم ، فأقاموا أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير : لم يولّه والى إفريقية ولا الخليفة سليمان بن عبد الملك أيضاً ، ويُفهم من النصوص أن البربر كانوا أصحاب اليد الطولى فى قيامه بالولاية .

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يصحح هذا الوضع الشاذ ، فقرر أن يعيد هذا الحق إلى والى إفريقية ، فلما ولى على إفريقية محمد بن يزيد عجل هذا فبعث إليها الحُر بن عبد الرحمن ، ويبدو أن الحر أحس أن عرب الأندلس سيعارضون فى ولايته وسيدافعون عن هذا الحق الذى كسبوه لأنفسهم ، فاستصحب معه أربعمائة من وجوه إفريقية ليؤيدوه ، وقد قبله أهل الأندلس دون مقاومة ، ولم يكد المقام يستقر به حتى عجل بنقل دار الإمارة من إشبيلية إلى قرطبة ، وربما كان دافعه إلى هذا رغبته فى الابتعاد عن جماعات العرب التى استقرت فى إشبيلية وكثرت فيها ، ورغبته فى أن يكون بموضع أقرب إلى الجزيرة الخضراء والمغرب من إشبيلية ، ولم يكن دافعه مجرد الرغبة فى جعل دار الإمارة بمكان يتوسط شبه الجزيرة كما تقول المراجع ، لأن قرطبة ليست فى وسط الجزيرة على أى حال .

ولم تَطُلْ ولاية الحر على الأندلس أكثر من سنتين وثمانية أشهر (ذو الحجة ٩٧ - رمضان ١٠٠هـ / أغسطس ٧١٦ - مارس - أبريل ٧١٩م) لم يستطع خلالها أن يقوم بأمر ذى بال.

= ص١٣ . وبلغ من اضطراب أخبار مصير خمس الدولة من المغانم أن ذهب نفس المؤلف إلى أن هشام بن عبد الملك وهبها لحفيده عبد الرحمن (كذا) فأرسل هذا من لدنه نائباً عنه ليجمعها له ، وتلك أسطورة من غير ريب ، يغلب أنها ظهرت بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية - (فتح ، ص١٥) .

٢٨٦ - تفكير الخلافة فى إخلاء الأندلس

فإذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وجدنا أنفسنا أمام أمر غريب لم نسمع بمثله فى بلد آخر مما فتح المسلمون ، وهو رغبة الخلافة فى إخلاء الأندلس واسترجاع العرب منها ، ولو ورد لنا هذا فى مرجع واحد لما علقنا عليه أهمية كبيرة ، ولكن إجماع المراجع على ذكره يجعلنا نفكر فى البواعث التى حدت بعمر بن عبد العزيز إلى التفكير فيه ، وهو المتحمس للإسلام الراغب فى بسط رواقه وإدخال الناس كلهم فى رحابه . ولا شك فى أن دافعه إلى ذلك كان إحساسه بأن أحوال المسلمين فى الأندلس ليست على ما يرام ، وأن مستقبل الإسلام فى هذا البلد القصى لا ينبىء بخير كثير ، ويبدو أن غرض عمر بن عبد العزيز الأول من إرسال السمح كان استطلاع أمر البلاد ، مما يدلنا على أن أخبار الأندلس كانت طوال الفترة الماضية منقطعة تماماً عن مركز الخلافة ، وأن عمر ابن عبد العزيز لم يكن يعرف عنها شيئاً ، ولم يكن يصل إليه شىء من أموالها ، ولهذا « أمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غُلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها ، وكان رأيه نقل المسلمين منها ونقلهم عنها ، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها ، فأضرب عن ذلك »(١) .

بيد أن ارتباط فكرة إخلاء الأندلس بمجىء السمح وأمره بتخميس ما غُلب عليه من أرضها يلقى على الموضوع شعاعاً من النور ، ويُفهمنا أن الأندلس لم يكن قد تم تخميسه إلى ذلك الحين ، ولم يكن قد بعث إلى دمشق بشىء من أمواله ، فلا عجب أن وقر فى أذهان الخلفاء أنه بلد لا خير للمسلمين فيه وليس لهم بين رحابه بقاء فأرادوا إخلاءه . ثم إن أمر المسلمين لم يستقر فيه خلال الولايات الثلاث الماضية على نحو يبعث على الأمل فى صلاح مستقبله . فقد حاول عبد العزيز بن موسى الوثوب بالخلافة ، ووقع بينه وبين عرب الأندلس خلاف شديد ، فلما قتل قدم البربر على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير ، فكان فى توليته على هذا النحو ما أثار مخاوف الخلافة ، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، ولم يوله سليمان وإنما ولاه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ، فلم يظهر كفاءة خاصة ؛ وكانت البلاد فى حاجة إلى من يرتب أمورها ويضع أسس الإدارة العربية فيها ، ووجدت الخلافة نفسها بين أمرين فى شأن الأندلس : إما إخلائه أو تنظيمه ، فلما استبانت صعوبة الأمر الأول لم يبق إلا المضى فى الثانى .

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٢٥ .

وستحدث عن أعمال عمر بن عبد العزيز الإدارية فى فقرة تالية ، وإنما يكفى أن نذكر هنا فى حديثنا عن نظام الولاية ، أن السمح كان أول وال تقيمه الخلافة على الأندلس ، وأن عمر بن عبد العزيز حين استقر رأيه على المضى فى تعمير الأندلس ، لم يعهد إلى واليه السمح ابن مالك فى روك البلد وإحصاء أراضيه وتنظيم أموره على أسس الشريعة ، بل ندب لذلك مولىً من مواليه تسميه المراجع « جابراً » نستطيع القول إن الخلافة اعتبرته عامل خراج للأندلس ، وفصلت بذلك شئون الخراج عن الولاية العامة ، ولم يتح لجابر هذا أن يستمر فى مهمته ، فقد رفع يده عن التخميس بمجرد أن وصله نبأ موت عمر بن عبد العزيز ، ولم تلبث ولاية السمح نفسه أن انتهت ، إذ قتل على ما رويناه وعادت الأندلس إلى التبعية لإفريقية ، وقد حاول جند الأندلس انتزاع هذا الحق من عمال إفريقية ، فأقاموا عبد الرحمن الغافقى والياً ، وكانت تلك هى ولايته الأولى ولكنها لم تدم إذ أن بشر بن صفوان عامل المغرب ولى أحد رجاله - وهو عنبسة بن سحيم - على الأندلس .

ولم يجر الأمر على التبعية المطلقة للمغرب بعد ذلك ، لأن عرب الأندلس لم يدعوا فرصة تُمكِّنهم من استعادة هذا الحق إلا انتهزوها ، فحينما مات عنبسة (شعبان ١٠٧هـ / فبراير - مارس ٧٢٦م) عجلوا بإقامة أحد رجالهم وهو عُذرة بن عبد الله الفهرى ، ولم تدم ولايته أكثر من شهرين ، لأن بشر بن صفوان عامل إفريقية عجل بإرسال يحيى بن سلامة عاملاً على الأندلس فى شعبان من نفس السنة ، ولم تزد ولاية يحيى بن سلامة على سنتين وستة أشهر على أوسع الفروض ، إذ عزله والى المغرب الجديد عبيدة بن عبد الرحمن واستبدل به أحد رجاله وهو حذيفة بن الأحوص القيسى (ربيع الأول ١١٠هـ / يونيو - يوليو ٧٢٨م)(١) .

ولم تطل ولاية حذيفة إلا أشهراً ، إذ خلفه عثمان بن أبى نسعة الخثعمى (فى شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨م) وكذلك وقع للواليين اللذين خلفاه وهما الهيثم بن عبيد الكلابى ومحمد بن عبد الله الأشجعى ، فلم تطل ولاية هؤلاء الأربعة عن سنة وخمسة أشهر (شعبان ١١٠ - صفر ١١٢ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ - مارس - أبريل ٧٣٠) . وقد ولاهم جميعاً عمال إفريقية ، حتى عبد الرحمن الغافقى الذى أتى بعدهم فقد كان لابد أن يقر عبيدة بن عبد الرحمن ولايته رغم ما كان بينهما من خلاف (٢) .

(١) انظر ثبت الولاة الذى ذيل به لافوينتى إى ألكانترا ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص٢٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وحينما استشهد عبد الرحمن الغافقى (رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢م) ولّى جند الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهرى ، وقد أقر عامل إفريقية هذا الاختيار، ولكن عبيد الله بن الحبحاب لم يلبث أن عزله بُعيد ولايته على المغرب وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى . ولا نزاع فى أن عرب الأندلس - واليمنيين منهم بوجه خاص - لم يرضوا عن ذلك الإجراء ، فلم يزالوا يرقبون الفرصة حتى إذا سنحت لهم باشتغال عبيد الله بن الحبحاب بثورة البربر فى إفريقية عجلوا فوثبوا بعقبة[١] ، ويقال إن عقبة أوصى لعبد الملك ابن قطن قبل موته ، ومهما يكن من الأمر فقد تولى عبد الملك بن قطن للمرة الثانية بإرادة جند الأندلس .

ولم يتدخل عمال إفريقية ولا الخلفاء فى تولية عمال الأندلس من ذلك الحين إلى قدوم أبى الخطار ، فقد وثب بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن ، وزعم أن هشام بن عبد الملك أوصى له بالولاية وهو زعم لا نملك ما يؤيده ، وخلفه ثعلبة بن سلامة بإرادة القيسيين ، ولم يعد الأمر إلى عمال أفريقية إلا فى رجب سنة ١٢٧هـ / أبريل ٧٤٥م حينما أتيح لحنظلة بن صفوان عامل أفريقية أن يولى على الأندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى (رجب ١٢٥هـ / مايو ٧٤٣م) .

ولا نزاع فى أن أبا الخطار كان يتوقع معارضة القيسيين فى ولايته ولهذا سار إلى الأندلس شبه مستخف ، وكان معه ثلاثون رجلاً من الشاميين أراد أن يستعين بهم على بنى عمومتهم ، وكان لواؤه فى سِنٍّ داخل عيبته ، فلما نزل على وادى شوش أصلح من شأنه وركب السن باللواء فى القناة ، ثم تقدم . فلما أشرف من فج المائدة ، والحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ، ونظر الفريقان إلى اللواء حلوا الحرب وأسرع كل واحد من الفريقين إليه ، فقال لهم : « تسمعون وتطيعون ؟ فقالوا : نعم ..» [٢] . وقد سمعوا بالفعل وأطاعوا أبا الخطار الذى أتاهم بسجل حنظلة بن صفوان بعهد أمير المؤمنين هشام إليه ، ولكن طاعتهم لم تطل إلا ريثما استبانوا فى أبى الخطار بعض الميل إلى اليمنية فانقلبوا عليه وقتلوه ، وصار الأمر إلى يوسف الفهرى والصميل ، ولا زالا فيه حتى انتزعه منهما عبد الرحمن الداخل .

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص١٤ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص١٩ .

لم تسر الولاية فى الأندلس إذن على قاعدة واحدة ، بل كانت فى يد الخلافة المركزية حيناً ، وبيد عمال المغرب حيناً آخر ، وبيد مسلمى الأندلس أنفسهم فى معظم الأحيان ، وكان هذا مظهراً من مظاهر الاضطراب الإدارى الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

ولسنا نستطيع أن نتعرف مدى السلطان الذى تمتع به كل واحد من هؤلاء الولاة ، فمن الثابت أن قيادة الجند كانت بأيديهم ، وأنهم كانوا يولون القضاة كذلك ، ولكن سلطانهم على مسائل الخراج موضع شك كبير ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أننا لم نسمع عن عامل خاص بالخراج والجباية إلا فى حالتين : حالة جابر الذى تحدثنا عنه ، وحالة رجل يسمى أبا عثمان بن عبد الله « صاحب أزمَّة الأرض والخراج »[١] ، وربما جاز أن نقول إن شئون الخراج كانت بيد عمال الأندلس فكانوا يولونه من يشاءون ، وسنرى أن شئون المال كانت ترزح تحت خلل شديد .

ولما كنا لم نسمع عن إرسال خراج من الأندلس إلى أفريقية أو إلى المشرق ، فالغالب أن عامل الأندلس كان ينفق بعضه على أجناده ويحتفظ بالباقى لنفسه : إما لينفق منه على الحملات والمرافق العامة أو لشئونه الخاصة .

ولم يرد فى النصوص ذكر لبيت المال ، أو صاحب بيت المال ، وحتى فى المناسبات التى كان الوالى يُخرج فيها بعض المال لشئون الجند ، نجده يخرجه من عند نفسه لا من بيت المال ، مما يدل على أن عمال الأندلس لم يحفلوا بإنشاء إدارة خاصة لشئون الخراج .

ولم يمتد سلطان الوالى على عرب الأندلس أجمعين إلا فى النادر ، وكانت هناك دائماً جماعات كبيرة خارجة عن سلطانه بنواحيها ، ولم يزد سلطانه فى أيام يوسف الفهرى على إقليم قرطبة ، وقد أدى ذلك إلى قلة ما لديه من المال ، فهبط سلطان الوالى على البلاد خلال السنوات العشر التى سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل هبوطاً بالغاً .

وكان جهد الولاة الأول - قبل اندلاع نيران الثورة البربرية واشتداد منازعات العصبية - منصرفاً إلى إتمام الفتح ، ومواصلة الغزوات فيما وراء البرانس ، وكان هذا هو عمل الولاة الأوّل حتى نهاية ولاية عقبة بن الحجاج السلولى[٢] ، ثم انصرف عرب الأندلس عن ذلك

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) LÈVI - PROVENÇAL. Hist. de l'Espagne Musulmane, I. p. 28.

انصرافاً تاماً تقريباً ، ولم يعد أمراء الأندلس إلى الغزو إلا بعد أن قامت الإمارة الأموية على يدى عبد الرحمن الداخل .

أما اهتمام الولاة بشئون المرافق العامة فلم نسمع عنه إلا فى مناسبة واحدة ، وذلك أثناء ولاية السمح بن مالك القصيرة ، فقد ابتنى قنطرة قرطبة على الوادى الكبير بناء حسناً أورد خبره صاحب « فتح الأندلس » بتفصيل لا بأس من إيراده فقال : « وقال ابن مفرج فى تاريخه : أصاب المسلمون إذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجارى على عدة حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الماضية الداثرة ، لم يبق منها إلا رسوم ، ولا يصل الناس إلى قرطبة إلا فى السفن، فيلقون فى ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى المدعو بها »[1] ، وهذا هو المرفق الوحيد الذى حرص ولاة هذه الفترة على الاهتمام به ، إذا استثنينا جبانة قرطبة التى أنشئت فى زمن السمح بن مالك أيضاً[2] .

٢٨٧ - ثبت بولاة الأندلس ونختم كلامنا عن عصر الولاة بثبت بولاة الأندلس من لدن الفتح إلى قيام دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل :

١ - طارق بن زياد

من رجب ٩٢هـ / أبريل - مايو ٧١١م إلى رمضان ٩٣هـ / يونيو ٧١٢م

٢ - موسى بن نصير

من رمضان ٩٣هـ / يونيو ٧١٢م إلى صفر ٩٥هـ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م

٣ - عبد العزيز بن موسى

من صفر ٩٥هـ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م إلى رجب ٩٧هـ / مارس ٧١٦م

٤ - أيوب بن حبيب اللخمى

بعد شهور من مقتل عبد العزيز إلى ذى الحجة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .
والأخبار المجموعة ، ص٢٤ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص٢٥ .

٥ - الحُر بن عبد الرحمن الثقفى

من ذى الحجة ٩٧ / أغسطس ٧١٦ - إلى رمضان ١٠٠ / مارس - أبريل ٧١٩

٦ - السمح بن مالك الخولانى

من رمضان ١٠٠ / مارس - أبريل ٧١٩ إلى ذى الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١

٧ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (المرة الأولى)

من ذى الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١ - صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١

٨ - عنبسة بن سحيم الكلبى

من صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١ إلى شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦

٩ - عُذرة بن عبد الله الفهرى

من شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦ إلى شوال ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦

١٠ - يحيى بن سلامة العاملى الكلبى

من شوال ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦ إلى ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨

١١ - حُذيفة بن الأحوص القيسى

من ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨ إلى شعبان ١١٠/ نوفمبر - ديسمبر٧٢٨

١٢ - عثمان بن أبى نسعة الخثعمى

من شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ إلى المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩

١٣ - الهيثم بن عبيد الكلابى

من المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩ إلى ذى القعدة ١١١ / يناير - فبراير ٧٣٠

١٤ - محمد بن عبد الله الأشجعى

من ذى القعدة ١١١ / يناير - فبراير ٧٣٠ إلى صفر ١١٢ / مارس - أبريل ٧٣٠

١٥ - عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (المرة الثانية)

صفر ١١٢ / مارس - أبريل ٧٣٠ إلى رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢

١٦ - عبد الملك بن قَطن الفهرى (المرة الأولى)

من رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ - شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤

١٧ - عقبة بن الحجاج السَّلولى

من شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤ / صفر ١٢٣ إلى يناير ٧٤١

١٨ - عبد الملك بن قطن الفهرى (المرة الثانية)

من صفر ١٢٣ / يناير ٧٤١ إلى ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١

١٩ - بلج بن بشر القُشَيْرى

من ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ إلى شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢

٢٠ - ثعلبة بن سلامة العاملى

من شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢ إلى رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣

٢١ - أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى

من رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣ إلى رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥

٢٢ - ثوابة بن سلامة الجذامى

من رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ إلى المحرم ١٢٩ / سبتمبر - أكتوبر ٧٤٦

أعقبت موته أربعة أشهر من الاضطراب تولى الأمر خلالها عبد الرحمن بن كثير اللخمى دون ولاية

٢٣ - يوسف بن عبد الرحمن الفهرى

(بالاشتراك مع الصميل بن حاتم)

من ربيع الثانى ١٢٩ / ديسمبر ٧٤٦ ويناير ٧٤٧ إلى ١٠ ذى الحجة ١٣٨ / ١٤ مايو ٧٥٦.

وهو تاريخ بدء إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

* * *

٢٨٨ - الناحية المالية بيد أن عقدة العقد فى تاريخ عصر الولاة هى ناحية الخراج وتوزيع الأرض، وبين المراجع خلاف شديد حول هذا الموضوع ، والواقع الذى نستطيع استخلاصه من مجرى الحوادث هو أن هذه الناحية كانت مضطربة فى الأندلس اضطراباً شديداً ، وأن ولاة الأندلس لم يستطيعوا أن يخضعوا أرض شبه الجزيرة وعقارها للقواعد التى تقررها الشريعة للأرضين والعقارات فى البلاد المفتوحة ، هذا على الرغم من أن موسى ابن نصير قد حاول ذلك على أول الفتح ثم حاد عن النظم التى وضعها وأساء التصرف فى الأموال ، وكان هذا من أسباب نكبته ، وكان كذلك من أسباب البلاء فى الأندلس فيما بعد ، لأنها لم ترزق بعد ذلك بوالٍ أتاحت له مواهبه وظروفه إعادة الأمور إلى نصابها الذى كان ينبغى أن تكون عليه ، حتى قامت الدولة الأموية .

٢٨٩ - أسس النظام المالى فى الأندلس برواية محمد بن مزين وإليك أسس النظام المالى كما قررها موسى بن نصير بين يدى الفتح ، «قال محمد [بن مزين] : وحين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى ابن نصير البكرى التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سَبْيها وسائر مغانمها ، وأخرج من أرضها ورباعها الخمس كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل والسبى (كذا ، ولعل صحتها كبار السبى) ووخش الرقيق فى الخمس من الأرضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس، وأولادهم بنو الأخماس . قال : وأما سائر الناس النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، فى أرض الثمر وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتُدى به ﷺ بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضيهم .. »(١) .

وهى عبارة يُفهم منها أن موسى بن نصير اعتبر الأندلس ، ما عدا نواحى الشمال ، قد

(١) راجع نص محمد بن مزين الذى نشره دوزى كملحق لمباحثه .

Dozy, Recherches. I. Appendix pp. III - VI.

ويلاحظ أن هذه القطعة مأخوذة من الرسالة الشريفية ، وهى قطعة من « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » للغسانى ، كما سنرى بعد قليل .

وانظر عن محمد بن مزين :

Dozy, Scrip. Ar. Loci de Abbad. II. 123.

فُتِحت عنوة ، فأخذ خمسها لبيت المال ووزع الباقى بين الفاتحين ، وأخذ جزءاً من خمس السبى فبعث به إلى الوليد بن عبد الملك وأطلق الباقى فى أرض الخمس ليزرعوه وليثلث مال المسلمين ، وهى عبارة غامضة لا يفهم المراد منها بالضبط : هل تركهم على أن يؤدوا ثلث المحصول أو ثلثيه للمسلمين ؟ ولم يعين لنا النص أرض الخمس هذه ، وربما استطعنا تحديدها على وجه تقريبى مستعينين بما سنورد من النصوص القليلة التى عثرنا عليها .

وأما إشارته إلى الأراضى التى تُرِكَت بين يدى أهلها على شرط أداء الجزية عنها فإشارة لا تكاد تغنى ، لأنه يقرر أنها أرض « سائر النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة ، والجبال الشامخة .. بأرض الشمال » ، فأى أرض شمال[1] ؟ وهل لم تكن فى غير الشمال بلاد فتحت صلحاً على الإطلاق ؟

ثم يعود محمد بن مزين فيوضح ما قاله بعض الشىء ويقول : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصيَّرت ملكاً لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد هى شنترين وقلنبرية فى الغرب وشية (Xea) فى الشرق ، وسائر البلاد خُمِّست وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير » أى أن هذا التقسيم لم ينطبق إلا على النواحى التى فُتِحَتْ بالسيف (عدا النواحى الثلاث المذكورة) . أما ما فُتِح صلحاً فقد تركه بيد أصحابه على أن يؤدوا الجزية ، ويعود فيناقض نفسه ويقول : « فقال بعض علماء السلف بأرض الأندلس أن أكثرها إنما فتح صلحاً إلا الأقل من مواضع معروفة ، وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح ، وكذلك بقى الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم » أى أن الذى فُتِح عنوة وخُمس وقسم باقيه بين

(١) وردت هذه العبارة مفسرة بعض التفسير فى الرسالة الشريفية كما يلى : « قال محمد بن مزين : وجدت فى خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربعمائة أيام الراضى بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سماه بكتاب الرايات ... وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على أجزاء منها مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقْتُدى به ﷺ بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضيهم...» - الرسالة الشريفية ص١٩٩ .

و« الرسالة الشريفية » مخطوط صغير عثر عليه خليان ريبيرا ونشره ذيلاً على « تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية» (مدريد ١٩٥٦) ، ص١٨٩ وما يليها تحت عنوان « نبذة من أخبار فتح الأندلس ، وهى مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية » ، ثم تبين فيما بعد أن هذه الرسالة هى الكتاب المعروف باسم « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » لمحمد ابن عبد الوهاب الغسانى (وزير مولاى إسماعيل وسفيره إلى كارلص الثانى ملك إسبانيا عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠ - ١٦٩١م . توفى فى زنقة الرطل من فاس القرويين عام ١١١٩هـ - ١٧٠٨م) . نشرها الفريد البستانى فى تطوان سنة ١٩٥١ . وتُعرف هذه أيضاً بالرسالة الشريفية ، والجزء الذى نشره ريبيرا منها يبدأ فى ص ١٠٧ من طبعة الفريد البستانى.

الفاتحين كان قليلاً جداً ، وأما بقية المفتوح من أرض الأندلس فقد ترك لأصحابه من أهل البلاد يفعلون به ما يشاءون على أن يؤدوا عنه الخراج ، وكذلك كان حال بعض أرض الشمال التى صالح عليها أهلها .

ثم يذكر بعد ذلك أن النواحى التى فُتِحت صلحاً وتُركت بيد أهلها توارثها أصحابها ، وأن المسلمين صالحوهم على أرضهم وشجرهم فقط لا سائر أموالهم ، فهذه لم يمسها المسلمون بشىء .

ويقول محمد بن مزين بعد ذلك : « ولما وصل خبر فتحها إلى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفتحين للأندلس معه يستأذنونه فى إخلائها والرحيل عنها إلى أوطانهم ، قرَّبهم وأنَّسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها ، وأقرهم على [بياض بالأصل] [١] ولم يجعل لهم سبيلاً إلى الخروج منها ، ولا أوسعهم عذراً فى إخلائها وردهم إليها وإلى جيرانهم [٢] بجوابه » . وطبيعى أن هؤلاء الذين عادوا إلى المشرق وأرادوا ترك الأندلس كانوا من العرب ، زهدوا فى البلاد لبعدها عن أوطانهم ، فاستمالهم الوليد إلى البقاء بإقطاعهم الإقطاعات ، وطبيعى كذلك أن هذه الإقطاعات الجديدة كانت من أرض الخمس التى تخص بيت المال .

فلما كانت أيام عمر بن عبد العزيز ، وواليه على الأندلس السمح بن مالك ، أقبلت معه جماعة من العرب من وجوه إفريقية ، ولم يكن عددهم عظيماً لأن المراجع تحددهم بأربعمائة فقط ، « فأراد (أى جند السمح) النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه فى الرجوع إلى بلادهم وإدالتهم بمن ورد مع السمح ، فمنعهم من ذلك وأنَّسهم وعقد لهم ، وأشهد فى عقدهم على إقرارهم فى أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمح إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسددها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنَّا نستخير الله فى إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله» [٣] .

(١) بياض فى النسخ الثلاث ، ولكننا نفهم من بقية النص أن الكلمة الناقصة هى : أرضهم .
(٢) هذه الكلمة قلقة هنا ، وقد وردت على هذه الصورة فى النسخ المطبوعة الثلاث . وربما كانت صحة قراءتها : حيزانهم ، أى ما حازوه من أرض .
(٣) دوزى : نفس المصدر ، ص٥ .
ورحلة الوزير لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى ، ص١١٣ - ١١٤ .

ونستنتج من هذه العبارة ما يلى :

١ - أن عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها قبل سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م كانوا أحرص ما يكونون على ما أصابوا من أرض ، وأن مجرد تفكير السمح فى إشراك أربعمائة فقط من العرب الجدد معهم فى إقطاعاتهم كان كافياً لدفعهم إلى تقرير العودة إلى بلادهم وترك الأندلس جملة ، وهذه ملاحظة هامة تلقى ضوءاً على طبيعة عرب الأندلس فى ذلك الحين ، ومقدار حرصهم على هذا البلد الكبير .

٢ - أن تفكير عمر بن عبد العزيز فى إخلاء الأندلس كان راجعاً إلى شكوى هؤلاء العرب وتهديدهم بتركها .

٣ - وأن هؤلاء العرب كانوا قد استقروا فيما استقروا فيه من أرض على اعتبار أنها إقطاعات لهم ، وسنشرح فيما بعد طبيعة هذه الإقطاعات الأندلسية .

٤ - وأن عمر بن عبد العزيز اضطر إلى إرضاء العرب الجدد بمنحهم إقطاعات جديدة من أرض الخمس .

٥ - وأن هذا الإجراء كان كفيلاً بإقناع العرب بالبقاء فى البلاد .

أى أن أرض الخمس أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتتحول إلى إقطاعات للعرب ، وسنرى أنها ستتلاشى تماماً .

ويُفهم من بقية حديث محمد بن مزين أن موسى كان قد بدأ بتخميس أرض الأندلس ، «وأعجلته حركته منها وإرسال أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك». وكان قد قسم الأخماس التى استطاع تحديدها بين من أقبل معه من العرب ، وكتب لهم سجلات بهذه الإقطاعات وأقر الوليد ذلك ، فلما أراد السمح بن مالك أن ينزل مَنْ معه من العرب « مع الأولين والمشاركة معهم فى رباعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد إخراج الخمس ، وإقرار الوليد لهم على ذلك ، واستظهروا بسجلاته التى سجلها لهم ، فأقرهم أمير المؤمنين رضى الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك ، وعلى ما قسمه بينهم موسى ابن نصير ، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله ، وكتب لهم إلى السمح بن مالك بالوقوف عند عهده وإمضاء ما أمر لهم به ، وانصرفوا إلى ما تخلفوه مسرورين ومبشرين بها

لقوه من فضله وعدله ، وكتب إلى السمح أن يدخل الجند الذين دخلوا معه من الأخماس»[١] .

وربما كان هذا هو الدافع لعمر بن عبد العزيز وواليه إلى النهوض لإتمام ما كان موسى ابن نصير قد بدأ به من تنظيم أرض الأندلس وتخميسها ، لكى يجد لبيت المال أرضاً غير التى استنفدتها إقطاعات العرب ، ولكى يجد أرضاً يقطعها للذين يقبلون منهم .

واستطاع السمح بن مالك أن يقوم بجزء من ذلك العمل ، وبدأ بإقليم قرطبة فأخرج خمسه فجعل جزءاً منه جبانة للمسلمين ، ولا نعرف إن كان قد أقطع الباقى للعرب أو تركه مِلْكاً لبيت المال . ولم يفعل السمح أكثر من ذلك ، لأن مدته لم تطل ، وهكذا ظلت أرض الأندلس وأموالها دون تحديد أو تنظيم ، ولم يفعل أحد بعد ذلك شيئاً حتى قيام الدولة الأموية .

٢٩٠ - رأى ابن حزم

ونخرج من ذلك كله بأن أرض الأندلس لم تخضع فى تقسيمها لما خضعت له بقية بلاد الدولة الإسلامية من تحديد أرض الصلح والعنوة وتقرير حكم كل منهما من ناحية الوضع القانونى أو الجبايات ، ويؤيد ذلك نص لابن حزم على أعظم جانب من الأهمية لموضوعنا ، نورده فيما يلى مقسماً إلى فقرات زيادةً فى البيان :

١ - « هـذا مع ما لم نـزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضرورى أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استُطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضى الله عنه فيما فتح ، بل نُفِّذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت .

٢ - ووقعت فيها غلبة بعد غلبة : البربر والأفارقة والمصريون ، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة .

٣ - ثم دخل الشاميون فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى ، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا فى المواشى ما ترون من الغارات وفى ثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل التافه ..: ظلم بظلم »[٢] .

(١) محمد بن مزين ، أبحاث دوزى ، جـ١ ، ملحق ١ ، ص٦ ، ورحلة الوزير للغسانى ص١١٤ .

(٢) MIGUEL ASIN PALACIOS, Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazm. Al - Andalus, vol. II, 1934 fasc. I pp. 1 - 56. =

وكلام ابن حزم هذا يقطع كل شك ، ويؤيد ما تراءى لنا فى النصوص التى سبق إيرادها ، فقد غلب الفاتحون الأُوَل على ما وقع لهم من أرض ، سواء أكانوا عرباً أو بربراً أو أفارقة (أى من أهل السواحل الإفريقية) ثم جاء عرب الطالعة الثانية وغلبوا البلديين ، وانتزعوا منهم ما قدروا على انتزاعه من الأرض ، وقامت الفتنة بسبب ذلك حتى جاء أبو الخطار ونصحه أرطباس بتفريق عرب الطالعة الثانية على نواح معينة ، وإنزالهم على أرض أصحابها من أهل البلاد على أن يكون لهم ثلثها طعمة ، أى ملكاً ، فى مقابل الخدمة العسكرية كما بينا آنفاً .

أما ما يقوله محمد بن مزين من التخميس فأمر لم يصح ، ومن الطبيعى أن يكون موسى ابن نصير قد شرع بعد الفتح فى إخضاع أرض الأندلس لشروط الشرع ، أو بدأ فى التخميس ، ولكن الظروف لم تسمح له بالاستمرار ، ومضى إلى المشرق ، وحاول نفس الأمر بعض من أتوا بعده فلم يوفقوا ، وظلت الأرض فى أيدى من غلبوا عليها ومضى الأمر على ذلك .

٢٩١ - رأى ابن الخطيب

وقد اعتبر العرب الفاتحون ما وقع لهم من الأرض غنيمة ، وهذا واضح من قول ابن الخطيب فى العبارة التى رواها عن ابن حيان والرازى : «وبقى العرب البلديون والبربر شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على غنائمهم لم يُعرض لهم فى شىء منها»(١) .

أما السبب فى ترك الفاتحين يستولون على ما استقروا فيه من أرض كأنه غنيمة ، فيفسره قول محمد بن مزين : « فلما ولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة زاد اعتناؤه بها ، وأنزلها (كذا ، وربما كانت صحتها : وأزالها) عن عمال إفريقية ، وأفرد لها عاملاً ، فبعث إليها السمح بن مالك عاملاً ، فوردها فى جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بين أيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه الرجوع إلى بلادهم ، وإدالتهم بمن ورد معه (أى مع السمح) ، فمنعهم من ذلك وأنَّسهم وعقد لهم ، وأشهد فى عقدهم على إقرارهم فى أموالهم،

= والمخطوط المشار إليه هو رقم ٢٧٠٤ بمكتبة جامع فاتح بالأستانة ، وقد نشر آسين بالاثيوس تحليلاً ودراسة له مع قطع من ذلك المخطوط ، والنص الذى أوردناه فى ص٣٦ من المقال المذكور .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٩ .

وأقطع الواردين مع [السمح] إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسددها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنا نستخير الله فى إجلاء المسلمين عنها ، ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله »(١) .

* * *

٢٩٢ - الخلافة تعتبر الأندلس ثغراً

وإذن فقد اعتبر عمر بن عبد العزيز أرض الأندلس ثغراً مثل الثغور الهندية التى أقطع عمر بن الخطاب أرضها لجندها ، وبناء على ذلك فقد أعطى العرب الأول سجلات بما وضعوا أيديهم عليه من أرض على أنها إقطاعات ، بل أقطع جند السمح إقطاعات أخرى ، وأصبحت هذه قاعدة مقررة . وهذا يفسر لنا ما يقوله محمد ابن مزين من أنه « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سَبْيها ومتاعها وسائر مغانمها وأخرج من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل (صحتها كبار) السبى ووخش الرقيق فى الخمس من الأرضين يعمرونها لبثلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يُعرفون بالأخماس وأولادهم بنو الأخماس »(٢) .

٢٩٣ - اعتبار أراضى الجنوب إقطاعات لمن استولوا عليها

وواضح أن موسى لم يخمس إلا جزءاً قليلاً من أرض الأندلس ، وهو أرض البسائط فى الجنوب ، ربما جنوبى الوادى الكبير ، فاستولى المسلمون الفاتحون على أربعة أخماسه واعتبروها غنيمة واعتبرتها الدولة إقطاعات ، وبقى الخمس ملكاً للدولة فأطلقت فيه السبى يزرعونه للدولة ، ويؤدون من أمواله الثلث (لبثلث مال المسلمين) وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم الأخماس ، وأولادهم أولاد الأخماس .

ويتفق هذا الذى قلناه مع واقع الأحداث التاريخية ، فإن الجنوب بالفعل هو الذى فتحه المسلمون عنوة ، فقد قاتلوا فى أقصى الجنوب (واقعة وادى لكه) وفتحوا استجة وقرطبة

(١) رواه محمد بن عبد الوهاب الغسانى فى « رحلة الوزير » طبعة الفريد البستانى ، تطوان ١٩٥١ ، ص١١٣ . وقد نشر نفس النص خليان ريبيرا فيما نشر من ذلك الكتاب تحت عنوان « الرسالة الشريفية » ذيلاً على تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ص٢٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص١١٢ .

عنوة ، فاعتبروا كل ما يقع جنوبى الوادى الكبير أرض عنوة وقسموه على النحو الذى قلناه. ولما كان المسلمون قد فتحوا ناحية ماردة عنوة فقد انسحب هذا الحكم على ما يقع بين الوادى الكبير ووادى آنة ، وما بين هذا النهر والمحيط ، فيما عدا شنترين وقلنبرية فقد استسلم أهلها وعقد المسلمون معهم عهداً فاستثنوا من ذلك الحكم . وكذلك مدينة صغيرة فى الجنوب الشرقى تسمى شية (Xea) فقد صالح أهلها . ولم يَجْرِ على إقليمها حكم العنوة .

وقد اعتبرت أراضى الجنوب والغرب التى تقاسمها العرب إقطاعات ملكاً لأصحابها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

٢٩٤ - بقية أرض الأندلس أرض صلح

وأما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح صالح عليها أهلها ، قال محمد بن مزين : « وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها (أى على أداء جزء من غلتها) مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتُدى به ﷺ بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضهم » (١) .

وقد رجحنا أن المراد بأرض الشمال هنا ، ما يقع شمالى الوادى الكبير من شبه الجزيرة ، وهذا معقول ، فقد فُتِحت تلك النواحى كلها صلحاً ، وأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهداً، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة ، وواضح أن نصوص هذه المعاهدات لم تكن كلها واحدة فقد اختلفت بحسب الظروف ، قال محمد بن مزين : «فلما أكمل السمح ما أراد (أى إكمال تخميس أرض الجنوب) خاطب أمير المؤمنين بما عمله فى أرض العنوة وأرض الشمال وهى التى فُتِحت صلحاً ، فإن أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض (أى من غلة الأرض) مثالثة ومرابعة كيفما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله ﷺ فى خيبر » (٢) .

وظاهر أن ما يقوله محمد بن مزين من أن أهل بلاد الشمال « صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض مثالثة ومرابعة ... حسبما فعله الرسول ﷺ فى خيبر» إنما هو اجتهاد منه ،

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص١١٦ .

فإن الرسول لم يترك أرض خيبر لليهود على أن يؤدوا الثلث أو الربع بل النصف(١)، وقد وجد الفقهاء أنفسهم أمام اتفاقات أقرها حكام المسلمين وخلفاؤهم تبيح لأهل بعض نواحي الأندلس التى فتحت صلحاً أن يؤدوا الثلث أو الربع ، فحاولوا إعطاء ذلك صبغة شرعية ، فقال بعضهم إن الذى جرى فيها كان قياساً على ما صُنع بخيبر وفدك بعد ذلك وأنكره آخرون إنكاراً تاماً ، فقالوا إن أرض الأندلس لم يجر عليها حكم الشرع كما رأينا فى كلام ابن حزم الذى أتينا به ، وكما قال فقيه آخر هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداوودى فقد قال : « وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس ، وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم ، غير أن كل قوم وثب على طائفة منها من غير إقطاع من الإمام»(٢).

وإذن فقد اعتبرت أراضى الجنوب أرض عنوة ، واعتبرها من فتحوها غنيمة وتقاسموها بعد إخراج الخمس منها ، وأيدت الدولة ذلك ، فسجل الوليد بن عبد الملك لمن استولى عليها من المسلمين وأعطاهم سجلات بذلك ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأيد ذلك الحكم واعتبر ما استولى عليه المسلمون من الأرضين إقطاعات ، وساوى بينها وبين ما فتح المسلمون من أرض الهند ، فاعتبرها ثغراً يجوز للإمام أن يقطع أرضها لمن فتحوها ومن يقومون على حمايتها ، فإذا كانت فى الشرق ثغور هندية ، ففى الغرب ثغور أندلسية .

أما أرض الشمال مما فتح صلحاً فقد اعتبرت أرض صلح ، تجرى عليها أحكام الصلح التى عقدها المسلمون مع أهلها .

وهذا الذى حدث فى الأندلس يشبه تماماً ما حدث فى المشرق ، فقد اعتبر المسلمون أرض السواد أرض عنوة ، وأرادوا تقاسمها ، فحال عمر بينهم وبين ذلك ، ولم يسمح لهم

(١) قال الطبرى فى كلامه عن غزوة خيبر : « فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف ، على أنَّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك ...» - تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٣٩ ، جـ٢ ، ص٣٠٢ . وقال أبو يوسف (كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢هـ ، ص٥٠) : « حدثنا مسلم الحزامى (أو الحرانى أو الخزاعى) أن رسول الله ﷺ دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف ، وعن الحجاج بن أرطاة عن نافع عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ دفع خيبر إلى أهل خيبر بالنصف » ، ويقول فى ص٨٥ : « أولا ترى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة ، ولم يجعل عليها خراجاً ودفعها إلى اليهود مساقاة بالنصف ؟ » . بل إنه ثابت أن الرسول ﷺ كره المزارعة على الثلث والربع ، قال أبو يوسف : « وكانوا يحتجون أيضاً فى المزارعة بالثلث والربع بحديث جابر أن رسول الله ﷺ كره المزارعة بالثلث والربع » - كتاب الخراج ص٨٩ .

(٢) رواه سيمونيت فى « تاريخ المستعربين » ، ص٦٨ نقلاً عن مخطوطة الإسكريال رقم ١١٦٠ .

باعتبار الأرض غنيمة لهم ، بل غنيمة لجماعة المسلمين ، وتركها لأهلها على أن يؤدوا للمسلمين جزءاً من غلتها ، أى صارت أرض فىء . أما ما يلى ذلك شرقاً ، فقد اعتبر أرض صلح ، إذ لم يفتحه المسلمون بحد السيف . وقد روى يحيى بن آدم خبراً يصور ذلك أحسن تصوير فقال : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى، قال : سمعت حسن بن صالح يقول : كنا نسمع أن ما دون الجبل من سوادنا فهو فىء ، وما وراء الجبل فهو صلح ، قال حسن : فمن كان منهم صلحاً فعليهم الذى صولحوا عليه ، فيخلى بينهم وبين أرضيهم ، ولا يوضع عليها شىء ما أقاموا بصلحهم يؤدونه للمسلمين » (١) .

٢٩٥ - نزول العرب فى بعض نواحى الشمال

أما من استقر من العرب فى ريف بعض نواحى الشمال ، فالأغلب أنهم نزلوا مواضع لم تكن مأهولة أو فى أرض الصوافى التى حددها أبو يوسف فيما يتصل بسواد العراق بقوله : «أصفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أهل السواد عشرة أصناف : أرض من قُتل فى الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كانت لكسرى ، وكل أرض كانت لأحد من أهله ، وكل مغيض ماء ، وكل دير بريد » (٢) أى أنه ذكر ستة وترك أربعة ، وأضاف إليها فى رواية أخرى أرض الآجام ، ونضيف نحن فيما يتصل بالأندلس أملاك الملوك وأهل بيتهم وأملاك الكنائس ، وكان الموجود فى الأندلس من كل صنف من أصناف هذه الأرض كثيراً فتبحبح فيها من شاء الاستقرار فى الأرض من العرب ، ووجدت لهذا جماعات منهم فى كل ناحية تقريباً . وكانت هذه الأرضون كلها بمنزلة القطائع ، يؤخذ عليها العشر فى الغالب ، ومنها فى المشرق ما كان يؤدى عُشرين ، وللإمام أن يُصيِّرها أرض خراج إذا كانت تُسقى من أنهار الخراج (٣) . ولما كنا لا نعرف ما كانت تؤديه فى الأندلس ، فأسلم الآراء أن يقال إنها كانت تؤدى الحد الأدنى وهو العشر ، خاصة وأن العشر كان هو القاعدة السارية على من تملك الأرض من البلديين والبربر (٤) ،

---

(١) يحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج (بتحقيق أحمد محمد شاكر) القاهرة ١٣٤٧هـ ، ص٢١ .

(٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص٥٧ - ٥٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) جاء فى كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص٨٠ - ٨١) : « أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى، قال : حدثنا قيس عن بُرد أبى العلاء عن مكحول ، قال : قال رسول الله ﷺ : جُعل رزق هذه الأمة فى سنابك خيلها وأزجة (نصال) رماحها ما لم يزرعوا ، فإذا زرعوا كانوا من الناس » .

وكانت القاعدة العامة ألا تترك أرض دون أن يعمرها أحد ، قال أبو يوسف : « ولا أرى أن يترك [الإمام] أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أعمر للأرض وأكثر للخراج » ، ص٦١ .

وأما عرب الشام فقد ذكرنا حكم ما كان فى أيديهم ، ومن البديهى أن يكون زراع أهل البلد قد خضعت أراضيهم لأحكام الخراج عامة .

بهذا تتقرر الأسس العامة التى جرت عليها شئون الأموال فى الأندلس على نحو مفهوم، ولا تعيننا المراجع التى بين أيدينا على التدقيق أكثر من ذلك ، ولهذا فإننا نحجم عن محاولة تقدير أموال الأندلس فى هذه الفترة ، خاصة وأن الاضطرابات الكثيرة التى وقعت بين العرب والبربر من ناحية ، وبين اليمنية والشامية من ناحية أخرى ، جعلت الواصل إلى بيت المال دائماً قليلاً . وقد أشرنا من قبل إلى ما ذكره صاحب « الأخبار المجموعة » من نقصان الخراج أثناء الفتنة الكبيرة التى وقعت بين العرب والبربر [١] ، ولم يتحسن الحال عندما انتصر العرب بفضل جند طالعة بلج فقد قطع البلديون الخراج ، وكان معظمهم من اليمنيين ، إذ عز عليهم أن يؤدوا الضريبة للشاميين الغالبين ، وزاد الأمر سوءاً توالى سنوات القحط ، ودام ذلك حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، فلم تقع فى أيام الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى سنة رخاء إلا فى النادر ، فلا عجب أن كان بيت المال خاوياً أو يكاد خلال هذه السنوات .

* * *

٣٩٦ - التصرف فى أموال الجباية ومهما كان المال الذى يصل إلى العمال فى قرطبة ، فلابد أن نسأل : ماذا كانوا يفعلون به ؟ هل كانوا ينفقونه فى الوجوه التى تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشئونها وأداء الرواتب لأصحابها ثم إرسال الباقى إلى دمشق ؟ هنا نجد أنفسنا أمام حالة فريدة فى بابها فى أخبار تلك الأيام : ليس لدينا نص واحد صريح يدل على أن شيئاً من مال الأندلس كان يُرسل إلى المغرب أو المشرق ، وليس لدينا من أخبار التعمير إلا ما ذكرناه من إعادة بناء قنطرة قرطبة وإنشاء جبانة للمسلمين . بل ليس لدينا نص يشير إلى مطالبة عمال المغرب أو الخلفاء بأموال الأندلس كما كان الحال مع مصر مثلاً ، إذ كان خراج مصر موضوعاً هاماً تسهب المراجع فى تفاصيله وذكر مقاديره ، بل تذكر المكاتبات التى دارت بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بشأنه ، وكيف أن الخراج كان السبب فى عزل ابن العاص واستبدال عبد الله بن سعد بن أبى السرح به .

وصَمْت المراجع عن هذه الناحية صمتاً تاماً يبدو فى نظرنا أمراً غريباً ، خاصة وأن الذين أرخوا لهذه الفترة - كصاحب « الأخبار المجموعة » وابن القوطية وأحمد بن محمد الرازى

(١) انظر « الأخبار المجموعة » ، ص٦٢ .

وابن حيان - ومن نقل عن هؤلاء جميعاً من متأخرى المؤرخين ، كانوا جميعاً ذوى عناية بشئون المال والخراج ، ومنهم من كان من كُتَّاب الدولة . ولا يعلل هذا الصمت إلا بأن ولاة الأندلس لم يكونوا يرسلون إلى إفريقية أو إلى المشرق شيئاً من المال ، وأن الخلافة كانت يائسة من أمر الأندلس لا تنتظر منه مالاً ، حتى فكر عمر بن عبد العزيز فى استرجاع العرب منه وتركه جملة . والراجح أن معظم ما كان يصل إلى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرت واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها .

ثم إن الأندلس لم يل أموره خلال هذه الفترة كلها إلا خمسة ولاة من الطراز الذى يرجى منه أن يقرر شئون الأندلس الخراجية على وجه الإحكام والضبط ، وهم : موسى بن نصير ، وابنه عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولانى ، وعبد الرحمن الغافقى ، وعقبة ابن الحجاج السلولى (١) . أما الباقون فكانت أشخاصهم من الضعف أو البعد عن التنظيم والميل إلى الفوضى بحيث نستبعد أن يكونوا قد استطاعوا أو اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديواناً مالياً منظماً . ومن الغريب أن هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم عن أن يقوموا بشىء إيجابى فى هذه الناحية ، لأن موسى أعجله الوليد عن أن يفعل شيئاً ثم حاسبه بعد ذلك حساباً عسيراً جداً ، وعبد العزيز كان فى شبه خروج على الدولة طوال مدة ولايته ، وقد رأينا ما فعل السمح فى هذه الناحية ، وأما عبد الرحمن الغافقى وعقبة بن الحجاج فكانت لهما حروب طويلة تستنفد كل ما عسى أن يكونا جمعاه .

ثم إن أمر الأندلس كان خلال معظم هذه الفترة إلى عمال إفريقية ، ولم يكونوا هم الآخرون منظمين ممتازين، ولم تكن ذمم الكثير منهم بعيدة عن النهم ، وشغلتهم إلى جانب هذا كله حروب مع البربر استنفدت مالاً كثيراً جداً ، فلعل ولاة الأندلس كانوا يبعثون بأموالهم إلى عمال إفريقية ، ولم يعن هؤلاء بفصلها عن أموال ولايتهم ، فلم يستطع الرواة العثور على شىء يحددها لهم ، ومن هنا كان إغفالهم الإشارة إليها (٢) .

(١) وحتى هؤلاء الخمسة لم تخل تصرفاتهم من أخطاء ومخالفات أثارت غضب الخلفاء .
انظر : فتح الأندلس ، ص ١٩ .

(٢) ولم تكن أحوال إفريقية من هذه الناحية بأحسن من أحوال الأندلس ، قال ابن القوطية مشيراً إلى هزيمة كلثوم بن عياض القشيرى أمام البربر فى موقعة الأشراف : « فلما بلغ هشام بن عبد الملك النكبة الدائرة على كلثوم وما اتصل بذلك من فساد إفريقية والأندلس شاور العباس بن الوليد أخاه ، وكان أحله فى الشورى محل أخيه مسلمة بعدُ فى هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ليس يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية...» .
ابن القوطية : افتتاح ، ص١٧ .

وبين أيدينا نصوص كثيرة تؤيد القول بأن شئون الأندلس المالية خلال هذه الفترة لم تضبط على الأسس الشرعية التى جرى العمل بها فى الولايات الإسلامية إذ ذاك ، فقد اتهم موسى بن نصير صراحة بأنه لم يكن يخرج الخمس مما وقع فى يده من الغنائم، وكان هذا سبباً من أسباب نكبته (١) ، بل إن سليمان بن عبد الملك « أخذ موسى ومن كان معه من عمال المغرب لما بلغه من إقطاعاتهم الأخماس فغرموا ، وغرم موسى مائة ألف » (٢) ، وهى رواية تدل على أن موسى بن نصير نفسه مد يده إلى أخماس الغنائم ، وقد رأينا كيف تفرقت أرض الأخماس فى قبائل العرب إقطاعات ، أما ما كان يرد من أموال الخراج فقد كان جانب منه يُؤَدَّى إلى جند العرب كما رأينا ، والباقى - وكان قليلاً - كان يتصرف فيه العمال .

* * *

٢٩٧ - ثروات العرب الأُوَل فى الأندلس

والدلائل كثيرة على أن العمال وكبار العرب كانوا على غنى عريض ، فقد كان الصميل بن حاتم يمتلك داراً كبيرة « بعدوة النهر بقبلى قرطبة » ، وخلف داره كانت عقدة الزيتون المشهورة ، « كانت كلها له ، وكانت مائة صف ، فى كل صف ألف أصل وسقى عظيم من عين هناك » (٣) ، أى أن هذا الشيخ البدوى كان يملك غابة واسعة من أشجار الزيتون فيها مائة ألف شجرة ، وكانت خزانته عامرة بالمال ، حتى لقد وُجِد فى بيته تابوت « فيه عشرة آلاف دينار دراهم » (٤). وكان عامر بن عدى من أشراف بنى عبد الدار بالأندلس يملك منية واسعة بغربى مدينة قرطبة ، وكانت تسمى « قناة عامر » ، وقد بلغ من سعتها أنه حينما استشعر الخوف من يوسف الفهرى وأراد التحرز منه « أغلق غلقة عظيمة هَمَّ أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه إمداد اليمن » (٥) .

وأقطعت جماعة من بنى غافق قرية كاملة بشرف إشبيلية نسبت إليهم بعد ذلك ، وهى مرنانة الغافقيين ، ومنهم كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى بلاط الشهداء .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص٢١١ .
(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٠ .
(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٨ .
(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٩ .
(٥) الأخبار المجموعة ، ص٦٣ .

وكان الكثيرون من رؤساء عرب الأندلس فى هذه الفترة يملكون ضياعاً واسعة فيها قصور كبيرة ، وكانوا يسمون القصر والضيعة المحيطة به « البلاط » من (Palatum) اللاتينية حتى إنهم سموا قرطبة كلها « بلاط لذريق » (١) لأنها كانت ملكاً له ، ومن أمثلة هذه البلاطات « بلاط الحر » بن عبد الرحمن (٢) و« بلاط مغيث » الرومى، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها « اليسانة » كانت للملك الذى أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس « بلاط مغيث » (٣) ، وكان عبد الله ابن خالد من كبار موالى بنى أمية يملك معظم قرية الفتين ، حتى ليقول ابن القوطية إنها كانت « منزل عبد الله بن خالد » (٤) ، وكذلك كان أبو عثمان شيخ موالى بنى أمية يملك إقطاعاً كبيراً بقرية طرش من كورة قرطبة (٥) ، بل كان يحدث أن تترك كورة كاملة لرجل واحد ، كما ترك يوسف الفهرى كورة ريه لمنافسه يحيى بن حريث ليسكت عنه (٦) ، بل كانت قبائل عربية تملك كوراً كاملة ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن « الثغر كان لليمن » (٧) والمراد هنا ثغر سرقسطة .

وكان رجال مثل الصميل ينفقون عن سعة تدل على مال عريض ، قال صاحب الأخبار المجموعة يتحدث عن الصميل عندما سار إلى سرقسطة : « فأتى فى مائتى رجل من قريش ومن كان معه من غلمانه وحشمه ومواليه ، فنال بها ملكاً وغنى ، ووفد عليه محاويج الناس ، فأعطاهم الأموال والرقيق ، ولم يأته صديق ولا عدو فحرمه ، فازداد سؤدداً » (٨) . وقد روينا خبر دخول نفر من كبار العرب والموالى على أرطباس وإعطائه إياهم الضياع ، قال ابن القوطية : « فوهبهمماية ضيعة صار لكل واحد منهم عشر ضياع ، منها طرش لأبى عثمان ، والفتين لعبد الله بن خالد وعقدة الزيتون بالمدور للصميل بن حاتم » (٩) . وقد روينا فى نفس الخبر كيف أن أرطباس وهب ميموناً العابد « المجشر الذى على وادى شوش وما فيه

(١) المقرى ، جـ١ ، ص١٦٠ ، جـ٢ ، ص٢٣ .
(٢) المقرى ، جـ٢ ، ص٢٣ .
(٣) الأخبار المجموعة ، ص٢١ .
(٤) المصدر السابق ، ص٢٤ .
(٥) نفس المرجع والصفحة .
(٦) نفس المصدر ، ص٢٧.
(٧) نفس المصدر ، ص٦٢.
(٨) نفس المصدر ، ص٦٣.
(٩) ابن القوطية : افتتاح ، ص٤٠ .

من البقر والغنم والعبيد والقلعة (أى ضيعة القلعة) بجيان وهى المعروفة بقلعة حزم فملكها..» (١) . أما الرجال الذين مثل أبى الصباح اليحصبى وحيوة بن ملامس - وكانا يُوصفان بأنهما «سيدا الغرب » - فقد كانوا على ثراء واسع (٢) .

وهذه أمثلة قليلة تعيننا على تصور ثروات عرب الأندلس فى ذلك الحين ، فقد كانوا جميعاً بين مقطعين يملكون أرضاً كثيرة أو قليلة ، أو نازلين فى نواح يأخذون نسبة عالية من غلتها ، وكانت لهم إلى ذلك الأعطيات والأرزاق ، وقد أوجد فيهم ذلك الرخاء الذى كانوا فيه نوعاً من الأنانية جعلهم يتصورون أن الأندلس كلها طعمة لهم أو غنيمة وقعت فى أيديهم لا يملك أحد أن يشاركهم فيها ، فقد أبوا على عرب الطالعة الثانية نزول بلادهم وتركوهم محصورين فى ناحية سبته حتى كاد يهلكهم الجوع ، وكانوا يقولون: « إن بلدنا لا يحملنا وإياهم » . نعم ، شبه الجزيرة الإيبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب ! وعندما وفد نحو ٤٠٠ عربى مع السمح بن مالك وطلبوا إلى عرب الأندلس أن يوسعوا لهم فى جانبهم ضاقوا بهم وبلغ بهم الأمر أن ذهبوا يشكون إلى الخليفة فى دمشق .

* * *

٢٩٨ - القبائل تملك إقطاعاتها ملكاً جماعياً

وإذا استثنينا بعض كبار الرؤساء الذين كانوا يملكون ضياعاً أو بلاطات لهم خاصة ، فالظاهر من النصوص أن حقوق العرب على النواحى التى نزلوا فيها كانت حقوقاً جماعية ، أى أن « الإقطاعات » كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها . وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين أن « الثغر كان لليمن » ، أو أن أبا الصباح وحيوة بن ملامس كانا « سيدى الغرب» (٣) ، بل لا يمكننا تفسير نزول أجناد الشآميين بالكور : كل جند بكورة يكون لهم ثلث أموالها إلا على هذا الأساس ، أى أن « الجند » بأسره كان ينزل الكورة ويعتبر رئيسه صاحب الأمر فيها ، وقد كان الأساس أول الأمر أن ينزل الجند فى الكورة دون أن يدعى أفراده من الحق أكثر من ثلث المحصول ، ولكن اضطراب الأحوال فى أواخر أيام الولاة جعل الأجناد ملاكاً للنواحى وأصحاب الأمر فيها . وحيث إننا لا نسمع ولو مرة واحدة

---

(١) نفس المصدر ، ص٣٩.

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٥ .

عن عمال لكور الأندلس فى هذه الفترة ، فأقرب الأمور إلى الصحة هو القول بأن العرب النازلين فيها - مقطعين أو مقيمين فقط - كانوا بالفعل أصحاب الأمر فيها .

وقد أصبح الأمران سواء مع الزمن كما رأينا ، فيقوم بالأمر رئيس القبيلة أو شيخ مجموع القبائل أو صاحب لواء الجند ، فيجمع الأموال بمعاونة رؤسائها من أهل الذمة ، ويقتطع ثلثها ويؤدى الثلثين لبيت المال إن كان رئيس جند نازل أو يؤدى عشرها فقط إن كان مقطعاً ، وعليه لقاء ذلك أن يكون مستعداً برجال قبيلته للخروج إلى الحرب عندما يدعوه العامل حسب النظام الذى أوردناه . أى أن أرض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبلين إليها من العرب والبربر ، لكل قبيلة ناحية هى صاحبة الأمر فيها ، لا يربطها بالحكومة المركزية إلا أداء ما ينبغى عليها من المال والاشتراك فى الحرب لقاء الرزق والعطاء . وكان لكل قبيلة أو جماعة من القبائل «سجل» من عامل الأندلس أو من الخليفة نفسه ، تؤيد به حقها فى ناحيتها . أى أن نواحى الأندلس الجنوبية كانت معتبرة ثغوراً أو ولايات حدود تقيم فيها « أجناد » تتصرف بجزء كبير من محصولها نظير ما تقوم به من خدمة عسكرية دائمة .

على هذا الأساس نستطيع أن نفسر قدرة عرب الأندلس وبربرها الأولين على القتال واستمرارهم فيه : مع النصارى الإسبان فى الشمال ، ومع نصارى غالة فى أول الأمر ، ثم فيما بينهم وبين أنفسهم بعد ذلك ، لأنهم كانوا جميعاً جنوداً لا عمل لهم إلا القتال ، ولو كانوا توزعوا الأرض قطعاً صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لأصبح من الصعب اقتلاعهم منها وإرسالهم للحرب كما حدث للكثير من عرب مصر ، مثلاً، ممن زرعوا واندرجوا فى غمار الناس ، أما عرب الأندلس فلم يكن أحد منهم ليملك أرضاً لنفسه ، وإنما الأرض ملك القبيلة كلها ورئيسها يوزعها على أفرادها كما يرى ، فإذا ناداهم إلى الحرب لم يسعهم إلا التلبية ، وإلا ضاع حقهم فى العطاء فى آخر الغزاة . وبهذا نستطيع أن نفسر سهولة تداعيهم للحرب وخروج قبائلهم لها ، فإذا أهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، وإذا استنجد رئيس عدد من القبائل بنى عمومته خفّت قبائل بأسرها لعونه ، لأن رؤساء القبائل وأصحاب الألوية المعقود لهم كانوا يوجهون الأفراد كما شاءوا ، وكان ذلك من أشد ما آذى عرب الأندلس وعجّل بزوال السلطة من أيديهم وانتقالها إلى عبد الرحمن الأموى .

والنتيجة الطبيعية لهذا النظام هو فقر الإدارة المركزية وعجزها عن إدارة البلاد كلها إدارة

موحدة ، وهبوط أمر ولاة الأندلس واجتراء أجناد العرب فى النواحى عليهم . فلم تكن الأندلس فى واقع الأمر ولاية واحدة بل عدة ولايات تنفرد بالأمر فى كل منها قبيلة أو عدة قبائل يجمعها لواء واحد ، ولم يرزق الله الأندلس خلال هذه الفترة بوال واحد تجرد من نزعات العصبية وطالت مدته حتى يقرر الأمور فيها على قاعدة تؤكد وحدة الولاية وتنزع من قلوب العرب ميول العصبية ونزعات الأنانية التى غلبت عليهم .

ثم إن الخلافة كانت أبعد من أن تستطيع القبض على شئون الأندلس وإخضاعها للنظم الإدارية الإسلامية المقررة ، فتركوها لعمال أفريقية ، ولم يكن هؤلاء من طراز المنظمين ذوى الشخصيات القوية الممتازة ، وشغلتهم إلى جانب ذلك شئون المغرب ، وما كان أكثرها ؛ فسارت الأمور فى الأندلس خلال هذه الفترة سيراً ارتجالياً لا يكاد يخضع لنظام مقرر أو قاعدة ثابتة ، فاستبد بكل ناحية أصحابها ، وثارت بينهم المنازعات .

ولعل أغرب ظواهر هذا الاضطراب هو أننا لا نجد ذكراً فى مراجعنا لخراج هذا القطر الفسيح ، كأنه كان لا يغل شيئاً : لا نملك نصاً واحداً يذكر أن خراج الأندلس أُرسِل إلى إفريقية أو إلى المشرق ، بل لا نجد شيئاً يدل على أن الولاة كانوا يجمعون خراجاً منتظماً مقرراً ، اللهم إلا إشارات متناثرة كقولهم أن عقبة بن الحجاج « عدل فى الخراج » أو أن الخراج « ضعف » فى أوائل ولاية يوسف الفهرى ، وهى إشارات لا نستطيع الاعتماد عليها فى تكوين فكرة صحيحة عن هذه الناحية الهامة .

* * *

٢٩٩ - بعض الوظائف العامة

وإذ كان الأمر كذلك فإننا لا نستطيع تصوير الإدارة الإسلامية فى الأندلس خلال هذه الفترة : لا نعرف أى الإدارات وُجِد وأيها لم يوجد ، وكل ما لدينا أسماء بعض أشخاص يحتلون وظائف إدارية وردت من غير تحديد اختصاص ، كأبى عثمان بن عبد الله صاحب أزمة الأرض والخراج [١] ، وعامر بن أبى عدى قائد الصوائف [٢] ، ويحيى بن يحيى التجيبى قاضى هشام بن عبد الملك على الشاميين [٣] ، وجد بنى سليمان القرائين وكان صاحب الصلاة [٤] ، ويحيى بن أبى زيد

(١) فتح الأندلس ، ص٥٤ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٦٣.
(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٣٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص٢٨ .

التجيبى قاضى الجند[١] ، وعيسى بن عبد الله الطويل وكان على المغانم[٢] وهذا هو كل ما لدينا ، وهو لا يعيننا على تكوين فكرة عن الإدارة العامة فى هذا العهد ، وربما كان الأحجى أن ندع بحث هذه الناحية حتى تتجمع لدينا معلومات أوفى .

بيد أن هناك وظيفة كبيرة لدينا عنها من المعلومات ما يمكننا من الكلام عنها فى أمان ، هى وظيفة القضاء فى الأندلس ، وكان لها فى عصر الولاة أهمية كبرى .

٣٠٠ - القضاء

كانت للقضاء أهمية خاصة فى الأندلس ، وربما لم يبلغ القضاة فى بلد من بلاد الإسلام ما بلغوه من علو المكانة ووفرة السلطان وبُعْد الجاه فى الأندلس والمغرب ، ولدينا لتاريخ القضاء فى الأندلس كتابان أحدهما لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى[٣] ، والثانى لأبى الحسن النباهى[٤] ، وأورد ابن سعيد فى «المغرب» تاريخاً لقضاء الأندلس يكاد يكون كاملاً ، ومعظم من نجد أسماءهم فى تراجم علماء الأندلس إنما كانوا قضاة أو لهم بالقضاء صلة كالحسبة والمشاورة وما إلى ذلك ، وأورد المقرى فى كتابيه « نفح الطيب » و« أزهار الرياض » فصولاً وتراجم ضافية للقضاة ، واختص ابن حيان مشاهيرهم بتراجم مطولة ، أى أن المادة عن قضاء الأندلس وقضاته وفيرة لمن يشاء أن يدرس . وكان قاضى الجماعة فى قرطبة شخصية لها أهميتها فى مجالات العلم والسياسة فى الأندلس ، بحيث لا يمكن التأريخ للأندلس تأريخاً صحيحاً إلا إذا أَلَمَّ الإنسان بتاريخ قضاته وتنبه للأهمية الكبرى التى كانت لهم فى المجتمع الأندلسى[٥] .

٣٠١ - مسألة قضاة الأندلس الأُوَل

وكما كان موضوع قضاة الأندلس موضع اهتمام القدماء فقد كان موضع اهتمام المحدثين ، فكتب فيه دوزى وريبيرا وآسين بلاثيوس وليفى بروفنسال وغيرهم ، وأثاروا مشاكل كثيرة يهمنا منها هنا موضوع قضاة الأندلس الثلاثة الأول ، فقد كان موضع درس وآراء ومناقشات . وأصل المشكلة أن أقدم تاريخ لقضاة

---

(١) فتح الأندلس ، ص٤٣ ، ويرجح أن صحة الاسم « يحيى بن يزيد » .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص٢١١ .

(٣) كتاب القضاة بقرطبة ، للحافظ العالم أبى عبد الله محمد بن حارث الخشنى القروى ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

(٤) تاريخ قضاة الأندلس المسمى « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » لأبى الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى . نشره إ. ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

(٥) انظر عن هذه الناحية كتابنا Essai sur la Chute du Califat Umayyade de Cordoue (Le Caire, 1948) pp. 66 - 69.

الأندلس ، وهو كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » الذى ألفه محمد بن الحارث بن أسد الخشنى، وهو مغربى من تونس أورد أسماء ثلاثة رجال ذكر أنهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدى بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشى(١) ، وذكر أنهم كانوا قضاة أيام الولاة أى قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية، وذكرهم أيضاً أبو الحسن النباهى(٢) ، وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر فى حوليات الأندلس ، ولم يشر إليهم أحد من أصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضى ؛ وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة ، ومعظم أخبارهم عند الخشنى منسوبة إلى أحمد بن فرج بن مُتَيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الأندلسى ، فقد ذكر ابن الفرضى أنه « كان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة » (٣) ، وكان المسريون يُعتبرون فى عداد الزنادقة عند فقهاء الأندلس ، وأخبار ابن متيل لهذا مشكوك فيها لا يُوثق فى صحتها .

وكان أول من قال بذلك دوزى فى حديثه عن المراجع العربية لفتح العرب للأندلس، وقد ذهب فى ذلك المقال إلى أن الكثير من أخبار الأندلس فى عصوره الأولى قد وضعها المشارقة والمصريون بنوع خاص ، وضرب لذلك مثلاً بمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى الذى يسند الكثير من أخباره إلى رجال لا يوثق فى صحة نقلهم (٤) مثل ابن متيل هذا ومحمد بن وليد(٥) وعلى بن شيبة (٦) وعثمان بن محمد(٧) ، وهؤلاء أخذوا بدورهم عن أصول مشرقية ، فابن متيل مثلاً فى حديثه عن مهدى بن مسلم يروى عن رجل يسمى أبا العباس أحمد بن عيسى بن محمد المقرى ، وأن هذا الرجل قد حدَّثه بحديث مهدى فى مدينة تنيس (بالمغرب) .

وبعد أن يورد نص عهد الوالى عقبة بن الحجاج إلى مهدى بن مسلم بولاية القضاء (وسنعرض له بعد قليل) يقول : « قال محمد (بن الحارث بن أسد الخشنى) قال أحمد بن

(١) أورد الخشنى تراجمهم ابتداء من ص١٨ حتى ص٣٠ .
(٢) النباهى : قضاة الأندلس ، ص٤٢ - ٤٣ .
(٣) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ترجمة ١٢٧ .
(٤) DOZY, Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes dans Recherches (3e. éd 1881) I p. I sqq.
والفقرة الخاصة بمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى فى ص٣٤ - ٣٦ .
(٥) انظر ترجمته عند ابن الفرضى ، ترجمة ١١٧٨ .
(٦) ابن الفرضى ، ترجمة ٩١٨ .
(٧) ابن الفرضى ، ترجمة ٩٠٠ .

فرج ، فقلت لأحمد بن عيسى : لقد عظُمت همتك إذ حفظتَ مثلَ هذا وشبهه من الأخبار القديمة ، فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لى عُمِّر نحو عمرى ، وكان من أحفظ الناس لأخبار المغرب وافتتاحه وأخبار بنى أمية عندكم ، ولقد كان عندى من كتبه أخبار حِسَان غريبة ، فذهبت بحريق كان فى منزلى ، ولقد بلغنى أن بعض من عندكم من بنى الأغلب أو غيرهم من الشيعة ادعى هذا العهد ، وكتب به نصاً إلى بعض ولاة القضاة ، وما هو إلا لمهدى بن مسلم هذا عندى [كنت] قديماً أحفظه زمن الصبا عن جدى ، فهل عندكم له ذكر ؟ فقلت له : ما سمعت به عندنا ولا باسم مهدى هذا . فقال : قد سألت غيرك من أهل بلدك ، فلم يكن يعرفه ، فياعجبى [١] ! كيف درس خبره عندكم ؟ لكنى أظنه لم يعقب ، فاضمحل خبره بالفتن التى دارت فى بلدكم » [٢] ، وهو خبر طويل مفصل يلقى شكاً على ولاية مهدى بن مسلم ، ولكنه يدل على تدقيق أحمد بن فرج بن منتيل .

وعندما يروى الخشنى أخبار القاضى الثانى عنترة بن فلاح يبدؤه بقوله : «حدثنى أحمد ابن فرج بن منتيل ، قال : حدثنى أبو محمد مسلمة بن زرعة بن روح بالعريش بالشام ، وكان شيخاً كبيراً قد نيف على المائة فيما ذُكر لى ، وأدرك حرملة صاحب الشافعى ، وحدثنى عنه وعن أمثاله ، وذكر لى أنه من موالى بنى أمية ، وكان ذا علم بأخبارهم القديمة والحديثة محباً لهم متشيعاً فيهم » [٣] .

وما يورده الخشنى من أخبار القاضى الثالث مهاجر بن نوفل القرشى منسوب أيضاً إلى أحمد بن فرج بن منتيل عن أبى محمد مسلمة بن زرعة هذا . أى أن أخبار القضاة الثلاثة مصدرها أحمد بن فرج عن راويتين أحدهما مغربى من تنيس والثانى مشرقى من العريش ، ولهذا فقد رفض دوزى أخبار هؤلاء القضاة الثلاثة ووصف الخشنى بقلة التدقيق وإيراده الأخبار دون تمحيص [٤] .

وتناول آسين بلاثيوس هذا الموضوع واتجه به اتجاهاً آخر ، ففى بحثه عن محمد بن مسرة ومدرسته قال إن أحمد بن فرج بن منتيل قد اخترع أخبار هؤلاء القضاة اختراعاً ليؤيد بذلك مذهبه ومذهب أستاذه محمد بن مسرة ، وهذا المذهب فى نظر آسين لم يكن مذهباً فلسفياً

(١) وردت فى النص المطبوع : « ياعجمى » ورجحنا تصويبها هكذا .
(٢) الخشنى : قضاة ، ص٢٣ - ٢٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص٢٤ - ٢٥ .
(٤) دوزى : نفس المصدر ، ص٣٤ - ٣٦ .

بقدر ما كان اتجاهاً دينياً سياسياً يرمى إلى مناهضة الفقهاء وسلطانهم المطلق فى الأندلس يؤيدهم البيت الأموى وما يسميه بالأرستقراطية العربية ، وهو يصف المسريين بأنهم إسبان قوميون (١) ، ومضى يحلل أسماء القضاة الثلاثة فقال إن الأول ، مهدى بن مسلم ، لابد أن يكون لإسبانى نصرانى اعتنق الإسلام ، وترجمه هكذا : un mesias hijo de un con-verso orenegado ، وهو فى رأيه ليس علماً على شخص بل رمزاً لاتجاه ، أراد به أحمد بن فرج بن منتيل أن يقول إن الاسبان تولوا القضاء فى الأندلس من أقدم العصور ، وفعل آسين بالثانى كما فعل بالأول وترجم اسمه un intrépido hijo de un labrador وترجم اسم الثالث هكذا : uno de la tribu de Coraix de los que salieron de la Meca hijo de una calamidad أى أن اسميهما أيضاً مؤلفان كاسم الأول ، وقد وضعها المسريون رموزاً على معان عندهم . وقد أيد خليان ريبيرا هذا القول فى مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للخشنى ، ولكنه عارض دوزى فيما ذهب إليه من أن الخشنى لا يوثق فيه ، وأنه حاطب ليل لا يدقق فيما ينقل (٢) ؛ غير أنه أسرف فى التفسير والاستنتاج حتى خرج بالموضوع إلى مجال التصورات والأوهام .

وعندما نشر ليفى بروفنسال تاريخ قضاة الأندلس للنباهى وجد أن هذا الأخير يذكر أسماء القضاة المشتبه فى أمرهم ، فذهب إلى أن أخبار القضاة الثلاثة صحيحة ، وأغلب الظن أنه لم يقل ذلك استناداً إلى حجج جديدة ، بل لمجرد أن النباهى أيد الخشنى فى هذا الموضوع. ومن الطريف أن كل ناشر يود أن يؤكد أصالة النص الذى ينشره ، فريبيرا يتهم أحمد بن فرج ابن منتيل بالكذب ، ولكنه يؤكد دقة الخشنى وأصالة كلامه ، وبروفنسال يتبنى كتاب النباهى ويدحض رأى دوزى ومن تابعه ، وهذه علة لم يسلم منها إلا القليلون من الناشرين.

وأياً كان نصيب أخبار أولئك القضاة الثلاثة من الصحة ، فمن الثابت أنه كان للأندلس على عهد الولاة قضاة ، وسواء أكانت أسماؤهم هى تلك التى ذكر بعضها الخشنى أم لم

(١) MIGUEL ASIN PALACIOS, Aben Masarra y su Escuela, Origines de la Filosofia Hispano Musulmana (1914)

ويلاحظ أنه ترجم الأسماء على أنها رموز ، فعنترة عنده رمز على رجل شجاع ، ويترجمها بلفظ intrépido ، ونوفل رمز أيضاً ومعناه المصيبة calamidad ، وقد قرأ عنترة بن فلَاح ، عنترة بن فلّاح وترجمها labrador .

(٢) المقدمة الإسبانية لترجمة كتاب القضاة للخشنى ، ص١٢ وما يليها .

تكن ، فقد قام فى الأندلس قضاة . قال الخشنى : « سمعت من أهل العلم سماعاً فاشياً أن عبد الرحمن بن معاوية الإمام دخل قرطبة وقام بالإمامة والقاضي يومئذ يحيى بن يزيد التجيبى ، فأثبته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله « فلان قاضى الجند » ، فلما امتنع الفهرى (يريد يوسف الفهرى) بغرناطة واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله إلى النزول ، واشترط (أن يكون التنازل) بحضور القاضى يحيى ، فحضر وكتب في كتاب المقاضاة : « وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضى الجماعة »[(١)] .

٢٠٢ - قاضى الجند وقاضى الجماعة وإذن فقد كان القضاة فى الأندلس يسمون قضاة الجند حتى أتى عبد الرحمن الداخل ، فأصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة ، وكان أول قاض للجماعة يحيى بن يزيد هذا ، ثم تلاه معاوية بن صالح ، وكان يلقب رسمياً بقاضى الجماعة . وهذا التطور معقول ؛ ففي فترة الولاة كان المسلمون هم الجند ، ولهذا كان القاضى قاضيهم ، فلما قامت الدولة الأموية واجتمع حولها الناس ، وكان الإسلام قد انتشر ، أصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة . وهذا التطور شبيه بما حدث فى بلاد إسلامية أخرى ، مثل مصر . غير أننا ينبغي أن نفرق بين قاضى الجند وقاضي العسكر ، فإن وظيفة قاضى العسكر نشأت بعد تسمية قاضى الجند بقاضى الجماعة ، واضطراره إلى الاستقرار فى العاصمة ، ومست الحاجة إلى إقامة قاض خاص بالعسكر ، يخرج مع الجيش ويعود معه . وفيما يتصل بالأندلس لدينا مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضياً للجند ثم صار قاضياً للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الأمير فى الغزوات ، واستمر ذلك أثناء قضاء معاوية بن صالح ، ثم اختص قاضى الجماعة بالحاضرة ، وأصبح أشبه بقاضى القضاة ، وأناب عنه قاضياً آخر للعسكر .

وما دمنا لم ننته إلى رأى فى موضوع القضاة الثلاثة الأول ، فلا بأس من أن نلم بذكرهم معتمدين على ما أورده الخشنى والنباهى من أخبارهم .

٢٠٣ - عهد تولية القضاء لمهدى بن مسلم يبدو أن حق تولية قاضى الأندلس لم يتقرر على وجه محدد فى فترة الولاة ، فقد كان عامل الأندلس يوليه أحياناً كما ولى عقبة بن الحجاج السلولى القاضى مهدى بن مسلم ، وهو أول قاض نسمع به فى تاريخ الأندلس، ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك ، يُفهم هذا من قول الخشنى :

---

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٨ - ٢٩ .

« وكان - أى عقبة بن الحجاج - قد اتخذ بالأندلس مقراً مدينة يقال لها أربونة ، وكان قد عرف مهدى بن مسلم بالعلم والدين والورع ، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها » ، أى أنه تركه قاضياً فى قرطبة وخرج بالجند ليقوم بقضائهم بنفسه ، وهذا أمر لا يستبعد على عقبة بن الحجاج ، فقد كان رجلاً دَيِّناً فاضلاً عالماً ، ذكر الخشنى - رواية عن أحمد بن فرج بن منتيل - أنه كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويبصره بفضله ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل» [١] .

ويذكر الخشنى والنباهى أن عقبة بن الحجاج أمر مهدى بن مسلم أن يكتب عنه «عهداً لنفسه » أى أمر تعيين ، وقد أجاد مهدى كتابة ذلك العهد ، حتى أصبح أقرب إلى دستور للقضاة ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن أحد ولاة إفريقية نقل نصه وأصدر به أمراً بتولية أحد قضاته ، مما يدل على مكانة هذا العهد وإحكامه ، وقد وصفه النباهى نقلاً عن الخشنى بأنه : « أصل من الأصول فى العهد بالقضاء » [٢] .

ويقول الخشنى : « وكان [عقبة] قد عُرِف مع ذلك بالبلاغة والبيان ، فلما أراد توليته قال له : اكتب عهدك عنى لنفسك ، فكتب مهدى بن مسلم الكتاب على أنه صادر عن عقبة ابن الحجاج إلى القاضى [٣] ، فبدأ بنصحه بما هو معروف من ضرورة الطهارة والنقاء واتباع الكتاب والسنة والتقرب إلى الله « بإجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه وإعطاء الحقوق من وجبت له ... وأن يحاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الأمانة الثقيل حملها الباهظ عبؤها ، فإنه مُحاسَب ومُوعَد وموعود » .

ثم يقرر بعد ذلك القواعد القضائية الآتية :

١ - التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون والانتباه له والصبر على عيى اللسان ناقص البيان ، وملاحظة أن بعض الخصوم « ألحن بحجته وأبلغ فى منطقه وأسرع فى بلوغ المطلب وألطف حيلة فى المذهب وإن كان غير الصواب مرماه » .

---

(١) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص١٩ .
(٢) النباهى : المرقبة العليا ، ص٤٢ . وانظر : أبحاث دوزى ، جـ١ ، ص٣٤ - ٣٥ .
(٣) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص١٩ وما يليها .

٢ - أن يتخير القاضى وزراءه وأهل مشورتـه والمعينين له من أهـل العلم والأمانـة . ولم نُشِر إلى هذه الطوائف الثلاث ممن يستعين بهم القاضى استعانة خاصة فى أداء عمله إلا لأنها ستتطور إلى وظائف ثابتة فيما بعد هى وظائف الفتيا والمشورة وأعوان القاضى ، وينص الكتاب نصاً خاصاً على مسألة الشورى فى الأحكام .

٣ - يجعل الكتاب القاضى مسئولاً عن حُجَّابه وأعـوانه وكل ما يفعلونه ، « فإن أفعالهم منسوبة إليه ومنوطة بيديه ، فإذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب».

٤ - وأن « يديم » الجلوس للناس بالمسجد والقعود للمتقاضين لا يسـأم ولا يتبرم ، وأن يكون صبوراً عطوفاً على « الضعيف عن التودد والزمن الثقيل » وأن يكون عنيفاً مع أهل «التلدد والتقحم فى ملتبسات الأمور » .

٥ - ويـشير الكتـاب إلى طائفتين أخـريين من المعاونين للقاضـى على أداء مهمتـه ، وهما طائفتا الشهود والمزكين . فأما الشهود فمهمتهم معروفة ، وأما المزكون فيوضح الكتاب مهمتهم بأنهم كانوا يزكون حجج الخصوم وبيناتهم ، وقد أصبح الشهود فيما بعد هيئة ثابتة معروفة للقاضى وهو مسئول عنهم ، فى حين كان المزكون غير ثابتين : لكل خصم الحق فى أن يأتى معه بمن يزكى حججه ويؤيده فيما يدعيه .

٦ - وفى الكتـاب أمر للقاضى بأن يستشير القاضى إبـراهيم بن حـرب فى كل ما أشكل عليه من المهمات ، « ليرد عليه منه ما يعمل به ويمتثله ويقتصر عليه ويصير إليه» . وليست لدينا أى معلومات عن إبراهيم بن حرب ، ولكن هذا النص يدلنا على أنه كان معتبراً كصاحب الفتيا فيما بعد ، وهو لهذا يضع أصبعنا على منشأ وظيفة كبيرة سيكون لها فى تطور نظام الحكم فى الأندلس أثر عظيم (١) .

والكتاب مصوغ فى أسلوب رصين بليغ ، يدلنا على أن مهدياً كان عالماً فاضلاً بليغاً ، ويصفه الخشنى بقوله إنه كان من « أبناء المسالمة من أهل الدين والعلم والورع» ، ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله « المسالمة » : لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتى ١١٦ و١٢٣ هـ/ ٧٣٤ و٧٤١م أى أن مهدى بن مسلم كان رجلاً ناضجاً ممن يعهد إليهم فى القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين سنة ، ولا يعقل أن يكون أبوه قد أسلم وأنجبه وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء فى هذه الفترة ، فلابد أن يكون مهدى من أبناء مسالمة إفريقية .

(١) انظر نـص الكتـاب عنـد الخشنى ، ص١٩ - ٢٣ ، وربما كانت بعض عبـارات قـد أضيفت إلى الكتـاب فيما بعـد ، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك .

ولا نزاع فى أن مهدى بن مسلم سار على القواعد التى قررها هو بنفسه فى كتاب عهده ، أى أن نظام القضاء قد تقرر على أصول منظمة من أول الأمر ، ولم تدخل فيه بعد ذلك إلا تعديلات طفيفة ، وهذه الحقيقة تقرر لنا ناحية إيجابية جديرة بالإعجاب لعهد الولاة فى الأندلس ، ففى ذلك العهد كان قضاة إفريقية يجرون فى أعمالهم على وجه مرتجل غير منظم .

٢٠٤ - عنترة ابن فلاح

وربما كان هذا البدء الحسن هو السبب فيما تمتع به قضاة الأندلس بعد ذلك من عظيم المكانة . فقد كان القاضى الذى أتى بعد مهدى - وهو عنترة بن فلَاح - حريصاً على مصالح الناس لا يقصر عن التضحية فى سبيلهم : حدث أن أصاب الناس محْل ، فقام يخطب مستسقياً ، فقام إليه رجل وقال : «أيها القاضى الواعظ ، قد حسن ظاهرك فحسن الله باطنك .. » .

- آمين لنا أجمعين ، فهل أضمرت شيئاً يا ابن أخى ؟

- نعم ، بتفريغ أهرائك يكمل استسقاؤك ..

- اللهم إنى أشهدك أن جميع ما حواه ملكى من المأكول صدقة لوجهك ..

وقد كان ، ووزع القاضى ما فى أهرائه على الناس . ويصور لنا هذا الحديث جانباً من طبائع الأندلسيين الصريحة التى لا تتردد فى مجابهة الحكام وطلب الحق منهم ، وفيه كذلك تعريض لاذع بالقاضى [1] . وكان الأندلسيون من أقدر خلق الله على هذا التعريض اللاذع الذى لا يخلو من عمق ...

وكان عنترة لا يحسن الارتجال ، حتى ليقال إنه كان إذا قام خطيباً أسدل على وجهه نقاباً ويقول : « متى لحظت الناس لم أصِل كلاماً » ، ولكن سخرية الأندلسيين أبت إلا أن تزعم «أن خطبته كانت مكتوبة فى صحيفة مشبكة فى الثوب المسدول على وجهه..».

٢٠٥ - مهاجر ابن نوفل القرشى

وكان ثالث قضاة الأندلس مهاجر بن نوفل القرشى رجلاً ورعاً تقياً لا أكثر ، إذا تخاصم الناس أمامه لم يزل يعظهم ويخوفهم ويتحسر على نفسه ويبكى حتى ينصرفوا من عنده « باكين وقد تعاطوا الحقوق بينهم » [2] .

---

(١) الخشنى : قضاة ، ص٢٥ - ٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص٢٧ .

٢٠٦ - يحيى بن يزيد التجيبي

وكان آخر قضاة هذه الفترة يحيى بن يزيد التجيبي ، وهو أول من تسمى بقاضي الجماعة كما قلنا ، وحينما دخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ثبته في مكانه . ولم يكن قيام يحيى بالقضاء من لدن أحد عمال الأندلس بل كان الذي أقامه قاضياً حنظلة بن صفوان عامل إفريقية وبعثه إليها مع أبي الخطار ، وكان قوي الشخصية لا يكاد يهاب أحداً ، فقد حدث أن يوسف الفهري فجأ قرطبة في غياب عبد الرحمن الداخل وظفر بجاريتين لعبد الرحمن فتعرض له القاضي وقال له : « يا لئيم ! عبد الرحمن ظفر ببناتك وكرايمك ، فتلوَّم عليهن حتى نقلن إلى دارك ، وأنت ظفرت بجاريتين له لم يستحقا منه حرمة فأخذتهما ! » فتذمم الفهري وقال : « والله ما رأيت لواحدة منهما وجهاً ! فاقبضهما » وبرىء بهما إليه . وحينما دخل عبد الرحمن الأندلس وقامت الحرب بينه وبين الفهري وأنصاره اعتزل يحيى الجند ولم يغمس يده في الدماء ، فلما قامت البيعة لعبد الرحمن أجاب إليها طائعاً (١) .

٢٠٧ - معاوية بن صالح الحضرمي

وكان يحيى بن يزيد مشاركاً في السياسة ، فقد أخذ جانب عبد الرحمن بن معاوية الداخل وتصدى ليوسف الفهري كما رأينا ، وكذلك كان القاضي الذي جاء بعده وهو معاوية بن صالح الحضرمي ، ولم يكن من قضاة عصر الولاة ، ولكنه دخل الأندلس في ذلك العصر ، وكان طبقة عالية في العلم حتى ليعد أعلم من دخل الأندلس إذ ذاك ، قال الخشني : « وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس في بعض رجاله : يحيى بن سعيد وغيره ، وروى عن معاوية بن صالح جملة من أئمة أهل العلم ، منهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث [بن سعد] وذُكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثاً واحداً ، وذُكر أنه أتاه يوماً إلى داره ، فانصرف عنه دون أن يصل إليه .

قال محمد [بن حارث بن أسد الخشني] وذكر محمد بن وضاح قال : قال لي يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم .. قال : أضعتم والله علماً عظيماً » (٢) وذكر الخشني بعد ذلك مكانة معاوية بن صالح بين محدثي ذلك العصر في المشرق وقال : « قال لي محمد بن

---

(١) الخشني : قضاة ، ص٣٨ .

(٢) الخشني : قضاة ، ص٣٠ - ٣١ .

أحمد بن أبى خيثمة : لوددت أن أدخل الأندلس حتى أفتش عن أصول كتب معاوية بن صالح ! قال ابن أيمن : فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أصحابها »(١) .

وكان معاوية بن صالح من أهل الشام من موضع قرب حمص يسمى غناة عبس ، وقد دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل فنزل إشبيلية ، وقد ظهر قدره عندما أتى عبد الرحمن فاستقضاه ، واتخذه من رجال رأيه وثقته ، وندبه إلى المشرق ليأتى بأخته أم الأصبغ ، فرحل إلى المشرق ولم يوفق فى مهمته لأن أم الأصبغ كانت قد كبرت سنها ولم تشأ الرحلة إلى الأندلس . وفى هذه الرحلة سمع من العلماء وسمعوا عنه ، وعاد إلى الأندلس وقد علا صيته وثبتت قدمه ، وهو من غير شك أول هذه السلسلة الطويلة الجليلة من فقهاء الأندلس(٢) .

* * *

٣٠٨ - اتجاه الأندلس نحو مذهب مالك

وظاهر أن معاوية بن صالح كان من السائرين فى طريق مالك بن أنس ، ولكنه لم يكن مالكياً ، لأن المدرسة المالكية لم تكن قد تكونت وانتظم أمرها بعد ، صحيح أن مالكاً وضع مذهبه كاملاً ، وصاغه على أسلوب يدل على أنه كان واعياً إلى أنه ينشىء تشريعاً كاملاً ، بخلاف أبى حنيفة الذى لم يكتمل مذهبه إلا على أيدى تلميذيه محمد بن عبد الرحمن الشيبانى وأبى يوسف القاضى ، وبخلاف الشافعى الذى يبدو أنه لم يكن واعياً أول الأمر إلى أنه يضع تشريعاً ، بدليل أن أصول مذهبه كما وضعها فى الحجاز تختلف عن أصوله كما تحددت فى صورتها النهائية فى مصر . ولكن تكوُّن المذهب لا يعنى قيام المدرسة ، لأن هذه تقوم بالأتباع والتلاميذ ، وقد كان مالك أكثر أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى تنبهاً إلى أهمية تكوين المدرسة ، فكان شديد العناية بتلاميذه وأصحابه ، بل إننا نلمح فى علاقته بأولئك أنه كان حريصاً على أن يكون له فى كل قطر جماعة منهم ، وهذا ظاهر جداً فيما يتصل بالمغرب والأندلس ، وقد ذكر المالكى فى « رياض النفوس » عدداً عظيماً من أهل المغرب وقال إنهم من تلاميذ مالك وأصحابه ، وحرص أهل الأندلس على أن يزيدوا فى عدد تلاميذ مالك المباشرين من أهل بلدهم ، ولكن البحث

---

(١) نفس المصدر ، ص٣١ . وانظر أيضاً النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص٣٢ .

الصحيح أثبت أن جانباً عظيماً من هذه المعلومات مخترع فى عصور متأخرة ، وقد دفعت إلى الاختراع الرغبة فى تعظيم أمر المالكية فى الأندلس (١) .

وكل ما نستطيع أن نقوله فيما يتصل بمعاوية بن صالح ومعاصريه أنه من الممكن أن يكونوا قد تتلمذوا لمالك فعلاً ، وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ولكنهم كانوا جميعاً محدِّثين ، ولم ينتبهوا إلا إلى ناحية الحديث عند مالك : سمعوا منه ونقلوا عنه على أنه فقيه محدث ، ودخلوا الأندلس فقهاء محدثين ، وهذه هى الصفة الحقيقية لمعاوية بن صالح ومن عاصره أو تقدم عليه أو تأخر عنه قليلاً ، من أمثال سعيد بن أبى هند ، ومحمد بن يحيى السبأى ، وداود بن جعفر ، ومحمد بن إبراهيم بن مزَيِّن ، وشَبطون بن عبد الله الطليطلى ، ومحمد بن بشير القاضى ، وعبد الرحمن بن موسى الهوارى (٢) ، فهؤلاء جميعاً كانوا فقهاء محدثين وهم الذين وضعوا أسس الدراسات الفقهية فى الأندلس ، ولكنهم لم يكونوا من مؤسسى المالكية الأندلسية .

٣٠٩ - نقطة البدء للمالكية الأندلسية

ولكن حياة معاوية بن صالح تضع أيدينا على نقطة البدء للمالكية الأندلسية ، فقد أصهر إليه أحد تلاميذه وهو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وهو واحد من ثلاثة من الثابت أنهم مؤسسو المذهب فى الأندلس ، وهم الذين أدخلوا الموطأ ونشروه بين الناس ، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب ، بل الرسمى لأهل الأندلس ، أولهم الغازى بن قيس ، وثانيهم زياد بن عبد الرحمن هذا ، وثالثهم يحيى بن يحيى الليثى .

وقد كان من الممكن أن نُتْبع الكلام عن القضاة بالكلام عن الفقه والعلم فى الأندلس خلال هذه الفترة ، ولكننا رأينا أن بحث هذا الموضوع فى هذه الفترة لا يعدو أن يكون مقدمة لما سيظهر فى عصور تالية ، ثم إن الأمر يتطلب دراسة الثقافة المحلية التى وجدها المسلمون فى الأندلس وأخذوا منها وتأثروا بها ، أى الرجوع بالموضوع إلى أصوله البعيدة

---

(١) بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً الدكتور محمود على مكى فى بحثه الذى وضعه بالإسبانية وعنوانه: Estudio sobre las aportaciones orientales en la Espana Musulmana y su importancia en la formacion de la cultura hispano - musulmana.

وهو دراسة عظيمة القيمة نرجو أن تطبع وتترجم إلى العربية ليفيد منها الدارسون . والجزء الخاص بموضوعنا ، ص١٣٣ وما يليها ، وقد اعتمدنا عليه فى هذا الجزء من كتابنا .

(٢) أورد تراجمهم جميعاً ابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس ؛ انظر الفهرس .

أيام الرومان والقوط ، فقد كانت إسبانيا بلد علم وعلماء على أيام هؤلاء ، وكانت لمؤلفاتهم وآرائهم آثار بعيدة فى تكوين العلم الأندلسى فى شتى فروعه ، ثم إننا إذا قدمنا هذه المقدمات الطويلة لم نستطع الوقوف بالبحث عند حدود الفترة التى نتحدث عنها ، لأن الثمرات كلها لم تظهر إلا بعدها ، فى عصور تالية ؛ ولهذا فقد رأينا أن نكتفى بهذه الإشارة ، حتى إذا أتاحت لنا الظروف دراسة العصر التالى عرضنا الموضوع كاملاً بمقدماته ونتائجه .

* * *

الفَصل الثانى عَشرَ

قيَامُ الدّولة الأمويّة

انتهى عصر الولاة على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخل بإقامته الدولة الأموية الأندلسية ، وكان من الممكن أن ندع الكلام على قيام هذه الدولة لبحث خاص عن العصر الذى تلا عصر الولاة ، ولكن عبد الرحمن دخل الأندلس على أيام يوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، ودارت بينه وبينهما رحى صراع طويل انتهى بانتصاره عليهما وزوال أمرهما وزوال المعالم التى ميزت الفترة التى ندرسها ، فلم يكن هناك بد من الإلمام بسيرة عبد الرحمن ودخوله الأندلس وإقامته دولته فيه ، حتى نصل بعصر الولاة إلى نهايته ، ولهذا فإن حديثنا عنه يعتبر ختاماً لتاريخ عصر الولاة وبدءاً لتاريخ الإمارة الأموية القرطبية ، ولم نر بداً من ذلك ، حتى تتجمع أطراف البحث ، وحتى تكون أمامنا صورة كاملة لعصر عظيم الأهمية كما رأينا ، وإن كان قصيراً فى عدد سنواته ، فإذا تقرر هذا فلابد أن ندرس سيرة عبد الرحمن من أولها .

* * *

وُلِدت الدولة العباسية فى الكوفة فى ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩م فى اليوم الذى بويع فيه لأبى العباس عبد الله بن محمد بعد دخول قائده أبى سلمة الخلال الكوفة قبل ذلك بأسابيع ، ولم تنقض أشهر حتى رفرفت رايات العباسيين على دمشق، وفرَّ مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بمن معه من الجند ، ولحق بهم عبد الله بن على عم السفاح وأوقع بهم هزيمة كبيرة على نهير الزاب أحد فروع دجلة ، وفر مروان وطارده عبد الله بن على حتى قتله فى قرية بوصير بمصر ، وبذلك زالت الدولة الأموية فى المشرق من الوجود ، وأعقبت ذلك مذبحة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلاً عثروا له على أثر ، واستمرت المذابح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بنى أمية إلا أفراد شردوا فى الآفاق .

٢١٠ - فرار عبد الرحمن إلى المغرب

وكان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أحفل بيوت بنى أمية بالمصيبة ، فقد خلف معاوية هذا عقباً وافراً يذكر المؤرخون منهم أربعة ذكور وبنتين ، أما أولهم فهو أبان ، وقد وقع فى يد العباسيين فقطعوا يده ورِجْله وطافوا به

فى قرى الشام على ظهر حمار ومن خلفه مناد يصيح ، واستمر على هذه المحنة حتى هلك . ولما أعلن أبو العباس أمانه المشهور واحتال به على الإيقاع بأكثر من سبعين أموياً فى دير الجماجم ، كان من ضحايا هذا الأمان ابن ثان لمعاوية هو يحيى، ولم يفلت أخوه عبد الرحمن إلا بأعجوبة ، إذ كان قد خرج فى صيد له فلم يفجأه جند العباسيين ، ولم يكد يعلم بما جرى لأخيه حتى استتر بالليل وفرَّ إلى قرية كانت تقيم فيها أختاه أم الأصبغ وأمة الرحمن وابن صغير له وأخ صبى له فى الثالثة عشرة من عمره ، ولم يكد عبد الرحمن يستقر فى القرية ويشعر بشىء من الاطمئنان حتى رمدت عيناه ، فأقام حبيساً فى حجرة خوفاً من رجال العباسيين وطلباً لشفاء عينيه .

فإذا كان فى حجرته تلك يوماً فقد فاجأه العباسيون بقوة كبيرة وأقبلوا يحاصرون القرية، وشاءت المقادير أن ينجو مرة أخرى ، لأن ابناً صغيراً له روعته خيل العباسيين وراياتهم السود فدخل عليه مُعْولاً ، فكان هذا نذير الخطر ، ونهض عبد الرحمن معجلاً ، فأخذ ما استطاع أخذه من المال وودع أختيه وابنه ، وطلب إليهما أن تبعثا إليه مولاه بدراً فى مكان عيَّنه لهما فى غابة قريبة من القرية ، ثم استصحب أخاه الصبى ومضى لا يلوى على شىء بعد السلامة . وانتظر عبد الرحمن وأخوه فى مكان مجاور للقرية حتى وافاهما بدر مولاه بشىء من المال ، فمضوا حتى أتوا موضعاً على الفرات ، فطلب عبد الرحمن رجلاً يعرفه وأعطاه مالاً ليشترى له خيلاً وطعاماً ، ومضى الرجل يصحبه بدر مولى عبد الرحمن الأمين ؛ وكان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن عبداً لهذا الرجل علم بالخبر فأسرع به إلى عمال العباسيين ، فأسرعوا إلى الغابة وحاصروها ، وريع الأخوان فأسرعا يعدوان حتى اختبآ فى حديقة على ضفاف الفرات .

وأقبل العباسيون يحاصرونهما وضيقوا عليهما حتى كادا يقعان فى أيديهم ، ولم يبق أمامهما إلا أن يلقيا بنفسيهما فى عباب النهر ويسبحا إلى الضفة الأخرى ، وقد فعلا ، فإذا قطعا من الشوط جانباً فقد تعب الصبى وترامى إلى سمعه نداء رجال العباسيين يعدونه بالأمان إذا عاد ، فانقلب الصبى راجعاً ، ولم يكد يخطو على الشط حتى تقاسمته السيوف وأخوه يراه بعينيه فيشتد فى سباحته . ووصل إلى بر الأمان سالماً ، ثم مضى ينهب الأرض حتى أدرك مكاناً من فلسطين كان قد ذكره لأختيه ، وهناك أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته بمال وجوهر ليستعين بهما فى محنته . ومضى الثلاثة معجلين فعبروا بمصر وأفضوا إلى إفريقية

حيث كان الحال مضطرباً ثائراً ، فأمنوا برهة فى وديان المغرب وشعابه وبين قبائله وأهله الذين فرَّقتهم الثورات وصرفتهم عن الالتفات إلى دعوة العباسيين (١) .

كانت سنه عشرين سنة (٢) حينما أقبل إلى إفريقية ، ولم يكن يؤمل إذ ذاك إلا فى النجاة من رجال العباسيين الذين كانوا يتتبعون كل أموى يعثرون له على أثر ، ولم تكن الظروف فى إفريقية لتغذى فيه أى أمل فى تحسن الحال ، لأن بربر إفريقية كانوا قد كرهوا العرب كراهة عميقة بعد الذى كان من عسفهم بالبربر وثورة هؤلاء عليهم هذه الثورة العنيفة التى تحدثنا عنها ، وكان دعاة الخارجية وأعداء بنى أمية الهاربون قد ملأوا نفوس أهل البلاد كراهة للأمويين وسخطاً عليهم ، فلم يكن للفتى على ذلك بعد السلامة مطمع .

٣١١ - المغرب فى فترة الانتقال من الأمويين إلى العباسيين

وكانت أمور إفريقية قد انتهت على ما ذكرنا إلى عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة ابن نافع الفهرى ، وكان فهرياً من عرب إفريقية ، وكان واسع المطامع عظيم النشاط حارب البربر فى جيش كلثوم بن عياض . فلما انهزم كلثوم وفرَّ ابن أخيه بلج بن بشر فى نفر من القيسيين إلى سبتة ، تركهم عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى قريبه عبد الملك بن قطن الفهرى ، وجعل يحرضه على القيسيين ، ثم سارت الأمور فى الأندلس على عكس ما رجا ، وصار الأمر إلى بلج ثم إلى ثوابة ففر عبد الرحمن بن حبيب عائداً إلى إفريقية ، حيث جمع نفراً من عرب إفريقية اليمنيين واستطاع أن يطرد حنظلة بن صفوان وجنده من البلاد ويستقر فى القيروان حاكماً بأمره (٣) .

ولكن باله لم يهدأ رغم استقرار الأمر له ورغم اضطراب الأمر على بنى أمية فى المشرق، لأن جنده كان قليلاً ، ولأن قلوب البربر من أهل البلاد لم تكن معه ، لأنه كان فى واقع الأمر

---

(١) انظر : الأخبار المجموعة ، ص٤٦ - ٥٦ ، ٦٩ - ٧٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٤٩ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص٣٣ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص٢١٥ .
عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١١ .
النويرى : نهاية الأرب ، ص١٥٤ .

(٢) ولد عبد الرحمن سنة ١١٣هـ (٧٣١م) فى دير حُسَيْنَة أو دير حَسِنة على مقربة من دمشق .
انظر ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٤٩ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص٣٣ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص٣٨ وما بعدها .

مغامراً كثير التقلب لا يكاد يقصد إلا لخير نفسه وحدها ، واضطربت البلاد عليه وتناوبتها الأوبئة ، « ثم ثار عليه عروة بن الزبير الصدفى واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عرب الساحل ، وقام عليه ابن عطاف الأزدى حتى نزل بطُبْنَاس ، وثارت البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها ، وخرج بناحية طرابلس رجلان يقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر على مذهب الخوارج ، فقاتل عبد الرحمن بن حبيب كل من خرج عليه طائفة بعد أخرى ، حتى دوخ المغرب كله ، وأذل مَنْ به مِنْ القبائل ، ولم ينهزم له عسكر ، ولا ردت له راية ، وخافه جميع أهل المغرب »(١) .

وأراد أن يؤيد سلطانه ، فكتب إلى مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وحصل منه على ولاية المغرب والأندلس جميعاً . ثم قامت الدولة العباسية ، فعجل عبد الرحمن بالكتابة إلى أبى العباس بطاعته ، ثم كتب إلى المنصور كذلك وأهدى إليه شيئاً رجاء أن يثبته فى البلاد ، وخشى أن يرهقه المنصور بالمطالب ، فكتب يؤكد له أن إفريقية أصبحت إسلاماً كلها ، وأنه لن يستطيع إرسال سبايا إليه ، فأغضب كتابه المنصور ، ووقعت النفرة بينهما ، فخلع طاعة المنصور وأحرق الخلع التى كان هذا قد أرسلها إليه ، « وأمر كاتبه خالد ابن ربيعة أن يكتب كتاباً بخلعه ويقرأ على المنابر فى سائر بلاد المغرب » ، وبهذا خرج هذا الرجل عن طاعة الدولة وازداد مركزه فى البلاد حرجاً(٢) .

وطبيعى بعد ذلك أن يظل متربصاً يتخوف على سلطانه من كل أحد ومن كل طارىء ، وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن يهودياً أخذ علم النجوم عن مسلمة بن عبد الملك حذره من أموى اسمه عبد الرحمن يقيم ملكاً فى الأندلس ، وطبيعى أن هذه أسطورة ابتدعها مؤرخو الأمويين فى الأندلس مبالغة منهم فى تصوير حياة عبد الرحمن منشىء دولتهم ، والواقع أن عبد الرحمن بن حبيب كان متخوفاً مترقباً لكل أمير أموى هارب يصل إلى بلاده سواء أكان اسمه عبد الرحمن أم لم يكن .

وكان نفر من بنى أمية هؤلاء قد وفدوا عليه لاجئين ، فتزوج هو وأخوه إلياس من حريمهم ، ثم بدا له بعد ذلك أنهم يدبرون عليه فقتل منهم اثنين ، وكانت لهما أخت تزوجها

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ص٣٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص٤٠ .

إلياس أخو عبد الرحمن بن حبيب فلم تزل تغريه بأخيه حتى دفعته إلى قتله ، ولم يَصْفُ لإلياس الأمر بعد قتله أخاه ، لأن حبيب بن عبد الرحمن ثار به ووقعت بينهما فتنة طويلة .

* * *

٣١٢ - عبد الرحمن ابن معاوية فى المغرب

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية أيام عبد الرحمن بن حبيب ، ومن الطبيعى أن يتخوفه على نفسه ، ولو قد كان هذا الأموى الشارد خامل النفس قنوعاً للجأ إلى عبد الرحمن بن حبيب وعاش فى ظله عيشة خمول لا تخلو من الاستمتاع كما كان غيره من أمراء بنى أمية يفعلون ، ولكنه كان مغامراً بطبعه جرىء القلب ، ففضَّل أن يعيش بين البربر حياة قلق واضطراب .

وتحدثنا المراجع أنه تقلب فى نواحى إفريقية كلها دون أن يغادر منها ناحية لم يجرب فيها حظه : أقام ببرقة حينًا ، ثم مضى إلى تاهرت حيث استظل برعاية بنى رستم حيناً... ثم اختفى فى قبائل مكناسة ، ثم قضى ردحاً فى صبرة ، وانتهى به الأمر بعد خمس سنوات من الهرب والتجوال والمغامرة إلى قبائل نفزة على مقربة من طنجة . وكانت أمه من سبيهم ، والظاهر ، أنه استطاع كسب ودهم لأن كثيراً منهم عطف عليه وقام برعايته . والظاهر كذلك أنه لم يقنع بحياة الخمول ، فجعل يدبر على عبد الرحمن بن حبيب ، واتصل أمره بهذا الأخير ، فبعث من يبحث عنه ؛ وكان الطلب عليه شديداً حتى أن امرأة أحد شيوخ نفزة اضطرت إلى إخفائه تحت ثيابها حتى لا يقع فى أيدى عمال عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يرافقه فى هذه المغامرات كلها مولاه بدر ومولى أخته سالم ، وكان عبد الرحمن عنيفاً على موليه هذين لميل إلى الاستبداد كان فيه ، فأما سالم فقد غضب مرة وفارقه بعد أن احتمل شدته وحياة الشقاء معه زمنا طويلاً [1] ، وأما بدر فقد أقام معه مخلصاً له ، وقد قُدِّر له أن يكون أخلص معاونيه فى بناء مجده .

أقام عبد الرحمن عند قبائل مغيلة من ساحل طنجة فى كنف شيخها أبى قرة ، ولا شك أن شيئاً كثيراً من أخبار الأندلس وما كانت فيه من الاضطراب قد اتصل به ، ويغلب أن استقراره عند مغيلة هؤلاء كان حوالى سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لأن المراجع تحدثنا بأن أمر الأندلس إذ ذاك كان قد استتب ليوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، وكان سالم مولى أخته

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٥٥ (وهو يذكر أن كنية سالم كانت أبا شجاع) .

قد حدَّثه بشيء عن خير الأندلس إذ كان قد قدمها مع موسى بن نصير ، فتطلعت نفس هذا الفتى المغامر إلى هذا البلد الواسع الغنى الذى أفسد الاضطراب أمره [١] .

٣١٣ - تفكير عبد الرحمن فى أمر الأندلس

ولسنا نعلم كيف نشأت الأطماع فى ولاية الأندلس فى نفس عبد الرحمن ، والثابت على كل حال أنه لم يحاول أن يبنى لنفسه ملكاً فى أى مكان من إفريقيـة ، وأن الطمع فى الإمـارة نشأ فى نفسـه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة ، وربما نشأت فى نفسه هذه الأطماع حينما علم أن فى الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش فى ناحيتى البيرة وجيان مشطورة بين جندى دمشق وقنسرين ، ولم تكن أحوالهم بالآمنة ولا المستقرة لأن أكثرية عرب الأندلس من اليمنيين كانت تنفس عليهم مكانهم وثروتهم ، وكانت كذلك لا ترضى عن تأييدهم ليوسف الفهرى وصاحبه الصميل، ولابد كذلك أنه تسامع بأن هؤلاء الأمويين فى حاجة إلى شخصية قوية تجمع أمرهم وتقوى صفوفهم ، لابد أنه تسامع بذلك وإلا لما بعث إليهم مولاه بدراً برسالة خطيرة يعرض عليهم فيها رياسته ، وهو لم يفعل ذلك فى إفريقية أبداً ، مع أن إفريقية لم تخل من جماعات من موالى بنى أمية وأنصارهم، وكان مستطيعاً تجريب حظه معهم، لو كانت المسألة مجرد تجريب حظ ، بل قد كان أولى به أن يحاول فى أفـريقية لأن عـرب نواحيها لم يكـن فيهـم من يقارب الصميل أو يوسف الفهرى أو غيرهما من كبار العرب الذين تحدثنا عنهم .

ثم إن بدراً وموالى بنى أمية لم يكادوا يعرضون الأمر على الصميل حتى قبل ، مع علمه بأن هذا القبول يعنى ضياع سلطانه ، بل إننا نتساءل : لماذا قصدوا الصميل ولم يقصدوا يوسف وهو أضعف من الصميل وأكثر ليناً ؟

هناك حلقة مفقودة تجعل السياق كله قلقاً غير منسجم . وليس لدينا فى ذلك الصدد إلا أربع أو خمس روايات لا تكاد إحداها تزيد على الأخريات شيئاً ذا بال . وربما أعاننا على استجلاء هذا الأمر أن نقرر أنه كان هناك تفاهم واتفاق بين الصميل بن حاتم وجماعة موالى بنى أمية وزعمائهم من أمثال أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت . ولسنا ندرى كيف تم هذا التقرب على الرغم مما تؤكده المراجع من أن موالى بنى أمية

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٤٢ - ٤٣ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ، ص٢٣٨ .
البكرى : وصف إفريقية (طبعة دى سلين ، الجزائر ١٩١١) ، ص ١٢٣ .

كانوا معتبرين موالى يوسف الفهرى من يوم زالت الدولة الأموية فى المشرق ، فقد اعتبر هذا الرجل نفسه وارث كل ما كان للأمويين فى الأندلس ، بما فى ذلك الموالى [١] ، وربما يكون هذا قد ساء هؤلاء الموالى فسعوا إلى الانضمام إلى الصميل بن حاتم للتخلص من سلطان يوسف. وسنلاحظ أن هذا الأخير لم يفطن إلى ذلك ومضى يعتبر موالى بنى أمية مواليه وأخصاءه ، وكان ذلك من أخطائه الكبرى ، ولا يبعد أن يكون الصميل قد قرَّبهم إلى نفسه ليفيد منهم وقت الحاجة .

ولم تكن العلائق بين الصميل ويوسف طيبة على كل حال ، فقد كان يوسف منكراً للسيطرة التى يفرضها عليه الصميل ، وقد رأيناه يسعى للتخلص منه فيبعثه إلى سرقسطة وكان كل أهلها يمنيين لا يطيقون هذا القيسى الجافى ، وقد ثاروا عليه وكاد يهلك على أيديهم كما رأينا ، ثم لم يكد الصميل ينجو حتى عاد يوسف يفكر فى بعثه إلى الثغر ، وسيكون ذلك دافعاً بالصميل إلى إلقاء يده إلى عبد الرحمن والدخول فى دعوته . ولنلاحظ كذلك أن موالى بنى أمية فى الأندلس لم يكونوا قليلين ، فقد كانوا موزعين بين جندين ، ولم يكن عددهم أربعمائة أو خمسمائة كما يظن [٢] ، بل كانوا أكثر من ذلك بكثير ، ولم يكن يربطهم إلى يوسف الفهرى والقيسيين إلا الصميل ، فلما تخلى عنهم الصميل تخلوا عن القيسية ومالوا إلى اليمنية . على أساس هذه الملاحظات نستطيع أن نمضى فى رواية الأحداث التى انتهت بإنشاء الإمارة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن .

من الواضح أن عبد الرحمن حينما أرسل مولاه بدراً ليبدأ العمل فى الأندلس فى ربيع سنة ١٣٦ هـ كان قد كوَّن لنفسه فكرة واضحة عن الأحوال فى البلاد ورسم لبدر خطة العمل ، ودليلنا على ذلك أنه أعطاه خطاباً مكتوباً يعرض فيه على موالى بنى أمية أمره ويسألهم تأييده ، ولا شك فى أنه عرض عليهم ترشيح نفسه أميراً على الأندلس مكان يوسف والصميل لكى يستطيع أن يضع حداً للفوضى الضاربة أطنابها ، ولكى يقيم أمر بنى أمية فى البلاد من جديد ، وقد توجه عبد الرحمن بكتابه إلى جماعتى موالى بنى أمية فى البيرة وجيان . ونقول إنه حدثهم فى أمر ترشيحه لولاية الأندلس ، لأننا سنرى من اجتهادهم فى الأمر وإلحاحهم فى إنفاذه أن المسألة لم تكن مجرد طلب أمان ، ولو كان قد سألهم إيواءه فقط لما احتاج الأمر إلى هذا العناء كله .

(١) انظر الأخبار المجموعة ، ص٧١ سطر ٥ وبقية السياق .
(٢) تذكر المراجع أن عددهم كان حوالى ٤٠٠ .
انظر الأخبار المجموعة ، ص٧١ و٧٢ .

ولم يُضِع بدر وقته سدى ، بل اتجه إلى رؤساء موالى بنى أمية الثلاثة الذين ذكرناهم وأسلم إليهم خطاب مولاه ، واجتهد فى إقناعهم ، ولم يلق صعوبة فى ذلك ، لأنهم كانوا رغم اطمئنانهم إلى الصميل لا يكادون يطمئنون إلى بقية القيسيين . فلم يكد أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت يستوثقون من أمر بدر وسيده حتى نهضوا يخاطبون فيه الصميل ، ولو لم يكونوا أخصاءه وأصدقاءه لما خاطروا بمثل ذلك ، ولكنهم ذهبوا وهم واثقون من أن الرجل موغر الصدر من يوسف وأنهم لا يكادون يعرضون عليه الأمر حتى يجيبهم إليه ، راجياً لنفسه من ورائه خيراً كثيراً . وكان موالى بنى أمية يعرفون الصميل وما به من نزوع إلى السلطان ، فتلطف رسولاهم فى عرض الأمر عليه ، « وذكّراه بأيادى بنى أمية عنده وعند سلفه ، وقالا له : إن عبد الرحمن بن معاوية نجا إلى بلد البربر وهو مستتر فيه خايف على نفسه ، وأتتنا وصيته يسأل الأمان فى نفسه ، ويتوسل إليك بما قد علمته ، وأنت ذاكر له ، فقال : نعم وكرامة ! ونضم يوسف هذا إلى أن يزوجه ابنته ويشركه فى سلطانه ، وإلا ضربنا صلعته بالسيف » مما يدل على أن موليى بنى أمية عرضا عليه الأمر كأنه طلب أمان فقط ، ولو كانا حدثاه فى أن يصبح عبد الرحمن صاحب الأندلس لما قال أنه مستعد لإرغام يوسف على إشراكه معه فى الأمر فقط(١).

ولنلاحظ كذلك أن الأمويين لقوا الصميل فى لحظة كانت نفسه متفتحة فيها لقبوله ، فقد كانت نفسه راضية عن خلاصه مما كان اليمنيون يريدونه به ، وكان لفرط سروره يفرق الأموال فى الناس من غير حساب ، ولما كان موالى بنى أمية من أكبر الناس فضلاً فى خلاصه فقد كانت نفسه متفتحة لقبول أى رأى يتوجهون إليه به . وكانت الأحوال العامة قد تحسنت ، إذ انجابت المجاعة « وأربع الناس وحملت الأرض » (٢) ، ولم ينتظروا حتى يستقر الرجل فى قرطبة بل كلموه فى الأمر وهو فى طريق العودة من سرقسطة . عرضوا عليه أمر عبد الرحمن وما يطلب من القدوم إلى الأندلس والاستعانة بأهلها ، ويبدو أن عبد الرحمن تلطف فى خطابه فلم يتحدث عن إمارة أو ملك وإنما عرض سوء حاله لكى يعطف القلوب على نفسه ، ولا نزاع فى أن الصميل حسبه شاباً مسكيناً لا يطمع فى أكثر من أن يكون من رجال الصميل وأنصاره وفى أن يشتد به ساعد القيسيين لانتسابه إلى بيت أمية ، على هذا الأساس وحده نستطيع تفسير قبول الصميل للدعوة وعدم نفوره منها على الأقل ، فسأل

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٣ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٧٠ .

الرسولين فترة يُروِّى فيها أمره ، فعجلا وجمعاه ببدر ، فاستقبله الرجل استقبالاً طيباً وأعطاه عشرة دنانير وشقة خز [١] .

واستقر الصميل فى قرطبة فلم يطمئن يوسف إلى ذلك ، فبدأ يلح عليه فى العودة إلى الثغر ، لأن اليمنيين انتهزوا فرصة عودة الصميل إلى قرطبة وانقضوا على سرقسطة يقودهم زعماؤهم عامر وابنه وهب والحباب وتحصنوا بها وأعلنوا خروجهم على يوسف ، وتطلب الأمر القضاء عليهم . وأخذ يوسف يلح على الصميل والصميل يُسَوِّف ، علماً منه أن يوسف لا يرمى إلا إلى إبعاده عن قرطبة والتخلص من سلطانه .

وكان يوسف الفهرى قد اعتبر موالى بنى أمية مواليه هو بعد زوال أمر مواليهم بنى أمية فى المشرق كما قلنا ، فلما يئس من الصميل بعث إلى رؤسائهم وأمرهم بأن يجمعوا رجالهم ويسيروا بهم نحو سرقسطة ، ولم يكونوا بالطبع راغبين فى هذا المسير ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الأمر ، فجعل رؤساؤهم يتعللون بأن رجالهم لا يستطيعون النهوض إذ أن « كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبى جوشن ، فتقطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد » ، فصدَّقهم الرجل وأعطاهم ألف دينار ليتقووا بها على النهوض ، فانتهزوا فرصة غفلته وحاولوا أن يكسبوا منه أكثر من ذلك ، وقالوا : «هم خمسمائة مدَوَّن ، وأين تبلغ هذه منهم ؟ » ، فلم يزد . فانصرفوا من عنده وقد قرروا فيما بين أنفسهم أن يستخدموا هذا المال فى تحقيق ما كانوا يدبرونه مع بدر والصميل[٢] .

وقرر يوسف الرحيل بنفسه بعد أن اطمأن إلى أن موالى بنى أمية موافوه ، فرحل فى ذى قعدة سنة ١٣٧ ، وخرج معه الصميل يتلكأ ؛ فلما بلغ جيان نزل « بمخاضة الفتح» على مقربة منها حيث أقبل عليه بعض جنده ، ففرَّق فيهم الأعطيات ، وجعل ينتظر موالى بنى أمية ؛ فلما أبطأوا عليه استدعى أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسأله عنهم ، فتعلل مرة أخرى ، وأكد له أنهم لاحقون به قبل أن يدرك طليطلة ، وإنما هم منتظرون حتى يجمعوا شعيرهم ليستقووا به ، فلم يشك الرجل فى كلامه ، وأمره بالعودة إليهم والضغط عليهم فى المسير .

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص٧٠ . ويلاحظ أن عدد ٥٠٠ هو عدد المدونين منهم فقط ، لا شك أنه كان هناك عدد من غير المدونين .

ولكن عبيد الله لم يسر إلى البيرة ، بل عرج على الصميل فى مؤخرة العسكر ، فلما خلا به ذكَّره بأمر عبد الرحمن وسأله عما استقر عليه أمره ، ويبدو أن الصميل لم يكن فكر ولا روَّى وإنما فاجأه عبيد الله بذلك وهو على شرابه وقد رضيت نفسه ، فقال له : « أما إنى ما أغفلت ذلك ، ولقد روَّيت فيه واستخرت الله وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريباً ولا بعيداً ، وفاءً بما جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصرى حقيق بالأمر ، فاكتبا إليه على بركة الله، فإن [أبى] هذا الأصلع (يريد يوسف) علىّ أن يتخلى لى عن هذا الأمر ، وأزواجه من أم موسى (يريد ابنته أم موسى ، وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجها قطن بن عبد الملك) على أن يكون واحداً منا ، فإن فعل قبلنا منه وعرفنا حقه ومِنَّته ويده ، وإن كره هان علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا ! » (١) وخرج الأمويون من عنده وقد ملأ البشر والتفاؤل نفوسهم .

ولم يكادوا يخرجون من حضرته وينطلقون بالبشرى إلى قومهم حتى بدأ الصميل يفكر فى الأمر ويأخذه مأخذ الجد ، وهنا فقط أدرك خطورة الأمر وأحس أن إقبال عبد الرحمن قد يعنى ضياع أمره ، فعجل بإرسال رسول يستوقف رسل موالى بنى أمية فى الطريق ، ثم لحق بهم على ظهر فرسه « الكوكب » مما يُفهم منه أن الأمر روعه ، وقال لهما فى أسلوبه الطريف فى الكلام : « إنى منذ أتيتمانى برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل فى إدارة ، فاستحسنت ما دعوتما إليه ، ثم كان منى إليكما ما كان ، فلما فارقتكما روَّيت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله . وهذا (يعنى يوسف) رجل قد حكمنا عليه مع ما لَه فى أعناقنا . والله لو بلغتما بيوتكما ، ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما لئلا أغركما ، وإنما أعلمكما أن أول سيف يسل عليه سيفى ! فبارك الله لكما فى رأيكما ومولاكما » (٢) فأسقط فى أيديهما وعلما أن الرجل جاد فيما يقول ، وأن لا رجاء لهما فيه بعد ذلك .

وهكذا انتبه هذا الرجل لأمر نفسه فى آخر لحظة ، وعاد إلى بيته وهو لا يشك فى أن أمر ابن معاوية هذا قد انتهى ، وكان قد أحب استرضاء أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله ابن خالد فأكد لهما أنه يعطف على مولاهما ، وأنه على استعداد ليعطف قلب يوسف عليه فيزوجه من بيته ويكرمه إذا تخلى عن طلب السلطان .

(١) الأخبار المجموعة ، ص٧٣ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٣ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٧٣ .

أراد الصميل شيئاً وأراد الله شيئاً آخر . أراد أن يقضى على آمال عبد الرحمن وموالى بنى أمية فى السلطان فى الأندلس ، فكانت إرادته تلك فتحاً لباب الأمل أمام وجوههم. فقد فكروا بعد يأسهم من المضريين المعديين فى الاستعانة بالكلبيين اليمنين، فجعلوا فى طريق عودتهم إلى البيرة لا يكادون يمرون بمنازل يمنية إلا حدَّثوا أشياخها فى الأمر ، وكانوا فى ذلك أسعد حظاً من يوم توجهوا بآمالهم إلى الصميل والمضرية ، لأن اليمنين كانوا منذ هزيمة شقندة ومنذ فشل ثورتهم فى سرقسطة ينتظرون بفارغ الصبر فرصة ينتصفون لأنفسهم فيها من أعدائهم المضريين، فجعلوا ينضمون إلى دعوة عبد الرحمن جماعة بعد جماعة ، ولم يصل زعماء بنى أمية إلى البيرة حتى كانوا قد ملأوا أيديهم من أطباء اليمن ، وقرروا الإسراع باستدعاء عبد الرحمن والبدء فى العمل قبل أن يفرغ يوسف والصميل من أمر سرقسطة ويعود إلى قرطبة .

عجل موالى بنى أمية فندبوا أحد عشر رجلاً منهم فيهم تمام بن علقمة الثقفى الذى شارك فى الفتح وكان له فيه جهد مشكور ، وشاكر مولى هشام ، وأعطينا تمام خمسمائة دينار للنفقة منها ولافتداء عبد الرحمن من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبى قرة المغيلى . وكانت هذه الخمسمائة دينار هى كل ما كان قد بقى لهم من الألف دينار التى أخذوها من يوسف الفهرى ليفرقوها فيما بينهم استعداداً للسير معه ، كانوا قد أعطوا كل جندى أموى عشرة دنانير ... أما الباقى فقد أراد الله أن يكون من نصيب عبد الرحمن هذا الذى سيكون على يديه زوال أمر يوسف والصميل معاً .

واشترى تمام وشاكر وبدر من المال مركباً وعبروا وتسعة آخرون للقاء عبد الرحمن الذى كان ينتظرهم بفارغ الصبر [١] .

* * *

٣١٤ - وصول وفد موالى بنى أمية واليمنين إلى عبد الرحمن

اقترب رسل موالى بنى أمية بمركبهم من شاطىء إفريقية فى إحدى أمسيات ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر ٧٥٥) وكان عبد الرحمن قائماً يصلى المغرب، فلما أبصرهم أسرع إليهم وقفز بدر إلى الماء لكى يسرع إلى مولاه بالبشرى ، ولم تكد الوجوه تتلاقى بعد طول انتظار حتى أفضى إليه بجلية الأمر وأنبأه

(١) الأخبار المجموعة ، ص٧٤ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٤ .

بتوفيقه مع موالى بنى أمية واليمنيين ، وبأن جماعات قوية من هؤلاء تنتظر لتسير فى ركابه مؤيدة ، ثم أقبل تمام بن علقمة ، فلم يكد عبد الرحمن يسأله عن اسمه وكنيته (أبو غالب) حتى استبشر به وعوَّل على الإسراع فى الرحيل . وأقبل برابر مغيلة يحاولون منعه من الرحيل إلا إذا افتدى نفسه منهم ، ففرَّق عليهم تمام من المال الذى كان معه ، ولم يخلص عبد الرحمن مع ذلك منهم إلا بصعوبة ، واستوى هذا الفتى الموفق فى القارب فانطلق به نحو الأندلس بعد ساعات قليلة من وصول البشرى إليه ، ووطئت قدمه شاطىء الأندلس عند المُنكَّب فى أخريات ربيع الثانى سنة ١٣٨ . نزل الأندلس لا تكاد تصاحبه غير آماله ، وتريد المقادير أن تكون ساعة نزوله تلك بدءاً لعصر جديد فى تاريخ الأندلس بل فى تاريخ الإسلام عامة .

٢١٥ - دخول عبد الرحمن الأندلس

لم يُرح عبد الرحمن فى المنكب ، بل سار منها رأساً إلى طُرُّش حيث أراح فى دار لأبى الحجاج يوسف بن بُخْت (شيخ جند قنسرين) وأحد كبار موالى بنى أمية على ما ذكرنا ، « وهناك جاءته الأموية كلها وجاءه جداد (كذا والأرجح جدار) ابن عمرو المذحجى من أهل ريُّه الذى كان بعد ذلك قاضيه فى العسكر ، وجاءه عاصم بن مسلم الثقفى وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاء أبو بكر بن الطفيل ، واختلف الناس إليه » . وهكذا أخذ معسكر عبد الرحمن يغنى بالمؤيدين والأنصار وبدأت طلائع النصر تهب عليه ، فحرص منذ اللحظة الأولى على تنظيم أتباعه هؤلاء وإعدادهم للصراع فى سبيل الأمر العظيم الذى يطلبه ، وتناقل أهل الأندلس كلهم خبره [١] .

فى هذه الأثناء كان يوسف والصميل قد وصلا سرقسطة وحاصرا اليمنيين والقرشيين الذين كانوا قد دخلوها وأعلنوا الثورة فيها يقودهم عامر بن عمرو القرشى وابنه وهب والحباب بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى ، وكان يوسف ينتظر مجىء أبى عثمان عبيد الله وابن خالد بفارغ الصبر على ما وعداه ، ولم يكن يخطر له على بال ما أحكما تدبيره من الأمر أو ما كانت تخبئه له صروف الأيام .

وفى أثناء هذا الانتظار استطاع الصميل أن يرغم اليمنيين الثائرين على التسليم ، فنزلوا له عن سرقسطة على أمان ، واستسلم قوادهم عامر وابنه وهب والحباب وأقاموا عند الصميل كرهائن ، ولو كان الأمر كله فى ذلك ليوسف والصميل لقتلاهم ، ولكن نفراً من

(١) الأخبار المجموعة ، ص٧٦ - ٧٧.

القرشيين فى معسكرهما على رأسهم سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن حالوا بينهما وبين ذلك . فلما فرغ يوسف من أمر سرقسطة فكر فى وسيلة يتخلص بها من سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من زعماء القرشية ، فانتهز فرصة انتقاض البشكنس فجمع جمعاً صغيراً من جنده ورماهم به وجعل على رأسه سليمان بن شهاب والحصين وأصحبهما خيار القرشية « وبعثهم فى ضعف ولم يكره عطبهم » (١) . فلم يكادوا يفضون إلى دار الحرب ويلقون البشكنس حتى انقض عليهم هؤلاء ومزقوهم وقتلوا معظمهم وفيهم ابن شهاب ، وأسرع الحصين بفلهم إلى سرقسطة وقلبه موغر على يوسف والصميل اللذين أرسلا قومه إلى الهلكة ، وأقام عند أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف ، وكان يوسف قد خلفه وراءه عاملاً على سرقسطة .

فى هذه اللحظة تحركت فى نفس الصميل عوامل القسوة التى عرفناها فيه فى مناسبات كثيرة ، فمال إلى قتل رهائن القرشيين الثلاثة بعد أن قتل حاميهم سليمان بن شهاب وهلك معظم أنصارهم فى بعث البشكنس ، وجعل يزين الأمر ليوسف ويؤكد له أنه إن فعل هذا خلصت الأندلس له ولولده ، وكان يوسف مقيماً إذ ذاك بمكان يقال له وادى شرُبْنَة ، فاستجاب له يوسف وضرب أعناق عامر بن عمرو القرشى وابنه وهب والحباب بن رواحة على رغمه ، واطمأن الصميل بعد أن شفى أحقاد نفسه من هؤلاء اليمنيين والقرشيين الذين كادوا يهلكونه أثناء حصارهم إياه بسرقسطة ، اطمأنت نفسه واستراح باله ، فمضى إلى خبائه - وكان فيه ابنتاه - ليقيل، فلم يكد جفنه يهدأ حتى طرقت سمعه خطوات رسول يوسف يحمل إليه نبأ عبد الرحمن واجتماع الناس إليه بطرش ، فكأن المقادير أرادت أن لا يهدأ له بال لحظة بعد هذه الجريمة البشعة التى ارتكبها منذ لحظات (٢) .

٣٢٦- بدء الصراع بين عبد الرحمن ويوسف الفهرى والصميل

لم يكد يوسف يقرأ الخطاب حتى بعث يستدعى الصميل ، وانتبه الصميل لخطورة الأمر وأشار على يوسف بأن يعجل بالسير إلى عبد الرحمن بمن معه قبل أن يجتمع إليه الناس ويشتد أمره ، فلم يكد يوسف يتحدث إلى الجند فى هذا حتى عارض فيه أكثرهم ، وكانوا متعبين من أثر هذه الحملة المشئومة التى قاموا بها فى بلاد البشكنس ، ثم إن الكثيرين منهم كانوا ساخطين على الصميل

(١) الأخبار المجموعة ، ص٧٧.
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٧٧ - ٧٨.

ويوسف بسبب ما فعلا بإخوانهم القرشيين ، إذ ألقى ببعضهم إلى الهلكة وغدر بالباقين ، لهذا لم يجبه منهم إلا نحو عشرة كانوا هم حملة ألوية القبائل ، ولو أمكنهم التقاعس لتقاعسوا ، أما الباقون فقد طال الشوق بهم إلى بيوتهم فتسللوا إلى أهليهم وتركوا يوسف والصميل وحدهما ، واستحال عليهما الذهاب ، وانقضى الوقت وأقبل الشتاء وهطلت الأمطار وحملت الأنهار ، فلم يجد الرجلان بداً من السير بمن معهما إلى قرطبة . وجعل الناس يهونون أمر عبد الرحمن على يوسف ، وقال بعضهم إنه لا يطلب ملكاً وإنما يطلب العيش الرغد ، فإن كفاه يوسف ذاك وزوَّجه من بيته رضى وقنع وزال خطره ، واطمأن الرجل إلى ذلك طيلة الشتاء كارهاً.

فى ذلك الحين كان عبد الرحمن جاداً فى توثيق أمره فى طرش فى دار أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ، كانت جماعات موالى بنى أمية قد توافدت عليه حتى اكتمل عقدها تحت لوائه ، وتسارع إليه اليمنيون لا يشكون فى أنه منتصف لهم من القيسيين وقائديهم العاتيين ، بل انضم إليه نفر من القيسيين أنفسهم يتزعمهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الدجن، وكانت قلوبهم موغرة على الصميل لما فعل بأصحابهم فى حملة البشكنس ولضربه رقاب من نجا منهم بعد ذلك ، وانضم إليه من ثقيف ثلاثة نفر سيكون لهم فى مجرى الحوادث أثر عظيم ، هم تمام بن علقمة الثقفى الذى ذكرناه وعاصم العريان وأخوه عمران ، وانضم إليه كذلك كثير من البربر لم تعطنا المراجع عنهم أى تفصيل، ولكن معظم البربر كانوا على أى حال يأمنون اليمنيين وينضمون إليهم ، وكان هؤلاء قد تقربوا إليهم بعد هزيمة شقندة . هكذا قوى معسكر عبد الرحمن، فأخذ ينظم صفوف أنصاره استعداداً للصراع الحاسم إذا انقضى الشتاء .

فلما أقبل الربيع بدأت بطون مضر تتوافد إلى الصميل ويوسف حتى اكتمل جمعهم عندهما فى قرطبة ، ويبدو أن عدد من اجتمع من القيسيين كان عظيماً ، لأن الأمويين واليمنيين المجتمعين إلى عبد الرحمن لم يلبثوا أن استبانوا قلة أعدادهم ونصحوا عبد الرحمن بالمرور على بقية منازل اليمنية فى نواحيها لكى يصطحب منهم من يستطيع ضمه ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين رغم كثرة عددهم فى الأندلس كان معظمهم منصرفاً إلى شئون العيش فى النواحى التى نزلوا بها ، فلم يكن ينهض منهم للقتال إلا أعداد قليلة ، وربما كان هذا هو سبب تفوق القيسيين عليهم فى ميادين الحرب ، فقد كان معظم القيسيين جنداً على البلاد

أقبلوا مع بلج ، لم تثبت بعد أقدامهم فى النواحى التى كان أبو الخطار قد فرَّقهم فيها ، فكانوا إذا دعا داعى الحرب لبى معظمهم وأسرعوا إلى الميدان ، ومن دلائل ذلك أن يوسف والصميل لم يكادا يدعوان الجند بعد انقضاء الشتاء حتى توافد عليهما معظم القيسية ، فى حين كان لابد أن يمر عبد الرحمن على اليمنيين فى منازلهم ليحشد أكبر عدد منهم للصراع المقبل .

وجعل نفر من رجال يوسف يوهمه بأن عبد الرحمن لم يأت لملك ، وإنما يكفيه شىء من الخير وحسن المكانة عند يوسف كما قلنا ، ففكر هذا فى أن يبعث إليه بشىء من الهدايا مع وفد من أنصاره يعرضون عليه الصلح والمصاهرة ، وتخير يوسف ثلاثة من خيرة أنصاره هم عبيد الله بن على شيخ قيس وخالد بن زيد كاتبه الأثير عنده وعيسى بن عبد الرحمن وكان من موالى بنى أمية ، ولكنه ثبت إلى جانب يوسف ، لأنه كان على أرزاق الجند وحشم يوسف ، وبعث معهم بكتاب بليغ كتبه خالد بن زيد وأرسل كذلك كسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار .

فسار الرسل حتى بلغوا أرش من كورة ريُّه ، فبدا لعيسى بن عبد الرحمن أن يبقى هو بالهدايا فى هذا الموضع ، ويذهب زميلاه بالكتاب ليريا إن كان عبد الرحمن يقبل الصلح أو لا يقبله ، فلما وصلا إلى معسكر عبد الرحمن وجداه عامراً بالناس تتوارد عليه الوفود من أجناد دمشق والأردن وقنسرين وفداً بعد وفد ، وحدَّثاه بالذى يعرضه يوسف من الصلح والمصاهرة والسلم ، ومالت قلوب نفر من أنصار عبد الرحمن إلى قبول ذلك ، ثم أخرج خالد بن زيد الكتاب وناوله لعبد الرحمن ، فناوله هذا لصاحبه أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ليرد عليه بما يشاء ، وهَمَّ أبو عثمان بإملاء الجواب ، فملك الزهو خالداً وقال : « يا أبا عبد الرحمن ، لتعرقن إبطك قبل أن تجد فيه جواباً ! » فنالت هذه العبارة الجافية من نفس أبى عثمان .

وكان - كغيره من كبار عرب الأندلس - يكره خالداً ولا يرتاح إليه ، إذ كان خالد مولى أندلسياً اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ، وكان فيه هذا الغرور الذى سنعرفه فى الكثيرين من الأندلسيين ، فأثار بغروره نفوس العرب حتى كرهوه وحسدوه على هذه المكانة التى أصابها من نفس سيدهم ، وهو بعد مولى أندلسى أو « علج » كما كانوا يسمونه .

أصابت هذه العبارة نفس أبى عثمان فاستطاره الغضب فضرب بالكتاب وجه خالد وسبَّه سباً قبيحاً وأمر به فكُبِّل بالحديد ، وحاول عبيد الله بن على أن يتدخل لإنقاذه فلم يفلح . وهكذا فشلت هذه السفارة بسبب هذه العبارة التافهة التى صدرت عن هذا المولى الأندلسى دون أن يقدر موضعها ، وعاد عبيد الله خائب السعى إلى أرش ليجد صاحبه عيسى بن عبد الرحمن قد أسرع عائداً بالهدايا إلى يوسف ، إذ بلغه أن أنصار عبد الرحمن بن معاوية علموا بأمره وأمر الهدايا التى معه . وقد انضم عيسى فيما بعد إلى عبد الرحمن ، وصفح عنه هذا وجعله من مواليه ، إلا أنه لم ينس له فعلته هذه أبداً [١] .

سار عبد الرحمن بمن معه إلى شذونة حيث كان جند الأردن ، فانضم إلى جيشه كل من كان بها من اليمنيين وقضاعة وقليل من جند الأردن أنفسهم ، وتحمس لعبد الرحمن شيخ عرب الأردن جدار بن عمر القيسى جد بنى عقيل ، وصادف دخول عبد الرحمن شذونة يوم الفطر سنة ١٣٨ (٨مارس ٧٥٦) فأمر جدار خطيب المسجد بأن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبد الرحمن [٢] ، فكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس ، وساعفه المقدار فانضم إليه قبيل من البربر يُعرفون ببنى الخليع كانوا يقيمون بناحية تاكرنا وكانوا موالى يزيد بن عبد الملك ، فأصبحوا فى ولاء عبد الرحمن واشتد بهم ساعده ، وبهذا كان مقام عبد الرحمن بشذونة مقاماً سعيداً على قصره : كسب فيه بضع مئات من الأنصار وسمع بنفسه أول خطيب يدعو له . ثم نزل بمنازل جند فلسطين عند طرف شذونة فانضم إليه سراة القوم وحماة الجند إلا بنى كنانة ، إذ كان شيخهم كنانة بن كنانة قد انضم بقومه إلى يوسف وسار إليه ، فرعى عبد الرحمن حرمة هذا الشيخ ولم يمس أبناءه أو حرمه بضر ، ثم سار إلى إشبيلية حيث جند حمص .

« فخرج إليه خيارهم من اليمن شاميها وبلديها . وبهذا قوى جمع عبد الرحمن بمن انضم إليه من هذه الأجناد الثلاثة ، وزاد حماسه وحماس من معه حتى نظر أحد رؤساء الجند فإذا جند الأردن سائرون بلوائهم وجند فلسطين بلوائهم وجند حمص بلوائهم وعبد الرحمن فى مواليه من غير لواء ، فقال : سبحان الله ، ما أشد خلاف أمرنا ! نحن بألوية وصاحبنا بلا لواء! فأقبل أبو الصباح بن فلان اليحصبى بقناة وعمامة ، والقناة والعمامة لرجل من

(١) الأخبار المجموعة ، ص٨٠ - ٨١.

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٤ - ٢٥ .

حضرموت لا أسميه ، ثم دعوا رجلاً من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه ، فعُقد له بقرية قلنبيرة من إقليم طشانة من كورة إشبينيه » .

فأراد الله أن يكون هذا اللواء المتواضع المرتجل لواء النصر لجنود المسلمين فى الأندلس حتى إمارة عبد الرحمن الأوسط ، وظل يرفرف على هامات المسلمين حتى خلق وبلى ، وألقى به عبد الرحمن بن غانم قائد الأمير عبد الرحمن بن محمد واستبدل به غيره فتشاءم بذلك جهور القائد وبحث عن اللواء الخَلِق فلم يجده ، واختفى من ذلك التاريخ بإحدى نواحى ماردة(١).

٢١٧ - موقعة المصارة وتعجل يوسف والصميل السير من المدور شمالى قرطبة وانحدرا بمن معهما إلى ناحية مقابلة لطشانة Tocina على الشاطىء الغربى للوادى الكبير ، وكان الوقت شتاء والوادى الكبير فياض بالماء ، فامتنع على العسكرين أن يعبر أحدهما إلى الآخر ، ولبثا على ذلك حيناً ، ثم أراد عبد الرحمن أن يلتمس غِرَّة من يوسف ويمضى بعسكره إلى قبالة قرطبة ثم يعبر إليها فيدخلها ، فأوقد نار معسكره بليل ، ثم ترك النار موقدة ومضى بعسكره ، وكادت تنجح الحيلة ، لولا أن تنبه لها يوسف وصاحبه فأسرعا عائدين إلى قرطبة، فكانا مع جيش عبد الرحمن فى سباق ، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما إلى الآخر عند المصارة على مقربة من قرطبة ، وكانت كفة يوسف أرجح ، لأنه كان مقيماً مع قومه فى ناحية زرع وخير ، فى حين كان مقام عبد الرحمن فى غابات لا مزارع فيها ، فأقام جنده فى مَحْل لا يقتاتون إلا ببعض الفول الأخضر أصابوه مما حولهم ، وكانوا يرجون أن يدخل بهم صاحبهم قرطبة ليقيموا أنفسهم بما فيها من الخير ، ولكنهم لم يستطيعوا (٢) .

ثم أقبل يوم الخميس التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٨ (١٣مايو ٧٥٦) فاستبشر به عبد الرحمن لأنه يقابل اليوم الذى وقعت فى غده معركة مرج راهط وانتصر فيها أموى آخر هو مروان بن الحكم على فهرى آخر هو الضحاك بن قيس ، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع يوسف الفهرى يوم الجمعة التالى ، ومن ثم أمر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل (٣) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص٨٤.
ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٦ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٨٦ .
(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٦ - ٢٧ .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٤٩ .

وفى صباح يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٤مايو ٧٥٦م) صَفَّ عبدالرحمن جيوشه فى ترتيب وإحكام ، ولم يكونوا ليزيدوا فى العدد عن خصومهم ولكنهم كانوا أشد تلهفاً على القتال ، ولم يكن معظمهم متحمساً لقضية عبد الرحمن بقدر ما كان راغباً فى إدراك ثأره من القيسيين وشيخيهم الصميل ويوسف ، وكان عبد الرحمن يعرف هذا ويشعر به ، فمضى يدبر الأمر فى حرص وحذر وحكمة : ظل يتظاهر بأن الأمر كله لأبى عثمان عبيد الله بن عثمان شيخ الموالى ، فلا يبرم أمراً بدون رأيه ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على هذا الرجل ويسيره فى الطريق الذى يريده فى كياسة وحكمة ، ومن دلائل ذلك أنه أحب قبل المعركة أن يشحذ همم اليمنيين فسألهم فى شىء من الذكاء : « إنَّا لم نجىء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأيى لرأيكم تبع ، فإن كان عندكم صبر وجَلَد وحب للمكافحة فأعلمونى ، وإن كان فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلمونى »[1] .

قال هذا الكلام وهو يعلم أثره فى نفوسهم ، فلم يكد يفرغ منه حتى أصفقوا على القتال جميعاً وزاد حماسهم ، فمضى يعين القواد : فأقام عبد الرحمن بن نُعيم الكلبى على أهل الشام، وأقام على رجالة بنى أمية وجماعة البربر عاصم العريان ، وكان من كبار الأموية ، وقد بلغ من حماسه لعبد الرحمن أن خلع سراويله قبل المعركة ليكون ذلك أعون له على القتال فسُمِّى العريان ، وجعل على خيل بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى ، وجعل على خيل البربر إبراهيم بن شجرة الأودى وكان من كبارهم ، وأعطى لواء جيشه كله لأبى عثمان عبيد الله ابن عثمان ، ووقف هو وسط خيل بنى أمية على فرس أشقر ممسكاً بقوسه ، وعلى هذا النظام عبر الوادى الكبير وأفضى إلى الضفة المقابلة دون أن يعرض له يوسف أو أحد من رجاله ، ويبدو أنه كان يؤمل فى الصلح ما يزال ، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره ، لم يخوضوا المعركة إلا بعد أن وضعهم عبد الرحمن أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا عن القتال مندوحة .

ورتب يوسف جيشه : فجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد الله بن على ، وعلى الرجَّالة كنانة بن كنانة ، وجوشن بن الصميل ، وعبد الله بن يوسف الفهرى ، وجعل على خيل غلمانه وصنائعه من البربر غلامه خالداً سَوْدِى .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٦٧ .
ابن القوطية ، ص٢٨ .

وأخذت جماعات من مسلمى قرطبة تنضم إلى عبد الرحمن قبيل المعركة ، لأن عدداً عظيماً من موالى خلفاء بنى أمية وعمالهم كانوا قد سكنوها منذ زمن طويل ، فصار جيشه بهذا أكثر عدداً وإن كان جيش خصمه أكثر انسجاماً ، وقد لاحظ عبد الرحمن أن نفراً من أنصاره اليمنيين يتحدثون عن فرسه الأشقر ، ويخشون أن يكون قد تخيره خاصة ليهرب به إذا دارت الدائرة عليه ، بل كلمه جماعة منهم فى ذلك صراحة ، فلم يكن منه إلا أن رجا أبا عثمان عبيد الله أن يعطيه بغلته ، محتجاً بأن فرسه الأشقر لا يثبت تحته ، وهو إنما يريد مركباً ثابتاً ليستطيع أن يرمى بقوسه على ظهره ، فقبل أبو عثمان وطابت أنفس اليمن ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين كانوا يخشون القيسية بعد ما لقوا من الهزائم على أيدى رجالها ، ولو لم يكن فيهم هذا الفتى عبد الرحمن لدارت الدائرة عليهم ، بل لما نهضوا للقتال أصلاً (١) .

دارت المعركة على مقربة من المصارة من أرباض قرطبة ، وقد بدأ القتال بهجوم عنيف قامت به خيل عبد الرحمن على قلب جيش يوسف والصميل ، فلم يمض إلا قليل حتى قتل عبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل ، فلم يصبر الرجلان على القتال بعد ذلك وولَّيا الفرار بمن معهما ، وثبتت خيل قيس يقودها عبيد الله بن على القرشى ، فلم يزل عبد الرحمن ابن نُعيم وعاصم العريان ومن معهما من الفرسان يشتدون فى الهجوم حتى قتلوا عبيد الله بن على ونفراً من كبار القيسية ، فانفرط عقد من بقى وولَّوا مدبرين ، وكسب عبد الرحمن ذلك اليوم الحاسم الذى كُتِب فيه للأندلس بل للغرب الإسلامى كله تاريخ جديد ، وسار عبدالرحمن ودخل قصر قرطبة ، وكان من غرائب المقادير أنه ورجاله أكلوا من نفس الطعام الذى كان يوسف قد أعده لنفسه ولأصحابه إذا فرغوا من المعركة (٢) .

فلما انتصرت اليمنية وقعوا فيما كانوا يقعون فيه عقب كل نصر حازوه فى تاريخهم: ملكهم الجشع فى المغانم وكادوا يضيعون ثمرة النصر بسوء التصرف وقلة الكياسة ، ذلك أن جماعة منهم غرَّهم هذا النصر فحسبوا أنهم يحسنون صنعاً إذا انقلبوا على عبد الرحمن وموالى

(١) الأخبار المجموعة ، ص٨٩ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٨ .

الأخبار المجموعة ، ص٨٩ - ٩٠ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص٤٨ - ٤٩ .

فتح الأندلس ، ص٥٥ - ٥٦ .

DOZY, Mus. d'Esp. I pp. 222-223.

LÈVI - PROVENÇAL, Hist. de l'Esp. Mus. I. p. 73-74.

بنى أمية لكى يصبح النصر خالصاً لليمن ، لأن عبد الرحمن ومواليه كانوا من مضر أيضاً ، وقد دعا إلى ذلك رجال من جذام وخاطبوا فيه قضاعة ، فأبت قضاعة ، واختلف الحيَّان فلم يفلح التدبير ونجا عبد الرحمن ومواليه ، وقد علم عبد الرحمن بهذا الأمر إذ أنهاه إليه جذامى يسمى ثعلبة بن عبيد فاحترس لنفسه وضَمَّ مواليه ، واحترس من أبى الصباح الداعى إلى هذا الأمر الخطير ، وأنشأ لنفسه شرطة جعل عليها عبد الرحمن بن نُعيم ، وهذا أول منصب رسمى ينشأ على عهد هذه الدولة الجديدة (١) .

وتسرعت اليمنية بما عُرِف عنها من الجشع فى الغنائم والإسراف فى ذلك ، وأسرع رجلان من طيىء فانتهبا دار الصميل بن حاتم بشقندة ، والرجل ينظر إليهما من قمة تل مجاور كان قد هرب إليه على طريق جيان مشرف على قرية شُبلَّار ، فملأ نفسه الألم وتمثَّل قائلاً :

ألا إن مالى عند طيٍّ وديعة ولا بُدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

وكان فيما انتهباه صندوق فيه عشرة آلاف دينار دراهم ، مما يدلنا على عظم الثروة التى كان هذا الصميل يحتجنها ويختص بها نفسه . ولم يستطع عبد الرحمن أن يكف اليمنيين عن النهب إلا فى مشقة ، وقد أبدى من النبل كرماً عظيماً ، إذ تعفف عن حريم يوسف وضم زوجته وابنته إلى أهله ، وأهدت إليه زوج يوسف الجارية «حلل» التى ستكون أم ولده وولى عهده هشام . وأقر صاحب صلاة يوسف الفهرى على عمله، وكان فهرياً ، وسيدرك عقبه فى ظلال الدولة الأموية نباهة وذكْراً ، وكذلك أقر يحيى بن يزيد قاضى يوسف على عمله .

ولم يرض اليمنيون من عبد الرحمن هذا التعففِ أو ذلك الكرم ، ويبدو أنهم لم يكونوا ليحسبوا إلا أنه سيكون دائماً طوع بنانهم فيُصرِّفون الأمر كما يشاءون ، ففاجأهم عبد الرحمن بعد انتصاره بوضع يده على الأمر كله ، فبدأت نفوسهم تتغير عليه ، ومن ذلك الحين تبدأ مؤامراتهم وثوراتهم عليه (٢) .

٣١٨ - قيام الدولة الأموية الأندلسية

ثم دخل عبد الرحمن المسجد الجامع وصلى بالناس وخطبهم من منبر قرطبة لأول مرة ، فوعدهم بالعدل والإحسان ، ونستطيع أن نقول إن الدولة

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٣٠ .
الأخبار المجموعة ، ص٩٠ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٩٠ .

الأموية الأندلسية قد قامت فعلاً من هذا اليوم ، وبدأ فى تاريخ الأندلس عصر جديد [١] ، وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ١٤ مايو ٧٥٦م.

٣١٩ - مصير يوسف الفهرى والصميل بن حاتم

وحاول يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أن يستعيدا ما ضاع من أمرهما على غير طائل : ذهب يوسف إلى طليطلة ليجمع نفراً من أنصاره ، وذهب الصميل إلى جيان ليستنفر مَن فيها من معَدّ ، ثم التقيا واستوليا على جيان وطردا الحصين بن الدَّجن عاملها لعبد الرحمن ، ثم مشيا إلى البيرة ففر عاملها جابر بن العلاء بن شهاب ، ووجد عبد الرحمن أن لا مندوحة له عن السير نحوهما ، فلم يكد يغادر قرطبة حتى فاجأها أبو زيد أحد أبناء يوسف الفهرى بنفر من أنصاره أقبلوا معه من ماردة ، فعاد عبد الرحمن إليها ، ووجد أن لا مفر من أن يقيم على حراستها رجلاً يثق فيه فعهد فى ذلك إلى عامر بن على جد بنى فهر الرصافيين ، واستوثق من أمره ثم مضى نحو خصميه .

ولم يكد عبد الرحمن يصل بمن معه من الجند إلى البيرة حتى أحس الصميل ويوسف أنهما لن يستطيعا له حرباً ، فعرضا الصلح على أن يدع لهما عبد الرحمن ما كان لهما من الأموال والأملاك ، وأجابهما عبد الرحمن إلى ذلك على أن يستودعه يوسف الفهرى ابنيه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الأسود محمد ، واتفق يوسف وعبد الرحمن كذلك على تبادل الأسرى ، فكان من غرائب المقادير أن عبد الرحمن رد إلى يوسف خالد بن زيد كاتبه المولى الإسبانى فى نظير أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ، وكان عبيد الله هو الذى ضرب وجه خالد وأمر بتكبيله يوم تحداه خالد أن يكتب رداً لخطابه على ما رويناه [٢] .

وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة وقد دانت له الأندلس جميعها ، عاد وفى ركابه يوسف والصميل ، فمن لطيف ما يُحكى أن عبد الرحمن استبان امتياز الصميل ، ولا غرابة فالرجل من الأرومة العربية فى أعلى مكان ، قال عبد الرحمن : « لله بلاده . لقد صحبنى من البيرة إلى قرطبة ما مست ركبته ركبتى ولا تقدم رأس بغله رأس بغلى ، ولا استفهمنى فى حديث ، ولا افتتح حديثاً بغير أن أسأله عنه » ، ثم يقول صاحب «الأخبار المجموعة» بعد ذلك : «ولا يذكر – أى عبد الرحمن – مثل ذلك عن يوسف..» [٣] ، وهى ملاحظة لها معناها ،

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٢٩ .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٤٩ – ٥٠ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٩٣ – ٩٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص٩٤ .

واستقر الرجلان على كرامة وتوسعة . وأقبل كثير من الناس يطالبانها بحقوق لهم عندهما من أيام ولايتهما ، فأحالهم عبد الرحمن إلى القاضى يحيى بن يزيد التجيبى ، وكان الناس يحسبون أن القاضى ينتهز هذه الفرصة ليشفى نفسه من هذين الرجلين اللذين ألحقا بقوم اليمنيين شر الأذى ، ولكن القاضى امتلك نفسه ، فلم يقض فى أمرهما إلا بالحق ، وظل الرجلان على ما أنزلها عبد الرحمن عليه من الإكرام (١) .

بيد أن يوسف لم يطمئن إلى أمان عبد الرحمن ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فر من قرطبة ، وحاول أن يستميل الصميل والشامية إلى جانبه فلم يوفق ، فمضى إلى جماعات من البلديين فى لقنت وماردة وطليطلة ، وما زال بهم حتى أغراهم بالانضمام إليه ، فثاروا بعبد الرحمن فى هذه النواحى ، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ، واتهم الصميل بالتدبير عليه ، وعبثاً حاول الرجل تبرئة نفسه ، وانتهى أمره بأن ألقى به فى السجن ، وسجن معه ابنى يوسف وكانا عنده رهينتين .

واستطاع يوسف أن يضم جماعات من البلديين ، فسار بهم من لقنت إلى إشبيلية ، ومن غريب الأمر أن معظم البلديين - بل والشاميين - فى هذه الناحية انضموا إليه ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا إلى ذلك الحين أميل إلى الفوضى والاضطراب ، وأبعد عن فهم قيمة استقرار الأمور وعودة السلام . جمع يوسف نحو عشرين ألف عربى حاصر بهم عامل إشبيلية لعبد الرحمن ، وكان مروانياً يسمى عمر بن مروان قدم على عبد الرحمن منذ قليل فى صحبة نفر من الأمويين نذكر منهم جُزَىّ بن عبد العزيز بن مروان بعد أن استقرت قدم عبدالرحمن فى الأندلس ، ولم يكن لدى عبد الملك إلا نفر قليل من القيسيين .

وبدا ليوسف أن يعجل بالسير إلى قرطبة قبل أن يستطيع عبد الرحمن جمع قواته والسير إليه ، ولكن الحظ لم يساعفه ، إذ أن عبد الرحمن استطاع أن يجمع جمعاً عظيماً من أنصاره ويسير بهم نحو إشبيلية ، ولم يكد يوسف يتحرك نحو قرطبة حتى جمع عامل مورور لعبد الرحمن - وهو عبد الملك بن عبد الله - من كان عنده من القيسية ثم انضمت إليه جماعة أخرى وسار بهم خلف يوسف وعجلوا يريدون مهاجمة عسكر يوسف من خلف . فتخوف يوسف أن يقع بين الفريقين ، فعاد نحو إشبيلية يريد أن يعجل بالقضاء على عبد الملك ومن معه قبل وصول عبد الرحمن ، واشتبك القتال بين الجيشين وانهزم يوسف هزيمة قاصمة .

(١) نفس المصدر ، ص٩٤ - ٩٥ .

ومضى يوسف نحو طليطلة ليلجأ إلى صديق له يسمى أبا عروة لا يصاحبه غير مولى فارسى يسمى سابقاً ووصيف واحد ، فلما صار على عشرة أميال من طليطلة مر بعبد الله بن عمر الأنصارى ، وهو بقرية من قرى طليطلة - « فقيل له : هذا يوسف منهزماً ! فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرج بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال ، وليس معه إلا سابق الفارسى مولى لبنى تميم ومن يجهله يقول مولى يوسف ، وبقيته بسرقسطة ، ووصيف واحد فقط وقد ماتوا من شدة الركض ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسفَ الفهرى ، وقُتل سابق وهرب الغلام حتى دخل قرطبة » ، وأقبل عبد الله على عبد الرحمن الداخل برأس يوسف فعجَّل هذا بقتل أبى زيد بن يوسف وأبقى على أخيه أبى الأسود لِصِغَر سنه ، ولما أقبل الليل بعث إلى الصميل من خنقه ليستريح من أمره جملة [١] .

* * *

٢٢٠ - نهاية عصر الولاة

هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله غير منازع ، وانتهى على يديه العصر الأول من أعصر الأندلس الإسلامية وهو عصر الولاة . اختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر « الجاهلى » فى تاريخ الأندلس ، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبية وأوضار القبلية ، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامى بعد أن كاد ينهار . وكان من حظ الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب ، ولو استمر لكان فى ذلك بوار أمر الأندلس الإسلامى جملة ، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها إلى ما سيصير إليه تاريخ الإسلام فى صقلية بعد ذلك بنيف وثلاثة قرون : اختلاف وتفرُّق وحروب بين المسلمين ، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهى أمر الإسلام فى الجزيرة .

* * *

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص٣٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ١٠٠ - ١٠١ .
ابن عذارى : البيان ، جـ٢ ، ص٥١ - ٥٢ .

المراجـــع

مَرَاجعُ الكتَاب

أ - مَرَاجع عربيّة :

ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي : الحلة السيراء ، طبعة دوزى .

ابن الأثير الجزرى : أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠هـ .

- : الكامل فى التاريخ ، طبعة نورنبرج ، لايدن ١٨٦٧ - ١٨٧٦ ، وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .

ابن حزم القرطبى : جمهرة أنساب العرب، طبعة ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد البغدادى الموصلى : صورة الأرض ، الطبعة الثانية بإشراف كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ .

ابن حيان ، حيان بن خلف : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، طبعة أنتونيا ، باريس ١٩٣٧ .

ابن الخطيب ، لسان الدين :

- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، طبعة محمد عبد الله عنان ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .

- : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ؛ ثم أعاد طبعه فى بيروت ونشره بعنوان « تاريخ إسبانيا الإسلامية » سنة ١٩٥٦ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن :

- المقدمة ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٨ . وترجمة فرنسية بقلم البارون دى سلان ، باريس ١٨٦٨ .

- : كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤ / ١٨٦٧ (٧ أجزاء) .

- : أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر وديوان المبتدا والخبر » وقد نشره دى سلان وطبعه فى الجزائر ١٢٦٧/ ١٨٥١ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر» سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثاً بإشراف المستشرق كازانوفا فى باريس سنتى ١٩٣٨ - ١٩٤٠ .

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة شارل تورى، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٢ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزى الجزءان ١و٢ ، لايدن ١٨٤٨ - ١٨٥١ ؛ والجزء الثالث نشره ليفى بروفنسال فى باريس سنة ١٩٣٠ . ثم أعاد بروفنسال وكولان نشر الجزءين الأول والثانى فى لايدن سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٠ - ١٨٩٢ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، أعده للنشر جايانجوس ونشره خليان ريبيرا ١٩٢٦ .

أبو زكريا : تاريخ أبى زكريا ، ترجمه وعلّق عليه Emile Masqueray الجزائر ١٨٧٨ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، صدر منه ١١ جزءاً ابتداء من سنة ١٩٢٨.

أبو يوسف :

- كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ .

مؤلف مجهول :

– أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس : نشره وترجمه وعلّق عليه لافوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى ، الشريف : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . نشر الجزء الخاص بالأندلس والمغرب دوزى ودى خويه فى لايدن تحت عنوان Description de l'Afrique et de l'Espagne .

الإصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه لايدن ١٨٦٦ – ١٨٧٠ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٧ .

البغدادى ، عبد القادر بن طاهر : الفَرْق بين الفِرَق ، القاهرة ١٩١٠ .

البكرى ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز : صفة إفريقية ، مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، نشرها البارون دى سلان فى الجزائر ١٩١٠ ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشرها فى الجزائر ١٩١٣ .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ .

جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، القاهرة (طبعة ١٩٥٧ ، راجعها وعلق عليها حسين مؤنس) .

الحميرى ، ابن عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليفى بروفنسال فى لايدن ١٩٣٦ .

الخشنى ، محمد بن الحارث بن أسد : تاريخ قضاة قرطبة ، نشر مع ترجمة إسبانية لريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم ، لايدن ١٨٩٥ والقاهرة ١٣٤٤ .

الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيمان (٤ أجزاء) تونس ١٣٢٠ / ١٩٠٢ .

الدينورى ، أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠ / ١٩١١ .

السلاوى ، أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ .

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٣٥١ .

الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل ، طبعة و. كيورتون ، لندن ١٨٤٢ ، والقاهرة ١٣١٧ .

الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبعة ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ - ١٨٨٥ .

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨١ وما بعدها ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .

العذرى ، أحمد بن عمر بن أنس : نظام المرجان فى المسالك والممالك والبلدان (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) .

عنان ، محمد عبد الله: دولة الإسلام فى الأندلس - العصر الأول، القاهرة ١٩٤٣ .

الغسانى ، محمد بن عبد الوهاب : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، طبعة الفريد البستانى ، العرائش ١٩٤٠ .

قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ .

القرشى ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٤٧ .

الكتانى ، عبد الحى : فهرس الفهارس ، فاس ١٣٤٦ .

المالكى ، أبو بكر : رياض النفوس (الجزء الأول) نشر وتحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ .

المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، لايدن ١٨٨١ ؛ وطبعة محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٨ .

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة باربييه دى مينار وبافيه دى كورتى ، باريس ١٨٦١ - ١٨٧٦ .

المقدسى ، شمس الدين : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٩٠٦ .

المقرى ، أبو العباس أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، لايدن ١٨٥٥ - ٦١ ؛ وطبعة الشيخ محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

- : تاريخ الدول الإسلامية فى إسبانيا ، ترجمة إنجليزية جزئية لنفح الطيب مع تعليقات بقلم ب. دجايانجوس ، لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ .

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على :

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة فستنفلد تحت عنوان Abhandlung ueber die in Aegypten eingewanderten Arabische: Staemme Goettingen, 1847 .

- : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨ .

مؤنس ، حسين : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

النباهى ، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة جسبار ريميرو (الجزءان ٢٢و٢٣ الخاصان بالمغرب والأندلس) ، مدريد ١٩١٧ .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى : معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليعقوبى : كتاب البلدان ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٩٢ .

ب - مَراجع غير عَربيَّة:

Aguado Bleye, Pedro. Manual de Historia de Espana, 2 vols. Madrid, 1947 - 1950 .

Asin Palacios, Miguel. Abenmasarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana. Madrid, 1914.

Baer, Fritz. Die Juden in christlischen Spanien, VI. Teil, Urkunden und Regesten. Berlin, 1928.

Ballesteros, Antonio y Beretta. Historia de Espana y su influencia en la historia universal. Madrid, 1943.

Ballesteros, Rafael. Histoire d'Espagne des origines à nos jours. Paris, 1938.

Barrau - Dihigo, L. Recherches sur l'histoire politique du Royaume Asturien, dans Revue Hispanique LII, 1921.

Becker, C.H.. Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, 2 Haefte.

- Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904 - 1905) .

- Papyri Schott Reinhardt, I. Heidelberg, 1906.

Bolufer, José Alemany. La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes, (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX, 1919.

Cirot, G. Etudes sur l'historiographie espagnole. Bordeaux, 1904.

Codera, F. Estudios criticos de historia arábe espanola. Madrid, 1917.

Condé, José Antonio. Historia de los Arabes en Espana. Madrid, 1820.

Condeminas, Francisco y Luis Visintin. Atlas Histórico de Espana.

Cronica Mozárabe de 754. (Atribueda a Isidero Pacence por el P. Florez. Publicada por Mommsen bajo el titulo de Continuatio Hispana en 1885) .

De Lagoy, M. Description de quelques médailles inédites de Massilia. Aix, 1834.

Dozy, Reinhardt Peter - Anne. Etudes sur la conquète de l'Espagne par les Arabes, dans Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyeny - âge. Lyde, 1881.

- Histoire des Musulmans d'Espagne (2 e. édition revisée par **Lévi - Provençal**) Leyde, 1932.

- Script. Ar. Loci. de Abbab. Lyde, 1846 - 1863.

Dubler, César E. Sobre la Cronica Arabigo - Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica (Al - Andalus, Vol. XI fasc. 2, Madrid - Granada, 1956).

- Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festchrift J. Jud. Zurich, 1943.

Elias Teres. Linajes Arabes en Al-Andalus, segun la "Jamhara" **de Ibn Hasm,** Al-Andalus, Vol. XXII fasc. 1-2.

Fernández y Gonzalez, Francisco. Estado social y politico de los Mudejares de Castilla. Madrid, 1866.

Floresta de leyendas heroicas espanolas. Rodrigo, el último godo. Compil. por **Ramon Menéndez Pidal.** Madrid, 1925.

Fournel, Henri. Les Berbères, étude sur la conquète de l'Afrique par les Arabes, 2 Vols. Paris, 1875.

Gautier, E.F. Le passé de l'Afrique du Nord. Paris, 1937.

Gayangos, Pascual. The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, 2 Vols. London, 1840 - 1843.

- Memoria sobre la Autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis; Memorias de la Real Academia de La Historia. Madrid, 1852.

Guerra, A. Fernandez. Caida y Ruina del Imperio Visigótico espanol. Madrid, 1883.

Herculano, Alejandro. Historia de Portugal. Lisboa, 1863.

Huici Miranda, Ambrosio. Las Crónicas Latinas de la Reconquista. Valencia, 1913. 2 Vols :

Vol. I, Cronicones burgense, complutense, compostulano, del cerratense, de Don Juan Manuel, albeldense, de Sebastian, de Sampiro, de Pelayo y de Cardeña, y Anales complutenses, compostelanos y toledanos,

Vol. II, Cronicon del Silense y Cronicon de Alfonso el Emperador.

Irving, Washington. Legends of the Conquest of Spain.

Isidiro de las Cagigas. Los Mozárabes. Madrid, 1947 - 1949.

- Los Mudejares, 2 Vols. Madrid, 1948.

Isidoro Hispalense (San Isidoro Arzobispo de Sevilla). Divi Isidori ... Historia de Regibus ... Suevorum. Esp. Sagr. III, IV.

Isidoro Pacence. Vease Crónica.

وقد رجعنا إلى القطعة التى نشرها لافويتى ألكانترا ذيلاً على ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة.

Jacob. Sources of Spanish - Jewish History. New - York, 1894.

Lafuente y Aleántara. Ajbar Machmua. Madrid, 1867.

- Cronologia de los gobernodores de Espana. Apendice III de Ajbar Machmua.

Lafuente y Zamalloa, Modesto. Historia general de Espana desde los tiempos primitivos hasta nuestros dias. 30 Vols. Madrid, 1850 - 1867.

Lammens, H. Etude sur le règne du calife umayyade Mu'awiya Ier. Beyrouth, 1908.

- Le Califat de Yazid Ier. Beyrouth, 1921.

- Etudes sur le siècle des Umayyades. Beyrouth, 1930.

Legendre, Maurice. Nouvelle histoire d'Espagne. Paris, 1938.

Lembke. Geschichte von Spanien. Gotha, 1833.

Lévi - Provençal, E.. Histoire de l'Espagne Musulmane. Paris, 1951.

- L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle. Paris, 1932.

- La Péninsule Ibérique. Leyde, 1938.

- Islam d'occident (Etudes d'histoire midiévale). Paris, 1948.

Llanos, Estansiloa Rendueles. Historia de la villa de Gijon desde tiempos mas remotos hasta nuestros dias. Gijon, 1867.

Lot, Ferdinand. La fin du monde antique et le début du moyenâge. Paris, 1927.

Lucas de Tuy. Cronicon Mundi, Vol. IV de Hisp. ILLustrada derigida por Mariane. pp. I - 116.

Masdeu, J.F. Historia Critica de Espana. Madrid, 1805.

Menéndez Pidal, Ramôn. Historia de Espana. Madrid, 1940.

- La Espana del Cid. Madrid, 1929.

- Origenes del Espagnol. Madrid, 1950.

Menéndez y Pelayo, Marcelino. Historia de los Heterodoxos Espanoles. Madrid, 1946.

Miguel de la Luna. Historia Verdadera del Rey Rodrigo.

Mommsen, Theodora. Auctorum Antiquisimorum, tomus XI, Cronica Minora (Seec IV, V, VI, VII). Berolini, 1893.

Moncaut, Cenat. Histoire des peuples et des Etats pérénéens (3e. éd. 1873).

Monés, Hussain. Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1947.

Neuman, Abraham A. The Jewsin Spain (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes, 1948.

Perles, J. Rabbi Saloma ibn Abraham ibn Aderth. Breslau, 1863.

Primera Cronica General de Espana (ed. Menéndez Pidal). Madrid, 1906.

Ribera, Julian y Tarrago. Disertaciones y Opusculos. Madrid, 1928.

Rodericos Toletanus (Jiménez de Rada, Rodrigo, arzobispo de Toledo). Rerum in Hispania gestarum chronicon en Hisp. Illustr. II. pp. 25 - 194.

Saavedra, Eduardo. Estudio sobre la invasión de los Arabes en Espana. Madrid, 1882.

- Pelayo, Conferencia histórica. Madrid, 1906.

Saint - Saud, Le Conte. Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages. Paris, 1923.

Sala, Julio Samoza Garcia. Gijón en la historia general de Asturias.

Sânchez - Albornoz. Fuentes de la historia hispano - musulmans del siglo VIII. Mendoza, 1942.

Schacht, Joseph. The Origins of Muhammedan Jurisprudence. Oxford, 1953.

Schevenkow, Rudolf. Kritische Betrachtungen ueber die lateingeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.

Simonet, Francisco Javier. Historia de los Mozárabes de Espana. Madrid, 1897 - 1903.

Thomas, W. Arnold. The Preaching of Islam. London, 1935.

Viardot, Louis. Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne. Paris, 1833.

Von Kremer, Alfred. Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.

Weil, G. Geschichte der Islamischen Voelker. Stuttgart, 1866.

Wellhausen, Julius. Das Arabische Reich und Sein Sturtz.

ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان « تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموى » ونشر فى القاهرة سنة ١٩٥٨ .

Wuestenfeld. Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen. Goettingen, 1875.

Yver, George. Euric, roi des Visigoths, dans Etudes d'histoire du moyen - âge dédiées à Gabrial Monod. Paris, 1896.

* * *

الفهارس العلمية

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن والبلدان والجبال
- فهرس التواريخ الميلادية
- فهرس التواريخ الهجرية
- فهرس القبائل والطوائف والمذاهب
- فهرس الكتب والمدونات التى ذكرت فى متن الكتاب

فهرس الأعلام

(أ)

(خ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس الأماكن والبلدان والجبال

(أ)

(ب)

(ت)

(ف)

(ق)

(ن)

فهرس التواريخ الميلادية

فهرس التواريخ الهجرية

فهرس القبائل والطوائف والمذاهب

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

فهرس الكتب والمدونات
التى ذكرت فى متن الكتاب

للمؤلِّف

مؤلفات :

أ ـ تاريخ :

١ ـ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨.

٢ ـ فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

٣ ـ Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.

٤ ـ صور من البطولة (طبعتان ، القاهرة ١٩٤٩و١٩٥٦) .

٥ ـ مصر ورسالتها (طبعتان ، القاهرة ١٩٥٥ و١٩٥٦) .

٦ ـ Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Amsterdam, 1957.

٧ ـ مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الإخشيديين – فصل فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذى تنشره وزارة الثقافة والإرشاد .

٨ ـ نور الدين محمود ، الطبعة الثالثة ، جدة ١٩٨٥.

ب ـ أدب :

١ ـ حكايات خيرستان.

٢ ـ أهلاً وسهلاً .

أبحاث :

١ ـ عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى، نُشِر فى الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

٢ ـ تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس ، نشر فى المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

٣ ـ وثائق عن مهدى السودان ، نشر فى العدد الثانى من المجلد الثانى من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

٤ ـ غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩و٢٤٥هـ / ٨٤٤و٩٥٨م ، نشر فى العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٥ ـ السّيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٦ ـ المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، نشر فى العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٧ ـ المجتمع فى الدستور ، بحث نشر فى كتاب « روح الدستور » وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .

٨ ـ لكى لا ننسى .. هذا صوت التاريخ ، بحث نشر فى كتاب « قناة السويس - حقائق ووثائق » وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .

٩ ـ سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .

١٠ ـ De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid

صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .

١١ ـ Egipto y el Mediterraneo فصل نشر بالإسبانية والفرنسية فى كتاب Panorama del Mundo Arabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية فى مدريد سنة ١٩٥٤ .

١٢ ـ نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .

١٣ ـ أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧.

١٤ ـ La division politico - administrativa de la Espana musulmana

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٥ ـ الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة « المجلة » العدد ٢٣ سنة ١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

١ ـ رياض النفوس لأبى بكر المالكى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

١ ـ الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠و١٩٥٧ .

٢ ـ الشعر الأندلسى لغرسيه غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٢و١٩٥٧.

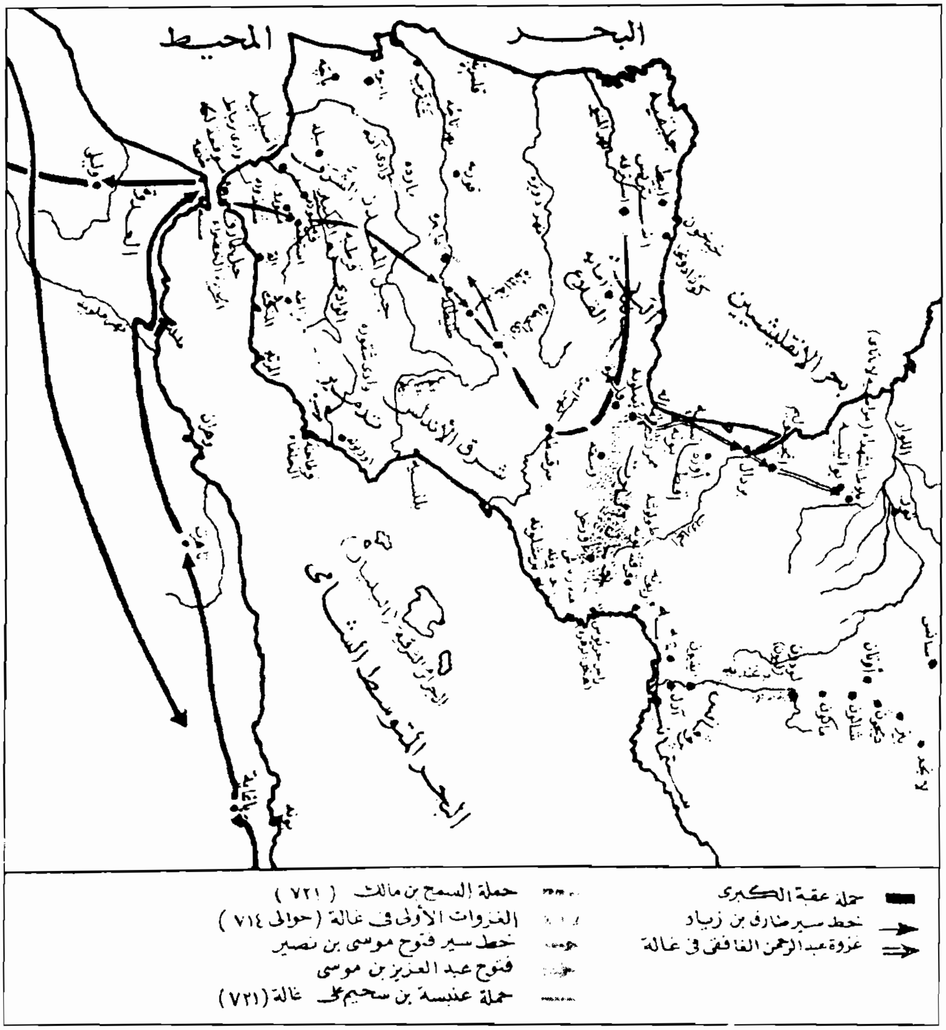
٣ ـ تاريخ الفكر الأندلسى لجونذالذ بالنثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .

٤ـ ثم غاب القمر – مسرحية فى ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is Down لجون شتاينبك ، القاهرة ١٩٥٦ .

فهرس الموضوعات

صفحة

فتوح المغرب الأقصى والأندلس



THE DAWN
OF
AL-ANDALUS

A Study of the history of Muslim spain from the Arab conquest in 711 A.D. till the rise of the Umayyad Emirate of Cordova in 756 A.D.

By
HUSSAIN MONÉS
Professor at the university of Cairo

DAR AL RASHAD